العرب فى أفريقيا

الجذور التاريخية والواقع المعاصر

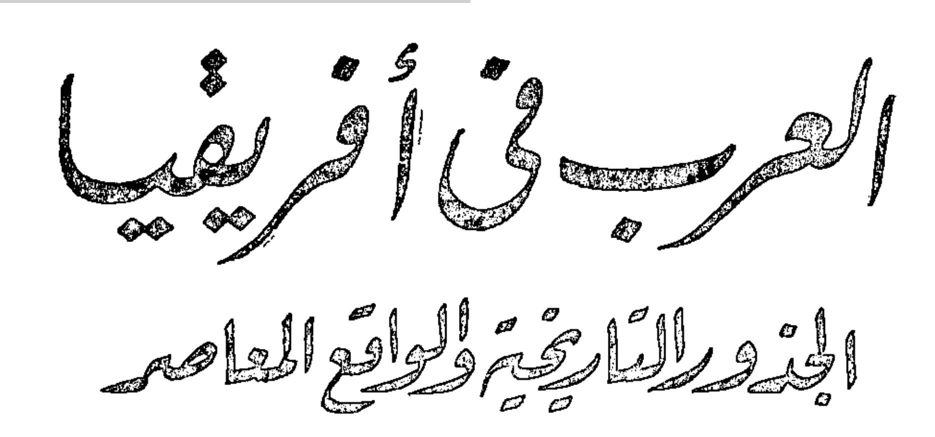
تأليف

دكتور رؤوف عباس حامد

مدرس بقسم التاريخ
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

الناشر
دار الثقافة العربية
٢ شارع [illegible] بالسيدة زينب - القاهرة



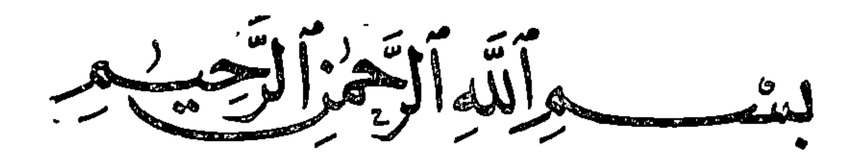
اشراف

دكتور رءوف عباس حامد

مقرر سمنار التاريخ
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م

الناشر
دار الثقافة العربية
٣ شارع المبتديان بالسيدة زينب - القاهرة



Ahmad Sàeed Rizq

تقديم

درج سمنار التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة منذ تأسيسه عام ١٩٨٠ على الاهتمام بتاريخ أمتنا العربية ، وتأصيل البحث فيه ، ورعاية مدرسة علمية تعنى باعداد جيل جديد من الباحثين الذين يغوصون فى أعماق تاريخ أمتهم ، يجلون ما غمض منه بمنهجية سليمة ، واستقراء دقيق لمصادر التاريخ العربى ، واعادة تقييم الحقب البارزة فيه ، والقاء المزيد من الضوء على الحقب التى ألقى عليها التاريخ بظلال كثيفة .

ففى حلقات السمنار نصف الشهرية تلقى بحوث من أساتذة مصريين وعرب وأجانب من مختلف الجامعات يدور حولها نقاش مثمر يشارك فيه الجيل الجديد من شباب الباحثين ، فيتم تبادل الخبرات ، ويتحقق التواصل بين أجيال الباحثين ، وتتسع الحلقات لتشمل بحوثا يلقيها شباب الباحثين ، يتناولها الحضور من الأساتذة المؤرخين بالنقد المثمر والحوار البناء الذى يثرى تلك البحوث ويفيد أصحابها ويعمق تجاربهم .

ولم يكتف السمنار بهذا ، بل حرص على أن يكون احتفاله بمرور خمس سنوات على تأسيسه بعقد ندوة يشارك فيها الباحثون العرب والأجانب حول موضوع « مصر وعالم البحر المتوسط » فى ابريل ١٩٨٥ لقيت نجاحا ملحوظا ، ونشر الجزء الأول من البحوث التى القيت فيها فى كتاب صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر بالقاهرة عام ١٩٨٦ . وكان من بين توصيات تلك الندوة أن يعقد السمنار ندوات مماثلة كل عامين وأن يكون موضوع الندوة الثانية « العرب فى افريقيا » .

وكانت للتوصية مبرراتها التى لا تخلو من قيمة ، فالأمة العربية اكبر الأمم الافريقية على الاطلاق ، اذ يشكل العرب نحو ثلث سكان أفريقيا ، وصنع العرب فى أوطانهم الافريقية حضارة شع نورها فى مناطق كثيرة من القارة الافريقية ، حملها العرب معهم عبر الصحراء الكبرى الى غرب

أفريقيا حيث استطاعت الثقافة العربية والعقيدة الاسلامية أن تكسب مواقع هامة فى غرب القارة ، كما امتدت من مصر عبر وادى النيل الى قلب القارة ، وسطع نورها فى شرق القارة وامتد عبر وسطها الى حوض الكونغو على يد العرب الحضارمة والعمانيين ، وكانت اللغة العربية دائما من أقدم اللغات المكتوبة ذات الأدبيات الرفيعة فى القارة الافريقية ، وظلت الثقافة العربية تحظى بمكان مرموق حتى قدوم الاستعمار الى القارة فبذلت جهود كبيرة من جانب القوى الاستعمارية لاستئصال شأفة الثقافة العربية فى أفريقيا ، وقطع أواصر العلاقات التاريخية العميقة بين الأمة العربية والأمم الافريقية ، وتشويه تاريخ العرب فى أفريقيا .

كما أن العرب والأفارقة تجمعهم هموم مشتركة فى عالمنا المعاصر ، فهم يواجهون معا مشكلات الأمن القومى والتنمية وبناء الدولة القومية وغيرها من مشكلات مرحلة ما بعد الاستقلال . وتربط بين الاثنين مصالح مشتركة تخلق مجالا رحبا للتعاون بين الأمة العربية والأمم الافريقية ، وتتطلب ارساء هذا التعاون على أسس جديدة .

ورغم ذلك كله لم تمن الدراسات العربية الحديثة بأفريقيا عناية كافية ، ولم تنل تجربة العرب فى أفريقيا الاهتمام الواجب من الجامعات ومعاهد البحوث العربية ، لذلك كان لابد أن يتصدى سمنار التاريخ بآداب القاهرة لسد جانب من هذا النقص المعيب بتخصيص ندوته الثانية لدراسة « العرب فى أفريقيا » ، وتم — بعون الله وتوفيقه — عقد الندوة فى المدة من ٤ — ٦ ابريل ١٩٨٧ ، وشارك فيها عدد كبير من المؤرخين وعلماء السياسة والاقتصاد من المعنيين بالعلاقات العربية — الافريقية سواء بتقديم البحوث أو المشاركة فى المناقشات أو المساهمة فى حلقات النقاش الثلاث التى وصلت الماضى بالحاضر ، وألقت الأضواء على الواقع المعاصر للعلاقات العربية الافريقية .

وكانت ثمار تلك الندوة هذه الباقة من البحوث التى تتشرف أسرة سمنار التاريخ بتقديمها اليوم الى القارىء العربى ، لعلها تسد فراغا ملحوظا فى الدراسات العربية الافريقية .

وقد ختمت الندوة اعمالها باصدار التوصيات التالية :

١ — دعوة الجهات والمؤسسات المعنية بالتعاون العربى الافريقى والعلاقات العربية الافريقية الى تيسير سبل نشر الوثائق والبيانات والوصول اليها حتى تتاح للباحثين على مختلف أجيالهم .

٢ — مناشدة المجلس الأعلى للجامعات بتوجيه اقسام التاريخ بالجامعات المصرية الى الاهتمام بتاريخ أفريقيا من حيث تأكيد التراث المشترك بين العرب والأفارقة والمصير المشترك ، وتوجيه الدراسات العليا بالجامعات المصرية نحو اعداد جيل جديد من الباحثين المتخصصين فى الشئون الافريقية .

٣ — الدعوة الى اعادة دراسة وتقييم الأسس والجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية وصولا الى ارساء العلاقات الراهنة على أسس متينة من الفهم المتبادل ، مع توضيح أبعاد القضايا المثارة على الساحتين العربية والافريقية .

٤ — دعم الدراسات الاكاديمية العربية — الافريقية من خلال عرض وتحليل وجهات النظر الافريقية والمشكلات التى تواجه البلاد العربية والافريقية فى واقعها المعاصر ، مع العمل على ابراز ونشر وجهات النظر العربية للرأى العام الافريقى بهدف الوصول الى أرضية مشتركة للفهم المتبادل .

٥ — الدعوة الى ارساء الخطوات القادمة من سبل ومستويات التعاون العربى — الافريقى على اساس المصالح المشتركة وارتباط الأمن العربى بالأمن الافريقى .

٦ — دعوة المنظمات القومية والاقليمية فى الوطن العربى والقارة الافريقية الى تبنى ميثاق عربى أفريقى يهدف الى وقف الصراعات الاقليمية فى القارة لمدة زمنية يتفق عليها ، وتحديد استراتيجية مشتركة للتحرر الوطنى والتنمية .

واذا كانت الندوة قد حققت نجاحا ملحوظا فالفضل كل الفضل يرجع الى كل من ساهموا فى تحقيق هذا النجاح ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء ادارة

كلية الآداب بجامعة القاهرة وعلى رأسها الاستاذ الدكتور عبد العزيز حمودة عميد الكلية الذى شمل الندوة برعايته الكريمة ، وخصص لها الاعتمادات المالية اللازمة .

وما كنا لنحقق هذا النجاح لولا مساهمة بعض الأساتذة الأجلاء فى معاونتنا على تنظيم الندوة وخاصة الاستاذ الكبير الدكتور عبد الملك عودة ، والاستاذ الدكتور على الدين هلال مدير مركز الدراسات والبحوث السياسية بجامعة القاهرة ، والاستاذ الدكتور جودة عبد الخالق أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة ، والاستاذ الدكتور سلوى لبيب رئيس قسم النظم السياسية والاقتصادية بمعهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة ، والدكتور أسامة الغزالى الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام . فبفضل الآراء الحكيمة والعون الصادق الذى لقيناه من أولئك العلماء والاعلام خرجت الندوة فى ثوب قشيب بامكانات مادية محدودة ، فحققت النجاح المرجو ، ولا نملك — باسم أسرة سمنار التاريخ — سوى تقديم أجزل الشكر والعرفان بالفضل لهم جميعا .

كما حظيت الندوة بتعاون صادق من جانب الادارة الافريقية بوزارة الخارجية المصرية وعلى رأسها السفير أحمد حجاج والوزير المفوض محمد شلباية ، فالى سيادتهما نتوجه بالشكر الخالص والامتنان الصادق .

كما ننوه بما بذله شباب أسرة سمنار التاريخ من جهد كبير فى الاعداد للندوة وتنظيمها بعطاء سخى وانكار للذات ، يبعثان الطمأنينة فى النفس على مستقبل العمل العلمى فى هذا البلد الأمين .

والله والوطن العزيز من وراء القصد ..

القاهرة فى ٧ يونيو ١٩٨٧

د. رءوف عباس حامد
مقرر سمنار التاريخ
كلية الآداب — جامعة القاهرة

تاريخ العرب فى أفريقيا
سبيل للتقارب أم للتباعد

للدكتور
جمال زكريا قاسم

على الرغم مما حظى به التاريخ الافريقى من دراسات هامة أسهم فى اعدادها كثير من الباحثين الا أن ما يؤخذ على معظم هذه الدراسات عدم توجيهها عناية كبيرة الى وضع التاريخ الافريقى فى اطاره المنهجى السليم اذ كثيرا ما تأثرت مناهج أولئك الباحثين بأهدافهم المرتجاة عندما يتعرضون لأحد موضوعات ذلك التاريخ حيث يجمعون الحقائق التى تتناسب مع تلك الأهداف ويطرحون جانبا ما يتعارض معها .

ولعلنا نلحظ فى تأملنا للدراسات التى عنيت بتاريخ افريقيا وجهات نظر متباينة فيما يتعلق بذلك التاريخ تبرز من بينها وجهة النظر الاستعمارية التى تبدو واضحة فى كثير من المصادر التاريخية التى وضعت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن الحالى . ورغم القيمة العلمية الكبيرة التى حظيت بها تلك المصادر الا أنها لم تخرج فى غالبيتها عن دراسة استعمار وتقسيم أفريقيا بين الدول الأوربية أو دراسة الانظمة الاستعمارية التى طبقتها تلك الدول فى المناطق التى خضعت لها ، ولذلك فان النقد الرئيسى الذى يوجه الى تلك المصادر يقوم على عدم اهتمامها بتاريخ أفريقيا قبل الفترة الاستعمارية بل وتجاهلها المتعمد فى كثير من الأحيان لما كان يوجد فى أفريقيا من ممالك عربية افريقية أو بأن ما واجهته القوى الاستعمارية من مقاومة كان دليلا على وجود القوى المنظمة فى القارة الافريقية قبل مجىء الاستعمار الأوروبى .

والى جانب وجهة النظر الاستعمارية تبرز وجهة النظر الافريقية التى تتضح فى الكثير من الكتابات التى وضعت عن افريقيا خلال مرحلتى التحرر الوطنى والاستقلال وغالبيتها كانت تعنى بابراز الشخصية الافريقية ومحاولة تعميق انتمائها فى جذور التاريخ الافريقى ومع ذلك فقد تلاقت وجهة النظر الافريقية فى هذه المرحلة ــ من تلاحم حركات التحرر العربى الافريقى ــ مع وجهة النظر العربية حتى وصل الأمر فى مؤتمر اكرا عام ١٩٥٨ ــ وهو أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة ــ الى الدعوة لاعادة كتابة تاريخ افريقيا وتحمس كوامى نكروما رئيس جمهورية غانا بصفة خاصة لهذا الاتجــاه كما رصدت حكومته فى عام ١٩٦٢ الاعتمادات المالية لاصدار موســوعة افريقية خططت على أساس تعميق المفهوم الشامل لافريقيــا وجعلت من الثقافة العربية جزءا لا يتجزأ من تراث القارة الافريقية ثم تحولت فــكرة الموسوعة الى كتابة تاريخ الشخصيات الافريقية البارزة بعد وفاة نكروما وعبد الناصر . غير أن تلك النظرة المتلاحمة بين العرب والافريقيين لم تلبث أن حادت عن طريقها حيث بدانا نطالع العديد من الأدبيات الافريقية المتأثرة بالنزعة الاستعمارية التى نجد فيها تشويها واضحا لتاريخ العرب فى افريقيا يضاف الى ذلك ما عمدت اليه كثير من الدراسات الاستعمارية الى استغلال سلبيات تاريخ العرب فى افريقيا بطريقة طفت على كل ايجابياته ولذا لم يكن من الغريب أن ينظر الافريقيون والعرب الى بعضهم البعض من خلال اعين استعمارية . وترتب على ذلك أن أصبح تاريخ العرب فى افريقيا عبئا على صانعى السياسة المحدثين وعلى دعاة التعاون العربى الافريقى بســبب ما ألقى فى طرقات ذلك التاريخ من شوائب استغلت استغلالا متعمدا لفصم العلاقات بين العرب والأفارقة تلك العلاقات التى برزت بصفة خاصة خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات من ذلك القرن . ومن ثم كانت عنايتنا فى كثير من المؤتمرات والندوات العلمية التى أتيحت لنا فرصة المشاركة فيها خلال هذه الفترة والخاصة بالتعاون العربى الافريقى أو بالعلاقات العربية الافريقية بصفة عامة الى التأكيد بأن أى قرار سياسى أو اقتصادى لن تكون له أدنى فاعلية ما لم يرتكز على قاعدة صلبة تجعل من التجربة التاريخية التى مــر بها العرب والافريقيون مجالا للتفاهم فيما بينهم غير اننا لا نعنى بطبيعة الحال استغلال بعض الحقائق التاريخية وتجاهل بعضها وانما ابرازها جميعــا بمنهج موضوعى تتضح فيه السلبيات فتعالج وتستبين فيه الايجابيات فتدعم

ولعل ما كان يدفعنا الى الالحاح فى تأكيد تلك الدعوة قناعتنا بأن تاريخ العرب فى افريقيا لم يوضع فى اطاره المنهجى السليم ولا يزال فى حاجة الى جهود مكثفة من الباحثين عربا وأفارقة خاصة فى الوقت الذى تكالبت فيه قوى الاستعمار الجديد وبعض بقايا الاستعمار القديم للنيل من التراث العربى الافريقى والذى وصل فيه الأمر الى حد توجيه العديد من الدراسات التى تستهدف فصم الروابط التاريخية بين العرب والأفارقة . وفى مقابل ذلك قد تكون السنوات الأخيرة قد شهدت ظهور بعض الدراسات العربية التى حاولت تعميق الروابط العربية الافريقية وتأصيلها تاريخيا الا أن ما يؤخذ على كثير من هذه الدراسات التحيز الواضح للوجود العربى فى افريقيا والتركيز على جوانبه الايجابية فحسب بل تحمس بعض الدارسين لقوة التفاعل العربى الأفريقى الى الدرجة التى وصلوا بها الى حد الاعتراض على استخدام مصطلحى عرب وافارقة فى القارة الافريقية على أساس أنه لا توجد افريقيا دون عرب كما أنه ليس للعرب وجود مستقل عن القارة الافريقية . واستند أولئك الدارسون فى تدعيم نظريتهم الخاصة بالتفاعل العربى الافريقى الى الدرجة التى وصلوا بها الى حد الاعتراض على الشعوب الى الجزيرة العربية ليس فى شرق افريقيا وحدها وانما فى غرب افريقيا أيضا كما أن اللغة العربية استخدمت كلغة ثقافة لدى كثير من الشعوب الافريقية وبذلك أمكن القول بتفاعل الرباطات اللغوية والثقافية والحضارية بين العرب والأفارقة فضلا عن عدم وجود خصائص سلالية تفصل فيما بينهم وفيما يبدو أن جانبا من هذا الاتجاه كان فى ذهن منظمى هذه الندوة ولذلك عمدوا الى تغيير عنوانها الى العرب فى افريقيا بدلا من العرب وافريقيا وهى التسمية التى أعلن عنها قبل ذلك بعامين .

واذا سلمنا بالنماذج اللغوى والثقافى والسلالى بين العرب والأفارقة فان ذلك التسليم يكون فى حد ذاته كافيا لهدم النظرية التى تستهدف تقسيم افريقيا الى شمال الصحراء وجنوبها والتى تعتمد على انكار تلك الأسس جميعها ومع ذلك فاذا كان دعاة التقسيم يجدون مجالا للجدل فى عمليات التفاعل الحضارى والثقافى والسلالى بين العرب والأفارقة فان موقفهم سيتضاءل تماما اذا ما أخذنا بالمنظور السياسى الذى يتضح فى التداخل بين العالمين العربى والافريقى فهناك تسع دول عربية تقع فى القارة الافريقية

يجمع مواطنوها بين هويتهم العربية والافريقية أو اذا ما أخذنا بالمنظور الجغرافى حيث يسكن العرب الجزء الشمالى من الأراضى الأفريقية وتبلغ مساحة مواطنهم فى تلك القارة أكبر من مساحتها فى آسيا ووصل تعدادهم فى افريقيا الى أكثر من ثلث سكانها وبالتالى فلا يوجد فى افريقيا كلها شعب يدانيهم فى العدد أو يشغل من أرضها قدر ما يشغلونه . ولعل هذه الحقائق الجغرافية والسياسية والديموجرافية والحضارية تقف حائلا أمام دعاة الانفصال من يحرصون على فصم الروابط العربية الافريقية ولذلك لم يبق أمامهم سوى التذرع بالصحراء الكبرى باعتبارها فاصلا بين ما أسموه أفريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء حيث شاعت فى كثير من الدراسات تسميات تدور حول ذلك التقسيم كالقول بافريقيا البيضاء أو افريقيا العربية أو المتوسطية مقابل افريقيا السوداء أو افريقيا الزنجية وقد استخدم الفرنسيون بصفة خاصة تلك التسميات بينما شاعت فى كتابات الانجليز تسميات أخرى تهدف الى التركيز على أن المقصود بافريقيا هى أفريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء حيث شاعت فى كثير من من القارة الافريقية ! ومن المفارقات التى نوردها فى ذلك الصدد أيضا أن افريقيا جنوب الصحراء لم تسلم بدورها من التقسيم اذ يقتطع منها عادة جمهورية جنوب افريقيا التى يطلق عليها اسم افريقيا ذات السيادة البيضاء. وبالاضافة الى ذلك فكثيرا ما تبرز أمامنا مصطلحات عديدة تعتمد اللغة الأجنبية أساسا للتقسيم كالقول مثلا بافريقيا الأنجلوفرنية أو أفريقيا الفرانكوفونية وغيرها وقد ظهرت تلك المصطلحات نتيجة للاستقطابات الثقافية التى تمت خلال عملية الاحتواء الحضارى التى قامت بها الدول الأوروبية والتى كانت تستهدف عزل المثقفين الافريقيين عن افريقيا العربية بنفس قدر عزل المثقفين العرب عن الثقافات الافريقية . وعلى الرغم من تلك التقسيمات العديدة التى تظهر واضحة فى كثير من الدراسات الا أن الحقائق التاريخية تؤكد بما لا يدعو مجالا للشك أن الصحراء الكبرى كانت وسيلة للترابط ولم تكن وسيلة للانفصال فى كثير من عصور التاريخ . ولعل مما يستلفت الانتباه أن معظم الدراسات التاريخية بما فى ذلك الدراسات الأجنبية قد أكدت على وحدة القارة الافريقية وذلك قبل أن تظهر فكرة تقسيم القارة بعد الحرب العالمية الثانية فقد عنى سلجمان فى عشرينيات ذلك القرن بتتبع الصلات الحضارية بين مصر الفرعونية وافريقيا جنوب الصحراء

وتبعه كثير من الدارسين الذين اهتموا بابراز تأثير الحضارة المصرية فى الحضارات التى ظهرت فى غرب افريقيا كما دلل بدفيل بالحقائق التاريخية والجغرافية على أن الصحراء الكبرى كانت عاملا هاما من عوامل الاتصال ولم تكن عاملا من عوامل الانفصال واستند فى ذلك على ما يتخللها من مسالك ومفاوز ودروب استخدمتها القوافل العربية التى نشطت فى تحركاتها من الشمال الافريقى الى ما وراء الصحراء الكبرى . على أن هذه النظرة التى وثقت الصلات بين افريقيا الشمالية وافريقيا جنوب الصحراء لم تلبث أن تضاءلت بعد الحرب العالمية الثانية واتجهت اتجاها معاكسا وكان ذلك رد فعل لمـــا حدث من تلاحم بين حركات التحرر الوطنى والاستقلال فى العالمين العربى والافريقى فعلى سبيل المثال رفضت جامعة السوربون فى أوائل الخمسينات رسالة تقدم بها استاذ سنغالى يدعى انتاديوب للحصول على درجة علمية ذهب فيها الى أن حضارة مصر القديمة انما هى حضارة افريقية صميمة وجاء فى رسالته أيضا ان لغة الولوف فى السنغال لغة وثيقة الصلة باللغة المصرية القديمة . كما ظهرت انتقادات شديدة لما ذهب اليـــه قس نيجيرى يدعى لوكاس من وجود ألفاظ مصرية قديمة فى ديانة شعب اليوروبا على الرغم مما ذهب اليه للتدليل على صحة رأيه بايراد معجم للالفـــاظ المصرية التى لا تزال متداولة الى اليوم بين شعب اليوروبا . واذا كان هناك ثمة جدل كبير حول الصلات القديمة بين شمال الصحراء وجنوبها فان ذلك الجدل سوف ينهار حتما بعد تأسيس مدينة القيروان فى منتصف القــرن الأول الهجرى لمـــا سيترتب على ظهورها تعميق الصلات الاقتصادية والثقافية بين افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء . وعلى الرغم من ذلك فان دعاة التقسيم يتجاهلون الحقائق التاريخية بل انهم قد يقعون فى تناقض صارخ حين يدعون أن افريقيا المتوسطية لم تقم بدور يذكر فى تاريخ القارة الافريقية باستثناء الجهود التى قامت بها بعض شعوب البحر المتوسط فى حركة الاستكشافات البحرية الكبرى وواضح أن تلك المقولة قد تجاهلت عن عمد ما قام به الشمال الافريقى من نقل المؤثرات العربية والاسلامية الثقافية والحضارية عبر الصحراء الكبرى الى غرب القارة الافريقيـــة ودواخلها . وهناك من الدراسات التى حرصت أيضا على ايجاد انطباع فى ذهن قارئها عن سلبية الاتصالات بين العرب والأفارقة ومن ثم بالغت فى ترويج ما اسمته بالتجارة الصامتة Silent Trade التى كانت تقوم بين شمال الصحراء وما ورائها حيث خصصت لدعم تلك النظرية دراسات كثيرة .

وعلى الرغم من ضرورة التصدى لتلك الدعاوى الانفصالية الا أنه ينبغى أن نشير هنا الى أن المنهج الموضوعى لا يفترض بطبيعة الحال أن تعالج افريقيا كوحدة تاريخية على اطلاقها كما لا يعترض فى نفس الوقت على تقسيم افريقيا ولكن بشرط أن يستفاد من ذلك التقسيم فى استخراج الأنماط الحضارية او التاريخية أو الاقتصادية وبشرط الا يكون من وراء ذلك التقسيم هدف يرمى الى تمزيق القارة أو اضعاف الروابط بين اجزائها أو محاولات متعمدة لفصل العرب عن بقية القارة الافريقية .

ولعل مما يستلفت الانتباه أن فكرة تقسيم القارة وان كانت قد ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كما سبق أن أوضحنا الا انه لم يلبث أن عاد التركيز عليها خلال العقدين الأخيرين وكان ذلك رد فعل لسقوط الدعاوى الانفصالية على المستويات التاريخية والجغرافية والسياسية بعد أن أصرت دول القارة الافريقية على التعامل فيما بينها على مستوى وحدة القارة وظهر ذلك واضحا فى تأسيس منظمة الوحدة الافريقية فى عام ١٩٦٣ كما برز ايضا على المستوى الأكاديمى الدولى حين تبنت هيئة اليونسكو فى عام ١٩٦٤ مشروعا لاعادة كتابة تاريخ افريقيا ركز فى خطته على ضرورة النظر الى افريقيا ككل وتجنب التمييز بين افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء . ومما هو جدير بالاهتمام أن حرب اكتوبر ١٩٧٣ كان لها أثر كبير فيما يتعلق بتوثيق الروابط العربية الافريقية حيث عبرت افريقيا الصحراء نحو الشمال لتتداخل وتتلاحم مصيريا مع العرب وبالتالى اختفت الصحراء كفاصل أو كعازل سياسى بين افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ولذلك حين برز التعاون العربى الافريقى فى أعقاب تلك الحرب وخلال حقبة السبعينيات كان من الطبيعى أن يستغل أعداء ذلك التعاون الدعاوى الانفصالية للتشكيك فى الروابط العربية الافريقية حتى أن فلسفة الزنجية لم تلبث بدورها أن حادت عن طريقها فبعد أن كانت طريقا للاتحاد ضد الاستعمار والامبريالية تحولت الى دعوى للتقسيم والتفرقة لخدمة المصالح الاستعمارية بعد أن وقع كثير من دعاتها تحت تأثير كتاب الغرب، الذين روجوا مقولة جاء فيها أن تجارة العرب فى الرقيق كانت المعول الذى عدم افريقيا السوداء وهكذا انحرفت الزنجية عن مسارها فبينما كانت فى نشأتها تعد ثلاثينيات ذلك القرن ردة فعل افريقية ضد الاستعمار الأوربى وتجارة الرقيق الاطلنطية أصبحت ردة

فعل لتجارة الرقيق العربية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهنـــــدى بل أصبحت ردة فعل للوجود العربى فى أفريقيا ولم تعد نظرة الافريقيين للعرب أكثر من كونهم عناصر أجنبية وفدت على افريقيا وأن العرب المسلمين لبس شأنهم أكثر من شأن الأوروبيين المسيحيين بل أن صورة العرب والاســلام أصبحت أكثر ارتباطا فى ذهن الافريقى بصورة العبودية والاستغلال وتجارة الرقيق وفضلا عن ذلك فقد وجهت الأدبيات الزنجية الانتقـــادات اللاذعة لمسئولية العرب عن المصير التاريخى السيء الذى وصلت اليه القارة الافريقية أو بمعنى أوضح مسئولية التجريد السياسى والاقتصـــادى لامبراطوريات افريقية كبيرة . وقد يكون حقيقة أن تلك المواقف السلبية لا تعكس كل الضمير الافريقى ازاء العرب الا انه لا ينبغى فى نفس الوقت اهمال ردود أفعـــال الصفوة الافريقية ضد كافة أشكال الهيمنة السياسية وكافة عمليات الاستيعاب الثقافى التى تعرضت لها القارة الافريقية حتى أنها تعتبر الاستعمار الأوربى وما تطلق عليه (الغزو العربى) وجهان لعملة واحدة .

ومع ذلك فليس مجالنا فى هذه الورقة الاشارة الى مختلف التجارب الطيبة أو المؤسفة التى عاشتها الشعوب الافريقية خلال اتصالاتها بالعرب أو المسلمين على مر القرون ولكننا سنقتصر فى هذا المجال على ابراز بعض أوجه المقارنة بين العلاقات العربية الافريقية والعلاقات الأوربية الافريقية فبينما تكشف لنا الدراسات التاريخية المتأنية للعلاقات العربية الافريقيـــة عن ظهور حضارة عربية افريقية واضحة المعالم نؤكد لنا الحقائق التاريخية ما اتسمت به العلاقات الأوربية الافريقية من شتى أنواع الاستغلال المادى والبشرى .

وعلى الرغم من أننا لا نتمشى مع كثير من الدراسات العربية التى بالغت فى عروبة الكينونات التى أقامها العرب فى أفريقيا وخاصة فى ســـاحلها الشرقى فى الفترة السابقة للعصر الاستعمارى الا أن الأمر الذى لا شـك فيه أن القارة الافريقية شهدت ازدهارا حضاريا فى الفترة التى سـبقت اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وسيطرتهم على ســـواحل شرق أفريقيا وترتب على الاستعمار البرتغالى شيوع التخلف والركـــود الاقتصادى فى القارة الافريقية ولعل مما يسترعى الانتباه أن حالة التخلف والركود التى تعرضت لها القارة الافريقية كانت انعكاسا لمـــا حدث فى

المنطقة العربية ذاتها بفعل ذلك المؤثر نفسه ونعنى به الاستعمار البرتغالى ولعل هذه الملاحظة يمكن أن نجد لها ما يدعمها بعد ذلك فى القرن التاسع عشر حين نجد أن حركات اليقظة التى حدثت فى العالم العربى قد أحدثت انعكاساتها على بعض المناطق الافريقية وهكذا يمكن القول بصفة عامة ان المصير التاريخى بين العالم العربى والافريقى وصل فى كثير من الأحيان الى درجة التطابق الذى بلغ أكثر وضوحا حين تكالبت القوى الاستعمارية والامبريالية على العالمين العربى والافريقى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كما يمكننا أيضا ملاحظة التلاحم العربى الافريقى فى المواجهة التى قامت ضد الاستعمار البرتغالى لشرق افريقيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وضد القوى الامبريالية فى كثير من الأقطار الافريقية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولعل ذلك التلاحم يوضح لنا الدوافع التى دفعت بالقوى الامبريالية الى ادراك أهمية تفكيك الروابط بين الفريقين وهو أمر بدى واضحا فى تفكيك بريطانيا والمانيا للسلطنة العربية الافريقية فى زنجبار وفيما اتجهت اليه القوى الاستعمارية وبخاصة بريطانيا لتجريد مصر من المناطق التى امتدت اليها فى القارة الافريقية وعلى الرغم من الدور الحضارى الذى قامت به كل من مصر وزنجبار فى المناطق التى امتدت اليها حتى أن دولة الكونغو الحرة على سبيل المثال قد اعتمدت فى بناء هيكلها الاقتصادى على التنظيمات الاقتصادية التى أقامها التجار العرب فى أعالى الكونغو بعد ان عصفت بالوجود العربى فى تلك الانحاء الا ان الكتابات الاستعمارية تحاملت على دور العرب الحضارى والاقتصادى باعتباره نمطا استعماريا قامت به القوى العربية ضد الشعوب الافريقية ولا نجد أمامنا أبلغ رد على تلك الاتهامات أكثر مما ذكره جرينفيل وزير الدولة فى حكومة باتريس لومبا الذى كتب يقول « لقد زور البلجيكيون كل شىء فى الكونغو فليست مدينة ستانلى فيل سوى مدينة تيبوتيب التى أقامها ذلك التاجر العربى قبل قدوم الرحالة ستانلى وليس العرب — كما قالوا لنا — تجار رقيق وانما هم تلك الموجة الانسانية التى اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة وليس أعز علينا شىء سوى هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى كما سال ويسيل دمنا الآن فى بلادنا على أيدى نفس أعداء العرب فى القرن الماضى » وتصل الخطورة بالنسبة لمصر الى محاولة بعض المصادر تبرير التوسع

المصرى فى افريقيا باعتبار أن مصر فى توسعها هذا لم تكن مسئولة تاريخيا بسبب خضوعها للحكم التركى وهو تبرير خطير فى تقديرنا لأن الأخذ به معناه التجاهل التام لمسئولية مصر الحضارية فى القارة الافريقية .

ولا تكتفى المصادر الاستعمارية بالتركيز على ما اسمته بالغزو العربى لافريقيا فى القرن التاسع عشر بل ينسحب ذلك أيضا على علاقة العرب بالقارة الافريقية فى الفترة السابقة للاستعمار الأوروبى وتهدف هذه المصادر للوصول الى نتيجة مؤداها أن العرب والمسلمين دخلاء على افريقيا وعلى ذلك فليس هناك فرق بين (استعمار عربى) واستعمار غربى الا أن الأخير جاء بمدنية متفوقة وحضارة متقدمة ولعل من اليسير الرد على هذه المقولات أنه بينما كانت الحضارة العربية مصدر اشعاع فكرى للشعوب الافريقية التى احتكت بها فان النهضة الأوربية الحديثة قامت على اضعاف المقومات الافريقية ويكفى تدليلا على ذلك بتلك الملايين من الأفارقة الذين انتزعوا من بلادهم للعمل فى مزارع العالم الجديد خلال الفترة من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . ومع ذلك فان المصادر الاستعمارية تتغاضى عن تلك الحقائق وتركز على دور أوربا فى تحضير القارة الافريقية واكتشافها برغم أن أوربا لم تستطع أن تصل الى دواخل القارة الا باعتمادها على سجلات العرب ومدوناتهم والكثير من تلك المصنفات ترجم الى اللغات الأوروبية المختلفة كما اعترف رواد حركة الكشف والارتياد الأوربى بالدور الرائد الذى قام به العرب فى التعرف على الأجزاء الداخلية من افريقيا ولم يجرؤ واحد من أولئك المستكشفين على التوغل فى القارة الافريقية الا بالاعتماد على طرق القوافل العربية وعلى المراكز التجارية والحضارية التى انشأها العرب على طول خطوط القوافل كما استعان كثير منهم أيضا بالأدلاء العرب فى عملياتهم الاستكشافية التى لم تكن فى حقيقتها كشفا وانما تسجيلا علميا لمناطق كانت معروفة — بطبيعة الحال — لدى سكانها من العرب والافريقيين . وليس من شك فى أن الدراسة الموضوعية تستطيع بسهولة أن تدفع جانبا مما تعطيه المصادر الاستعمارية من انطباع مؤداه أن النشاط العربى فى افريقيا كان بمثابة غزو استعمارى يستهدف فى الدرجة الأولى عمليات التسلط والاستغلال ولا تزال تلك المقولات تستخدم حتى الوقت الحاضر ضمن الجهود الرامية الى فصم الروابط العربية الافريقية

كالدعوى على سبيل المثال أن العرب يمثلون استعمارا جديدا فى افريقيا أو أن هدفهم لا يزال كما كان عليه الحال قديما وهو نشر الاسلام ومحاربة الأديان الأخرى بل قد يصل الأمر الى تشكيك القيادات الافريقية المسيحية وخاصة فى الدول الافريقية التى تسكنها مجموعات اسلامية كبيرة العدد ولعل ما يدحض تلك المقولات تشابه المصير العربى مع المصير الافريقى خاصة فيما يتعلق بالسمات المشتركة فى نضال العرب والافريقيين لمواجهة قوى الاستعمار القديم والجديد وحاجة كل فريق الى دعم ومساندة الفريق الآخر سياسيا واقتصاديا ولعل مما ينفى فكرة الاستعمار عن العرب أنه لم تكن لديهم فى حقيقة الأمر تلك النظرة فى علاقتهم بالشعوب الافريقية التى اختلطوا بها فعلى امتداد عدة قرون من تاريخ العرب فى افريقيا امتزجت الثقافة العربية بالثقافات المتعددة للشعوب الافريقية أو فيما يطلق عليه علماء الاجتماع التداخل الحضارى بين الثقافات المتعددة Acculturation وهو أمر أسفر عن ظهور ثقافة عربية افريقية واضحة المعالم بعد أن وجدت كثير من الشعوب الافريقية فى ذلك المزيج المركب أساسا لبناء مستقبلها السياسى والاجتماعى هذا فضلا عن توغل العرب واندماجهم فى الشعوب الافريقية وما ترتب على ذلك من ظهور جنس يجمع الكثير من الصفات العربية والافريقية بل أن اللغات الافريقية نفسها أصبحت تجمع فى مفرداتها وتراكيبها بين العربية والافريقية كما نشأت حضارة عربية اسلامية لها طابع افريقى وكان لأثر هذه المشاركة جانب ايجابى وهو ذلك الميراث الثقافى والدينى الذى منحه العرب للافارقة وامتزاجه مع ما كان قد تهيأ لهم من حضارة وثقافة خاصة بهم على امتداد التاريخ . وقد يكون من المفيد فى هذا المجال التركيز على أن العرب لم يفرضوا على الافريقيين ثقافتهم كما فعل المستعمرون وانما حافظوا على الثقافات الافريقية كما لم يقم العرب بهدم المؤسسات المحلية عند دخولهم بل أن تلك المؤسسات اتخذت أشكالا جديدة وبدا السكان الأصليون فى تكييف أنفسهم على التعاليم الجديدة وطبقا لما يذكره بعض الدارسين أن ما حدث فى الحقيقة هو أنه عندما تقابل العربى مع الافريقى فى موطنه حدث اندماج صحى وليس نوعا من الامتصاص أو القمع التعسفى غير المناسب ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة بقاء اللغات واللهجات الافريقية الى جانب اللغة العربية التى احتفظت بمركزها كلغة للثقافة والتعامل ولا ينفى ذلك أن كثيرا من المفردات العربية دخلت اللغات

واللهجات الافريقية أو أن هذه اللغات قد دونت بالحرف العربى فان هذا التداخل انما يتضمن دليلا على التفاعل والامتزاج الثقافى وفى ذلك الصدد يؤكد بومان وزميله وشرمان فى كتابهما افريقيا وحضاراتها التدوين بالكتابة العربية بعد دليلا على الذكاء الفطرى والطاقة العقلية عند الشعوب السوداء فى القارة الافريقية بل أن اللغة العربية فى عملية التمازج هذه لم تجد بدا من أن تقتبس بعض المفردات من تلك اللغات ولم يكن قيام الافريقيين بتدوين عدد من لغاتهم المحلية بالابجدية العربية المأثرة الوحيدة التى خلفوها لنا فى الفترة السابقة للاستعمار كما لم تكن النتيجة الوحيدة التى أسفرت عن وضوح المؤثرات العربية بل شارك الافريقيون فى الدراسات العربية الاسلامية وازدهرت مواطن كثيرة لها فى بلادهم ونبغ من الأفارقة الكثيرون فى الفقه والأدب والتاريخ ومختلف العلوم الاسلامية ويؤكد لنا ذلك آلاف المخطوطات التى نقل الأوروبيون الكثير منها الى مكتبات بلادهم ولعل مما تجدر الاشارة اليه بصدد ذلك أن هناك شعوب كثيرة قد أسهمت فى بناء صرح الثقافة العربية الاسلامية وكان للشعوب الافريقية دور فى ذلك أيضا وقد تكون اضافاتهم دون اضافات غيرهم ولكن هذا التصور يرجع فى تقديرنا الى أن الثقافة العربية وصلتهم متأخرا ومن ثم اقتصر دورهم فى المحافظة عليها والعمل على نشرها فى الوقت الذى كانت تواجه فيه خطر التدهور والانهيار منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ومما يسترعى الانتباه أيضا أن العرب تفاعلوا ثقافيا وسلاليا مع الأفارقة وتم ذلك التفاعل عن تراض واقتناع اذ لم يعرف عن العرب ممارسة العنصرية أو كراهيتهم أو اضطهادهم للافريقيين وذلك على عكس المستعمرين الأوربيين الذين عملوا على فرض ثقافتهم ولغتهم على الافريقيين ولم يندمجوا معهم وانما على العكس من ذلك كونوا مجتمعات بيضاء متعالية تعزل الافريقيين وتحول بينهم وبين ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية كما يظهر ذلك واضحا فى جنوب افريقية وكينيا وروديسيا وغيرها . وينبغى الاشارة هنا أيضا الى أن الاستعمار الأوربى وجد فى الثقافة العربية والاسلامية أكبر معوق له لنشر نفوذه فى القارة الافريقية ولعل ذلك مما دفع بانجلترا الى فصل جنوب السودان عن شماله وكذلك ما عمدت اليه فرنسا من اتخاذ أساليب التعليم والتبشير أدوات لنسف جسور العروبة والاسلام فى المناطق التى آلت اليها فى شمال وغرب افريقيا وأكثر من ذلك عمد كثير من الباحثين الاوروبيين فى فروع

الانثروبولوجيا والاستشراق والاستغراق الى دراسة المجتمعات الافريقية توطئة لخدمة الأهداف الاستعمارية متخذين من التبشير والتغريب والتحديث عوامل لفصل شخصية الافريقيين عن ماضيهم وتراثهم تمهيدا لاستغلالهم ماديا وبشريا والهيمنة عليهم سياسيا وفكريا وقد يكون حقيقة أن جهود أولئك العلماء والذى يبرز من بينهم ليفى بروفنســـال ورينيه باسيه وهويداس وترمنجهام وغيرهم كثيرون قد ادت خدمة للشعوب الافريقية وذلك بما أحيت ما اندرس من التراث الافريقى وبما تم تجميعه وتدوينه من تراث متناقل الا أنه مع ذلك لا ينبغى أن تبعدنا تلك الانجازات عما استهدفه من مسخ الثقافة الافريقية وتشويه معالمها بالاضافة الى ما تعهدته من تشويه تاريخ العرب والاسلام فى افريقيا ومن ذلك مثلا ما عمدت اليه بعض المصادر من التاكيد بأن الأثنى عشر قرنا من الصلات بين العرب والأفارقة كانت غير متماثلة اذ اخترق العرب افريقيا جنوب الصحراء واستعبدوا سكانها وفرضوا دينهم وثقافتهم فى الوقت الذى لم يقم فيه الأفارقة باختراق مضاد للمنطقة العربية وكذلك الحال بالنسبة لشرق أفريقيا التى سيطر عليها العرب وأنشأوا بها عدة مستعمرات عربية وذلك على نحو ما ذهب اليه السير ريجنالد كوبلاند فى كتابه الذى أطلق عليه شرق افريقيا وغزاتها حيث اعتبر العرب عنصرا من العناصر الغازية أو المستعمرة ولعل ذلك مما دفع بعض المهتمين بالعلاقات العربية الافريقية الى محاولة تعديل تلك الصورة بالدعوة الى التركيز على دور الأفارقة فى العالم العربى سواء بعلاقتهم بالجزيرة العربية قبل الاسـلام أو بتاريخ الزنوج فى البلاد العربية واستخدامهم فى الجيش العبـــاسى والثورات التى قاموا بها والتى تبرز من بينها ثورة الزنج بين عامى ٨٦٩ و٨٧١ والتى نجحوا بها فى السيطرة على البصرة وجنوب العراق عـــدة سنوات .

على أن الأمور الأشد خطورة ما تهدف اليه الدعاوى الاستعمارية من خلق انطباع لدى الأفارقة بأن الاسلام انتشر بينهم بحد السيف وواضح أن تلك الدعاوى كانت تستهدف فى الدرجة الأولى الى التمهيد لدور المستعمر وذلك بترسيخ القناعات التاريخية لدى الافريقيين بأن المجتمعات الافريقية مجتمعات مستكينة خاضعة والحقيقة أن الاسلام انتشر فى افريقيا بصـفة عامة انتشارا سلميا وحدث ذلك عن طريق التجار سواء من العرب أو البربر

ولم يلبث أن تولى نشر الاسلام الافريقيون أنفسهم وفضلا عن ذلك فان الاسلام لم ينتشر فى طبقة اجتماعية واحدة وانما جاء انتشاره شاملا لكل طبقات المجتمع بمعنى أنه لم يكن دينا للطبقة المسيطرة وبالتالى يبقى ببقائها ويذهب بذهابها وبالاضافة الى ذلك تذهب المصادر الاستعمارية ومن حذا حذوها الى ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأن العرب والمسلمين هم الذين خربوا عمران افريقيا ودولها ومن الأمثلة التى تساق دائما بصدد ذلك اجتياح المرابطين لدولة غانا ١٠٦٧ م وغزو السعديين لدولة الاسكيين بسنغاى فى عام ١٥٩١ م والحقيقة التى لا مراء فيها أن الاسلام كان قد انتشر فى غانا انتشارا سلميا قبل أن يجتاحها المرابطون ويؤكد ذلك أن المؤثرات الثقافية العربية والاسلامية كانت واضحة فى مملكة غانا الوثنية قبل سقوطها اذ كان فى عاصمتها كمبى كما يروى لنا البكرى أحياء ومساجد خاصة بالمسلمين حيث اعتاد التجار من الشمال الافريقى أن يجتمعوا فى تلك الأحياء بل وتشير بعض المصادر العربية الى أن التجار العرب أخذوا يحتلون مراكز عليا فى مملكة غانا كالوزراء والكتاب . أما ما تركز عليه بعض الدراسات من اعتبار غزوة المنصور الذهبى لمملكة سنغى السبب فى تدهور أوضاع غرب افريقيا حضاريا واقتصاديا فان تلك الأوضاع كانت قد تدهورت بالفعل قبل حدوث تلك الغزوة وذلك بسبب ما نجم عن اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح من تدهور الأوضاع الاقتصادية فى منطقة البحر المتوسط ومن ثم فقدت منطقة غرب افريقيا ما كانت تعتمد عليه من مقومات اقتصادية وثقافية كانت تفد اليها من الشمال وبذلك لم تكن الغزو المغربية الا بمثابة اسدال الستار على تلك الحقيقة المزدهرة التى عاشتها المنطقة من قبل . وقد يكون من المناسب أن أشير هنا الى ما واجهته شخصيا من اعتراضات أحد الأساتذة الافريقيين الذين وضح تأثرهم بالمنهج الاستعمارى أو الشيفونية الافريقية على بعض الآراء التى أولعت بها فيما يتعلق ببعض تلك الموضوعات فى حلقة دراسية عقدت بداكار فى عام ١٩٨٤ وكانت خاصة بدراسة العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية حيث أصر على أن انتشار الاسلام فى أفريقيا كان فيه القضاء على التطور الطبيعى للاديان الافريقية التقليدية وأفقد الافريقيين شخصيتهم وفضلا عن ذلك فقد قضى المسلمون على الكثير من الممالك الافريقية التى كان من الممكن لها أن تتطور تطورا طبيعيا وقد يكون حقيقة أن انتشار الاسلام فى افريقيا قد قضى بالفعل على كثير من الديانات

الطبيعية ولكنه مهد فى نفس الوقت لظهور ديانة عالمية أعطت للافارقة الكثير
وقد يكون حقيقة أيضا أن المسلمين قضوا على بعض الممالك الافريقية كما
حدث فى اسقاط مملكة غانا الوثنية ولكن ذلك مهد الطريق لظهور ممالك
اسلامية افريقية كانت أكثر حضارة وثراء من مملكة غانا اذ أنه رغم ما وصلت
اليه تلك المملكة من ثراء ومن درجة عالية من التنظيم السياسى والاقتصادي
والاجتماعى والعمرانى الا أنها لم تتعدى مع ذلك نطاق الاقليمية الضيقة
والقبلية المحدودة ومن ثم كان لحركة المرابطين رغ مما صاحبها من عنف أثر
كبير فى تقريب منطقة غرب افريقيا الى منطقة البحر المتوسط لكى تتأثر بها
ثقافيا واقتصاديا وحضاريا كما أن الغزوة المغربية على سنغى لم تكن فى
فى تقديرنا سوى محاولة بائسة لتوحيد القوى العربية والافريقية لمواجهة
التحديات التى كانت متمثلة فى ذلك الوقت فى الضغوط الاسبانية والبرتغالية
وذلك بالاستعانة بالموارد الافريقية فى تقوية الجهة العربية الافريقية ولا يعنى
ذلك اغفالنا الاثار السلبية التى ترتبت على تلك الغزوة من الفوضى
والاضطراب وعزل المنطقة عن الشمال الافريقى .

ولعل من أكثر الأمور اثارة ما تعمد اليه بعض الدراسات الاستعمارية
من ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأن العرب هم الذين استعبدوا أجدادهم
وقد اشتدت تلك الحملات ضد العرب فى السنوات الأخيرة فى الصحافة
ووسائل الاعلام والأجهزة التى تعمل لحساب الشركات الاستغلالية بهدف
النيل من التعاون العربى الافريقى ومن الأسف أن الباحثين العرب والأفارقة
لم يتصدوا بجدية لتلك الحملات اذ لم تظهر دراسات موضوعية — عربية
أو افريقية — تواجه تلك الاتهامات بل أصبحنا نجد من بين المثقفين العرب
أو دعاة الزنجية من الأفارقة من أصبح يردد تلك المقولات كأن تجارة الرقيق
والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم من البشر ولعله من نافلة
القول الاشارة هنا الى أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق فى أفريقيا أكثر من
أربعة قرون تعرضت القارة الافريقية خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى الى
اضعاف تماسكها مما سهل مهمة الحركة الامبريالية فى السيطرة عليها و اذا
كانت الحقائق التاريخية تؤكد لنا أن كلا من العرب والاوروبيين عملوا فى
تجارة الرقيق فان التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة الرقيق وفى مسئولية
نزح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية لتعمل فى أرض الغربة حتى

اننا لا نعنى بذلك التساؤل أن نقف موقفا تبريريا أو اعتذاريا فيما يتعلق بتجارة العرب فى الرقيق وانما نعنى فى الدرجة الأولى ارجاع الأمور الى ظواهرها وأصولها الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن ملابساتها التاريخية مع تسليمنا فى الوقت نفسه أن الاسترقاق هو الاسترقاق سواء صغر أم كبر حجمه وسواء حسنت أم ساءت أساليبه وان كان ذلك لا يمنعنا فى نفس الوقت من دحض ما روجته المصادر الاستعمارية من أن القطاع الجغرافى من العالم القديم كان بمثابة سوق كبير يحتاج الى أعداد ضخمة من الرقيق اذ أن هذه المصادر فى تقديرنا لم تفرق بين الرق فى العالم العربى والعالم الغربى فعلى حين اتخذ الأوروبيون والامريكيون من الرق نظاما اقتصاديا فانه كان يشكل عند العرب على الأغلب نظاما اجتماعيا كما انه ليس حقيقيا ما ذهبت اليه بعض الدراسات الاستعمارية من أن تجارة الرقيق كانت هى السمة التى اتصف بها النشاط الاقتصادى للعرب اذ أن سوق الرقيق فى العالم العربى كان محدودا وسهل التشبع اذا ما قورن بسوق لرقيق الغربى وفضلا عن ذلك فان الرجوع الى المصنفات العربية التى كتبت عن افريقيا يمكن بسهولة أن نتعرف على المنتجات الافريقية التى كان يقوم العرب بالاشتغال بها أو بالمبادلة عليها غير الرقيق وفضلا عن ذلك فقد تعمدت المصادر الاستعمارية التركيز على الجوانب السلبية فيما يتعلق بالتبادل التجارى بين العرب والافريقيين اذ أن مجىء السفن الشراعية من سواحل الخليج والجزيرة العربية الى سواحل شرق افريقيا لم يكن يجلب التجار والنخاسين فحسب وانما كان يجلب الرخاء الاقتصادى والازدهار الحضارى الذى ظهر فى تأسيس العديد من المدن والممالك والسلطنات العربية الافريقية على طول السواحل الشرقية الافريقية وهى التى أشاد بها الرحالة المسلمون والتى دهش لها البرتغاليون أنفسهم حين وفدوا الى تلك السواحل . كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء الكبرى نشوء العديد من الممالك والحواضر الاسلامية كشنقيط وتمبكتو وغانا ومالى وسنغى وكانم وبرنو وغيرها. وبينما كانت تجارة الرقيق العربية تقوم على جهود فردية فان تجارة الرقيق الاوروبية اعتمدت على تأسيس الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التى ضيقت الخناق على القارة وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بالموت الاسود الذى اجتاح أوربا فى القرن الرابع عشر الميلادى فقضى على ما يقرب من ثلث سكانها بل كانت تلك التجارة أسوأ لأن نتائجها

الاجتماعية ورواسبها النفسية كانت أقسى من ذلك الوباء الاسود الذى انقضى وانقضت معه آثاره . ولعل ما تجدر الاشارة اليه فى هذا المجال أن الدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا قد استغلت تجارة العرب فى الرقيق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لكى تتغلغل استعماريا فى القارة الافريقية بدعوى القضاء على تلك التجارة فى مصادرها الداخلية ومن ثم أخذ الرحالة الأوروبيون يهولون من تجارة العرب فى الرقيق بهدف اثارة الرأى العام الأوروبى وكان من نتيجة ذلك أن مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ الذى عقد اساسا لتقسيم القارة الافريقية بين الدول الاستعمارية قد أشار فى ميثاقه الى مسئولية الدول الأوروبية فى حمل رسالة الحضـــارة الى أفريقيا واثنى على جهود جمعيات التبشير والغاء الرق وان كانت الحقيقة التى لا مراء فيها أن المستعمرين ابطلوا الرق الفردى لكى يستبدلوا به رقا جماعيا اذ أن استغلال الافريقيين فى المزارع والمناجم والغابات تحت وطأة العمل الاجبارى كان هو الاسترقاق بعينه وليست وقائع ارهاب المطاط الأحمر عند بداية الاستعمار البلجيكى للكونغو بخافية عن أذهان الكثير من الباحثين ولعل ذلك مما دفع بعض المنصفين منهم نذكر من بينهم بازل واغيدسون الى وصف ذلك الخطر الاستغلالى باعتباره رقا حديثا وبذلك لم تكن الأساليب الاستعمارية لتختلف عن الرق التقليدى الا فى وسائلها وان كانت أشد منها اســـتغلالا وقســـوة .

نستخلص مما سبق أن الدراسات الاستعمارية أو الافريقية المتأثرة بالمنهج الاستعمارى أو المغالية فى نزعتها القومية كرست مفاهيمها وتصوراتها ومناهجها للتباعد بين العرب والأفارقة وجعلت ذلك التباعد يرتكز على رواسب نفسية حشدت لها ما يدعمها من الأدلة التاريخية التى استمدتها من الصـــورة المشوهة التى رسمها المستعمر عن تاريخ العرب فى افريقيا وقد عمدت تلك الدراسات الى ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأهمية الوجود الاستعمارى كما اتجهت الى التقليل من اهمية التراث العربى فى افريقية واســـتبداله بالروايات الشفهية المتناقلة على نحو ما ذهب اليه كل من بول مارتى ودى لافوس فى غرب افريقيا . وعلى الرغم مما كان متوقعا أن تتغير تلك المفاهيم مع رحيل المستعمر وبالتالى تتوثق الروابط بين العرب والأفارقة اذ بنا نفاجأ بأن التباعد يزداد اتساعا اذ أنه مع استقلال الدول الافريقية حلت النخبة التى ارتبطت اقتصاديا وثقافيا بالاستعمار الجديد فحافظت على ســـياسة

الاستعمار القديم فى أزياء من الوطنية الضيقة بل أصبحنا نجد من بعض الأفارقة من يقف موقفا متباعدا من العرب حيث تعرض هؤلاء لتأثيرات ثقافية بلغت من قوتها درجة كادت تطمس معها المؤثرا تالثقافية العربية والاسلامية وكان ذلك حصادا لجهود المبشرين فى التنشئة السياسية والتعليمية لأجيال من الأفارقة الذين أشربوا كراهية الاسلام والثقافة العربية ولذلك فان الأمر يقتضى فى تقديرنا اعادة دراسة الحقبة الاستعمارية ومراجعة بعض المفاهيم السائدة التى أصبح يرددها كثير من الباحثين عن دور المستعمر فى تنصير المجتمعات الافريقية أو رفع مستواها الثقافى فعلى سبيل المثال لم يكن هدف المستعمر من التعليم رفع المستوى الثقافى بقدر ما كان يهدف الى نشر لغته أو اعداد الكوادر التى يحتاج اليها فى ادارته الاستعمارية ومن ناحية أخرى فلابد من تكثيف الجهود من أجل حوار عربى أفريقى يهدف الى اعادة كتابة تاريخ العرب فى افريقيا برؤية موضوعية وذلك فى اطار الظروف الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية . ولمـا كانت المادة المدونة الوحيدة التى سجلت للتاريخ الافريقى قبل المرحلة الاستعمارية هى المخطوطات التى دونها العرب والأفارقة سواء باللغة العربية أو باللغات الافريقية المدونة بالأحرف العربية لذلك فقد يكون من الأهمية العناية بحصر ذلك التراث الذى هو ملك مشترك للعرب والأفارقة على السواء على انه ينبغى أن نكون فى حوارنا أكثر تفهمـا للشخصية الافريقية التى قد تتجه فى بعض الأحيان الى ردود فعل مضادة لتحقيق ذاتيتها بعد استعادة سيادتها السياسية . ورغم الصورة القاتمة التى عرضنا لها فى بعض الكتابات الافريقية الا أنه مما يدعو للتفاؤل ظهور صفوة افريقية أصبحت تدعو للاعتزاز بالتراث الثقافى العربى باعتباره تراثا افريقيا وذلك لدحض ما كان يحرص المستعمر على ترويجـه من أن الافريقيين عاشوا خلال العصور السابقة للاستعمار هملا لا تاريخ ولا ثقافة لهـم .

صــفة افريقيــا فى المصادر العربية
حتى نهــاية القرن العاشر الهجرى

للدكتور أيمن فؤاد سيد

بدأت أوربا فى النعرف على الشواطىء الافريقية فى منتصف القرن الخامس عشر عندما بدأ البرتغاليون فى التجارة مع شواطىء غينيا واقامة مستوطنات هناك . ثم تبعهم فى ذلك الألمان ثم الدانماركيون ثم الفرنسيون ثم الانجليز وغيرهم .

وكانت معارف أوربا عن افريقيا حتى ذلك الوقت معارف نظرية تعتمد فى جزء كبير منها على ما نقل الى اللغات الأوروبية من نتاج الجغرافيا العربية. وتزايدت معارف أوروبا عن افريقيا بعد أن تم نقل كتابى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للادريسى و« وصف افريقيا » للحسن بن الوزان (جرن ليون الافريقى) الى اللغة الايطالية فى أواخر القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فان معارف العرب المسلمين عن افريقيا فى العصــور الوسطى كانت أوسع وأدق بكثير من معارف الاوروبيين ، رغم أن معرفتهم العملية بافريقيا لم تتعدى اطلاقا ما كان يطلق عليه « دار الاسلام » أو المناطق المجاورة لها والتى كان التجار المسلمون يترددون عليها .

وترجع معرفة العرب بافريقيا الى ما قبل ظهور الاسلا موكانت تتلخص فيما كان يمكنهم الحصول عليه من معلومات عن طريق التجارة عبر البحــر الأحمر مع الحبشة . أما الاتصالات المباشرة للعرب مع افريقيا فقد بدأت منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الاسلامية . فلم تكد تمض سبع سنوات على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا وقد فتح المسلمون مصر البيزنطية فى سنة ١٩ هـ كنتيجة حتمية لفتحهم الشام وفلسطين ، ثم امتد نفوذ العرب المسلمين بعد ذلك الى ممالك النوبة المسيحية التى ظلت لمدة سبعة قرون حاجزا أمام التوسع العربى الاسلامى فى هذا الاتجاه ، وفى مقــابل استمرار

حالة السلام بينهم وبين الدولة الاسلامية كان عليهم أن يدفعوا لها ضريبة من المال والرؤوس تعرف بالبقط(١) .

وبعد فتح مصر اكتمل الفتح الاسلامى لبقية أفريقيا الشمالية على فترات متلاحقة . ولم يكد القرن الهجرى الأول يشرف على نهايته الا وكان العرب المسلمون قد أتموا فتح الشمال الافريقى بكماله . ولكن بدلا من أن يتجه العرب جنوبا فى الأراضى القاحلة جنوب الصحراء ، اتجه الجيش الاسلامى الفاتح مدعما بالعناصر البربرية شمالا عابرا المضيق الذى يفصل بلاد المغرب عن شبه جزيرة ايبريا والذى يحمل الى اليوم اسم الفاتح الاسلامى (مضيق جبل طارق) ليمدوا النفوذ الاسلامى الى جنوب غرب أوروبا .

أما معرفة العرب المباشرة بافريقيا الغربية فالفضل فيها يرجع الى تجار الشمال الافريقى الذين قاموا بالاشتراك مع بعض العرب والفرس بفتح باب التجارة والدعوة مع غرب افريقيا فى العصر الاسلامى . وعن طريق هؤلاء التجار وانتقالهم عبر وادى النيل وعلى طول شواطىء افريقيا الشرقية من جهة وعبر الصحراء من جهة أخرى ، أخذ الكتاب العرب معظم معلوماتهم عن افريقيا السوداء . ولكن الجعرافيين العرب لم يقدموا لنا معلومات مترابطة عن شعوب ودول افريقيا الا فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وان كنا نجد الكثير من المعلومات النظرية المستمدة من كتب الجغرافيا اليونانية القديمة متناثرة فى كتابات الموسوعيين الاسلاميين قبل هذا التاريخ .

فحتى القرن الرابع الهجرى . كانت المعلومات التى يقدمها الجغرافيون العرب قليلة الوضوح وكثيرا ما توقع الباحث فى الحيرة . وبعد ذلك بدأت الصورة تتضح شيئا فشيئا ، وكانت أكثر المعلومات وضوحا ما يتعلق منها بوادى النيل فيما وراء صعيد مصر ، فقد كان الاهتمام بهذه المواضع راجع الى جانب الأهمية التجارية الى الاهتمامات الدفاعية من أجل حماية الاسلام من الأخطار التى يمكن أن تحدق به من ناحية أعالى النيل .

---

(١) عن هذه الضريبة راجع ، البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٨١—٢٨٢، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٢٩ — ١٣٠ ، المقريزى : الخطط : ١٩٩— ٢٠٢ ، Lokkogaard, F., EI., ant. «Bakt», I, p. 996.

ففى أواسط القرن الرابع ، وفى أعقاب فتح الفاطميين لمصر ، ارسل القائد جوهر الصقلى واحدا من سكان صعيد مصر يدعى عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى سفيرا له لدى قيرقى ملك النوبة المسيحى يدعوه الى اعادة دفع البقط الى حكام مصر الجدد ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن دفعه فى أواخر الدولة الاخشيدية(٢) ويدعوهم كذلك الى الاسلام . ويبدو أن ابن سـليم لم يوفق فى مسعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة الى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ، حيث أنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البجة .

وبعد عودته الى مصر ألف ابن سليم الأسوانى ، تقريبا فى أوائل خلافة الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ، كتابا عنوانه « أخبار النوبة والمقـرة وعلوة والبجة والنيل » ضمنه وصفا جغرافيا لهذه المناطق وخلفيتها التاريخية مع عرض دقيق لحالتها فى وقت زيارته مع بعض الروايات الأسطورية(٣) . أما وصفه للنيل فيمتاز بالكثير من الدقة ، رغم أنه كان يخضع فيما يبدو أحيانا لتأثير الرواية المنقولة التى تستتر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون الوصف الوحيد فى الأدب العربى الذى يبين لنا المدى الذى وصلت اليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل فى هذه الفترة(٤) .

وللأسف فقد فقد هذا الكتاب اليوم وان كان موجودا متداولا بين الناس على الأقل حتى القرن العاشر الهجرى ، فقد حفظت لنا شذرات منه لدى ثلاثة مؤرخين هم : المقريزى فى خططه وابن اياس فى « نشق الأزهار » والمنوفى فى تاريخه ، ولكن أهم هذه النقول وأوسعها هى ما نقله المقريزى فى الخطط .

---

(٢) المقريزى : المقفى (مخ . باريس) ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ١ : ١٩٠ ،
Brock., GAL SI, 410, Troupeau G., «La description de la Nubie d'al-Uswàni», Arabica I (1954), pp. 276-288; Yusuf. F. Hasan, EI., art. «Ibn Sulaym al - Uswàni» III, p. 979; Kheir H. M., « A Contribution to a Textual problem. Ibn Suleym al-Uswàni's Kitàb Akhbàr al - Nùba wal - Maqurra wal - Beqa wal - Nil», An. Isl. XXI (1985) pp. 9-72.

(٤) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٢ — ١٩٣ .

وربما من أجل الخلفاء الفاطميين كذلك أن خصص ابن حوقل فقرات مطولة فى كتابه « صورة الأرض » لهذه البلاد فقد كان هذا الجغرافى الرحالة، الذى بدأ رحلته من بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ متخذا من التجارة مهنة له(٥) ، كان داعيا سياسيا فى الحقيقة . وقد كان ابن حوقل بلا ريب جاسوسا للفاطميين وان كان ليفى بروفنسال لا يقطع بذلك وانما يراه فقط عميلا للعباسيين او الفاطميين(٦) . فابن حوقل يبدى دهشته لاحتفاظ الامويين فى الأندلس باستقلالهم حتى هذا الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الاسلامى(٧) . ويمكن أن يؤخذ قوله هذا بمثابة ايعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل .

ويرى كراتشكوفسكى فى ابن حوقل الخبير الأول من بين جغرافى المدرسة الكلاسيكية العربية فى شئون المغرب وكذلك فيما يخص افريقيا الشرقية ، فهو يورد وصفا مفصلا لمنطقة البجة وتاريخهم ولارتريا مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر مع وصف دقيق للواحات(٨) .

والى هذه الفترة كذلك يرجع مؤلف الحسن بن أحمد المهلبى عن المسالك والممالك الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز ، ولذا فكثيرا ما يرد اسمه فى المصادر بعنوان « المقريزى » . ونحن لا نعرف هذا الكتاب الا عن طريق اقتباسات متفرقة حفظها لنا ياقوت الحموى وأبو الفدا . ويمثل هذا الكتاب أهمية حقيقية للسودان الافريقى ، ويتضح لنا من متابعة المقتطفات التى نقلها عنه المؤلفون المتأخرون انه اهتم فى الأساس بأوصاف الطرق وخاصة طرق افريقيا .

وعلى كل حال فقبل استقرار الفاطميين فى مصر نجد أن المؤرخ والجغرافى الشيعى أحمد بن على بن واضح اليعقوبى يقدم لنا فيما بين سنتى ٢٦٠ و٢٧٨ هـ سواء فى تاريخه أو فى كتاب « البلدان » وصفا للمسالك الواقعة الى جنوب مدينة سجلماسة ، وللبلاد الواقعة بين أعالى النيل والبحر الأحمر الغنية بمناجمها ومواضعها الاستراتيجية .

---

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ٣ .
(٦) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٤ .
(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠٩ .
(٨) نفسه ١٠٤ — ١٠٧ .

واذا كان وادى النيل يعد طريقا تقليديا للتجارة منذ العصور القديمة ويمثل أهمية دفاعية للدولة الاسلامية ، فالى الغرب من هذا الطريق كان يوجد طريق آخر غير تقليدى وأقل اهمية من الناحية الدفاعية للدولة الاسلامية ولكنه حيوى بالنسبة لتجارتها يمتد من شمال افريقيا تجاه نيجيريا الحالية . ففى الوقت الذى ارتبط فيه تاريخ هذه المنطقة بالصراع بين الفاطميين فى شمال افريقيا وامويو الأندلس للاستيلاء على رؤوس طرق القوافل الواقعة شمال الصحراء نجد أن ابن حوقل يهتم ايضا بذكر المراكز المسيطرة على هذه المسالك وهى من الشمال الى الجنوب : سجلماسة وأوداغست وغانا بالاضافة الى العناية التى يضفيها على فزان وعلى طريق غانا — مصر القديم(٩) .

وفى نفس الفترة التى بدا فيها ابن حوقل رحلته نجد المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين قد بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى « مروج الذهب » الذى سجل فيه نتائج مشاهداته خلال رحلته التى زار خلالها الكثير من الأقطار . وهذا الكتاب هو فى الأساس كتاب تاريخى وان كان المسعودى نفسه اديب يهتم قبل كل شيء بالعرض الأدبى . ويضم هذا الكتاب بين دفتيه أفضل تصوير للحياتين الثقافية والاجتماعية للدولة الاسلامية فى عصر الخلافة العباسية . وقد رسم المسعودى فى كتابه صورة أمينة لأفريقيا ولنهر النيل(١٠) ، ولكن الأهمية التى يعطيها المسعودى لافريقيا تختلف عن تلك التى شغلت ابن حوقل او ابن سليم الأسوانى ، فهى عنده ترجع الى حجم الدور الذى لعبه بعض أبناء هذه القارة فى احداث التاريخ الاسلامى وعلى الأخص الدور الذى قام به « الزنج فى جنوب العراق »(١١) .

وآخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية والتى تضم جغرافيين من امثال : ابن خرداذبه والاصطخرى وابن الفقيه وابن رستة واليعقوبى وابن حوقل ، هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسى البشارى الذى يعتبره شبرنجر « اكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة » . واذا كانت تشوب هذا الراى بعض المبالغة فان واحدا من الذين توفروا على

---

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠١ .
(١٠) المسعودى : مروج الذهب ١ : ١١٤ — ١١٥ و٢ : ٦٥ — ٧٣ .
(١١) نفسه : ٥ : ١٠٣ — ١٠٤ .

دراسة كتاب المقدسى وهو كرامرز ، يرى فيه أكثر الجغرافيين العرب أصالة وفى مصنفه « أحسن التقاسيم » واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة(١٢) .

وقد قدم المقدسى عن افريقيا معلومات أقل فى القيمة من تلك التى خلفها لنا معاصره ابن حوقل .

وحتى نهاية القرن الرابع كانت النصوص العربية تهتم فى الأساس بافريقيا الشرقية أكثر من اهتمامها بغرب افريقيا . وكما اتضح لنا فان كل المؤلفين الذين سبق ذكرهم هم من المشارقة وهذا لا يعنى أن التأليف فى المغرب الاسلامى قد تأخر ، وانما أخذت مؤلفاتهم الأدبية والجغرافية فقط صبغة محلية ولم تظهر مؤلفات الأندلسيين والمغاربة وتأخذ مكانتها فى المشرق الاسلامى الا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى .

واول هذه المؤلفات واهمها فى مجال الجغرافيا هو مؤلف أبو عبيد البكرى(١٣) الذى يحمل أيضا اسم « الممالك والمسالك » وقد اعتبر دوزى البكرى « اكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة »(١٤) ، وقد انتهى من تأليف كتابه نحو سنة ٤٦٠ هـ . وللأسف لم يحفظ لنا نص هذا الكتاب كاملا ولكن مخطوطاته استمرت فى الظهور الى وقت قريب بحيث أن الناقص من الكتاب يعد اليوم شيئا قليلا(١٥) . والجزء الذى خصصه البكرى لافريقيا الشمالية أصبح فى متناول الباحثين منذ أن نشره وترجمه الى الفرنسية دى سلان سنة ١٨٥٧ (١٦) . وقد اعتمد البكرى فى وصفه لافريقيا على كتاب مفقود لمؤلف من اهل القرن الرابع الهجرى هو أبو عبد الله محمد بن يوسف

---

(١٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٨ .

(١٣) انظر كتاب عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، الكويت ١٩٧٤ م . .

(14) Dozy, R. Recherches su L'historie et la litterutuse de é' Espagne pendant le moyen - age, Leiden 1881, I, p. 282.

(١٥) انظر تحقيق عبد الله يوسف الغنيم لقسم جزيرة العرب وقسم مصر من كتاب « الممالك والمسالك » للبكرى ، الكويت ١٩٧٧ و ١٩٨٠ م .

(١٦) نشر بعنوان : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، كذلك نشر عبد الرحمن الحجى « جغرافية الأندلس واوربا من كتاب البكرى فى بيروت » ، ١٩٦٨ .

الوراق المتوفى سنة ٣٦٢ هـ الذى ألف نحو هذا التاريخ للحكم المستنصر الأموى كتابا ضخما فى مسالك وممالك افريقيا(١٧) .

واذا ما تركنا البكرى وانتقلنا الى القرن السادس الهجرى نجد أن الأدب الجغرافى العربى قد فقد بعض مكانته فى الشرق الاسلامى ، وأن مغرب العالم الاسلامى أصبحت له الصدارة فى هذا المجال بفضل مؤلف الشريف الادريسى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ورغم أن الادريسى ، كما يقول كراتشكوفسكى هو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الاطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى ، فان كتابه أصبح أكثر الكتب العربية رواجا وصيتا فى أوربا اذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الادريسى ، وقد مر وقت كان فيه مؤلفه المثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى فى الدوائر العلمية الأوروبية(١٨) .

وقد ألف الادريسى هذا الكتاب لروجار الثانى ملك صقلية لذلك فانه يعرف أيضا فى الأوساط العلمية باسم « كتاب روجار » . وكان الأصل العربى لهذا الكتاب من أوائل المطبوعات العربية التى اخرجتها مطابع أوروبا فقد طبع أول مرة فى روما سنة ١٥٩٢ . ونقل الكتاب بعد ذلك الى اللاتينية فى سنة ١٦١٩ ، أما الترجمة الفرنسية الكاملة للكتاب فلم تتم الا فى منتصف القرن التاسع عشر وقام بنشرها جوبير أحد علماء الحملة الفرنسية فى جزأين بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ .

وبين هذين التاريخين ظهرت طبعات جزئية للكتاب ، أما الطبعة الكاملة الصحيحة والتى اعتمدت على مقابلة مخطوطاته المختلفة فلم تظهر الا منذ سنوات قليلة بفضل جهود المعهد الجامعى الشرقى بنابولى ومعهد الدراسات الشرقية بروما وظهرت فى تسعة أقسام مع فهارس شاملة ونشرتها مؤسسة بريل بليدن فى الفترة بين سنتى ١٩٧٠ و١٩٨٣ م(١٩) .

---

(١٧) انظر العقدى : الوافى بالوفيات ٥ : ٢٥١ و
Brock., GAL SI, p. 233,

(١٨) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٧٩ .

(19) Al-Idrisi, Opvs Geographicvm (I - IX) Niapoli- Romae 1970-1983.

وأهم أجزاء هذا الكتاب هى تلك التى أفردها الادريسى لافريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية ونواحى ايطاليا الأخرى لأنها تعتمد قبل كل شىء خلافا للاقسام الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف . وذلك لأن معلوماته عن مصر مثلا ليست جديدة على الاطلاق لأنه نقلها حرفيا عن كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل .

أما وصفه لافريقيا فلا يخلو من الفائدة رغم أنه يعتمد فيه اعتمادا كليا على وصف بطلميوس . فوصفه لمجرى النيل الغربى ، أى نهر النيجر ، قد أكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . كذلك فانه كان على معرفة جيدة بطرق التجارة مع داخل افريقيا وأورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت مثل : غانا وسلا وبلاد التكرور(٢٠) . وقد وضع المستشرق لألمانى هارتمان فى أواخر القرن الثامن عشر بحثا عن افريقيا عند الادريسى كان له شأنه فى ذلك الوقت وان كان قد عفى عليه الزمان الآن(٢١) .

واذا ما تركنا الادريسى وانتقلنا الى القرن السابع الهجرى نجده قد خلف لنا اكبر معجم جغرافى فى اللغة العربية ، أعنى به « معجم البلدان » لياقوت ابن عبد الله الرومى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ . وهو اشبه بموسوعة كبيرة فى الادب والتاريخ والجغرافيا والأجناس مرتبة على أسماء البلدان . وفيما يخص البلدان الافريقية فان المادة التى يقدمها لنا ياقوت محدودة وغير واضحة المصدر .

ويأتى فى نفس الأهمية كتاب « الجغرافيا » لعلى بن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ الذى يقدم لنا معطيات هامة عن سواحل افريقيا الغربية والشرقية رغم أنه لم يزرها بنفسه وانما استقى مادته عنها من ملاح عربى لا نعلم عنه شيئا يدعى ابن فاطمة ، وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربى لافريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت متصلا عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذى كان الجغرافيون يضمون اليه فى ذلك الوقت منطقة بحيرة تشاد(٢٢) .

---

(٢٠) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٨٧ .

(21) Hartmann, J. M., Edrisi Africa, Gettingen 1796.

(٢٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٣٥٩ .

أما فى شرق افريقيا فان ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو ، وعرف جيدا مدغشقر وربما ترجع اليه تلك الرواية الهامة التى ينفرد بروايتها ابن سعيد والمتعلقة باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر(٢٢) .

وقبل نهاية القرن السادس الهجرى نجد الأدب الجغرافى العربى يستعيض عن كتب المسالك والممالك بنوع آخر من التأليف هـو : كتب الرحلات . حقيقة أن الأدب الجغرافى العربى قد عرف رحلات سابقة على هذه الفترة مثل : رحلة ابن بطلان الى بلاد البلغار ورحلة ناصر خسرو الى مصر والشام وبلاد العرب الا أنهما كانا ينتميان الى مشرق العالم الاسلامى وكانت تحركهما دوافع سياسية للقيام بهذه الرحلات . أما الرحلات التى عرفت بعد ذلك فقد قام بها جميعها ، اذا استثنينا رحلة عبد اللطيف البغدادى الى مصر ، رحالة مغاربة وأندلسيون ، وكان الهدف الأساسى لأصحابها هو أداء فريضة الحج ولكنهم استطاعوا خلال رحلتهم الطويلة فى الذهاب والعودة أن يتوقفوا ويقيموا فى العديد من البلاد والمدن التى مروا بها ، وقدموا لنا أوصافا دقيقة ومعاصرة لحالة هذه البلاد من خلال زيارتهم لها ، وان اختلفت طريقة العرض من واحد الى آخر . فاذا كان ابن جبير وعبد اللطيف البغدادى يقدمون لنا وصفا حيا للمجتمع والعادات وما شاهدوه من آثار فى البلاد التى زاروها فان رحالة آخرين مثل ابن رشيد الفهرى يقدمون لنا مادة غزيرة عن الحياة الثقافية والعلوم التى كانت تدرس بالمدارس فى مصر والشام على الأخص فى هذا العصر .

وربما لم يهتم هؤلاء الرحالة بارتياد بلاد افريقيا الداخلية . فيما عدا واحدا منهم تمكن بعد أن أدى فريضة الحج أربع مرات وتجول فى انحاء المعمورة تقريبا حيث زار شمال افريقيا ومصر والشام والحجاز واستامبول والموصل وبغداد واليمن والهند والصين وجنوب أوربا ، تمكن من زيارة جوف افريقيا ذلك هو الرحالة المغربى الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى

---

(23) Ferraud, G., Relation de Voyages et textls Géographigues Arabes, persans et turks relatifs à L'EXtréme - Oriéut du XIII Siscles. paris 1914, pp. 317-320.

الطنجى المعروف بابن بطوطة والذى قام برحلته فى الفترة بين سنتى ٧٢٥ و٧٥٣ هـ(٢٤) .

ففى سنة ٧٥٣ قام ابن بطوطة برحلة الى قلب افريقيا بتكليف من السلطان أبو عنان المرينى مر فيها على سجلماسة وتغازا وتاسرهلا ومسوفة ومالى وزاغرى وكارسخو وكابرة وزاغة وتنبكتو وكوكو ومولى ويفى . وكانت زيارة ابن بطوطة لمالى فى ايام ملكهم منسا سليمان (اى السلطان سليمان) .

وقد ظل وصف ابن بطوطة لافريقيا جنوب الصحراء لا يفضاه شىء الى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر .

وفى نفس الفترة التى قام فيها ابن بطوطة برحلته عرفت مصر والشام فى زمن المماليك نمط جديد من التأليف الموسوعى اضطلع به موظفوا ديوان الانشاء المماليكى الذين لم يروا فى أنفسهم علماء بل كتابا نابهى الشأن اكتسبوا نتيجة خدمتهم فى ديوان الانشاء خبرة كبيرة فى هذا المجال(٢٥) .

وتعد موسوعة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » خير ممثل لهذا النمط وهى مصدر من الدرجة الأولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطعة بدولة المماليك . فقد هيأ له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق ولقاء الكثير من الرجال والسفراء ، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من اخراج لوحة مفصلة فى وصف العالم المعاصر له .

وقد خصص ابن فضل الله العمرى الأبواب من الثامن الى الحادى عشر من النوع الثانى الخاص بالممالك فى ذكر ممالك افريقيا السوداء . فجعل الباب الثامن لذكر ممالك المسلمين بالحبشة ، والباب التاسع لذكر ممالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد الى مصر وهى : مملكة الكانم (منطقة

---

(٢٤) طبعت رحلة ابن بطوطة أكثر من مرة وقد رجعت الى الطبعة المصرية بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » فى جزاين ، مصر ١٩٢٩ .

(٢٥) راجع مقدمتى لممالك مصر والشام والحجاز واليمن من مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، القاهرة ١٩٨٥ .

تشاد الحالية) ومملكة النوبة ، والباب العاشر لذكر مملكة مالى ، اما الباب الحادى عشر فجعله لذكر مملكة جبال البربر .

وقبل ان نستطرد فى ذكر قيمة ما كتبه العمرى عن ممالك افريقيا نشير الى ان القلقشندى فى القرن التالى اعتمد اعتمادا كليا على موسوعة العمرى فى القسم الذى خصصه فى كتابه « صبح الأعشى » لذكر تاريخ ممالك الاسلام ، غير انه تميز على كتاب العمرى بدقة التبويب ووضوح العرض ، الا انه لا يمثل عصره تماما اذ هو تكرار لما ذكره العمرى مع شيء من التوسيع والاسهاب وبرسم صورة لما كانت عليه تلك الممالك فى القرن الثامن الهجرى الذى ألف فيه ابن فضل الله العمرى موسوعته(٢٦) .

وهذا القسم لم ينشر بعد فى أصله العربى وانما نقله الى الفرنسية مع تعليقات هامة المستشرق الفرنسى جودفرى دى مومبين سنة ١٩٢٧(٢٧) .

أما آخر المؤلفين الكبار فى محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب فهو الحسن بن محمد الوزان المعروف بجون ليو الافريقى(٢٨) . صاحب كتاب « وصف افريقيا » وقد ولد الحسن الوزان فى غرناطة نحو سنة ٩٠١ ونشأ فى فاس ثم كلفه بنو وطاس بثلاث سفارات دبلوماسية فى جنوب المغرب ، ثم زار مكة فى سنة ٩٢١ ثم استامبول ومصر وعند عودته اختطفه قراصنة صقليون وحملوه الى نابولى سنة ٩٢٦ ثم الى روما حيث عمده البابا باسم Johannes Leo وألف وهو فى روما عددا من المؤلفات لم يصل الينا منها فى اللغة العربية الا واحدا عبارة عن معجم عربى — عبرى — لاتينى ألفه سنة ٩٣٠ هـ . أما مصنفه الرئيسى فغير معروف الا فى ترجمانه الأوروبية فى حين

(٢٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ : ٢٧٣ — ٣٣٧ .

(27) Gaudefroy - Demombynes, Masàlik al-Absàr fi Mamà al-Absàr. I. L'Afrique màm L'Egypt, BGA, Paris 1927.

(٢٨) انظر : مقال ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الأولى ، ٣ : ٢٢ — ٢٣ وفى الطبعة الثانية ٥ : ٧٢٨ — ٧٢٩ ، كارتشكوفسكى : المصدر السابق ٤٥٠ — ٤٥٥ ، مصطفى مسعد : الحسن بن محمد الوزان (ليو الافريقى) ، أضواء على رحلته فى بلاد السودان ومصر ، مجلة جامعة القاهرة — فرع الخرطوم ١٩٧٠ . وفقد منه الطبعتين العربيتين للكتاب .

أن أصله العربى مفقود تماما ذلك ان الحسن الوزان ترجم كتابه بنفسه الى الايطالية فى ١٠ مارس سنة ١٥٢٦ .

وقد استطاع الحسن الوزان خلال رحلاته العديدة ، التى لا نعرف دوافعه اليها ، أن يتعرف بصورة جيدة على افريقيا الداخلية والشمالية وقد ختم رحلته بذكر الأهداف التى وضعها نصب عينيه أثناء تاليفه مصنفه يقول : « هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا جيوفانى ليونى ، عن جميع افريقيا التى عبرتها من اقصاها الى اقصاها ، وقد سجلت بعناية ، يوما فيوما ،كل الأشياء التى رايتها بعينى راسى وبدا لى أنها تستحق الذكر وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من اهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهدى فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودى بروما وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح »(٢٩) .

وينقسم الكتاب الى تسعة أقسام يعالج الأول منها الكلام على افريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو الرحل ، أما الثانى فيصف نواحى مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتلمسان والخامس لبجاية وتونس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر . بينما يقدم التاسع وصفا موجزا للانهار والحيوان والأسماك والطيور والمعارف والنباتات الموجودة بافريقيا .

وقليلا ما يشير الحسن الوزان الى مصادره وهى تنحصر فى المسعودى والبكرى والادريسى ولسان الدين ابن الخطيب وابن بشكوال ، أما أكثر تقوله فعن طريق ابن الرقيق الذى الف كتابا فى تاريخ افريقية فى أواسط القرن الرابع الهجرى واليه يدين الحسن الوزان بمعلوماته عن القبائل العربية والبربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة . وعلى كل حال فان قيمة كتاب « وصف افريقيا » لم تكمن فيما ينقله عن الغير بل فى ملاحظاته الشخصية التى تشكل القسم الأساسى من مصنفه(٣٠) .

---

(٢٩) وصف أفريقيا ٦٢٢ (ترجمة عبد الرحمن حميدة) .

(٣٠) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٤٥٣ .

ولقد لقى هذا المصنف الهام اهتماما من الأوساط العلمية الأوربية فترجم الى اللاتينية والفرنسية سنة ١٥٥٦ ثم ترجم حوالى عام ١٦٠٠ الى الانجليزية. أما أحدث نشرات الكتاب فتحقيق شيفر للترجمة الفرنسية والتى ظهرت بين عامى ١٨٩٦ — ١٨٩٨ ونشرة براون للترجمة الانجليزية والتى صدرت سنة ١٨٩٦ . ثم ظهرت طبعة حديثة للترجمة الفرنسية فى سنة ١٩٥٦ قام بها ايبولار .

وللأسف فأن هذا المؤلف الهام ظل بعيدا عن التراث العربى رغم أن مؤلفه صاغه فى أول الأمر باللغة العربية الى أن ظهرت له فى العشر سنوات الأخيرة ترجمتين الأولى فى الرياض سنة ١٩٧٨ بتحقيق الاستاذ عبد الرحمن حميدة ظهرت بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى العربى فى الرياض ثم ترجمة أدق ظهرت فى المغرب وبيروت فى سنتى ١٩٨٠ و١٩٨٣ بعناية الاستاذين محمد حجى ومحمد الأخضر .

Ahmad Sàeed Rizq

محاولة العرب المسلمين
كشف منابع النيل
فى القرون الأولى للاســلام

أ. د. عطية القوصى

النهر الخالد .. نهر النيل من الأنهار الهامة التى لقت حبا فى قلوب العرب المسلمين منذ أن وطأت أقدامهم أرض الكنــانة ، وكانت له المكانة المقدسة عندهم كما كانت له عند أهله منذ القدم . وزادت هذه المكانة لمـا ورد عنه من فضائل فى الروايات الدينية الاسلامية المتعددة التى أوردتها كتب الفقه والتفسير وكتب السيرة والتاريخ .

ففى هذه الروايات نرى راووها يعتبرون النيل من أعظم عجائب مصر الظاهرة لأعين الناس ، وانه صاحب الفضل على جميع الأنهار والبحار . وأنه تشرف بذكر الله له فى قرآنه الكريم حين أورد فيه مقولة فرعون مصر « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . وأنه ينبع من سدرة المنتهى بالجنة تبعا لروايات الأحاديث الشريفة التى نقلها كل من البغــوى وابن ظهيرة عن كعب الأحبار وأنس بن مالك وهما من أئمة المحدثين .

وأبلغ ما وصف به نهر النيل ما أورده ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار(١) ، حيث يقول عنه ما نصه : « هو النهر الأعظم الذى لا يعد له فى عظيم نفعه شىء لعظم ما عليه من البلاد وطوله فى الأمم ، وهو ينصب من جبل القمر وهو احدى الكبر وأولى العبر . آية من آيات الله فى أرضه وعجيبة لمن تأمل من خلقه . ساقه الله تعالى الى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى وان لم تكن هى المتفردة بنفعــه فانها كالمتفردة به

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج ٤ ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٦٧ .

لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به . يجيء اليها أحوج ما كانت فى مجيئه وينصرف أحوج ما كانت الى انصرافه ، وذلك تقدير العظيم العليم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) » .

ولقد تحدث المقريزى عن نهر النيل وفضله فى خططه(٢) تحت عنوان : « ذكر شيء من فضائل النيل » فقال : « أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه فى حديث المعراج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثم رفعت لى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه سدرة المنتهى ، واذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وقد لقى نهر النيل كل الاهتمام من حكام مصر المسلمين عبر العصور ، وهو ذات الاهتمام الذى لقيه فى عهد من حكم مصر قبل الاسلام باعتبـــاره واهب الحياة وصانع حضارتها على أرض مصر . وكان من مظاهر هـــذا الاهتمام الذى شمل النيل فى عهد حكام مصر الاسلامية محاولة معرفة أحوال الزيادة والنقصان فى مائه ، والاطمئنان على وصول ما تحتاج اليه البلاد منه . فأقاموا لذلك المقاييس عليه وعملوا على تجديدها كل مدة(٣) ، وواظبوا على الاحتفال بفيضانه ووفائه بالماء ، واقامة عيد خاص له يخرج فيه حكام مصر المسلمين فى مواكبهم ويشاركون الناس فرحتهم بهذا العيد(٤) ، ويقومون بتخليق المقياس(٥) وتعطيره والتصدق بالأموال شكرا لله وحمدا على نعمة اجراء مائه .

وقد حرص معظم المؤرخين الذين أرخوا لمصر الاسلامية منذ الفتـــح العربى على ذكر مبلغ الزيادة والنقصان فى ماء النيل عاما بعام فى مؤلفاتهم، نجد ذلك فى كتب البكرى والادريسى والمسعودى وابن خلدون وابن فضـــل الله العمرى والقلقشندى والمقريزى وابن تغرى بردى والسيوطى وابن اياس

---

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، ص ٤٩ .
(٣) ناصرى خسرو سفرنامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٨١ ، ٨٢ .
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٩٣ — ٩٧ .
(٥) التخليق هو طلاء عمود المقياس بالخلوق وهو نوع من الطيب .

وابن عبد السلام ، الأمر الذى يعكس لنا مدى اهتمام المسلمين بأمر هذا النيل العظيم على مر العصور .

وتحدثت مصادر كثيرة تاريخية وجغرافية عن منابع هذا النهر الخالد ، واجمع غالبيتهم على ما انتهى اليه علمنا الآن عن هذه المنابع ، أن لنهر النيل منبعين أحدهما دائم والآخر صيفى ، وحددوا المنبع الدائم عند خط الاستواء ، بينما حددوا المنبع الصيفى بأنه أمطار بلاد الحبشة التى تسبب نيضان مائه فى فصل الصيف .

ولئن كان ستانلى وسبيك قد نجحا فى كشف منابع نهر النيل فى القرن الماضى ، وأناطوا اللثام للعالم عن هذه المنابع المجهولة ، فلقد سبق الكشافون المسلمون زملاءهم فى العالم الغربى فى مجال الكشف عن هذه المنابع بقرون عديدة . وقد ثبت فى المصادر أن هؤلاء الكشافين المسلمين اخترقوا الصحارى والفيافى والأدغال الافريقية ، منذ القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى للوصول الى منابع النيل . وانهم دونوا دراساتهم الجليلة فى مؤلفات قيمة أفاد منها العالم من بعدهم وافاد منها ، دون شك ، ستانلى وسبيك وأقرانهم ممن اهتموا بكشف منابع النيل فى أعقاب عصر النهضة الأوروبية والكشوف البحرية منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . ولقد بدأوا حيث انتهى المسلمون ، فتضافرت بذلك جهود الفريقين فى كشف منابع هذا النهر العظيم .

وقبل الحديث عن محاولات الكشف الاسلامية نشير الى ما ورد فى المصادر العربية عن أمر هذه المنابع التى اتفق معظم كتابها من أنها تكمن عند جبل القمر الواقعة عند خط الاستواء . ولقد وقع الاختلاف فى ضبط هذه اللفظة وهى لفظة « القمر » ، فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة لقمر السماء لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء كما يقول المقريزى(٦) ، كذلك لشدة بياضه وكثرة ضوئه . وضبطها البعض الآخر بضم القاف وسكون الميم « القمر » نسبة الى قوم يسكنون هناك(٧) .

وقد حددت هذه المصادر مكان جبل القمر أو جبال القمر ، وقالوا أنها

---

(٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥١ .
(٧) ابن خلدون : المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٢ .

تقع وراء خط الاستواء . واختلف أصحاب هذه المصادر فى تحديد خط العرض الذى تقع عليه جنوب هذا الخط ، فقال ابن مماتى والبغدادى انها تقع وراء هذا الخط باحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة ، وقال المسعودى والأدريسى وابن سعيد الاندلسى وابن خلدون أنها عند خط ١٦ درجة جنوبا ، بينما انفرد صاحب كتاب الاستبصار بالقول بأنها تقع عند خط ٩ درجات وثلاثين دقيقة جنــوبا(٨) .

وقد ذكر ابن خلدون ان هذه الجبال « جبال عظيمة ليس فى الأرض من هو أعلى منها وتخرج من أعلاها عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هناك وبعضها فى أخرى ثم تخرج انهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل »(٩) .

واتفق معظم الكتاب الاقدمين على ان نهر النيل يخرج من منطقة البحيرات ويمر ببلاد الزنج (السودان) ثم بلاد النوبة ، ثم بلاد مصر ، وتكون نهايته عند البحر الرومى (البحر المتوسط) .وقد اخطأ بعضهم فى تصور أن نهر النيجر يشترك مع نهر النيل فى منبعه . من هؤلاء ابن خلدون الذى زار بلاد مالى بغرب افريقية وأمضى فيها ثمانية أشهر وشاهد نهر النيجر واعتقد انه متصل بنهر النيل . يقول ابن خلدون : « ويخرج من البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النــوبة ثم بلاد مصر فاذا حاوزها تشعب فى شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ، ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب ثم يمر على سمته الى أن يصب فى البحر المحيط ، وهو نهر السودان وأممهم كلها على ضفتيه وبذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك »(١٠) .

ولقد اكتفى بعض الجغرافيين المؤرخين المسلمين ممن لم يتأكد من حقيقة منبع النيل ومن لم يصدق روايات من قال أنه بنبع من جبال القمر وتأكد من

---

(٨) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب ، رسالة ماجستير لم تنشر ، القاهرة .

(٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٦ .

(١٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٠ — ٥٢ .

صعوبة واستحالة الوصول الى هذه المنابع ، اكتفى بالاشارة الى عدم علمه بمكان المنبع ، وقال بعض منهم أنه ينبع من مفازة ، أى من خراب .

يقول الاصطخرى(١١) ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى : « وأما النيل فان ابتداء مائه لا يعلم وذلك أنه يخرج من مفازة من وراء أرض الزنج لا تسلك حتى ينتهى الى حد الزنج ثم يقطع فى مفاوز وعمارات متصلة الى أن يقع فى أرض مصر » .

ويقول ابن فضل الله العمرى(١٢) : « والأقوال فى أول مجرى النيل كثيرة ذكر منها المسعودى وغيره ما لا فائدة فيه . والشائع على السنة الناس أن احدا ما وقف على أوله بالمشاهدة وجعل كل واحد منهم سببا لعدم الوقوف على حقيقة اوله . وقال بعضهم أنه لتوغل منبعه فى الخراب المنقطع من وراء خط الاستواء تعذر السلوك اليه لبعد المسافة وشدة الحر » .

ورغم اختلاف الجغرافيين والمؤرخين المسلمين القدامى بصدد تحديد مكان منابع النيل الا أنهم جميعهم اتفقوا على أن للنيل منبعين أحدهما دائم والآخر صيفى ، وان فيضان نهر النيل فى فصل الصيف يأتى بسبب الأمطار التى تسقط على بلاد الحبشة فى هذا الفصل . يقول البغدادى : « فجرية النيل الأصلية مادتها عيون (بحيرات) وأما زيادته الصيفية فمادتها أمطار »(١٣) . ويقول المقريزى : « ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ، فانه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة فاذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ومال لونه الى الخضرة وصار بحيث اذا وضع فى اناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب ، وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها . فاذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف وعظمت السيول الهابطة من هذه البطيحة فاض منها ما تغير من الماء وجرى الى أرض مصر ، فيقال عند ذلك توحم النيل . ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزداد عكره بزيادة الماء فاذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى اناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة وهذا الطين هو الذى

---

(١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٠ .
(١٢) مسالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ .
(١٣) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب ، ص ٧٤ .

تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها . وان العادة أن السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون الا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب وامطار الجنوب لا تكون الا فى أيام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء . وسبب زيادة المطر هبوب ريح تسمى ريح الملتن وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد الحبشة والسودان فيأتى ورده الى أرض مصر بزيادة النيل »(١٤) .

ويقول المقريزى فى رواية أخرى : « وزيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة » ، ويحدد بداية الفيضان فى شهر أبيب القبطى (يوليو) ويقول أن المصريين يقولون اذا دخل أبيب كان للماء دبيب(١٥) .

هذا ملخص لما ورد عن منابع النيل فى المصادر العربية ، ولنا أن نتساءل عن المصدر الذى استقت منه هذه المصادر مادتها عن منابع النيل وعن الباب الذى وصلتهم منه هذه المعرفة ؟ .. هل جاءت حقا عن ارتياد فعلى ووصول الى هذه الأماكن ومشاهدتها بالعين ؟ أم جاءت منقولة عن الجغرافيين الاغريق والرومان الذين حاولوا فك طلاسم منابع النيل قبل ظهور الاسلام بسنين عديدة ؟

للاجابة على هذا التساؤل علينا أن نتتبع أولا الجهود التى بذلها الرحالة والجغرافيون أيام حكم المصريين القدماء والاغريق والرومان قبل الاسلام لكشف منابع النيل . ومن نتاج دراسة هذه الجهود اتضح لنا أن جميع هؤلاء الرواد الذين حاولوا كشف منابع النيل مثل هيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وبلينى وسنيك وغيرهم لم يستطيعوا سوى الوقوف عندما ألقاه عليهم الكهنة عند منابع النيل من أنها مصدر الهى وانه آت من الظلمات ، ولذلك لم يتجاوزوا فى مباحثة ما وراء الشلالات(١٦) . والى ذلك أشار هيرودوت الذى قال ان النيل يعرف مبدؤه بعد سفر أربعة أشهر سواء أكان ذلك برا أو بحرا وهى المدة التى يستغرقها المسافر للوصول الى أسوان . ومن المعروف أن هيرودوت تتبع فى سنة ٤٦٠ ق.م مجرى النيل قاصدا

---

(١٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦١ .
(١٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٨ .
(١٦) أنطون ذكرى : النيل فى عهد الفراعنة والعرب ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ٩ .

الوصول الى منابعه ولم يتعد فى كشفه الشلال الأول عند أسوان ولم يصل الى هذه المنابع(١٧) .

وكان ملوك الفراعنة : رمسيس الثانى وغيره قد بذلوا جهدا كبيرا من عنايتهم للوقوف على حقيقة منابع النيل فما استطاعوا . وقام ابسماتيك (أحد ملوك الأسرة ٢٦) بتأليف بعثة تكونت من ٢٤٠٠ رجل وأمدها بكل ما تحتاجه لكشف منابع النيل فقضت بعض السنين وعادت دون الوصول الى هذه المنابع . كذلك استحكمت هذه الفكرة لدى الاسكندر المقدونى وقمبيز ورتب كل منهم فى عهده رحلة خاصة وأمدها بكل ما تحتاج للاهتداء لهذه المنابع دون جدوى . وفى القرن الثالث قبل الميلاد كرر المحاولة أحد ملوك البطالمة (بطليموس افيرجت) ولم يصل الى شىء . وكان قدماء الباحثين يضربون الأمثال بمعرفة منابع النيل فى استحالة الوصول الى غرض يرضى ويقنع الباحثين .

واستمر أمر منابع النيل غامضا فى عصر الرومان الى أن أرسل نيرون بعثة رسمية لكشف هذه المنابع ، ووصلت هذه البعثة الى منطقة السدود النباتية والمستنقعات فظنوها المنابع الأولى للنيل .

ولقد ادعى تاجر يونانى يدعى ديوجينس Diogenes (١٨) . عاش فى القرن الأول الميلادى ، أنه قام برحلة وصل فيها الى جبل القمر حيث ينبع النيل ، وقد نقل هذا القول عن ديوجينس هذا الجغرافى ماريانوس ، الذى نقله ، بدوره عنه ، الجغرافى الرومانى الشهير كلاودوس بطليموس ، الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . ويعد كلاودوس بطليموس من أعظم الجغرافيين القدماء ، وقد قام برسم خرائط عديدة للعالم ولنهر النيل ظلت تدرس فى أوربا حتى أواسط القرن السادس عشر(١٩) .

ولقد زعم ديوجينس أنه سافر الى ساحل افريقية الشرقى وأنه توغل فى قلب القارة الافريقية ووصل الى منابع النيل التى وصفها بأنها ينبوعان

---

(١٧) جوزفين كام : المستكشفون فى أفريقية ، ترجمة السيد يوسف ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٨ .
(١٨) جوزفين كام : المستكشفون فى أفريقية ، ص ١٩ .
(١٩) محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٠ .

عظيمان يتحدان ويتجهان شمالا ويتصل بهما نهر الحبشة ، وانه فى جنوب الينابيع العظيمة (ويقصد البحيرات الاستوائية) جبال عالية تغطيها الثلوج تسمى جبال القمر . ولقد نقل كلاودوس بطليموس عن ديوجينس وصف المنابع الاستوائية فى خريطة رسمها عام ١٥٠ م(٢٠) .

ويرجع بعض الكتاب فضل المعلومات التى حصل عليها بطليموس عن منابع النيل الى ما جمعه عن الرحالة العرب الذين جالوا حول منطقة المنابع وبالقرب منها قبل الاسلام ، وقالوا انه عن طريق هؤلاء الرحالة والتجار العرب تسربت تلك المعلومات عن منابع النيل الى التجار الاغريق مثل ديوجينس وبطلميوس .

ولقد اكد بعض كتاب المسلمين هذه الجولات العربية عند المنابع قبل الاسلام ، فذكر ابن عبد السلام (ت نهاية القرن التاسع الميلادى) فى كتابه « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » أن الوليد آخر ملوك مصر من العرب العمالبق (الهكسوس) عن له أن ينظر مخرج النيل فأقام ثلاث سنين يستعد لذلك ثم جمع ما يحتاج اليه واستخلف على مصر احد عماله ويدعى (عون) ، ثم توجه حتى وصل الى منابع النيل وصعد على جبل القمر ورأى كيف ينبع النيل منه(٢١) .

وذكر المقريزى ، نقلا عن ابن زولاق ، أن رجلا من ولد العيص بن اسحق من نسل سيدنا ابراهيم واسمه « حايد » وصل الى تلك المنابع ، واورد أن حايد هذا كان تاجرا ونبيا وحكيما وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك ، فيقال أنه قام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران وعشرين سنة فى خراب . وأضاف ابن ظهيرة(٢٢) ، صاحب كتاب الفضائل الباهرة ، عن حايد هذا أنه لما وصل الى مصر قادما من منابع النيل تقابل مع ابى صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد وانه حكى له ما رآه بصدد منابع النيل وما لقيه فى رحلته .

وأيا كانت صحة الروايات التى وردت فى المصادر العربية عن محاولة

---

(٢٠) جوزفين كام : نفس المصدر ، ص ٢٠ .

(٢١) ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٥٥٤٨ ، ورقة ٥ أ ، ٥ ب .

كشف العرب لمنابع النيل قبل الاسلام ومدى اسهام الكشافين العرب فيما وصل اليه جغرافيو الاغريق والرومان من معلومات عن هذه المنابع . فانه من المؤكد ان كشف منابع النيل قد استحوذ على اهتمام حكام مصر الاسلامية ، وان هؤلاء الحكام لم يدخروا وسعا فى هذا المجال بقدر امكانياتهم المتاحة آنذاك لمثل هذا العمل الكبير . وكان ذلك رغبة منهم فى معرفة سر هذا النهر الخالد واملا فى الوصول الى منابعه حتى يتخذوا السبل الممكنة لتطويع هذا النهر لحاجتهم من مياهه والعمل على استمرارية وصول هذه المياه الى مصر لتستمر حياة دولهم على واديه . ولقد أيقن حكام مصر الاسلامية ، كما ايقن من حكم مصر قبلهم ، أن مصر هبة النيل وان النيل قادر على ان يهلك مصر غرقا او حرقا .

قال عبد الله بن عمر لقوم من مصر : « انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر ، قالوا له : ما يخرجنا منها يا أبا محمد .. أعدو ؟ قال : لا ، ولكن يخرجكم منها نيلكم هذا ، يفور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل وتأكل سباع الأرض حيتانه »(٢٣) .

ولقد بدأ الاهتمام بكشف منابع النيل فى مصر الاسلامية فى عهد الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فى عهد حكم احمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧ هـ) على حسب رواية المسعودى . فلقد روى المسعودى أن ابن طولون كان على اهتمام وافر بأمر منابع النيل ومحاولة كشفها والوصول اليها ، وانه أعد من يقوم بكشفها ووضع الخطة لذلك سنة كذا وستين ومائتين(٢٤) . وانه أخذ المعلومات الوافية عن هذه المنابع من رجل معمر من الأقباط كان يعيش فى صعيد مصر يبلغ مائة وثلاثون عاما من العمر وكان عالما بأحوال النيل ومنابعه . فسأله عنه واخلى له نفسه ليال وايام كثيرة ليسمع كلامه عن النيل ومنابعه(٢٥) .

---

(٢٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤٦٠ ، ورقة ٤٥ .

(٢٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢٥) جلال الدين المحلى : مقدمة النيل السعيد ، القاهرة ١٢٨١ هـ ، ص ١٨ .

ومما يدل على اهتمام ابن طولون بكشف منابع النيل واحتمال ارساله من يقومون بكشفه ، أنه ألف فى عهده كتاب عن جغرافية النيـــل ، مؤلفه مجهول ، ولقد أشار المسعودى الى هذا الكتاب بقوله عنه : « رأيت فى كتاب جغرافيا النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنى عشر عينا فنقب تلك المياه الى بحيرتين هناك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمر برمال هنالك وجبال ويخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ فى عامر وغامر من عمران وخراب حتى يأتى أسوان من صعيد مصر »(٢٦) .

وجاء اهتمام الفاطميين الزائد ايضا بكشف منابع النيل ، وكان مرد هذا الاهتمام الى سببين رئيسيين : الأول هو الرغبة فى كشف هذه البلاد التى تمتد مع النيل جنوب مصر لنشر الاسلام والدعوة الفاطمية والمذهب الشيعى فيها بعد أن نقلوا دولتهم الى مصر ، والثانى ، محاولة تأمين مصر من خطر النيل وضمان وصول مياهه اليها بعد الجدب الذى تعرضت له البلاد أيام حكمهم سنوات عديدة بسبب نقص هذه المياه ، وبخاصة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ـــ ٤٨٧ هـ) .

وقد بدأ الفاطميون اكتشافهم لمنابع النيل منذ قيام دولتهم فى مصر ، ويشهد على ذلك تلك المحاولة التى قام بها الرحالة الجغرافى عبد الله بن أحمد ابن سليم الأسوانى ، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، بتكليف من الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وقائده جوهر الصقلى لكشف منابع النيل .

وابن سليم الأسوانى داعية فاطمى كلفه الخليفة المعز عقب الفتـــح الفاطمى لمصر بكشف منابع النيل والذهاب الى بلاد النوبة والسودان لدعوة مليكها لدخول الاسلام . وقد مر ابن سليم بجميع بلاد النوبة (مملكة مقرة) وعرج على مملكة علوة ووصل الى عاصمتها سوبا (الخرطوم الحالية) ، وحاول التوغل من الخرطوم شمالا فى جنوب السودان ولكنه لم يوفق فى الوصول الى أبعد من الخرطوم . ويحدثنا ابن سليم الأسوانى عن هـــذه المحاولة قائلا بما نصه : « ولقد أكثرت السؤال عن هذه المنابع وحاولت كشفها

---

(٢٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٢ ، نقلا عن المسعودى .

من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول انه وقف على جميع نهايه هذه الأنهار، والذى انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين أن نهايتها الى خراب »(٢٧) .
وقد دون ابن سليم الأسوانى جميع ما شاهده بعينه أو سمع عن النيل ومنابعه وعن بلاد السودان فى كتاب صنفه للخليفة المعز وجعل عنوانه : « أخبار النوبة والمقره وعلوة والبجة والنيل » وأهداه اليه . غير أن هذا الكتاب للأسف قد فقد وجاءتنا أخباره فى مصادر جغرافية وتاريخية كثيرة نقلت عنه ، وحفظ لنا المقريزى فى خططه الكثير مما نقله عنه فيما يتعلق بالنيل وبشعوب البجة والنوبة نقلا حرفيا . كذلك نقل عنه ابن عبد السلام فصلا عن النيل ومنابعه فى كتابه : « الفيض المديد فى اخبار النيل السعيد » .

وذكرت لنا المصادر التاريخية ومصادر الدولة الفاطمية أن عالما مصريا برز فى عهد دولة العزيز بالله الفاطمى ، ثانى خلفاء الفاطميين فى مصر ، يدعى الحسن بن محمد المهلبى ، قد قام برحلة طويلة فى بلاد السودان بتكليف من الخليفة ، وأنه ألف فى سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م كتابا فى الطرق والمسالك للخليفة بعد عودته من رحلته ، عنى فيه بتتبع منابع النيل ووصف ما شاهده بصدد هذه المنابع ، كذلك وصف بلاد السودان وصفا دقيقا . ولسوء الحظ أيضا فقد ضاع هذا الكتاب مثلما ضاع كتاب ابن سليم الأسوانى . ولم تصلنا الا معلومات قليلة عنه وعن محتوياته فى بعض المصادر(٢٨) .

وورد أنه كانت للخليفة الفاطمى « الحاكم بأمر الله » ، اهتمامات بنهر النيل ومنابعه ، بعد انخفاض حدث فى مياه هذا النهر فى عهده ، فرغب فى تأمين وصول مياه النيل الى مصر . لذلك استقدم من البصرة العالم العربى الشهير « الحسن بن الهيثم » لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل(٢٩) وعمل بحيرة تخزن فيها مياه النيل بالقرب من منابعه يؤخذ منها الماء وقت الحاجة . لكن هذا المشروع لم يتم لأن ابن الهيثم بعد أن قدم الى

---

(٢٧) ابن سليم الأسوانى : أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، نقلا عن خطط المقريزى ، نشرفييت ، القاهرة ١٩٢٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ .
(٢٨) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤ .
(٢٩) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٨٠ .

مصر وراجع حساباته مع النيل اكتشف وجود خطأ فى تلك الحسابات فاعتذر للخليفة عن اتمام المشروع .

ولعل أهم تلك المحاولات الكشفية لمنابع النيل التى جرت فى العهد الفاطمى تلك المحاولة التى تمت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، والتى رواها لنا الرحالة الفارسى المسلم ناصرى خسرو ، الذى زار مصر أيام حكم هذه الخليفة .

يقول ناصرى خسرو : « ويقال ان حقيقة منابع النيل لم تعرف ، وسمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطىء النيل سنة كاملة ودرسه ، ولكن أحدا لم يعرف حقيقة منبعه ، ويقال انه يأتى من جبل فى الجنوب يسمى جبل القمر» (٣٠) .

وقال الحافظ بن كثير ، عما رواه عن ابن زولاق ، فى تاريخه عن هذه المحاولة الكشفبة فى عهد المستنصر ان الخليفة « أمر قوما بالمسير الى حيث يجرى النيل فساروا حتى انتهوا الى جبل عال والماء ينزل من أعلاه وله دوى حتى لا يكاد يسمع أحدهم صاحبه وان أحدهم صعد الى الجبل لينظر فأراد ذلك فلما وصل أعلاه رقص وصفق وضحك ، ثم مضى فى الجبل ولم يعد ، فلم يعلم أصحابه ما شأنه . وفعل آخر مثل الأول فحدث له مثله ، وكذلك ثالث فقال اربطوا فى وسطى حبلا فاذا أنا وصلت الى ما وصلوا اليه ثم فعلت ذلك فأجذبونى حتى لا أبرح موضعى . ففعلوا ذلك فلما صار فى أعلى الجبل فعل كفعلهم فجذبوه اليهم فقيل أنه خرس فلم يرد جوابا فمات من ساعته ، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك »(٣١) .

ولعل السبب الذى دفع الخليفة المستنصر الى هذه المحاولة الكشفية لمنابع النيل ذلك الانخفاض الشديد الذى تعرض له منسوب النيل عدة مرات لسبع سنوات متصلة فى عهد هذه الخليفة ، مما تسبب فى الضائقة الاقتصادية والمجاعة الشديدة التى تعرضت لها مصر فى عهده ونسبت اليه وعرفت فى التاريخ بالشدة المستنصرية (٤٥٧ — ٤٦٤ هـ) .

---

(٣٠) ناصرى خسرو : سفرنامة ، ص ٨١ .

(٣١) ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٣٥٥٤٨ ، ورقة ١٠ .

ولقد تحدث المقريزى عن هذه الشدة فى كتابه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » ، وفى كتابه الخطط ، كما تحدث عنها كل من القلقشندى وابن تغرى بردى ، واكدوا ان الناس فى هذه المجاعة أكلوا الكلاب والقطط ، ثم تزايد بهم الحال حتى أكل بعضهم البعض .

يقول القلقشندى عن نقص مياه النيل فى عهد المستنصر وما قرأه عنه فى كتاب النيل : « أن الماء زمن المستنصر مكث سنتين لم يطلع وطلع فى السنة الثالثة واقام الى الخامسة لم ينزل ، ثم نزل فى وقته ونضب المـــاء عن الأرض فلم يوجد من يزرعها لقلة الناس . ثم طلع فى السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة ولم يبق الا صبابة من الناس ولم يبق فى الأقاليم ما يمشى على أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر »(٣٢) .

ويقول ابو المحاسن بن تغرى بردى : « أن القحط فى أيام المستنصر كان سبع سنين مثل سنى يوسف الصديق من سنة سبع وخمسين الى سنة أربع وستين وأربعمائة ، أقامت البلاد سبع سنين يطلع النيل فيها وينزل ولا يوجد من يزرع لموت الناس . فاستولى الخراب على كل البلاد ومات أهلها وانقطعت السبل برا وبحرا ، وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين »(٣٣) .

ويتحدث المقريزى تفصيلا عن هذه المجاعة الشديدة التى اصابت مصر آنذاك بسبب نقص مياه النيل بقوله : « وعظم الأمر بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الأقوات لما فسد من الأعمال بكثرة النهب وقطع الطريق حتى أكل الناس الجيف والميتات ، ووقف أرباب الفساد فى الطريق فصاروا يقتلون من ظفروا به فى أزقة مصر . فهلك من أهل مصر فى هذه الحروب والفتنـــة ما لا يمكن حصره . واستوى الجوع لعدم القوت وصار الحال الى أن بيع رغيف من الخبز وزنه رطل بزقاق القناديل بأربعة عشر درهما ، وبيع أردب من القمح بثمانين دينارا ، ثم عدم ذلك وأكلت الكلاب والقطاط ، ثم تزايد الحال حتى اكل الناس بعضهم بعضا »(٣٤) .

(٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٢.
(٣٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣ .
(٣٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

وواصل الأيوبيون جهود حكام الفاطميين فى محاولة كشف منابع النيل بعد ان ورثوا حكم مصر عنهم . وجاء هذا الاهتمام مع بداية قيام الدولة فى عهد حكم صلاح الدين على يد وزيره العالم القاضى الفاضل (ابو على عبد الرحيم بن الحسن البيسانى) المتوفى سنة ٥٩٦ هـ . ولقد ورد عن القاضى الفاضل اهتمامه بأمر النيل ورغبته فى كشف منابعه(٣٥) ، وكان قد عرف عنه حب الرحلة والاستكشاف وحبه لنهر النيل وتغنيه بأفضاله فى أشعار كتبها عنه ، اقتطف المقريزى بعضا منها واوردها فى كتاب خططه. ولم تحدثنا المصادر صراحة عن جهود فعلية قام بها القاضى الفاضل لكشف منابع النيل ، ويبدو أن مشاغله الكثيرة فى وقت تطلب التفرغ لمجاهدة الصليبيين حال بينه وبين ذلك .

وجاءت المحاولة الفعلية للكشف فى العهد الأيوبى على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ) . وقد ذكر هذه المحاولة كل من المؤرخين علاء الدين بن عبد الله الغزولى (ت ٨١٥ هـ) فى كتابه : « مطالع البدور فى منازل السرور » ، وابن ظهيرة فى كتابه : « الفضائل الباهرة » .

يقول الغزولى فى ذلك بما نصه : « كان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهى أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشترى عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جاب لم يستعربوا وسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وان يكون قوتهم من السمك لا غير فاذا مهروا تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل »(٣٦) .

ولعل محاولة الملك الصالح أيوب لكشف منابع النيل ، قد جاءت نتيجة لتعرض مصر لانخفاض فى مياه نيلها زمن حكم اخيه الملك العادل سيف

---

(٣٥) محمد حمدى المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٦ .

(٣٦) الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

ـ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، مخطوطة ، ورقة ٤٣ .

ـ ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٧٢ ، حاشية رقم (١) .

الدين ابو بكر سنوات ٥٩١ — ٥٩٨ هـ ، وما ترتب على ذلك من مجاعة تحدث عن تفاصيلها الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادى ، الذى زار مصر آنذاك (سنة ٥٩٧ هـ) .

وقد تحدث المقريزى فى خططه عن هذا الانخفاض فى مياه نهر النيل فى عهد السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر فقال :

« توقفت زيادة النيل ولم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع ، وشرقت أراضى مصر الا الأقل ، وغلت الأسعار وتندر وجــود الأقوات حتى أكلت الجيف وحتى أكل الناس بعضهم بعضا . وتبع ذلك فناء كبير ، وامتد ذلك ثلاث سنين ، فبلغت عدة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين الف انسان ، فكان بلاء شنيعا »(٣٧) .

ولم تذكر المصادر التى تحدثت عن دولة الأيوبيين مصير البعثة الكشفية التى أرسلها الملك الصالح أيوب الى أعالى النيل . هل نجح السلطان فى تنفيذ خطته على نحو ما رسم ، أو هل توقف المشروع ولم تصل البعثـــة الى بغيتها بسبب تعرض البلاد آنذاك لهجوم الصليبيين ، هذا ما لم تستطع المصادر الاجابة عنه وصمتت بمدنا بالمزيد عن معلومات هذه الرحلة الكشفية الهامة لمنابع النيل .

هذا وقد اشار ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار » عن محاولات فردية قام بها بعض المغاربة فى وقت قريب لتلك الحقبة ، وذكر أن أصحابها بالفعل وصلوا الى منابع النيل .

يقول العمرى : « حدثنى أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوى أن الأمير أبا دبوس (أبو العلاء ادريس الواثق بالله) ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بنى عبد المؤمن(٣٨) . قد وصلوا الى هذه البحــيرة (بحيرة فيكتوريا) فى أيام هربه من بنى عبد الحق ملوك بنى مرين القائمين الآن بفاس (سنة ٦٦٧ هـ) »(٣٩) .

---

(٣٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٣٨) وهو آخر سلاطين دولة الموحدين بالمغرب ، وحكم فى الفتــرة ما بين ٦٦٥ — ٦٦٧ هـ .

(٣٩) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

كذلك يحكى ابن فضل الله العمرى أن الشيخ سعيد الدكالى ، الذى أقام بمالى خمسا وثلاثين سنة مضطربا فى بلادها مجتمعا بأهلها ، حكى له قائلا : « ولقد توغلت فى أسفارى فى الجنوب مع النيل فرأيته متفرقا على سبعة أنهر تدخل فى صحراء منقطعة ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا يخرج من البحيرة الكبيرة »(٤٠) .

فى نهاية الأمر نقول ان العرب المسلمين حاولوا قدر جهدهم كشف منابع النيل فى العصور الاسلامية الوسطى ، وبتوقف محاولاتهم تجمدت هذه الجهود الى العصر الحديث . وظلت منابع النيل لغزا لم يمط اللثام عنه الا فى منتصف القرن التاسع عشر ، على يد بعض الرحالة والمستكشفين الأوروبيين أمثال : بروس وسبيك وجرانت وصموئيل بيكر . ولقد استفاد هؤلاء الرجال، دون شك ، من جهود المستكشفين العرب المسلمين وساروا على نفس دربهم . كذلك استفادوا من التسهيلات التى قدمتها لهم حكومات محمد على واسماعيل وسط ادغال افريقية من مواصلات حديثة متقدمة وغيرها ، والتى لولاها ولولا الأمان الذى وفرته هذه الحكومات لهم لتأخر زمن كشف منابع هذا النهر العظيم الى تاريخ لا يعرف توقيته الا الله .

---

(٤٠) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٧٠ ، ٧١.

علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك

(١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

دكتور قاسم عبده قاسم

كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧ م) قوة عالمية عظمى ، كما كانت هى القوة الكبرى فى أفريقيا وعالم البحر الأحمر ومن ناحية اخرى ؛ كان البحر الأحمر فى ذلك الزمان بحيرة عربية اسلامية تسيطر عليها الأساطيل المصرية ، وتحرم على سفن غير المسلمين دخوله لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وامنية(١) . وكانت مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قد اولت اهتماما متزايدا للبحر الأحمر باعتبارها حامية الحرمين الشريفين فى الحجاز من ناحية ، وبسبب أرباحها من التجارة العالمية المارة بهذا البحر من ناحية ثانية ، ثم اهتمامها بأحوال المسلمين فى شرق أفريقيا من ناحية ثالثة فضلا عن اهتمامها التقليدى بأمنها الذى يشكل البحر الأحمر محورا هاما من محاوره .

وعلى الجانب الآخر كانت الحبشة تلعب دور القوة المسيحية الكبرى فى شرق القارة السمراء(٢) وعالم البحر الأحمر أيضا ، كما كانت مصالحها

---

(١) عرف البحر الأحمر فى المصادر التاريخية العربية باسم « بحر القلزم » أو « بحر الحجاز » المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٥ ، ص ٢١٢ ، ص ٣٤١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٦ .

(٢) كانت الحبشة آنذاك تمتد من حدود امبراطورية مالى فى غرب أفريقيا ، ويتضح من كلام المقريزى والقلقشندى أنها كانت تضم الى جانب الحبشة الحالية ، أقاليم دارفور وبحر الغزال والنيل الأبيض فى السودان الحالى ، فضلا عن سيادتها على مناطق شرق أفريقيا التى عرفت باسم « الطراز الاسلامى » ـ انظر :

المقريزى ، الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٠٢ — ٣٢٨ .

Ziada, M. M., Forlign Relations of Egypt in the 15bh century (Liverpoole 1930), p. 114.

السياسية والاقتصادية والدينية تفرض عليها أن تمد خيوط علاقاتها لتلتقى مع خيوط المصالح المصرية ، فوق مياه البحر الأحمر ، وعلى تراب القارة السمراء .

وهكذا كانت علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك محكومة بحقائق الجغرافيا ، وتوجهات السياسة ، وخبرة التاريخ ، فضلا عن المصالح الاقتصادية والروابط الدينية . ومن نافلة القول أن ننبه الى أن هذه كلها لم تكن من نتاج العصر الذى نهتم بدراسته وانما كانت نتاجا لتراكمات تاريخية فرضتها حقائق الموقع والمجال الحيوى لكل من مصر والحبشة آنذاك .

لقد فرضت الظروف والأحداث التاريخية التى شهدتها المنطقة فى منتصف القرن الثالث عشر أن تقوم مصر بدور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الاسلامى وعن الحضارة العربية الاسلامية(٣) . أما الحبشة ، فقد سيطرت سياسيا على جزء من ساحل أفريقيا الشرقى الذى قامت على ترابه عدة امارات ودويلات عرفها مؤرخو ذلك الزمان باسم «الطراز الاسلامى»(٤). كما أن نجاشى الحبشة — الذى عرفته مصادر عصر سلاطين المماليك باسم الحطى — كان يعتبر نفسه مسئولا عن حماية الأقباط فى مصر . وقد تدخل لصالحهم أكثر من مرة كما سنرى فى هذه الدراسة .

بيد أن المصالح التجارية لعبت هى الأخرى دورا هاما فى تحديد مسار العلاقات بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك ، اذ كانت امارات « الطراز الاسلامى » ، ولا سيما امارة « أوفات » ، تتحكم فى الطريق

---

(٣) قامت دولة سلاطين المماليك نتيجة لهزيمة حملة لويس التاسع على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، ثم تدعم وجودها نتيجة للانتصار على المغول فى معركة عين جالوت بعد ذلك بعشر سنوات . ومنذ ذلك الحين بدأت تفرض سيادتها على المنطقة العربية لقتال الصليبيين ثم اكتسبت مكانتها بعد احياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

(٤) قال القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤) انها فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وما يتصل به من بحر الهند (وهى ما يعرف حاليا باسم « القرن الافريقى ») ، ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له . وهى سبع امارات : وفات (أوفات) وهى جبرة التى ينسب اليها الجبرتى ، وزيلع ، ودوارو ، وأرابينى ، هدية ، شرحا ، بالى ، ثم دارة .

التجارى الذى كان يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر . وقد ادى هذا الموقف الى تعاظم ثروة امارات الطراز الاسلامى بحيث أسالت لعاب الطمع فى الحبشة المسيحية . من ناحية أخرى ، كانت لمصر مصالح تجارية حيوية فى هذا الجزء من افريقيا . كما لفتت انظارها ومشاعرها تلك الحملات العنيفة التى بدا الأحباش المسيحيون يشنونها على المسلمين فى شرق افريقيا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

وعندما تصاعد الدور الأوربى فى عالم البحر المتوسط — نتيجة نجاح الحملة الصليبية الأولى — فى القرن الثانى عشر ، ثم بداية الالتفاف والتوغل الأوروبى فى مياه المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر ، وجد ملوك الحبشة المسيحيون فى هذه التطورات العسكرية والسياسية الناجمة عن نشاط الصليبيين فى البحر المتوسط ، والنشاط البرتغالى فى المحيط الهندى ما يغريهم على صياغة مشروعات صليبية الطابع مع القوى الأوروبية ضد مصر . وكان ذلك انعطافا خطيرا فى العلاقات بين مصر والحبشة آنذاك .

لقد اتخذت العلاقات المصرية/الحبشية فى عصر سلاطين المماليك أبعادا ثلاثة : أولها : البعد الاقتصادى ، الذى تمثل فى المصالح التجارية لكل من البلدين فى داخل أفريقيا وفى تجارة البحر الأحمر العالمية . وثانيها : البعد الدينى الذى تجسد فى الروابط الدينية التى جمعت بين مصر ومسلمى الطراز الاسلامى من ناحية ، والحبشة وكنيسة الأقباط فى مصر من ناحية أخرى . أما البعد الثالث : فقد جسدته العلاقات السياسية والعسكرية التى كانت بدورها انعكاسا لحركات المد والجزر فى العلاقة فى بعدها الاقتصادى وبعدها الدينى . ولنبدأ فى معالجة كل من المسارات الثلاثة التى اتفقنا عليها .

***

واذا بحثنا فى البعد الاقتصادى لوجدنا أن الظروف الناجمة عن الغزو المغولى ، الذى بدأ يجتاح المناطق الاسيوية منذ عهد جنكيزخان حتى داهم الخلافة العباسية ببغداد فى خمسينيات القرن الثالث عشر الميلادى ، قد أدت الى تحول طرق التجارة العالمية الى مصر وطريق البحر الأحمر . وبذلك صارت لمصر مصالح تجارية حيوية فى البحر الأحمر . فقد وصل المغول

الى فارس والعراق وشرق آسيا الصغرى ، وبذلك انقطعت القوافل التجارية بين أوربا والشرق عن ارتياد ذلك الطريق ، وتحولت الى الطريق عبر مصر والبحر الأحمر .

وقد تميز طريق البحر الأحمر التجارى بميزتين هامتين تتعلق أولاهما بالتجارة العالمية وهى سيادة الأمن على طول هذا الطريق بسبب قوة الدولة المملوكية ومهابتها فى طور صعودها ، على حين تتصل الميزة الثانية بتجارة البحر الأحمر الداخلية ، اذ كان هذا البحر سوقا لتبادل المنتجات التى توفرها البلاد الافريقية الداخلية والتى تطل على البحر ، فقد كان البحر الأحمر الطريق الأساسى لمنتجات امارات الطراز الاسلامى ، فضلا عن منتجات الحبشة وأفريقيا الوسطى وبلاد البجاة . ومن المهم ان نشير الى أن البجاة كانوا يقومون بدور الواسطة فى العلاقات التجارية بين مصر والحبشة . وكانت عاصمتهم سواكن . وقد وصفهم القلقشندى بأنهم سكان المنطقة الواقعة ما بين نهر النيل والبحر الأحمر جنوبى الصعيد ، وفى عصر المماليك الجراكسة كان حاكمهم عربيا ، وله مكاتبة عن الأبواب السلطانية(٥) . وهكذا امتدت خيوط الروابط التجارية بين مصر والحبشة فى اتجاهين : أحدهما يهتم بمصالح مصر ودورها فى التجارة العالمية التى تستخدم البحر الأحمر ، على حين يهتم الانجاه الثانى بالتجارة الداخلية بين الدول الافريقية ، سواء الداخلية منها أو تلك التى تطل على البحر الأحمر .

هذه المصالح التجارية ، بجناحيها العالمى والمحلى ، هى التى حكمت علاقات مصر بعالم البحر الأحمر على مستوى العلاقات الاقتصادية التى تبادلت التأثير والتأثر مع العلاقات السياسية والدينية . وقد اهتم سلاطين المماليك

---

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٧٤ . وكان البجاة خليطا من المسلمين والمسيحيين والوثنيين . ومنذ القرن السابع الميلادى ذكرهم المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم وهو يتحدث عن حملات عبد الله بن سعد ابن أبى السرح . ومنذ ذلك الحين اختلطت بهم بعض القبائل العربية التى استوطنت أرض البجاة ، ومع مرور الزمن تصاعد الوجود العربى فى تلك الأنحاء حتى انتشرت اللغة العربية والاسلام فى مناطق البجاة لتقترب من حدود الحبشة التى كانت تضم بعض مناطق السودان الحديث (حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص ٤١٩ — ص ٤٢٥) .

بانشاء الوكالات التجارية المصرية على طول شاطىء هذا البحر ، كما اهتموا بتأمين طرق القوافل التجارية على البر . واخذ الأسطول المصرى يجوب مياه البحر الأحمر من السويس الى عدن مطاردا القراصنة كما امتدت فوق الأرض المصرية شبكة من الطرق البرية والنهرية ، وقامت على ضفاف نهر النيل عدة موانىء لخدمة التجارة العالمية كان أهمها فى القرن الأول من عصر سلاطين المماليك ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومدينة قوص فى الوادى(٦) .

والواقع ان التجارة على الساحل الشرقى لافريقيا قد نشطت منذ القرن الثانى عشر الميلادى بسبب الحروب الصليبية التى أدت الى استخدام طرق القوافل البرية التى امتدت شبكتها فى القارة الافريقية ، وكان أهم ما تنقله هذه القوافل العاج والذهب اللذين اشتد الطلب عليهما فى أسواق غرب أوربا(٧) . وكانت امارات الطراز الاسلامى على الشاطىء الشرقى لافريقيا تقوم بدور المعبر الهام لهذه التجارة التى ازداد نشاطها بعد غزوات المغول .

ومنذ البداية اشتدت المنافسة بين موانىء البحر الأحمر على نقل التجارة العالمية وتجارة أفريقيا الداخلية . فكانت موانىء مصوع وسواكن تختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة حيث كانت القوافل القادمة عن طريق البر تحمل اليها الرقيق والشمع والعسل من بلاد النوبة . كذلك كانت سفن دول افريقيا والبحر الأحمر تتجمع بمينائى زيلع وبربرة اللذين كانا بمثابة المركز الذى تتجمع فيه تجارة الحبشة والنوبة . وفى ميناء زيلع كانت تعقد أسواق العبيد والمعادن واللؤلؤ(٨) .

وكانت امارة أوفات الاسلامية (جبرة أو جبرت) تتحكم فى الطريق

---

(٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠١ ، وقد ظل تجار الحبشة ، وغيرهم ، يردون فى البحر الأحمر الى عيذاب ثم يسلكون الصحراء الشرقية الى قوص ثم العاصمة المصرية . وقد استمر الحال كذلك حتى سنة ٧٦٠ هجرية ، فتلاشى أمر ميناء عيذاب واحتلت عدن مكانتها (الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٢) .

(٧) الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط (الهيئة العامة للكتاب) ، ص ٢٠٠ .

(٨) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١٤١ — ص ١٤٢ .

التجارى الذى يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر(٩) . وقد ذكر « القلقشندى » أن امارة أوفات كانت أوسع الممالك الاسلامية السبع التى تكون « الطراز الاسلامى » وأنها أقربها الى مصر(١٠) أما امارة هدية فكانت مركزا لتوريد الرقيق الذين كانوا يخصونهم فى قرية قريبة منها(١١) . وقد ازدهرت هذه الامارات وزاد ثراؤها من دورها فى تجارة أفريقيا والبحر الأحمر بحيث استقلت عن الحبشة ، ثم دخلت معها فى سلسلة من الحروب الطاحنة كما سنرى فى صفحات هذا البحث .

ومنذ البداية أدرك سلاطين المماليك أهمية تأمين الطريق التجارى البحرى والبرى بين مصر وافريقيا ، فقد ذكر « ابن عبد الظاهر » أن صاحب سواكن المسمى « علم الدين أسبعانى » ، الذى كان معاصرا للسلطان « الظاهر بيبرس » كان قد اعتاد التعرض للتجار المصريين واخذ ميراث من يموت منهم فى البحر ، ومنع أولاده منه ، فأرسل يحذره هو وصاحب جزر دهلك المواجهة لمصوع ، ولما لم يجد منهما استجابة لاحتجاجه أمر بتجريد حملة بحرية لاخضاع سواكن فى سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٦٥ م). وبالفعل قامت حملة بقيادة والى قوص واخميم ، وهرب صاحب سواكن التى تم اخضاعها لمصر . ومنذ ذلك الحين كانت هناك حامية عسكرية مصرية دائمة فى سواكن عاصمة بلاد البجاة التى كانت ممرا للتجارة بين مصر والحبشة(١٢) .

---

(٩) عبد الرحمن زكى ، الاسلام والمسلمون فى أفريقيا ، ص ٢١٣ — ص ٢١٥ ، حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص ٤٣٢ — ص ٤٣٣ .

(١٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٥ .

(١١) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٣٢٨ .

(١٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٢٤٨ — ص ٢٤٩ . والجدير بالذكر أن مصر كانت تصدر الى الحبشة البلسان أو البلسم الذى كان ينمو فى المطرية من ضواحى القاهرة ، وكان المسيحيون يحرصون عليه ولا يساوونه بذهب أو فضة لاعتقادهم انه يروى من بئر اغتسل فيها المسيح حين تدمت به امه الى مصر (القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٨٣) كذلك كان شحم البقر يصدر من مصر الى دول الساحل الافريقى وغيرها لاستخدامه فى دهان السفن ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، ص ١٣٤ .

وظلت سياسة المماليك قائمة على أساس الحفاظ على أمن طريق التجارة بين مصر وافريقيا ودول البحر الأحمر .

بيد أن تدهور البناء الداخلى لدولة المماليك الجراكسة لم يلبث أن انعكس على علاقاتها التجارية بعالم البحر الأحمر وأفريقيا . ذلك أن حاجة السلاطين المتزايدة الى الأموال جعلتهم يشتطون فى تقدير قيمة الضرائب التى فرضوها على التجار القادمين فى البحر الأحمر الى ميناء جدة الخاضع لهم . وقد تدهورت الموانىء المصرية لدرجة ان « ابن اياس » يذكر فى حوادث سنة ٩٢٠ هجرية (١٥١٥ م) ان المراكب لم تدخل جدة مدة تقرب من ست سنوات(١٣) .

ومن ناحية أخرى ، ادى نجاح البرتغاليين فى الوصول الى مياه المحيط الهندى فى سنة ١٤٨٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » الى حصار المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بحيث تحولت السفن المحملة بالتوابل الى لشبونة عن طريق راس الرجاء الصالح . وقد ذكر « المؤرخ اليمنى « يحيى بن الحسين » أن البرتغاليين قد فشلوا عدة مرات فى الدوران حول افريقيا للوصول الى المحيط الهندى ، ثم « ... دلهم على الطريق رجل ماهر من أهل البحر يقال له « أحمد بن ماجد » بسبب أن كبير الافرنج احسن اليه ولاطفه ... »(١٤) . فقد كان « فاسكو دا جاما » فى ملندى بشرق أفريقيا سنة ١٤٩٨ م يبحث عن أحد الأدلاء ليقوده الى الهند ، وهناك لم يجد سوى « أحمد بن ماجد » الذى كان ملاحا ممتازا ، وكان قد وضع دليلا بحريا استند فيه الى خبرته الشخصية الى جانب كتب السابقين(١٥) .

وهكذا بات الخطر البرتغالى يهدد البحر الأحمر ذاته . وعلى الرغم من النجاح الجزئى الذى أحرزه السلطان « قنصوه الغورى » ، وقائد اسطوله

---

(١٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ ، كما يذكر فى موضع آخر (ج ٥ ، ص ٩٠) أن التجار امتنعوا عن دخول ميناء جدة « ... وآل أمره الى الخراب .. » .

(١٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ — ص ٦٣٢ .

(١٥) جورج فاضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة الدكتور يعقوب بكر — الأنجلو ١٩٥٨ م) ، ص ٢٣٧ .

« حسين الكردى » فى ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ، فان تدهور الأحوال الداخلية فى مصر فى أواخر عصر سلاطين المماليك جعل مقاومة المحاولات البرتغالية غير ذات جدوى(١٦) . فمنذ نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند بحرا عن طريق راس الرجاء الصالح ، أخذ طريق البحر الأحمر التجارى يفقد قيمته تدريجيا . وكان طبيعيا أن تتدهور موانىء هذا البحر منذ ذلك الحين . وضاع طريق البحر الأحمر ليعود ثانية بعد افتتاح قناة السويس .

وعلى صعيد العلاقات الدينية ، كانت علاقة مصر بالحبشة محكومة بحقيقتين هامتين **أولاهما** : تتمثل فى الوجود الاسلامى شرق الحبشة ، **وثانيتهما** : العلاقة الوثيقة التى كانت تربط كنيسة الحبشة بالكنيسة القبطية .

وبالنسبة للوجود الاسلامى فى شرق الحبشة، فان التاريخ يذكر لنا أن ثمة علاقة مبكرة قد قامت بين المسلمين والحبشة منذ هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة فرارا من اضطهادات المكيين لهم .

بيد أن أول احتكاك بين الدولة العربية الاسلامية والحبشة كان فى عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » حين ارسل اسطولا صغيرا لغزو الحبشة سنة ٢٠ هـ تقريبا بقيادة « علقمة بن مجزر المدلجى »(١٧) . وباءت تلك الحملة بالفشل . وطوال العصور التالية زاد الوجود العربى الاسلامى بطريقة سلمية فى الحبشة وشرق افريقيا ، خصوصا فى أرخبيل دهلك المواجه لمصوع على الساحل الصومالى . ومن ناحية أخرى كان من نتيجة التبادل التجارى، بين اليمن والحجاز من ناحية والحبشة وشرق أفريقيا من ناحية ثانية ، أن رحلت مجموعة من التجار العرب المسلمين الى هذه الأنحاء ، واستقروا فى جبرت (أوفات) وسموا بعد ذلك « الجبرتية »(١٨) . وكانت تلك نواة امارات

---

(١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٢ — ص ١٨٥ م . وقد ذكر فى حوادث سنة ٩١٦ هجرية أن أمير مكة قبض على ثلاثة من البرتغاليين متخفين فى زى الأروام .

(١٧) حسن أحمد محمود ، الاسلام والثقافة العربية ، ص ٤٢٦ —٤٣٣.

(١٨) كانت هذه المجموعة من المستوطنين المسلمين الأوائل من قبيلة قريش على ما يبدو وذكر بعضهم أنهم من بنى هاشم من سلالة بنى عبد الدار، على حين زعم البعض الآخر انهم من سلالة على بن ابى طالب — انظر : المقريزى ، الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٩ .

« الطراز الاسلامى » التىازدهرت فيما بين القرن الرابع الهجرى والقرن السابع الهجرى (العاشر/الثالث عشر الميلادى) . وقد امتد نفوذهم على مناطق الساحل الشرقى الافريقى بحيث تكونت ممالكهم السبع بفضل دورهم فى التجارة المحلية وتحكمهم فى طريق تجارة الحبشة الى موانىء البحر الأحمـر .

وقد وصف « القلقشندى » و« المقريزى » هذه الامارات وصفا دقيقا اعتمادا على ما ذكره « العمرى » صاحب « مسالك الأبصار » ، وروايات التجار والفقهاء الذين زاروا هذه المناطق . وقد حددها « القلقشـندى » جغرافيا بأنها تقع على الساحل الشرقى لافريقيا « ... المقابلة لبر اليمن على أعالى بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها الطـراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له ... »(١٩) . وقد عرفت هذه البلاد فى مصر وبلاد الشام باسم « بلاد الزيلع » على الرغم من أن الزيلع « ... قرية من قراها ، وجزيرة من جزائرها غلب عليها اسمها ... »(٢٠) .

هذه الامارات السبع هى : أوفات (جبرة ، أو جبرت) التى كانت أقوى امارات الطراز الاسلامى وأكثرها عسكرا وأقربها الى مصر ، وكانت زيلع احدى مناطقها يفد اليها التجار فيرحب بهم أهلها ، وكانت مركزا هاما من مراكز التبادل التجارى لمنتجات داخل الحبشة ودول البحر الأحمر . والامارة الثانية هى « دوارو » ، والثالثة « أرابينى » ، والرابعة « هدية » التى كانت مركزا هاما من مراكز تجارة الرقيق الافريقية . وكانت هناك قرية قريبة اسمها « وشلو » يخصون بها العبيد « ... أهلها همج لا دين عندهم ، فتخصى بها العبيد ، ولا يقدم على هذا فى جميع بلاد الحبشة سواهم .. » . والامارة الخامسة « شرحا » ، والسادسة « بالى » ، ثم الامارة السابعة « دارة » التى كانت أضعف امارات « الطراز الاسلامى »(٢١) .

وكانت هذه الامارات السبع خاضعة للنفوذ السياسى لملك الحبشـة

---

(١٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ .
(٢٠) المقريزى ، الالمام ، ص ٢ .
(٢١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ . ، المقريزى ، الالمام ، ص ٢ — ٩ .

الذى كان نفوذه يشمل تسعة وتسعين ملكا من حكام الولايات منهم سبعة مسلمون كانوا يؤدون له ضريبة سنوية من المال والقماش وغيره .

وقد تداخلت العلاقات السياسية بالعلاقات الدينية فى ذلك الزمان بشكل يصعب تحديد مداه . ومن ثم كانت العلاقات بين الحبشة وامارات « الطراز الاسلامى » من أهم نقاط التوتر فى العلاقة بين مصر والحبشة ، فقد كان سلاطين المماليك يعتبرون أنفسهم مسئولين عن المسلمين فى تلك الأنحاء . كما أن موقع هذه الامارات فى منطقة القرن الافريقى ذات الموقع الحاكم فى البحر الأحمر كان يجعل مصر والحبشة يهتمان بهذه المنطقة لاعتبارات أمنية .

وعلى الصعيد السياسى/العسكرى تدهورت العلاقات بين البلدين أحيانا بسبب الحروب التى شنها الملوك الأحباش ضد امارات الطراز الاسلامى . وهى حروب استمرت ، بشكل متقطع منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . ولم يكن سلاطين المماليك بقادرين على التدخل المباشر لصالح مسلمى الحبشة ، ومن ثم فأنهم لجأوا الى الطرق الدبلوماسية أحيانا ، والضغط عن طريق بطريرك الأقباط الذى كان الزعيم الروحى للاحباش أحيانا أخرى . والحقيقة أن قانون كنيسة الأحباش الذى كان يجعل من الضرورى تعيين مطران يعقوبى قبطى لرئاسة الكنيسة الحبشية هو الذى جعل ملوك الأحباش يهتمون برد فعل سلاطين المماليك ولا يواصلون حروبهم الوحشية ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى .

والجدير بالذكر أن العلاقات بين مصر والحبشة كانت قد توقفت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بسبب الحروب الأهلية واضطراب الأمن فى الحبشة . وفى سنة ١٢٧٠ م بدا حكم الأسرة السليمانية عندما اعتلى العرش النجاشى « يكونو أملاك » (٧٠ — ١٢٨٥ م) ، فتمت المصالحة بينه وبين الكنيسة الحبشية . وعلى الرغم من كراهيته لمسلمى الطراز الاسلامى بسبب اتساع نفوذهم وسيطرتهم على الموانىء والتجارة ، فانه سعى لتحسين العلاقات مع مصر حيث يقيم البطريرك القبطى صاحب السلطة على كنيسة الحبشة . وأرسل « يكونو املاك » الى السلطان « الظاهر بيبرس » سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) برسالة ضمن كتاب صاحب اليمن ، الذى طلب نجاشى الحبشة وساطته ، يطلب مطرانا لكنيسة الحبشة . وقد حفظت

لنا المصادر العربية نص هذه الوثيقة والرد المصرى عليها(٢٢) . وتشير الوثيقة الى أن الملك الحبشى قد أرسل هدية الى السلطان بيبرس ، كما تحمل بين سطورها تهديدا خفيا بذكر المسلمين الخاضعين لسلطة ملك الحبشة . وقد رفض الظاهر بيبرس ارسال المطران الى الحبشة نظرا لما بلغه من هجوم « يكونو أملاك » على امارة أوفات وحلفائها . ومع ذلك فان الرد الرسمى رفض الطلب الحبشى بحجة عدم حضور رسول من جهة نجاشى الحبشة « .. حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ... » . وقد أدى هذا الموقف من جانب بيبرس الى عقد هدنة مع أوفات(٢٣) .

والواقع أننا لا نقصد أن نقدم هنا رصدا زمنيا تتابعيا (كرونولوجى) لأخبار الحروب بين مسلمى الحبشة والملوك الأحباش المسيحيين ، ولكن ما يهمنا أن نضع بعض نماذج التدخل المصرى فى عصر سلاطين المماليك لصالح المسلمين . ففى سنة ٧٢٦ هـ وصلت رسالة من نجاشى الحبشة « عمدا صهيون » (١٤ — ١٣٤٤ م) الى السلطان الناصر « محمد بن قلاون » يعبر فيها النجاشى عن غضبه لما حدث من تخريب لكنائس الأقباط ، ويهدد باضطهاد المسلمين فى الحبشة ، وبسد مجرى النيل حتى لا يسير الى مصر فسخر منه السلطان ورد رسله . وربما كان موقف الناصر محمد ناجما عن الأخبار التى وصلته عن هجوم الملك الحبشى على المسلمين وهو ما جعله يأمر البطريرك بالتدخل(٢٤) .

---

(٢٢) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٣٨٣ — ٣٨٧ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٣) حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية ، ص ٤٥٢ — ٤٥٤ ، زاهر رياض ، الاسلام فى أثيوبيا ، ص ١٦٩—١٧٠ ، سعيد عاشور ، « بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية/١٩٨٦/١٤ ، ص ١٦ .

(٢٤) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠ . وربما كان هذا الموقف ناتجا عن وجود البعثة الدومينيكانية التى أرسلتها البابوية الى أفريقيا للبحث عن القديس جون ومملكته الأسطورية — انظر : الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان ، ص ١٢٠ — ١٢٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ .

وفى عهد النجاشى « سيف أرعد » (١٣٤٤ — ١٣٧٢ م) تم القبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين فى الحبشة ، وأعدم بعضهم على حين أرغم البعض الآخر على اعتناق المسيحية ، كما سارت فرقة من الجيش الحبشى لاعتراض طريق القوافل التجارية بين مصر والحبشة . ولكن السلطان الناصر « حسن بن محمد بن قلاون » تدخل فى حل المشكلة التى تسبب فيها « الأمير شيخو » وطلب من البطريرك مكاتبة ملك الحبشة وارسل له عددا من الأساقفة(٢٥) .

وفى عصر الجراكسة استمرت العلاقات السياسية بين مصر والحبشة على ما هى عليه من تذبذب بسبب الروابط الدينية التى تربط بين مسلمى الحبشة ومصر . وكانت أولى الحوادث فى صفحة العلاقات السياسية بين الدولتين هى تلك الحادثة التى اشارت اليها المصادر المعاصرة(٢٦) وملخصها أن نجاشى الحبشة « داود بن سيف أرعد » (١٣٨١ — ١٤١١ م) قد هاجم حدود مصر الجنوبية سنة ٧٨٣ هجرية (١٣٨١م) وعاث فيها فسادا » ... ونال أهل الاسلام منهم بلاء كبير ... « . فقام الأمير الكبير برقوق (الذى اعتلى العرش فيما بعد تحت لقب الظاهر برقوق) باستدعاء الأنبا متاؤس بطريرك الأقباط وأمره بكتابة رسالة الى النجاشى ينهاه فيها عن مهاجمة مصر مرة ثانية . وعلى الرغم من أن كلا من « المقريزى » « وابن حجر » يذكران أن سفارة سافرت من مصر الى الحبشة برسالة حملها « برهان الدين الدمياطى » ، وعادت بعد ثلاث سنوات(٢٧) ، فاننا نميل الى رأى الشاطر بصيلى الذى يستبعد قيام الأحباش بهذه الغارة لبعد المسافة ووعورة الطريق(٢٨) .

وعلى أية حال ، فان العلاقات بين الدولتين سادها طابع الود

---

(٢٥) كان الأمير شيخوقد سجن البطريرك فى الاسكندرية فاهتاج ملك الحبشة لذلك وأفرج السلطان عن البطريرك وراسل ملك الحبشة بقصد التخفيف عن المسلمين هناك . (الشاطر بصيلى ، المرجع السابق ، ص ٥٦) .

(٢٦) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ — ٤٤٧ .

(٢٧) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص٤٤٧ .

(٢٨) الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

والاستقرار فى عهد السلطان « الظاهر برقوق » وابنه « الناصر فرج » كما يبدو واضحا من أخبار السفارات المتبادلة التى حملتها لنا مصادر تلك الفترة ، فقد سافر « برهان الدين الدمياطى » الى الحبشة كما اسلفنا القول وعاد منها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م)(٢٩) . وبعد وصوله بعامين جاء الى مصر وفد حبشى بهدايا فاخرة « ... فيها من طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على قدر الحمص ... »(٣٠) كذلك فان لدينا وثيقة هامة هى نص خطاب النجاشى « داود بن سيف أرعد » للسلطان برقوق(٣١) . وفى هذه الوثيقة يقرر الملك الحبشى أن بلاده مفتوحة أمام التجار والمسافرين ، ويذكره بما كان بين جده « عبد سنون » ، والملك « الناصر ممحد بن قلاون » من محبة واتفاق . ويخبره بوصول رسالة البطريرك متاؤس والرسالة التى حملها « برهان الدين الدمياطى » . ثم يدخل فى صميم موضوع رسالته حين يقول انه لا يلحق بالمسلمين فى بلاده أى أذى ، وأن أى اخبار تصل السلطان المصرى عن اضطهاد المسلمين فى الحبشة أخبار كاذبة . ومن الطريف انه يزعم أنه يأمر قومه بصرف المياه الزائدة عن النيل حتى لا يصل الى مصر ويغرقها . وبعد أن يتحدث عن حسن معاملة التجار الواردين من الديار اليمنية والمصرية والحجازية يقول ان المسلمين فى بلاده ينعمون بالأمان . ثم يطلب حسن معاملة النصارى بالديار المصرية ويهدد صراحة « ... ومهما فعلتموه مع أبينا البطرك واخوتنا النصارى من الخير والشر ، فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين فى حوزتنا وفى سلطاننا ... » . ثم يختتم الرسالة باستعراض قوة بلاده وعظمتها .

ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت من جديد بين مصر والحبشة بسبب الهجمات التى شنها هذا النجاشى وخلفاؤه ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى منذ سنة ٨٠٥ هجرية (١٤٠٢ م) وربما يكون السبب فى هذا التحول ما طرأ على تسليح الجيش الحبشى وتدريبه من تحسن وتطور بفضل

---

(٢٩) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٥٥٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٣١) ضمن مجموعة سيرة برلام يواصف — مخطوط بمكتبة الأقباط الارثوذكس ، نقلا عن كتاب : أمين حكيم عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١٧٦ — ص ١٨٠ .

مساعدة بعض امراء المماليك وبعض أرباب الادارة المصرين الذين رحلوا الى بلاط النجاشى . فقد ذكر المقريزى أنه فى عهد النجاشى « اسحق بن داود بن سيف أرعد » (١٤١٤—١٤٢٩ م) غر والى قوص المدعى « الطنبغا مفرق » الى بلاط هذا الملك ، وعلم اتباعه لعب الرمح ، ورمى النشاب وغير ذلك من ادوات الحرب ، ثم لحق به بعض المماليك الجراكسة ممن لديهم الخبرة فى ترتيب خزائن السلاح (الزردخاناة) « ... فعمل له زردخاناه ملوكية ، وتوجه اليه مع ذلك رجل من كتاب مصر الأقباط النصارى — يقال له فخر الدولة — فرتب له مملكته ، وجبى له الأموال ، وجند له الجنود ... »(٣٢) .

فقد شن هذا الملك هجوما عنيفا ضد امارات الطراز الاسلامى سنة ٨٢٢ هـ مما جعل السلطان المؤيد شيخ يتخذ بعض الاجراءات ضد المسيحيين فى مصر والشام(٣٣) وفى سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) قام السلطان الجديد « برسباى » باغلاق كنيسة القيامة فى بيت المقدس انتقاما مما جرى للمسلمين فى الحبشة ، وبسبب غارات القراصنة الكتلان على الشواطىء العربية فى تلك السنة . وكان رد الفعل عنيفا من جانب النجاشى اسحق بن داود (جبرا مصقل) الذى وضع السيف فى رعاياه المسلمين ، وهاجم أوفات وأهان المساجد والمسلمين . وهاج برسباى عندما بلغته تلك الأنباء . وهدد بمذبحة عامة ضد جميع رعاياه المسيحيين(٣٤) .

ويبدو ان هجوم ملوك الحبشة المسيحيين على دول الطراز الاسلامى قد بلغ مستوى عاليا من العنف بسبب تطور الجيش الحبشى بفضل الخبرة المصرية ، بحيث فر ولدا « سعد الدين المجاهد » الى اليمن سنة ٨٢٥ هـ حيث استقبلهما سلطان تغر فى جنوب اليمن واكرمهما وجهزهما بمائتى فارس

---

(٣٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٣ ، ص ١٩٤—١٩٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ،ص ٤٩٢ — ٤٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٨١ — ٨٤ ، العينى عقد الجمان ، حوادث ٨٢٢ هـ (مخطوط).

(٣٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٦٠ ، المقريزى، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦٤٩ .

بعتادهم معادا الى الحبشة لمواصلة الحرب ضد الأحباش(٣٥) . وفى سنة ٨٣٣ هـ هاجم نجاشى الحبشة أوفات « ... فقتل وسبى وأسر عالما عظيما ، وكان ممن أسرهم منصور ومحمد ولدا السلطان سعد الدين بن أحمد بن على ابن ولصمع الجبرتى .. ملك المسلمين بالحبشة ... »(٣٦) .

ولكن النجاشى « زرعا يعقوب» (١٤٣٤ — ١٤٦٨ م) أرسل سفارة تحمل طلبا باعادة العلاقات الودية بين مصر والحبشة ، ووصلت السفارة سنة ٨٤٧ هجرية (١٤٤٣ م) ، وتضمنت الرسالة بعض عبارات التهديد التى اثارت غضب السلطان « دقمق »(٣٧) . فقد جاء بها ما نصه « ... وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر اليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع ازيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى اليكم ، لأن لنا بلادا انفتح لها أماكن سوقانية يتصرف فيها الى أماكن أخرى قبل أن يجيىء اليكم ، ولا يمنعنا من ذلك الا تقوى الله والشفقة على عباده ... » .

وغضب السلطان جقمق « ... ولكنه سلك طريقة وسطى ... » وارسل سفارة بهدية الى الحبشة ، رفض فيها مطالب ملك الحبشى ، ولم يشأ الاستماع الى دعاوى النجاشى « زرعا يعقوب » بشأن التسامح تجاه المسلمين الأحباش ، لأنه كان يعرف تماما جهوده من خلال رجال السلك الكهنوتى من المصريين والأحباش فى مجمع فلورنسا للحصول على مساعدة أوربا لتدمير القوى الاسلامية فى الحبشة(٣٨) .

والواضح من سياق الأحداث أن « زرعا يعقوب » لم يرض برد السلطان المملوكى فاحتجز الرسول المصرى وهدده بالقتل ، ثم أرغم الرسول المصرى على الركوب لميدان القتال حيث شاهد بنفسه هزيمة « شهاب الدين » ملك عدل وذبح أخيه « خير الدين » . وكان رد الفعل عنيفا لدى « جقمق » ،

---

(٣٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، جـ ٢، ص ٥٦٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ .

(٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣٧) انظر نص رسالة الملك الحبشى فى : السخاوى ، التبر المسبوك، ص ٦٧—٧١ .

(38) Ziada, Foreign relations, pp. 282-85.

وانظر ما يلى عن مجمع فلورنسا فى الصفحات التالية .

ولكنه سمح للتشاور المنعقل أن يستمر لأنه لم يكن يملك غير ذلك ، فأمر بطريرك الأقباط بمكاتبة ملك الحبشة . وبعد ذلك قرر « جقمق » الدخول فى علاقة مباشرة مع مسلمى الحبشة بزعامة « محمد بن شهاب الدين » سلطان أوفات الذى طلب من السلطان المملوكى أن يفعل ما فيه خير الاسلام دون التقيد بموقفهم فى الحبشة(٣٩) .

هكذا ، كانت السفارات المتبادلة بين مصر والحبشة تحاول استخدام الوسائل السلمية والدبلوماسية فى صالح المسلمين فى شرق الحبشة من جهة ومسيحيى مصر من جهة أخرى . واذا كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك قد استخدمت أساليب الدبلوماسية والضغط السياسى للتخفيف عن مسلمى الحبشة ، فان ملك الحبشة القابع فى معاقله الجبلية الحصينة عند منابع النيل الأزرق كان من اشد المدامعين عن اقباط مصر النصارى حماسة بسبب العلاقات الوثيقة بين الكنيسة المصرية والكنيسة الحبشية التى كانت بمثابة فرخ من أفراخها . ولم تقف جهود ملك الحبشة عند حد الرسائل الودية والسفارات المحملة بالهدايا ، وانما تعدت ذلك الى التهديد بمنع مياه النيل عن مصر ، ثم محاولة صياغة مشروعات صليبية مشتركة مع الغرب الأوربى ضد مصر والمنطقة العربية عامة . وتلك قصة تستحق أن تروى .

ترجع العلاقة بين الكنيستين ، الحبشية والمصرية ، الى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى حين استطاع « فرومنتيوس » تحويل الحبشة الى

---

(٣٩) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧—٧٣ .

(٤٠) بعد مرسوم ميلانو ٣١٣ م تسربت المسيحية الى الحبشة بفضل العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية ، ولكن تأسيس الكنيسة الحبشية يرجع الى أخوين من صورهما : فرومنتيوس وايدسيوس اللذين كانا ضمن بعثة تبشيرية قتلت كلها ولم ينج سواهما ، وتمكنا من اقناع ملك اكسوم باعتناق المسيحية وعين فرومنتيوس أول أسقف لكنيسة الحبشة . واعتنق الملك عزانة المسيحية وجعلها دين الدولة الرسمى حوالى منتصف القرن الرابع . ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان مطران كنيسة الحبشة من الأقباط — أنظر :

سعيد عاشور ، بعض أضواء جديدة ، ص ٨ — ١٠ ، طرخان ، الاسلام والممالك المسيحية ، ص ١١ — ١٤ .

Atiya, The Crusades in the later Middle Ages, p. 276.

المسيحية الأرثوذكسية . ومنذ اعتماد فرومنتيوس ورسامته مطرانا للحبشة ، اصبح بطاركة الاسكندرية يولون أساقفة الحبشة(٤٠) . ومنذ قيام المسيحية فى الحبشة اعتبر الأحباش انفسهم أبناء الكنيسة القبطية فى مصر ، كما اعتبروا أن بطريرك الاسكندرية زعيمهم الروحى(٤١) .

ومنذ ذلك الحين كانت الحبشة دائما تحتاج الى الكتب الدينية من مصر ، فضلا عن أن رأس الكنيسة الحبشية كان مطرانا قبطيا يعينه بطريرك الأقباط الأرثوذكس فى مصر ، وكانت الأوامر السلطانية — فى عصر سلاطين المماليك — تخرج للبطريرك بارسال المطران المطلوب الى الحبشة بعد أن ترد رسالة النجاشى فى طلب ذلك ومعها الهدايا والتحف الثمينة . وكان هذا المطران يتمتع باحترام كبير من جانب الأحباش ، كما أن وجوده فى بلادهم كان على جانب كبير من الأهمية نظرا للمهام الاجتماعية والدينية التى ارتبطت بالكنيسة فى حياة الأحباش والتى لم يكن من الممكن انجازها فى غياب رأس الكنيسة ، اذ أن غيابه كان يعرض الكثير من الشئون الاجتماعية فى الحبشة لخطر الانهيار(٤٢) . وقد ذكرت المصادر التاريخية العربية ما يدل على اهمية بطريرك الأقباط الأرثوذكس بالنسبة للاحباش ، فقد ذكر القلقشندى أن البطريرك « .. صار لديهم كالخليفة على دين النصرانية عندهم يتصرف فيهم بالولاية والعزل ، ولا تصح ولاية ملك منهم الا بتوليته .. »(٤٣) كما ذكر « ابن فضل الله العمرى » أنه لا يصح تعمد معمودى الا باتصال من البطريرك(٤٤) . وقد ذكر المقريزى عبارة عامة تدل على مدى تعصب الأحباش لمذهب الطبيعة الواحدة الذى اعتنقته الكنيسة المصرية ، فقال ان الأحباش « .. يعتنقون مذهب اليعقوبية تشددا زائدا ... »(٤٥) .

---

(41) Leo Honsberry, «Ethiopian Ambassadors to Latin Courts and Latin emissiom aries to Prester John», in : Ethiopia Observer, IX, 2, 1965, p. 91.

(٤٢) ابن فضل الله العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٣٠—٣١ ، المقريزى ، الالمام ، ص ٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٢—٣٢٣ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ص ٤٧ من المقدمة .

(٤٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٤٤) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ٣٠ .

(٤٥) المقريزى ، الالمام ، ص ٣ .

ومن مظاهر تبجيل الملك الحبشى لأوامر بطريرك الأقباط أنه حين كان يرد اليه كتاب البطريرك يأمر بأن يتلى فى الكنيسة يوم الأحد ، والملك واقف فلا يجلس سوى بعد الفراغ من قراءته وتنفيذ أوامر البطريرك الواردة فيه(٤٦) .

كذلك عرفت الحبشة النظام الديرى نتيجة علاقاتها بمصر منذ القرن الخامس الميلادى وتأسست عدة أديرة للرهبان الأحباش ، كما أن الأحباش كان لهم دير فى بيت المقدس — الذى كان تحت الحكم المصرى آنذاك — ووجد منهم عدد فى أديرة مصر(٤٧) ، بل ان الأحباش اليعاقبة كان لهم دير مستقل فى وادى النطرون(٤٨) . وهو ما يدل بوضوح على مدى عمق الرابطة الدينية التى كانت تربط الأحباش بالكنيسة المصرية .

من ناحية أخرى ، حرصت السلطات المملوكية على أن تمسك بخيوط العلاقة بين الأحباش والكنيسة المصرية فى يدها . ويستفاد من الوثائق التى حفظتها لنا مؤلفات المؤرخين المعاصرين أن السلاطين كانوا يحتاطون كثيرا فى أمر هذه العلاقة خوفا من أن تستغل ضد الدولة ومصالحها لا سيما عندما بدأت تصل الى المصريين أنباء عن مؤامرات الأحباش ضد المصريين والمسلمين لتطويق المنطقة من الشمال والجنوب .

ولدينا وثيقة تجسد هذه المخاوف ، وهى عبارة عن « توقيع(٤٩) لبطرك النصارى اليعاقبة » يرجع تاريخه الى سنة ٧٦٤ هجرية ، ويهمنا التحذير

---

(٤٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ص ٣٠٩ .

(٤٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٩ م) ، ص ١٣٠—١٣٢ .

(٤٨) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٠—٥٠١ .

(٤٩) التوقيع : وجمعه تواقيع ، معناه الأساسى فى اللغة وضع خاتم أو علامة أو شعار فى أسفل وثيقة رسمية ، ثم اكتسبت الكلمة معنى اصطلاحيا فى العصر الأيوبى والفاطمى بحيث يعنى منشور ادارى عام صادر عن السلطان ويحتاج الى توقيعه أو علامته أو كليهما معا — انظر :
القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٥ ، قاسم ، أهل الذمة، ص ٦٦ — وكذلك :
Bosworth, Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria, JMES, vol. 3, 1972, pp. 199-200.

الصادر الى بطريرك اليعاقبة فى الوصية الصادرة لبطريرك اليعاقبة بعد هذا التوقيع تحمل التعليمات المتعلقة بالوظيفة . فالدولة فى هذه الوثيقة توجه تحذيرها المشدد للبطريك بالا يحاول الاتصال سرا بالحبشة « .. حتى اذا قدر لا يشم اطراف الجنوب .. »(٥٠) وبالضرورة كان اهتمام دولة سلاطين المماليك باستقرار واستمرار عزل الكنيسة القبطية عن القوى الخارجية كبيرا . ومع أن الأقباط كان لديهم تراث طويل من العداء المذهبى تجاه مسيحيى الغرب الأوربى وذكريات أليمة عن التعذيب الذى نال الأقباط من البيزنطيين ، وعلى الرغم من ان امكانية اعتبار القبط جواسيس يعملون لصالح القوى المسيحية الخارجية لم تكن واردة على الاطلاق ، فان الدولة المملوكية حرصت على أن تكون علاقة الكنيسة المصرية بالاحباش من خلالها .

ونستطيع من خلال الوثائق والمصادر التاريخية المتوفرة لدينا أن نتابع جهود الأحباش فى صالح المسيحيين المصريين . ولدينا طائفة من أخبار السفارات الحبشية التى جاءت الى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك تطلب تعيين مطران جديد ، أو بعض الكتب ، أو تطلب السماح لبعض الحجاج الأحباش بزيارة بيت المقدس ، أو اعادة فتح بعض الكنائس والتخفيف عن الأقباط ... وما الى ذلك .

والجدير بالذكر أن العلاقات المصرية/الحبشية كانت قد توقفت فترة حوالى نصف قرن ، منذ بداية القرن الثالث عشر ، بسبب اضطراب الأحوال الداخلية فى الحبشة ، ولكن الامبراطور يكونو أملاك الذى اعتلى العرش سنة ١٢٧٠ م ، أرسل يطلب مطرانا ويعيد العلاقات ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس رفض طلبه ، كما أوضحنا من قبل(٥١) . ثم أراد النجاشى «يجباصهيون» أن يصلح العلاقات بين البلدين لأن والده كان قد عين مطرانا من السوريان لرئاسة الكنيسة الحبشية مما أثار حفيظة شعب الحبشة ضد النجاشى « يكونو أملاك » . وأرسل « يجباصويون » وفدا برئاسة عربى اسمه

---

(٥٠) نص التوقيع فى القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٣٩٧— ٣٩٩ . ونص « الوصية » فى ابن فضل الله العمرى : التعريف ، ص ١٤٦.

(٥١) انظر ما سبق وأيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ورقة ٢١٩ (مخطوط) .

« يوسف بن عبد الرحمن » ، ومعه ثلاثة كتب ، أولها للسلطان « المنصور قلاون » تاريخه شهر رمضان ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠ م) .

وهذه الوثيقة التى حفظها لنا « ابن فضل الله العمرى »(٥٢) تكشف عن مدى اهتمام الأحباش بالروابط الدينية التى تربطهم بالكنيسة المصرية ، وطلب ارسال مطران لاصلاح بلاد الحبشة . وفى هذه الوثيقة يقول النجاشى انه ليس مثل والده فى عدائه للمسلمين « ... واننى احفظ المسلمين فى جميع مملكتى ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى نصير مشورة واحدة ، ويدا واحدة ، وتتواصل الرسل من الجهتين ... » .

وكان الكتاب الثانى مرسلا الى البطريرك « يؤنس السابع » بطريرك الأقباط الأرثوذكس وهذه الوثيقة(٥٣) . يعتذر النجاشى فيها عن أن والده أحضر مطارنة من السوريان « ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خليناهم عندنا وطردناهم ، وما كانوا قعدوا عندنا الا بوالدنا لأنه ما كان عنده احد من جهتك ... » .

اما الكتاب الثالث ، فهو الرد الذى كان السلطان « الظاهر بيبرس » قد أرسله الى « يكونو أملاك » فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ هـ .

وفى سنة ٧٢٦ هجرية وردت رسل النجاشى « عمدا صيون » الذى خاض حروبا متواصلة ضد مسلمى الحبشة تطلب من السلطان « الناصر محمد بن قلاون » اعادة فتح الكنائس ومعاملة المسيحيين بالحسنة ويهدد باضطهاد المسلمين فى الحبشة وبتحويل مجرى نهر النيل لتجويع المصريين(٥٤) .

وعلى الرغم من ذلك ظلت الرسل والسفارات ترد الى القاهرة طوال عصر سلاطين المماليك ، فلدينا انباء عن سفارة أرسلها النجاشى « يعقوب

---

(٥٢) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٧٠ — ١٧٢ . نسخة خطاب صاحب الحبشة يجباصيون (صهيون) والملقب أيضا سلمون سليمان حكم (١٢٨٤ — ١٢٩٣ م) .
(٥٣) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٧٢—١٧٣ .
(٥٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

ابن داود بن سيف أرعد » سنة ٨٤١ هجرية تحمل كتابا منه ومعه هدية ما بين ذهب ، وزباد ، (وهو نوع من العطور التى اشتهرت بها الحبشة) ، وغير ذلك « ... فتضمن السلام والتودد والوصية بالنصارى وكنائسهم »(٥٥) . وفى سنة ٨٤٧ هـ جاءت رسل الحبشة بكتاب يتضمن التهديد بقطع النيل وطلب معاملة النصارى بالحسنى(٥٦) ، وفى سنة ٨٥٧ هـ وفدت رسل ملك الحبشة الى السلطان « جقمق » الذى استقبلهم على سرير المرض ثم توفى فاستقبلهم رسميا ابنه « المنصور عثمان »(٥٧) . وفى عهد السلطان الأشرف قايتباى وفدت سفارة أخرى الى مصر لنفس الغرض(٥٨) .

بعد ذلك انقطعت رسل الحبشة عن القدوم الى مصر لمدة تقرب من ست وثلاثين سنة ٨٨٦ — ٩٢٢ هجرية . وفى السنة الأخيرة وفدت سفارة حبشية ومعها وفد من الحجاج الأحباش فى طريقهم الى بيت المقدس . ويصف لنا المؤرخ ابن اياس آخر سفارة حبشية استقبلتها القاهرة فى عصر سلاطين المماليك فيقول ان السفارة ضمت خمسة من أمراء الحبشة « .. والباقى لبط ، فيهم من هو عريان الرأس ، وعلى رأسه شوشة بشعر ، وفيهم من فى أذنه حلق دهب قدر القرصة ، وفى أياديهم أساور دهب .. وكان مجموع ذلك الحبشة الذى حضر الى مصر نحو ستمائة انسان .. وكان صحبتهم البترك الكبير . .واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم ... »(٥٩).

ويبدو أن الهدية التى جلبوها معهم كانت ضئيلة القيمة بحيث وبخ السلطان من أحضرها وأحضر قوائم بهدايا ملوك الحبشة الى أسلافه من سلاطين المماليك . والراجح لدينا أن تدهور مكانة مصر العالمية وضعفها البادى كان وراء استهانة ملوك الأحباش بالسلاطين وهو ما انعكس على تفاهة الهدية التى كانت فى عرف السياسة فى ذلك الزمان عنوانا على التقدير والاحترام . كما انه يبدو أن اندماج ملوك الحبشة فى المشروعات الأوربية لحصار المسلمين كان وراء ذلك الموقف .. وتلك قصة أخرى .

---

(٥٥) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٠٢٤ .
(٥٦) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ص ٧٤٥ — ٧٤٦ (مخطوط).
(٥٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٣٣ .
(٥٨) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١٠ .
(٥٩) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١٠—١١ .

وهكذا لم يكن ملوك الحبشة الأقوياء قادرين على تجاهل ما كان يتعرض له المسيحيون فى مصر وبلاد الشام ، أحيانا ، من متاعب تحت حكم سلاطين المماليك . وقد سلك ملوك الحبشة طرقا أربع لصالح الأقباط ، **أولها** : التهديد باغلاق منابع النيل الأزرق لمنع مياه الفيضان من الوصول الى مصر ، **وثانيها** : شن الحملات الانتقامية على مسلمى الحبشة ، **وثالثها** : ارسال السفارات الودية المحملة بالهدايا الى سلاطين المماليك ، **ورابعها** : محاولة التحالف مع القوى الأوربية ضد مصر . وبينما لم تثمر الطريقة الأولى والطريقة الأخيرة شيئا ، آتت اضطهادات مسلمى الحبشة بنتائج عكسية تماما ، على حين استطاعت السفارات والرسائل الودية تحقيق بعض النتائج الطيبة لصالح الأقبـــاط .

ويبقى الآن نقطة أخيرة فى هذه الدراسة ، وهى الاتصالات الحبشية مع بلدان أوربا بقصد العمل المشترك ضد مصر . ويبدو أن صـــعود الأسرة السليمانية على عرش الحبشة ، التى بدأت بحكم النجـــاشى يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥ م) ، كان بداية لصحوة دينية وسياسية فى الحبشـــة ، فقد زاد نشاط المبشرين بين القبائل الوثنية فى الحبشة ، كما بدأ الهجـــوم الحبشى المنظم ضد امارات « الطراز الاسلامى » . ومن ناحية أخرى بدأ ملوك الحبشة يحاولون الاتصال بالقوى الصليبية العاملة فى البحر المتوسط لتطويق مصر من الشمال والجنوب . وربما كانت المشروعات الصليبية المتأخرة ، والتى نتجت عن نجاح المصريين فى القضاء على الوجود الصليبى فوق الأرض العربية فى فلسطين أواخر القرن الثالث عشر ، وراء تلك الروح العدوانية التى غلبت على سياسة الأحباش .

وفى كثير من أخبار الرحلات التى حفظها لنا الزمن ، قبل الحـــروب الصليبية وبعدها ، يتحدث الرحالة الأوروبيون عن أنهم قابلوا حجاجا من الأحباش فى الأرض المقدسة . كما أن المصادر التاريخية تخبرنا عن أن كثيرين من الأمراء الصليبيين قد دفنوا فى كنيسة الأحباش القريبة من الضريح المقدس(٦٠) . بيد أن هذا لم يكن شـــكل العلاقة الوحيـــدة بين الأوروبيين والأحباش فى ذلك الزمان . فقد شاعت فى أوربا فى القرن الرابع عشر فكرة

---

(60) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors». p. 90.

أن نجاشى الحبشة هو « برسترجون » الذى ذاعت حوله قصص خيالية كثيرة منها أنه يمكنه فتح بوابات مياه النيل لتفرق مصر . ولكن ما يلفت النظر هنا أن الأوروبيين لم يحاولوا قبل الحملة الصليبية السابعة أن يبذلوا أى جهد لاكتشاف مكان هذا الحليف المسيحى القوى(٦١) . وحتى نهاية الحروب الصليبية لم يكن هناك مبعوثون الى بلاد النوبة أو الحبشة التى كان الأوروبيون يعتقدون أن مملكة برسترجون فى احداهما أو فى الهند . وعندما عرفت أوربا أن ملك الحبشة المسيحى هو « برسترجون » ، اكتشفوا انه ليس ثريا أو قويا كما صورته الأسطورة ، ولكنه مسيحى . وكان هذا كافيا بالنسبة لمشروعات البابوية .

ووفقا لوثيقة هامة من وثائق البابوية ، يتضح أن اثنى عشر من بابوات روما الذين جلسوا على عرش القديس بطرس فيما بين سنة ١١٥٩ م وسنة ١٤٢٤ م ، أرسلوا خطابات ملوك الحبشة خلال هذه الفترة . كما أن وثائق بابوية ورهبانية أخرى تخبرنا أن عددا كبيرا من الأوربيين سافروا فرادى ، أو ضمن بعثات دينية ، أو دبلوماسية ، أو عسكرية ، الى مملكة النوبة المسيحية ومملكة الحبشة فيما بين سنة ١٢٥٤ م وسنة ١٦٣٢ م . وقد أمضى بعضهم بقية عمره فى الحبشة ، على حين عاد الآخرون الى بلادهم ليقدموا انطباعاتهم من خلال الكلمة المكتوبة ، أو الحكايات الشفوية ، عن بلاد الحبشة البعيدة(٦٢) .

ففى سنة ١٢٧٥ م قام « يكونو أملاك » مؤسس الأسرة السليمانية بايفاد سفارة الى الامبراطور البيزنطى « ميخائيل الثامن باليولوجوس » ومع السفارة

---

(61) E. Denison Ross, «Prester Johs and the Empire of Ethiopia» in : Newton, Arthur Percival (ed.), Travel and travellers of the Middle Ages (London 1930). p. 180.

(62) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90;

فى سنة ١٣١٦ أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون ثمانية من الرهبان الدومينيكان الى الحبشة ، وقامت احدى الرهبات بتأسيس دير للبنات ، واستطاع الرهبان أن يوطدوا علاقتهم بالأحباش — انظر : الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٠٨—١١٠ ،

Ross, «Prester John», pp. 192-193.

هدية فاخرة . وبعد ذلك بثلاثين سنة جاءت سفارة حبشية من حوالى ثلاثين فردا الى البابا « كليمنت الخامس » فى أفينون ووصلت سنة ١٣٠٨ م . وفى ١٤٠٢ م شهدت مدينة البندقية ضجة واثارة بسبب قدوم سفارة حبشية معها عدد من الفهود الافريقية على سبيل الهدية . كما حدث فى سنة ١٤٠٨ م أن قام الحجاج الأحباش بزيارة بولونا فى طريقهم الى روما بعد زيارة بيت المقدس . وبعد ذلك بتسع عشرة سنة قام « الفونسو الخامس » ملك اراجون باستقبال أثنين من السفراء الأحباش فى بلاطه فى بلنسية بحضور المندوب البابوى الكاردينال « فويكس » الذى قدم تقريره عن الزيارة للبابا « مارتن السادس » . وفى ١٤٣١ م زارت روما سفارة حبشية استقبلها البابا « يوجين الرابع » استقبالا حافلا(٦٣) .

ويبدو أن الأمر لم يقف عند حد المشاورات ، اذ أن كتب التاريخ تخبرنا أن الهجوم الغادر الذى شنه ملك قبرص الصليبى « بطرس لوزينان » على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م كان جزءا من خطة عامة أعدت على أساس هجوم قوات بطرس من الشمال وهجوم القوات الحبشية من الجنوب ، ولكن انسحاب الصليبيين السريع من الاسكندرية جعل ملك الحبشة يقرر العودة بعد أن خسر عددا كبيرا من رجاله بسبب وعورة الطريق(٦٤) . وعندما سمع اسحق الأول نجاشى الحبشة بهزيمة مسيحيى قبرص وأسر ملكها على أيدى القوات المصرية سنة ٨٣٠ هـ دعا المسيحيين فى أوربا الى شن حملة صليبية شاملة من الشمال والجنوب ، كما كتب الى ملوك الفرنجة محرضا اياهم على استئصال المسلمين . وكان رسوله الى الغرب الأوربى تاجر مسلم هو « الخواجا نور الدين على التبريزى العجمى » الذى حمل رسالة ملك الحبشة الى ملوك الفرنج « ... عندما بلغه أخذ قبرس وأسر ملكها جينوس ، يحثهم فيه على القيام لازالة دين الاسلام ، وغزو المسلمين ، واقامة الملة العيسوية ونصرتها ، وأنه يسير فى بلاد الحبشة فى البر بعساكره ، وان الفرنج تسير فى البحر بعساكرها ... » واتفق معه على كل التفصيلات حتى زى جنود الحملة . ولكن التاجر وقع فى قبضة السلطات المصرية أثناء

---

(63) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90; Ross, «Prester John» , p. 193.

(٦٤) سعيد عاشور ، « بعض أضواء جديدة » ، ص ٣١ .

عودته فى ميناء الاسكندرية ، ومعه راهبان حبشيان ، وأعدم سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م)(٦٥) .

وما تزال توجد بعض السجلات والذكريات عن الدور الذى لعبه السفراء الأحباش فى مشروع آخر اكثر طموحا ، واقل نجاحا ، فى تاريخ التكتلات المسيحية ضد المسلمين فى العصور الوسطى . وهو مجمع « فلورنسا الكونى » الذى دعا اليه البابا يوجين الرابع (٣١ — ١٤٤٧ م) على أمل ان يجد وسيلة يمكن بها تجميع المسيحيين فى اتحاد كبير بقيادة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يقوم بحملة موحدة ضد مسلمي الشرق . وقد اجتمع هذا المجمع أولا فى فرارا ، ثم فى فلورنسا وأخيرا فى روما فيما بين سنة ١٤٣٨ وسنة ١٤٤٢ م . وكان البابا متأثرا مثل سائر الأوربيين آنذاك بما يشاع عن القوة العسكرية الفائقة لملكة برسترجون ولذلك كان شغوفا بمشاركة الأحباش فى هذا الاتحاد المسيحى الكبير(٦٦) .

وفى اطار ذلك المشروع أرسل البابا واحدا من الرهبان الفرنسسكان هو « ألبرتو دى سارتيانو » الى المسيحيين فى المنطقة العربية يدعوهم الى المشاركة فى مشروع الاتحاد المسيحى . ومن بين الخطابات التى حملها « سارتيانو » خطاب الى « حنا الحادى عشر » بطريرك الأقباط فى مصر ، و« برسترجون » ملك الحبشة . ولم يتحمس البطريرك القبطى للمشروع البابوى . وطلب « سارتيانو » من السلطان « الأشرف برسباى » الاذن بالسفر الى الحبشة ، ولكن السلطان الذى كان قد أسر ملك قبرص قبل سنوات قليلة وجعله يمشى عارى الرأس مقيدا بالسلاسل خلال شوارع القاهرة ويقبل الأرض بين قدميه ، رفض طلب الراهب الفرنسسكانى الذى سافر الى القدس حيث ناقش مشروع الاتحاد مع « نيقوميدوس » رئيس دير الأحباش فى المدينة المقدسة .

وفى سنة ١٤٤١ م خرج الوفد الحبشى لحضور المجمع الكنسى « الكونى » ، وكان الوفد يضم اثنى عشر راهبا حبشيا ومرشدهم الذى كان

---

(٦٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩٥ — ٧٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٣٢٤—٣٢٦ .

(66) Leo Hansberry, « Ethiopian Ambessadors», p. 91.

تاجرا ايطاليا عاش عدة سنوات فى المنطقة العربية . ووصلت الأنباء الى ايطاليا تسبق الوفد الحبشى . وكان البابا يأمل فى انضمام الأحباش الى الاتحاد ضد المسلمين(٦٧) . ولذلك أمر بأن ينقل مكان المجمع الى روما حتى تكون « ... السفارة العظيمة التى أرسلها امبراطور الحبشة العظيم السامى ... » فى رحاب المدينة الخالدة روما « ... عاصمة العالم المسيحى كله ... » بدلا من عقد المجمع فى مدينة صغيرة مثل فلورنسا . ومن المؤكد أن البابا والمشاركين فى المجمع الكونى قد استقبلوا الوفد الحبشى بأذرع مفتوحة ، وأحاطوهم بكافة مظاهر التكريم . ولكن الأمر كله انتهى الى نتيجة سلبية تماما . وفى سنة ١٤٤٨ م جاءت الأخبار الى شارل السابع ملك فرنسا عن انذار ملك الحبشة لمصر بالحرب وتحويل مجرى النيل . وفى منتصف القرن الخامس عشر أخذ « ألفونس الخامس » ملك أراجون يفكر فى احياء مشروع غزو مصر من الجنوب وأرسل سفارة لهذا الغرض الى الحبشة(٦٨) .

وفى سنة ١٤٨٤ م قام « جون الثانى » ملك البرتغال بخطوة عملية لاقامة نوع من الاتصال المباشر مع الحبشة ، فأرسل سفارة يرأسها « بارتلميو دياز » الذى سار بحذاء شاطىء أفريقيا لبحث امكانية الوصول الى الحبشة عن طريق البحر . كما رتب لارسال سفارتين أخريين عن طريق البحر المتوسط ومصر . وكانت البعثة البرية من اثنين هما « بطرس دى كوفلهام » و« ألفونسو دى بافيا » . وبفضل اجادة الاثنين للغة العربية تمكنا من دخول ميناء الاسكندرية باعتبارهما من المغاربة . وبعد عدة تقلبات مات « دى بافيا » ووصل « كوفلهام » الى الحبشة واستحوذ على ثقة الملكة هيلانة الوصية على العرش ثم ابنها الملك داود حين بلغ سن الرشد وبقى كوفلهام بالحبشة واتخذها وطنا ثانيا له بعد أن تزوج سيدة حبشية ثرية وأنجب منها عدة أبناء(٦٩) .

---

(67) Ibid, pp. 91-2.

(٦٨) Ibid, p. 92. ، الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٣٤ وما بعدها .

(69) Ziada, Foreign Relations, pp. 287—88; Leo Hansberry, «Ethiopian Ambessadors», p. 93.

وأثناء اقامته بالحبشة دون « كوفلهام » الكثير من المعلومات القيمة عن الحبشة والنشاط التجارى فى البحر الأحمر على طول شاطىء أفريقيا الشرقى، ثم أرسل يستحث الملك البرتغالى على اكتشاف هذا الطريق ، وربما كانت هذه المعلومات من العوامل التى أفرزت رحلة « فاسكو دا جاما » الشهيرة ١٤٩٨ — ١٤٩٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد »(٧٠) .

وفى سنة ١٥٠٩ م قامت الملكة هيلانة — أثناء وصايتها على ابنها داود الثانى — بارسال سفارة الى الملك عمانويل ملك البرتغال بسبب خوفها من تقدم العثمانيين فى المنطقة العربية . وكانت تعتقد أن البرتغال يمكن أن يمدوا الأحباش بالأسلحة النارية التى يستخدمها العثمانيون(٧١) .

وقد أدى سقوط مصر تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧ م الى أن يرث العثمانيون حكم مصر من سلاطين المماليك ، ويرثون بالتالى مسئولية ادارة الصراع ضد القوى الأوربية والأحباش فى البحر الأحمر ، وبذلك انطوت صفحة العلاقات بين مصر والحبشة فى تلك الفترة التاريخية لتبدأ صفحة جديدة أهم ما يميزها هو فقدان مصر لاستقلالها ودورها ، وفقدان البحر الأحمر لقيمته التجارية والعلسكرية بشكل مؤقت .

هكذا تداخلت خيوط العلاقة بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك بين مجالات الاقتصاد والدين والسياسة ، ولكن هذا لم يمنع وصول المؤثرات الحضارية المصرية الى الحبشة المسيحية والمسلمة ، سوء عن طريق الكتب أو الفقهاء ، أو الحج والتعليم فى مدارس مصر بالنسبة للمسلمين ، أو المطارنة ورجال الدين وحجاج بيت المقدس والرهبان الأحباش بالنسبة للمسيحيين . كما ساهم عدد من المصريين فى تطوير التنظيمات الادارية والمالية والعسكرية فى مملكة الحبشة المسيحية .

---

(٧٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠—٦٣٢ ، جورج حورانى ، العربى والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٢٣٧ .

(71) Leo Hansberry, op. cit., p. 94.

ومن المهم أن نلاحظ أن معلومات المصريين عن الحبشة فى عصر المماليك كانت وافرة بالقدر الذى يكشف عن مدى اهتمام مصر بعلاقاتها مع الحبشة . فقد حفلت كتب « ابن فضل الله العمرى » ، و« القلقشندى » ، و«المقريزى» و« النويرى » و« ابن عبد الظاهر » وغيرهم بالمعلومات الهامة عن الحبشة ، من حيث الموقع الجغرافى والمساحة والأقاليم ، فضلا عن أنواع الطيـور والحيوان والنبات الموجودة فى تلك البلاد ، والمعادن وانواع العملات ، والأسعار ، الى جانب أزياء الأحباش وأسلحتهم ونظمهم الادارية والمالية .

التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحوال مصر المملوكية

د. على السيد على محمود

على الرغم من أن كلمة « التكرور » أو « التكاررة » أو « التكارنة » بالعامية وكذلك « الدكارنة » تدل على جماعات الزنوج التى استوطنت حوض نهر السنغال ، والتى تأثرت كثيرا بسبب الموجات المتتابعة من المهاجرين والفاتحين(١) فان المصادر العربية فى العصور الوسطى أطلقت هذه الكلمة على جميع سكان السودان الغربى والأوسط أو على أهالى غرب أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بأقاليمهم وقبائلهم العديدة المختلفة(٢) . ومن المرجح أن هذه التسمية وهى بلاد « التكرور » قد غلبت عليهم بسبب سبق أهالى اقليم التكرور فى الدخول الى الاسلام ، فضلا عن جهادهم مع المرابطين فى نشر الاسلام فى تلك المناطق منذ القرن الحادى عشر للميلاد(٣) . هذا بينما يرى بعض المؤرخين الأوربيين أن شهرة التكاررة فى الشرق الاسلامى ترجع

---

(١) د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٨٣ ــ ٨٤ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ج ١ ، ص ٢١٨ ــ ٢٢٥ .

(٢) ابن الوردى : تاريخ ، ص ١٥٢ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، ١٣٨ ، العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٧ . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ ، محمد بلو : انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور ، ص ٢٧ ــ ٢٩ .

Bovill . The Golden Trade of the Moors, London 1958, pp. 83-84.

(٣) د. ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ م ، ص ٧ــ٥٧ ، د. حسن أحمد محمود : « المرحلة الافريقية فى تاريخ المرابطين » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ ، ص ١١٤ــ١١٥ ،

Bovill : op. cit., p. 84.

بالاضافة الى ما سبق الى كونهم كانوا تجارا مهرة نشيطين ، كان لهم نشاط تجارى ملحوظ فى كثير من بلدان السودان الغربى(٤) .

وعلى هذا الأساس فان اسم « التكرور » أو « بلاد التكرور » كان يطلق على جميع سكان الدول والممالك التى ظهرت فى السودان الغربى والأوسط فى عهدها الاسلامى بوجه خاص ، أمثال دول غانا ،ومالى ، صنغى، والبرنو، وكانم ، ودولة التكاررة(٥) . وهى التى قامت فى الاقاليم الواقعة شمالى الغابات الاستوائية وجنوبى الصحراء الكبرى أى فى منطقة « السافانا » ومن اجل هذا توصف أحيانا بامبراطوريات السافانا ، ولهذه الدول أصول وثنية ، غير أنها بلغت الذروة فى عهدها الاسلامى ، وقد كانت هناك علاقات قوية متنوعة بين هذه الامبراطوريات وبين البلدان الاسلامية ، وهى علاقات قديمة ، لكنها ازدادت بانتشار الاسلام فى غربى افريقيا ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تجهل تماما قلب افريقيا جهلا تاما ، بسبب وعورة الصحراء ، وتحكم المسلمين فى مسالكها ودروبها واحتكارهم لعمليات الاتصال بها لأسباب دينية وتجارية ، فضلا عن أن هذا الاتصال هو الذى أمد كتاب المسلمين بالمعارف الأصلية عن تلك البلاد ، وجعلهم المصدر الأول للحديث والكتابة عن تاريخ بلاد السودان الغربى والأوسط . كما أتاح هذا الاتصال لهذه البلاد الفرصة للتعرف على أرقى الحضارات الانسانية المعاصرة ، مما كان له اكبر الأثر فى تشكيل وتوجيه تاريخها(٦) . يضاف الى هذا أن بيئة السافانا هذه — على حد تعبير احد الأوربيين — بيئة تسهل الهجرات . وتتيح الاحتكاك الثقافى وتمهد لتكوين الوحدات الاجتماعية والسياسية(٧) . وعلى هذا الأساس يمكننا — بلا أى تردد — رفض الفكرة التى روج لها الاستعمار زمنا طويلا بأن غرب افريقيا لم يكن له تاريخ الا عندما اتصل به الأوربيون .

---

(٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ، ص ١٧٢ ، العمرى : المصدر نفسه ، ص ٢٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٢—٢٩٣ .

(٥) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٦) د. ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ، ص ٧ — ١٣ .

(7) Fage : A. History of West Africa, pp. 10-16.

واذا كانت علاقات مصر ببلاد غربى أفريقية قديمة ، ترجع الى ما قبل الميلاد ببضعة قرون ، فليس من شك انها ازدادت منذ العصر الاسلامى ، ولا سيما أن مصر كانت من بين المنابع التى جاء منها الاسلام الى هذه البلاد(٨) وعلى أية حال فان ما يهمنا فى المقام الأول من هذه العلاقات أن نشير الى التبادل التجارى وانعكاساته على أحوال مصر والذى تجلت مظاهره فى :

١ — مواكب الحج وأثرها فى التبادل التجارى :

كان موسم الحج مناسبة هامة فى حياة أبناء كل من مصر وبلاد التكرور، ففى مصر كانت تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع ، فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج ، وينتظر الناس هذه المناسبة بشوق وتلهف(٩) كما أصبح دخول مصر بالنسبة لحجاج هذه البلاد لا يعنى فقط مجرد المرور فى طريقهم الى مكة ومصاحبة ركب الحجاج المصرى ، بل أصبح فى نظر أولئك الحجاج اتصالا عميقا بحضارة عربية اسلامية متطورة ذات تراث عربى اسلامى عميق الجذور(١٠) . حيث غدت مصر منذ احياء الخلافة العباسية بها فى عهد السلطان الظاهر بيبرس قبلة العديد من الدول الاسلامية فى العقيدة والثقافة(١١) كما يبدو أن ملوك وسلاطين هذه البلاد قد أدركوا مدى حرص سلاطين مصر المملوكية على تأكيد سلطان مصر الشرعى على الحجاز بمقتضى التقليد الذى فوض فيه الخليفة العباسى — الى سلطان المماليك بمصر منذ أيام الظاهر بيبرس — حكم البلاد الاسلامية بما فيها الحجاز ، وابتداء من سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٥ م أضيفت الى مظاهر سيادة مصر على الحرمين ارسال المحمل كل عام وعليه كسوة الكعبة ، وتعين على شريف مكة أن يخرج الى مشارف مكة لاستقبال ركب الحج المصرى وأن يقبل خف الجمل ، ويقوم

---

(٨) د. ابراهيم على طرخان : الاسلام واللغة العربية فى السودان الأوسط والغربى ، ص ٩ وما يليها ، دولة مالى ، ص ١٦٨ .

(٩) د. قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ١٩٧٩ ، ص ١٢٦ .

(١٠) سر الختم على : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى ، رسالة ماجستير — جامعة القاهرة ، ص ١٠٣—١٠٧ .

(١١) د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية ، ص ٢٦ .

بتعليق الكسوة على الكعبة يوم وقفة عرفات مقرونا بالدعاء للخليفة والسلطان(١٢) . لذلك حرصت مواكب حجاج التكرور وكذلك المغاربة على أن تسير فى ركاب موكب الحج المصرى ، الذى كان يخرج من القاهرة كل عام فى اعقاب المحمل الذى غالبا ما كان يخرج فى الثانى والعشرين من شهر شوال من كل عام(١٣) .

ومما ساعد على كثرة قوافل الحج الآتية من هذه البلاد — بحيث لا يمر عام الا ونسمع عن موكب ضخم قادم منها — انتشار الاسلام بشكل كبير فى تلك البلاد ، الى جانب حالة الأمن والاستقرار التى تمتعت بها سلطنة المماليك، فضلا عن ازدهار الحياة الاقتصادية فى مصر فى بداية ذلك العصر(١٤) . يضاف الى ذلك حداثة الانتاج الصناعى فى بلاد السودان الغربى ، وبخاصة صناعة النسيج ، بحيث لم تفى باحتياجات السكان(١٥) فضلا عن أنه فى تلك الفترة كانت المعادن فى أوج استغلالها من قبل الافريقيين فى غرب القارة ، مما أتاح لهم موردا ماليا ضخما(١٦) . هذا الى جانب أمن طرق القوافل ، ووجود الاستراحات الجاهزة لقضاء الليل مع وفرة المؤن بها للمسافرين وبوجه خاص حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى(١٧) .

ومن المؤكد أن مواكب الحج لعبت دورا رئيسيا وهاما فى زيادة التبادل التجارى بين مصر وغرب أفريقيا منذ بداية العصر المملوكى ، اذ أنها أتاحت الفرصة لأبناء هذه البلاد للتعرف على ما هو معروض فى الأسواق المصريه وبخاصة فى القاهرة ، حيث اعتاد هؤلاء الحجاج أن يقضوا فترة فى القاهرة

---

(١٢) د. أحمد دراج : « ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر . . . » ، المجلة التاريخية ، الموسم الثقافى ١٩٦٧ — ٦٨ ، ص ١٩٩ .

(١٣) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٧ — ٩١٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

(١٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩١ .

(١٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦١ — ٦٧٩ ، ٦٦٦ .

(١٦) عبد القادر زيادية : مملكة سنغاى فى عهد الأسبقيين — الجزائر ١٩٧١ ، ص ٨٢ .

(١٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦٣ ،
Fage : op. cit., pp. 26-27.

انتظارا لموعد رحيل ركب الحجاج المصرى ، هذه الفتـــرة تراوحت ما بين أسبوعين الى ثلاثة أشهر(١٨) . هذا الى جانب أنه من المرجح أنهم قـــد استفادوا من خبرة اخوانهم الذين أقاموا بصفة دائمة فى مصر منذ أمد طويل فى بعض ضواحى القاهرة ، وفى قرافة مصر والذين بلغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف شخص ، وفى الرواق الخاص بهم فى الازهر الشريف ، فضـــلا عمن أقاموا فى أسواق القاهرة وزاولوا بعض الأعمال التجارية(١٩) . وهنا تجدر الاشارة الى أن أسواق القاهرة ومصر كانت مزدهرة حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد بوجه خاص ، وتميزت بتنوع وكثرة ما يعرض فيها يوما عن يوم ، وخير دليل على ذلك ما يرويه ابن أيبك عن موكب حج سلطان مالى منسا موسى الذى زار البلاد سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٤ م من قول « ان ملك التكرور وأصحابه اشتروا من القاهرة ومصر منسائر الأصناف ، وظنوا أن مالهم لا ينفذ ، فلما استغرقوا فى المشترى ووجدوا أن أصناف هذه الديار لا لها حد يحد ، وكل يوم ينظروا شيئا أحسن من شىء ، نفذ ما كان معهم ، واحتاجوا للقرض ... »(٢٠) .

ويمكننا القول أن العلاقات الاقتصادية قد توطدت بصفة خاصة عقب حج منسا موسى سلطان مالى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون نظرا لمـــا لقيه هذا العاهل الافريقى من ود وترحاب ، فعندما دخل منسا موسى على السلطان الناصر ، واجتمع به ، رسم السلطان لوزيره أن يعنى بالضيف

---

(١٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ قسم ١ ، ص ٢٥٥ـــ٥٧ ، ابن اياس: بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٩ ، د. محمد محمد أمين : « علاقات دولتى مالى وسنغالى بمصر » ، مجلة الدراسات الافريقية ، العدد الرابع ١٩٧٥ ، ص ٢٩٢ .

(١٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٧١ ، ابن تغـــرى بردى : النجوم ، جـ ١٦ ، ص ١٦٥ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ١٨٩ ، د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى ، ص ١٦٩ ـــ ١٧١ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢٠) ابن أيبك : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٣١٦ .

الكبير وأن « يجهزه بكل ما يحتاج اليه »(٢١) . وفى خلال اقامة منسا موسى أفاد كثير من الصريين فى بيع سلعهم الى أتباعه ، ونشطت حركة البيع والشراء ، وأنفق كل ما لديه من مال أثناء حجه هذا « فاحتاج الى قرض مال كثير من التجار » وكذلك فعل كثير من أمرائه المرافقين له حيث اقترضوا من كبار تجار مصر الذين أرسلوا معهم بعض وكلائهم التجاريين للحصول على تلك القروض ، وهم الذين أتيحت لهم فرصة التعرف على احتياجات السوق هناك عن كثب ، واقامة كثير من العلاقات التجارية وتوثيقها(٢٢) . كذلك تذكر بعض المصادر العربية أن أسكيا محمد سلطان صنغى الذى زار مصر فى طريقه الى الحج سنة ٩٠٢ هـ/١٤٩٦ م أنفق قدرا كبيرا من المال فى شراء بعض الحاجيات والهدايا من أسواق مكة والقاهرة(٢٣) . وواضح أن ملوك مالى وصنغى وبرنو وكانم حرصوا على أداء فريضة الحج فى مواكب حافلة منذ بداية العصر المملوكى ، وقد لقوا فى مصر كل ترحاب وود وحسن معاملة(٢٤) وقد أحدثت هذه المواكب رواجا كبيرا فى أسواق القاهرة نظرا لضخامة الأعداد التى كانت تضمها وبخاصة تلك التى أتت فى ركاب ملوكهم وسلاطينهم ، مثال ذلك أن ركب منسا موسى قدره بعض المؤرخين بعشرين ألفا من الأشخاص(٢٥) ، ومهما كان هذا العدد مبالغ فيه ، الا أن المقريزى

---

(٢١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى ، ص ١٦٨ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠٦ — ١١٠ ، د. محمد عبد الرازق مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ، الألف كتاب ، ص ٣٣٢—٣٣٣ .

(٢٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ١١١ — ١١٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢٣) السعدى : تاريخ السودان ، ص ٨٣ ، د. محمد محمد امين : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

(٢٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٨٧ ، د. حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ،
Palmer : Bornu, Sahar and Sudan, p. 91.

(٢٥) المقريزى : السلوك ، ج ٢ قسم ١ ، ص ١٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، الذهب المسبوك ، ص ١١٢ حاشية رقم ١ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية ، ص ١٠٦ .

يشير الى كثرة ذلك الركب الذى كان يفد سنويا من بلاد التكرور بأنه لا يقل عن خمسة آلاف نفر(٢٦) فاذا أضفنا الى ذلك أن معظم الحجاج القادمين من بلاد التكرور كانوا يحملون معهم الكثير مما يتاجرون به أثناء توجههم الى الأماكن المقدسة(٢٧) ويقومون بشراء الكثير من السلع المصرية التى كانت تبهر هؤلاء الحجاج ، ويفضلون أن يحملوها فى عودتهم كهدايا لأهلهم وأقاربهم أوللاتجار بها(٢٨) . لأمكننا أن ندرك الدور الهام الذى لعبته مواكب الحج فى ازدياد عمليات التبادل التجارى فى ذلك العصر ، فضلا عن ذلك أن موسم الحج كان بمثابة أحد المواسم ذات الاثر الاقتصادى الهام فى حياة الناس فى كل من مصر وبلاد التكرور .

٢ — صادرات مصر الى بلاد التكرور :

من أهم منتجات مصر التى صدرتها ووجدت اقبالا منقطع النظير فى مختلف الدول الافريقية السكر ، حيث اشتهرت مصر بجودة السكر المصنوع بها ، وكانت له قيمة كبرى فى بلاد التكرور ، حيث كان يتوم باعتباره نوعا من الهدايا الى العظماء والنساء ، والذى كان يباع بأضعاف اضعاف ثمنه(٢٩) .

ونظرا لحداثة صناعة النسيج فى هذه البلاد فان الانتاج المحلى منها لم يكن ليقارن بانتاج مصر ، لذلك سافر كثير من أهل مدينة « تكدة » «أكرا حاليا» الى مصر لجلب الثياب الفاخرة(٣٠) كما حمل التجار المصريون الى مالى وصنغى أنواع الثياب القطنية ، فقد كان فى مصر صناعة راقية لهذه المنسوجات وخاصة فى مدينتى دمياط وتنيس ، فاشتهرت مدينة دمياط بصناعة الأقمشة التيلية ذات الألوان المتعددة التى يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع

---

(٢٦) السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، فى حوادث سنة ٧٤٤ هـ .

(27) Trimingham : Islam in west Africa. p. 85.

(٢٨) د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية ، ص ٨٤ .

(٢٩) يوركهارت : الرحلة ، ص ٢٣٣ ، شوقى عبد القوى : العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية ، رسالة ماجستير بمعهد الدراسات الافريقية ، ص ١٤١ .

(٣٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦١ — ٦٧٩ ،
Bovill : op. cit., p. 149;

عليها(٣١) واشتهرت مدينة تنيس بصناعة الحلل التنيسية الفاخرة الرقيقة ، حيث بلغ ثمن الحلة منها فى بعض الأوقات مائتى دينار اذا دخل الذهب فى خيوطها(٣٢) . والى جانب الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية التى امتازت جميعها بدقة الصناعة ، اشتهرت مصر بصناعة الفرش والستور والخيام والحبال والتى كانت تصدرها الى هذه البلاد بكميات كبيرة وكانت محل اعجاب أهلها(٣٣) .

ومما حمله التجار المصريون الى هذه البلاد المصنوعات المعدنية الراقية التى حازت ، اعجاب سلاطين تلك البلاد ، وقصر استعمالها عليهم وعلى أمرائهم ، والطبقة الغنية من أهلها(٣٤) . فضلا عن الروائح العطرية مثل القرنفل الذى كانت تتهافت عليه نساؤهم(٣٥) بالاضافة الى الدروع من الهند والنحاس المسبوك . كما كانت الكتب وبخاصة الدينية منها من أهم صادرات مصر الى هذه البلاد ، وليس أدل على ذلك من أن منسا موسى انتهز فرصة زيارته لمصر فابتاع جملة من الكتب الدينية ، ليوفر لأهل مملكته طرفا من الثقافة المصرية(٣٦) . وخاصة كتب فقه المالكية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكتب من أهم ما يستورده سكان تلك البلاد من مصر(٣٧) .

أما المسابح والعقود المصنوعة فى مصر فقد كانت تلقى رواجا فى البلاد الأفريقية حيث استعملت احيانا كأداة للتعامل ، وقل أن تجد احدا من القوم لا يتحلى أو يحمل فى عنقه أو يده عقدا أو عقدين . كما صدرت مصر الحلى المصنوعة من الفضة والتى اشتهرت مصر بصناعتها وكانت تجلب الى أقاليم السودان ، بالاضافة الى الحلى المصنوعة من الزجاج ، بالاضافة الى

---

(٣١) د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩١ .

(٣٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٣ .

(٣٣) د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩١ .

(٣٤) عبد القادر زبادية : نفس المرجع ، ص ٢٢١ .

(٣٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦٣ ،

Bovill : op. cit., p. 149.

Fage : op. cit., p. 24.

(٣٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ،ج١ ، ص ٢٤٤—٢٤٥ .

(٣٧) د. محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٣٠١ .

السنبل والمحلب حيث يشتد الطلب عليهما فى جميع بلاد السودان ، فالأول يتعطرون به ويتطيبون والثانى يتبلون به طعامهم(٣٨) .

ولم يقتصر التبادل التجارى مع بلاد التكرور على حمل المصنوعات الجلدية كذلك اليها ، بل حملت أيضا المؤثرات الحضارية ، فعرفت دول النيجر بعض الصناعات المختلفة عن المصريين ، كصناعة الأسورة المصنوعة من الزجاج ، وصناعة الخزف وصقل النحاس الأحمر وذلك الى جانب صناعة النسيج(٣٩) .

كذلك لعب المصريون دورا هاما بالنسبة لأسواق بلاد التكرور هذه ، وذلك فيما يتعلق بالودع الذى كانت تجلبه القوافل المصرية من الهند وشرق افريقيا وتنقله الى السودان الغربى والأوسط . وكان الودع يتعرض سعره للارتفاع والانخفاض تبعا لورود القوافل المصرية . والودع كان يستخدم كنوع من العملة هناك ، وذلك فى شراء وبيع الطعام والاحتياجات الأخرى على مستوى المعاملات المحلية(٤٠) .

ويبدو ان ملوك التكرور أعجبتهم بعض النظم التى شاهدوها فى مصر وبخاصة وجود طائفة المماليك السلطانية ، لذلك تشير بعض المصادر أن بعض ملوكهم كان يقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا من الترك وغيرهم ممن تبتاع له من مصر ، كذلك اقبل بعضهم على شراء الجوارى الحسان والمغنيات من الترك والحبوش(٤١) .

٣ — واردات مصر من هذه البلاد :

واضح أن الذهب كان من أهم السلع التى احتاجتها مصر وسعت اليها

---

(٣٨) شوقى عبد القوى : نفس المرجع ، ص ٧١ ، ١٤١ .

(39) Davies : west Africa Before the Europeans, Lon. 1967, pp. 267-268.

(٤٠) العمرى : مسالك الأبصار ، ج ٢ قسم ٣ ، ورقة ٥٠٤ (مخطوط)، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ، د. محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٩٤ ،

Oliver : The Camb. Hisr .of Africa. vol. 3, p. 388.

(٤١) المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ١١٣ ، السلوك ، ج ٢ قسم ١ ص ٢٥٥ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٠ .

فى عصر سلاطين المماليك ، وذلك بعد أن نضب معين الذهب فى وادى العلاقى — أول مصدر للذهب فى تاريخ مصر الاسلامية(٤٢) . ويذكر القلقشندى فى حديثه عن « الذهب : وأصله مما يجلب الى الديار المصرية من التبر من بلاد التكرور وغيرها مع ما يجتمع اليه من الذهب »(٤٣) وهذا يعنى ان ذهب بلاد التكرور كان يأتى فى المرتبة الأولى على راس غيره من الذهب الذى كانت مصر تحصل عليه من تجار المدن الأجنبية الذين يحملون المتاجر الشرقية منها الى أوربا . أو بعبارة أخرى أن ذهب بلاد التكرور كان هو المصدر الأول بالنسبة للذهب الذى تستورده مصر . وربما كان السبب فى ذلك راجع الى نقائه وخلوه من الشوائب(٤٤) فضلا عن كثرة كميته فى ذلك الحين اى حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد وكما سيتضح فى الصفحات التالية من هذا البحث .

وكانت وسيلة مصر للحصول على هذا الذهب عن طريق قوافل التجار المصريين الذين يحملون الى بلاد التكرور الكثير من السلع المصرية والشرقية، ثم تعود هذه القوافل محملة بسلع ومنتجات هذه البلاد وعلى رأسها الذهب(٤٥) . ومما يذكر فى هذا الصدد أن التجار المصريين استطاعوا أن يشتروا من ملك التكرور مارى جاطه بن منسا موسى الذى توفى سنة ٧٧٥ هـ، ما وزنه عشرون قنطارا من الذهب بأبخس الأثمان(٤٦) . يضاف الى هذا كميات الذهب التى كان يرسلها ملوكهم كهدايا لسلاطين المماليك فى مصر ، وذلك من أجل الحفاظ على علاقات الود والتوصية بحجاجهم وما الى ذلك(٤٧) .

كما كانت مواكب الحجاج القادمة الى البلاد من المصادر الهامة للحصول

---

(٤٢) د. صبحى لبيب : « سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك » المجلة التاريخية ، العدد الثامن والعشرون ١٩٨١ — ١٩٨٢ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٤٣) صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤٦٥ .

(٤٤) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البحر والبر ، ص ٥٠ .

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤١٦ .

(٤٦) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٩٧ .

(٤٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٣ .

على ذهب هذه البلاد ، ومثال ذلك ركب الحجاج الذين وفدوا بصحبة منسا موسى سلطان مالى أيام الناصر محمد بن قلاوون والذى اغرق الأسواق المصرية بالذهب الذى جلبه معه هو وأتباعه مما كان له اكبر الأثر فى انخفاض سعر الدينار المصرى آنذاك ما بين درهمين وستة دراهم ، واستمر هذا السعر المنخفض مدة تجاوزت اثنى عشر عاما(٤٨) . كذلك كان هذا الذهب يصل الى مصر بطريق غير مباشر عن طريق حجاج المغاربة الذين يفدون الى مصر فى طريقهم الى الحج اذ كانوا من أهم المصادر وكذلك التجار المغاربة الذين يترددون على البلاد للتجارة — ومونوا مصر بذهب بلاد التكرور لما لهم من علاقات تجارية وثيقة معها ، فضلا عن قربهم منها(٤٩) . وبذلك أتيحت لهم فرصة التزود من مناطق وجود الذهب التى تركزت فى بامبوك عند أعالى نهر السنغال ، ومدينة بيور Bure عند ملتقى نهر النيجر بفرعه تنيكسو Tinkisso ، ومدينة لوبى Lobi فى أعالى الفوتا ، وفى منطقة ونجارا Wangara ضمن مملكة غانا ، وكان الذهب يتدفق من هذه المناطق حتى بداية القرن التاسع عشر للميلاد(٥٠) .

ولسنا ندرى هل خص سلاطين المماليك ذهب بلاد التكرور بضريبة مماثلة أم مختلفة للذهب الذى كان يجلبه تجار المدن الايطالية وغيرهم من المدن التجارية الأوربية ، والذى قدرت الضريبة عليه بنسبة تتراوح ما بين ٢٪ و٥٪ ، وهل فرض سلاطين المماليك على تجار هذه البلاد قدرا معينا من التوابل السلطانية « توابل الذخيرة الشريفة » يشترونه بالذهب مع بقاء معاملاتهم مع الأفراد حرة ، حتى ولو اقتضى الأمر الالتجاء الى المقايضة . كل هذه امور لم تشر المصادر المعاصرة الى ما يفسرها .

كذلك استوردت مصر النحاس بكميات هائلة من بلاد التكرور(٥١) .

---

(٤٨) العمرى : مسالك الأبصار ، ج ٢ قسم ٣ ورقة ٥٠٦ ، ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١١٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .

(٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ — ٢٩٠ ، د. نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٣٠٥ .

(50) Bovill : op. cit., pp. 192-201.

(٥١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٧٨ ، ٦٧٩ .

والذى كان له أهمية كبيرة فى عصر سلاطين المماليك ، ليس فقط فى صناعة الثريات والأوانى المنزلية والتكفيت وتزيين أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء ، بل فى سك الفلوس النحاسية حيث وجدت دار لسك النحاس الى جانب دار سك الذهب المعروفة(٥٢) . وقد كانت مدينة « تكدا » « أكرا حاليا » من أهم المناطق التى تستورد منها مصر النحاس ، وفضلا عن كونها احدى مراكز القوافل التجارية فقد قال عنها منسا موسى أن مناجم النحاس بها أهم مصدر أساسى لثروته(٥٣) . وكان أهلها يحملونه الى مصر وبلاد المغرب(٥٤) .

وكان العاج والأبنوس من أهم صادرات هذ هالبلاد الى مصر بعد الذهب والنحاس ، هذا الى جانب العنبر والصوف والرصاص والزئبق ، الى جانب أنواع من جلود الماعز المدبوغة فى لون البنفسج المائل الى السواد ، وهى جلود لينة كان يصنع منها خفاف كبار القرم ، وكانت تلقى رواجا كبيرا ، حيث تعمر لدى صاحبها كثيرا بحيث يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد(٥٥) .

كما جلب تجار هذه البلاد الى مصر ريش النعام وبيض النعام ، والشب(٥٦) .

واخيرا يأتى الرقيق كسلعة كانت تلقى رواجا فى كثير من بلدان العالم الاسلامى فى ذلك الوقت وبخاصة مصر المملوكية ، وكان التجار المصريون يصلون الى أهم أسواق الرقيق هناك مثل مدينة « كومبى » عاصمة غانا للحصول على الرقيق ، والذى كان يتم جلبهم الى مثل هذه الأسواق عن طريق الاغارات على القبائل الوثنية التى تعيش على الحدود الجنوبية لمنطقة

---

(٥٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٥—٢١٣ .
(53) Bovill : op. cit., p. 94.
(٥٤) العمرى : مسالك الأبصار ، ج ٢ قسم ٣ ، ورقة ٥٠٧ ، د. ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ، ص ٦٥—٦٧ .
(٥٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٧ ، أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ١٥٧ .
(٥٦) شوقى عبد القوى : نفس المرجع ، ص ١١٧ ، د. محمد محمد امين : نفس المرجع ص ٢٩٦ .

الســـافانا ، وهم الذين اشتهروا عند العرب تحت اسم اللملم أو « الدمدم » أو « الدمادم » كذلك يفهم مما أورده القلقشندى فى عهد السلطان برقوق أن بعض الجلابة من بلاد مصر والشام كانوا يتوجهون الى تلك الأسواق لاحضار هؤلاء الرقيق كما أنهم كانوا يشترون الرقيق من عرب جذام المجاورين لاقليم البرنو(٥٧) لكن يلاحظ أن غالبيـــة ما كان يعمل من هؤلاء الرقيق كان يهلك سريعا ، وربما كان السبب فى ذلك هو اختلاف المناخ فى مصر عنه فى البلاد التى كان يتم جلب الرقيق منها ، بالاضافة الى طول الرحلة ومشاق السفر من جهة أخرى ، كذلك يلاحظ أن سلطنة المماليك كانت تفرض ضرائب كبيرة على هؤلاء الرقيق سواء ما يتم جلبه على أيدى التجار المصريين أم الجلابة أم حجاج بلاد التكرور الذين اعتادوا حتى أواخر العصر المملوكى جلب هؤلاء الرقيق معهم(٥٨) .

٤ ـــ آثار التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور :

لعل من أهم الآثار التى ترتبت على قيام عمليات التبادل التجارى بين الطرفين تردد التجار المصريين على بلاد « التكرور » ليشتروا منتجاتها رغم بعد المسافة بينها وبين مصر . كما أن الرحلة بينها وبين مصر طويلة وشاقة وغالبا خطرة ، ولكن الأرباح العائدة كانت تساوى ذلك المجهـــود وتلك المخاطرة ، ومما شجع التجار المصريين على القيام بهذه الرحلات ذلك الأمان الذى كان يحسه التاجر فى كل مكان يحل به ، فاذا أودع تجارته الرحبة فى مكان تكفل أهل هذه البلاد بحفظها ، فضلا عن أنه اذا مات أحدهم فان أهالى البلاد يحافظون على أمواله وتجارته مهما كان شأنها الى أن ترد لأهله ، كل هذه المميزات كانت ميثاقا للتاجر المصرى وغيره(٥٩) . فضلا عن أن التجار

---

(٥٧) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١١٦ــ١١٧ ،
Bovill : op. cit., p. 83.

(٥٨) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٨٢ ، د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة ، ص ٧٢ــ٧٤ .

(٥٩) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦١ــ٦٧٢ ، زينب أحمـــد على هاشم : علاقات مصر بالدول الاسلامية ، رسالة ماجستير بمعهد الدراسات الافريقية ، ص ٩٥ــ٩٧ .

المتجولين فى حوض النيجر قد سهلوا للتاجر المصرى الحصول على احتياجاته من المؤن التى يحتاجها فى حياته اليومية(٦٠) .

كما نتج عن اتساع التبادل التجارى بين مصر وبلاد « التكرور » أن توافد عدد كبير من المصريين على هذه البلاد واستقروا بها والذين قابلهم ابن بطوطة فى رحلته الى مالى(٦١) الى جانب أن كثيرا من التجار المصريين أرسلوا وكلاءهم اليها لمباشرة أعمالهم التجارية وعادوا منها بالأرباح الوفيرة(٦٢) . بل لا نغالى اذا قلنا أن التجار المصريين الذين كانوا يتوافدون على تلك البلاد كانوا من أغنى التجار وأقواهم مركزا واوفرهم مالا ، بل ان القوافل المصرية التى كانت تتجه الى تلك البلاد بلغت من الضخامة حدا لدرجة قدرها بعض المؤرخين بأن القافلة كانت تضم حوالى اثنى عشر الفا من الجمال(٦٣) .

وكما كان لمصر جاليات أو أفراد فى بلاد التكرور ، فقد كانت هناك فى مصر جالية كبيرة من بلاد التكرور وهى التى سبقت الاشارة اليها ، ومما يدل على كثرة أعدادهم وازدياد مصالحهم واتساع نطاق معاملاتهم أن ابن خلدون يذكر أنه كان لهم ترجمان يدعى الحاج يونس التكرورى(٦٤) . وليس أدل على ازدهار التبادل التجارى بين البلدين من أنه كانت هناك بعض المدن مثل مدينة « تاكدا » أو « تكدة » والتى تقع بين « جاو » و« اير » على طريق الحج عبر الصحراء وهى اكرا الحالية ، لا عمل لأهلها سوى التجارة مع مصر حيث يسافرون اليها جالبين منها أزهى الثياب وأبهاها وغير هذا من الأشياء التى كان يتباهى عظماء القوم باقتنائها(٦٥) وكذلك مدينة « تمبكتو »

---

(٦٠) المقريزى : جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأمصار، مخطوط ، ورقة رقم ٢ .

(٦١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٩٤ — ٢٠٢ .

(٦٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

(٦٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤١٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ ، د. زاهر رياض : « اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى » مجلة كلية الآداب ، مجلد ٢٠ ، ج ١ ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧.

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٠١ .

(٦٥) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .

التى كانت من أهم المراكز التجارية نظرا لوقوعها على طرق التوافل التى تربط بين بلاد غرب أفريقيا وبلاد شمال أفريقيا مثل مصر وتونس ، فضلا عن كونها أهم سوق للذهب هناك(٦٦) . كما أضحت مدينة « كومبى صالح » عاصمة امبراطورية غانة أكبر سوق للتجارة زمن ازدهار هذه الامبراطورية وقد كانت لها علاقات وطيدة مع مصر وخاصة فيما يتعلق بتجارة الذهب والرقيق(٦٧) .

كذلك نتج عن زيادة المعاملات بين مصر وبلاد التكرور وازدهار التبادل التجارى أن أصبحت « الدراهم التكرورية » معروفة فى مصر ، بل ومن أهم المعاملات المتداولة فى مصر نظرا لثبات قيمتها فى السوق وجودة عيارها ، وليس أدل على ذلك من أن السلطان الأشرف برسباى عندما أراد اصلاح أحوال العملة فى مصر سنة ٨٢٦ هـ/١٤٢٣ م فقد رسم ألا يتعامل الناس « الا بالدراهم المصكوكة بالديار المصرية والشامية ، وتبطل ما سوى ذلك خلا الدراهم التكرورية »(٦٨) . وكما عرفت مصر المعاملات المالية الخاصة بهــذه البلاد ، فقد وجدت فى حفريات « جاو » كثير من الدراهم والدنانير المملوكية مما يدل على أن هذه المعاملات وردت الى هذه المناطق عن طريق التبـــادل التجارى(٦٩) .

ومن ابرز الدلائل على ازدهار عمليات التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور فى ذلك العصر ، وبخاصة منذ عصر سلاطين المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية وجود « ديوان الخمس » على مشارف القاهرة ، حيث كانت تنصب الخيام وهى التى يأمر ناظر الديوان بنصبها ، ويجلس فيهـــا المباشرون ليأخذوا الضرائب على ما يأتى به القادمون من بلاد التكرور أثناء قدومهم الى القاهرة عن طريق الواحات ، والتى يتم تحصيلها عادة منهم عند صحراء الاهرام ، وأثناء عودتهم من بلاد الحجاز كان يتم تحصيل ضرائب أخرى على ما يحملونه بعد عودتهم من أداء فريضة الحج فى الريدانية ، وكانت الضرائب التى يتم تحصيلها منهم عند مقدمهم يدفعونها على ما يجلبونه معهم

---

(66) Bovill : op. cit., p. 74.

(٦٧) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ، ص ٦٤ .

(٦٨) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٦٩) محمد أنور توفيق أبو علم : مرجع سابق ، ص ٨٨ .

من ذهب ورقيق وثياب باعتبار أن مصدر هذه السلع هى البلاد الوثنية(٧٠) أو غير الاسلامية ، فالرقيق مصدره من المناطق الجنوبية المتاخمة لبلادهم والتى قطنها قبائل الدمادم واللم التى سبقت الاشارة اليها ، والخيل والثياب كان مصدرها بلاد الغرب الأوربى كما سيتضح فى الصفحات التالية .

ونظرا لكثرة العلاقات التى ترتبت على زيادة التبادل التجارى وتوطدها وتوثقها بين مصر وبلاد التكرور ، أضحى فى ديوان الانشاء فى مصر المملوكية صيغ خاصة لمخاطبة ملوك هذه البلاد والتى كانت تتصدر المكاتبات الرسمية التى تخرج عن هذا الديوان فى مصر(٧١) .

وأخيرا تجب الاشارة الى ان كثرة تدفق المعادن من بلاد التكرور الى مصر حتى بداية القرن الخامس عشر الميلادى وبخاصة الذهب ، كان له اثره فى الازدهار الاقتصادى الذى شهدته مصر فى ذلك العصر ، والذى انعكس بدوره على تنمية التبادل التجارى بين مصر والمدن التجارية الأوربية ، فضلا عن أنه كان للنحاس الوارد من هذه البلاد دور بارز فى تشجيع ذلك التبادل التجارى أيضا ، فقد استخدم النحاس فى صناعة وتكفيت كثير من الأوانى المعدنية المختلفة ، والتى حرصت على اقتنائها كثير من الأديرة والكنائس فى أوربا بالاضافة الى قصور الملوك والأمراء وكبار الحكام ، حيث كانت سفن المدن التجارية تذهب الى مصر محملة بالمصنوعات الأوربية من الأسلحة ، والثياب الى جانب الرقيق ، والفواكه المجففة وبعض الأخشاب والجوخ والصوف والفراء ، ثم تعود محملة بكل ما هو ثمين ورائع من الشرق(٧٢) . وعلى العكس يمكننا تصور حالة التضخم الناجمة عن الأزمة النقدية التى أحدثها عدم ورود الذهب الى مصر ، وما صحبها من تأثير فى عمليات التبادل التجارى المختلفة ، وهذا ما سوف نتناوله فى السطور التالية .

---

(٧٠) المقريزى : السلوك ، ج ٤ قسم ٢ ، ص ٧٠٧ ، ص ٨٧٢ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

(٧١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٨ ، د. ابراهيم طرخان: دولة مالى الاسلامية ، ص ١٧٠ .

(72) Atiya (A. S) : Grusade, Commerce and Culture, pp. 185 - 186.

٥ ــ انقطاع ورود الذهب وأزمة مصر النقدية :

قبل الشروع فى الحديث عن المؤشرات الدالة على بداية انقطاع ورود ذهب السودان الى مصر وأسباب ذلك ، يجدر بنا القول ان ذهب هـذه البلاد لم يكن قد نضب معينه كما يرى بعض الباحثين ذلك ، والدليل على هذا أن الحسن بن الوزان « ليو الأفريقى » عندما زار مملكة صنغى فى العقـد الأول من القرن السادس عشر للميلاد يصف لنا ثراء ملك « تمبكتو » ، ويذكر أن الذهب كان موجودا بكميات كبيرة جدا فى مدينة « جاو » لدرجة أن سكانها كانوا لا يستطيعون بيع كل المقادير التى يحملونها الى الأسواق ، ويعودون بكثير منها دون أن يتم بيعها ، كذلك يذكر أنه عندما توجه الى بلاد البرنـو فقد وجد الذهب بها بكميات هائلة بما يؤكد لنا عـدم نضوب معـين هذا الذهب(٧٣) ، وسبق أن أشرنا فى الصفحات الأولى الى أنه كان متوفرا حتى القرن الـ ١٩ م .

كما انه من المعروف أن أوربا الغربية والوسطى لم تكن تنتج ولم يكن فى امكانها أن تنتج الا ذهبا قليلا ، وبالتالى تحتم على أهل أوربا أن يحصلوا على الذهب عن طريق عمليات تبادلتجارية يمكنها ان تجذب نحو الغرب ذهب البلاد المنتجة له أو ذهب البلاد التى كان لديها مخزون كبير منه(٧٤) ومنذ القرنالثالث عشر للميلاد توقف ضرب الذهب فىأوربا الغربية والوسطى، كما أن المخزون المعدنى من الذهب فى كافة البلاد الأوربية ثبت عجزه عن تلبية الطلب المتزايد ، هذا فى الوقت الذى كان فيه ذهب « بلاد السودان » يتدفق على البلاد الاسلامية فى مصر والمغرب وبلاد الأندلس(٧٥) وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن تجارة الذهب كانت بمثابة المغنطيس الذى جذب التجار من أوربا للتعامل مع المغرب العربى ، وملأ الموانى والمراكز التجارية على امتداد الساحل من طرابلس وحتى أغادير بسفن الدول التجارية الأوربية(٧٦) فى محاولة للحصول على هذا الذهب من الدول التى لديها

---

(73) Bovill : op. cit., pp. 126-130.

(٧٤) د. توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ٦ـ٤١ .

(٧٥) المرجع السابق ، نفسه ، ص ٨٢ .

(76) Bovill : op. cit., p. 233.

مخزون منه أولا ثم الوصول الى البلاد المنتجة له ثانيا . وقد أدرك السلطان الظاهر بيبرس ذلك ، لذا نراه عندما وافق صاحب تونس مبدئيا على عقد معاهدة تجارية تقر لبعض المدن التجارية الايطالية بهذا الحق الخطير ، لم يتوان عن ارسال سفارة الى صاحب تونس ينذره فيها بغزو بلاده ان هو فكر جديا فى عقد مثل هذه المعاهدة مع الفرنج(٧٧) .

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر للميلاد نلاحظ حدوث كثير من الاضطرابات فى أحوال بلاد المغرب العربى وطوال القرن الرابع عشر كذلك ، مما أدى الى تفكك هذه البلاد الى عدد من الدويلات المتصارعة فيما بينها(٧٨) . والمهم هنا أن هذه الدويلات فتحت المجال أمام أبناء الغرب الأوربى ، واشتد اقبالهم عليها لا على شكل تجار فقط ، بل فى شكل كثير من المغامرين الذين خدموا فى قوات هذه الدول مثل دولة فاس ، ودولة مراكش ، ودولة تلمسان ، ودولة بنى حفص بتونس ، واتفق أبناء الغرب من تجار ومغامرين فى أهدافهم وهى الحصول على الذهب(٧٩) . وهذا ما يتضح جليا من اشتراك الجنوية منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى مع رجال القوافل من الطوارق أو «الملثمين» وقيامهم برحلات خاطفة الى واحات الصحراء الكبرى وشرائهم لكميات من الذهب(٨٠) . ولولا اصرار الحكام المسلمين لهذه البلاد على عدم قيام اتصال مباشر بين تجار الفرنج وقلب أفريقية لأسباب دينية وتجارية ، لأمكن لهم التغلغل والسيطرة على موارد الذهب(٨١) .

ثم كان موكب منسا موسى سلطان مالى « ٧١٢ — ٧٣٨ هـ/١٣١٢ — ١٣٣٧ م » الى مصر أثناء حجه ، وما امتاز به من فخامة وعظمة ، وما يحمله من ذهب ويصحب من اتباع ، من أهم العوامل التى حفزت أوربا على ضرورة الاسراع فى محاولة الوصول الى قلب أفريقية عن طريق غير الطريق الذى يتحكم فيه المسلمون ، ولا شك أن التجار الأوربيين المقيمين قرب ساحل

---

(٧٧) د. صبحى لبيب : سياسة مصر التجارية ، ص ١٣٤ .
(٧٨) المقريزى : السلوك ، ج ٣ قسم ٢ ، ص ٥٢٥ ، ٥٥٩ ، ٧٢٥ ، الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٨٧ .
(٧٩) د. توفيق اسكندر : نفس المرجع ، ص ٨٢—٨٤ .
(٨٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٦—٤١ .
(81) Davidson : op. cit., p. 76.

أفريقيا الشمالى قد شهدوا موكب حج السلطان موسى ، وشاهدوا مقادير الذهب التى أسالت لعابهم(٨٢) . والدليل على هذا ان صورة هذا السطان وموضع امبراطوريته والطرق المؤدية اليها ، قد ظهرت فى خرائط العالم التى صدرت عن علماء مدرسة ميورقة « اكبر جزر البليار » ، والتى خضعت لملك أرغونة منذ سنة ١٢٢٩ م بعد أن كانت تابعة للمرابطين(٨٣) من هذه الخرائط نذكر الخريطة التى وضعها انجلينو دلكرت سنة ١٣٣٩ م أى بعد وفاة منسا موسى بسنتين فقط ، وكذلك الخريطة التى رسمها بيزيجانى سنة ١٣٦٧ م ، ثم الأطلس القطلانى الخاص بشارل الخامس ، وكلها تشير الى مملكة مالى وحاكمها ، وانه أغنى رجل فى العالم ، لما لديه من مقادير هائلة من الذهب(٨٤) .

هذا بالاضافة الى أن أوربا كانت قد استنفذت ما لديها من الاحتياطى من المعادن الثمينة — بسبب الحروب الطويلة — ، لذلك احتاجت الى الذهب لدفع أثمان السلع التى كانت تستوردها من الهند والصين وجزر البهار ، وتركز اتجاه أوربا الى قلب أفريقية ، لما سمعه الأوربيون ومما رأوه ، ومما رواه الرحالة المسلمون والمغامرون ، ومما أظهرته الخرائط الجغرافية من الاشارة الى الذهب ووفرته فى قلب القارة(٨٥) . وتقرر بعد ذلك أن يكون طريق البحر هو الطريق الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه بسبب تحكم المسلمين فى طرق القوافل . وجرت عدة محاولات من الغرب الأوربى فى القرن الرابع عشر للميلاد للوصول الى ذهب السودان ، من ذلك ما تشير اليه بعض المراجع من أن الفرنسيين وصلوا عام ١٣٦٤ م الى المناطق الساحلية من غرب القارة الافريقية والتى عرفت فيما بعد باسم « غينيا » و« الرأس الأخضر » وجزيرة جورى Goreé ، وكانت النتيجة وصول كميات لا بأس بها من ذهب غرب أفريقيا الى فرنسا ، ومع هذا لم تمض فرنسا فى

---

(٨٢) د. ابراهيم طرخان : « البرتغاليون من غرب أفريقيا » مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، ج ١ مايو ١٩٦٣ ، ص ١٦ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ١٦ ، Bovill : op. cit., p. 91.

(84) Ibid : op. cit., pp. 89-91.

(٨٥) د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق نفسه ، ص ١٩ .

جهودها هذه بسبب انشغالها بحرب المائة عام ضد انجلترا(٨٦) . وسواء صح هذا الراى أو لم يصح ، فالمهم لدينا أن نذكر أنه نتج عن كثرة المعاهدات التجارية ، التى ارتبطت بها بلاد المغرب مع المدن التجارية الأوربية خلال القرن الرابع عشر ، ومحاولات الغرب الأوربى الوصول الى ذلك الذهب أن قلت معدلات وصول مقادير الذهب الى مصر بشكل محلوظ ، كما ان زيادة التبادل التجارى بين المدن التجارية وبلاد المغرب العربى كان عاملا هاما من العوامل التى ساعدت على قلة ما يرد الى مصر من ذهب هذه البلاد ، لأن المدن التجارية الأوربية أصبح فى امكانها الحصول على العاج وريش النعام من المناطق الشمالية الساحلية من بلاد المغرب بطريقة أكثر سهولة وبسعر أرخص مما كانت تحصل به عليها من مصر ، فضلا عن انه أتيح لهذه المدن التجارية أن تزود بلاد المغرب بكثير من السلع الأوربية فى سبيل الاستحواذ على الذهب(٨٧) . كخطوة من قبل الغرب الأوربى للسيطرة على هذا الذهب، والتى ستتحقق خطواتها الفعالة فى القرن الخامس عشر على أيدى البرتغاليين ، وهذا ما سوف نتحدث عنه بعد قليل .

أما عن المؤشرات الدالة على عدم ورود الذهب منذ أواخر القرن الثامن الهجرى الرابع عشر للميلاد فهى كثيرة فى المصادر العربية المعاصرة ، ولذا سنشير الى بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، لكن يهمنا فى هذا المقام أن نذكر أن مصر كان لديها المخزون الكافى من الذهب ، وبذلك لم تظهر بوادر الأزمة بشدة الا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، والدليل على ذلك ما يذكره المقريزى عند وفاة السلطان الظاهر برقوق سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م من أنه ترك من الذهب مليون وأربعمائة الف دينار(٨٨) .

فمن المؤشرات الدالة على بداية عدم ورود الذهب الى مصر منذ أواخر القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر للميلاد ما يذكره ابن حجر من أن الدينار الذهب فى سنة ٧٨٧ هـ/١٣٨٥ م فى بداية عهد السلطان برقوق كان يساوى ٢٠ درهما ، ثم فى سنة ٧٩٦ هـ/١٣٩٣ م وصل سعره الى ٢٥ درهما ؛ ثم فى

---

(86) Church : west Africa, A study of the Environment, London 1961, p. 24., Bovill : op. cit., p. 117.

(87) Bovill : op. cit., p. 246.

(٨٨) السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩٣٨ .

سنة ٧٩٧ هـ/١٣٩٤ م وصل سعره الى ٢٧ درهما ، وفى آخر سنة من القرن وصل سعره ما بين ٣١ و٣٣ درهما(٨٩) . وليس هناك تفسير لسبب هذا الارتفاع الكبير مع وجود الفضة سوى انعدام وصول الذهب الى مصر(٩٠) . وهذا ما يظهر بشكل واضح منذ بداية القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ، حيث تشير المصادر المعاصرة الى أنه فى سنة ٨١٣ هـ/١٤١٠ م وصل سعر الدينار الى مائتين وعشرين درهما(٩١) . فضلا عما يشير اليه ابن حجر فى حوادث سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م أيام الناصر فرج بن برقوق من أن الفضة كانت قد أصبحت هى قاعدة المعاملات المالية فى مصر(٩٢) .

يحدثنا ابن الصيرفى — وهو الخبير بالشئون المالية — من أنه فى سنة ٨١٤ هـ/١٤١١ م أمر السلطان الناصر فرج بن برقوق بعض كبار أمرائه أن يتوجهوا الى مختلف جهات الديار المصرية لجمع الذهب والفضة من الناس واعطائهم بدلهما الفلوس النحاس ، وزود كل أمير منهم بجماعة من المماليك الظاهرية برقوق ، هذا فى الوقت الذى وصل فيه سعر الدينار الذهب الى مائتين وخمسة وعشرين درهما بما يؤكد لنا انقطاع ورود الذهب عن مصر منذ ذلك الحين(٩٣) .

ومن المؤشرات الدالة على اضطراب وصول الذهب ثم انقطاعه ما يتعلق منها بأحوال بلاد المغرب العربى ، والتى تتضح من الحروب التى نشبت بين هذه البلاد بعضها وبعض ، والتى تفيض بها المصادر المعاصرة وبخاصة الفترة من سنة ٧٨٨ هـ/١٣٨٥ م الى سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م ، وما كان لها من آثار مدمرة على اقتصاديات بلاد المغرب ، فضلا عن انها كانت من

---

(٨٩) أنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٠٢ ، جـ ٢ ، ص ٣٧ .

(٩٠) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٨٦—٤٠٦ .

(٩١) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٦٤ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ٤٦١—٤٦٣ .

(٩٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٣٩٥ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ — ٢٩٢ .

(٩٣) نزهة النفوس ، جـ٢ ، ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

العوامل الهامة التى منعت وصول ذهب « بلاد السودان » الى مصر(٩٤) . يضاف الى ذلك حالة عدم الاستقرار التى شهدتها بعض بلدان المغرب بسبب الصراع حول تولى العرش ، وتدخل الوزراء فى عزل وتولية السلاطين مثلما حدث فى دولة بنى مرين سنة ٨٢٤ هـ حسبما يروى المقريزى ، مما أثر بشكل ما فى طرق القوافل التجارية ، فضلا عن عوامل الطبيعة وأثرها على الطرق التجارية ؛ حيث انعدمت المياه ، وطمت الآبار ، بحيث غدت هذه الطرق شبه مهجورة(٩٥) . يضاف الى هذا ان حالة الاضطراب هذه لا شك انها ساعدت أبناء المدن التجارية الغربية — لما أسدوه من خدمات حربية واقتصادية سبقت الاشارة اليها — من الاتصال بقلب القارة الافريقية ، حيث نسمع عن أحد تجار « جنوة » الأثرياء فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، ويدعى أنطونيو مالفانت Antonio Malfante ، والذى استطاع أن يتوغل فى الصحراء الكبرى ويصل الى مدينة « توات » ، ويرسل منها رسالة يذكر فيها بعض المعلومات الجغرافية الهامة عن المناطق الداخلية من القارة ، كذلك يأتى ذكر أحد رجال الأعمال من « فلورنسة » ويدعى بند تودى Bendetto Dei الذى استغل امتياز المتاجرة مع المناطق الداخلية فى أفريقية الذى منحه حكام تونس لفلورنسة ، واستطاع بذلك أن يصل الى مدينة « تنبكتو » أو « تمبكتو » عاصمة صنغى ، والتى كانت من أهم مراكز القوافل التجارية المتجهة الى سواحل أفريقيا الشمالية ، وقام بعمليات تجارية هناك حيث تمكن من مقايضة ما معه من سلع أوربية بالذهب(٩٦) .

ولعله كان من بين العوامل التى ساعدت على قلة ورود الذهب منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، ما يلاحظه الباحث من أنه فى الوقت الذى أخذت فيه أسعار السلع المصرية ترتفع بسبب ارتفاع أسعار الذهب ، أن المدن التجارية الأوربية رفعت أسعار مبيعاتها الى مصر ، بحيث وصل سعر

---

(٩٤) عن ذلك راجع : ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ٤٦١—٥٢١ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(٩٥) السلوك ، جـ ٤ قسم ٢ ، ص ٥٩٦—٥٩٧ ، Bovill : op. cit., p. 247.

(٩٦) د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية ، ص ٢٣٣ ، Ibid : op. cit., pp. 116-117.

مبيعاتها هذه حسبما تشير المصادر المعاصرة بذلك — الى أربعة أمثال أسعارها فى أواخر القرن الرابع عشر ، وهذه الزيادة ادت الى زيادة معدلات التضخم فى مصر من جهة ، فضلا عن انها أفقدت مصر ما كان لها من سيادة إقتصادية ، بحيث غدت المنتجات المصرية عاجزة عن المنافسة مع السلع الأوربية التى تم عرضها فى أسواق بلاد المغرب وبلاد السودان الغربى ، وبما يحقق للغرب الأوربى الاستحواذ على اكبر قدر من ذهب هذه البلاد(٩٧). خصوصا اذا وضعنا فى اعتبارنا أن تجارة مصر مع بلدان الشرق الأدنى أى « تجارة الشرق » والتى كانت حكرا على مصر كانت قد تعرضت لهزات عنيفة سبب غزوات تيمورلنك لآسيا بوجه عام وبلاد الهند بوجه خاص ، فلقد استطاع تيمورلنك أن يستولى على بلاد الهند سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٨ م ، وأنزل بها وبأهلها ضربة لم يكن من السهل عليها أن تفيق منها الا بعد فترة زمنية قد تكون كبيرة ، حيث قتل من أهلها اعدادا كبيرة ، كما أخذ منهم الكثير وباعهم فى اسواق خراسان بأبخس الأثمان ، فضلا عما أحدثه فى بلادهم من قتل وتخريب وتشريد ودمار ، مما كان له أكبر الأثر على تجارة الهند مع مصر فى ذلك الوقت(٩٨) .

ومن المؤشرات ذات الدلالة على انعدام الذهب منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، أن المصادر العربية المعاصرة قد أفاضت كثيرا فى حديثها عن ذهب بلاد التكرور الذى كان يتدفق على مصر منذ بداية عصر سلاطين المماليك بوجه عام وفى القرن الرابع عشر بوجه خاص ، فقد سبق أن أشرنا الى مواكب الحج المختلفة وكميات الذهب التى تحملها ، كما أشرنا الى شراء التجار المصريين اكبر كتلة للذهب من خزانة سلطان مالى فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، الا أن هذه المصادر نفسها تسكت تماما عن الاتيان بمثل تلك الاشارات(٩٩) . بل تكاد تكون اشارة المقريزى سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م هى آخر اشارة صريحة عن وصول الذهب من بلاد التكرور ، والتى يقول فيها أنه فى شوال من هذه السنة « قدم ركب التكرور للحج ، ومعهم

---

(٩٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، قسم ٣ ، ص ١٠٩٨—١١٠١ .

(٩٨) المصدر السابق ، جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩٣٤ .

(٩٩) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٩٧ .

الف وسبعمائة راس من العبيد والاماء ، وشيء كثير من التبر . . »(١٠٠) كذلك ذكرت بعض هذه المصادر المعاصرة وجود وكلاء لبعض التجار المصريين فى بلاد التكرور فى القرن الرابع عشر للميلاد ، ولكنها لم تذكر أى شيء عنهم فى القرن الخامس عشر ، وهذا فى حد ذاته دليل على مدى تضاءل التبادل التجارى وقلة ورود الذهب او انعدام وروده(١٠١) . أو بعبارة أخرى يمكننا القول أن التبادل التجارى مع بلاد التكرور أصبح قاصرا على ما يأتى به أبناء هذه البلاد معهم أثناء مواسم الحج من رقيق وبعض الثياب بالاضافة الى بعض الخيول(١٠٢) . وهنا قد يثار سؤال وهو كيف أن مصر كانت تصدر الثياب والخيول وغيرها الى هذه البلاد ، ثم أصبحت تستوردها منها ؟ وللرد على ذلك نقول أن التجار الأوربيين حملوا الى هذه البلاد من السلع الأوربية الأقمشة والخيول والثياب فى مقابل الحصول على الذهب ، والدليل على هذا أن « الحسن بن الوزان » فى حديثه عن مالى يذكر أنه وجد بها الملابس القادمة من اوربا ، وأن الخيول التى كانت تباع فى أوربا الواحد بعشر دوكات، كان يتم اعادة بيعها هناك بمبلغ أربعين أو خمسين دوكات(١٠٣) .

وأخيرا كانت المحاولات ذات الآثار بعيدة المدى فى عهد ملك البرتغال هنرى الملاح « ١٣٨٥ — ١٤٣٣ م » ، والذى كان يهدف الى تعقب المسلمين فى شمالى افريقية ونقل الحروب الصليبية الى بلادهم ، والذى استطاع ان يستولى على مدينة « سبتة » عام ٨١٨ هـ/١٤١٥ م ، ثم « طنجة » و« تطوان » على امل الوصول الى ذهب « بلاد السودان » ، وتحويل تجارة الذهب عن طريق القوافل الى الطريق البحرى ، والى موانى المحيط الأطلسى بدلا من موانى البحر المتوسط ، هذا الى جانب انتزاع تجارة الرقيق من أيدى التجار المسلمين وتحويلها الى الغرب الأوربى ، وايجاد عناصر مسيحية كحلفاء

---

(١٠٠) السلوك : جـ ٤ ، قسم ١ فى حوادث سنة ٨١٩ هـ .

(١٠١) ابن خلدون : المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ، ص ١٣٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٥ ، ص ٢٦ ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٩٩ .

(١٠٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٢ — ٨٧٦ .

(103) Bovill : op. cit,. pp. 128-130.

لهم فى غرب السودان للانضمام لهم فى حروبهم ضد المسلمين(١٠٤) . وفى الفترة من سنة ١٤١٨ م وهى التى شهدت أول حملة بحرية لاستكشاف الساحل الغربى لأفريقيا ، وحتى سنة ١٤٤١ م توالت الحملات ، وكانت أول شحنة من ذهب السودان الغربى يتم للبرتغاليين الحصول عليها عام ١٤٤٢ م ، حيث قبضوا عند نهر السنغال على أعداد كبيرة من الطوارق الذين يستبدلون سلعهم بذهب السودان ، وكذلك على كثير من الزنوج الذين جاءوا بذهبهم للتبادل(١٠٥) . وفى عام ١٤٤٥ م وصلوا فعلا الى مناجم الذهب فى « بامبوك » فى أرض ونقارة التى يقول عنها الادريسى أنها بلاد التبر شرقى غانة(١٠٦) . وبذلك تمت لهم السيطرة على معظم تجارة الذهب التى كانت تحملها القوافل الى سواحل شمال أفريقية بوجه عام ومصر بوجه خاص ، وبحلول عام ١٤٤٥ م كان قد تحقق للبرتغاليين التوغل نحو الداخل والسيطرة تماما على تجارة القوافل البرية(١٠٧) . كما أنهم فى الفترة من سنة ١٤٦٩ م الى ١٤٧٥ م توغلوا داخل بلاد السودان الغربى حتى وصلوا الى نهر الفوتا ، وهناك عثروا على كميات كبيرة من الذهب ، وهذه المنطقة هى التى أطلقوا عليها اسم « مينا » Mine أو « المنجم » Misa ، وهى التى تعرف الآن بساحل الذهب ، وهى من أهم المناطق المنتجة للذهب والذى كان يتم نقله عبر الصحراء الى مراكز القوافل ، ومنها يتجه الى مصر وغيرها من بلاد الشمال الافريقى(١٠٨) .

كما استغل البرتغاليون حاجة السكان الى بعض السلع الأوربية فى مقابل الحصول على الذهب ، الذى كان أهم سلعة فضلها البرتغاليون على تجارة العبيد والتى لم تلق رواجا كبيرا فى أوربا ، وكذلك العاج والفلفل الذى

---

(١٠٤) د. ابراهيم طرخان : البرتغاليون فى غرب أفريقية ، ص ٢٠ — ٢٤ .

Fage : An Introduction to the Hist. of west Africa. Camb. 1955, pp. 44 - 55.

(105) Bovill : op. cit., p. 117.

(١٠٦) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ١٣—١٤ .

(107) Bovill : op. cit., pp. 191-202; Davidson : op. cit., p. 84.

(108) Fage . An Introduction, p. 47.

لم يكن ليضارع فلفل الشرق ، فضلا عن حاجاتهم للذهب للسيطرة على تجارة الشرق فى حروبهم التى خاضوها ضد المسلمين لذلك نلاحظ أنه فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر للميلاد أن أبناء البرتغال الذين أقاموا فى المحطات التجارية فى هذه البلاد كانوا يرسلون مقادير هائلة من الذهب كل سنة ، والذى حصلوا عليه فى مقابل صادراتهم الى بلاد السودان الغربى من الأقمشة والأدوات المعدنية ، والخرز والودع والأصداف ، والحلى ، لكن يلاحظ أن أهالى البلاد الذين رحبوا بالبرتغاليين من أجل التجارة والتى عادت عليهم بأرباح كبيرة ، قد أصروا على أن تكون علاقات تجار البرتغال مع المناطق الداخلية فى الذهب بوجه خاص يجب أن تتم عن طريقهم هم(١٠٩) .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن محاولات المدن التجارية الأوربية والتى تمت أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ان كانت قد أدت الى تقليل كميات الذهب الواردة الى مصر ، فان حركة الكشوف التى قام بها البرتغاليون فى النصف الأول من القرن الخامس عشر نتج عنها انقطاع ورود ذلك الذهب عن مصر ، وبالتالى غير مساره الى الغرب الأوربى عن طريق المحيط الأطلسى ، مما كان له أوخم العواقب على أحوال مصر الاقتصادية فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة . والتى تجلت آثارها فى كثير من نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر لتضيف عاملا هاما من أهم العوامل التى ساعدت على التدهور الاقتصادى الذى أخذت تعانى منه البلاد حتى آل الأمر الى زوال دولة سلاطين المماليك بمصر والشام والحجاز على أيدى الأتراك العثمانيين فى بداية العقد الثانى من القرن السادس عشر للميلاد .

٦ — آثار انقطاع ورود الذهب فى أحوال مصر :

ترتب على انقطاع ورود الذهب الى مصر أزمة اقتصادية حادة كانت لها آثارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والتى ظهرت واضحة منذ النصف الأول من القرن التاسع الهجرى الخامس عشر للميلاد ، وكان أبرزها ما حدث من تغير فى كثير من عادات الناس فى تلك الفترة والتى سوف نذكر

---

(109) Ibid : op. cit., pp. 54-56.

بعضها على سبيل المثال لا الحصر . فالمقريزى — وهو شاهد عيان — يذكر أن الناس « على اختلاف طبقاتهم قد غلب عليهم الفقر ، واستولى عليهم الشح والطمع ، فلا تكاد تجد الا شاكيا مهتما لدنياه .. ».(١١٠) وفى موضع آخر يقول « والناس قد غلب عليهم فى عامة أرض مصر القلة والناقة ، وعدم المبالاة بأمور الدين ، والشغل بطلب المعيشة لقلة المكاسب »(١١١) كذلك نراه يقول « كثرت الشكاية فى الناس جميعهم من وقوف الحال .. فكان هذا — أعنى الشكاية — مما تجدد ، ولم يكن يعرف ، بل أدركنا الناس ، واذا شكا أحد من الناس حاله ، عد عليه ذلك ، فصرنا وما من صغير ولا كبير الا وهو يشكو ، وتزايد أمرهم فى ذلك .. »(١١٢) ، كما أدت الأزمة النقدية وسوء الأحوال الاقتصادية الى حالة من الخوف والقلق عاشها الناس جميعا فى مصر ، يستوى فى ذلك عامة الناس وكبار الأمراء ، فلم يعد الشخص يأمن على غده أو مستقبله ، وكان هذا ما حدا بكثير من كبار رجال الدولة الى وقف ممتلكاتهم على بعض المؤسسات الخيرية والاجتماعية لضمان عدم مصادرتها من جهة ، وضمان الحصول على دخل ثابت من ريعها من جهة ثانية(١١٣) .

ومن العادات الطريفة والتى كانت شائعة حتى أواخر القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى ما يرويه لنا الرحالة سيجولى عند زيارته لمصر ، من أنه التقى بالقاهرة مع أحد تجار الفرنج من مدينة كانديا Candia والمقيم بالقاهرة ، والذى أخبره شيئا عجيبا حقا ، وهو أن أهل القاهرة رجالا ونساء كانوا ينفقون فى اليوم الواحد فى شراء الأعشاب المطرية والورود التى يضعونها على صدورهم ، وفى شراء المسك وماء الورد وبعض أنواع الزينة التى يستخدمونها مدة يوم واحد ما قيمته ثلاثمائة بيزنت ذهبا(١١٤) . وهذا ما لم يذكره أحد من الرحالة مطلقا فى القرن الخامس عشر ، بما يؤكد لنا تخلى الناس عن مثل هذه العادة ، بدليل قول المقريزى أنه حتى

---

(١١٠) السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٦٧٨ .

(١١١) نفس المصدر ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٦٤ .

(١١٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ .

(١١٣) د. عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة وقف الأمير آخور كبير قرافجا الحسنى ، ص ٢٣٨ .

(114) Avisit to the Holy places. p. 167.

أواخر القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر للميلاد لم يكن هناك فى مصر والقاهرة امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من عنبر ، وهى التى عرفت فى تلك الفترة باسم » العنبرية « ، الا أن ذلك بطل فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ـــ الخامس عشر للميلاد(١١٥) .

ومن عادات أهل القاهرة ـــ بوجه خاص ـــ ما ارتبط بالاحتفال ببعض المواسم والأعياد ، مثل الاحتفال بشهر رمضان والعيد عند المسلمين والميلاد والغطاس لدى المسيحيين . والتى كانت لها أسواق تزدهر فى مثل تلك المناسبات ، من أهمها « سوق الشماعين » والذى كان يلقى رواجا ليس له نظير فيما يتخذ فيه من أنواع الاضاءة التى تمثلت فى « الشموع الموكبية » و« الفانوسية » و« الطوافات » ومن « الشمع الذى يحمل على عجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح » الا أن هذه المظاهر قد تلاشت لفقر الناس وعجزهم(١١٦) . منذ القرن الخامس عشر للميلاد .

ونؤكد لنا كثير من المصادر العربية وكتب الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى التغير الذى طرأ على كثير من عادات الناس فى شتى نواحى حياتهم ، سواء ما كان يتعلق منها « بشوار العرائس » او فى « زينة النساء » ، وملابسهن ، وخير ما يعبر عن هذا التغير قول المقريزى « فاضطر حال نساء أهل مصر الى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير ... »(١١٧) .

كذلك كان سكان القاهرة بوجه خاص لهم ولع شديد بتربية كثير من أنواع الطيور ، مثل طائر الهزاز والشحرور والقمارى والببغاء والسمان وغيرها ، وتنافس كثير من الناس على اقتنائها حتى كان يطلق عليهم « غواة طيور المسموع » وبلغ بهم الترف أن يتنأقوا فى اقفاصها وتغالوا فى اثمانها ، حيث نسمع « أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة عنها يومئذ

---

(١١٥) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ .
(١١٦) الخطط ،ج ٢ ، ص ٩٦ .
(١١٧) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ، ٢٦٦ـــ٢٦٨ ،
Adler : Jewish travellers p. 168.

نحو الخمسين دينارا من الذهب كل ذلك لاعجابهم بصوته » الا أن ذلك قد بطل ضمن ما بطل من كثير من عادات الناس بسبب تلك الأزمة النقدية التى واجهتها مصر فى تلك الفترة(١١٨) .

هذه كانت بعض الأمثلة لما حدث من تغيرات اجتماعية فى جانب واحد ، الا وهو عادات الناس اردنا بها التدليل على آثار الأزمة النقدية ، وكتاب الخطط للمقريزى حافل بالعديد والعديد من تلك التغيرات التى طرأت على أحوال الناس ، وكذلك نزهة النفوس للصيرفى وبدائع الزهور لابن اياس وغيرها من المصادر المعاصرة لهذه الفترة التى شدهت بداية تلك الأزمة وما نجم عنها من آثار مختلفة .

وظهرت آثار هذه الأزمة النقدية فى سياسة كثير من سلاطين المماليك الجراكسة فى محاولاتهم الحصول على المال بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة ، وواضح أن الهدف عن هذا كان تعويض العجز الناجم عن عدم تدفق « ذهب السودان » ، مثال ذلك ما يرويه ابن حجر سنة ٨١٣ هـ/١٤١٠م من أن السلطان الناصر فرج بن برقوق أصدر مرسوما « بقبض ترك الموتى جميعها من ذوى الأموال مطلقا : سواء من كان له وارث أو من لم يكن ، فعظمت المصيبة وكثرت الشناعة . .وشاع بين الناس ان الناصر أمر بتغيير حكم الله »(١١٩) . كما يشير المقريزى الى الفوضى السياسية التى تجلت فى « ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل الى شىء منها الا بالمال الجزيل »(١٢٠) وهو ما عرف فى العصر المملوكى بالبذل والبرطلة وتم انشاء ديوان خاص أطلق عليه « ديوان البذل والبرطلة » وشاع ذلك فى مختلف البلدان التى خضعت لحكم المماليك ، وصار كل من له حاجة يأتى الى صاحب هذا الديوان المذكور ويبذل له الأموال فى سبيل الحصول على ما يروقه من الوظائف ، وكثيرا ما كان السلطان نفسه هو الذى يحصل تلك

---

(١١٨) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٦ وما بعدها .

(١١٩) انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(١٢٠) اغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

الأموال بنفسه(١٢١) وبذلك انتشرت الرشوة التى كان يستأديها السلطان بنفسه من ولاة الأعمال ، واقتدى به الولاة فى ذلك حتى صار ذلك عرفا غير منكر البته(١٢٢) ، كذلك شاعت فى تلك الفترة المصادرات على مباشرى الدولة بأسرهم ، وأصبحت هناك مقررات تفرض على الوظائف يدفعها كل من يتولى وظيفة من الوظائف(١٢٣) .

وفيما يتعلق بولاة الأمور من غير السلاطين فخير ما يعبر عن فساد تصرفات هولاء تلك العبارة الموجزة التى أوردها المقريزى فى حديثه عن سنة ٨٣١ هـ أيام السلطان الأشرف برسباى يقول فيها : ان « غاية مقاصدهم انما هى أخذ المال على كل وجه أمكن اخذه ، فلهذا اختلت الأحوال ، وضاعت المصالح »(١٢٤) .

أما عن الآثار الاقتصادية لأزمة النقد هذ ه التى أحدثها عدم ورود الذهب ، فانها تمثلت فى كثير من النواحى ، نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر . فمن المعروف ان المعاملة طوال عصر سلاطين المماليك البحرية « العصر المملوكى الأول أو دولة المماليك الأولى » كانت بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، الا أنها منذ أيام السلطان برقوق أخذت فى النقصان ، حتى كانت أيام الناصر فرج بن برقوق وبالتحديد منذ عام ٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م فأبطلت المعاملة نهائيا بالدراهم والدنانير ، وأصبحت الفلوس هى العملة الوحيدة(١٢٥) . وتجدر الاشارة الى أن الفلوس النحاس كانت معروفة فى مصر منذ عهد السلطان الكامل الأيوبى ، الا أنها أصلا كانت عملة مساعدة ، وكان لا يشترى بها شىء من الأمور الجليلة ، ومنذ هذا التاريخ راجت الفلوس

---

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٩٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

(١٢٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٦١٨ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٥٩٥ ، حوادث سنة ٨٢٤ هـ .

(١٢٤) السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٨٨ .

(١٢٥) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ص ٢٣٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٣ ، ص ١٥٢ ، د. حامد زبان : الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٦ .

رواجا كبيرا حتى نسبت اليها سائر المبيعات وصار يقال : كل دينار بكذا وكذا من الفلوس ، أى أن الفلوس صارت هى القاعدة النقدية التى اتخذت أساسا لنظام التعامل النقدى فى مصر الجركسية من الوجهة الفعلية ، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا وعدما فلم يوجدا كما يقول المقريزى(١٢٦) . وظل سعر الذهب فى ارتفاع مستمر ، كما استمرت الأحوال الاقتصادية خاصة الماليةمنها فى تدهور ملحوظ منذ سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٣ م ، وهى السنة التى يقول عنها المقريزى أنها « هى أولى سنى الحوادث والمحن التى خربت فيها ديار مصر ... » وذلك نتيجة لفساد العملة وارتفاع سعر الذهب ارتفاعا كبيرا ، وما نجم عن ذلك من ارتفاع سائر أسعار المبيعات والأجور ، وبالتالى أصبح من الصعب خفض الأسعار أو على حد قول المقريزى أصبح « لا يرجى الرخاء »(١٢٧) . ويشير ابن تغرى بردى الى أن موجة التضخم هذه ظلت آخذة فى الازدياد ، فبعد مرور نصف قرن أى فى سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م يذكر أن الغلاء وصل الى درجة مفرطة لم تشهد البلاد مثيلا لها من قبل(١٢٨) .

ولم يقتصر الأمر على حلول الفلوس محل الذهب والفضة كقاعدة لنظام الأسعار ، وما نجم عن ذلك من ارتفاع فى الاسعار ، بل تعدى الأمر ذلك الى محاولة تزييف هذه الفلوس والذى اتخذ مظهرين أساسيين هما انقاص وزنها ، وخلط الفلوس النحاسية بمعادن أخرى أقل قيمة ، خاصة حين أصبح التعامل بالفلوس على أساس الوزن وليس العدد . من ذلك ما تشير اليه بعض المصادر من أنه منذ عام ٨٢٦ هـ/١٤٢٢ م أصبحت هذه الفلوس تسك وقد خلط فيها قطع من الحديد وقطع من النحاس وقطع من الرصاص بل أكثر من هذا أن كثيرا من الصيارفة أخذوا يحولون الفلوس النحاس الخالصة الى أوانى نحاسية وغيرها ويبيعونها داخل مصر وخارجها طلبا للربح الوافر فيها(١٢٩) . وقد كان لعمليات التزييف هذه أسوأ الأثر على حركة

---

(١٢٦) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤١ ، اغاثة الأمة ، ص ٦٦ — ٧٢ ، د. عبد اللطيف ابراهيم : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(١٢٧) السلوك ، ج ٣ ، قسم ٣ ، ص ١١٢٧ ، ج ٤، قسم ١ ، ص ٢٧—٢٩ ، د. حامد زيان : نفسه ، ص ٧١ .

(١٢٨) النجوم ، ج ١٥ ، ص ٥٤٧ .

(١٢٩) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٣ ، ص ٦٢٩—٦٣٠ .

الأسواق ، اذ كان الناس يمتنعون عن التعامل بها ، ومن ثم تصاب الحركة التجارية الداخلية بالكساد ، كما ترتفع الأسعار فى موجة تضخم جنونية تصل الى حد أن تغلق الحوانيت وتتعطل الأسواق(١٣٠) هذا الى جانب حرص كثير من السلاطين على سك عملات جديدة بأسعار جديدة لمواجهة التزييف ، الا أن الكثيرين منهم وضعوا فى اعتبارهم تحقيق المكاسب من سك النقـــود الجديدة بأسعار تفوق قيمتها الشرائية ، وكل هذا كان يؤدى بالضرورة الى ازدياد منحنى التدهور بمرور الزمن(١٣١) .

وتجدر الاشارة أيضا الى أنه نتج عن الأزمة النقدية التى أحدثها نقص ورود الذهب ، بالاضافة الى عوامل الطبيعة من كثرة الأوبئة والطواعين ونقص مياه الفيضان أثرها الواضح فى تواضع انتاج البلاد من المصنوعات التى اشتهرت بها الى أدنى حدوده ، ولم تكن نتيجة ذلك قاصرة على المزيد من استنزاف رصيد البلاد من الذهب ، بل والمزيد من نقص الصادرات ، وما ترتب على ذلك من زيادة الاعتماد على الواردات من الغرب الأوربى(١٣٢) . وهذا ما يمكن التعبير عنه بأنه حدث انقلاب فى الأوضاع الاقتصادية التى كانت سائدة فى مصر طوال العصر المملوكى الأول ، فبعد أن كان التجار الأوروبيون يحملون السلع الشرقية الى أوربا فى مقابل الذهب ، أصـــبحوا يصرفون السلع المصنوعة فى بلادهم فى مصر على نطاق كبير(١٣٣) . وهذا يفسر لنا السر من تعجب وتساءل ســـلاطين المماليك — فى القـــرن الخامس عشر الميلادى — بل ودهشتهم من قلة ما أصبح يجلبه التجار الأوربيون معهم من الذهب الى مصر ، والذى لجأ السلاطين المماليك الى علاجه عن طريق فرض قدر معين من التوابل السلطانية « توابل الذخيرة الشريفة » على هؤلاء التجار، يشترونه بالذهب بالاضافة الى ما جرت به العادة من تقديم السبائك الذهبية الى دار السكة السلطانية(١٣٤) .

---

(١٣٠) د. قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ٧٠—٧١.
(١٣١) المرجع السابق ، ص ٧١ .
(١٣٢) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ ، د. قاسم عبده قاسم : نفسه ، ص ١٤٧ — ١٥٠ .
(١٣٣) د. توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص من المقدمة .
(١٣٤) د. صبحى لبيب : نظا م المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ، ص ٤٤ .

كما نلاحظ أيضا أنه نتيجة لقلة الذهب فى مصر فقد كثر التعامل بالأجل أى على أقساط بشكل لم يسبق له مثيل ، ولم يكن ذلك قاصرا على السلع المحلية ، بل شمل السلع الواردة من بلاد العراق والشام الى مصر ، حيث يسلم التجار الواردون ما معهم من سلع الى السماسرة الذين يقومون بدورهم ببيعها على التجار على أن يجبوا ثمنها فى مدة أشهر معلومة ، وهذا التغير الذى حدث فى نظام البيع والشراء لم يكن شائعا من قبل بمثل هذه الدرجة ، والذى أدى بدوره الى الزيادة فى الأسعار(١٣٥) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل ان نقص الذهب هذا كان السبب المباشر وراء شيوع نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية وهو ما لم يكن معروفا من قبل ، فالباحث فى المعاهدات التى تم عقدها بين سلاطين المماليك والمدن التجارية الأوربية حتى القرن الرابع عشر الميلادى سوف يدرك أن التبادل التجارى كان قائما على المعادن النفيسة وبخاصة الذهب ، حتى اذا جاء القرن الخامس عشر للميلاد يجد فى معاهدات البندقية سنة ١٤١٥ م وفلورنسة ١٤٨٩ م بندا أو بنودا خاصة بنظام المقايضة لم تكن موجودة فى المعاهدات الأولى التى نصت على تنظيم استيراد الذهب وضربه . أما السلع التى استخدمت فى المقايضة وقامت مقام العملة فهى التوابل فى ناحية ، والفواكه الجافة والمعادن غير النفيسة وكذلك زيت الزيتون والعسل والصابون والبندق واللوز ، بالاضافة الى بعض السلع الأخرى ، مثل الأقمشة والمصنوعات الزجاجية والمرايا(١٣٦) .

كما ترتب على انعدام الذهب أن أصبح الاعتماد على العملات الأجنبية — لثبات وزنها وعيارها — هو أساس التعامل فى الحياة اليومية فى مصر منذ القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ، حيث نسمع عن العملات « القرمانية » و« اللنكية » و« التكرورية » و« الافرنتية » وليس أدل على ذلك مما يرويه بعض المؤرخين المعاصرين من أن السلطان المؤيد شيخ فى

---

(١٣٥) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٥٩٥ ، فى حوادث سنة ٨٢٤ هـ .

(١٣٦) د. صبحى لبيب : نظام المقايضة ، ص ٣٨ — ٤٤ ، د. توفيق اسكندر : نفسه ، ص ٨٠ ، Amari : I Diplomi Arabi.

سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م عندما أعد حملة حربية للخروج الى بلاد الشام لمحاربة الخارجين على الدولة ، أعطى كل واحد من المماليك السلطانية « تسعة وثلاثين أرفنتى » ، كما أنه فى سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م قام بتعيين محتسب للقاهرة ومصر ورتب له فى كل يوم على الجوالى « أفلوريين »(١٣٧) . وبذلك سيطرت هذه العملات الأجنبية على حركة التعامل فى الأسواق المحلية ، وكان من نتيجة ذلك أن زادت قيمتها بحيث وصل سعر « الافرنتى » فى سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨ م أيام المؤيد شيخ الى ¼ ١ دينار من الذهب المصرى ، أى ما يعادل ٢٧٠ر٦ درهما(١٣٨) . كذلك سيطرت هذه العملات على حركة التعامل فى تجارة مصر الخارجية ، فيروى لنا ابن الصيرفى أنه فى سنة ٨١٦ هـ/١٤١٣ م ، فى أواخر عهد السلطان برقوق ارتفعت أسعار الأقمشة المصرية الصنع بنسبة تراوحت بين ١٠٠٪ و٢٥٠٪ ، بينما رتفع سعر الاقمشة التى كان يتم استيرادها عن طريق المدن التجارية الأوربية بنسبة تراوحت ما بين ٢٥٠٪ و٣٠٠٪ ، وبذلك كان ميزان المدنوعات فى صالح هذه المدن وليس فى صالح مصر ، وقد كان لهذه السياسة أثرها الواضح فى ازدياد عجز المصنوعات المصرية عن منافسة مثيلاتها فى أسواق التجارة الخارجية(١٣٩) .

وقد يرى البعض أن بعض سلاطين المماليك وبخاصة « المؤيد شيخ » والأشرف برسباى قد حاولا اصلاح النظام النقدى المصرى ، عن طريق سك « دراهم مؤيديه » و« دنانير أشرفية » ، الا أن الحقيقة المؤلمة أن هذه الدراهم وتلك الدنانير لم تكن سوى أجنبية ، تم جمعها من الناس ، وتمت اعادة سكها وبنفس عيارها ووزنها وعليها شعار الدولة الاسلامية ، وليس شعار المدن التجارية الأوربية(١٤٠) .

وغنى عن البيان أيضا مدى خطورة الاعتماد على النقد الأجنبى كقاعدة للتعامل النقدى ، وفى رأى أن ذلك قد وضح عندما امتنع « الفرنج » فى عهد

---

(١٣٧) نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ ، ص ٣٥٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٤٥١ .
(١٣٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٠—٤٢١ .
(١٣٩) نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .
(١٤٠) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٧٧ .

السلطان برسباى من شراء الفلفل والتوابل بالسعر الذى حدده ، وربما فسر لنا هذا الحدث قول المقريزى فى تلك الفترة أن « احوال الناس بديار مصر والشام واقفة ، لقلة مكاسبهم .. »(١٤١) .

كما يبدو لنا أن بعض الاجراءات الاقتصادية التى كثرت فى مصر منذ عهد الأشرف برسباى كان المحرك الأساسى لها هو قلة وصول « ذهب السودان » ، والتى كان منها سياسة الاحتكار التى لجأ اليها ، كذلك ما صار يعرف منذ عهده باسم « مال الضيافة » وهو عبارة عن مبلغ من المال وصل أحيانا الى ما يعادل مائة دينار ، كان يتم تحصيله من أهل الضواحى والقرى ، فاختل بذلك حال الفلاحين خللا كبيرا(١٤٢) يضاف الى هذا ما عرف بسياسة « الطرح » والتى شاعت فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة بوجه خاص بحيث كانت الدولة تفرض على التجار وغيرهم من الناس شراء بعض السلع بالسعر الذى تحدده ، وعادة كان يلحق بالناس أضرار كبيرة وخسائر لا حصر لها بسبب ارتفاع أسعار السلع المطروحة عن سعرها الحقيقى(١٤٣) .

---

(١٤١) السلوك ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٠٥ .
(١٤٢) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٧٩٨ .
(١٤٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٠١ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

دور العرب وتأثيرهم فى شرق أفريقيا

د. سليمان عبد الغنى المالكى

ارتبطت بلاد اليمن وشبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا منذ أقدم العصور التاريخية ، وقد كان للوضع الجغرافى للبلدين اثره فى تنمية هذه الصلات كما تفاقمت هذه الصلات قوة وضعفا بتفاوت العوامل والظروف السائدة ، اذ أن هجرة سكان اليمن وحضرموت الى الحبشة وغيرها من مناطق الساحل الشرقى لافريقيا لم تنقطع فى العصور المختلفة . كما أن الصلات الدينية والسياسية والتجارية التى كانت تربط بين اليمن والحبشة ظلت قائمة لفترة طويلة ذكرتها المصادر التاريخية ، ولا ريب فى أن النقوش المكتشفة فى البلدين ما تزال هى بلا شك تضيف أدلة من عمق هذه الصلات(١) .

ومما يجب الاشارة اليه فى هذا الصدد أن التجار من جنوب الجزيرة العربية والذين يمثلون رأس الرمح كانوا أقدم من وطىء الساحل الشرقى حيث كان قدومهم الى هذه المناطق بغرض التجارة والاستيطان(٢) .

ومع قلة عدد هؤلاء التجار الا أنه بمضى الزمن بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان المحليين فتزوجوا بنساء القبائل وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاشتغال بتجارة الذهب والعاج والرقيق(٣) وكونوا امارات عربية فى شرق افريقيا شهد بعظمتها وبتحضرها كل من زارها . هذا وقد ظلت هذه الصلات بين الجزيرة العربية والجزء الشرقى والشمالى الشرقى لافريقيا باقية لم تنقطع .

---

(١) أحمد ، الحميمى الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ، القاهرة ، ص ٣ .

(٢) جمال زكريا قاسم : مجلة الفهرس من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٧٧ .

(3) Ingrams : Arabia and the Isles, p. 3.

واذا علمنا أن المسافة بين زنجبار وعدن لا تتجاوز ١٧٠٠ ميلا وبين زنجبار ومسقط ٢٢٠٠ ميلا تقريبا لادركنا ان الامتداد العربى الى هذه المناطق الافريقية كان شيئا طبيعيا(٤) . فالقبائل القريبة من الساحل الافريقى أو كما عبر عنها كوبلاند (Coupland) بالجيران(٥) (Next door neighbours) كان لابد لها من أن تمد نشاطها وتجارتها وتنقل حضارتها الى سواحل أفريقية الشرقية .

وظل هذا الاتصال التجارى ينمو ويتسع قبل ظهور الاسلام بين الجزيرة العربية وموانىء الساحل الافريقى الشرقى وقد ساعد هذا فى زيادة الانتشار العربى على سواحل أفريقية الشرقية . الا انه كان يختلف عن الفتوحات الاسلامية المعروفة التى حدثت فى اجزاء أخرى من شمال أفريقيا فلم يكن نتاج حملة عسكرية منظمة من قبل دولة بعينها وانما كان هذا الانتشار نشاط امارات عربية على ساحل حضرموت ، بل وفى أغلب الأحيان يرجع الى جهود جماعات قد أسهمت وكان لها دورها فى حملات بقصد الاستقرار والتجارة(٦) .

ومن المعلوم أن هناك أسبابا عديدة ساعدت فى هجرة العرب من الجزيرة العربية الى أفريقيا الشرقية كالعوامل الجغرافية والمناخية والسياسية بالاضافة الى الدوافع التجارية . ونستطيع أن نذكر بعض هذه العوامل ونجملها فى الآتى :

أولا : معرفة التاجر العربى بساحل افريقيا الشرقية ويرجع ذلك الى أن سكان جنوب شبه الجزيرة العربية (العمانيون والحضارمة) على وجه الخصوص نشأوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة العربية فى منطقة ظهيرها طارد(٧) بسبب الطبيعة الصحراوية الجرداء للمنطقة وكان من

---

(٤) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ، ص ٣٦ .

(5) Coupland, R. : East Africa and Irs Inuaders.

(6) Kettie, J. Scott : The Partition of Africa (London 1895), p. 10.

(٧) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، ص ٣٧.

الطبيعى أن يولوا وجوههم الى البحر والى التجارة مع الدول المطلة على المحيط الهندى فى آسيا وافريقيا .

وبمرور الزمن ومع تكاثر اعدادهم تمكنوا من تكوين مجموعات صغيرة أخذت طريقها متسللة الى شرق أفريقيا فانتشرت أولا فى بعض الجزر الساحلية – زنجبار – بمبا ، وفى المراكز الساحلية مثل سفالة ومالندى وكلوة وممبسة ودار السلام(٨) . واستطاعت بذلك أن تطبع مناطق واسعة من شرق هذه القارة بلغتها وديانتها وكان لها ما ارادت واندمجت مع سكان القارة الوطنيين فى هذه المنطقة(٩) .

ثانيا : يعتقد كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن هذه المنطقة ان انهيار سد مأرب عام ١٢٠ م قد دفع بالهجرة العربية دفعا قويا نحو الساحل الشرقى لافريقيا بحثا عن مأوى ومصدر للرزق خارج شبه جزيرة العرب(١٠) . فعلى أثر انهيار السد خرجت من جنوب شبه الجزيرة العربية هجرات عربية الى مختلف الانحاء سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها وكان من الطبيعى أن يتجه جزء من هذه الهجرات الى الساحل الشرقى لافريقيا ، حيث القرب الجغرافى والمعرفة السابقة بالساحل(١١) .

ثالثا : وقد استفاد العرب فى شبه جنوب الجزيرة العربية من العوامل الجغرافية المتعلقة بحركة الرياح الموسمية المعروفة باسم الـ (Dhow) من القيام برحلتين منتظمتين فى السنة بأقل مجهود ، ففى فصل الخريف تدفع الرياح الموسمية السفن فى اتجاه جنوبى غربى الى الساحل الافريقى وفى فصل الربيع تدفع هذه الرياح الموسمية السفن فى اتجاه شمالى شرقى وبذلك تتمكن من العودة الى قواعدها فى شبه جزيرة العرب(١٢) .

---

(٨) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، ص ٣٧ .
(٩) صفى الدين ، محمد صفى الدين : أفريقيا بين الدول الأوربية ، ص ٥٢ و٦٧ .
(١٠) الشاطر بصيلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٤٩ ، ص ٤٠ .
(١١) سليمان عبد الغنى مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٣ .
(12) The Middle East Journal, October 1954 (The Arab Dhow Trade).
حورانى (جورج فاضلو) : العرب والملاحة فى المحيط الهندى .

وفى خلال دورة هذه الرياح يتم التعامل التجارى فيما عرف برحلات الشتاء والصيف بين مختلف الاقطار الاسيوية وافريقيا(١٣) . وبمرور الزمن اصبحت للتجارة والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها ، واصبحت رحلاتهم من شبه جنوب الجزيرة العربية الى السواحل الافريقية الشرقية ومدة اقامتهم بها تنظم تنظيما دقيقا تبعا لمواسم الرياح المعروفة لديهم ، وظلت لهم السيطرة على طرق التجارة البحرية هذه الى ان نافسهم الروم عندما أرسلوا سفنهم المتطورة عبر البحر الاحمر بعد اكتشافهم دورة الرياح الموسمية للمتاجرة مع الهند(١٤) .

وكان لقيام امارات عربية فى اليمن ذات حضارة زاهرة منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وهى دول معين وسبأ وحمير ، والتى قامت حضارتها وثروتها أساسا على العمليات التجارية البرية والبحرية أثر كبير فى زيادة الاتصالات بساحل شرق افريقيا(١٥) . حيث كان أهلها يتاجرون مع الهند وشرق أفريقيا ويجلبون منها السلع الى جنوب الجزيرة العربية ثم تنقلها القوافل الى الداخل ومنها الى الشام والعراق ومصر . ومع ازدهار التجارة وتقدم فنون الملاحة زاد اتصال العرب بالساحل الشرقى لافريقيا(١٦) .

هذا وتواجه الباحث مشكلة قلة المراجع التى يمكن الاستناد عليها فيما يتعلق بالعلاقات العربية والسواحل الشرقية لافريقيا فى الفترة السابقة لظهور الاسلام اذ لا توجد مصادر مخطوطة عن تلك الفترة فالتاريخ القديم لهذه المنطقة لاتزال ملامحه تتشكل وقتا على النتائج التى تتوصل اليها بعثات الكشف والتنقيب التى بدأت تمارس نشاطها فى مجال الحفريات فى السنوات الأخيرة بغرض استجلاء ما غمض من تاريخ هذه المنطقة(١٧) .

---

(١٣) الشاطر بصيلى : المجلة التأريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، اكتوبر ١٩٤٩ ، ص ٤٠ .

(١٤) الشاطر بصيلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، أكتوبر ، ص ٤٠ .

(١٥) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، القاهرة ، ص ١١ .

(١٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

(١٧) جمال زكريا قاسم : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

وقبل هذه الكشوف الأثرية الحديثة التى اجريت فى منطقة شرق أفريقيا فان المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى تاريخ هذه المنطقة وعلاقتها بجنوب شبه الجزيرة العربية هو ذلك التراث الاغريقى النادر المعروف بالدليل الملاحى للبحر الارتيرى (Periplus Maris Erythrae) الذى كتبه أحد الاغريق فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى(١٨) . والبحر الارتيرى كان يطلق على الجزء الغربى من المحيط الهندى وبالتحديد الجزء الملامس لسواحل شرق أفريقيا(١٩) . ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية نشرها (شوف) (Schoff) بعنوان : (The Periplus of the Erythrean Sea)

وقد خص هذا الكتاب بمعلومات وافية ووصف للساحل الشرقى لافريقيا وحالة العرب وتجارتهم فى المنطقة(٢٠) .

وتنبع أهمية هذا الكتاب من انه أول مصدر تعرض للعلاقات التى كانت قائمة بين جنوب الجزيرة العربية والسواحل الشرقية لافريقيا قبل ظهور الاسلام . وعن هذه الفترة يؤكد كتاب الدليل الملاحى للبحر الارتيرى كثرة السفن العربية فى الساحل الشرقى لافريقيا ، وان هذه السفن كانت تأتى من شبه جنوب الجزيرة العربية ومن بعض مناطق المحيط الهندى حبث تتبادل السلع التجارية مع تلك التى تأتى من السواحل الافريقية(٢١) كما يتحدث عن اختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الافريقية وأن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لامراء حمير وجنوب الجزيرة العربية وأن العرب كانوا يألفون أهل البلاد ويتزاوجون معهم ويعرفون الساحل واللغة(٢٢) .

اكتفى العرب فى الفترة السابقة لظهور الاسلام بالاستقرار المؤقت على السواحل الشرقية لاعريقيا ولم يحاولوا التوغل الى داخل القارة مكتفين بانشاء المراكز التجارية على السواحل لتبادل وتصدير تراب الذهب والعاج

---

(18) Roland Olivlr, (Editor) The Dawm of the African History, p. 45.

(١٩) جمال زكريا قاسم : مجلة الفهرس العربى من حوليات مكتبة الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٢ .

(٢٠) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٢ .

(٢١) جمال زكريا قاسم : مجلة الفهرس العربى ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٢ .

(٢٢) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٨٥ .

والرقيق وغيرها من المنتوجات الافريقية بتلك التى يجلبونها من الهند وبعض الجزر الاسيوية فى المحيط الهندى .

كما أوضحنا لا توجد لدينا معلومات وافية عن حالة العرب فى ساحل شرق أفريقيا فى الفترة التالية لرحلة صاحب كتاب البحر الارتيرى (The Periplus of the Erythrean Sea) فى القرن الأول الميلادى وحتى الاسلام فى القرن السابع الميلادى ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن الصلات كانت قائمة ولم تنقطع ولكنها كانت محدودة الاهداف والتأثير الى أن بدأ الاسلام يحدث انقلابا خطيرا فى حالة العرب بوجه عام وتاريخ الساحل الشرقى لافريقيا بوجه خاص(٢٣) . اذ ظل نشاط العرب فى هذه الفترة لصيق بالسواحل ولم يحاولوا التوغل داخل القارة الا فى نطاق ضيق جدا ، حيث اكتفوا باقامة المراكز التجارية على الساحل ليصل اليهم مندوبون من القبائل الافريقية لمقايضتها بما لدى التجار العرب من بضائع اسيوية ، فيتم نقلها الى الخليج وشبه جنوب الجزيرة العربية حيث تنقلها من هناك القوافل الى الشام والعراق أو تنقلها السفن الى شبه القارة الهندية(٢٤) .

ومما لا شك فيه أن هجرة العرب واستقرارهم فى السواحل والجزر الساحلية من أفريقيا ، المقابلة للجزيرة العربية قد حدث بهدوء ودون اللجوء الى القوة أو العنف اذ لم يذكر لنا التاريخ حروبا أو معارك وقعت بين المهاجرين والسكان الافريقيين من أهل المنطقة . فالغرض الأساسى من استقرار العرب فى السواحل الشرقية لافريقيا كان التجارة واستغلال الحاصلات الداخلية للقارة الافريقية ونقلها للثغور الساحلية وجلب ما يمكن تصريفه فى داخل القارة من البضائع الاسيوية ولذلك لم تهتم الجماعات العربية بامتلاك الأرض الا بالقدر الضرورى لحماية الثغور التجارية ومن ثم كانت رقعة الممالك العربية على الساحل الافريقى ضيقة(٢٥) .

وبظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى فى شبه الجزيرة العربية أصبح لدى العرب والمسلمين دوافع جديدة غير العامل التجارى لمحاولة

---

(٢٣) جمال زكريا قاسم : مجلة فهرس الحوليات ، مجلد ١ ، ص٢٨٤ .
(٢٤) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٢ .
(٢٥) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا ، ص ٣٩ .

الاستقرار الدائم فى سواحل افريقيا الشرقية واقامة كيانات سياسية واسلامية وبالتالى ازدادت الروابط بين العرب وشرق أفريقيا ولم يقتصر هذا الامر على عرب شبه الجزيرة العربية وحدهم بل تعداهم الى كثير من الشعوب الاسلامية مثل بلاد فارس وشبه القارة الهندية وكافة الدول الاسلامية(٢٦) .

وأهم ما تميز به هذا الدور الاسلامى هو قيام الامارات والمدن العربية على السواحل الافريقية كما شهد تدفق العرب المهاجرين الى ساحل شرق أفريقيا باعداد أكثر واللحاق باخوانهم الذين سبقوهم واستقروا هناك . وكان استيطان العرب واستقرارهم بشرق أفريقيا نتيجة لدوافع متعددة لعل أبرزها النزاعات الدينية والسياسية التى كانت تحدث بين المسلمين خاصة فى عهد الخلافتين الأموية والعباسية مما دفع باعداد متزايدة من العرب وغيرهم من المعارضين الى الهجرة خارج شبه الجزيرة العربية فاتجهت جماعات منهم الى موانىء شرق أفريقيا حيث كانوا قد تعودوا من قبل على التبادل التجارى معها(٢٧) .

وقد أسس هؤلاء العرب المهاجرون المدن ووطدوا اقدامهم على طول الساحل الشرقى لافريقيا وقد ساعدهم على ذلك وجود مجموعات من التجار العرب الذين سبقوا هؤلاء منذ زمن بعيد واستوطنوا الجزر والسواحل الشرقية لافريقيا واستطاعوا عن طريق المعاملات التجارية أن يؤسسوا لهم كيانات خاصة بهم وان يختلطوا بالسكان الافريقيين عن طريق التزاوج مما أمن لهم استقرارا هادئا وسلميا .

الهجرات الاسلامية الى شرق أفريقيا :

بدأت الهجرات الاسلامية الى شرق أفريقيا منذ بزوغ الاسلام على تلك المجموعة الصغيرة من المسلمين الذين وجههم الرسول عليه الصلاة والسلام للهجرة الى الحبشة مما يؤكد ان الصلات بين الجزيرة العربية وأفريقيا كانت قائمة ومتصلة ثم زادت هجرات المسلمين من الجزيرة العربية الى شرق

---

(٢٦) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٣ .

(27) Zoe March : East Africa Through Contemporary Records, p. 3.

أفريقيا منذ الفتنة الكبرى التى بدأت فى عهد خلافة عثمان بن عفان (رضى الله عنه)(٢٨) .

وتروى أحداث التاريخ أن أولى الهجرات الجماعية فى العصر الاسلامى الى أفريقيا كانت فى عهد الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) (٦٨٥ — ٧٠٥ م) . وذلك على أثر اتباع سياسة البطش والتنكيل بالحركات المناوئة للدولة الاموية ، فخرجت هجرات عربية باعداد كبيرة الى السواحل الشرقية لافريقيا وانضمت الى من سبقوهم ليدعموا تأسيس المدن والمراكز العربية هناك والتى أصبحت نواتها لامو والمناطق التى حولها(٢٩) .

وكان من أهم هذه الجماعات العربية التى هاجرت الى شرق أفريقيا تلك التى خرجت من عمان خلال الفترة من (٧٥ — ٨٥ هـ) (٦٩٤ — ٧٠٤م) بقيادة الاخوين سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى من قبيلة الازد وهما من شيوخ العرب الذين حكموا عمان فى أيام الدولة الاموية وثاروا فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان الا انهم فشلوا وتغلبت عليهم قوات الحجاج ابن يوسف الثقفى سنة ٧٥ هـ/٦٩٤ م . فهرب سعيد وسليمان مع أنصارهما تاركين وطنهم الى الساحل الافريقى ولا يعلم تماما أين نزلا على البر ، ويحتمل أن يكونا قد نزلا فى (بات) (Pate) فى أرخبيل لامو(٣٠) أو فى مدينة حدابو التى اسسوها شمالى ممبسة(٣١) .

وتبع هذه الهجرة هجرات اسلامية اخرى استقرت فى أماكن متفرقة على الساحل الشرقى الافريقى ، ومما لا شك فيه أنه بانتصار بنى أمية وتأسيس دولتهم حدثت معارك دموية بينهم وبين الهاشميين كانت آخر تلك المعارك تلك المعركة التى قتل فيها زيد بن على زين العابدين عام ١٢١ هـ/ ٧٣٨ م وتفرق أتباعه من بعده فى البلاد فاستتر فريق منهم فى اليمن مؤسسا طائفة الزيديين والتى كانت فيهم الامامة الى عهد قريب(٣٢) . ومن هؤلاء

---

(٢٨) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٧٥ .
(٢٩) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٤ .
(٣٠) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٨.
(٣١) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٤ .
(٣٢) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٧٥ .

الزيديين من هاجر الى ساحل شرق افريقيا . واستقروا عند ساحل بنادر بالقرب من موقع مقديشيو عن شنجابا(٣٣) . هذا ولم ينفرد الزيدويون بالهجرة فى عهد الأمويين لأن كثيرا من أهل الحجاز وعلى الأخص من اهل مكة والمدينة قد حذا حذوهم بعد الحملات الحربية التى جردها الامويون على المدينتين المقدستين(٣٤) . وكما ان اتباع زيد كانوا من خيرة الاسر العربية ، كذلك كان مهاجروا الحجاز من أعرق الأسر التى عارضت الحكم الأموى ومنهم من كان ينافسهم فى المركز والحسب .

ولقد تكررت نفس الهجرة وعلى نفس النمط عندما استولى العباسيون على الدولة الاسلامية فانتشر الأمويون واتباعهم فى شمال أفريقيا والاندلس وكان من بينهم عدد لا بأس به وصل الى الشاطىء الشرقى لافريقيا عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر(٣٥) ومنهم من تعمق فدخل السودان عن طريق الحبشة(٣٦) وقد ترك هؤلاء الأمويون آثارا طيبة فى المناطق التى هاجروا اليها بما كانوا يحملون من نور الاسلام وتعاليمه بالاضافة الى السادات العربية الأصيلة . ولما علم الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ — ٨٠٩ م) بشهرة الأمويين وخاصة عبد الملك بن مروان فى الساحل الشرقى لافريقيا شجع بدوره هجرة أصحابه الى الساحل وأرسل بعض رجاله من اجل التشييد والبناء وربما وصلت سفنهم الى زنجبار(٣٧) .

وكان من أهم الهجرات فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى ، هجرة الاخوة السبعة من قبيلة الحارث العربية ، فقد هبط هؤلاء على الساحل الشرقى لافريقيا عند شاطىء بنادر وامتد نفوذهم حتى جنوبى ممبسة(٣٨) وقد

---

(٣٣) الطبرى : الامم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٤٨٢ — ٤٥١ . والمسعودى: مروج الذهب ٢ : ١٨١ . وعبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٨ .

(٣٤) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٧٥ .

(٣٥) المرجع السابق .

(٣٦) الشاطر بصيلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، ١٩٤٩ ، ص ٣٩ .

(37) Gnay, J. History of zanzibar from The Middle Ages To 1856, p. 11.

(٣٨) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٥ .

اصطدم هؤلاء المهاجرون الجدد فى ساحل بنادر بمن سبقوهم من المجموعات الزيدية الذين رفضوا الاعتراف بسيادة هؤلاء ففضلوا الانسحاب الى داخل القارة حيث اختلطوا بالاهالى من السكان الافريقيين(٣٩) . ويرجع اليهم الفضل فى تأسيس مدينتى مقديشيو وبراوة(٤٠) .

هذا وتحدثنا الرواية العربية لحوليات كلوة عن هجرة فارسية من شيراز وفدت الى ساحل شرق أفريقيا فى سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م بزعامة الحسن بن على وأبنائه الست ، حيث نجحوا فى تأسيس دولة الزنج التى امتدت الى عدة موانىء وجزر من بمبا فى الشمال الى سفالية فى الجنوب وكانت كلوة بمثابة عاصمة لها(٤١) وتعتبر أول دولة اسلامية قامت فى شرق افريقيا وربما كانت سلطنة زنجبار الحديثة تستند فى اصولها التاريخية على دولة الزنج هذه والتى يرجع اليها الفضل فى قيام عدة مدن اسلامية على الساحل الشرقى لافريقيا كانت على درجة كبيرة من التحضر والازدهار(٤٢) .

وفى بداية القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى تدمت الى الساحل الشرقى لافريقيا هجرة عربية كبيرة من اقليم عمان بقيادة سلمان بن سليمان بن مظفر النبهانى صاحب عمان ونزل ببات (Pate) وتزوج سلمان هذا من أميرة سواحلية هى ابنة اسحاق من سلالة الشيرازيين حكام كلوة ، ثم تنازل له اسحق عن الحكم وبذلك أصبح أول حكام اسرة بنى نبهان فى الساحل الشرقى لافريقيا(٤٣) . وقد أدى استقرار العرب فى السواحل

---

(٣٩) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص ٣٥٩ .

جمال زكريا : حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ .

عبد الرحمن زكريا : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٩ .

(٤٠) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٤١) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٦ .

(٤٢) جمال زكريا قاسم : الفهرس العربى من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٩٠ .

(٤٣) عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص ١١٩ .

الشرقية لافريقيا الى انشاء امارات اسلامية ومدن عربية كبيرة وقد التقت فى هذه المدن الساحلية ، العادات العربية والثقافة الاسلامية بالمورثات الافريقية فنتج عنها مزيج يجمع بين اشياء افريقية أصلية وبين اشياء عربية واسلامية كان من أبرزها بروز الشعب السواحيلى بلغته السواحلية المميزة وقد ساعد فى هذا الاندماج المثل الانسانية التى انفردت بها الحضارة الاسلامية من دون سائر الحضارات الأخرى بخلوها من الحاجز اللونى والعنصرى الذى جرت عليه الحضارات الأوربية التى تنادى بتقسيم البشر الى اجناس والتى وضعت الحاجز اللونى كمعيار لا يسمح بموجبه للسود أن يختلطوا بالبيض ، الشىء الذى حاربه الاسلام مما كان له أكبر الأثر فى انتشار الاسلام بين القبائل والشعوب الافريقية(٤٤) وقد ساعدت هذه النظرة الاسلامية فى نمو علاقات الزواج فى مجتمع افريقية الشرقية وتكوين الشعب السواحلى الذى كان ثمرة للزيجات العربية المهاجرة والقبائل الافريقية(٤٥) .

ورغم ان كوبلاند (Coupland) يذكر أن العرب كانوا فى السواحل الافريقية يكونون ارتقراطية تمثل الطبقة الحاكمة التى لها السيادة — لكن مما لا ريب فيه انهم لم يكونوا بعيدين عن السكان الأصليين فقد كان هناك تقارب وتجانس أدى الى الاختلاط بين العنصرين مما نتج عنه جنس بدت فيه الصفات الزنجية المعدلة كما بدت فيه الكثير من العادات والصفات العربية(٤٦) .

وقد تعمدت بعض المصادر الأوربية أن تقلل من دور العرب والمسلمين وتأثيرهم الحضارى فى شرق أفريقيا ، فذكرت ان التجارة كانت دافعهم الوحيد فى حين أن الدوافع الانسانية أو الدينية أو الحضارية لم تلق اهتماما من العرب فلم يهتموا مثلا بادخال الزراعة الا بالقدر الذى يكفى استهلاكهم بينما انصرفوا كليا الى اشباع نهمهم من التجارة والحصول على العاج والذهب والرقيق وغيرها من المنتوجات الافريقية . وذهب جنستون (Johnston)

---

(٤٤) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ٦٦ .

(٤٥) سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، ص ١٩٨ .

(46) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders (London 1938). p., 39.

الى الادعاء بأن الحاجة كانت ماسة للعبيد فى العالم الاسلامى لخدمة الحريم وان هذه التجارة كانت متوقفة على نشاط العرب(٤٧) .

غير أن هذا الادعاء ليس له ما يسنده اذ أن اتصال العرب بشرق افريقيا لم يكن الهدف الأساسى منه الحصول على الرقيق فالاسلام لم يشجع مثل هذه التجارة بل عمل على محاربتها والقضاء عليها ، والحقيقة ان العرب قد كان لهم تأثيرهم الواضح فى كثير من أوجه الحياة والنشاط الاقتصادى والمعمارى مما اعترف به جميع الرحالة العرب والاوربيين الذين زاروا منطقة شرق أفريقيا وكتبوا عنها(٤٨) .

وحتى جنستون (Johnston) نفسه عاد واعترف للعرب ببعض أفضالهم فذكر ان اليهم يرجع الفضل فى ادخال زراعة الارز وقصب السكر والقطن بالاضافة الى انهم هم الذين علموا الافريقيين استخدام الحصان والثور بل هم الذين نشروا بين هؤلاء الوثنيين الواحدانية والاسلام . وترتب على ذلك انهم علموا الافريقى قيمة النفس البشرية فلقنوه مبادىء احترام النفس والاعتداد بالذات(٤٩) .

ويذكر كوبلاند (Coupland) ان الرحالة العرب والأجانب على السواء من الذين زاروا الامارات والمدن العربية فى شرق افريقيا تحدثوا عما شاهدوه فى هذه الامارات والمدن من مظاهر الحضارة والرقى(٥٠) . فقد ذكر ان بطوطة الذى زار مقديشيو ، ممبسة وكلوة فى القرن الثامن الهجرى/الرابع الميلادى: ان مقديشيون مدينة متناهية فى الكبر وانها كانت تقوم بصناعة النسيج الدقيق وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها والتى لا نظير لها ومنها تحمل الى

---

(47) Johnston, H. H. : The Opening of Africa (London 1895) p. 50..

(٤٨) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ، ص ٤٦ .

(49) Johnston, H. H. : The Opening of Africa, p. 51.

(50) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders (London 1983) p. 39.

ديار مصر وغيرها(٥١) . ودهش ابن بطوطة عندما زار كلوة وممبسة مما كانت عليه هذه المدن من حسن تنظيم وسمو ازدهار ورخاء عظيم(٥٢) .

ووصف ابن بطوطة مدينة كلوة بانها من أحسن المدن واتقنها عمارة(٥٣) .

ونوه الرحالة الأوربيون الذين زاروا الامارات والمدن العربية بشرق افريقيا بما كانت عليه من حضارة ورقى ، فقد لمسوا فيها كما يقول كوبلاند (Coupland) مجتمعا متحضرا لا يقل عن المجتمع الأوربى فى ذلك الوقت(٥٤) هذا وقد ذكر الرحالة الأوربى فاسكو دا جاما الذى زار موزمبيق فى القرن الخامس عشر الميلادى انه شاهد الناس يرتدون الملابس الحريرية الموشاة بالذهب وان سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالفضة كما شاهد فى مقديشيو المنازل العالية من عدة أدوار ، وشهد نفس الشهادة باربوسا (Duarte Barbosa) الذى زار كلوة وممبسة ومالندى وبمبا وزنجبار .

وقد وجد البرتغاليون الذين حضروا للسواحل الشرقية لافريقيا ، درجة عالية من الحضارة تتمثل فى المدن العربية لم يكونوا يتوقعونها . فقد راوا بيوتا مبنية من الحجر وجوا من الرقة فى المعاملة فى الأسواق المحلية ، مما جعل بعض الكتاب يصف تلك البيئة بأنها كانت أرقى من البيئة البرتغالية فى سنة ١٥٠٠ م(٥٥) .

وقد علق كوبلاند (Coupland) على وصف الرحالة الذين زاروا هذه المدن بقوله : اننا يجب الا نندهش لما يذكره هؤلاء من مظاهر الحضارة التى نقلها العرب لشرق افريقيا — لأن العرب كانوا فى ذلك الوقت حملة لواء الحضارة فلا شك أن مدارس بفداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن

---

(٥١) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٥٢) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى شرق افريقيا ، ص ١٩٥ .
(٥٣) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج ١ ، ص ٢٨٣ .
(54) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders. p. 39.
(٥٥) زاهر رياض : استعمار أفريقيا ، ص ٤١ .

الثالث عشر الميلادى تفوق تلك التى فى اكسفورد أو أى مدينة أوربية أخرى(٥٦) .

وعلى ذلك فقد كان للعرب الذين هاجروا الى سواحل افريقية الشرقية تأثير حضارى بالغ الأهمية فى جميع أوجه الحياة حتى أصبحت هذه المنطقة تقرن بما يجرى فى شبه جزيرة العرب فى كثير من كتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروها . ويدل على ذلك أن الرحالة الاغريق والرومان الذين زاروا ساحل شرق افريقيا أطلقوا عليه فى كتاباتهم اسم عزانيا (Azania) نسبة الى أحد الممالك العربية القديمة التى يقال انها وجدت فى جنوب الجزيرة فى فترة سابقة لظهور الاسلام ولم تحدد تحديدا واضحا وان سكانها قد انتقلوا الى شرق أفريقيا حيث نسب الاغريق والرومان هذا الساحل الافريقى اليهم فيما بعد(٥٧) . مما يؤكد قوة التأثير الذى تركوه فى المنطقة .

بعض مظاهر التأثير العربى فى شرق أفريقيا :

ومن اهم مظاهر التأثيرات التى أحدثها العرب فى شرق افريقيا هى انتشار الاسلام بين شعوب المنطقة والذى بدوره أحدث تغييرا هائلا فى كل أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والسلوكية فقد أضفى الاسلام على حياة الذين اعتنقوه طابعا اجتماعيا وحضاريا بعد أن استعربوا ، وقد شجع الاسلام بتعاليمه ومثله الانسانية على التزاوج بين العرب المهاجرين والسكان الافريقيين من المسلمين مما أدى الى ظهور جماعات كثيرة اختلطت دماؤهم العربية بالدماء الزنجية فولدت شعبا يعرف بالجنس السواحيلى(٥٨) ويعزى الفضل الأكبر الى تعاليم الاسلام السمحة التى تحارب التفرقة العنصرية بسبب اللون أو الجنس اذ لا فضل لأبيض على أسود الا بالتقوى .

وقد أدى اعتناق هؤلاء السكان المحليين بشرق أفريقيا واتصالهم بالعرب المقيمين بينهم الى تغيير واضح فى مفاهيمهم وموروثاتهم الافريقية التى أصبحت تتواءم مع الدعوة الجديدة . كما نظم الاسلام علاقات الزواج والنسب

---

(56) Coupland, R. East Africa and Its Invaders (London 1938) p. 39-40.

(٥٧) بازل دافيدسون ، مترجم : أفريقيا تحت أضواء جديدة ، ص ٣١ .

(٥٨) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٤١ .

وقضى على عادة العرى السائدة بين القبائل الافريقية حيث تميز المسلم بملبسه النظيف الأنيق(٥٩) .

أما فيما يتعلق بتأثير الاسلام على الحياة الاجتماعية ، فقد استطاع المسلمون العرب فى شرق أفريقية أن يلائموا بين تعاليم الاسلام وبين الموروثات الافريقية السائدة مما مكن الاسلام من الانتشار فى المنطقة دون اللجوء الى القوة .

وقد انبثقت عن النظرة المتسامحة هذه للاسلام مجتمعا جديدا احتفظت فيه الثقافة الاسلامية بطابعها المجدد الذى يشير الى موطنها الأصلى فى شبه جنوب الجزيرة العربية خصوصا فيما يتعلق بالعادات والتقاليد(٦٠) .

وكنتيجة للتزاوج بين العرب وقبائل البانتوا الافريقية وفى محيطنا الجديد استطاعت تلك الحضارة أن تستوعب الكثير من أنماط الحياة الافريقية بعد أن اختارت وعدلت فيما تمتصه بما يتلاءم مع اصول سنة الاسلام(٦١) .

ويذكر سبنسر ترمنجهام أن الطابع الاسلامى قد كان له تأثير مباشر وواضح فى الزى السواحيلى للرجال والنساء . فالرجال يرتدون الملابس القطنية ذات الاكمام الطويلة او رداء طويل يسمى جوهو (Joho) ويضع الرجل فوق رأسه عمامة ملونة وفى قدميه صندلا جلديا . بينما النساء تتكون أرديتهن من قطعتين من القماش تلف أحداهما حول الجسم حتى كعب القدمين أما الثانية فتوضع فوق الراس والكتفين وعادة ما تشد فتمتد لتحجب الوجه كما يوجد نوع آخر من الحجاب ويسمى البرقع وهو نوع من الملابس التى فرضها الاسلام على المراة المسلمة(٦٢) .

وقد ذكر باربوسا (Duarte Barbosa) ان السكان فى سفالة كانوا يلفون نصفهم الأسفل بالأقمشة القطنية والحريرية ويضعون الدثار على

---

(٥٩) أحمد سويلم العمرى : الافريقيون والعرب ، ص ٣٩ .
(٦٠) سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، ص ١٣٠ .
(٦١) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

اكتافهم والعمائم على رؤوسهم . وفى كلوة كانوا يلبسون ثيابا فاخرة مزينة بخيوط الذهب(٦٣) .

وكان للاسلام تأثيرات مهمة فى مجال الحياة الفكرية فى المنطقة ، فقد أدى استقرار العرب وانتشار الاسلام فى شرق افريقيا الى جلب المذاهب الاسلامية السائدة فى الجزيرة العربية وغيرها من العالم الاسلامى الى بيئتهم الجديدة . وقد غلب على المنطقة انتشار المذهب الشافعى لأن معظم الهجرات العربية كانت من منطقة جنوب الجزيرة العربية خاصة اليمن حيث يسود مذهب الامام الشافعى . كما عرفت المنطقة الفكر الشيعى نتيجة لهجرات الزيديين هذا بالاضافةالى المذاهب الأخرى السائدة فى أهل السنة .

ولعل من أبرز التأثيرات التى احدثها الوجود العربى فى الساحل الشرقى لافريقيا هى ظهور ما يعرف باللغة السواحلية فقد ترتب على هجرة العرب والعناصر الاسيوية الأخرى الى شرق أفريقيا واختلاطهم بالسكان الأصليين من اهل المنطقة ظهور الثقافة واللغة السواحلية التى كانت نتيجة امتزاج العرب بالافريقيين والذى ادى الى ظهور ثقافة مميزة المعالم حيث أخذت من كلا الشعبين العربى والافريقى بنصيب وافر فجاءت اللغة السواحلية نتيجة لذلك الانصهار وكانت مزيجا من الذى اتى به العرب والذى كان ملكا خالصا للافريقيين(٦٤) .

وتعد اللغة السواحيلية من أهم اللغات السائدة فى أفريقيا حيث تحتل المكانة الثانية بعد اللغة العربية من حيث انتشارها وعدد الناطقين بها(٦٥) . وترجع اهميتها كلغة افريقية الى انها اهم لغات شرق أفريقية يتحدث بها أكثر من مليون نسمة كلغة ام فضلا عما يزيد على اثنتى عشرة مليون أخرى يتكلمونها كلغة ثانية الى جانب لغاتهم الأصلية(٦٦) .

---

(٦٣) سليمان عبد الغنى مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ٧٠ .
(٦٤) جمال زكريا قاسم : الفهرس العربى من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٦ .
(٦٥) هـ . م. باتبو : مجلة الاسلام اليوم ، العدد ٢ ابريل ، سنة ١٩٨٤ .
(٦٦) اللغة السواحلية : مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة ٤ ، مارس ١٩٨٥ .

وبعد استقلال دول منطقة شرق افريقيا من الاستعمار الغربى زادت أهمية هذه اللغة فأصبحت هى اللغة الرسمية لدولتى تنزانيا وكينيا . ويمتد توزيعها الجغرافى ليشمل كل من رواندا وبورندى وحتى شرق زائير . أما على الساحل فيمتد توزيعها من جنوبى الصومال الى شمال موزامبيق وجزر القمر(٦٧) وظل تطور اللغة السواحلية وادابها شديد الارتباط باللغة العربية التى مافتئت تغذيها طوال خمسة عشر قرنا أى منذ بزوغ الاسلام الى يومنا هـذا(٦٨) .

التأثيرات المعمارية :

أما فى مجال تأسيس وبناء المدن فقد كان للعرب الفضل الأكبر فى انشاء عدة مدن تجارية على الساحل الشرقى لافريقيا ، وقد بلغت تلك المدن درجة عالية من الحضارة والازدهار شهد لها بذلك كل من زار المنطقة من الرحالة العرب والاوروبيين حتى السير ريجلاند كوبلاند (Regland Coupland) الذى عرف بميوله الى تقليل دور العرب وتأثيرهم فى شرق أفريقيا لم يجد مناصا من الاعتراف بان المنازل التى وجدت على الساحل كانت منازل عربية الطراز ولكنه يشير فى أحيان كثيرة الى التأثير الفارسى على هذه المدن بينما تؤكد كل الدلائل على تغليب الطابع العربى على هذه المدن فى خصائصها وفى أساليب عيشها .

وقد كتب الرحالة البرتغالى دورات باربوسا (Duarte Barbosa) عن حيوية مدن الساحل الشرقى وعن تجارتها وأكد أن الحياة الخصبة والمزدهرة التى وجدها البرتغاليون عندما زاروا المنطقة كانت حياة عالمية اشتركت فيها عناصر اسيوية متعددة وانه وجد مجتمعا خليطا من العرب والفرس والهنود والافريقيين ولكن السمة العربية للحياة كانت أغلب .

هذا وكان القرن الثالث عشر الميلادى السادس الهجرى يمثل عصر ازدهار لتلك المدن الساحلية . وقد تطرق ياقوت الحموى فى معجمه بذكر

---

(٦٧) هـ. م . باتيو : مجلة الاسلام اليوم ، عدد ٢ ، ابريل ١٩٨٤ ، ص ٣٩ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

بعض هذه المدن بايجاز قد يكون أكثر اقتضابا فنذكر منها مقديشيو وكلوة وممبسة وسفالية(٦٩) .

الا ان ابن بطوطة الذى زار المنطقة فى القرن السابع الهجرى قد تحدث بتوسع عن بعض مظاهر الازدهار الذى بلغته مدن الساحل الشرقى لافريقيا وقد المحنا الى ذلك سابقا(٧٠) .

ولعل الازدهار الذى بلغته المراكز والمدن الساحلية والتى تحدث عنها ابن بطوطة فى القرن الثالث عشر الميلادى يرجع الى أن هذا الوقت شهد أكبر موجة من مهاجرى العرب الى شرق افريقيا على أثر اجتياح المغول للبلاد الاسلامية فلجأ الكثير من العرب والمسلمين الى افريقيا الشرقية وظهر نتيجة لذلك انتعاش كبير لم يألفه الساحل من قبل .

والواقع اننا نستطيع ان نلمح فيما أورده ابن بطوطة من خلال وصفه لتلك المدن التى زارها فى شرق افريقيا غلبة الطابع العربى على الطراز المعمارى وأسلوب الحياة الاجتماعية فى هذه المدن ومن ذلك نرى أن المنازل المشيدة بالاحجار على الطراز العربى قد حلت محل المبانى الخشبية(٧١) .

وقد أيدت الأبحاث التاريخية وبعض التنقيبات الأثرية التى أجريت فى المنطقة أن بنائى غالبية هذه المبانى ربما كانوا من المهاجرين الاسيويين من عرب وشيرازيين ممن استوطنوا الشريط الساحلى لافريقيا منذ القرن الثامن الميلادى(٧٢) .

ومن المعلوم أن الحضارة المدنية فى شرق افريقيا كانت نتاجا لامتزاج العناصر العربية القادمة من الجزيرة العربية بصفة أساسية ومعهم بعض العناصر الاسيوية الأخرى من شيرازيين وهنود مع العناصر الافريقية مما

---

(٦٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ .

(٧٠) ابن بطوطة : الرحلة (تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار) ، ص ٢٧٩ .

(٧١) جمال زكريا قاسم : الفهرس العربى من حوليات كلية الآداب ، مجلد ١٠ ، ص ٣٠٧ .

(٧٢) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤، ص ٤١—٤٢ .

أعطاها أشكالا حاصة(٧٣) فمثلا فى مجال العمارة نجد أن العرب قد نقلوا بعض مظاهر فنون العمارة العربية الى الساحل الشرقى لافريقيا واخضعوها لتناسب البيئة والمناخ الافريقى الذى يختلف كثيرا عن الطابع الصحراوى لطبيعة الجزيرة العربية . فنجدهم قد أدخلوا مواد جديدة فى البناء مثل استعمال الحجارة والنجارة وكحفر الخشب والتطريز بجانب هذا انتشر نوع من الطراز السواحيلى فى بناء المنازل فى المنطقة يغلب عليه الجدران الخشبية الهرمية الأسقف والمبطنة بالمونة والمغطاة باوراق النخيل . هذه الأنواع من المنازل أخذت تحل تدريجيا محل الأكواخ الافريقية ذات الأسقف المخروطية . كما نلاحظ انه قد دخلت أنواع جديدة من لوازم البناء لم تكن معروفة للمنطقة من قبل مثل ماسورة المياه وغيرها من الأشياء التى جاءت أساسا من آسيا . مع ملاحظة غلبة الطابع العربى على الأسماء والمصطلحات وادوات البناء وغيرها من المصطلحات التجارية والملاحية المستعملة فى المنطقة مع وجود بعض التأثيرات الفارسية الاقل درجة(٧٤) .

وقد أخذت الحفريات الأثرية فى كلوة تجلو بعض الحقائق المعمارية ، فمبانى كلو كما لاحظ عالم الاثار (جيرفيس) خالية من التأثيرات الافريقية وان عمارتها ترتبط بطراز ينسب الى أكثر من بلد فى العصر الاسلامى المبكر وان الحاكم الذى شيد القصر فى كلوة لابد انه كان على ثراء موفور مكنه من جلب الصناع والفنيين المهرة من العراق أو مصر(٧٥) .

واذا أخذنا مثالا للطرز المعمارية للعصور التى كشف عنها فى شرق افريقيا مثل حصون ندوجو فاننا نلاحظ أن اسوارها الخارجية يغلب عليها الطابع العربى . وقد ذكر د. عبد الرحمن زكى أن أسوار حصون ندوجو تشبه كثيرا تلك الأسوار التى أقيمت فى المبانى التى شيدت فى البلدان العربية تحت حكم الخلفاء الأمويين وأوائل حكم العباسيين(٧٦) .

---

(٧٣) سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، ص ٢٧١ .
(٧٤) سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، ص ٢٧٢ .
(٧٥) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤، ص ٦١ .
(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

ومنها على سبيل المثال يذكر د. عبد الرحمن زكى أن حوض السباحة الموجودة فى حصون كلوا وهى من الآثار التى تم عنها الكشف بعد التنقيات الاثرية الأخيرة ، يشبه من ناحية تخطيطه ذلك الحوض الموجود فى صحن جامع حران الكبير الذى نقب عنه عالم الاثار البريطانى رايس وكذلك المشى أو الاضافة حول الحوض المذكور يمكن مقابلتها بالمشى الموجود فى ضريح قبة الصليبية فى سامراء التى يرجع تاريخها الى القرن التاسع الميلادى كما ان احدى القباب الموجودة فى حصون كلوا تشبه تلك التى على قبة جامع القيروان الكبير الأموى الأصل(٧٧) .

وهكذا فاننا نستطيع أن نلحظ تأثيرا معماريا أمويا وعباسيا على عمارة كلوة وبقية مدن الساحل .

كما يمكننا أن نقول ان العرب وغيرهم من المسلمين الذين استقروا فى منطقة شرق افريقيا قد تركوا تأثيرا عميقا فى جميع نواحى الحياة ، وقد ظلت هذه التأثيرات باقية وستظل كذلك ما بقيت الصلات موصولة باذن الله تعالى.

---

(٧٧) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤، ص ٦٣ .

دور العرب الحضارى فى أفريقيا

للدكتور

شوقى عطا الله الجمل

قبل الحديث عن دور العرب الحضارى فى افريقيا لابد من الاشارة **للعلاقات العربية الافريقية** — متى بدأت ؟ وكيف بدأت والى أى مدى تطورت ؟ ؟

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحدد تاريخا معينا لبداية الاتصالات العربية الافريقية .

فمنذ أقدم العصور جاء العرب من شبه جزيرة العرب للساحل الشرقى لافريقيا المواجه لشبه الجزيرة العربية ، واستقروا فى هذه المناطق الافريقية وأصبح لهم تبادل تجارى مع السكان الأفارقة ، واستقر بعض التجار العرب فى هذه المناطق الافريقية وكونوا امارات عربية نمت وازدهرت بالتدريج ، وقد شهد بعظمتها وبتحضرها كل من زارها بعد ذلك من الرحالة العرب والأجانب على السواء .

ولا نحتاج لتفسير لهذا الامتداد العربى للساحل الافريقى المقابل ، فاذا علمنا أن المسافة بين عدن وزنجبار لا تتجاوز ١٧٠٠ ميل ، ومن مسقط الى زنجبار لا تتعدى ٢٢٠٠ ميل ـ أدركنا أن الامتداد العربى لهذه الجهات الافريقية كان شيئا طبيعيا فالقبائل العربية القريبة من الساحل الافريقى الشرقى أو كما عبر عنها كوبلاند بالجيران (Next Door Neighbours) كان لابد أن تمد نشاطها وتجارتها،وتنقل حضارتها الى سواحل افريقيا الشرقية(١) .

---

(1) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders (London 1938) p. 155.

وبالاضافة الى عامل الجوار فهناك عامل جغرافى مناخى آخر ساهم فى هذا الوقت المبكر بالذات ـ فى قيام هذه العلاقات بين العرب القاطنين بالجزيرة العربية وبين سكان السواحل الشرقية لافريقيا ففى ديسمبر تهب الرياح التجارية من الشمال والشمال الشرقى ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية فبراير — ومن أبريل الى سبتمبر تنعكس المسألة فتهب رياح شديدة من الجنوب الغربى ، ولما كان الشاطىء الغربى للمحيط الهندى يتبع خطا مستقيما تقريبا متجها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من زنجبار الى مدخل خليج عدن فقد أصبح التجار الذين يبدأون رحلتهم فى سفنهم الشراعية من الشاطىء العربى فى الشتاء يستعينون بقوة الرياح الذاتية فى سفرهم جنوبا صوب الساحل الافريقى ، أما فى اثناء عودتهم لأوطانهم فى الربيع — بعد أن يكونوا قد قضوا بضعة شهور فى التجارة — يجدون أيضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الأصلى ، وبمضى الزمن أصبحت للتجار العرب والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها وأصبحت رحلاتهم من شبه الجزيرة الى الساحل الافريقى ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنظم تنظيما دقيقا حسب مواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم(٢) .

كذلك من الأسباب الرئيسية التى دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم (العمانيين ، والحضارمة — على وجه الخصوص) أنهم نشأوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة العربية ظهيرها طارد — فكان طبيعيا أن يتسللوا الى شرق أفريقيا فى مجموعات صغيرة — انتشرت فى المبدأ فى بعض الجزر الساحلية ثم أخذت تتوغل فى الداخل . وكما سنرى أن هذه المجموعات العربية استطاعت بمضى الوقت أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وعاداتها وتقاليدها وحضارتها بل وأن تندمج فى السكان الأصليين(٣) .

وأشير فى هذا المجال الى أنه فى عهد دولتى معين وسبأ (١٥٠٠ — ٣٠٠ ق.م) هاجرت أعداد غفيرة من جنوب الجزيرة العربية للقارة الافريقية

---

(٢) محمد صفى الدين : أفريقيا بين الدول الأوربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٧ .

(٣) محمد صفى الدين : نفس المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٦٧ .

وتوغلت اعداد منهم الى الداخل حتى وادى النيل وتحكم المعينيون والسبئيون فى التجارة فى البحر الأحمر(٤) .

وأستمر نشاط التجار العرب خلال العصور التالية ، وترتب على ذلك استمرار الاحتكاك بين العرب وبين سكان هذه البلاد وكانت له بالطبع كما سنوضح آثاره الحضارية القوية .

وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميرين البحر الأحمر من اليمن وكذلك جماعة من الحضارمة واستقر بعضهم فى الحبشة وتابع البعض السير متتبعا فروع النيل الحبشية حتى انتهى بهم المطاف الى بلاد النوبة واختلط بعضهم بالبجة وتصاهروا معهم(٥) .

ولم يكن هذا هو الطريق — طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر الطريق الوحيد للاتصال بين العرب والأفارقة فعبر سيناء انتقلت جماعات من العرب الى مصر متتبعة الساحل الشمالى — واندفعت جماعات منهم الى الجنوب صوب بلاد النوبة أو بلاد السودان المعروفة فى ذلك الوقت(٦) .

وبعض هذه الجماعات اتجهت غربا ثم جنوبا عبر الصحراء الكبرى وقد ثبت أن هناك طرقا تجارية معروفة عبر الصحراء وهناك مراسى صحراوية كانت معروفة للقوافل وستستخدم الطرق للتجارة بعد ذلك على نطاق واسع فى العصور الوسطى كما سنوضح ذلك بعد .

وفى فجر الاسلام أمر النبى صلى الله عليه وسلم اتباعه بالهجرة للحبشة — ولا شك فى أن ذلك يدل بوضوح على انه كانت هناك علاقات بين العرب والحبشة قبل الاسلام وكانت هذه البلاد معروفة للعرب .

وقد زادت هجرة العرب الى أفريقيا بعد انتشار الاسلام ، فقد وجدت دوافع جديدة دفعت العرب للهجرة الى أفريقيا — منها الرغبة فى نشر الدين الجديد بمبادئه واتجاهاته ، ولا شك فى أن احتكاك الأفارقة بالعرب

---

(4) Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan (Comridge 1922, p. 4).

(٥) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ .

(٦) عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ١٩٤٢ .

المسلمين أدى لنتائج عميقة فلم يقتصر الأمر على التجارة أو المعاملات المادية بل لقد كانت لاسلوب التعامل وما حمله العرب المسلمون معهم من مبادىء يدعو اليها وينادى بها الدين الجديد — أعمق الأثر فى الأفارقة .

وحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الأحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر الى شرق افريقيا بالذات وتتخذ هذه الجهات موطنا لها — فاثناء حكم عبد الملك بن مروان مثلا هاجر بعض الأمويين الى لامو وعاشوا بهـــا .

وقد ترتب على الهجرات العربية وعلى الاحتكاك بين العرب والأفارقة نتائج هامة سنشير اليها فيما بعد .

وبعد هذه المقدمة ننتقل الى نقطة هامة وهى :

المصادر التى نستقى منها معلوماتنا عن اثار العر بالحضارية بالذات فى القــارة :

على الرغم من أن العرب كانت لهم أثارهم الحضـــارية العميقة على المجتمعات الافريقية التى اتصلوا بها — فقد ظلت هذه الاثار بل ظلــت المعلومات عن الأقطار الافرينية المختلفة باستثناء السواحل الشمالية للقارة غير معروفة للاوربيين حتى القرن الخامس حين بدأت أنظار الأوربيين تتجه للقارة الافريقية التى أطلقوا عليها القارة المظلمة لجهلهم بما فى داخلهـــا وظلت معلوماتهم قاصرة على السواحل فلم يتعمقوا فى الداخل الا بعد فترة طويلة(٧) .

ومع ذلك فقد كان للرحالة العرب نشاط كبير فى افريقيا خاصة فى المناطق التى كانت تستقر فيها جماعات عربية أو تقوم فيها امارات أو سلطنات عربية .

ويضيق المجال هنا عن اعطاء معلومات وافية عن الرحالة والجغرافيين العرب الذين كتبوا عن الأقاليم الافريقية التى تأثرت بالمؤثرات العربية لكن

---

(٧) عن علاقة الاوربيين بافريقيا — والأسباب التى أدت لقصر نشاطهم فى المبدأ على السواحل الافريقية دون التوغل فى الداخل ارجع الى : شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، ١٩٨٠ .

نشير هنا الى بعضهم — ونفضل الحديث عن قلة منهم برزت كتاباتهم عن العلاقات العربية الافريقية وآثار العرب الحضارية بالذات(٨) .

فمن هؤلاء الرحالة والكتاب العرب :

— المسعودى (+ ٩٥٦ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وأخبار الزمان .

— ابن حوقل (توفى فى القرن ١٠ م) المسالك والممالك ، صورة الأرض .

— الادريسى : صفة الغرب ، وأرض السودان ، ومصر والأندلس (لندن ١٨٩٦) .

— ابن جبير : الرحلة .

— العمرى : مسالك الأمصار فى الممالك والأمصار .

— ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بولاق ١٩٣٢) وله ثلاث رحلات هامة زار فيها سواكن ، زيلع ، مقديشيو وكلوه ، وغيرها من بلاد شرق أفريقيا كما زار مالى وغيرها من سلطنات غرب أفريقيا كما أبحر فى نهر النيجر(٩) .

— ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ٧ أجزاء (بولاق ١٢٨٤ هـ) .

— حسن بن الوزان : وصف افريقيا (١٠) . وقد قام بعدة رحلات فى شمال افريقيا والسودان الغربى بدأها فى عام ١٥١٠ م غزار مملكة مالى وبلاد الهوسا وغيرها من اقاليم غرب أفريقيا .

---

(٨) لمزيد من التفاصيل يرجع الى : شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ٥٨ الى ٦٥ .

(٩) انظر تعليق الكتاب الأجانب على رحلات ابن بطوطة :
Sykes, Perey : A History of Exploration (London 1949) pp. 94-95.

(10) The History and Description of Africa and of the Notable things there in cotained written by Al Hassan Ebn Mohammed wezan al Fasi Better Known as Leo Africanus (London 1896).
وقد ترجم الكتاب أخيرا للعربية .

— السعدى (١٥٩٦ — ١٦٥٥) : تاريخ السودان (باريس ١٨٩٨) تحدث عن الدول العربية التى قامت فى السودان الغربى — مثل دولة سنغاى .

— الحبى — حديقة النظر، وبهجة الفكر فى عجائب السفر، أو سيرة الحبشة (حققها د. مراد كامل — القاهرة ١٩٥٨) وقد وصف مشاهداته عن الطرق المؤدية من شرق القارة الى عاصمة الحبشة والتأثيرات العربية على قبائل الجالا والفلاشة وغيرها .

— التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان وقد زار دارفور وواداى — وقد نشر خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد مسعد رحلته الى دارفور ومشاهداته بناء على النص العربى للمستشرق بيروون Perron بينما لم تترجم بعد للعربية رحلته الى واداى(١١) .

هذه بعض جهود العرب التى كشفت لنا عن الأثر الحضارى للعرب فى أنحاء مختلفة بشمال وغرب وشرق افريقيا .

والحقيقة أن الرحالة العرب قبل الأوربيين — زاروا الأقاليم الافريقية شمال خط الاستواء أى المنطقة من البحر الأحمر شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا ، ومن ساحل أفريقيا الشمالى الى السودان ، ولم يتوغل العرب جنوبا أكثر من ذلك بسبب العقبات الطبيعية وان كان النفوذ العربى قد وصل الى أعالى الكنغو(١٢) (دولة محمد بن حميد المرجبى — تبوتيب) كما سنشير بعد .

---

(١١) للتفصيل انظر :
شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٩٢ وما بعدها . أما الرحلة الى واداى فتوجد منها نسخة وحيدة بالفرنسية فى الجمعية الجغرافية المصرية .
Voyage Au Soudan Oriental - Ll Ouaday.

(١٢) ملاحظة : عثر على مخطوطة عربية هامة بعنوان « السلوة فى أخبار كلوه » لكاتب مجهول يرجح أنها ترجع للقرن ١٥ م تحدث عن كلوة والأثر العربى فى هذه المناطق — وهى الآن فى المتحف البريطانى تحت رقم ٢٦٦٦ .

. انظر يواقيم رزق : محمد بن حميد المرجبى (تبوتيب) والوجود العربى فى الكنغو — رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٥ .

أما عن الرحالة الأجانب فقد بدأت رحلاتهم متأخرة بعد أن بدأ اهتمام الأوربيين منذ القرن الخامس عشر الميلادى — بالقارة الافريقية والكشوف الجغرافية .

وفى مقدمة هؤلاء الرحالة البرتغالى فاسكو دا جاما (Vasco Da Gama) الذى اشتهر برحلته حول أفريقيا فى آخر القرن الخامس عشر فقد دهش حين وصل موزمبيق لأول مرة ووجد الناس يرتدون الملابس الحريرية الموشاة بالذهب وكانت سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالفضة ، كما شاهد المنازل العالية من عدة أدوار والقصور فى وسط المدينة وفى مالندى أستقبلت بعثة داجاما فى قصر مفروش بالسجاد ومؤثث بأثاث فاخر وقدمت له عدة هدايا فاخرة وقد اثار دهشته أن يعقد مقارنة بين ما شاهده هنا وما شاهده فى البلاد الافريقية الأخرى التى لم يصل اليها العرب .

وقد شهد نفس الشهادة دوار بربوسا (Duarte Barbosa) وهو رحالة زار كلوه وممبسة ومالندى وبمبا وزنجبار . وتحدث البرتغاليون الذين استقروا بعد ذلك فى هذه الجهات وغيرهم من الرحالة الأوربيين الذين انفتح أمامهم الطريق لهذه المناطق المكتشفة حديثا عن مظاهر الحضارة الزاهرة فى المناطق التى زاروها .

تناول بعض المؤرخين والكتاب الأجانب الجوانب الحضارية التى أطلعت عليها أوربا لأول مرة فى هذه الجهات .

ومن الذين كتبوا فى هذا المجال المؤرخ فريمان (Freeman, G.) (١٣) وكذلك رولاند (Roland, O.) (١٤) .

ولعل تعليق كوبلاند (Coubland) على كل هذه الملاحظات والمشاهد الحضارية التى أذهلت الأوربيين عندما وقع عليهم بصرهم لأول مرة — يغنى عن كل تعليق . فقد ذكر « أننا يجب ألا نندهش لما تذكره هؤلاء الرحالة من مظاهر

---

(13) Freeman, G: The Medieval History of the Coast of Tanganika (Berlin 1962).

(14) Roland, O. : History of East Africa 2 vols. (Oxford 1969).

الحضـــارة التى نقلها العرب الى شرق أفريقيا ــ فان العرب كانوا فى ذلك الوقت حملة لواء الحضارة ، فلا شك فى أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التى فى اكسفورد أو التى فى أية مدينة مسيحية أخرى »(١٥) .

وأشير انه على الرغم من أن كتابات الأجانب سواء من الرحالة أو من الكتاب والمؤرخين المتأخرين لم تنصف العرب انصافا كاملا ولم تذكر الحقيقة المجردة . لكن فلتات أقلامهم وما يمكن أن يستنتجه اى باحث منصف من هذه الكتابات يعطى صورة عن بعض الاثار التى تركها العرب فى الجهات التى وصلوا اليها فى افريقيا .

وفيما يتعلق بشمال افريقيا فأعتقد اننا لسنا بحاجة للافاضة فى الاشارة الى الأوضاع التى ترتبت على وصول العرب الى هذه المناطق فقد ترتب على ذلك أن دخل الشمال الافريقى ضمن الدولة العربية وأصبح يمثل الجناح الغربى للامة العربية وأصبحت حضارته الافريقية العربية جزء من الحضارة العربية ومن الحضارة الافريقية .

أما عن غرب أفريقيا فان الذين زاروا هذه المناطق من الرحالة العربـــ المغاربة والأندلسيين بصفة خاصة والذين ذكرنا بعضهم من قبل ، كذلك الرحالة الأجانب الذين أخذوا يتدفقون على غرب أفريقيا بعد أن اســتقر الأوربيون فى الساحل الغربى للقارة وأخذوا يوغلون للداخل ــ لمسوا ماكانت عليه هذه البلاد والسلطنات الاسلامية التى قامت فيها قبل أن تواجه هذه البلاد المستعمرين الاوربين وسنشير لذلك بالتصيل فيما بعد(١٦) .

أثار الحضارة العربية فى أفريقيا :

كانت للاحتكاك العربى الافريقى أثار حضارية عميقة شملت كل نواحى الحياة فى البلاد الافريقية التى اتصل بها العرب وظهرت أثارها فى هــذه المجتمعات الافريقية بوضوح .

---

(15) Coupland, R. op. cit., p. 39.

(١٦) للمزيد من التفاصيل يرجع الى :
عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا ، ١٩٦٥ .

ويمكن أن نلمس مظاهر هذا الاحتكاك الحضارى فى :

اولا — النواحى الثقافية :

انتشرت اللغة العربية كلغة للحديث وللمعاملات التجارية ، وكانت اثارها قوية وواضحة . نلمس ذلك فى اللغة السواحيلية فى شرق القارة فكثير من الألفاظ فى السواحليلية (تدرها البعض بـ ٦٠٪ من الألفاظ المستخدمة فى الحياة العامة) عربية الأصل ، واللغة السواحيلية لغة أفريقية عربية(١٧) وكذلك لغة الهوسا فى غرب أفريقيا .

وكان لانتشار الاسلام بين الأفارقة أثره الكبير فى انتشار اللغة العربية لغة القرآن .

والحقيقة أن الأثر الثقافى للعرب لم يقتصر على اللغة بل امتد الى الثقافة بمعناها ومدلولها الواسع فقد أدى ذلك التغيير فى معاملات الناس وسلوكهم وفى تفكيرهم وأدى هذا الاحتكاك الحضارى لنقل ثقافات أخرى الى القارة وسكانها .

ووجدت فى شرق القارة وبطول ساحلها الشرقى مراكز ثقافية هامة فى كلوة ، وسفالة ، ومالندى وغيرها من الثغور الهامة .

وحين زار الرحالة العربى ابن بطوطة مدن الساحل الشرقى فى أفريقيا تحدث عما شاهده فى هذه السواحل وعن ثقافة الناس بها وتمسك الكثيرين بتعاليم الاسلام الى غير ذلك من مظاهر الثقافة(١٨) .

كما اشار الرحالة والكتاب الأجانب الى ذلك ، وقد سبق أن أشرت الى ما قاله كوبلاند فى هذا المجال(١٩) .

---

(١٧) اللغة السواحيلية نتيجة اختلاط اللغة الـ ربية بلغة البانتو — انظر :

Encyklopaedia Britannica vol. 21, p. 629.

(١٨) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ، ص ١٢٩ .

(19) Coupland : op. cit., p. 39.

وقد أشار البرتغاليون حين وصلوا الى ساحل افريقيا الشرقى الى أن المدن الساحلية التى كانت على اتصال وثيق بالعرب والمناطق التى استقروا بها تختلف مظاهر الناس بها اختلافا واضحا عن المناطق الأخرى ويظهر هذا الاختلاف بدرجات كبيرة كلما تعمقنا فى داخل القارة(٢٠) .

وفى غرب افريقيا وجدت مراكز ثقافية هامة مثل تمبكتو ، جنى ، وكانو ، وكاسينه وغاو .

وقد أصبحت هذه المراكز الثقافية منارات فى غرب أفريقيا وتوافد عليها عدد كبير من العلماء ورجال الدين من مختلف الأقطار الاسلامية للتدريس فى المدارس التى قامت فى هذه البلاد وفى المساجد — احساسا من هؤلاء العلماء بواجبهم تجاه اخوانهم فى هذه الأقطار الافريقية وأسهم هؤلاء فى نشر الثقافة الاسلامية والعربية بها .

كما توافد الطلاب من ابناء السودان الغربى وغيره من أقاليم غرب أفريقيا الى معاهد فاس وغيرها من مدن المغرب ، وكذا الأزهر الشريف والقيروان وتلمسان(٢١) .

وقد ظهرت هذه التأثيرات الثقافية والحضارية حتى فى بلاط الحكام والسلاطين . فتشبه كثير منهم بالحكام المسلمين فى باقى جهات العالم العربى . ومن مظاهر ذلك انهم اجزلوا العطاء لرجال العلم والأدب والدين الوافدين من المغرب وغيره من الأقطار الاسلامية للاسهام فى النهضة الدينية والثقافية فى هذه البلاد . وقد اقبل الافريقيون على معاهد الدين والعلم بشغف كبير وترتب على هذا قيام نهضة علمية حقيقية أثرت فى مختلف نواحى الحياة فى غرب افريقيا ، ونشأت طبقة افريقية مثقفة بالثقافة العربية الاسلامية . والملاحظ أن كثيرين من الوزراء وغيرهم من رجال الدولة فى اقطار

---

(٢٠) للمزيد من التفاصيل انظر :

محمود طه أبو العلا : المؤثرات العربية فى شرق أفريقيا ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، ١١ مايو ١٩٦٠ .

(٢١) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

غرب افريقيا كانوا من المسلمين — فقد أصبح الملوك يطمئنون الى أن يعهدوا لهم بشئون البلاد السياسية والاقتصادية(٢٢) .

ويشير ابن بطوطة الى أن عددا من رجال العلم من مختلف الأقطار العربية كان يقيم بمدينة مالى — ومن طريف ما ذكره انه أثناء اقامته بهذه المدينة أصيب بمرض حاد فى معدته نتيجة أكله « عصيدة » مصنوعة من شئ يشبه القلقاس ولم يسعفه سوى طبيب مصرى كان مقيما هناك قدم له دواء مسهلا يسمى بيذر(٢٣) .

وقد اشتهر عن سلطان مالى السلطان أسكيا (١٤٩٣ — ١٥٢٨) حبه للعلم والعلماء فقد استقدم الكثيرين منهم ورحب بهم وأغدق عليهم من المال والهبات وأقام كثيرون منهم فى « غاو » و« جنة » و« تمبكتو » — فكان وجود هؤلاء المثقفين العرب نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وأصبحت اللغة العربية بفضلهم — لغة البلاد الرسمية . وحين أدى اسيكيا محمد فريضة الحج كان بصحبته المؤرخ « محمود كعت » وقد مر بمصر وتعرف على العالم المصرى جلال الدين السيوطى . وكان من أهم رجال العلم فى أيامه العالم الفقيه « عبد الكريم ابن محمد المغيلى التلمسانى » الذى عاش فترة غير قصيرة فى تمبكتو ، وقد أشار الرحالة الى وجود العديد من المخطوطات النادرة ببعض مكتباتها كما وجد بها نساخ متخصصون فى نسخ هذه الأصول هذا بالاضافة الى خزانة الكتب العامة التى كان يستعين بها أهل العلم والأدب فى بحوثهم(٢٤) .

ويرتبط بالتأثيرات الثقافية الناحية الفنية . والحقيقة أن دراسة الفنون فى شرق القارة وغربها لم تحظ بعد بما تستحقه من دراسة تحليلية لكن نشير هنا الى أن بعض معالم هذه الفنون تدل على المؤثرات العربية القوية — فقصور الأمراء والحكام تدل فى هندستها ونقوشها ومعالمها وتنظيمها ومحتوياتها على أثر العرب وأثر الاسلام فيما بعد على تلك الفنون فالشمسيات

---

(٢٢) نعيم قداح : افريقيا الغربية فى ظل الاسلام ، دمشق ١٩٦٠ ، ص ٤١ .
(٢٣) ابن بطوطة : ج ٤ ، ص ٣٩٧ .
(٢٤) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

الزجاجية وغير ذلك من معالم الفن العربى والنظام الذى بنيت المساجد والنقوش التى استخدم فيها الخط الكوفى والخطوط الهندسية والآيات القرآنية كلها تدل على التأثيرات العربية . وقد شاع فى المدن خاصة فى غرب افريقيا بناء الأسوار تشبها بما شاع فى البلدان العربية بالمغرب بالذات .

وفيما يتعلق بغرب أفريقيا لعل التشابه يرجع لمساهمة مهندسين مغاربة فى بناء وتشييد هذه المساجد فقد ساهم المهندس ابراهيم الساحلى مثلا فى بناء مسجد جانكوبر فى تومبكتو ومسجد آخر فى غاو كذلك ساهم فى بناء مسجد فى العاصمة نيانى وقصر به قاعة كبيرة لمجلس السلطان — وقد وصف ابن بطوطة هذه القاعة عند زيارته للعاصمة عام ١٣٥٣ م .

أما مسجد جنى فوه من تصميم المهندس أدريس المراكشى(٢٥). وقد أشار الرحالة العرب كما أشار البرتغاليون للحياة المتحضرة التى شاهدوها فى بيوت حتى عامة الناس فى شرق أفريقيا والتى ترتفع بمراحل عن الحياة التى يعيشها الأفارقة فى باقى المناطق التى لم يصلها العرب .

فدراسة الاثار العمرانية فى هذه المناطق بشرق القارة وغربها تكشف لنا عن اسلوب البناء الذى ساد فى هذه البلاد والذى تأثر بالاحتكاك العربى.

وفى بعض بلاد غرب أفريقيا مثل كومبى وجدت أحياء برمتها كالحى المغربى اشتهرت بمنازلها المغربية — وكان حكام هذه البلاد وشعوبها ينظرون لما يشبع فى المغرب والبلاد العربية الأخرى التى اتصلوا بها — من الوان الحضارة على أنها مثل عليا تحتذى .

ثانيا — آثار دينية :

انتشر الاسلام فى شرق القارة وفى شمالها وفى غربها ووصلت تأثيراته الى أقصى ما أتاحت العوامل الجغرافية وغيرها من ظروف الاحتكاك بين العرب والأفارقة .

---

(٢٥) نعيم قداح : مرجع سابق ، ص ١٥٤ — ١٦٠ .

وترتب على انتشار الاسلام خلق مجتمع جديد يدين بمبادىء جديدة ـ . حقيقة أن الاسلام ــ لم يهدف الى تغيير التقاليد الافريقية المحلية تغييرا جذريا الا ما يتعارض منها مع تعاليمه ومبادئه ــ لكن ترتب على الاحتكاك بين سكان هذه البلاد وبين العرب المسلمين ــ نوع من الامتزاج بين التقاليد الاسلامية الوافدة وبين التقاليد الافريقية المحلية وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين وظهرت فى المجتمع الافريقى تقاليد اسلامية افريقية .

ولعل ما عرضه ــ الرحالة من أمثال ابن بطوطة والقلقشندى وغيرهما من نماذج للحياة فى هذه البلاد وما كتبه المؤرخون الأفارقة مثل السعدى ومحمد وكعت وغيرهما يعطى فكرة عن التقاليد والنظم التى شاعت فى المجتمع الافريقى فى هذه البلاد .

والمعروف أن الوثنيين كانوا يعيشون فى وئام مع المسلمين حتى أن المسلمين كانوا يقيمون مراكز تجارية داخل التجمعات الوثنية دون خوف .

ولا شك فى أن المسلمين فى شرق أفريقيا وغربها باتباعهم تعاليم دينهم ومبادئه أثروا عن طريق مباشر أو غير مباشر فى المجتمعات التى عاشوا فيها ــ فقد لمس الأفارقة فى معاملاتهم مع العرب المسلمين ما كان هؤلاء يحرصون عليه من تعاليم الاسلام وما يدعو اليه من الأمانة والصدق والعدل . وكان لهذا أثره الواضح فى المجتمعات التى حلوا بها والتى تعاملوا معها وسنشير لذلك بتفصيل فيما بعد عندما نتعرض للاثار الاجتماعية .

كذلك كان المسلمون فى شرق القارة وغربها حريصين على أداء الفرائض ومنها فريضة الحج . وكان الحج ومازال أهم العوامل التى تيسر فرصة الالتقاء بين الأفراد والجماعات والتبادل الفكرى والثقافى ــ وتذكر لنا المراجع مثلا أن سلاطين الدول الاسلامية فى غرب أفريقيا وشعوبها كانوا حريصين على أداء فريضة الحج رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق ووعورته ، وكانت هناك طرق معروفة تطرقها القوافل التجارية ، وفى الطريق الى الأراضى الحجازية(٢٦) .

---

(26) Anta Diop. L'Afnique Noire Pré - Coloniale (paris 1952).
(الفصل الثانى على الخصوص والكاتب سنغالى وهذا يوضح أهمية الكتاب) .

ومن هذه الطرق :

(أ) طريق صوب الشمال عبر الصحراء الى ساحل البحر المتوسط ثم الاتجاه شرقا تجاه مصر ومنها عبر البحر الأحمر الى الحجاز .

وبعض القبائل خاصة قبائل الهوسا — كانت تفضل طريق تمبكتو — جاو — غات — غدامس — طرابلس لأنه كان آمنا ، كما كان يتيح لهم فرصة التجارة فى أثناء الطريق .

(ب) طريق صوب الشرق — الى سودان وادى النيل — ثم ساحل البحر الأحمر فالحجاز .

أما فيما يتعلق بالمسلمين فى شرق القارة فقد كانت الرحلة بالطبع أيسر وقد اعتادوا عليها من زمن .

لكن مهما يكن من أمر فان رحلة الحج كانت بالغة الأثر فى نفوس المسلمين الأفارقة وكانت فرصة نادرة للالتقاء وباقى المسلمين فى الأقطار المختلفة وكانت تعنى تأكيد روح الاخوة الاسلامية التى يوجبها الاسلام .

وكما يقول ترمنجهام (Trmingham) ان شعورا بأن الاسلام ديانة الأفارقة جميعا — كان يتملك المسافرين من الأفارقة فى رحلة الحج »(٢٨) .

ومن أشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين التى سجلها التاريخ وفد الحجاج الذى كان على رأسه منسى موسى — سلطان مالى (٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م) والذى يقال انه كان يضم أكثر من عشرة آلاف حاج ، وقد مر بمصر فى طريقه الى الحجاز فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون — والذين تحدثوا عن هذا الركب يعطون لنا صورة لعل فيها شيئا من المبالغة — لكنها لا تخلو من الحقيقة . فقد أحاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف والاسراف فى مصر وحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام ، حتى قيل انه

---

(٢٧) السعدى ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدى : تاريخ السودان ، طبعة هوداس ، ١٨٩٨ ، ص ١٦ .

(28) Trimingham, J. Spencer : Islam in west Africa (Oxford 1964) p. 88.

لم يدع أميرا من أمراء المماليك فى مصر ولا رب وظيفة سلطانية الا وحمله بحمل من الذهب كما أفاض من هباته على الفقراء فى الأراضى الحجازية ، ومنح عن سعة حتى قيل ان قيمة الذهب انخفضت انخفاضا ملحوظا لكثرة ما أنفقه(٢٩) .

ويرتبط بالآثار الدينية للعرب فى افريقيا انتشار الطرق الصوفية وعلى الأخص القادرية ، والتيجانية ، وقد زاد عدد اتباع هذه الطرق الصوفية ولا سيما بين المشتغلين بالتجارة ومن العلماء والفقهاء — ولعب أتباع هذه الطرق دورا دينيا وسياسيا هاما كان كبير الأثر فى تاريخ وحضارة هـذه البلاد ونهضتها فقد أصبح كل مسلم تقريبا يرى لزاما عليه أن يرتبط باحدى هذه الطرق الدينية .

وأقام اتباع هذه الطرق الزوايا للعبادة ، ولايواء الوافدين المحتاجين للمأوى والطعام وللاعتكاف بعيدا عن زخرف الحياة وملذاتها للدرس والتفقه فى شئون الدين ، وكانت لكل طريقة تنظيماتها وأعضاؤها وعلى راسهم شيخ الطريقة .

وقد انتشرت القادرية بالذات فى السودان الغربى وانتشر اتباعها من الفقهاء والمريدين من السنغال الى مصب النيجر وفى بلاد الهوسا(٣٠) .

أما التيجانية فقد انتشر أتباعها فى حوض السنغال وفى تمبكتو(٣١) .

وانتشرت هذه الطرق أيضا فى شرق أفريقيا بل ان شرق افريقيا وقربه

---

(٢٩) العمرى : مسالك الامصار ، ص ٩٤٣ وما بعدها .
وابن الوردى : ذيل المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .
(٣٠) انظر محمد بلو : انفاق الميسور فى أخبار بلاد التكرور ، مخطوط بوثائق الرباط تحت رقم ٢٣٨٤/ك ، ص ٢٠٣ .
(٣١) أبو العباس أحمد بن أحمد العباسى : كشف الحجاب على من تلقى مع التيجانى من الأحباب ، فاس ١٣٢٥ هـ ، وكذلك :
جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى منفى الشيخ التيجانى (المعروف بالكناش — القاهرة ١٣٤٥) .
وللمزيد من التفاصيل عن القادرية والتيجانية يرجع الى : شوقى الجمل: الحضارة الاسلامية العربية فى غرب افريقيا سماتها ودور المغرب فيها ، بحث منشور بمجلة المناهل المغربية ، نوفمبر ١٩٧٦ ، ص ١٣٢ الى ١٦٣ .

من الحجاز أتاح الفرصة لانتشار الطرق المختلفة التى بدأت نشاطها فى الحجاز وانتقلت بعد ذلك الى القارة الافريقية حيث كانت البيئة صالحة لانتشارها ولاكتسابها اتباعا ومريدين .

ولقد لعبت الطرق الصوفية واتباعها دورا هاما وخطيرا فى مقاومة الاستعمار الأوربى وان كان هذا الدور لم يكشف عنه النقاب تماما الى الآن اذ أن اتباع هذه الحركات والمريدين الذين التفوا حولهم اعتبروا الجهاد السياسى المتصل بالوطن وحريته والوقوف فى وجه اعدائه والمغتصبين — جزءا من واجبهم لا ينفصل عن الجهاد فى سبيل نشر الدين . فمعظم المراجع الأجنبية تعالج الأمر على أنه ثورات بين أفراد خارجين على القانون وعلى النظام — فواجبنا يحتم أن نضع هذه الحركات الوطنية فى مكانها الصحيح .
وقد أدى تبنى هذه الحركات لقضية الجهاد الوطنى الى شعبيتها واندفاع الشباب بالذات للانضمام اليها .

وقد انتشرت هذه الحركات فى شرق افريقيا — كما انتشرت فى غربها وأصبحت من أهم مظاهر الانتفاضات الوطنية فى القارة . ولعل حركة محمد بن عبد الله حسن بطل الصومال تعتبر مثلا قويا لهذه الحركات فى شرق افريقيا(٣٢) .

كما أن الحركة السنوسية ودورها فى مقاومة الاستعمار الايطالى فى ليبيا مثل آخر لدور هذه الحركات ضد القوى الاستعمارية التى استباحت القارة الافريقية(٣٣) .

وفى غرب افريقيا تعتبر حركة الحاج عمر التيجانى زعيم السودان فى القرن التاسع التى أطلق عليها حركة العمرية — مثلا آخر(٣٤) .

---

(٣٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحركة يرجع الى :
محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار (د . ت) ،
ابراهيم عبد المجيد محمد : الاستعمار البريطانى فى الصومال ، (١٨٨٤ — ١٩٢١) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث الافريقية بجامعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

(٣٣) محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٤٥ .

(34) Dubois, F. : L' Islam Noir (Paris 1899) p. 60.

كذلك دور ساموری فی مكافحة الاستعمار الفرنسی فی غرب افريقيا مثلا آخر لهذه الحركات ووقوفها فی وجه الاستعمار الأوربی(٣٥) .

ويرتبط بالأثر الدينی لهذه العلاقات العربية الافريقية قيام الحركات الاصلاحية فی شرق القارة وفی غربها وكان علی رأس هذه الحركات زعماء تحمسوا لنشر الاسلام ولارشاد الناس لحقائقه ولتخليص الدين مما علق به من شوائب وقد استطاع هؤلاء الزعماء ان يجمعوا حولهم عددا كبيرا من الأتباع والمريدين لما رأوا فيهم من التقوی والصلاح .

وقد تبلورت جهود هؤلاء المصلحين واتباعهم فی مجالين :

المجال الأول : مجال الوعظ والارشاد والتأليف ــ فتركوا لنا ثروة كبيرة من مؤلفاتهم فی مختلف الفروع الدينية والعلمية كالتفسير والفقه وشرح الأحاديث النبوية والتصوف والعقائد واللغة والشريعة الاسلامية وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة .

ولا شك فی ان هذه الثروة التی فقد الكثير منها للاسف ، كما نقل المستعمرون الأجانب جزءا هاما من هذا التراث الی مكتبات بلادهم ــ فيما عدا الباقی وهو عدد غير قليل ايضا لازال مخطوطا حبيس دور الوثائق .

أما المجال الثانی : فهو مجال الجهاد وكما ذكرنا سابقا ــ لم يكن من الممكن الفصل بين حركة الاصلاح الدينية وحركة الجهاد المسلح لاعلاء شأن الاسلام فی المناطق المختلفة من شرق افريقيا وشمالها وغربها التی تعرضت للاستعمار الأوربی .

هذا وأشير الی أن المصلحين فی أفريقيا ركزوا بالذات علی التغييرات التی كانت سائدة فی المجتمع الافريقی مثل التقاليد المتبعة عند ولادة الطفل أو عند الزواج أو الوفاة وسنشير لذلك فيما بعد عند دراسة الآثار الاجتماعية.

واشير هنا الی أننا لا يمكن هنا ان نستطرد فی ذكر بعض الحركات

---

(٣٥) لمزيد من التفاصيل يرجع الی :
نصر الدين رشوان حسن : دولة ساموری فی غرب افريقيا ١٨٧٢ ــ ١٨٩٨ ، رسالة دكتوراه من معهد البحوث الافريقية ، ١٩٧٨ .

الاصلاحية فى شرق القارة او شمالها أو غربها لكن من يريد التركيز على بعض هذه الحركات أو التوسع فى دراستها فالمجال واسع أمامه(٣٦) .

ثالثا ــ آثار اجتماعية :

أثر العرب والاسلام تأثيرا قويا فى المجتمعات الافريقية التى احتك بها العرب . وقد أشرنا الى دور المصلحين الذين ظهروا فى المجتمعات الافريقية والذين دعوا لاصلاح ما وجدوه من انغماس الناس فى كثير من الأمور التى ينهى عنها الاسلام .

ووصل الأمر الى شن حروب جهادية للوقوف فى وجه تيار العادات التى استمر الناس يمارسونها رغم أنها لم تكن تتلاءم مع تعاليم الاسلام ومع الوضع الثقافى والحضارى الجديد .

ولقد أثرت الثقافة العربية والدين الاسلامى على المجتمعات الافريقية بما ادخلته من مفاهيم جديدة أثرت تلقائيا فى المفاهيم الاجتماعية وفى التقاليد والعادات التى ارتبطت بمختلف المناسبات .

وقد امتص الافريقيون الكثير من معتقدات الاسلام . بالطبع لم يكن التغيير كاملا أو جذريا لكن حدثت تغييرات كبيرة ــ فمثلا فى بعض البلاد الافريقية كانت هناك مجتمعات أموية (تنتسب الى الأم) تغير هذا كما نفذت قوانين الوراثة لتساير الشريعة الاسلامية . والتغيير كما قلنا لم يحدث فجأة .

فاذا أخذنا مثلا قرية من قرى الهوسا فى غرب افريقيا وحاولنا دراسة

---

(٣٦) تعددت حركات الاصلاح خاصة فى غرب أفريقيا وقد اشتهرت منها مثلا حركة عثمان بن فودى الذى استطاع أن يقود قبائل الفولانى ويؤسس سلطنة تنبكتو التى لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام فى غرب أفريقيا . انظر :
Dubois, F. : Tomboctou, La Mysterieuse (Paris 1899) pp. 152—153.

ملاحظة : قام كاتب هذا البحث بنشر عدة بحوث عن دور بعض رجال الاصلاح فى غرب افريقيا من أمثال أحمد بابا التمبكتى السودانى وعثمان بن فودى وغيرهما وذلك فى مجلة المناهل المغربية ومجلة البحث العلمى التى يصدرها المركز الجامعى للبحث العلمى بالرباط .

حياة الناس فيها وتقاليدهم ومثلهم نجد أن الكثير مما يجرى فى حياة الناس اليومية يرجع لأساس قديم سابق للاسلام ، بينما لو ذهبنا الى قرية من قرى التوكولور مثلا نجد القانون الاسلامى سائدا على نطاق أوسع .

لقد سما الاسلام بكثير من معتقدات الافريقى وعدل من سلوكه فقبل الاسلام مثلا كان شائعا عندهم تقديم الضحايا وغير ذلك من وسائل ارضاء القوى الخفية — أما فى ظل الاسلام وتعاليمه — فالصدقة ، والزكاة ، والصيام فيها معنى التضحية ونكران الذات ، ولذا لم يكن صعبا على الافريقى أن يدرك هذه القيم ، وأن يعدل من سلوكه حسب تعاليم الدين الجديد(٣٧) .

ولعل اهم اثر للاسلام فى المجتمعات الافريقية هو الاحساس بأن الجميع يعبدون الها واحدا وهذه الوحدة الاجتماعية تزكيها اكبر ممارسة الجميع لفرائض واحدة .

ولا شك فى ان البناء الاسرى فى المجتمع الافريقى قد تأثر بتعاليم الاسلام ومبادئه . وبالطبع لا يمكن أن نتوقع أن القانون الاسلامى النموذجى هو الذى يمكن أن يسود — لكن لا شك فى أن التغيير الذى حدث كبير ، والصراع بين القديم والجديد ظل فترة غير قصيرة مستمرا .

ويشير ترمنجهام الى ذلك بوضوح حين يتحدث عن الثنائية التى تتضح فى المجتمعات الافريقية فهناك نظم اسلامية صرفة جنبا الى جنب مع تقاليد ترجع الى ما قبل الاسلام ، وتختلف قوة كل من العاملين فى المدن عنها فى المجتمعات الزراعية او الريفية.

رابعا — أثار اقتصادية :

بدات علاقات غرب شبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا علاقات تجارية كما ذكرنا من قبل — وتطورت هذه العلاقات التجارية ونمت واتسعت ، وكانت للعرب فى شرق افريقيا شهرة واسعة فى الاتجار فى الذهب وغيره

---

(37) Trimingham : op. cit., pp. 41-46 and pp. 74-75.

من الموارد الافريقية وتبادلها بالسلع التى يحتاجها الأفارقة — وقد اشتهر ميناء سوفالة (Sofala) بالذات كميناء لتصدير الذهب(٣٨) .

ويذكر ابن بطوطة مثلا انه فى مقديشيو كانت تقوم صناعة نوع من الأقمشة الدقيقة التى تصدر لمصر ، كما يذكر الادريسى انه سمع أن فى مالندى وسفالة توجد مناجم للحديد مستغلة كما أن العرب المهاجرين ادخلوا فى هذه الجهات زراعة البرتقال والفواكه الأخرى بالاضافة الى البلح والبقول وغيرها من الزراعات فكانوا يزرعون هذه الفواكه والخضروات بجوار مجارى المياه وفى المدن الحديثة التى انشأوها — هذا بالاضافة الى تربية الماشية والأغنام .

وحين زار ابن بطوطة كلوة ، وممبسة ، ومقديشيو سنة ١٣٣٢ أبدى دهشة من حالة الرخاء السائدة فى هذه المناطق(٣٩) .

وفيما يتعلق بغرب أفريقيا منذ أن استقر العرب فى شمال القارة ووصلوا الى أقصى غرب القارة كثرت رحلاتهم الى غرب القارة وتضاعفت هذه الرحلات وانتظمت ووجدت طرق معروفة تخترقها القوافل الى مناطق الذهب والملح وغيرها من الموارد المتوفرة فى غرب افريقيا والتى كانت الحاجة لها ماسة .

ويشير بوفيل (Bovill) الى رحلات اهل المغرب بالذات وتجارتهم فقد كثرت رحلاتهم للحج والتجارة وغير ذلك وقد أمدنا هؤلاء بمعلومات طيبة عما بداخل القارة وعن المحطات التجارية وغيرها ، فنحن ندين بمعلوماتنا المبكرة لفئة قليلة من المؤلفين والرحالة من أهمهم المسعودى ، وابن حوتل ، والبكرى ، والادريسى ، وياقوت ، والعمرى ، وابن بطوطة ، وابن خلدون(٤٠) .

---

(38) Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesio From Earlest Times to the Referenoum (London 1966) p. 25.

(٣٩) انظر الرحلة :

(40) Bovill, E. W. : Caravans of the old Sahara (Introduction to the History of the westlrn Sudan 1933) p. 6.

ولا شك فى أن التجارة والاسلام فى غرب أفريقيا مرتبطان كل الارتباط فقد لعبت التجارة دورا هاما فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى غرب القارة برغم العقبات الطبيعية التى كانت تعوق الوصول الى قلب القارة — فقد كانت هنا كمراكز تجارية بمثابة الموانى يتطلع اليها المسافرون عبر الصحراء حيث يجدون نبض الحياة فيستريحون ويستبدلون الجمال الضعيفة المنهكة بغيرها ليستطيعوا مواصلة الرحلة ، وفيها يحدث التبادل التجـارى وكانت بحيرة تشاد نفسها حلقة هامة من هذه السلسلة من طرق الاتصال(٤١) .

فالنيجر ينحنى انحناءة عظيمة صوب الشمال ويقترب من الصحراء ، وهذه الصحراء لا تتصل مباشرة بساحل المحيط — لكنها تترك سهلا ساحليا جعل الاتصال عبره ممكنا بين الشمال والجنوب ، وعبر هذا الطريق اتصل عرب المغرب بالسهل الخصيب الواقع جنوب الصحراء الكبـرى وكانت التجارة من أهم دوافع الاتصال بين الاقليمين .

وكان لعرب شمال افريقيا دور هام فى هذه التجارة ، وكان ملح الطعام الذى يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب الغرب الأقصى — من السلع الهامة التى يحتاج اليها الأفارقة فى المنطقة الواقعة جنوب الصحراء هذا بالاضافة الى النحاس ، والمنسوجات والتمر والعقود والحلى ، وكانوا على استعداد لمبادلة هذه السلع بالذهب والمحاصيل الافريقية الرعوية أو الاستوائية التى وجدت طريقها الى البحر المتوسط واوربا على يد التجـار المغـاربة على الخصوص ويكفى أن نذكر أن هذه البلاد انفردت لفترة طويلة بثروتها الذهبية فقد كانت المصدر الرئيسى لذهب العـالم الى أن اكتشفت منـاجم أمريكا الجنوبية والهند وجنوب افريقيا(٤٢) .

وقد نجح العرب والتجار على وجه الخصوص فى نشر الاسلام فى هذه البلاد التى تاجروا معها فكان انتشاره سريعا وهادئا دون اللجوء للعنف عبر هذه الطرق التجارية الممتدة من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى أو على

---

(٤١) ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ، مترجم ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

(42) Fage V. W. : An Introduction to the History of west Africa (Cambridge 1959) pp. 9-10.

طول المحيط الأطلسى الى بلاد السنغال وأعالى النيجر ومنطقة بحيرة تشاد . وساهم تجار الفولانى ، والحوصا ، والتكرور المسلمون أيضا بدور كبير فى هذا المجال وأدى هذا لازدهار التجارة ونموها .

وكان التجار المسلمون فى تنقلهم بين المراكز التجارية يحتكون بباقى الأفارقة ويؤثرون فيهم — بسلوكهم الشخصى وأمانتهم ونظافتهم ، وكثيرا ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثيرين منهم فى الاسلام ، وعدد غير قليل من هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم فاذا ما استقر بهم المقام أنشأوا حلقات لتعليم القرآن أو العبادة وقاموا بمزاولة النشاط التعليمى والدعوة لاتباع مبادىء الاسلام بجانب نشاطهم التجارى . ولذا تركز الاسلام على الخصوص فى المبدأ فى المراكز التجارية ومنها انتشر لمناطق متعددة أخرى وهكذا دخل الاسلام الى كثير من بلدان غرب أفريقيا فى ركاب التجار ونتيجة لنشاطهم فقد أصبح الاسلام كما يقول ترمنجهام « بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار بنجاح مع الامارات التى نشأت فى افريقية الغربية »(٤٣) .

وقد ساعد قيام ممالك اسلامية قوية فى غرب افريقيا على استتباب الأمن مما ادى لازدهار التجارة التى اصبحت تلعب دورا هاما ورئيسيا فى اقتصاد هذه الممالك .

ففى مملكة مالى مثلا — يقدر نيام جبريل (Niam, Djibril) عدد الجمال التى كانت تستخدم فى عمليات التبادل التجارى عام ١٣٥٠ بما لا يقل عن ١٢،٠٠٠ جملا . وعند حديثه عن اقتصاد مالى يذكر أن تجارة التوافل كانت تقوم بدور هام فى اقتصاد المملكة وأن عددا كبيرا من البربر والطوارق كانوا يشتركون فى عمليات التبادل التجارى(٤٤) .

ومن القبائل العربية التى لعبت دورا هاما فى التجارة عبر الصحراء وكان لها فى ذلك شهرة — قبائل صنهاجة ولمتونة ومسوفة ، وجدالة .

---

(43) Trimingham : op. cit., p. 26. W

(44) Niam, Djibril : L' Empir de Mali (Conakry 1948).

ومؤلف هذا الكتاب غينى وله عدة كتب عن تاريخ غرب افريقيا تتميز بالدقة والاصالة .

والحقيقة انه يمكن القول بانه اذا كانت التجارة قد أسهمت فى نشر الاسلام — فقد أدى انتشار الاسلام الى مضاعفة النشاط التجارى ، فقد تغيرت نظرة الأفارقة الى الزراعة ، كما اصبحت للتجارة مكانة خاصة ووجدت طبقة جديدة من التجار العرب والأفارقة فى كل من غانة ومالى وغاو — وأدى ذلك التبادل الى نشر ونمو المدن التجارية الكبرى مثل كومبى ، وتمبكتو ونيانى ، وجنة ، وغاو . وكانت كبارة ميناء تومبكتو الحربى والتجارى ملقى البضائع القادمة من شمال افريقية ومنها توزع الى مالى ، والنيجر الأعلى ، والداهومى كما تصل اليها البضائع الافريقية المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها الى شمال أفريقيا حيث قامت المدن التجارية فى المغرب والقيروان وتونس وطرابلس وأصبح التجار يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الافريقى بل ان بعض القبائل الافريقية اتخذت التجارة حرفة رئيسية عرفت بها وأصبحت فى المدن التجارية الهامة احياء خاصة للتجار العرب يقيمون فى دور بها بنوها فوق مستودعات بضائعهم ، وحرص هؤلاء على أن يتعلم ابناؤهم فى المدارس والمساجد مع زملائهم الأفريقيين(٤٥) .

والحقيقة ان الذين كتبوا عن قصة التجارة فى شرق افريقيا وفى غربها وبين شمال وغرب القارة ووسطها وما كان يتم فى هذه الرحلات التجارية يعطينا صورة رائعة لأثر الاحتكاك البشرى والحضارى والثقافى عن هذا الطريق .

فابن بطوطة مثلا يتحدث عن الطرق التجارية والآبار حيث يرتوى المسافرون ويستقرون وحيث كانت قوافل التجار تقيم فى ضيافة التجار المحليين أو الشيوخ أو تكترى مسكنا تقضى فيه أيام الاستراحة — وتكون مناسبة لتبادل المنتوجات وشراء لوازم السفر ، كما يذكر أن الامتزاج كان على أشده بين الأفارقة والتجار العرب الذين كانوا وسطاء فى العمليات التجارية كما كانوا يقومون بالترجمة والسمسرة ويعملون كأدلاء وحراس فى الصحراء ، ويشير بالذات الى الكرم العربى الذى هو صفة من صفات العربى وكيف كان يظهر فى هذه المناسبات بأحلى مظاهره التى قد تصل الى حد المبالغة فى اكرام الغرباء(٤٦) .

---

(٤٥) نعيم قداح : مرجع سابق ، ص ١٢٥ وما بعدها .

(٤٦) رحلة ابن بطوطة : دار التراث — بيروت ١٩٦٨ ، ص ٦٥٨ وما بعدها .

ويتحدث البكرى عن نفس الشىء ويشير الى شبكة الطرق الصحراوية التى انتشرت فى غرب افريقيا بالذات ويعطى تقديرات تقريبية للمسافة التى تستغرقها الرحلة فى كل مرحلة من مراحلها(٤٧) .

وقبل أن تزدهر التجارة الافريقية على أيدى العرب كانت طريقة المبادلة هى السائدة لكن العرب ادخلوا النقود الى جانب القطع الذهبية المسكوكة ، وقد وجدت فى القصر الملكى فى مالى ، وفى غاو قطع نقدية مغربية ومصرية. ويشير أنتا دوب Anta Diop فى حديثه الطويل عن التجارة فى غرب أفريقيا الى أن الأسر المالكة فى غرب أفريقيا أصبحت تشترى حاجاتها من منسوجات وتحف وغيرها من المغرب وبلدان شمال افريقيا الأخرى مباشرة أو عن طريق التجار العرب ، كما يشير الى ان التجار الأفارقة قلدوا ما كان سائدا فى البلاد العربية ، من اقامة بعض الأسواق فى مدن معينة فى أيام معلومة ، كما يشير الى أن حكام هذه البلاد ــ حتى من لم يعتنق الاسلام منهم اضطروا خاصة فى المدن التجارية الى اقامة قضاء اسلامى يحكم حسب الشريعة الاسلامية وذلك للفصل فى القضايا التى تتعلق بمصالح التجار المسلمين حرصا منهم على أن يشعر هؤلاء بالطمأنينة فى معاملاتهم التجارية(٤٨) .

خامسا ــ آثار سياسية :

لا شك فى ان من أهم الآثار الحضارية التى ترتبت على الاحتكاك العربى الأفريقى التغيرات السياسية التى طرأت على البلاد الافريقية شرقها وغربها .

وفى شرق القارة ــ أشرنا الى أن العرب بعد أن استقروا فى أماكن معينة بالشاطىء نجحوا فى تكوين امارات عربية ، وأصبحت هذه الامارات العربية تجمع فى أنظمتها بين أشياء أفريقية أصيلة وبين أشياء عربية

---

(٤٧) البكرى ، أبو عبيد الله : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشر دى سلان الجزائر ١٨٥٧ مشتق من كتاب المسالك والممالك) .
(48) Anta Diop : op. cit.
(الفصل الثانى على الخصوص) .

اسلامية لكن مما لا شك فيه ان العرب المهاجرين الى شرق افريقيا قد حملوا معهم حضارتهم الزاهرة .

ويذكر كوبلاند أن الرحالة العرب والأجانب على السواء الذين زاروا الامارات العربية فى شرق افريقيا تحدثوا عما رأوه بهذه الامارات من مظاهر الحضارة والرقى .

ولا شك فى أن النظام السياسى والادارى الذى ساد فى الامارات العربية بشرق افريقيا تأثر فى جوهره بما اعتاده العرب فى بلادهم من نظام قبلى أو شبه قبلى — فالأمير كان بمثابة شيخ القبيلة وكان يساعده جماعة من صفوة القوم فى الامارة .

على أن الملاحظ أن العرب فى شرق أفريقيا كونوا امارات متفرقة فلم تتكون امبراطورية عربية متحدة مثلا ، ولو أنه فى فترات متقطعة كانت لامارة أو أخرى من هذه الامارات سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة امارات — فمثلا فى نهاية القرن الخامس عشر لما جاء البرتغاليون لشرق أفريقيا كانت لامارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبى من الساحل ، ولما وصل فاسكو دا جاما الى موزمبيق وجد أن حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوه ، وكان يجبى الضرائب لحسابه على السفن التجارية التى ترد للمدينة — وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطانى كلوه ، وممبسة اذ أن هذا الأخير كان متزوجا من ابنة سلطان كلوه .

وهكذا كان لأمراء كلوه شىء من السيادة سواء عن طريق السياسة أو المصاهرة على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقى وان لم تكن لهم سيادة كاملة بالمعنى الذى نعرفه .

وهكذا استطاع العرب أن يوجدوا فى شرق القارة تنظيمات ادارية قبل أن تتفتح عيون الأوربيين للقارة الافريقية .

واشير الى أن الائمة فى عمان على الخصوص استطاعوا أن يمدوا سلطانهم على الشمال الشرقى من أرض الصومال حتى نهر روفوما وأن يقيموا فيها امارات تابعة لهم وضعوا على راسها رؤساء من العائلات العربية

فى ممبسة وزنجبار وغيرها من المناطق الهامة(٤٩) .

أما فيما يتعلق بغرب افريقيا فقد تكونت ممالك وامبراطوريات فى المنطقة الشاسعة التى تطل على المحيط الاطلنطى غربا وخليج غينيا جنوبا وتحدها الصحراء الكبرى شمالا .

ومن هذه الامبراطوريات امبراطورية غانا وامبراطورية مالى ، وامبراطورية سنغاى ، وامبراطورية كانم ، وبرنو .

وقد كان لكل منها نظامها الادارى كما كانت لها علاقاتها الوطيدة بالبلاد الاسلامية الأخرى فى شمال افريقيا ومصر واخذت من النظم السائدة فى هذه البلاد وتأثرت بها .

وقد كانت للأحداث السياسية فى هذه الدول العربية أصداؤها فى هذه الدول الافريقية المتصلة بها(٥٠) .

ولابد من الاشارة فى النهاية الى أن العرب كان لهم دورهم البارز فى اذكاء الروح الوطنية فى هذه الامارات والسلطنات فى شرق القارة وغربها وظهر ذلك بوضوح حين واجهت هذه البلاد موجة الاستعمار الأوربى فوقفت تدافع عن كيانها وقاومت الاستعمار قدر طاقاتها وظهرت فيها بطولات عربية وافريقية وقد سبق أن اشرنا لبعض هذه الشخصيات التى برزت فى ميدان الكفاح ضد الاستعمار .

من هذا العرض تتضح الحقائق الاتية :

ترجع علاقة العرب بافريقيا الى أقدم العصور ، ساعدت على ذلك عوامل جغرافية وعوامل اقتصادية وعوامل تاريخية ، وأعطى الاسلام دفعة كبيرة لهذه العلاقات . وقد كانت لهذا الاتصال العربى الافريقى أثار ونتائج

---

(٤٩) للمزيد من التفاصيل عن هذه الامارات العربية بشرق أفريقيا يرجع : شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، ١٩٨٠ ، ص ٥١ وما بعدها .

(٥٠) لمن يريد تفاصيل عن النظم السياسية والادارية فى هذه الدول بافريقيا الغربية يرجع الى : عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية بافريقيا الغربية ، ١٩٦١ .

حضارية ظهرت أثارها فى المجالات المختلفة الثقافية ، والدينية ، والاجتماعية، والاقتصادية ، والسياسية .

وقد لمس ذلك الرحالة العرب بالاضافة الى الرحالة والكتاب الأجانب .

وقد ذهل الرحالة الأجانب حين جاءوا لأول مرة الى شرق القارة أو غربها وتوغلوا فيها فوجدوا امارات وممالك على قدر كبير من التحضر وقد ظلت هذه الحضارات زاهرة الى أن نكبت القارة بالمستعمرين الأوربيين .

وقد حاول الاستعمار أن يقضى على هذه الحضارات الافريقية العربية وان يفرض على شعوب القارة حضارته ، ولا شك فى أن من واجب الأفارقة بعد أن استعادوا حريتهم واستقلالهم أن يستعيدوا وجههم الحضارى الاصيل المتمثل فى اللغة والثقافة والتقاليد والعادات . ولا يعنى هذا عدم الأخذ بالمفيد والملائم من حضارات الشعوب الأخرى .

النشاط التجارى العربى في شرق أفريقيا
فى القرن التاسع عشر حتى بداية السيطرة الاوروبية
على المنطقـة

د. محيى الدين محمد مصيلحى

موضوع دور العرب فى النشاط التجارى فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر من موضوعات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى الافريقى التى تحتاج الى معالجة موضوعية حادة ، ومراجعة تاريخية خاصة ، ذلك أن الكتابات الأوربية تكاد تقصر هذا النشاط على تجارة الرقيق ، وتنسب الى العرب ارتكاب الكثير من الفظائع فى داخل القارة من أجل صيده . والحقيقة أن النشاط التجارى العربى قد تعددت مظاهره ، وكانت تجارة الرقيق مجرد دعامة ثانوية من دعاماته . وانعكست آثار هذا النشاط على أحداث تغيرات بعيدة المدى فى التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمعات الداخل . وتحاول هذه الورقة المقدمة ابراز هذا النشاط وآثاره ، واعادة تقييم دور العرب التجارى خلال الفترة موضوع الدراسة من خلال منظور موضوعى تاريخى .

ويتفق المؤرخون على أن اتصال العرب بساحل شرق افريقيا يرجع الى زمن بعيد قبل القرن التاسع عشر ، وعلى أن ظروف التجاور الاقليمى وحذق العرب وخبرتهم بالملاحة قد ساعدهم على هذا الاتصال ، وعلى أن وصولهم الى شرق أفريقيا كانت تحركه عوامل اقتصادية وظروف سياسية ، ذلك أن شبه جزيرة العرب ذات المناخ الصحراوى كانت دائما عامل طرد سكانى ، كما كانت ظروف الاضطرابات السياسية والاختلافات الدينية التى وقعت فى الدولة الاسلامية منذ عهد الدولة الأموية قد ادت الى خروج عدد كبير من العرب من شرق أفريقيا واستقرارهم بها ، تدفعهم الى ذلك خصوبة الأرض فى هذا الساحل وقلة الكثافة السكانية به . وعلى هذا شهدت منطقة

ساحل شرق أفريقيا تأسيس العديد من الامارات الاسلامية منذ فترة مبكرة ترجع الى القرن الثامن الميلادى حسب تقديرات بعض المؤرخين(١) .

وساعد استقرار العرب فى هذه المنطقة على قيامهم بدور أكبر فى التجارة بينها وبين جنوب شرق آسيا ، ويبدو ان دور العرب التجارى ثمها كان موغلا فى القدم مما جعل المؤرخ الانجليزى كوبلاند Coupland يرجعه الى ألفى سنة مضت(٢) . وأحدث هذا النشاط ازدهارا اقتصاديا كبيرا نتيجة مبادلة العرب منتجات شرق أفريقيا من الرقيق والعاج والذهب بمنتجات جنوب شرق آسيا من المنسوجات والتوابل والخزف . وتؤكد كتابات الرحالة العرب كالمسعودى والادريسى وابن بطوطة مظاهر هذا الرخاء الاقتصادى فى الامارات الاسلامية على طول ساحل شرق أفريقيا ، وتحفل باشارات عديدة الى الأسواق التجارية العديدة التى قامت فى مدنه كأسواق مقديشيو ومالندى وممباسا وكلوة وبمبا وزنجبار(٣) . وقد أفاد الرواج التجارى العربى فى هذه المنطقة من اشتداد الطلب على الرقيق والعاج بسبب ارتباط الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى والشرق الاسلامى عامة بنظام الرق(٤) ، والأرباح الوفيرة الناجمة عن بيع العاج الذى كان يستخدم فى صناعة الكثير من التحف والتماثيل . وصحبت عمليات التجارة الواسعة ولوج العرب الى مسافات أبعد فى الداخل للحصول على الرقيق والعاج بعد أن تعذر توفرهما فى منطقة الساحل بمرور الوقت نتيجة طول الاستغلال . هذا فضلا عن صعوبة الحصول على الرقيق من الساحل بعد دخول معظم سكانه الأفريقيين فى الاسلام وما ترتب على ذلك من تحريم استرقاقهم(٥) .

---

(1) Wills, A. J., An Introduction to the History of central Africa, London, 1964. p. 73.

(2) B. A. Ogot, Population Movements Betwlen East Africa, the Horn of Africa and The Neighbouring Countries, in (UNESCO) ed, The African Slave trade from the 15th Century to the 19th Century, U. N. 1979, p. 175.

(3) Kimambo and Ajtema (eds), A History of Tanzania, London 1969, pp. 40-41.

(4) Ogot, B A, in UNESCO (ed) op. cit., p. 176.

(5) Ogot and Kieran (eds), camani, A Survey of East African History, Nairobi, 1971, p. 220.

ورغم أن دور العرب فى النشاط التجارى فى شرق أفريقيا قد تقلص نسبيا نتيجة قدوم البرتغاليين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وتفوقهم عسكريا عليهم ، فانهم ما لبثوا أن تحرروا من هذه السيطرة . وكان لعرب مومباسا دور بارز فى مقاومة السيطرة البرتغالية ، وخلص ساحل شرق افريقيا للعرب باستثناء ساحل موزمبيق بعد ظهور قوة اليعاربة فى مسقط فى القرن الثامن عشر وتعاونها مع امارات ساحل شرق أفريقيا الاسلامية . ولم يأت القرن التاسع عشر الا وكان ساحل شرق افريقيا بالاضافة الى زنجبار فى يد سلاطين مسقط(٦) .

عوامل نمو التجارة العربية فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر :

توفرت عوامل عديدة ادت الى نمو التجارة العربية فى القرن التاسع عشر ومن هذه العوامل الاستقرار السياسى العربى فيها وخاصة منذ بدء تولى السلطان سعيد أمور سلطنتى مسقط وزنجبار اعتبارا من عام ١٨٠٦ ، ولم يكن سعيد الا تاجرا على حد ما وصف هو نفسه لأحد زائريه الفرنسيين(٧) ، ومن ثم وجه اهتمامه الى تنمية موارده التجارية الخاصة والى زيادة حصيلة جماركه وتنمية مزارعه الخاصة خاصة مزارع القرنفل وجوز الهند والحبوب والمطاط وبنى لنفسه أسطولا تجاريا خاصا بلغ تعداده حسب تقدير القنصل البريطانى فى زنجبار هامرتون Hammerton عشرون سفينة مختلفة الأحجام(٨) . مخرت عباب البحار الى أوروبا وجنوب شرق آسيا وأمريكا الشمالية حاملة الرقيق والعاج والتوابل وخشب الأبنوس وقرون الخرتيت وأسنان التماسيح . وأفاد سعيد من مناخ الحرية التجارية الذى اتسم به القرن التاسع عشر ، والذى ساد فى أعقاب الحركة المناهضة لتجارة الرقيق التى تزعمتها بريطانيا فى أوائل هذا القرن المذكور ورغم أن تحريم الاتجار فى الرقيق كان من شأنه أن يضر بداخل سلطنتى مسقط

(6) Hollingsworth, L. W. The Asians in East Africa, London, 1960, pp. 14-19.

(7) Coupland, R, East Africa and its Invaders, London, 1938, p 304.

(8) F. O. 54/13, Hammerton to Palmerston, Jan 3rd, 1894.

وزنجبار ، فان سعيدا ظل يمارس هذه التجارة ، وان قيد نسبيا من حجمها ، واخذ تصدير الرقيق من شرق أفريقيا مستمرا تحت دعاوى توفير العمالة الافريقية لمزارع قصب السكر والقرنفل(٩) فى جزر ريونيون ومدغشقر وجنوب شرق آسيا ومدن ساحل شرق أفريقيا .

وبانتقال سعيد الى زنجبار بصفة دائمة فى عام ١٨٤٠ زاد عدد الوافدين العرب والهنود الى شرق أفريقيا ، وارتبط هذا بزيادة الطلب على المنتجات الأوربية الصناعية . وادت التقييدات على تجارة الرقيق الى ضرورة وجود مصادر بديلة لها لتنويع الاقتصاد العربى فى شرق أفريقيا — هذا فى الوقت الذى ارتفع فيه حجم الطلب العالمى على العاج والرقيق وارتفعت أسعارهما . وتتطلب هذا زيادة الولوج الى داخل شرق افريقيا لجمعهما ، وساعد على هذا زيادة شحنات السلاح الأوروبى الى شرق أفريقيا مما سهل مهمة القوافل العربية — التى أصبحت اكثر حجما واكبر عددا — فى اختراق الداخل الى مسافات بعيدة وصلت الى منطقة البحيرات الاستوائية وحوض الكنغو ، وافادت تجارة القوافل العربية من توفر راس المال الاجنبى متمثلا بصفة أساسية فى راس المال الهندى الذى تدفق مع وفود الاعداد المتزايدة من الهنود واستقرارهم فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى الأفريقى .

وأفادت التجارة الغربية فى شرق أفريقيا من طول عهد العرب وخبرتهم بالتجارة فى المنطقة ومعرفتهم بنظام الرياح الموسمية الفصلية بين شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا . وكان لانتشار العرب فى مدن الساحل الشرقى الافريقى منذ زمن بعيد وتأسيسهم لعدد من السلطنات الصغيرة على طول الساحل الشرقى الافريقى وتعاونهم مع سلطان زنجبار أثر كبير فى تنمية هذه التجارة ، كما كان لضعف قوة البرتغال العسكرية والاقتصادية دور بالغ فى حصر نشاطها التجارى واعطاء عرب شرق أفريقيا فرصة للتوسع الاقتصادى والنمو التجارى .

ووثق سعيد علاقاته ببريطانيا ورحبت هى بهذه العلاقة لحماية طريق مواصلاتها فى المحيط الهندى والخليج العربى وبحر العرب من نشاط القراصنة ،

(9) Cwyn Campell, Madagascar and the slave Trade (1810-1895), J. A. H., 1981, vol. 22, pp. 209-212.

ولدعم نفوذها فى منطقة شرق افريقيا ، ولكى تأمن تهديدات الروس والفرنسيين فى الخليج العربى . وتوجت هذه الصداقة بمعاهدة تجارية بينهما فى عام ١٨٣٩ أقرت مبدأ حرية التجارة والاقامة والتنقل لرعايا الطرفين فى أملاك كل منهما ، كما خولتهما حق تعيين القناصل فى بلد الطرف الآخر . وفضلا عن هذا شهد حكم سعيد عقد معاهدات تجارية مماثلة مع الدول الأجنبية الأخرى ، من هذه المعاهدة التجارية مع الولايات المتحدة فى عام ١٨٣٣ وما تبعها من تعيين قنصل أمريكى فى زنجبار بعد عقدها بأربع سنوات ، والمعاهدة التجارية مع فرنسا فى عام ١٨٤٤ وتعيين قنصل فرنسى فى شرق أفريقيا فى نفس العام . وتابع خلفاء سعيد نفس هذه السياسة اذ عقد السلطان مجيد بن سعيد معاهدة تجارية مع عدد من الجمهوريات كجمهورية ليوبك Lubeck وجمهورية برمن Bremen وجمهورية هامبورج Hamburg فى عام ١٨٥٩ ، وعين على أثرها ممثلا لشركة المانية تجارية هى شركة ازوالد Oswald فى زنجبار(١٠) .

وبلغ من اهتمام السلطان سعيد بترويج التجارة أنه شجع البيوت التجارية الأجنبية على تأسيس مراكز لها فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى، وأصبحت زنجبار مقرا مؤقتا للعديد من الأجانب ، وغصت موانئها بالسفن القادمة من الخارج المحملة بالبضائع ، وحرصا على جنى أكبر قدر من العوائد التجارية فقد حرم سعيد على الأوروبيين الاتجار مباشرة مع العرب أو الأفريقيين . وقام هو بدور الاتجار معهم ، واحتفظ بحق احتكار تجارة العاج بين بنجانى وكلوة(١١) . وترك بقية التجارة فى العاج فى مدن الساحل والبضائع الأخرى أمام الوافدين العرب والهنود الذين سمح لهم بالاقامة والتجارة فى أملاك سلطنة زنجبار باعتبارهم رعايا بريطانيين . وكانت مخازن سعيد فى زنجبار تمتلىء بالبضائع الواردة من الداخل والخارج ،

---

(10) Oliver, R and Gervase, Mathew (eds), History of East Africa, Oxford, 1963, vol. I, pp. 234-235, and Brunschwig, H, L, Expansion Allemande Outre Mer du Xvieme Siecll a nos Jours, Paris, 1957, pp. 76-79.

(11) Oliv er, R, and Gervase, Mathew, op. cit., vol. I, p. 224.

هذا فضلا عن تحكم سعيد فى تجارة السلاح النارى المتجهة الى الداخل ومول سعيد جزءا كبيرا من قوافل التجارة العربية المتجهة الى الداخل ، غير أن اتساع النشاط التجارى وكبر حجم القوافل جعل من الصعب على كثير منهم تدبير الأموال اللازمة لتنظيم القوافل . ودخل الهنود كممولين لها مقابل حصولهم على اضعاف قيمة رؤوس أموالهم او بضاعاتهم التى يزودون بها القوافل فى الساحل فى شكل عاج أو رقيق أو ملح أو منتجات أخرى .

وطبق سعيد سياسة تجارية رشيدة اذ أعفى صادرات المنطقة من الرسوم الجمركية باستثناء الرقيق المصدر ، وفرض ضريبة ثابتة على الواردات قدرها ٥٪ فقط بعد أن كانت الرسوم الجمركية من قبل تختلف من مدينة الى أخرى فى الساحل الشرقى الأفريقى(١٢) . وتم ارتياد طرق جديدة الى الداخل ، وحاول سعيد وخلفاؤه من بعده ارسال مندوبين من قبلهم للاشراف على شئون التجارة فى الداخل ، كما حدث فى عهد السلطان مجيد حين بعث سعيد بن سالم ، وولاه منصب مدير الجمارك فى تابورا ، غير أنه لم يستطع ممارسة نشاطه بالداخل لعدم استقرار الأحوال هناك ، كما بعث برغش بحملة الى الداخل لتهدئة الاضطرابات الداخلية فى عام ١٨٧٣ حتى لا تؤثر على النشاط التجارى العربى وفشلت الحملة(١٣) .

وشجع السلطان سعيد تداول النقد فبجانب دولار ماريا تريزا والروبية الهندية اللذين اتسع التعامل بهما فى زنجبار وتوابعها فى شرق افريقيا ، استحدث سعيد عملة نحاسية خاصة بعد أن استورد نحو خمسة آلاف قطعة من النحاس من الهند وسكها باسمه ، واحدثت اجراءات سعيد رواجا اقتصاديا كبيرا ، يدلنا على هذا ما ذكره القنصل البريطانى فى زنجبار فى عام ١٨٧٣ من أن ما لا يقل عن ١٫٦٠٠٫٠٠٠ دولار كان يستثمر فى زنجبار وساحل شرق أفريقيا . وقد بلغت أرباح سعيد من التجارة نحو مائة الف دولار سنويا ومن مزارعه الخاصة نحو ٥٠ ألف دولار سنويا ، هذا فضلا عن الضرائب التى كان يجنيها من تصدير الرقيق من زنجبار وتوابعها ، وعوائد

---

(12) Coupland, R, op. cit., p. 303.

(13) Hollings worth, L. W., op cit., p. 24.

الجمارك التى كانت ترد اليه من ضروب النشـــاط التجــارى المشروعة الأخرى(١٤) .

الهنود والنمو التجارى العربى :

وارتبط نمو النشاط التجارى العربى فى شرق افريقيا فى القـــرن التاسع عشر ارتباطا وثيقا بالنشاط الاقتصادى المتزايد للهنود فى شرق أفريقيا خلال هذهالفترة ، وكانت سياسة الحرية التجارية التى اتبعها سلاطين زنجبار ابتداء من عهد سعيد قد استتبعت وصول الهنود بأعداد متزايدة الى المنطقة . ذلك أن سعيدا راى ان اتباعه العرب ليست لديهم رؤوس الأموال الكافية لدفع النشاط التجارى العربى بالدرجة المطلوبة ، وكان للهنــود علاقات تجارية واسعة بشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا منذ قــرون طويلة . وبرزوا فى ميدان المال والتجارة واشتهروا بدورهم فى أعمـال الوســـاطة التجارية وأقراض الأمــوال والتعامل بالربا ، واستقرت أعداد منهم فى مدن ساحل شرق افريقيا . غير أن العرب فى هذه المدن نظروا بعين الكراهية الى ممارساتهم الاقتصادية بسبب شدة جشعهم ، ومن ثم انحصر التعامل معهم داخل دائرة مقتضيات الضرورة الاقتصادية والحاجة الى المال لتنظيم قوافل التجارة الى الداخل والحصول علىالسلعالتى تحملها القوافل معها الى الداخل للمتاجرة بها ، ومع هذا فلم يكن العرب يسمحون للهنود بالاستقرار فى المدن الساحلية اكثر من فترة رياح موسمية واحدة بسبب ضيقهم بهم . غير أن علاقات سعيد ببريطانيا ودخوله معها فىارتباطات سياسية وتجارية ابتداء من عام ١٨٣٩ ، وهو تاريخ عقد معاهدة الصداقة والتجارة معها جعل للهنود باعتبارهم رعايا بريطانيين حق الاستقرار والاقامة والتملك والشراء والبيع فى زنجبار وتوابعها ، ومن ثم زاد تغلغلهم فى الكيان الاقتصادى لشرق أفريقيا ، ورحب سعيد بدور الهنود الاقتصادى للاستفادة برؤوس أموالهم لخدمة تجارة واقتصاديات المنطقة .

واتخذ سعيد من الهنود مستشارين اقتصاديين له ، وعهد اليهم بادارة شئون الجمارك ، وتولى أحد الهندوس وهو جيرام سويجى Jariam Sewiji

(14) Guillian, M, Documents Sur L' Histoire, La Geographie et la Commerce de L'Afrique Orilnta, Paris, Tome, 2, p. 254.

شئون الادارة الجمركية مقابل مبلغ سنوى محدد ، يزداد دوريا مع زيادة حجم التبادل التجارى مع املاك سلطان زنجبار . وكان هذا المبلغ يصل الى ١٧٠ الف دولار فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وازداد تدريجيا حتى وصل الى نحو نصف مليون دولار فى عام ١٨٨١ ، وكانت الجمارك تنحصر ادارتها داخل دائرة الهنود من الهندوس دون الهنود المسلمين ، كما كان منصب رئيس ادارة الجمارك يورث أحيانا كما حدث حين تولى ابن جرايام سويجى أمر هذه الادارة بعد وفاة والده . وكانت من أهم مزايا هذه السياسة التى اتبعها سعيد تجاه الهنود أنه ضمن موردا ثابتا يمول به قوافله التجارية الى الداخل .

وحين زاد عدد القوافل التجارية المتجهة نحو الداخل للحصول على منتجات الداخل حل التجار الهنود محل العرب فى تمويل هذه القوافل ، واستوردوا البضائع من الهند والوكلاء الأوربيين والامريكيين الذين كانت تأتى سفنهم الى موانىء شرق أفريقيا ، وقدموها لتجار القوافل من العرب والسواحليين مقابل تعهدهم باعادة دفع اضعاف قيمتها فى شكل رقيق أو عاج أو منتجات شرق افريقيا الأخرى عند عودتهم من رحلاتهم فى الداخل . ونظرا لأن حجم المخاطرة كان كبيرا فقد غالى الهنود فى تحصيل فوائد عالية على الأموال أو البضائع التى كانوا يقدمونها لهم ، وكان ارتفاع الفائدة عاملا منحهم قدرة على الصمود أمام التقلبات التجارية ، خاصة وأنه كانت هناك حالات كثيرة كان الهنود يفقدون أموالهم نتيجة عدم عودة القوافل التجارية العربية من الداخل بسبب تعرضها للفشل أو السرقة(١٥) ، وتذكر الكتابات المعاصرة أن بعض المدن الداخلية مثل تابورة واوجيجى كانت تمتلأ بالعرب الذين يخشون من الخروج الى الساحل بسبب مطالبات دائنيهم من الهنود ، كما تذكر أن حجم الخسارة التى تعرض لها الهنود كان كبيرا نسبيا اذ فقد أحدهم وهو فى تريكاندس بنجانى ما يزيد على نحو عشرين ألف جنيه استرلينى نتيجة عدم عودة القافلة التجارية العربية التى مولها من الداخل(١٦) .

---

(15) R. M. Van Zwanenberg and Anne King, An Economic History of kenya and Uganda (1800-1970), London, 1977, pp. 164-169.

(16) Beachey, R. W., The Irory Trade in the 19th Century, J. A. H., vol. 8, 1967, p. 277.

وجنى الهنود أرباحا كبيرة من العمل بالوساطة التجارية وتمويل القوافل رغم ما كانوا يتعرضون له من خسائر ، والغريب أن الهنود مارسوا دورا مزدوجا لزيادة تمتعهم بالامتيازات الاقتصادية ، فبينما كانوا يعتبرون رعايا بريطانيين يتمتعون بالجنسية الانجليزية ، فانهم كانوا احيانا يدعون حسبما تقتضى المصلحة بأنهم من رعايا سلطان زنجبار حتى يحق لهم قانونا ممارسة تجارة الرقيق دون الوقوع تحت طائلة الحظورات الموضوعة على الأجانب والخاصة بممارسة هذه التجارة(١٧) . ونتيجة هذه الممارسات الاقتصادية ترك بعض الهنود ثروات واسعة ، اذ ثبت أن جيرام سويجى صاحب الجمارك قد خلف عند وفاته ثروة تقدر بنحو ثلاثة ملايين جنيه(١٨) . وزاد من ثرائهم أنهم لجأوا الى أساليب ملتوية لجمع الأموال اذ أثبتت الوثائق البريطانية تورطهم فى ممارسة تجارة الرقيق وتهريبه خارج زنجبار(١٩) ، كما حصلوا عوائد ورسوم جمركية كبيرة على كثير من الوان النشاط التجارى لم يدرجوها فى سجلات الجمارك الرسمية الخاصة بزنجبار . وحصل كبار التجار العرب والسواحليين من الهنود على القروض مثل تيبو تيب Tippu Tip ، « محمد بن حميد المرجبى » الذى قدم له التاجر الهندى تاريا توبان Taria Topan قرضا قيمته سبعة آلاف دولار لتمويل قافلة لتجارة العاج الى الداخل ، كما حصل روماليزا Romaliza « محمد بن خلفان » على قرض مماثل لنفس الغرض(٢٠) ، ويبدو أن ثراء الهنود ونفوذهم كان واسعا الى درجة أن السلطان سعيد نفسه قد أخذ منهم قرضا فى عام ١٨٥٦ قيمته ٥٠ ألف دولار لأغراض تجارية وعسكرية قبيل وفاته .

وكون الهنود طبقة طفيلية اثرت نتيجة قيامهم أيضا بأعمال السمسرة ، اذ كان بعضهم وكلاء لبعض البيوت التجارية فى بومباى ، كما كان لبعضهم وكالات فرعية فى عدن ومسقط ، كما كانوا شركاء فى بعض فروع الشركات

---

(17) F. O 84/1307, Erd 1142, Report of Captain Malcolm of H. M. S. Briton, August 17, 1873.

(18) Hollingsworth, L. W., op. cit., p. 21.

(19) Nichalas.C. S. Thl Swahili Coast, New York, 1971, pp. 203-204.

(20) Iliffl, John, A Modern History of Tanganyika, London, c977, p. 46.

الأوربية فى زنجبار ، وكثرت أعدادهم فى مدن الساحل الشرقى ، اذ وصلت هذه الاعداد الى نحو عشر آلاف فى زنجبار وحدها فى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وهو عدد كان يفوق عدد العرب أنفسهم فى هذه المدينة والذين لم يتجاوز عددهم الستة آلاف(٢١) .

وكان للهنود مستوطنة تجارية فى مينجانى Minegani تحقق دخلا سنويا قدره ١٠٠ ألف دولار(٢٢) ، وأسسوا مستوطنة أخرى لهم فى سلطنة انجوتشى Angoche على ساحل موزمبيق كان بها ثلاثة وثلاثون مركزا تجاريا هنديا(٢٣) ، وكان الهنود يتولون ادارة جمارك مدغشقر على النحو الذى يتمتعون به فى زنجبار . وتعامل الهنود فى تجارة الأقمشة والأسلحة والخرز والصمغ والمطاط والعاج والرقيق ، كما تولوا سك العملة فى مدغشقر(٢٤) . وكان لأثرياء الهنود من التجار مخازن خاصة يودعون بها بضائعهم وأماكن خاصة يخفون فيها الرقيق الذى يجمعونه ، وكان لهم حاميات صغيرة مسلحة لحراسة متاجرهم ، ونظرا لأن حيازتهم للرقيق وتجارتهم فيه كانت غير مشروع فقد أصدر سعيد قرارا فى يوليو ١٨٥٠ باحراق مستودعات الرقيق الخاصة بهم(٢٥) .

واستولى الهنود على عدد كبير من مزارع العرب فى الساحل وفاء لديونهم . وقد أشار القنصل البريطانى فى زنجبار بلايفير Playfair الى أن الهنود يحصلون على غالبية مزايا التجارة الخارجية بين شرق أفريقيا

---

(21) G. E. Brooks, New England Merchants in Africa, A History Through Documents, 1820-1856, Boston, 1965, pp. 375 and 476 and Mingat, J. S., A History of the Asians in East Africa, Oxford, 1969, p. 7.

(22) C. 5315, Acting Consul General Holmwood, Zanzibar, to Salisbury, March 31, 1877, in further correspondence relating to Zanzibar, Africa, No. 1, London, 1888.

(23) M. D. P. Newitt, Angoche, The Slave Trade and Portuguese 1844-1910, J. A. H., vol. 13, No. 4, 1972, p. 668.

(24) C. F. M, Memo by sir Bartle Frere on the Banyans or Nativls of India, March 31, 1873.

(25) Nicholas, C. S. op. cit., p. 204.

والعالم الخارجى نتيجة نشاطهم الاقتصادى المتنوع ، الى درجة انه ذكر أن العرب وهم الذين يضطلعون بعبء التجارة الأساسى فى داخل شرق أفريقيا لا يتمتعون بأكثر من $\frac{١}{٢٠}$ من عوائدها لأنهم يدفعون معظم هذه العوائد كفوائد للقروض التى يحصلون عليها من الهنود(٢٦) . ورغم الآثار السلبية التى ترتبت على تغلغل الهنود فى تجارة شرق أفريقيا فان الأموال التى قدموها للعرب كانت ضرورية لمواجهة زيادة نشاطهم التجارى فى الفترة موضوع الدراسة ، وخاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وآثار جشع الهنود السلطان برغش وحاول طردهم من زنجبار لولا تدخل القنصل البريطانى لصالحهم(٢٧) .

طرق التجارة العربية فى شرق افريقيا :

واضطلع العرب بمهمة التوغل فى الداخل ، بينما ظل نشاط الهنود منحصرا فى الساحل لجهلهم بالداخل وخوفهم من عداء القبائل أو تعرضهم لأعمال السلب والنهب ، ومع أن العرب كانوا قد اعتادوا الولوج الى الداخل قبل القرن التاسع عشر ، غير أن الاعدد لتى ولجت كانت قليلة ، كما كان تمدد القوافل العربية صغيرا وحجم تجارتها ضئيلا ، وتركز الولوج فى الداخل على المناطق القريبة من المنطقة الساحلية ، وخاصة منطقة الظهير الداخلى لزنجبار التى كانت لخصوبتها العالية وصلاحية مناخها منطقة عالية الكثافة السكانية ، واعتاد العرب أن يحصلوا على الرقيق والعاج منها ، ومع القرن التاسع عشر وازدياد الطلب على موارد الداخل ، لم يعد فى امكان العرب والسواحليين الحصول على احتياجاتهم التجارية من هذه المناطق القريبة من الساحل . وتطلب الأمر الولوج الى الداخل لمسافات بعيدة وتجهيز قوافل تجارية أكبر حجما وأكثر تمويلا وتسلحا لمواجهة أخطار المناطق الداخلية ، وأدى التوسع التجارى الى نشأة ثلاثة طرق رئيسية لتجارة القوافل العربية المتجهة من ساحل شرق أفريقيا نحو الداخل هى :

---

(26) Playfair. C., Memo on the Trade prospects of Zantibar, 3rd oct, 1864.

(27) Hollingsworth, L. W. op. cit., pp. 24-25.

١ — الطريق الشمالى الممتد من مومباسا ومالندى الى هضبة البحيرات الافريقية ، وكان يسيطر عليه قبائل الأكامبا والميجكندا Mijkenda قبل أن يسيطر عليه العرب ابتداء من الاربعينات من القرن التاسع عشر ، وكان ارتياد هذا الطريق محفوفا بالمخاطر بسبب تعرض القوافل التى ترتاده لهجمات قبائل الماساى المحاربة .

٢ — الطريق الأوسط ويبدأ من الموانىء المواجهة لزنجبار مثل تانجا وبنجانى وبوجمايو ويتجه الى مدن وسط تنزانيا الحالية مثل أروشا Arusha وموشى Moshi وتابورا Tabora ، ومن هذه المدينة الأخيرة يتفرع الطريق الى فرعين فرع شمالى الى هضبة البحيرات الاستوائية ، وفرع جنوبى غربى الى أوجيجى وحوض الكنغو ، وقد زاد حجم التجارة على طول هذا الطريق ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر بسبب ارتفاع أسعار العاج العالمية ، ودخل العرب والسواحيليون فى علاقات ودية مع قبائل الانياموزى والسمبوا Simbwa والتى تسكن هذه المنطقة من أجل تسهيل مهامهم التجارية(٢٨) . وكان هذا الطريق أهم الطرق التجارية التى ارتادها العرب لخبرة العرب الطويلة به ، ولأنه كان اكثر أمنا الى جانب عوائده التجارية العالية .

٣ — الطريق الجنوبى من كلوة Kilwa عبر جنوب تنزانيا الحالية وشمال موزمبيق الى بحيرة نياسا . ولم يكن العرب يسيطرون عليه الى حد كبير لأن جزءا منه كان يقع تحت الادارة البرتغالية ، ومع ذلك كانت قبائل الياو Yao تجلب الرقيق والعاج ومنتجات الداخل الأخرى وتبيعها لتجار القوافل العربية(٢٩) .

وبجانب هذه الطرق الثلاثة كان يوجد طريقان آخران فى اقصى شمال شرق القارة : الأول ويتجه من موانىء البحر الأحمر الى الهضبة الحبشية

---

(28) Zwanenberg and Anne King, op. cit., pp. 168-169. and Roberts, Andrew, Nyamwezi Trade, in Richard Cray and Drvid Brimingham (eds), pre - Colonial African Trade, London, 1970, p. 48.

(29) Iliffe, John, op. cit., pp. 40-41.

والثانى ويتجه من مقديشيو ولامو الى داخل اقليم الصومال حيث ترجد أسواق لوح التى زاعت شهرتها فى التجارة فى الرقيق غير أن معلوماتنا عن هذين الطريقين ضئيلة والكتابات عنها نادرة(٣٠) .

وجابهت القوافل العربية التجارية مصاعب كثيرة تمثلت فى الحاجة الى امدادات الغذاء والى الحمالين من الافريقيين . واضطر أفراد القوافل الى زراعة الأرض للزعماء الافريقيين للحصول على امدادات الغذاء . وأمدهم العرب بالسلاح والأقمشة مقابل ذلك . ولم تكن للقوافل العربية رغم كبر حجمها والتى كان يصل تعدادها أحيانا الى الفى شخص لا طاقة بمواجهه قبائل الداخل ، ومن ثم اضطروا الى مهادنتهم ودفع رسوم مرور عبر أراضيهم، وتعرض كثير من أفراد القوافل للمرض ، وسقط منهم الكثير فريسة له ، وخاصة بسبب مرض الكوليرا الذى انتشر عبر طرق القوافل فى عامى ١٨٥٩ و١٨٧٠ ، وراح ضحيته كثير من رجال القوافل بالاضافة الى نحو ١٦٠٠ من سكان مدينة بوجمايو(٣١) . وكانت الحروب القبلية الداخلية وارتفاع تكاليف نقل التجارة بين الساحل والداخل ونشاط بعض الافريقيين فى أعمال اللصوصية وقطع الطرق فى الداخل من أهم أسباب فشل كثير من قوافل التجارة العربية وافلاسها . ونظرا لانعدام الأمن على طرق القوافل كانت القوافل التجارية تحرص على الخروج معا ، كما أصبحت تتزود بكميات أكبر من السلاح ، وكثيرا ما لجأت القوافل الى مصادقة زعماء القبائل الافريقية الكبيرة طلبا للحماية(٣٢) .

ويلاحظ أن القوافل التجارية كانت زعاماتها عربية أو سواحيلية ولكنها كانت تتألف من الأفريقيين أساسا ، وكان العرب الذين يخرجون فى صحبة القوافل غالبا من ذوى الامكانات المادية المحدودة الذين كانوا يتطلعون الى الثراء من خلال التجارة ، اما أثريا العرب فكانوا يوفدون فى قوافلهم بعض أتباعهم العرب أو السواحيليين، بينما ظلوا هم بالساحل، هذا باستثناء بعض

(30) Ingham, K. A History of East Africa, London, 1967, p. 60.

(31) Beverly Brown and Walter, T, Brown, East African Trade Towns; A shared Growth ,in W. Arens (ed), A Century of change in East Africa, Paris, 1973, p. 190.

(32) Ibid p. 191.

حالات قليلة نجح فيها بعض العرب فى تأسيس مراكز تجارية لهم فى الداخل، ومن ثم اهتموا بادارة القوافل التجارية بين الساحل والداخل بأنفسهم ، كما وصل الى الداخل عدد من وكلاء سلطان زنجبار من أجل التجارة .

وبجانب طرق القوافل التجارية الداخلية وجدت طرق للتجارة العربية الخارجية ، وكانت هذه الأخيرة تتألف من ثلاثة طرق رئيسية :

الطريق الأول ويتجه من ساحل شرق أفريقيا جنوبا الى سواحل القارة الجنوبية ثم الى الشمال الغربى عبر المحيط الاطلسى الى البرازيل أو الولايات المتحدة .

الطريق الثانى وكان يربط مدغشقر بجزر الكومور وشمال أفريقيا بأسواق الرقيق والعاج فى البحر الأحمر وبلاد فارس .

الطريق الثالث وكان يتجه من زنجبار أو مدن الساحل الشرقى الافريقى او مباشرة الى شبه جزيرة العرب وغرب الهند(٣٣) .

العرب وتجارة الرقيق فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر :

وتتحدث معظم المصادر الأوربية عن قدم هذه التجارة فى شرق أفريقيا ، وعن الارتباط الوثيق بينها وبين طبيعة اقتصاديات المناطق التى يصدر اليها الرقيق كاقتصاديات شبه جزيرة العرب أو بلاد فارس أو الهند ، هذا فضلا عن الحاجة الى الرقيق فى مدن الساحل الشرقى الافريقى وزنجبار لاغراض الحراسة أو الخدمة المنزلية أو الرعى ، وتذكر هذه المصادر أن الرقيق المصدر الى الخارج كان يستخدم فى الصيد أو الغوص على اللؤلؤ أو الجندية(٣٤) ودأبت كتابات الأوروبيين على الحديث عن الدمار والتخريب واحراق القرى الناجم من عمليات صيد الرقيق داخل شرق القارة الافريقية ، وعن آلاف الجثث التى وجدت ملقاة فى الطرق ، وعن عمليات جر الرقيق الذى يتم صيده وربطه بالسلاسل أثناء الرحلة من الداخل الى الساحل، وعن وفاة الاعداد الكبيرة من الرقيق اثناء الرحلة نتيجة الانهاك وقلة الغذاء

(33) Gwyn Campell, op. cit., p. 204.

(34) Joseph, E, Harris , The African presence in Asia, London, 1977, p. 3-25.

والاعتداء بالسياط وتربط هذه الكتابات هذه الفظائع بأعمال العرب فى صيد الرقيق ، وبالغت الكتابات الأوروبية في هذا الصدد الى الحد الذى جعل برتون Burton المستكشف البريطانى يكتب انه لكى يحصل العرب على خمسين امرأة من الرقيق فانهم كانوا يقومون بالاغارة بالسلاح على عشرة قرى أفريقية ، ويقتل فى كل قرية نحو مائتى أفريقى — ويذكر أنه كان يباع فى زنجبار نحو ٢٠ — ٣٠ الف من الرقيق كل عام(٣٥) ، وللحصول على هذا العدد كان الداخل يتعرض كل عام لنزيف بشرى يفوق كل خيال . ويذكر القنصل البريطانى رجبى ان أحد العرب قد أبلغه عند عودته من بحيرة نياسا انه مر أثناء رحلته الى الداخل بعدة قرى خربة وشاهد على الطبيعة مئات الأكواخ المهدمة والأسواق المنهوبة ، وان منطقة بأكملها استغرق اختراقه لها مدة سبعة عشر يوما كانت مجرد أطلال وبقايا مراكز كانت من قبل عامرة بسكانها ، كما يذكر أن الهنود فى كلوة قد أبلغوه أن مناطق تقع على بعد مسيرة عشر أو اثنى عشر يوما من هذه المدينة قد خربت من سكانها بسبب صيد الرقيق ، وأن هذا لم يؤد الى نضوب معين تجارة الرقيق فى الداخل ، وانما ادى الى امتداد حدود الصيد تجاه الغرب شمالا وجنوبا(٣٦) ولا شك أن مثل هذه الكتابات تحفل بالمبالغات الكثيرة ، ومن ثم فانه يجب على المؤرخ مراجعتها وتمحيصها موضوعيا .

ودأب المؤرخون البريطانيون على ترديد القول بأن انتهاك هذه التجارة للمبادىء الانسانية قد أدت ببريطانيا اعتبارا من أوائل القرن التاسع عشر الى العمل على تحريم الاتجار فى الرقيق ، والغاء الرق ، والواقع أن بريطانيا سعت الى الغاء هذه التجارة بعد أن فقدت مستعمراتها فى أمريكا الشمالية وقلت حاجتها الى الرقيق ، وبدأت تتخلى عن مبدأ حماية التجارة وتطبق مبدأ حرية التجارة المشروعة .

ورغم محاولات الغاء تجارة الرقيق فانها قد استمرت فى شرق أفريقيا نتيجة عوامل عديدة منها التوسع الزراعى فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى

(35) Wills, A. J., op. cit., p. 77.

(36) Coupland, R, The Exploition of East Africa, London, 1939. p. 140 Quoting the Report of the select committee of 1871 on Slave Trade in East Africa.

الافريقى خاصة فى مجال زراعة القرنفل وجوز الهند والمطاط والحبوب ، وحاجة المزارع المتزايدة لليد العاملة من الرقيق خاصة وأن محصولا كالقرنفل كان يجرى حصاده مرتين فى العام ، كما كان جوز الهند يحصد أربع مرات سنويا وزاد من الحاجة الى العمالة أن قسوة ظروف العمل فى المزارع الساحلية كانت تدفع الرقيق المحلى الى الهرب ، كما كانت نسبة الوفيات العالية والتى كانت تصل أحيانا حسب بعض التقديرات الى ٢٢٪ من قوة العمالة فى المزارع تؤدى الى نقص العمالة وتستدعى وصول أعداد جديدة منها من الداخل ، وكانت القروض التى يقدمها الهنود لأصحاب المزارع العربية لتسيير قوافل تجارية من أجل الحصول على الرقيق والعاج تسهل لهم ذلك(٣٧) . وكانت هناك عوامل خارجية تؤدى الى جلب الرقيق والعاج وتسهل استمرار الطلب عليه فى أسواقه التقليدية فى جنوب شرق آسيا وشبه جزيرة العرب ، بالاضافة الى الحاجة الى الرقيق لمزارع قصب السكر فى جزر ريونيون وموريشيس ومدغشقر ، وما صحب تحريم الرقيق من تهريب اعداد كبيرة من الرقيق اليها او شحنه علانية من شرق أفريقيا تحت ستار الاستيراد الحر للعمالة . هذا فضلا عن الارتباط الوثيق بين زيادة الطلب العالمى على عاج شرق افريقيا وما اقترن به من ضرورة زيادة الحصول على الرقيق من الداخل لحمله الى الساحل(٣٨) .

ولا يتوفر لنا احصاء دقيق لحجم المصدر من شرق أفريقيا خلال القرن التاسع عشر ، لأن معظم ما يذكره المؤرخون من أرقام لا ينهض على أسس موضوعية ، هذا فضلا عن تباينها بدرجة كبيرة ، كما أن ارقام الجمارك فى زنجبار أو مدغشقر عارية عن الصحة لأن الهنود حرصوا على تهريب الرقيق لحسابهم الخاص دون دفع ضرائب عليه ، ومن ثم فانه بينما يقدر باور Baur جحم الرقيق المصدر من شرق القارة بنحو ثلاثة ملايين أثناء القرن التاسع عشر فان بيتش Beachey يذكر أن ما يزيد على خمسة ملايين من الرقيق قد صدر من هذه المنطقة خلال هذا القرن المذكور(٣٩) وقد تعرضت

(37) C. P. Righby, Rlport on the Zanzibar Dominions, 1872, p. 8.

(38) Zwanenberg, and Anne King, op. cit., p. 178.

(39) Beachey, R. W., the African Diaspora and East Africa, An Inaugural Lecture delivered at Makrere Univlrsity, Kampala, Uganda, July 31, 1967, p. 14.

ثلاثة رسائل جامعية متخصصة حديثة(٤٠) لدراسة ظاهرة تصدير الرقيق ، وأشارت كلها الى ان ما يذكر من أرقام مبنى على التخمين او على أقوال المبشرين أو المستكشفين الأوروبيين ، وأن البرتغاليين أسهموا بنصيب ملحوظ فى تصدير الرقيق عبر أراضى مستعمرتهم موزمبيق ، وخاصة الى أمريكا الجنوبية وجزر البحر الكاريبى . وقد قدر المسؤول البريطانى مورسبى Morsbey حجم الرقيق المصدر عن طريق موزمبيق باثنى عشر الف سنويا(٤١) . غير أن جزءا من هذا الرقيق المصدر كان يشحن الى الخارج عن طريق سلطنة انجوتشى Angochi العربية التى كانت تقع على ساحل موزمبيق(٤٢) .

وتعددت أسواق الرقيق ، وكان سوق زنجبار هو السوق الرئيسى وكان يليه فى الأهمية سوقا كلوة وبنجانى ، كما وجدت أسواق صغيرة للرقيق فى مومباسا ومالندى ولامو ومقديشيو ولم يكن كل الرقيق المصدر الى الخارج يمر بزنجبار ، وانما كان الرقيق يتجه أحيانا مباشرة الى منافذ التصدير الخارجية ، وحين اشتدت عمليات التفتيش عن الرقيق ونشطت الدوريات البريطانية الساحلية ، حرصت السفن العربية التى كانت تحمل الرقيق على تجنب زنجبار والاتجاه شرقا بعيدا عنها رافعة اعلاما أجنبية فرنسية أو فارسية ، كما كان الرقيق يشحن فى قوارب صغيرة لا تسع أكثر من عشرة

---

(٤٠) الرسائل الجامعية الثلاث المشار اليها هى :

(A) Abdul Sheriff, The Rise of A Commercial Empire, An Aspect of the Economic History of Zanzibar, 1770-1873, London University. PH. D. Thesis, 1971.

(B) Fred Cooper, Plantation Slavery on the East Coast of Africa in the 19th Century, Yale University, 1974, PH.D. Thesis.

(C) Fred James Berg, Mombasa under Busaidi Sultasate, The City and Its Hinterland in the 19th Century, PH.D. Thesis, Wisconin University, 1971.

(41) Nicholas, C. S. op. cit., p. 199.

(٤٢) للاطلاع على تفاصيل تصدير الرقيق عبر سلطنة الانجوتشى ، انظر :

M. D. P. Newitt, Angoche and the Slave Trade in J. A. H., vol. 13, No. 4, 1972. pp. 659-672.

أشخاص ، ويقدم أصحابها العرب اقرارات بأن ما عليها بحـــارة ، وأنهم خرجوا للصيد أو الغوص . وكان الرقيق يجمع من أسواق الصومال الداخلية التى كان من أشهرها سوق لوح Lugh للرقيق ، كما كانت تأتى شحنات من الرقيق من قلب الهضبة الحبشية ، وتتجه هذه الشحنات عبر البحـر الأحمر شرقا الى شبه جزيرة العرب أو غربا الى وادى النيل ، وقد تتجـه شحنات أخرى الى جيبوتى . وكان العرب يتعاملون مع الأحباش فى شراء الرقيق ثم يجرى تصريفه بمعرفتهم واشتهرت شبه جزيرة العرب بالرقيق الأسود الذى يعمل فى خدمة المنازل وبالحسناوات الحبشيات اللاتى اتخذهن العرب كمحظيات . وكانت السفن العربية تأتى من شبه الجزيرة العربيـة حاملة التمور أو أسماك القرش حيث تقوم ببيعها ثم تشترى بها رقيقـا أو سلاحا من سواحل البحر الأحمر الغربى وخاصة جيبوتى ثم تعود السفن ادراجها ، ويقدر بانكهرست أن نحو ٢٥ الف من الرقيق كان يصدر سنويا من الهضبة الحبشية وحدها حتى عام ١٨٥٦(٤٣) . وكان استخدام بعض السفن للاعلام الأجنبية يتم بناء على اتفاق بين السلطات الأجنبية والعربية تبادلا للمصالح .

وانقسمت تجارة الرقيق الى قسمين قسم محلى ويشمل الاتجار فى الرقيق بين أصحاب القوافل العربية أو السواحلية وبين سكان المـــدن الساحلية وأصحاب المزارع العرب ، كما يشمل تبادل الرقيق الذى تجمعه القوافل مع قبائل افريقية أخرى فى حاجة اليه مثل قبائل الكامبا أو الكيكويو لزراعة أراضيها ، وقسم خارجى وهو يشمل الرقيق الذى يصدر الى الخارج والذى كان يشحن الى مسقط وجزر المحيط الهندى وفارس وأصـــفهان وبغداد والبصرة والبحرين والهند بالاضافة الى أسواق أخرى . وقد ورد فى المراجع ذكر نوع آخر من تجارة الرقيق مورس فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهو مبادلة رقيق شرق أفريقيا بالهندوس فى الهند(٤٤) ، ولا يتوفر لدينا تفاصيل عن هذه المبادلة أو دوافعها ، غير أنه من المعروف أن العرب كانوا يستخدمون الهنود فى أعمال الزراعة والرعى فى شرق أفريقيا قبل السيطرة الأوربية .

---

(43) UNESCO (ed). The African Slave Trade, op. cit., p. 198.

(44) Ibid. P. 191.

وكان العرب والسواحيليون لا يحصلون على الرقيق دائما من خلال شن الغارات على الافريقيين وصيد الأسرى لأن عدد العرب كان تلبلا فى الداخل ، كما كان حجم القوافل لا يكفى للاغارة على القبائل القوية ، ومن ثم فان الاغارة من أجل صيد الرقيق كانت لا تتم الا على القبائل الضعيفة ، كما كانت حالات الاغارة نادرة من جانب العرب لأنهم كانوا يفضلون استخدام ما لديهم من سلاح فى صيد الفيلة لارتفاع أسعار العاج مقارنة بأسعار الرقيق ، هذا فضلا عن تهافت الافريقيين على السلاح واستعدادهم لدفع أثمان باهظة للحصول عليه . ومن ثم فانهم كانوا يقومون بصيد اخوانهم من الافريقيين من افراد القبائل الأخرى وبيعهم للعرب .

ووصلت قوافل جميع الرقيق غربا الى البحيرات الاستوائية وبحيرتى نياسا وتنجانيقا وحوض الكنغو ، ووصل العرب الى مملكة البوجندة منذ أوائل القرن التاسع عشر . واقاموا بينهم ، وارسل سلطان زنجبار ممثلا له فى المملكة فى عام ١٨٦٩ ، ولم يكن الباجندة يعرفون اقتناء الرقيق ، ولكنهم حصلوا عليه بصيده من القبائل المجاورة وامدوه العرب به(٤٥) ، ولم تكن أراضى البوجندة او البنيور أو كراجوى مجالا لصيد الرقيق لقوة ملوكها ، وانما مورست عمليات الصيد خارجها(٤٦) .

وتشير الأرقام المتوفرة عن حجم الرقيق الذى يصل الى الساحل للتصدير رغم عدم دقتها وعدم امكانية الوثوق بها الى أن عمليات جمع الرقيق من الداخل على يد العرب قد زادت تدريجيا مع تقدم القرن التاسع عشر ، وذلك رغم محاولات التقييد والمنع لهذه التجارة ، ففى الفترة ما بين ١٧٠٠ و١٨٢٥ تقدر احدى المصادر متوسط ما يصل من رقيق الى زنجبار من الداخل سنويا بنحو ٣٠٠٠ — ٣٥٠٠ ، كما تشير الى أن هذا قد زاد الى نحو ٦٥٠٠ فى عام ١٨٣٤ والى نحو ١٣ الف سنويا فى الاربعينيات والى نحو ١٧ — ٢٢ ألف سنويا منذ الستينات من القرن التاسع عشر(٤٧) . وتتواكب هذه الزيادة مع

---

(45) Ogot and Kieran (eds) Zamani, op. cit., pp. 229-230.

(46) H. B. Thomas, Arabic Correspondence Captured in South-West Bunyire in 1895, With a Note on Arab Tradlds in Bunyoro, Uganda Journal, March, 1949, p. 32.

(47) Zwanenberg and Anne King, op. cit., pp. 178-179.

زيادة النهضة الزراعية فى مدن الساحل واشتداد الطلب الخارجى عليه . وكانت كلوة تستقبل رقيقها من بحيرة نياسا أو من جنوب تنزانيا ، وكانت أكبر سوق مصدر للرقيق بعد زنجبار ، وقد وصل حجم ما كان يصل اليها من رقيق من الداخل الى نحو عشر آلاف سنويا حسب تقدير كراب Krapf فى الخمسينات من القرن التاسع عشر(٤٨) وارتفع هذا الرقم الى ما يتراوح بين ١٨ — ٢٢ ألف سنويا منذ الستينات من القرن المذكور(٤٩) وكان حكامها العرب يتعاملون مع تجار الرقيق الفرنسيين الذين كانوا يشترون الرقيق ويحملونه على سفنهم الخاصة الى جزر ريونيون والكومور ، وتفيد سجلات جمارك كلوة أن جزءا كبيرا من رقيقها المصدر كان يصرف عن طريق زنجبار(٥٠) . غير أن تجارة كلوة فى الرقيق قد انخفضت بعد عام ١٩٧٦ بعد صدور مراسيم تحديد الاتجار فى الرقيق ، ورفض الهنود تمويل قوافل تجارة الرقيق العربية ، واستعاضت كلوة عن نقص عوائد هذه التجارة من خلال التركيز على زراعة المحاصيل الغذائية والنقدية(٥١) .

ونتيجة زيادة وفود الرقيق من الداخل كانت مدينة زنجبار تحوى نحو ١٥٠ ألف نسمة فى الستينات من القرن التاسع عشر كان من بينهم أكثر من ستين ألف من الرقيق(٥٢) ، كما زاد تعداد سكان المدينة الى نحو ٣٠٠ ألف نسمة فى الثمانينات ، وكان من بينهم ٢٠٠ ألف من الرقيق(٥٣) كما كان بمدينة مالندى عشر آلاف من الرقيق يمتلكهم العرب والسواحيليون ويعملون فى مزارع الحبوب .

واختلفت أسعار الرأس من الرقيق حسب السن والنوع ودرجة الوسامة والجمال ، كما تباين السعر من منطقة الى أخرى وفقا لبعدها أو قربها من الساحل . وتعوزنا الدقة فى تقديرات الأسعار اذ يذكر مورسنى

---

(48) Edward, A., Alpers, Ivory and the Slave Trade in East central Africa, London, 1975. p. 237.

(49) Burton, R, Zanzibar Island and Coast, London(1872, vol. 2. p. 347.

(50) Edward, A., Alpers, op. cit., p. 238.

(51) F. O. 84/1574. Kirk th Salisbury March 6, 1880.

(52) Iliffe, John, op. cit., p. 42.

(53) UNESCO (ed). The African Slave Trade, op. cit., p. 173

أن سعر الرأس من الرقيق كان يصل فى عام ١٨٠٢ الى ٤٠ دولار ماريا تريزا، هذا فى الوقت الذى تذكر فيه مصادر أخرى أن هذا السعر قد وصل فقط الى ١١ دولارا فى عام ١٨٠٤ ، ولا يعتقد أن السعر قد هبط الى هذا الحد فى ظرف عامين . وتشير بعض الكتابات الى أن الضريبة التى كانت تحصل على الرأس من الرقيق كانت تصل الى ثمانية دولارات فى أوائل القرن المذكور ، غير أنه ابتداء من الثلاثينات بدأت الضريبة على الرقيق المصدر تنخفض فأصبحت تتراوح بين أربعة دولارات ونصف دولار حسب منطقة التصدير وحجم المخاطرة واحتمالات مصادرته من جانب سفن التفتيش البريطانية . وكان تجار الرقيق يفضلون الى شراء الرقيق من النساء أو الأطفال دون الذكور البالغين وكان يمكن أن تباع المراة الممتلئة الجميلة بأكثر من ٣٥ دولار . وكان الصبية يتراوح سعرهم بين ٧ — ١٥ دولار حسب امكانية الاستفادة منهم(٥٤) . وكان يتم تبادل الرقيق بالأقمشة ، ويقال ان ثمن الرأس الواحد من الرقيق كان يعادل ثمن ثلاث قطع من القماش لدى الباو ، وتذكر روايات أخرى أن ثمن الرأس الواحد من ذكور الرقيق البالغين لدى قبائل أخرى كان يعادل ثمن بندقية واحدة وخمس قطع من القماش ، بينما كانت الأنثى تباع ببندقيتين وعشرة قطع من القماش(٥٥) . ويبدو أن أسعار الرقيق كانت منخفضة للغاية فى الداخل حتى أن آكلى لحوم البشر كان يجدون اللحوم الآدمية أرخص له مكثيرا من شراء الماعز أو الماشية(٥٦). ورغم اختلاف أسعار الرقيق فانه يلاحظ أن هذه الأسعار قد انخفضت مع زيادة امدادات الرقيق من الداخل وبعد أن أصبح العاج الأسود وسيلة لجمع أو صيد العاج الأبيض ، كما أدت عمليات حظر تجارة الرقيق الى مزيد من خفض الأسعار لحرص تجار الرقيق على التخلص من الرقيق الذى يجلبونه قبل مصادرته .

وكان الرقيق سلعة تباع مقابل الحصول على الغذاء فى الداخل كما كان لدى النسنجا Nsenga أو النييكا Nyika أو مقابل الحصول على

---

(54) Nicholas, C. S. op. cit., pp. 203-204.

(55) Edward, A, Alpers, op. cit., p. 242, & Burton, R, ZanZibar. op. cit., vol. 2. p. 419.

(56) Edward, A, Alpers, Ibid pp. 240-243.

البضائع الأجنبية كما كان لدى الياو Yao ، كما كان العرب يحصلون عليه من بعض الزعماء بطريق الهدايا أو مقابل الاعتذار عن أضرار اصابت قوافلهم من جراء الحروب الأهلية الداخلية أو الهجمات القبلية عليهم(٥٧) كما كانت تفعل قبائل الشيوا (Chewa) .

وكان الرقيق يعتبر سلعة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد ، لأن جزءا كبيرا من الرقيق الذى يتم جمعه بطريق الشراء أو الصيد كان يقع فريسة المرض كالدوسنتاريا أو الجدرى أو الحمى — كما كان عناء الرحلة وسوء الغذاء وقسوة المناخ يزيد من عامل الفقد ، هذا فضلا عما كان يحدث أحيانا من هروب بعض الرقيق من القوافل التجارية ، ومن ثم كان سعر الرقيق فى الداخل منخفضا للغاية ، وكان يجرى الشراء بطريق المقايضة غالبا ، وكلما تقدمت القوافل نحو الساحل ارتفع سعر الرقيق ، ففى أوجيجى على سبيل المثال كان يباع الرأس الواحد من الرقيق بما يعادل سبعة دولارات وفى زنجبار يرتفع سعره الى عدة أضعاف(٥٨) . ومع شحن الرقيق الى خارج شرق افريقيا كان تهلك نسبة منه ، ورغم سلبيات هذه التجارة فن ربحينها كانت عالية بسبب ارتباط كثير من الهياكل الاقتصادية فى شرق أفريقيا وخارجها بنظام الرق .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان الرقيق يشحن علانية من الموانىء الكبيرة على ساحل شرق أفريقيا ، غير انه بعد أن شددت حملات مصادرات الرقيق وحظر الاتجار فيه لجأت التجارة الى الموانىء الصغيرة ومصبات الأنهار غير المعروفة مثل ميناء الانجوتشى Angoche التى كان لسكانها العرب أقارب فى جزر الكومور ومدغشقر وزنجبار . ولم يتوغل عرب الانجوتشى فى الداخل بحثا عن الرقيق أو العاج لأن قبائل الياو والماكوا Makwa كانت تجلب اليهم الرقيق من الداخل ، ومع ذلك استطاعوا نشر نفوذهم الى أعماق قليلة فى الداخل ونشر الاسلام(٥٩) ، وكان الرقيق المصدر من الانجوتشى ينقل الى الموانىء المجاورة لموزمبيق مثل سانكولو وجويتا نجونها Quitangonha حيث كان يصدر الى موانىء

---

(57) Isaacman Collection, October 1968, p. 39.
(58) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., p. 189.
(59) M. D. P. Newitt., op. cit., p- 66.

البرازيل . وحين زار فردريك التون Elton قنصل بريطانيا فى موزبيق انجوتشى فى عام ١٨٧٥ اكتشف ممارسة سلاطينها لتجارة الرقيق ، وأنهم كانوا يتقاضون روبية واحدة على كل راس من الرقيق يصدر(٦٠) . كما كان الرقيق من انجوتشى يشحن الى جزر سيشل والمساكارين والكومور ومدغشقر(٦١) . واحدثت هذه التجارة للسلطة ازدهارا اقتصاديا كبيرا تحدث عنه القنصل البريطانى أونير Oneil فى عام ١٨٨١(٦٢) .

ونتيجة نشاط التجارة فى الرقيق فى زنجبار تشير الأرقام الرسمية الى أن حصيلة الضرائب ، التى فرضت على الرقيق المصدر منها الى زيادة هذه الحصيلة من عشرة آلاف جنيه استرلينى فى عام ١٨٢٨ ، الى نحو ضعف هذا الرقم فى عام ١٨٣٤ ثم الى نحو ٥٠ الف جنيه فى عام ١٨٥٩(٦٣)، ووصل حجم هذه الضرائب الى نحو مائة الف جنيه فى الثمانينات . وفى كلوة يذكر القنصل البريطانى كيرك Kirk أن الدخل من الضرائب على تصدير الرقيق قد وصل الى نحو ٢٠ الف جنيه استرلينى فى عام ١٨٧١ ، وهو رقم يعادل ضعف قيمة المتحصل على الضرائب من هذه التجارة فى عام ١٨٤٥(٦٤) . وفى عام ١٨٧٦ كان اجمالى مبيعات الرقيق تصل الى ١٢٠ الف جنيه سنويا رغم صدور قرارات حظر الاتجار فى الرقيق ، غير أن تشديد هذا الحظر جعل حجم هذه التجارة يتقلص تدريجيا(٦٥) .

ولم تفلح عمليات حظر الاتجار فى الرقيق فى منع تهريب الرقيق حتى الى المستعمرات البريطانية نفسها ، فقد أشارت اللجنة الملكية البريطانية

---

(60) C. 1588. (1875) vol. LXX pp. Elton to Earl Derby, Mozambique, Sept 13, 1875.

(61) Edward, A, Aipers, op. cit., p. 218.

(62) C. 3160 (1882) vol. LXXV, O Neil to Granvilie, Mozambique, July 19, 1881.

(63) Oliver, R & Gervase, M, Op. cit., vol. I. pp. 218-219.

(64) Great Britain, Report of the East African Trade Committee by Sir Bartle Frere, 1871. p. XII.

(65) Coupland, R, Exploitation of East Africa, pp. 225-231.

فى تحقيقاتها فى عام ١٨٢٦ — ١٨٢٨ الى ان الرقيق ظل يصدر اليها على الأقل حتى عام ١٨٢٤ أو عام ١٨٢٥ ، كما اثبتت دراسة أجريت فى الارشيف المحلى لجزر ريونيون الفرنسية أن شحنات كبيرة من الرقيق وصلت اليها من شرق أفريقيا قدرت بنحو ٤٥ ألف راس فيما بين عامى ١٨١٧ و١٨٣١ (٦٦). ولا شك أن استمرار التجارة كان مبعثه أرباح الرقيق العالية مما دفع المسئولين الاستعماريين الى التورط فى هذه التجارة مع التجار العرب والهنود . ولا يتوفر لدينا أرقام عن حجم صادرات الرقيق بعد هذا التاريخ بسبب سرية هذه التجارة — غير أنه من المؤكد انها استمرت غالبا تحت ستار تصدير العمالة الحرة للمشروعات الزراعية فى جزر المحيط الهندى لأن رابطة العمل الحر فى جزر موريشيس قد تأسست فى عام ١٨٤٢ من أجل توفير العمالة من الخارج ، كما عقدت السلطات الفرنسية فى ريونيون اتفاقية فى عام ١٨٤٣ مع سلطان زنجبار لمدها بالعمالة ، واشتد التنافس بين الانجليز والفرنسيين للحصول على الرقيق .

وتمثل مدغشقر نموذجا فريدا لتصدير الرقيق واستيراده فى وقت واحد ، اذ كانت مدغشقر تصدر الرقيق حتى عام ١٨٢٠ أى قبل حظر تصدير الرقيق الى الدول المسيحية . وكان للتجار الرقيق العرب(٦٧) مركز دائم على الساحل الشرقى للجزيرة ، وكان ملك مدغشقر يفرض ضريبة على كل رأس من الرقيق المصدر تصل الى دولارين ونصف دولار أسبانى . وكانت بمدغشقر جالية هندية تمول عمليات صيد الرقيق من الداخل ، وكان متوسط ما يصدر من الجزيرة من الرقيق سنويا يتراوح بين ستة آلاف وعشر آلاف رأس سنويا(٦٨) ، وكان رقيق مدغشقر يصدر الى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى والامريكتين والهند .

وبدأت مدغشقر تستورد الرقيق رسميا من الخارج بعد عام ١٨٢٠ لمشروعاتها الزراعية التى تركزت فى وسط الجزيرة لأن التجار العرب بالتواطؤ مع الهنود وبعض أفراد البيت الحاكم بداوا يصدرون الرقيق من

---

(66) UNESCO (ed) African Slave Trade. op. cit., p. 196.
(67) Gwyn Campell. op. cit., p. 205.
(68) Ibid p. 206.

أجزائها الجنوبية والغربية والشرقية ، وعملوا على تهريبه خارج الجزيرة حرصا منهم على الحصول على أرباحه الكبيرة — الأمر الذى ادى الى نقص العمالة اللازمة لمزارع الجزيرة ، ولم يستطع حكام مدغشقر الافريقيون السيطرة على عمليات التهريب ، واستمر استيراد الرقيق رغم أن السلطات البريطانية قد ضبطت فى عام ١٨٣٥ احدى وعشرين سفينة محملة بالرقيق فى موانىء مدغشقر كانت تستعد لتصديرها الى الخارج . وكان الرقيق المستورد فى مدغشقر يأتى أساسا من موزمبيق وزنجبار — وخاصة عبر موانىء ايبو ولوزا Loza وانجكوسا Angosa .

ولعب العرب فى مدغشقر دور المستورد والمصدر للرقيق حيث كانوا يشحنون الرقيق من مدغشقر الى الخارج ، ثم تعود سفنهم بعد بيع شحناتها الى موانىء مدغشقر حاملة الأقمشة أو البضائع الاسيوية الأخرى ، ثم تبحر فى المحيط الهندى حيث تقف فى مقابل الساحل الموزمبيقى وتحمل بالرقيق وتعود به الى شمال غرب مدغشقر لتبيعه لأصحاب المزارع ، وكانت سفن الرقيق القادمة من الساحل الموزمبيقى ترسو فى ميناء ساكالافا أو الموانىء الأخرى الصغرى غير المرتادة على سواحل مدغشقر(٦٩) . وادى هذا الدور المزدوج لتجار الرقيق العرب فى مدغشقر الى اهتمام السلطات البريطانية بدراسة طبيعة هذه التجارة فى هذا الجزء من المحيط الهندى .

وكان نجاح التجار العرب فى مدغشقر والذين أطلق عليهم لفظ « الأنتالا أوترا » (Antala Otra) فى تصدير الرقيق واستيراده يرجع الى أنهم استخدموا القوارب العربية Dhows محل سفن الرقيق العربية القديمة المربعة الشكل وظلت السلطات البريطانية لفترة كبيرة تعتقد ان هذه القوارب لا تحمل الرقيق ، كما أن كثيرا من السفن الخاصة بالرقيق كانت ترفع الاعلام الفرنسية حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، ومنذ الأربعينات استخدمت هذه السفن الاعلام الامريكية وظل استخدامهم لهذه الأعلام الى ما بعد الستينات — وعلاوة على هذا كانت الخبرة العربية بالرياح وتيارات المر الموزمبيقى البحرية اثر كبير فى قدرتهم على الافلات من التفتش

(69) F. O. 84/515 Erd/1144, Pakenham to Granville, March 18 & June 10, 1873.

البريطانى . وكان حجم الارباح المتزايدة من تجارة الرقيق والتى كانت تفوق المائة فى المائة دافعا للعرب للتخصص فى تجارة الرقيق الساحلية فى الممر الموزمبيقى وللقيام بالرحلة عدة مرات فى نفس الفصل(٧٠) . وكان الحجم الكبير لارباح تجارة الرقيق قد دفع أفراد البيت الحاكم فى مدغشقر الى التورط فيها ، بالاضافة الى الهنود الذين عملوا على اقراض الأموال للتجار العرب لمواصلة الاتجار فى الرقيق .

وقد نشطت تجارة الرقيق عبر الممر الموزمبيقى فى السبعينات من القرن التاسع عشر نتيجة ظروف الكساد الاقتصادى العالمى وأمراض النبات، وتدهور أسعار المواد الخام فى الأسواق العالمية ، وحدوث هزة كبيرة فى مزارع الكيرول الخاصة بزراعة قصب السكر ، وضرورة الحصول على العمالة الرخيصة ، ومن ثم فتحت موانىء الجنوب الشرقى سرا فى مدغشقر أمام واردات الرقيق من الخارج ، وظلت ظاهرة استيراد الرقيق فى مدغشقر حتى عام ١٨٩٥ اى الى وقت احتلال الفرنسيين لهذه الجزيرة(٧١) .

ولنا عدة ملاحظات حول تجارة الرقيق العربية فى القرن التاسع عشر :

١ – أن القلة من العرب هى التى خرجت فى صحبة قوافل التجارة المتجهة الى الداخل ، وان هذه القلة كانت تمثل غالبا الشريحة الدنيا من العرب فى ساحل شرق أفريقيا ، وأن العرب لم يزد عددهم على عدة مئات بالداخل بالاضافة الى ألف أو الفين من السواحليين ورغم تسلح القوافل العربية بالأسلحة النارية فان قوة العرب فى الداخل لم تصبح قوة مؤثرة حتى بعد استقرارهم وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية والمستوطنات به ، ومن ثم كانت جهودهم فى صيد الرقيق محدودة للغاية ، وكان الافريقيون هم الذين يقومون بعبء جمع الرقيق للعرب ويقايضونهم عليه ، ومن ثم مان ما ارتبط من فظائع حول صيد الرقيق فى الداخل كان مبالغا فيه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان دور العرب فيه ضئيلا لأن جمع الرقيق وصيده وأسره والاغارة على القرى كان مقترنا بنشاط القبائل الافريقية القوية واعتدائها على المناطق المجاورة غالبا .

---

(70) C. 2720. pp. Slave Trade correspondence, 1880, Morrier to Braam Camp, August 19, 1879.

(71) Gwyn Campell, op. cit., pp. 223-227.

٢ — ان استقرار العرب بالداخل لم يكن ناجما عن السيطرة وفرض القوة على الافريقيين فى الداخل الا نادرا ، ولكنه ارتبط باستمرار علاقات الود والتعاون بين العرب والافريقيين التى ربط عامل الرغبة فى الربح وتبادل المصالح بينهم ، وقد أدت هذه المصالح المشتركة الى تخصيص بعض الزعماء الافريقيين أجنحة خاصة فى مناطقهم للتجار العرب والى تقديم المساعدات والغذاء لهم ، كما أن بناء بعض الممالك العربية فى الداخل مثل مملكة تبيو تيب وتدخل العرب أحيانا فى الخلافات بين الافريقيين ارتبط عادة بضعف القبائل الافريقية التى سيطروا عليها ، وصغر وحداتهم السياسية وبعدها كثيرا نحو الداخل . وأحرز العرب والسواحيليون فى هذه المناطق نجاحا كبيرا مثل مولوزى Molozi وجومبى Jumbe — وبهما دماء عربية — اللذين أصبحا من أكبر تجار الرقيق فى نياسا(٧٢) .

٣ — ان العرب كانوا يحرصون قدر الامكان على عدم استخدام الاسلحة النارية فى صيد الرقيق رغبة منهم فى توفيره لصيد العاج(٧٣) وفى الدفاع عن أنفسهم لأن سعر العاج أو السلاح كان أعلى قيمة من الرقيق ، كما كان الرقيق تجارة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد فيهـا اذا ما قورنت بالتجارتين المذكورتين (العاج والسلاح) .

٤ — أن جمع الرقيق من الداخل لم يحركه عامل توفير تكاليف نقـل العاج الى الساحل ، لأن العاج كان يتطلب نقله خبرة كبيرة لا تتوفر للرقيق، ولأن القوافل العربية تأتى من الساحل ومعها حمالوها المحترفون الذين يحملون مواد التجارة الأوروبية والاسيوية الى الداخل ، ولأن معظم الرقيق الذى كان يشتريه العرب من الداخل كان يتألف من الصبية والنسوة لأن حجم الطلب الخارجى عليهم كان كبيرا وكان سعرهم مرتفعا ، ولم يكن الطلب على البالغين من الذكور من الرقيق عاليا الا فى المشروعات الزراعية فى

---

(72) Wills, A. J., op. cit., p. 77.

(٧٣) للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول تجارتى الرقيق والعـاج العربيتين ، انظر :

Norman Bennet, the Arab Power in Tanganyika in the 19th Century, PH. D. Thesis, Boston, University, 1961.

الساحل الشرقى الافريقى أو بعض الجزر فى المحيط الهندى ، وكان نطاق هذه المزارع محدودا ، ولا تبرر الحاجة الى العمالة جمع الاعداد الكبيرة من الرقيق من الداخل .

٥ — أن ارتباط تجارة الرقيق بتجارة العاج كان من خلال الحصول على الرقيق لشراء الأراضى فى الساحل وتحويلها الى مزارع للمحاصيل النقدية كالقرنفل وجوز الهند ، ثم تدبير المال اللازم من التجارة فى هذه المحاصيل لجمع العاج والاتجار فيه .

٦ — ان تجارة الرقيق العربية الخارجية تواطأ فيها الهنود والاوربيون والأمريكيون والأفارقةكما حدث فى مدغشقر مع العرب ، وعلى عكس تجارة قوافل الرقيق الداخلية التى اقتصر فيها التواطؤ على الهنود من خلال دورهم كممولين وعلى الأفارقة من خلال دورهم كجامعين وصيادين للرقيق . ولم يحدث أن ولج الهنود الى الداخل الا فى حالات نادرة كما هو الحال حين دخلت قلة من الهنود وعلى رأسهم موسى مزروعى الى تابورا من اجل التجارة .

٧ — ان أرقام الرقيق وأرباح التجارة ذات سمة تقديرية لا تنهض على أسس موضوعية ، ومن ثم فان استخدامها من جانب المؤرخ جائز مع الحذر لاعطائه مؤشرات او خطوط عامة للدراسة ، ويرجع السبب فى عدم وجود ارقام حقيقية حول هذه التجارة الى سرية هذه التجارة رغم مشروعيتها والى عدم امانة الهنود القائمين على ادارة الجمارك ، والى تورط أطراف كثيرة فيها كان يهمها اخفاء حجم نشاطها الحقيقى .

٨ — ان بعض المناطق الافريقية خلت من صيد الرقيق لقوة ملوكها كالبنيورو أو البوجندة أو لقوة شكيمة قبائلها كالاكامبا أو الماساى .

العرب وتجارة العاج فى القرن التاسع عشر :

كانت تجارة العاج فى شرق افريقيا تجارة رائجة قديمة قدمها الرحالة الأوائل فى الأهمية على تجارة الرقيق ، ومنذ فترات التاريخ القديمة كان العرب يسيطرون على تجارة العاج التى كانت ترد من ارض الزنج ، وهو المصطلح الجغرافى الذى أطلقوه على شرق أفريقيا ، وكان عاج شرق

أفريقيا يفضل العاج الهندى لنعومته وشدة بياضه وانخفاض سعره ، ومن ثم كان يلقى رواجا شديدا فى أسواق جنوب شرق آسيا . ومنذ العصر الوسيط كانت عمان خاصة تتولى شحنه من شرق أفريقيا وتصديره الى هذه الأسواق حسبما جاء فى روايات الرحالة العربى المسعودى فى أوائل القرن العاشر لميلادى(٧٤) . وظل العرب يسيطرون على هذه التجارة بسبب ما كان لهم من امارات اسلامية على سواحل شرق أفريقيا حتى السيطرة البرتغالية فى أوائل القرن السادس عشر على هذه المنطقة ، وانتقلت تجارة العاج الى أيدى البرتغاليين ، غير انها لم تستمر طويلا حكرا عليهم بعد ما تمكن العرب من استعادة نفوذهم فى الساحل الشرقى الافريقى وانحسر الوجود البرتغالى فى سواحل موزمبيق . وفى بداية القرن التاسع عشر كان العاج المصدر من جانب عرب شرق أفريقيا يلقى رواجا عن عاج موزمبيق لأن البرتغاليين حرصوا على رفع نسبة الرسوم الجمركية على صادراته . وانتقل مركز تجارة العاج الى شمال شرق أفريقيا ، وزاد من حجم صادرات العاج منها تهافت الأوروبيين والأمريكيين بجانب الاسيويين عليه ، بعد أن دخل العاج فى صناعات كثيرة كالتحف والتماثيل والآلات الموسيقية والحلى ، وظهرت مراكز أوروبية كثيرة تتخصص فى صناعة العاج فى ألمانيا وهولندا وبريطانيا ، وكان ازدياد تدفق رأس المال الناجم عن النمو الزراعى فى ساحل شرق افريقيا ، وعن وفود أعداد كبيرة من الهنود والعرب الى المنطقة ، ووصول المزيد من السفن الأوروبية والاسيوية التى تحمل البضائع من الخارج من عوامل ارتفاع حجم الطلب على العاج فى شرق أفريقيا .

وكما ارتبطت تجارة العاج بتجارة الرقيق ارتبطت أيضا باقتناء السلاح واستخدامه فى صيد الفيلة ، ولم يكن العرب دائما صيادين للفيلة . وانما اضطروا أحيانا الى شرائه من الأفارقة لعدم سماح الزعماء لهم بالصيد فى مناطق اعتبروها مجالا لنفوذهم ، ولعدم قدرة العرب على مواجهتهم ، كما حدث فى مملكة البوجندة التى كان ملوكها لا يسمحون للعرب بالتوغل غربا وكانوا يجمعون العاج لهم من المناطق المجاورة ويحققون أرباح كبيرة من جراء بيعه لهم ، ورغم أن العرب وصلوا الى البوجندة منذ وقت طويل الى مملكة البوجندة كان أول تاجر عربى من زنجبار دخل الى البنيورو فى عام

---

(74) Beachey, R. W, Ivory Trade. op. cit., p. 269.

١٨٧٧ (٧٥) بسبب سياسة الباجندة فى منع العرب من الاتصال بمصادر العاج مباشرة ، وحرصا على وصول كميات العاج المطلوبة الى الساحل . ووثق سلاطين زنجبار علاقاتهم بملوك البوجندة وأمدوهم بالأسلحة النارية أحيانا(٧٦) وعمل بعض التجار العرب كمستشارين لهم أحيانا . ولم يكن عاج البوجندة ، والمناطق التى تليها غربا يأتى الى الساحل عن الطريق الشرقى الذى سمى باسم طريق المآساى لوعورته وخطورته ، وانما كان العاج يأتى عبر الطريق الجنوبى عن طريق الشاطىء الجنوبى لبحيرة فيكتوريا وارتياد الطريق الذى عبر شمال تنزانيا الى الساحل .

ولم يكن ضروريا للحصول على العاج التوغل الى الداخل اذ ان تجار الأكامبا Akamba الافريقيين كانوا يحضرون العاج الذى يجمعونه من الداخل ويبيعونه لعرب ومباسا ، كما كان الانياموبزى فى تنزانيا تجار عاج ورقيق قبل أن يشتد توغل العرب فى الداخل ، وكان التوغل العربى من اجل العاج مبعثه الرغبة فى الحصول على العاج بكميات أكبر وأسعار أقل خاصة بعد أن أدركت القبائل الافريقية فى الظهير الداخلى القريب من الساحل قيمة العاج وأصبحت تطلب أسعارا أعلى ثمنا له .

وفى الربع الثانى من القرن التاسع عشر وصل العرب والسواحيليون الى منطقة بوكيربى Bukerbe وعبروا بحيرة تنجانيقا غربا من أجل العاج ، وحتى أواخر الخمسينات من القرن المذكور كان معظم العاج يأتى من داخل تنزانيا ، ويبدو أن حجم التجارة فى العاج كان ضخما لأن صيد الفيلة فى وسط وشمال تنزانيا كان يستدعى تشغيل عدد يتراوح من ٣٠ — ٤٠ الف حمال من الانياموبزى فى فصل واحد لنقل العاج الى الساحل . وكان العاج الذى يجمعه الزعماء الافريقيون بطريق الصيد أو الهدايا يباع للعرب . وخبر العرب مواسم تكاثر الفيلة فى الداخل ، كما أدركوا العلاقة بين نصاعة العاج وشدة بياضه وخفة وزنه وبين جفاف المناطق التى يتم الصيد منها ، ومن ثم حرصوا على الصيد من مناطق الاحراش والمراعى ، ولم يلجأوا الى مناطق الغابات

---

(75) M B. Thomas, op. cit., p. 37.

(76) Gerald. W. Hartwig, The Victoria Nyanza as A Trade Route in the 19th Century, J. A. H., XI, 4, 1970. p. 536 & Gray, John, kirk & Mutesa, Uganda, Journal XV, 1951, pp. 1-16..

الكثيفة والمطيرة الا بعد أن قلت الفيلة فى المناطق الجافة ، لأنه ثبت لديهم أن غزارة المطر تؤدى الى خشونة العاج وثقله وتؤثر على درجة بياضه ، ولذا كان عاج مناطق البحيرات والأنهار أقل ثمنا وأشبه بالعاج الهندى .

ومنذ الستينات اتجهت قوافل صيد الفيلة تجاه الشمال الغربى بعد أن اشتدت الحاجة الى العاج وكادت تتطلب موارده فى تنزانيا ، ومن ثم بدأت هذه الفترة تشهد عمليات جمع العاج من الاتشولى Achole والانكولى والتورو Toro . وكانت هذه المناطق الأخيرة قد وصل اليها تجار العاج من الشمال من العرب الاوروبيين عبر المديرية الاستوائية اثناء فترة حكم الخديوى اسماعيل لها ، وتتحدث التقارير عن تنظيمات من قبل حاكم عام المديرية الاستوائية لتنظيم عمليات صيد الفيلة فى هذه المناطق ، وجمع العاج(٧٧) . وكانت تجارة العاج فى هذه المناطق يحتكرها ملوكها فكان لهم حق الحصول على ناب واحد من كل نابين من العاج يتم جمعهما ، كما كان لهم حق شراء الناب الآخر ، ومن ثم كان التعامل على شراء العاج يتم بين العرب وهؤلاء الملوك . وفى كراجوى كان يتم مبادلة العاج بالماشية ، ومن ثم استدعى الحصول على العاج منهم شراء العرب للماشية من قبائل أخرى وتبادلها معهم نظير العاج(٧٨) .

وحاول العرب تنسيق مصالحهم مع الافريقيين من اجل تسهيل مهامهم التجارية ، ففى الخمسينات وافق رئيس الانياموزى افوندكيرا (Ifundakira) على عدم تحصيل رسوم مرور على العاج الذى يحملونه عبر أراضيه مقابل موافقتهم على عدم المتاجرة مع المشنجات الافريقية المعادية لقبيلته ، ومن أجل العاج أسس بعض العرب بعض المراكز الدائمة لهم فى تابورا أو أوجيجى ، وكدسوا فيها السلاح والغذاء لمساعدة قوافل التجارة العربية المتجهة الى الداخل غربا . وأعلن بعض رؤساء هذه المراكز العربية ولاءهم لسلطان زنجبار على نحو ما فعل الزعيم العربى موينى خيرى Mwini Kheri رئيس مركز أوجيجى التجارى العربى ، ورفع علم

---

(77) Iliffe, John, op. cit. p. 49 & Beachey, Ivory Trade. op. cit. pp. 280-281.

(78) M. B. Thomas, op. cit., pp. 38-39.

السلطنة على اراضيه فى أوائل الثمانيات من القرن التاسع عشر(٧٩) . وتركزت مراكز تجارة العاج فى الداخل فى تابورا وحول شواطىء بحيرة تنجانيقا والى الغرب منها فى اوجيجى وكاسينجى ونيانجوى وكيتانجولى وكافرو kafuro ، كما كانت هناك مراكز لهذه التجارة فى غندكرو فى أعالى النيل ، وكان تجار مدينة الخرطوم يقرضون الأموال للمغامرين من التجار العرب بفوائد مائة فى المائة ، كما وصلت فى عهد محمد على حملات لصيد الفيلة من المصريين الى البنيور وأعالى النيل ، ويذكر بعض المؤرخين أن هذه الحملات أدعت أنها حملات استكشافية تؤيدها الحكومة المصرية لكشف منابع النيل .

وكان عاج البنيورو يصرف عبر غندكرو ، لأن البنيورو لم يكن لها منفذ الى الخارج الا عن طريق البوجندة ، وكانت على علاقات عدائية معها ، وكان لدى البنيورو مخزون كبير من العاج لأن الجزية كانت تدفع لها عاجا من جانب التورو . واستغل حكام المديرية الاستوائية هذا الوضع لصالحهم ، وقد ذكر أن بيكر حاكم عام المديرية الاستوائية قد حصل على أرباح تعادل ٢٠٠ ٪ من تجارة العاج مع البنيورو(٨٠). واستمر هذا الوضع الى عام ١٨٧٧ حتى وصول التجار العرب من الجنوب . وعوق من تجارة العاج بين البنيورو وأعالى النيل الثورة المهدية التى اندلعت فى السودان . واتخذ التجار العرب لهم مقرا دائما فى بلاط كابريجا Kabrega ملك البنيورو . غير أن تجارة العاج فى البنيوريو لم تزدهر طويلا بسبب حروب كابريجا مع البوجندة ، وظلت امكانات تجارة العاج كبيرة فى هذه المملكة دون أن تستغل حتى بداية العهد الاستعمارى .

وكان سلطان زنجبار يحتكر جزءا كبيرا من تجارة العاج ، وكان يرسل قوافل التجارة من قبله لجمعه — ويذكر أن تجارة العاج بين بنجانى وزنجبار كانت حكرا له ، ومع هذا فقد أسهم عرب الساحل فى هذه التجارة من أصحاب المزارع وحصلوا من الهنود على قروض لتمويل حملات جمع العاج بضمان مزارعهم وأراضيهم بفوائد عالية كان يعاد دفع أضعافها فى شكل عاج

---

(79) Ogot & Kieran (eds) Zamani, op. cit., pp. 226-227.

(80) Beachey, R. W, Ivory Trade. y. 282.

يباع لهم بنصف ثمنه الحقيقى . ورغم أن جزءا كبيرا من هامش ربح هـذه التجارة كان يؤول الى الهنود ، فان العائد منها كان مجزيا نسبيا للعرب . ووجدت فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى الافريقى فروع لعدد من الشركات الأجنبية من أهمها شركات هانسنج Hansing اوزوالد Oswald ومابر Meyer وروفراسنت Rouxfrasnet ، ولم تكن هذ ه الشركات تتاجر فى العاج فقط وانما شمل نشاطها مختلف مواد التجارة المشروعة الأخرى ، وكان الهنود يبيعون لها العاج الذى يحصـــلون عليه من قوافل التجـــارة العربية(٨١) .

وكانت تكاليف نقل العاج مرتفعة اذ كان متوسط نقل الطن الواحد من أوجيجى الى الساحل يبلغ نحو ٥٠ جنيها ، وكان الحمالون يحملون العاج على رؤوسهم ، وكان متوسط ما يحمله الحمال الواحد يتراوح بين ٥٠ــ٧٠ رطلا . وقبل نقل العاج يجرى تصنيفه ، وكانت عملية التصنيف فنا هاما لأن سعر العاج الخشن يختلف اختلافا كبيرا عن سعر العاج الناعم الذى كان أعلى سعرا لأنه كان يسهل ثنيه وتشكيله وقولبته .

وكان يتم مبادلة العاج بالخرز ، وبالرقيقات الحسناوات أحيانا أخرى أو بالأقمشة والأقطان الامريكية والاوروبية أو بالسلاح الأوروبى العتيـــق والبارود أو الحرير الهندى أو العمانى . وكانت قطعة واحدة من السلاح تباع نظير ٧٥ رطلا من العاج أحيانا . وكانت المساومة على العاج تتم بين العرب والافريقيين فى أسواق الداخل ، وكانت عمليات المساومة طويلة ومتعبة لأنه قد يكون الناب الواحد من سن الفيل ملكا لعدد كبير من الافريقيين، ومن ثم يجب اتفاقهم جميعا واقناعهم بالسعر المعروض . كما تشمل عملية البيع فحصا لحالة الناب أو الفك لأنه قد يكون قـــد أصابه التآكل نتيجـــة استخدام الفيل له بدرجة أكبر من بقية الأسنان ، وبالتالى يؤثر هذا على ســـعره .

ومع أن العاج سلعة يقل فيها نسبة الفاقد ، فان القافلة قد تتعرض للنهب أو السلب أو الهجوم من جانب القبائل ، هذا فضلا عن تكاليف الانفاق

---

(81) Ibid. pp. 277-278.

على الغذاء والتجهيز والتسليح والنقل الذى يصحب اية قافلة متجهة الى الداخل . وتسجل الكتابات المعاصرة حالات كثيرة هرب فيها الحمالون بما معهم من عاج أو سلاح أو بضائع اخرى ، كما تسجل حالات عديدة من الفشل وضياع الأموال ترتب عليها ضياع المزارع او الممتلكات العربيـة المرمونة للدائنين الهنود ، أو استقرار العديد من العرب فى الداخل خشية مطالبات الدائنين ، وقد أشار ايوان سميث قنصل بريطانيا فى زنجبار فى مكاتباته الى سولسبورى رئيس الوزراء الى هذه المسألة(٨٢) .

ولا تتوفر لدينا تفاصيل عن مستويات الأسعار بالنسبة للعاج ، غير أنه يبدو أن السعر كان اجتهاديا ، كما كان يختلف من منطقة الى أخرى ، وكلما بعد مصدر العاج كلما انخفض سعره ، والواضح أن العاج كان يباع بوزنه ونوعيته ، وكانت الفارسيلا (Frassilah) تمثل وحدة الوزن القياسية للعاج(٨٣) ، وكانت هذه تعادل نحو ستة وثلاثين رطلا ، وان كان بعـض المؤرخين يرون انها كانت تتراوح بين ٣٤ — ٤٥ رطلا . ويذكر أن أسعار العاج كانت تختلف بنسبة تتراوح بين ٥٠ — ١٠٠٪ بين اوجيجى وتابورا ، كما كان السعر يختلف بنفس هذه النسبة تقريبا بين تابورا وزنجبار(٨٤) .

ويقدر المؤرخون أن كمية العاج التى كانت تشترى بنحو الفى دولار فى الداخل كانت تباع فى الساحل بنحو سبعة آلاف دولار . وقد ذكر برتون Burton أن التجار العرب فى الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا قد ابلغوه بأنهم يحصلون على نحو مائة فاسيلا من العاج بنحـو الف دولار ، وكانوا يبيعونها بسعر يتراوح بين ٤٥٠٠ — ٥٦٠٠ دولار فى زنجبار(٨٥) ، وكان رطل العاج يباع فى شرق الكنغو بسعر منخفض للغاية يتراوح بين نصف سنت وسنت ونصف ، وذلك حسبما ذكره المستكشف البريطانى ستانلى Stanley

وكان العاج أعلى قيمة من أناث الرقيق لدى قبائل الياو Yto ، ويبدو

---

(82) F O. 603/310 Euan Smith to Salisbury, Feb 24, 1890.
(83) Zwanenberg & Anne King, op. cit., p. 172.
(84) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., p. 189.
(85) Arens, W, (ed) A Century of Change, Paris, 1973, pp. 188-189.

انهم كانوا يبيعون العاج حسب حجمه لا حسب وزنه اذ ذكر أن ناب الفيل المتوسط كان يباع بنحو ٣٠ — ٣٦ ياردة من القماش أو بسعر يعادل سعر نحو ٧ — ١٥ رأسا من الرقيق(٨٦) . وكان الياو يفضلون التعامل مع العرب لأنهم كانوا يدفعون لهم أسعارا أعلى مما يدفعه الهنود فى كلوة ، اذ كان الهنود يحصلون منهم على فك من العاج يصل وزنه الى ١٤٠ رطلا مقابل لفة صغيرة من سلك النحاس أو عقد من الخرز(٨٧) .

وذكر برتون أنه قابل عددا من التجار العرب المهتمين بالعاج ، فأشار على سبيل المثال الى محمد بن صاحب فى أوجيجى الذى أبلغه فى عام ١٨٥٨ أنه استقر فى هذه المدينة منذ عام ١٨٤٣ (٨٨) ، كما ورد فى الكتابات المعاصرة ذكر تيبو تيب Tippu Tip . ولم يرد ذكر تجار من الهنود باستثناء التاجر الهندى الذى سبقت الاشارة اليه وهو موسى مزروعى الذى اشار برتون الى أنه قابله وهو فى طريقه من تابورا الى الساحل وهو يحمل نحو ٢٨٠ ألف رطل من العاج(٨٩) .

وكانت أسعار العاج فى زنجبار ومدن الساحل أكثر ثباتا من الاسعار فى الداخل ، غير أن التجار العرب كانوا عادة لا يتعاملون مباشرة مع الشركات الأوروبية أو الاسيوية التى تسعى لشراء العاج ، لأن ما بيدهم من كميات من العاج كانت ضئيلة ، كما كانت ارتباطاتهم بدائنيهم تجبرهم على التعامل مع الهنود ، ومن ثم لعب الهنود دور تاجرى التجزئة والجملة فى آن واحد ، فكانوا يجمعون كميات العاج التى تصل مع القوافل العربية الى الساحل ، ثم يبيعونها جملة للوكلاء التجاريين الأجانب . واختلفت أسعار الشراء والبيع اختلافا كبيرا ، ولما كان الهنود حريصين على اخفاء حجم أرباحهم فان ما تسجله ادارة الجمارك من أرقام لمبيعات العاج الى الخارج لا تشير الى الحقيقة ، كما أن السعر المعلن لتصدير العاج من جانب لا يمكن الوثوق به ، ولا تتوفر فى أيدينا الا أرقام وردت فى تقارير القناصل أو المستكشفين،

(86) Edward, A. Alpers, op. cit., p. 246.

(87) Bennet & Brooks, New England Merchants, op. cit., pp. 262-263.

(88) Beachey R. W, Ivory Trade, pp. 270-271.

(89) Burton, O, Lake Regions op. cit., vol. 2, pp. 223-224.

اذ ذكر أن سعر بيع الفارسيلا من العاج قد زاد م ن ٢١ روبية هندية فى عام ١٨٢٥ الى نحو ستين روبية فى عام ١٨٧٥(٩٠) ، كما ذكر أن أسعار العاج فى زنجبار قد زادت بين عامى ١٨٥٠ و١٨٩٠ من ٦٠٠ جنيه استرلينى للطن الى ٢١٠٠ جنيه للطن(٩١) ، وتشير كتابات أخرى الى أن أسعار العاج قد زادت بنحو ٤٠٪ فى فترة الحرب البروسية الفرنسية أى فى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولا تصلح هذه الأرقام المتناثرة للخروج بنتائج أو اتجاهات عن هذه التجارة ، هذا اذا استثنينا ارتفاع الأسعار الذى تجمع عليه الكتابات لزيادة الطلب على هذه السلعة والادراك الحقيقى لقيمتها .

ولدينا بعض الأرقام عن حجم الصادرات من العاج ، فقد ذكر القنصل الامريكى فى زنجبار أن الياو يصدرون نحو ثلاثة آلاف فارسيل من العاج سنويا(٩٢) ، وفى عام ١٨٥٦ ذكر القنصل الفرنسى فى زنجبار أن صادرات العاج الى العالم الغربى وصلت الى ٢٤٢ر٩٧٥ رطل حصل الامريكيون على نحو ٧٥٪ منها ، وفى عام ١٨٥٩ قدر القنصل البريطانى فى زنجبار حجم الصادرات الكلية للعاج بنحو ٤٨٨ر٦٠٠ رطل قيمتها ١٤٦ر٦٦٦ جنيه استرلينى حصل منها الغرب على نحو ٢٤٣ر٦٠٠ رطل ، وشحن الباقى الى الهند وفارس(٩٣) ، وفى عام ١٨٦٧ وصلت صادرات العاج الى ٦٦٣ر٥٠٠ دولار وقفزت هذه الصادرات فى عام ١٨٧٩ الى ١٦٠ الف جنيه استرلينى(٩٤) . وصدرت منطقة أعالى النيل والتورو نحو ٤٤٠ ألف رطل فى عام ١٨٥٨ ، غير أن هذه الصادرات قد هبطت فى السبعينات والثمانينات الى نحو ٣٦٧ ألف رطل(٩٥) ، ثم انقطعت صادرات العاج من هذه المنطقة بسبب ثورة المهدى وظلت زنجبار تصدر نحو ٧٥٪ من العاج فى العالم حسب الأرقام التى وردت فى عام ١٨٩١ .

---

(90) Zwanenberg & Anne King, op. cit., p. 165.

(91) Norman Bennet, Studies in East African History, New York, 1963, p. 89.

(92) Bennet & Brooks, op. cit., pp. 347-348.

(93) Coupland, R, East Africa & Its Invaders, p. 316.

(94) Oliver, R & Gervase, M, op. cit., vol. I. pp. 236-241

(95) Beachey, R. W. Ivory Trade, p. 287.

ولنا ملاحظات حول تجارة العاج العربية فى القرن التاسع عشر :

١ ــ أن دور العرب فى تجارة العاج اقتصر على جمعه من الداخل بصيده أو شرائه من القبائل وبيعه للهنود ، دون أن يكون لهم يد فى تسويقه أو تصديره مباشرة الى خارج شرق أفريقيا الا من خلال وساطتهم .

٢ ــ أن عائد تجارة العاج العربية كان مرتفعا نسبيا عن عائد تجارة الرقيق ولكن عنصر المجازفة فيها كان عاليا وكان هذا سببا أحيانا فى فقدانهم أراضيهم ومزارعهم بالساحل لصالح الهنود .

٣ ــ أن تجارة العاج العربية قد أصبحت الدعامة الأساسية لاقتصاديات ساحل شرق أفريقيا بعد حظر تجارة الرقيق وتقلصها تدريجيا ، وكانت أرباح هذه التجارة سببا فى نمو القطاع الزراعى فى الساحل .

٤ ــ أن هذه التجارة التى كانت احدى أسباب التكالب الأوروبى على الداخل قد أحدثت تدميرا كبيرا لقطاع كبير من الفيلة ، الأمر الذى اضطر الادارات الاستعمارية فيما بعد الى وضع ضوابط لتنظيم صيدالفيلة، وبيع العاج ، كما أدت تجارة العاج فى الداخل الى زيادة تداول وانتشار الأسلحة النارية فى الداخل ، مما أحدث آثارا سلبية كثيرة على مجتمعاته الافريقية .

٥ ــ ان الظهير التنزانى عانى أكثر من غيره من الاثار السلبية لتجارة العاج ، بسبب قتل معظم ثروته الحيوانية من الفيلة ، وكانت المناطق الاكثر بعدا نحو الغرب أقل تأثرا ، وبقيت ممالك البحيرات وخاصة البنيورو تحتفظ بجزء كبير من عاجها لتأخر وصول التجار العرب اليها .

٦ ــ أن الحصول على صورة دقيقة لحجم هذه التجارة وأسعارها أمر يتعذر على المؤرخ تحقيقه بسبب اختلاف مستويات الأسعار فى الداخل والساحل ، وانعدام وسائل التسجيل ، وتعدد الأطراف الداخلة فى هذه التجارة من عرب وأنارقة وهنود وشركات أوروبية ، هذا فضلا عن أن نشاط قوافل جمع العاج والمتاجرة فيه كانت نتيجة مبادرات ومجازفات فردية لا تدعمها قوة تنظيمية حكومية من قبل سلطات الساحل .

العرب وألوان النشاط التجارى الأخرى فى شرق افريقيا فى القرن التاسع عشـــر :

ومع القوافل التجارية حمل العرب الأسلحة النارية الى الداخل ، ولم يكن ذلك من أجل الدفاع عن النفس أو صيد الفيلة أو الرقيق ، وانما كان حمل العرب لكميات كبيرة من السلاح بهدف المتاجرة به بسبب اســـــعاره المرتفعة وتهافت الافريقيين عليه بسبب ما له من قوة رادعة ، وكان ما حمله العرب من سلاح من النوع العتيق القليل الفاعلية لأنهم حرصوا على الا تكون فى حوزة الافريقيين أسلحة فتاكة قد يشهرونها فى وجههم ، هذا فضلا عن ان جل ما وصل من سلاح نارى الى شرق القارة الافريقية فى القرن التاسع عشر كان من النو عالمنخفض النوعية الغير صالح للاستخدام أحيانا ، واتت به السفن الأوروبية تخلصا منه ولبيعه لمجتمعات الداخل المتخلفة(٩٦) .

وكان العرب من تجار القوافل يعملون كحلقة اتصال بين سلطان زنجبار وبين الداخل فى بيع الأسلحة ، وكانت زنجبار تشحن الى الداخل نحـــو خمسة آلاف بندقية سنويا فى الاربعينات من القرن التاسع عشر ، وبعد أربعين عاما كانت تشحن نحو مائة الف بندقية الى الداخل ، وكانت الأسلحة النارية لكثرتها فى الداخل يستخدمها ما لا يقل عن نصف سكان تنزانيا فى عام ١٨٩٠ (٩٧) .

وقد وجدت مخازن كبيرة لبيع الأسلحة النارية فى الداخل فى مراكز التجارة العربية ، وجدت مستوطنة عربية فى كيتانجولى Kitangole على الحدود الغربية لأوغندة تقوم باحتكار تجارة البارود فى الداخـــل(٩٨) ومستودعات للسلاح لدى التجار السواحيليين مثل روماليزا وجومبى فى منطقة بحيرة نياسا ، وعثر لدى تيبو تيب على كميات كبيرة من السلاح فى حديقة منزله فى زنجبار كان ينوى شحنها الى الداخل ، ويذكر كراب krapf أنه شاهد احدى قوافل التجارة العربية تحمل نحو الف قطعة من السلاح ،

---

(٩٦) محيى الدين محمد مصيلحى ، تجارة الأسلحة النارية فى شرق أفريقيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والاثار المترتبة عليها — نشرة البحوث والدراسات الافريقية ، ١٩٨٦ ، ص ٤ — ٥ .

(97) Iliffe, John, op. cit., p. 50.

(98) F. O. 6261/50 Lugard to IBEA, April 4, 1891.

ووجد ستانلى كميات كبيرة أخرى فى يد التجار العرب فى الكنغو ، وكان هؤلاء التجار يتاجرون فى البارود ومن أشهر هؤلاء بواناساى Bowanasay ابن تيبو تيب .

وكانت أرباح السلاح تفوق بدرجة كبيرة أرباح العاج أو الرقيق لأن قطعة السلاح الواحدة كانت تباع فى الداخل بثلاثة أو أربعة أضعاف ثمنها ف الساحل ، فكان سعر البندقية الواحدة يصل الى خمسين دولارا أو ما يعادل سبع اناث من الجمال فى أعقاب حركة الملا محمد عبد الله حسن فى الصومال(٩٩) ، كما كان سعر البندقية يصل الى نحو ١٥٠ دولارا فى مناطق أخرى كالبوجندة لأن سعر البندقية كان يعادل ٧٥ رطلا من العاج ، وكان الرطل من العاج يباع هناك بدولارين ، واختلفت أسعار البارود أيضا فى الساحل عنه فى الداخل فكان سعر الرطل من البارود يصل الى أربع روبيات فى الداخل مقابل ست روبيات لكل ثلاثين رطلا فى الساحل(١٠٠) . وقد سلحت بعض الممالك الافريقية بالسلاح كالبوجندة والبنيوورو ، وكان حيش البوجندة يمتلك نحو ٨٠٠ بندقية على عهد موتيسا Mutesa (١٠١) .

وبسبب ارتفاع أسعار السلاح تعددت مراكز استيراده فى شرق أفريقيا . ومن أهم هذه المراكز زنجبار وجيبوتى ومدغشقر وقسمايو ودار السلام ، وكانت هذه المراكز على اتصال بمراكز تصدير السلاح خارج شرق أفريقيا فى عدن ومسقط والمكلا وشحر وغيرها ، وكان الاتجار بالسلاح نشاطا تجاريا مشروعا ، ولم تتجه الدول الأوروبية الى حظره الا فى أواخر الثمانينات نظرا لعلاقته الوثيقة بصيد الرقيق فى الداخل .

وعمل العرب فى تصدير القرنفل والمطاط وجوز الهند والحبوب وخاصة السمسم كما صدروا الصمغ والاصداف . واستوردوا الارز والاقطان

---

(99) F. O. 7946/5 Memo by Singor Pansa, Jan 7, 1902.

(100) Beachey, R. W. The Arms Trade in the late 19th Century, J. A. H., vol. 3, No. 3, 1962, pp. 460-461.

(101) Hill, G. B. Colonel Gordon in Central Africa, London 1889. p. 186.

الامريكية والهندية والبريطانية والخرز . وساعد على ارتفاع صـــادرات القرنفل من زنجبار وتوابعها انتشار زراعته على طول ساحل زنجبار وبمبا، واهتمام السلطان سعيد بزراعته اذ كان يمتلك وحده نحو ٤٥ مزرعة ، كما كان العرب يمتلكون عدة مزارع أخرى واسعة يعمل بكل منها عدد يتراوح بين ٢٠٠ — ٣٠٠ رأس من الرقيق ، وكان سعيد يحقق من تجارة القرنفل دخلا سنويا لا يقل عن خمسين الف دولار ، وكما كان السلطان برغش يحقق نصف هذا الدخل من مزارعه الخاصة . وكانت صادرات القرنفل تلقى رواجا شديدا فى الهند وشبه الجزيرة العربية وفى أمريكا وأوروبا . وارتفعت صادرات القرنفل الى العالم الغربى من ١١٠ر٢٠٠ رطل فى عام ١٨٤٠ الى ٨٤٠٠ ألف رطل فى عام ١٨٥٩(١٠٢) ، قيمتها ٥٥ر٦٦٦ جنيه استرلينى . ووصلت قيمة الصادرات الكلية للقرنفل فى عام ١٨٦٧ الى ٣٢١ ألف دولار وارتفعت الى ١٧٠ ألف جنيه استرلينى فى عام ١٨٧٩(١٠٣) .

ونمت صادرات المطاط فى شرق أفريقيا بسبب ازدياد الانتاج وصلاحية المنطقة لزراعة أشجاره ، وقد تصدر المطاط لأول مرة قائمة الصادرات فى زنجبار فى عام ١٨٧٩ حيث حققت صادراته نحو ٢٥٠ الف جنيه استرلينى فى عام ١٨٧٩ ، وقد لوحظ أن فترة منتصف السبعينات بدأت تشهد قلة أهمية الصادرات التقليدية لمنطقة شرق أفريقيا وارتفاع قيمة الصادرات الزراعية الجديدة خاصة بعد أن قلت قيمة صادرات العاج عن قيمة صادرات القرنفل بنحو عشرة آلاف جنيه استرلينى وبنحو تسعين الف جنيه استرلينى عن قيمة صادرات المطاط فى هذا العام المذكور ، ويفسر هذه الظاهرة حسن استخدام عوائد "النشاط التجارى العربى التقليدى فى شرق أفريقيا لصالح النشاط الزراعى .

وارتفعت صادرات الحبوب فى شرق أفريقيا بعد أن تحولت مدن لامو ومالندى وممباسا الى صومعة غلال لشرق افريقيا وشبه الجزيرة العربية. وقد قدر نحو ثلاثين سفينة كانت تترك مالندى سنويا محملة بالحبوب الى حضرموت ، وكانت السفن التى تحمل السمسم يتراوح عددها سنويا ما بين

---

(102) UNESCO, (ed), The African Slave trade, op. cit., p. 178.

(103) Oliver, R & Gervase, M (eds), op. cit., p. 241.

١٥ — ٢٠ سفينة ، كما كانت قيمة صادرات الحبوب يقدر متوسطها نحو ١٥٠ الف دولار(١٠٤) . وارتفعت صادرات السمسم من نحو ٢٠٫٨٠٠ جنيه استرلينى فى عام ١٨٥٩ الى ١٠٠ الف دولار فى عام ١٨٦٧ ، ووصلت جملة صادرات الصمغ والاصداف الى نحو مائتى الف دولار فى هذا العام المذكور(١٠٥) .

واستوردت زنجبار وتوابعها فى شرق أفريقيا اقطانا أمريكية قيمتها ٩٣٫٧٤٤ جنيه ، واقطانا هندية قيمتها ٥٣٫٧٧٧ جنيه ، واقطانا بريطانية قيمتها ٣٧٫٧١١ جنيه وأرزا قيمته ٣٨٫٤٤٤ جنيه وخرزا قيمته ٢١٫٨٧٩ جنيه فى عام ١٨٥٩(١٠٦) وساعد على نمو التجارة فى زنجبار وتوابعها افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ والتى اختصرت المسافة بين شرق أفريقيا واوربا بنحو الفى ميل ، وزادت طاقة سفن الشحن البريطانية المتجهة من زنجبار الى أوروبا بنحو سبعة أضعاف فيما بين ١٨٧١ و١٨٧٩ ، كما زادت حمولة السفن الامريكية التى تستخد موانىء زنجبار من ١٨٫٨٧٧ طن الى ٢٧٫٦٢٦ طن فيما بين ١٨٥٩ و١٨٧٧ ، وزادت حصيلة الجمارك فى زنجبار من عشرة آلاف جنيه استرلينى فى عام ١٨٢٨ الى ٥٠ ألف جنيه استرلينى فى عام ١٨٥٩ والى ٦٥ الف جنيه استرلينى فى عام ١٨٦٩ والى ١٠٠ الف جنيه فى عام ١٨٧٦ .

وعمل العرب بتجارة الملح الذى كان من أهم مواد التجارة فى الداخل ، وكان اقبال الافريقيين عليه كبيرا ، وجلبه العرب من بعض مناطق البحيرات الاستوائية كبحيرة البرت وادوارد وكيتوى Kitwi ، كما جلبوه من وادى الروها Ruha فى شرق الكنغو واوجوجو Ugogo فى وسط تنزانيا ، وكان العرب يتبادلون مع الافريقيين الملح بالعاج ، وحققوا أرباحا كبيرة من تجارته ، كما تاجر العرب فى الأدوات الحديدية البسيطة كالفؤوس والنحاس

---

(104) Kimambo & Ajema, A History of Tanzania, London, 1969, p. 51. & UNESCO The African Slave. op. cit., pp. 178-179.

(105) Coupland, R, Exploitation. p. 77.

(106) C. E. B. Russel, General Rigby, Zanzibar & The Slave Trade, London, 1936, Appendix.

الذى حملوه من كاتنجا بالكنغو الى قبائل الانياموزيزى التى كانت تحوله الى حلى وسلاسل . ومن مواد التجارة الأخرى التى اهتم العرب بها فى الداخل جلود الحيوانات وأسنان التماسيح وقرون الخرتيت وخشب الابنوس . وكانت أرباح السلع التجارية التى يحملونها معهم من الساحل تصل الى ثلاثة اضعاف اذ كانت كمية الحرير والاقطان التى تشترى فى الساحل بخمسة آلاف دولار تباع بنحو خمسة عشرة الف دولارا(١٠٧) .

وكانت موانىء ساحل البنادر لا تخضع للسيطرة السياسية لزنجبار ، وكانت بعض مدنه مثل مركا ومقديشيو تشهد نهضة صناعية عربية كبيرة ، وكانت المدينتان تتخصصان فى غزل القطن ونسجه ، وكانتا تصدران انتاجهما الى زنجبار ومصر ومنطقة ساحل البحر الأحمر، وكان معدل ما تصدره مدينة مقديشيو سنويا يصل الى نحو ٣٠٠ الف قطعة من المنسوجات ، وكانت المدينتان تستوردان احتياجاتهما من العمالة من جزيرة باتا ، وهى احتياجات كانت تقدر بنحو ستة آلاف من الرقيق(١٠٨) .

ويوضح الجدول التالى قيمة صادرات وواردات زنجبار فيما بين عامى ١٨٥٦ — ١٨٨٦(١٠٩) (بالجنيه الاسترلينى) .

---

(107) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., pp. 189-190.

(108) Oliver, R, & Gervase Mathew (ed) op. cit., vol. I p. 255.

(109) Robert G. Gregory India & East Africa 1890-1939, pp. 41 & 43.

الميزان التجارى لزنجبار مع عدد من دول العالم

فى الفترة ما بين ١٨٥٦ — ١٨٨٧

البلد	الصادرات ١٨٥٦ — ١٨٥٧	الصادرات ١٨٨٦ — ١٨٨٧	الواردات ١٨٥٦ — ١٨٥٧	الواردات ١٨٨٦ — ١٨٨٧
الهند	١٠٣ر٨٨٨	٣٠٩ر٠٠٠	٩٩ر٦٠٦	٤١٢ر٠٠٠
كوتشى	٦٩ر٦٤٤	غير متوفر	٥٧ر٨٧٢	غير متوفر
ساحل شرق أفريقيا	٢٧٤ر٢٠٠	غير منوفر	٣٦٣ر٦٦٦	غير منوفر
ساحل غرب افريقيا	١١١ر٥١	غير متوفر	—	غير متوفر
مدغشقر	١٦ر٤١١	غير متوفر	١٩ر٧٧٧	غير متوفر
شبه جزيرة العرب	٢٣ر٣٧٧	غير متوفر	١٧ر٦٠٦	غير متوفر
بريطانيا العظمى	٥ر٥٦٦	١٦٤ر٨٠٠	—	٣٠٩ر٠٠٠
فرنسا	٥٥ر٠٠٠	٥١ر٥٠٠	١١٤ر٧٩٠	٦١ر٨٠٠
هامبورج	٣٥ر٧٧٧	٨٢ر٤٠٠	١٠١ر٢٩٦	١١٣ر٣٠٠
الولايات المتحدة	١١٨ر٦٨٨	٩٢ر٧٠٠	١٢٦ر٣٨٩	١٤٤ر٢٠٠
سنغافورة	—	—	٧ر٨٩٥	—
الجملة	٧٥٣ر٦٦٢	٧٠٠ر٤٠٠	٩٧ ٩٠٨ر٨	١ر٠٤٠ر٣٠٠

ويوضح الجدول السابق :

١ — أن حجم التبادل التجارى بين الهند وزنجبار قد زاد زيادة كبيرة اذ ارتفعت قيمة الصادرات بنحو ثلاثة اضعاف من ١٠٣٫٨٨٨ فى عام ٥٦/٥٧ الى ٣٠٩ الف جنيه فى عام ١٨٨٧/٨٦ وزادت الواردات بأكثر من اربعة أضعاف من ٩٩٫٦٠٦ الى ٤١٢ ألف جنيه فى الفترة المذكورة .

٢ — أن التبادل التجارى بين بريطانيا وزنجبار كان ضئيلا للغاية فى أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر واقتصر على صادرات قليلة القيمة فقط بينما انتفت الواردات البريطانية من زنجبار ، ورغم هذا فان التبادل التجارى بن البلدين فى أواخر الثمانينات من القرن المذكور احتل المركز الثانى فى تجارة زنجبار الخارجية من حيث الصادرات والواردات .

٣ — أن التجارة بين فرنسا وزنجبار قل حجمها من حيث الصادرات والواردات فى الفترة المذكورة ، بينما قلت الصادرات الى الولايات المتحدة وزادت الواردات زيادة طفيفة وحققت التجارة بين زنجبار والمانيا تقدما ملحوظا من حيث تجارة الصادر ، وزيادة طفيفة من حيث تجارة الوارد .

ويعكس ارتفاع التبادل التجارى بين الهند وزنجبار زيادة التغلغل الهندى فى زنجبار ونمو دور الهنود فى عالم المال والتجارة فيها ، كما يرجع نمو التبادل التجارى بين زنجبار وبريطانيا الى زيادة السيطرة البريطانية على سلاطين زنجبار ، وهى زيادة أدت الى تقلص دور الفرنسيين فى المنطقة سياسيا واقتصاديا ، وانعكست السيطرة السياسية الى جانب قصر الطريق بين شرق أفريقيا وبريطانيا بعد افتتاح قناة السويس على المجال التجارى حتى أصبح التبادل بين الجانبين يمثل المكانة الثانية فى العلاقات التجارية بين زنجبار والعالم الخارجى .

ويلاحظ من الارقام المتوفرة ان اقتصاديات زنجبار وشرق أفريقيا بدأت تخرج عن الاعتماد على سلعها التقليدية خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر كالعاج أو الرقيق ، واصبحت تعتمد بدرجة متزايدة على زراعة السلع النقدية كالقرنفلة والمطاط والصمغ ، كما نمت علاقاتها مع التكالب الأوروبى

على شرق افريقيا مع العالم الغربى وخاصة مع بريطانيا ، وكانت تجارتها انعكاسا لأوضاعها السياسية خلال هذه الفترة .

الآثار العامة للنشاط التجارى العربى فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر:

تمخضت حركة التجارة العربية فى شرق أفريقيا عن عدد من الآثار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، فمن الناحية الاجتماعية صاحبت حركة تجارة القوافل العربية هجرات كبيرة من الغرب الى الشرق مع انسياب الرقيق من الداخل باعداد كبيرة والتحاقهم بالخدمة فى المزارع العربية فى الساحل ، واشتد اختلاط العناصر العربية بالعناصر الافريقية فى المناطق الساحلية والداخلية ودخل بعضهم فى علاقات مصاهرة مع الزعماء الافريقيين فى الداخل ، وادى امتداد حدود تجارة القوافل الى مسافات بعيدة نحو الغرب الى ضعف قدرة الزعماء الافريقيين على الدفاع عن مناطقهم او على احكام الرقابة على عمليات صيد الرقيق وجمع العاج من الداخل ، خاصة وأن كثيرا من الافريقيين قد عملوا فى نقل التجارة بين الداخل والساحل وتشتت كثير من القبائل واصبحت الوحدات القبلية اضعف كيانا ، وان كانت قد أصبحت أكثر انتشارا كما هو الحال بالنسبة لقبائل الانياموبزى التى ارتبطت بالعمل فى قوافل التجارة وانتشرت فى قرى الداخل . وتحولت القرى الافريقية القريبة من الساحل الى مدن زاهرة(١١٠)، وظهرت مدن جديدة فى الداخل تركزت حول المراكز التجارية العربية فى تابورا واوجيجى وكاسينجى وكيتانجولى ، وساعد على ظهورها وقوعها على طول طرق التجارة فى الداخل ووثق العرب صلاتهم فى هذه المراكز بالافريقيين وتعاونوا معا من أجل تسويق مواد التجارة القادمة مع القوافل من الساحل وفى جمع مواد التجارة الداخلية .

ومع القوافل التجارية وصلت الى الداخل طرق معيشية جديدة ، وزاد مستوى الطموح الفردى ، بعد دخول البضائع الأوروبية ، وادى وصول الأسلحة النارية الى الداخل الى تهافت الافريقيين للحصول عليها ، واحدثت حيازتها من جانب القبائل آثارا اجتماعية كبيرة لأنها استخدمت فى الحروب

---

(110) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., pp. 187.

القبلية وفى تصفية الخلافات ، وفى مزيد من صيد الرقيق ، وادى استخدامها على نطاق واسع من جانب بعض القبائل ومن جانب العرب احيانا الى حرق القرى وتخريبها واصابتها بنزيف سكانى محدود لأن الكميات التى دخلت مع العرب من السلاح لم تكن كبيرة .

وادت تجارة القوافل الى نقل بعض امراض الساحل الى الداخل ، كما نقلت القوافل كثيرا من الأمراض المتوطنة التى أصيب بها افرادها فى الداخل الى الساحل كالدوسنتاريا والديدان المعوية والحمى ، وراح كثير من افراد القوافل ضحية لهذه الأمراض لقلة الأدوية وقسوة المناخ وحصدت الأمراض حياة الكثيرين منهم خاصة فى شرق الكنغو التى انتشر فيها مرض النوم . وقد ذكرت التقارير أن مرض الجدرى قد انتشر فى المنطقة المحيطة ببحيرة تنجانيفا . وكانت أوجيجى مركزا ثانويا لانتشار الأمراض المستوردة مع تنجانيقا . وكانت أوجيجى مركزا ثانويا لانتشار المرض قلة الحصانة وانتشار المجاعات فى الداخل .

وكانت عصابات قطاع الطرق والأمراض والمجاعات سببا فى فشل قوافل التجارة وافلاسها ووفاة العديد من الافريقيين فى الداخل . وأدى فشل القوافل الى استقرار رؤسائها العرب بالداخل وزيادة انصهارهم فى الحياة الافريقية فى الداخل ونمو العلاقات الودية بينهم . وكان استقرار القوافل مبعثه الخوف من الدائنين الهنود فى الساحل ، وأدى هذا الاستقرار الى زيادة سكان المدن الجديدة التى تركز فيها العرب فى الداخل اذ زاد عدد بوجمايو من ستة آلاف فى السبعينات من القرن التاسع عشر الى نحو عشرين الف فى أواخر الثمانينات ، كما زاد سكان أوجيجى من نحو ثلاثة آلاف الى خمسة آلاف فى نفس الفترة ، وشهدت هذه الفترة تغيرا اجتماعيا سريعا . وفى الحالات التى حققت القوافل نجاحا اقتصاديا تكدست الثروة فى يد قلة من الزعامات العربية — وأدى هذا الى بدء ظهور الطبقات الاجتماعية فى الساحل وعلاقات التبعية(١١١) .

ومن الناحية السياسية أدت تجارة القوافل الى سيطرة القبائل التى كثرت حيازتها للاسلحة النارية الى السيطرة على القبائل الأقل حيازة ،

---

(111) Ibid pp. 192, 197, 198.

والى ظهور المخالفات بين التجار العرب والزعامات الافريقية من أجل تبادل المصالح وتنظيم عمليات الدفاع عن المستوطنات العربية ، ونمكن التجار العرب من السيطرة السياسية على بعض القبائل الافريقية الصغيرة وأسسوا الممالك بها كمملكة تيبو تيب « محمد بن حميد المرجبى » فى مانيما Manema فى شرق الكنغو ، كما شكل رومااليزا « محمد بن خلفان » مملكة خاصة فى منطقة نياسالاند واحكم سيطرته على الزعامات الافريقية بها ، وفرض عليها الجزية ، ونصب موينى متوانا Mwini Mtwaan وهو سواحيلى من دم مختلط ــ نفسه زعيما للمدابورو Madaburu فى وسط طريق القوافل(١١٢). واستطاع عرب تابورا احكام سيطرتهم على المنطقة ، وتدخلوا فى السياسات الافريقية المحلية بها ، واعفوا من دفع الضرائب بها وحظوا بالاحترام والتقدير فى المشيخات التى لم يستطيعوا السيطرة عليها كما حدث فى مشيخة أوسمبارا Usmbara فكان لهم جناح خاص بها(١١٣) . واستطاع بعض العرب والسواحليين مثل سونجورو Songoro الذى تمكن من غرض نفسه فى مشيخة بوسوكوما Busukuma بالقرب من بحيرة فيكتوريا . ودخل فى مصاهرة مع ملوكها الافريقيين(١١٤) . وكانت تجارة القوافل الخطوة الأولى فى طريق السيطرة الأوروبية على الداخل لأنها لفتت أنظار الاوروبيين اليها ، وجذبت المستكشفين والمبشرين الأوروبيين الى المنطقة .

ومن الناحية الثقافية انتشرت اللغة السواحيلية فى الداخل ، كما انتشر الاسلام بين بعض قبائل الداخل(١١٥) خاصة فى المناطق القريبة من الساحل، كما أدى اختلاط العرب بالافريقيين الى اتقانهم للهجات الافريقيين ، ومن ثم

---

(112) Melvin, E, Page, The Manyema Hordes of Tippu Tip, IJAHS, VII, 1974. pp. 69-84. & Bevrley Brows, Muslim Influence on Trade & Politics in the lake Tanganyika Region, IJAHS, IV, 1971, p. 629.

(113) Alfred, C, Unomah, Economic Expansion & Political change in Unyambe (1810-1900), PH. D, Thesis University of Ibadan, 1972, pp. 180-193.

(114) Iliffe, John, op. cit., pp. 46-47.

(115) Hatch, John, Tanzania, A Profile, London, 1972, p. 60.

قاموا بدور المترجمين بين الافريقيين والاوروبيين الذين ولجوا الى الداخل بهدف الكشف الجغرافى أو التبشير ، واكتسب العرب دراية كبيرة باللغات الأوروبية وخاصة الانجليزية من خلال تعاملهم مع الهنود والبريطانيين فى الساحل .

ومن الناحية الاقتصادية أدى النشاط التجارى العربى فى القرن التاسع عشر الى امتداد طرق التجارة القديمة المتجهة للداخل نحو الغرب ، وظهور طرق جديدة ، وزاد سيل البضائع التجارية الاوروبية والاسيوية الى الداخل ، ونمت أسواق الداخل(١١٦) وتعددت الوان التجارة فيها ، وموريست فى هذه الأسواق أساليب تجارية تبادلية مختلفة كالمقايضة والبيع بالأجل والبيع النقدى . ودخلت النقود مع تجارة القوافل ، وان ظل نطاقها محدودا لأن الافريقيين كانوا يفضلون أسلوب المقايضة السلعية ، وأصبح للعرب مخازنهم التجارية فى الداخل وحرسهم الخاص المسلح ، وكانت المستوطنات العربية فى الداخل مراكز للقوافل للتزود بالغذاء وأماكن للراحة ، وعقد الصفقات مع القبائل الافريقية المجاورة أو مع العرب الوافدين مع القوافل .

وادت تجارة القوافل العربية الى زيادة جمع العاج وتحول كثير من القبائل عن مهمة الزراعة الى مهمة الصيد أملا فى قتل المزيد من الفيلة والحصول على أنيابها ، كما تحولت قبائل اخرى تقع أراضيها على طرق القوافل الى زراعة المحاصيل الغذائية والتخصص فيها لمد القوافل بما فيها من الطعام والماء ويقال انه كان يوجد ثلاثة مراكز بين الساحل وبحيرة فيكتوريا حيث يمكن للقوافل الحصول على الغذاء وهى كيبويزى Kibwezi وماشاكوس Machakos والكيكويو kikuyu (١١٧) ، كما تحولت قبائل أخرى الى زراعة المحاصيل النقدية بعد أن نجحت زراعتها فى الساحل مثل جوز الهند والمطاط والقرنفل ، وكان العرب قد حملوا الى الداخل بذور هذه المحاصيل ، وحققت بعض القبائل فى الظهير الداخلى القريب نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، وتغيرت الأنماط الاقتصادية التقليدية التى تمثلت فى الاغارة وفرض المكوس على القوافل — واقتصاد الكفاف ، وبدأت المناطق الداخلية

---

(116) Bevrley, Brown & Waltlr Brown, op. cit., p. 188.

(117) Ogot & Jakieran (eds) Zamani, op. cit., pp. 170-172.

تدخل الى دائرة الاقتصاد الحديث ، وتعمق اتصالها بالخارج من خلال قوافل التجارة ومن خلال اهتمام بعض الزعامات الافريقية بجمع العاج أو الرقيق ومواد التجارة الداخلية والاتجاه بها نحو الساحل لبيعه للعرب . وزاد اقبال الافريقيين على البضائع الأوروبية وارتفع دخلهم واتسعت دائرة مطالبهم الاقتصادية ، وظهرت التخصصات المهنية فى الصيد والتجارة . وادت تجارة القوافل الى تبادل المعلومات حول طرق التجارة الداخلية ومخاطرها وطرق تحاشيها .

وادى النشاط التجارى العربى الى اتساع دائرة اتصال زنجبار وتوابعها فى شرق أفريقيا بالعالم الخارجى ، وعقد المعاهدات التجارية مع كثير من الدول الغربية ، ووفود الكثير من الوكلاء التجاريين الأوروبيين والهنود الى شرق أفريقيا ، والى زيادة تداول النقد ووفود مزيد من العرب الى شرق أفريقيا طمعا فى الربح والثراء ، وانعكست آثار هذا النشاط فى ازدياد الثراء وزيادة الطلب على الكماليات ، ونمو القطاع الزراعى خاصة زراعة القرنفل الذى ادخلت زراعته من جزر ريونيون فى أوائل القرن التاسع عشر .

وتحول الاقتصاد بسبب جلب الرقيق من الداخل فى المنطقة الساحلية الى اقتصاد نقدى يقوم على الزراعة والتصدير بعد أن نجحت زراعة محاصيل عديدة فى المدن الساحلية والجزر القريبة منها مثل محاصيل المطاط وجوز الهند فى زنجبار وبمبا ، ومحصول قصب السكر فى مزارع الكيرول فى مدغشقر وجزر ريونيون ، وأصبح معظم الساحل شمال مومباسا مزروعا لأول مرة منذ مائتى عام بعد أن نجحت زراعة محاصيل الحبوب فى لامو ومالندى ، وأدت النهضة الزراعية والانتعاش التجارى فى مدن الساحل الى اعادة بناء عدد منها على نمط حديث مثل مدينتى كلوة ومالندى ، ووصلت هذه المدن الى أوج ازدهارها خلال السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر(١١٨) .

ونتيجة الانتعاش التجارى والزراعى ثم استيراد رأس المال الأجنبى الى شرق افريقيا خاصة رأس المال الهندى ، وادى هذا الى تغلغل النفوذ

---

(118) Zwanenblrg & Anne King. op. cit., pp. 166-168.

الاقتصادى الأجنبى الهندى ، وأصبح الهنود طبقة طفيلية أثرت بدرجة كبيرة من اقراض الأموال للعرب وتحصيل فوائد كبيرة عليها ، ومن عمليات الوساطة التجارية بين قوافل التجارة العربية والوكلاء التجاريين الأجانب ، ومن احتكار ادارات الجمارك سواء فى زنجبار أو مدغشقر ، وتهريب الرقيق، وأساليب الخداع التى مارسوها فى تعاملهم مع الافريقيين فى بعض مدن الساحل وشراء البضائع التى لديهم بثمن بخس . وعلى هذا ضاعت على العرب أرباح كثيرة كان يمكن أن يجنوها من نشاطهم التجارى — هذا على الرغم من أنهم اضطلعوا بالمهمة الصعبة وهى مهمة الولوج الى الداخل وقطع المسافات الطويلة لجمع منتجات الداخل . ومع أن الداخل قد انفتح على الساحل خلال القرن التاسع عشر ، فان ٥٠٪ من التجارة العربية كانت تتم بين الساحل الشرقى والظهير الداخلى القريب ، وظل الظهير الداخلى البعيد يساهم بالنصف الآخر من التجارة ، وهو نصيب ظل اقل من امكانات الداخل الهائلة ، وذلك بسبب صعوبات ومخاطر الداخل وارتفاع نسبة المخاطرة .

وقد خلصت هذه الدراسة الى النتائج التالية :

١ — ان النشاط التجارى العربى خلال القرن التاسع عشر فى شرق أفريقيا تركز أساسا حول دور العرب فى تجارة القوافل فى الداخل ، وكان دورهم فى التجارة الخارجية هامشيا ، واعتمد هذا النشاط فى جزء كبير منه على التمويل الاجنبى خاصة التمويل الهندى ، وكانت أرباحه قليلة بسبب ارتفاع عنصر المخاطرة وفوائد القروض العالية .

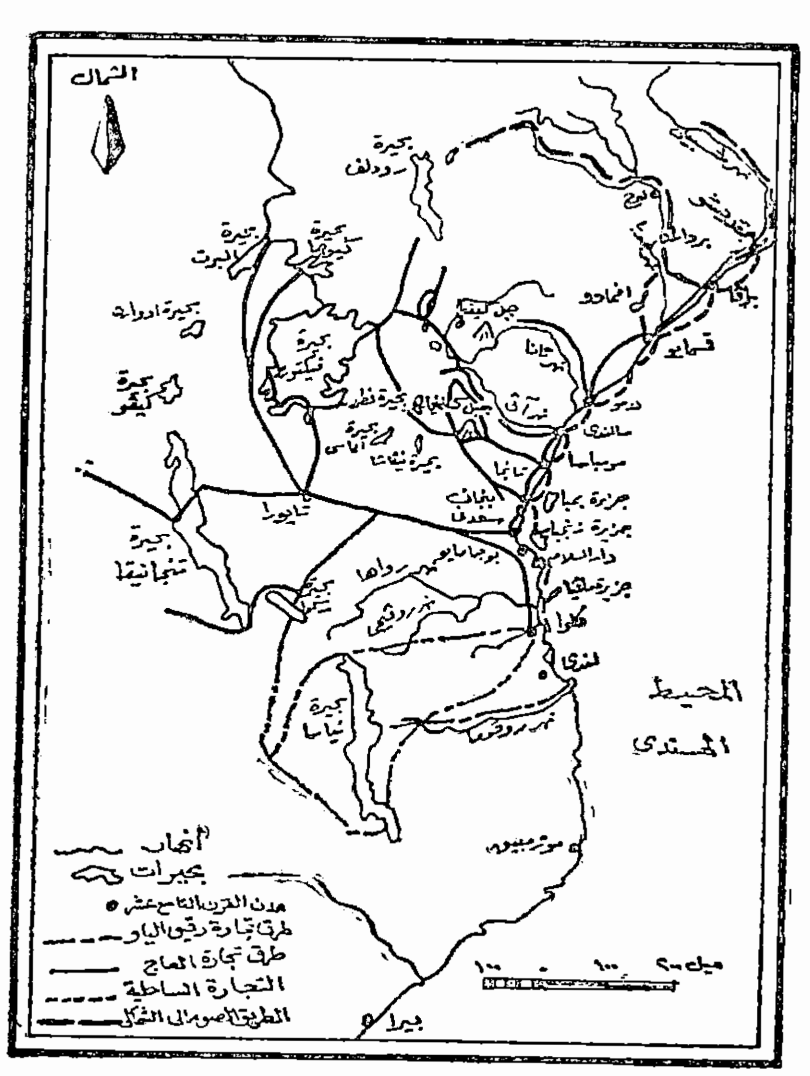
٢ — ان دور العرب فى تجارتى الرقيق والعاج لم يكن مرتبطا بالعنف واحداث الدمار فى الداخل دائما حسبما يظهر فى كتابات الرحالة الأجانب ، وانما كان هذا العنف نادرا لأن الرغبة فى شراء الرقيق والعاج دفعت القبائل الافريقية الى صيدهما طمعا فى بيعهما للعرب ، وكان ما ورد فى كتابات هؤلاء الرحالة مبالغا فيه من ناحية ، ومرتبطا فى معظمه بنشاط القبائل فى صيد الرقيق أو الفيلة .

٣ — ان هذا النشاط قد أسفر عن نتائج ايجابية اجتماعية واقتصادية وثقافية عديدة ، غير أن هذا النشاط مهد بطريق غير مباشر للتغلغل الأوروبى

فى شرق افريقيا من خلال امكانات الداخل وارشاد الرحالة الى طرق الولوج اليـــه .

٤ — ان هذا النشاط قد انسحبت آثاره على النمو الاقتصادى فى الساحل والداخل ، غير أن جزءا من موارد الداخل الاقتصادية قد استنزف لحساب اقتصاد راسمالى دخلت زنجبار وشرق أفريقيا فى دائرته نتيجـــة اضطراد علاقتها مع العالم العربى .

٥ — ان النشاط التجارى العربى الخارجى تركز خلال فترة كبيرة من القرن التاسع عشر حول النشاط التجارى غير المشروع من تهريب للرقيق وشحنه وتجارة السلاح النارى ، وتواطأت التجارة العربية الساحلية مـــع الأجانب من أوروبيين وامريكيين أو أسيويين من أجل سلامة وصولهما الى منافذ الاستيراد ، واشترك فى هذا النشاط التجارى الخارجى عناصر عربية من شرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية . وكانت أرباح العرب من التجارة الساحلية الخارجية تفوق ارباح تجارة القوافل لعدم اعتمادها على التمويل الخارجى غالبا .



طرق التجارة العربية والإفريقية في القرن التاسع عشر
في شرق إفريقيا

العرب والكونغو

فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر

دكتور يواقيم رزق مرقص

بعد أن استقر العرب العمانيون فى شرق أفريقيا ، وأسسوا لهم مدنا تدين بالولاء لسلطان مسقط ، بدأوا يدخلون آحادا الى الداخل ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، وراء جمع العاج ، الى ان جاء عهد السلطان السيد سعيد فلقوا منه التشجيع ، ومضوا يدلفون الى وسط القارة فى شكل رحلات قصيرة تطول الواحدة عن الأخرى ، حتى حل عام ١٨٥٦ وصلوا الى اكثر من الف ميل داخل افريقيا ، واتخذوا لهم مراكز تجارية فى أرض الأونياموزيزى(١) .

عوامل دفعت العرب للدخول الى الكونغو :

اولا : عدم توقعهم مقاومة جادة من السكان الأصليين ، نتيجة لسرعة تعرف العرب على عاداتهم واحترامهم لها .

ثانيا : اجادتهم الملاحة ، فاستغلوا أفرع نهر الكونغو ، كنهرى اللوالابا، واللومامى ، مما سهل عليهم الدلوف الى اغوار الكونغو وغاباته الكثيفة .

ثالثا : غنى الكونغو بالعاج ، وكان سلعة مطلوبة فى أسواق الساحل يأخذه الأجانب الى أوروبا ، وهى السلعة الوحيدة التى كانت تتحمل النقل لمسافات طويلة على خلاف محاصيل قلب القارة الأخرى(٢) .

---

(١) يواقيم رزق مرقص : حميد بن محمد المرجبى والوجود العربى فى الكونغو ، ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٥ ، ص ص ١–٥ .

(2) Oliver, R. : A history of East Africa. vol. I, London 1963, p. 267.

طرق التجارة العربية الى الكونغو :

اكتشف العرب ــ خلال جولاتهم داخل القارة ــ عدة طرق أوصلتهم الى الكونغو ، وكانت رحلتهم الى الكونغو تنقسم الى مرحلتين :

الأولى : تبدأ من الساحل الى ضفاف بحيرة تنجانيقا .

الثانية : من بحيرة تنجانيقا الى أفرع الكونغو متجهين نحو مصبه .

فطرق المرحلة الأولى تشتمل على طريق من بجامويو وينجه جنوبا ليصل الى أولى المحطات العربية فى الطريق وهى طابوره Tabora على بعد ٦٠٠ ميل من الساحل الشرقى لأفريقيا ، ثم ينتهى الى شواطىء تنجانيقا، وطريق ثان جنوبا يبدأ من كلوا الى بحيرة نياسا ، ثم يدخل الى وسط القارة . أما طريق المرحلة الثانية فساروا فيها غربا الى داخل الكونغو مستعملين أفرعه ، كنهر اللوالابا ، أو شمالا خلال فرع أرويمى ليصلوا به الى شمال شرق الكونغو الغنى بالعاج(٣) .

ولم تكن هذه الطرق سهلة ، اذ كانت تجوس داخل ظلام الغابات الاستوائية الكثيفة ، بما حوته من أخطار ، فضلا عن شدة مراس الزنوج ، الا أن ظروف تفكك البانتو فى منطقة المانييما شرقى الكونغو خففت من تلك الأخطار(٤) .

وأمام انتشار التجارة فى منطقة شرق الكونغو ، وارتباط العرب بمواسم صيد الأفيال ، أو مواعيد وصول الرقيق لحمل العاج الى الساحل ــ حيث كانت أسهل وارخص الوسائل لنقله ــ بدأوا يستقرون ولو الى حين فى تلك البلاد ، فجعلوا يستغلون وجودهم فى زراعة بعض المحاصيل التى تخدمهم ، مستعينين بالوطنيين ، ومن ثم عاشوا فى تجمعات مدنية مثل :

---

(3) The Journal of African history, vol. XI 1970, p. p. 535-537

(4) Slade, R. : King Llopold's Congo, London 1962, p. 39. &

صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ، ١٩٧٩ ، ص ٧٨ .

(5) Stanley, Th : Stanley's way, London 1960, p. 69.

طابـــورة Tabora :

وكانت أكبر المستوطنات العربية شرقى تنجانيقا ، على بعد ٦٠٠ ميل من الساحل الشرقى الافريقى ، كما كانت ملتقى عدة طرق من الشرق الى الكونغو ، فضلا عن خصوبة أرضها ، عاش فيها وجهاء العرب ، وبلغوا ١٢٥ أسرة عربية فى نهاية القرن التاسع عشر ، كما ساكنهم فيها الهنـــود والزنوج ، وعاشوا عيشة ترف ، كانت محل وصف الأجانب(٥) .

أونيانيمبى Unyniembe :

وسط أرض الأونياموزيزى ، أسسها العرب عام ١٨٤٠ على ملتـــقى الطرق المتجهة من تنجانيقا الى الكونغو ، والآتية من فيكتوريا واوغندا جنوبا الى أوسانجا . ورغم سوء مناخها وانتشار الملاريا فيها ، فقد تحملها العرب، لأنها كانت سوقا رائجة ، قايض فيها الوطنيون عاجهم ورقيقهم العرب بالخرز والأسلاك ، كما كانت محطة استبدال للحمالين(٦) .

أوجيجى Ujiji :

أسسها العرب على مرفأ صغير ، فى الشاطىء الشرقى لبحيرة تنجانيقا لتكون منطقة عبور البحيرة الى داخل الكونغو ، وقد قاسمهم الزنوج سكناهم فيها، صنعوا فيها القوارب التى حملت البضائع والركاب داخل انهار الكونغو ، كما استغلوا طبيعتها فى زراعة الأرض بالحدائق والمحاصيل التى كانت تلزمهم — كالأرز — فى مستنقعاتها التى اصطادوا منها فرس النهر ليستخرجوا أسنانه للزينة(٧) .

كازيـــه Kazeh :

كانت على بعد ٦٠٠ ميل ، وكانت شمالى طابوره ، التقى فيها العرب ، والبلوخ ، والهنود فى تجارة رائجة ، ورغم قلة عدد العرب فيها ، الا أنهم كانوا اصحاب رؤوس أموال كبيرة ، فعمل الهنود لديهم(٨) .

---

(6) Burton, R. : The Lake regions of Central Africa, vol. I, p. p. 325-326.

(7) Stanley, H. M. : Through the dark Continent, vol. 2, London 1878, p. 1-2.

(8) Burton, R. : op. cit., vol. I, p. 326-328.

علاقة العرب فى تلك المناطق بزنجبـــار :

ان كان العرب قد عاشوا فى تلك المناطق بعيدا عن حكومة زنجبار ، الا انهم كانوا على اتصال بها ، خاضعين لها ، وكانت حكومة زنجبـــــار تشاركهم تمويل مشروعاتهم ، ولقد كان النفوذ العربى واضحا عندما خضعت قبائل وسط القارة لحكومة زنجبار ، وان كان ذلك يختلف باختـــلاف قوة الوطنيين ، فكان العرب يعتبرون مسئولين عما يدور فى الداخل ، لدرجة أن الرحالة الأجانب كانوا يخصمون السلطان فى زنجبار فى دعاوى التعويض عندما كان يلم بهم أذى من الزنوج(٩) .

علاقة العرب بالزنوج فى وسط القارة :

التمس العرب فى تلك المناطق سياستين ، سياسة مسالمة الزنوج الذين رأوا فيهم استجابة للسلم ، فقام بينهم نظام التآخى بين زعمائهم وبين الرؤساء العرب ، وتبادل الطرفان الهدايا والزيارات ، وخاصة من دخل منهم الاسلام(١٠) .

وسياسة اللجوء الى السلاح اذا ما لمسوا فيهم غدرا أو خيانة ، الا ان الأمر بين هذا وذاك كان يتوقف على مدى نقل الجالس على عرش زنجبار ضعيفا كان أم قويا(١١) .

علاقة العرب بالأجانب :

كان للعرب فى القرن التاسع عشر فضل السبق فى كشف عمق القارة الافريقية ، والوصول الى حوض الكونغو ، وجلب ثرواته ، مما لفت أنظار الأجانب والمستكشفين الى تلك البلاد التى كانت « أرضا بلا صاحب » ، فاستغلوا فى العرب جهودهم ومعلوماتهم وحمايتهم فى وصولهم الى الكونغو .

---

(٩) صلاح العقاد ، وجمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(10) Cameroon, R. : Across Africa, vol. I, London 1877, p. p. 332-334.

(11) Coupland, R. : The Exploitation of East Africa, London 1939, p. 67.

وعندما بدأ المستكشفون الأوروبيون يفكرون فى الولوج الى وسط القارة بمساعدة العرب ، ارتبطت جهودهم برجل عربى كان أول من دخل الى الكونغو بشكل منظم فى أعداد غفيرة من التجار والصيادين العرب فى شكل حملات تجارية عسكرية مخطط لها بأكثر نظام ممن سبقوه ، وكان هذا الرجل العربى هو « حميد المرجبى »(١٢) (تيبوتيب) الذى كان له فضل الريادة فى الدخول العربى المنظم الى الكونغو ، كما كان له فضل ارشاد وحماية معظم المستكشفين الأوروبيين لتلك البلاد ، أمثال : بيرتون ، وديفيد لفنجستون ، وستانلى وغيرهم ، وهكذا بدأت العلاقة سلسلة تحققت من خلالها انجازات علمية كبيرة ، ثم ما لبث أن تعكرت عندما دخلت فيها الميول الاستعمارية كما سنرى .

التوسع العربى فى الكونغو أيام تيبوتيب :

قام هذا الرجل بثلاث رحلات الى الكونغو بهدف الاتجار فى العاج والرقيق ومحاصيل وسط القارة ، وجرى فى ركابه المستكشفون والطامعون فى الأرض والجاه من الأجانب ، وبعد ذلك استقر بعض الوقت لينشىء وجودا عربيا منظما فى داخل تلك البلاد ، ما لبث أن تعارض والأطماع الاستعمارية للبلجيكيين الذين كان له فضل ارشادهم وتأمين من أرسلوه من مستكشفين ومستعمرين ، فقامت الحروب بينه وبينهم ، انتهت بالقضاء على الوجود العربى وقيام دولة الكونغو الحرة ملكا خاصا للملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك ، مخلفين بعدهم حضارة عربية سنعرض لها فى حينها .

وكانت رحلاته الثلاث فى سنوات ١٨٥٠ ، ١٨٦٢ ، ١٨٧٤ على التوالى ، كانت الثالثة هى أهمها ، فقد وطدت الوجود العربى فى الكونغو ، كما كانت بداية الصراع بين العرب والمستعمرين ، الذى انتهى بابعاد العرب وحلول البلجيك محلهم ، ولكن كمستعمرين .

الوجود البلجيكى فى الكونغو :

عندما دخل العرب فى موجتهم الثالثة مع تيبوتيب عام ١٨٧٤ كان يصاحبهم فيها الرحالة هنرى مورتون ستانلى ، وظل معهم طيلة سنوات

---

(١٢) لمزيد من التفاصيل عن المرجبى يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ص ٣١ وما بعدها .

ثلاث حتى عام ١٨٧٧ ، وكان موفدا فى هذه المرة من قبل الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا ، بقصد ظاهرى ، هو استكمال كشف حوض الكونغو وقمع تجارة الرقيق ، وسبب حقيقى هو تهيئة الكونغو ليكون ملكية خاصة للملك . وطرح الملك هذا الموضوع على الجمعية الجغرافية فى بروكسل عام ١٨٧٦(١٣) ، وقد أثار هذا الاجتماع كلا من فرنسا وانجلترا لتنازع المصالح الاستعمارية فى الشرق والوسط من أفريقيا ، وقد تركت انجلترا والدول الأوربية المستعمرة لشرق افريقيا منطقة الكونغو لليوبولد مقابل تركه شرق أفريقيا لها ، وقد استخدم الأخير أمواله الخاصة فى كشف الكونغو وتوطيد سلطانه هناك ، ليكون ملكا خالصا له(١٤) .

بدأ ليوبولد خطواته التنفيذية نحو تحقيق مشروعه باصدار أمره الى ستانلى بتأسيس المحطات البلجيكية على أفرع نهر الكونغو لتكون مناطق استراتيجية له مستقبلا ، مثل : فيفى ، وأوجوى ، وايسانجيلا ، ومانينجا ، ومسوتا وغيرها(١٥) ، بمساعدة العرب الذين لم يكونوا يعرفون ما سيترتب عليها ، تلك التى ثارت بشأنها تيارات سياسية بين الدول الاستعمارية المهتمة باستعمار أفريقيا ، والذى انتهى بالتئام مؤتمر برلين الشهير فى ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ، والذى أخذ فيه الكونغو نسبة من قراراته بشأن حرية الملاحة والتجارة فيه ، وانبثق عنه اعتراف انجلترا بقيام دولة الكونغو الحرة ، وعلى ادارته بمعرفة الملك ليوبولد الثانى(١٦) .

---

(13) Bourne, F. : The other side of Emin Pacha reieif expedition, London 1891, p. 26.

(14) Woolf, L. . Empire and Commerce in Africa, London 1920, p. 305 &

شوقى الجمل : كشف افريقيا واستعمارها ، ص ٢٩٦ .

وعن تفاصيل هذا المشروع البلجيكى يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ١١٨ وما بعدها .

(15) Ceullemans, R. P. · La question Arabe et Le Congo 1883-1892, Brussel 1958, p. 56-58.

(١٦) شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

العلاقات العربية البلجيكية فى الكونغو فى هذه الفترة :

فى بداية الأمر لم تكن هناك علاقة مباشرة بين البلجيك والعرب ، وانما كانت من خلال ستانلى ، الذى كان حريصا على أن يسلك معهم سلوكا وديا، حتى ينال قسطا من تعاونهم وحمايتهم ، وحتى تتوطد الأمور للادارة الجديدة فى تلك الأصقاع النائية شديدة الوعورة ، وكان يوصى الضباط البلجيك — الذين تركهم فى حراسة المحطات البلجيكية هناك — بألا يظهروا أى غلظة للعرب ، الأمر الذى جعلهم يركنون اليهم ويحسنون به الظنون(١٧) !!

الا انهم رغم هذا ، كانوا يحسون أن وراء هذه التنظيمات التى لم يعهدوها من قبل شيئا غريبا ربما يحدث ، الا أن هذا الاحساس لم يلبث أن طوته حسن نيتهم ، وحسن معاملة الضباط ، حتى انهم اصطحبوا تيبوتيب لاكتشاف بقية ما لم يكتشفوه من أرض الكونغو(١٨) . فضلا عن أنه استطاع بهم أن يعيد تنظيم الكونغو فى عام ١٨٨٣ ، حيث بدأت صفحة جديدة من العلاقات العربية البلجيكية ظاهرها الاحترام المتبادل بينهما ، كسبت منه دولة الكونغو كسبا اقتصاديا عوض الملك ما أنفقه من قبل .

فقد أنزلت الدولة عدة بواخر فى فروع الكونغو ظنها العرب لتيسير نقل التجارة ، ولكنها وزعت السلاح على المحطات البلجيكية هناك ، وأعطت منه قدرا يسيرا هدايا للعرب الذين انحنوا — بكرمهم — أمامهم ، وأجزلوا لهم العطاء : عاجا وسلعا وخدمات بشكل أكثر من ذى قبل .

ولعل العرب فى ذلك كانوا مدفوعين أيضا بسبب ضعف السلطان برغش سلطان زنجبار آنذاك ، الذى سيطر عليه الانجليز ، فضاعت مهابته، وانعكس ذلك على العرب فى الكونغو(١٩) .

---

(17) Warner, J. R. : A visit to Stanley Rear Guard, London 1889, p. 88-89.

(18) Masui, Th. : Guide de la section de l'Etate independant du Congo, Brusseles 1897, p. 29.

(١٩) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

بعد أن التقط البلجيكيون انفاسهم فى الكونغو ، من الناحية الاقتصادية والأمنية ، وكذلك من الناحية السياسية مع الدول الأوروبية ، بدأوا يقلبون للعرب ظهر المجن ، بهدف التخلص منهم كآخر مناوىء لهم هناك .

وفى تلك الفترة أيضا كان العرب هناك قد خلدوا الى الهدوء ، يروجون لتجارتهم ، ويسيرون قوافلهم ، زرعوا الأرض ، ونشروا أموالهم فى أمان حتى مشاركة للاجانب انفسهم ، جاهلين ما بدأ البلجيكيون يحيكونه لهم فى الكونغو وفى أوربا ، والمحافل الدولية ، بهدف تشويه سمعتهم واستنفار القوى ضدهم ، حتى اذا ما أتت الساعة لا يجدون من ولى ولا نصير .

وفعلا تركوا المبشرين والرحالة يكتبون عن تجارتهم فى الرقيق ، فمسخوا صورهم أمام العالم ، عندما وصفوهم وهم يسوقون الرقيق امامهم ، فى شكل قطار حزين الى الساحل ، مكبلة رقابهم فى أصفاد من حديد ، أو افرع غفل من الأشجار ، واستجابت أوربا فى تلك الفترة لما كتبوا ، فسالت الأقلام والأموال على من يوقف هذا النزيف الآدمى الذى تلطخت به يد العرب(٢٠) .

من أجل هذا كانت مجموعات مناهضة الوجود العربى فى الكونغو من عناصر أوربية بالاضافة الى البلجيك ، وتفرقوا فى شرق القارة ووسطها، ليحدقوا بهذا الخطر ، وكان نصيب البلجيك مناهضة عرب الكونغو ، بعد أن أقر الجميع على ضرورة مناهضتهم هناك .

فضلا عن استفادة البلجيكيين من ربط انجلترا بين ما يدور فى السودان بين الانجليز والمهديين ، وبين ما يمكن أن يماثله فى الكونغو ، وبذلوا كل الجهود فى القضاء عليهم(٢١) .

---

(20) Coupland, R. The Exploitation of East Africa, p. 138-139.

(٢١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تيبوتيب — مجلة نهضة افريقيا ، العدد الأول ، السنة الأولى ١٩٥٧ ، ص ١٧ ، ١٨ .

سياسة القضاء على العرب فى الكونغو(٢٢) :

بدأت سياسة الغدر بالعرب منذ عام ١٨٨٤ ، عندما غير ستانلى من أسلوب تعامله مع العرب الى العكس ، فبدأ يستولى على تجارة العاج ويحتكرها ، ويكره التجار العرب على الاتجاه بما تبقى لهم من عاج وسلع أخرى الى الساحل الغربى لأفريقيا وليس كسابق عهدهم الى الشرق منها ، وذلك بهدف احلال القطيعة بينهم وبين بنى جلدتهم فى زنجبار ، فيخسر السلطان هنا كأمامه بسبب انقطاع المدد المالى عنه .

فضلا عن اتباعه سياسة الحصول على توقيعات من العرب والزنوج — فى فترة غياب تيبوتيب فى الساحل الشرقى — بالتنازل عن حرياتهم للبلجيك ، والعيش تحت سيطرة الملك ليوبولد(٢٣) .

فلما عاد تيبوتيب خالف كل ما وقعوا عليه ، وبدأ يجمع العرب حوله للدخول فى معركة مع البلجيك ، اقتصاديا بمنع التعامل التجارى معهم، وحربيا باللجوء الى امتشاق الحسام ، خاصة وأن جون كيرك — القنصل الانجليزى فى زنجبار — كان يدفع السلطان الى توسيع نفوذه فى وسط القارة ، وأوعز اليه بمساندة تيبوتيب والعرب فى منطقة مساقط الكونغو ، وكان فى هذا يهدف الى استخدام العرب كمخلب قط يوقف به أى تقدم أوربى وسط افريقيا ، ريثما تحين الفرصة ، وتهبط انجلترا من السودان اليه(٢٤) .

أمام هذا ، وازاء عدم ثقتهم بعد فى الزنوج ، لجأ البلجيكيون الى مهادنة العرب من جهة ، ومحاولة اثارة زعمائهم بعضهم على بعض لشق صفوفهم ، وفعلا ساد الهدوء العلاقات العربية البلجيكية فترة عام ١٨٨٥ ،

---

(٢٢) مرت مسألة الوجود البجليكى فى الكونغو بمراحل عديدة حتى خلصت ملكا خاصا للملك ليوبولد ، وذلك فى دهاليز السياسة والحكومات البريطانية والبلجيكية والألمانية وغيرها ممن كانت لهم مصالحهم فى شرق ووسط افريقيا ، يمكن الرجوع اليها فى رسالة يواقيم رزق مرقص المشار اليها ، حيث أننا ركزنا البحث على العرب وما قدموه وما نالهم فى الكونغو .

(٢٣) الشاطر بصيلى : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(24) Ceulemans, R. : op. cit., p. 65.

حيث بدأ الاعلام الأوربى المتعاطف مع البلجيك ينفر الراى العام ضد العرب، فنقلوا عن الصحافة البلجيكية معلومات تفيد بأن العرب مستمرون فى غزوهم لأقاليم الكونغو العليا ، وأن (عصاباتهم) تهدد المحطات البلجيكية هناك .

كما لجأت الصحافة هذه الى الربط بين الوجود العربى فى الكونغو وبين حركة المهدى فى السودان ، وعدت تيبوتيب من اتباعه ، وابرزت صحف انجلترا ثأر مقتل غوردون لتستدر عواطف أوربا ضد العرب . وحتى القنصل الامريكى فى زنجبار أذاع تقريرا حول تسيير جنس مسلم من داخل أفريقيا الى الشمال والى الساحل الغربى ، وان الأوروبيين فى الكونغو فى خطر(٢٥) .

واستغل ليوبولد هذا الموقف وأرسل الرجال والسلاح الى هناك للدخول فى معركة فاصلة مع العرب ، الذين كانوا بقيادة « سيفو » ابن تيبوتيب نظرا لغيابه فى الساحل الشرقى ، وكان البلجيك بقيادة دين Dean وهو انجليزى الأصل ، التحق كقائد للقوات البلجيكية المرابطة عند ستانلى فولز فى مواجهة المنطقة العربية ، وبدأ دين يتلمس الاخطاء للعرب ، حتى بدأت الحرب بينهما فى يولية عام ١٨٨٦ ، وكان مع العرب — فى تلك المعارك — عدد غفير من زنوج المانييما . وبوصول تيبوتيب ، اشتد ساعد العرب الذين استطاعوا التغلب على البلجيك ومن معهم من المرتزقة ، وقتل دين ، واستعادوا كثيرا من الأراضى التى كانت تحت أيديهم .

وازاء هذا النصر ، وما اعترى القوات البلجيكية من الضعف والخوف ، وتوجس ليوبولد من أن تكون انجلترا وراء تيبوتيب لتستخدمه مخلب قط ضده فى الكونغو ، لتضيع عليه فرصة تملكه للكونغو الحرة ، وما أصابه من عسر مالى بعدما أنفقه فيها ، لجأ الى مهادنة العرب مرة أخرى ، بل وعرض على تيبوتيب أن يكون حاكما من قبله على منطقة ستانلى فولز ، وقائدا للعرب الذين استوطنوا تلك المناطق ، ومنفذا لسياسته فى الكونغو الحرة(٢٦) ، وكان ذلك عام ١٨٨٧ .

---

(25) Slade, R. : King Leapold's Congo, p. 90-92.

(٢٦) عن تفاصيل هذه المعارك ، يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ١٦١ وما بعدها .

الا أن تعيينه لم يأت بالثمر المطلوب ، لأنه اغضب العرب ، بسببه تبعيته لليوبولد ، وتوجس الانجليز منه خيفة ، فأرادوا أن يقضوا عليه بجانب ضعف السلطان الذى لم يستطع حمايته .

ازاء هذا قامت عدة معارك من جديد بين البلجيكيين والعرب ، الثائرين لكرامتهم ، وحفاظا على وجودهم بعد أن استطاع البلجيك شق صفوفهم ، وقسموهم بعضهم على بعض ، استمرت حتى عام ١٨٨٩ خسروا فيها الكثير ، بينما حصلت دولة الكونغو الحرة على مزيد من التوسعات .

وبعد أن ساد الهدوء الطرفين قرابة العام ، بدات الحملات البلجيكية من جديد للقضاء على ما بقى من قوة العرب مثل : حملة هوديستر A. Hodister فى وسط الكونغو عام ١٨٩١ ،وحملة دانيس Dahnis ١٨٩٣ ، وحملة فان كركهوفن ، وانتهى امرهم الى حرب ضروس فى عام ١٨٩٤ ضد العرب ، بقيادة دانيس مرة أخرى ، استمرت لمدة عام ، كانت القاضية على الوجود العربى فى الكونغو . سالت فيها دماء الآلاف منهم ، وتشتت الأسر ، وأسر القادة منهم ، وسيقوا الى أوروبا صحبة دانيس ليتأكد من عدم عودتهم مرة أخرى ، أما تيبوتيب فعاد هزيما الى زنجبار ، يجرجر أذيال المرض ، بعد قتل ابنه وقواده ، وذهب ماله وعتاده . واذ رجع ليجد الانجليز متربصين به الدوائر ، حيث لفقوا له تهمة وضع بسببها فى السجن الى أن مات سنة ١٩٠٦ .

اما ليوبولد فقد خلصت له دولة الكونغو الحرة ليعمل فيها الزنوج ومن بقى من آحاد العرب « كأجراء » بعد أن كانوا سادة لسنين عددا مخلفين حضارة عظيمة استفاد منها البلجيك والزنوج من بعدهم(٢٧) .

وضع العرب فى الكونغو فى تلك الفترة :

ترددت الآراء حول وضع العرب فى الكونغو ، فوصفهم البعض بالمستعمرين ، لأنهم وصلوا جماعات ، ثم استقروا هناك مستولين على اقتصاد تلك البلاد ، كما اشتركوا فى تشكيل سياستها وتدخلوا فى

---

(٢٧) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٠١ — ٢٠٦ .

أمورها(٢٨) ووصفهم البعض بأنهم لم يكونوا كذلك ، لأن منهم من كانــوا يعملون لدى سادة من الوطنيين ، وعاشوا سنوات كانت نتيجتها جيل من المولدين ، وكانت تحدوهم رغبة فاترة فى العودة الى الساحل ، ومنهم من اثرى ثراء كبيرا جعل رغبته فى العودة معدومة تماما(٢٩) .

ولكن من الأجانب من فصلوا فى هذا الوضع ، فقالوا بأنهم دخلوا الكونغو أول الأمر فرادى ، أو جماعات غير منظمة ، كتلك الشركات التى دخلت بلادا بقصد التخطيط للاستعمار(٣٠) .

ويقول جونستون — الكاتب الاستعمارى — بأن العرب لم يقوموا هناك بأية محاولة من شأنها اظهارهم بمظهر من أراد الاستعمار أو تأسيس الامبراطوريات ، وانما كانوا مغامرين من أرستقراطى الساحل ، يهدفون — مثل الهنود — الى جمع الثروات بسرعة والعودة الى الساحل(٣١) .

كما انهم لم يغيروا من طبيعة الأرض أو السكان ، بل تركوا الســكان الأصليين على ما هم عليه حتى من دخل منهم الاسلام ، وهم اذا كانوا قد قسوا أحيانا على الزنوج الوطنيين ، فانما كان ذلك لكى يحفظوا لهم مركزا ويؤمنوا تجارتهم وسط تلك الأدغال(٣٢) .

كما يشهد بيرتون صراحة بأن عرب الأونياموزى لم يكونوا مستعمرين أو يبغون الاستقرار ، بل كانوا دائمى التنقل ، وكانت أمنيتهم دائما العودة الى مقرهم فى الساحل(٣٣) .

---

(٢٨) على ابراهيم عبده : التنافس الدولى فى أعالى النيل ، القاهرة ، ص ٣٧ .

(29) Jameson, J. : The story of the Rear Column of Emin Pacha relief Expedition, p. 413.

Oliver, R. : The Missionary Factor, p. 98.

(30) Ingham, K. : A history of East Africa, New York 1967, p. 84.

(31) Oliver, R. : The Missionary factor, p. 98.

(٣٢) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(33) Burton, R. : op. cit., vol. I, p. 366.

أهم آثار العرب فى الكونغــو :

ترك العرب فى الكونغــو آثارا حضارية يتحــاكى بها الكونغوليون والمنصفون من الدارسين الغربيين ، رغم ما صورهم به بعضهم من بشـــاعة فى علاقتهم بالوطنين آنذاك .

فالعرب هناك لم يعيشوا فى عزلة ، ولم يكونوا يضمرون استعمارا وهم بعد التجار المحتاجون الى السلام والأمن فى التعامل ، والتعاون مــع الأهالى(٣٤) ، ومن ثم كانت هناك علاقات بينهم وبين الوطنيين ، افرزت مدنا وثقافة واقتصادا متطورا بالنسبة لمـــا كان موجودا هناك .

ففى المجـــال الثقافى :

أسدى العرب فى وجودهم فى الكونغو أكبر العطايا التى لـــم تكن لتعطى لمثل تلك الجهات ، ككشف الطرق والأنهار والقبائل ، وجمع المعلومات التى قدموها ببساطة الى المستكشفين الأجانب ، مثل : كاميرون وستانلى وديفيد لفنجستون وغيرهم(٣٥) ، واقترنت الكشوف باسمائهم دون هؤلاء الجنود المجهولين ، فلم يكن يجرؤ أحدهم على الدلوف الى جوف القـــارة المظلمة دون تأمين العرب له ، فهم الذين امدوهم — الى جانب الأمن — بالحمالين والمعلومات والتراجمة ، ومواد التموين المختلفة ووسائل الانتقال كالدواب والقوارب(٣٦) . كما كشف العرب الطرق التى ســـــلكها هؤلاء المستكشفون وساروا هم فى أثرهم(٣٧) . لدرجة أن اعترف بعضهم بذلك صراحة ، فهذا لفنجستون يعترف بكل هذا ويضيف أن تيبوتيب أنقذه من الوقوع فى قبضة احدى القبائل الهمجية ، وسهل له أمر رحلته لكشف بحيرة بنجويلو(٣٨) .

---

(٣٤) يواقيم رزق مرقص : الاستعمار البلجيكى وأثره على الوجود العربى فى الكونغو ، بحث ضمن كتاب العلاقات العربية فى الكونغو ، دراسة تاريخية للاثار السلبية للاستعمار ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢٧ .

(٣٥) للمزيد من التفاصيل فى هذا المجال يمكن الرجوع الى : يواقيم رزق مرقص : حميد المرجبى والوجود العربى فى الكونغو ، من ص ٨٨ .

(36) Ceulemans, R. : op. cit., p. 40.

(37) Hinde, S. L. : The fall of the Congo Arabs, London 1897, p. 4.

(38) Oliver, R. : The Missionary factor, p. 41.

وعندما تقدم بيرتون الى الجمعية الجفرافية يطلب أن يذهب لاكتشاف بحر أوجيجى والذى أسماه بعد اكتشافه « بحيرة تنجانيقا » قدم المعلومات التى استقاها من العرب ، وفعلا قام بالرحلة فى ١٨٥٦ ، ثم ان كاميرون اعترف بكرمهم ، وحسن ضيافتهم ، فكرم العرب ومعلوماتهم وقوتهم كانت كلها امورا دخل الكشف فى أعقابها والتفتت أنظار أوروبا الى الكونغو بسببها.

العرب والرقيق :

تحمل العر بعموما تبعة تفشى تجارة الرقيق ، وظهروا هم فى الصورة، رغم مشاركة الدول الأوربية كالبرتغال فيها بتشجيع أوربا وأمريكا لاسخدام الرقيق فى الزراعة هناك .

وشهد كاميرون فى تقرير له عام ١٨٧٦ قدمه للجمعية الجغرافية ، بأن هذه الظاهرة كانت تسبق الوجود العربى فى أواسط القارة ، وأن الرؤساء الافريقيين هم الذين كانوا يقدمون بنى جلدتهم كسلعة للاتجار فيها ، وأن البرتغاليين هم الذين كانوا وكلاء تصديرهم للخارج، وان العرب اشتروهم لخدمة المنازل أو فلاحة الأرض(٣٩) . الا انه من جماع وضع الرقيق تبين أن العرب قد أسهموا فى هذه التجارة امام بريق الكسب الكبير الذى أبرزه لهم الأوربيون الذين عادوا ونددوا بهم(٤٠) . ويشهد الرحالة الذين عايشوا هذا الوضع بأن العرب قدروا فى الرقيق مهارتهم فنالوا على يديهم قسطا من التعليم ، وقدرا من الفنون والحرف والصناعات اليدوية ، والتمرس عى التجارة(٤١) . حتى البنات الصغيرات من الاماء اهتم العرب بهن ، فعلموهن القراءة والكتابة فى بيوتهم ، ودخلن الاسلام ، وحفظن كثيرا من القرآن الكريم(٤٢) .

---

(39) Elton, J. F. : Travels and researches among the lakes, London 1879, p. 3.

(٤٠) جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا، القاهرة، ص٦٦.

(41) Stanley, H. M. : The Congo and the founding of its free State, vol 2, p. 360-361.

(42) Waller, H. : The last journals of D. Levingstone in Central Africa, London 1889, p. 237.

وقد تأثر الأهالى بمعاملة العرب الطيبة ، عندما حتمت عليهم الظروف البقاء لسنوات بينهم ، واقلعوا عن عادات سيئة كانوا يتصفون بها ، كأكل لحوم البشر ، والقتل للتسلى ، ودربوهم على أعمال الحراسة ، واخضعوهم لما يشبه النظم العسكرية(٤٣) .

المدن العربية فى شرق الكونغو :

ان الظروف التى حكمت تنقل العرب وسط افريقيا حتمت عليهم الاستقرار فى تجمعات أصبحت مدنا فيما بعد ، ومراكز احتكاكات حضارية بين العرب والكونغولويين ، لدرجة أن دخل بعضهم أفصالا للعرب مثل نجونجولوتيتا وبانيا — موتومبو ، ولوبنجو من زعماء الكونغو آنذاك ، وحاكوا العرب فى تخطيط مدنهم وعماراتهم ، تلك النظم السواحيلية التى مازالت تعتبر تراثا لتلك الحقبة(٤٤) .

ومن أهم هذه المدن :

نيانجوى Nyangwe :

كانت أهم المدن العربية فى الكونغو ، جنوبى مانييما ، شرق خط طول ٢٦ر١٦ درجة ، على ربوة عالية ، يحدوها ريف مفتوح ، ضمت أكثر من ثلاثمائة بيت عربى عام ١٨٦٨ بعائلاتهم وعبيدهم وحيواناتهم ، وترجع أهميتها الى جمال موقعها وطيب هوائها ، كما كانت ملتقى عدة طرق آتية من الساحلين الشرقى والغربى لأفريقيا ، فكانت سوقا للتجار العرب والبرتغاليين ، سميت (كينوكو) بلغة البانتو ، عرضت فيها السلع كالعاج والودع والخرز وأسلاك الحديد والنحاس ، والخضر والحبوب والرقيق والحيوانات والطيور(٤٥) .

---

(43) Jameson : op. cit., p. 242.

(٤٤) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤٥) للمزيد من الوصف يرجع الى :

Stanley, H. M. : Through the Dark Continent, vol 2, p. 117 & Burton, H. The lake regions p. 333.

كاســـونجو Kasongo :

تقع جنوبى نيانجوى ، سكنها عام ١٨٦٨ حوالى ٣٠,٠٠٠ أغلبهم من العرب أزيلت من حولها اشجار الغابة العذراء ، ليزرع قصب السكر والذرة والارز والفواكه ، واعتمدوا فيها على أنفسهم(٤٦) .

كيبونجى Kibonge :

وهى مدينة عربية كبيرة ، تحت ادارة رجل كان اسمه كيمونجى ، وكان يعمل وكيلا لرجل عربى « سعيد بن عبيدى » من سكان نيانجوى .

كاســـوكو Kasuku :

وهى قرية عربية يقسمها نهر كاسوكو ، ورغم صغرها نســـبيا عن سابقاتها ، الا أن التأثير العربى كان ظاهرا فيها .

ريبـــا ريبـــا Riba Riba :

كانت قرية عربية كبيرة ، تحت امرة عربى هو « محمد بن حاميس » ، امتلك مساحات واسعة فى الشاطىء الغربى لنهر الكونغو .

كابانجـــا kabanga :

قرية وطنية كبيرة ، كانت لها سوق كبير ، كما كانت مركزا من مراكز التجارة العربية شرقى حوض الكونغو(٤٧) .

وهكذا كانت المدن العربية بمثابة محطات لتجميع خيرات الكونغو ، واماكن احتكاك حضارى ظهرت ثمارها فى :

الدين والثقـــافة :

لم يمارس العرب فى الكونغو ضغطا على الوطنيين ، ولم يفرضوا عليهم حضارتهم ، كما لم يكن نشر الدين هدفهـــم ، لأنهم فى رحلتهم الى الكونغو أو حلهم هناك ، كان للتجارة بالدرجة الأولى ، الا انهم عندما كسبوا

---

(46) Lewis, I. . : Islam in Tropical Africa, London 1969, p. 176.

(47) Jameson : op. cit., p. 454.

الأهالى الى جانبهم كان على حساب الأوربيين الذين بذلوا جهدا كبيرا فى التبشير ، الذى كان الاستعمار فى ركابه ، وقارن السود بين كبرياء الأبيض وجفاف معاملته واسترقاقه لهم ، وبين من عايشوهم يدا بيد فى العمل والطعام .

ولقد فشل الأوربيون اكثر من مرة فى نشر المسيحية ، لأن الوطنيين احسوا بأن مراكزهم انما كانت شراكا لاصطياد الرقيق ، بينما كانت دوافعهم للدخول فى الاسلام :

أولا : ما رأوا من مكانة العرب المسلمين ، وتفوقهم عنهم فى المنعة ، ورغم هذا لم يكونوا متكبرين عليهم(٤٨) .

ثانيا : لم ينكر الاسلام عليهم بعض عاداتهم أو تقاليدهم الاجتماعية مثل تعدد الزوجات .

ثالثا : كان فى الاسلام عتق لهم ، فسارعوا الى الدخول فيه ، لما عرفوا أن المسلم لا يسترق(٤٩) ، كما لم يكن اسلام العبيد فرض أو ابعاد له عن تقاليده .

ومن أهم آثار انتشار الاسلام فى الكونغو كانت اللغة العربية ، فهى لغة القرآن والصلاة ، كما انتقلت اللغة السواحيلية أيضا الى هناك ، ويقرر لورد منتمور — الذى زار بلاد ارويمى فى شرق الكونغو عام ١٩٠٥ — انه وجد زعماءهم يقرأون القرآن ويتكلمون اللغة العربية(٥٠) .

وقد بلغ من اعجابهم بالعرب المسلمين أن قلدوهم فى ملبسهم ، فلم يعودوا يرضون بالعرى ، وانما ارتدوا الملابس البيضاء الفضفاضة الطويلة ،

---

(٤٨) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤ — ٣٦ .

(49) Lewis, I. M. : op. cit., p. p. 187-255.

(50) Groves, C. P. : The planting of Christianity in Africa, vol. 3, p. 134.

ووضعوا عمامة على رءوسهم(٥١) . ومارسوا معهم طقوسهم الدينية ، كسجودهم فى الصلاة ، واحتفالاتهم بالأعياد الاسلامية ، واغتسلوا معهم فى وضوئهم(٥٢) حتى صاموا معهم شهر رمضان ، وان كان على غير فهم كامل ، ولكن لأن المسلمون يؤمنون بالغيبات ، وهم لهم فى ميثولوجياتهم كذلك ، دهشوا للاذكار التى اقامها المسلمون ، فشاركوهم اياها مستعملين طبولهم ، مرددين معهم « لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٥٣) .

وان الذين دخلوا منهم الاسلام ، دخلوه على المذهب الشافعى ، على نهج عرب الشرق الذين كانوا شافعيين(٥٤) .

التعليم :

كان معظم العرب الذين رحلوا الى الكونغو يعرفون القراءة والكتابة والحساب ، مما تستلزمه حياتهم التجارية ، ثم انهم كانوا يحفظون القرآن ، ويقرأون كتب الدين ، ولهذا اهتموا فى مهجرهم بتعليم صغارهم وصغار الزنوج ، وكانت العملية التعليمية الزامية . وصرفوا عليها الكثير حتى لا تنقطع صلة الأطفال العرب الروحية بأصلهم العربى الاسلامى(٥٥) .

وقد شاركهم أبناء الزنوج كل هذا ، بل كانوا يرسلون أبناء زعماء الزنوج الى زنجبار ليستكملوا تعليمهم هناك(٥٦) . وبقدر ما اعتنوا بالتعليم النظرى كأساس ، عنوا بتعليم الأولاد زنوجا وعربا ، حرفا منها يرتزقون مثل : الفلاحة ، والبناء ، وصناعة الطوب ، والتجارة ، وصناعة السلاح . بل

---

(51) Slade, R. : op. cit., p. 85.

(52) Rene, L. : Political awaking in the Belgian Congo, Los Angeles 1954, op. 30.

(53) Waller, H. : op. cit., p. 275.

(54) March, Z. : East Afri a through Contemprory Records, Kamb. 1961. p. 78.

(55) Rene, L. : op. cit., p. 233.

(56) Waller, H : op. cit., p 281.

ازاد العرب من اهتمامهم بهذا النوع من التعليم عندما واجهوا ضـــغط الارسـاليات الأوربية ، ففضلا عن تعليمهم الحرب — كما ذكرنا — علموهم التجارة والترجمة ، وجعلوا من رقيق المنازل خدما — رفعا لشأنهم — مما كان له أثره فى انتشار الاسلام والتمسك به دينا ودنيا ، ومهـد لادخال بعثات اسلامية حقيقية ، مثل البعثة الأحمدية عـام ١٩٣٥ الى تنجانيقا وطابورا(٥٧) .

كان هذا التطبيق للدين الاسلامى حافزا للزنوج أن يدخلوه أفواجا ، بعكس ما كانوا يرونه فى الأوروبيين الذين ما كانوا يطبقون ما يعلمونهم اياه ، فضلا عن أن الذين دخلوا المسيحية وتعلموا على يد الارساليات ، أصبحوا لا يصلحون للحياة الافريقية ، بل ودون الصلاحية للحياة الأوربية ، فتمزق المجتمع الافريقى على أيدى الارساليات ، بعكس العرب الذين نسجوا أواصر المجتمع الافريقى فى الكونغو(٥٨) .

العمارة العربية فى الكونغو :

عندما هاجر العرب من بلادهم فى شبه الجزيرة العربية الى سـاحل أفريقيا الشرقى حملوا معهم فنونهم المعمارية ، وكذلك فعلوا عندما ضربوا فى قلب القارة السوداء ، فحملوا معهم الأبواب المخروطة ، والأعمـدة ذات الرؤوس والزخارف العربية التى زينوا بها سقوفهم ، والمعادن والنقوش التى ركبت على النوافذ والأبواب(٥٩) ، وهذا ما لفت أنظار الرحالة الأجانب ، عندما لم يرتضوا بسكنى الاكواخ كالزنوج .

فالقرية العربية كانت مجموعة من البنايات تتوسط العديد من اكـواخ الزنوج الذين تجمعوا فى سكناهم حول العرب حبا فيهم ، والتماسا للامن لديهم ، أما القرية فكان محيطها يتكون من ظهور المنازل المغطاة بالملاط ،

---

(57) March, Z. : op. cit., p. 78.

(٥٨) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥٩) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

وحولها حظائر الحيوانات ، وأكواخ الزنوج ، ووسطها منزل الحاكم(٦٠) .

وفى هذا لم ينس العرب أن ينقلوا الى الكونغو أقدس مبانيهم وهى المساجد فقد غصت أعالى الكونغو بالمساجد الجميلة التى كانت فيها أروقة للدراسة الدينية والعلمية(٦١) .

آثار العرب الاقتصادية فى الكونغــو :

استغل العرب ثروات الكونغو فى اكثر من مجال ، فعندما كان عليهم الانتظار هناك ريثما تعود اليهم القوافل بعد عام أو اثنين ، اتجهــوا الى استثمار هذا الوقت ، فكانت الزراعة أول ما فكروا فيه ، فطهروا الأرض من الأعشاب اعدادا لها للزراعة، خصوصا وأن الماء هناك وفير، واستخدموا الزنوج فى ذلك ، مقابل الحصول على قوت يومهم ، فتعلموا منهم الزراعة والاستقرار ، الرعى والزراعة المتنقلة(٦٢) ، فأحدثوا ثورة زراعية هناك ، فبعد الاعتماد على الزيتيات كالنخيل او ثمار الغابات ، ادخلوا غلات جديدة مما كان له أكبر الأثر حتى بعد خروجهم من الكونغو ، مثل القمح والقطن وقصب السكر ، وفواكه مثل الليمون والجوافة وغير ذلك(٦٣) .

وقد خصصوا أماكن معينة لمحاصيل بعينها ، ففى منطقة أونيانيمبى زرعوا الباباز ، والمانجو ، والليمون ، والرمان ، والقشطة ، والليمون ، والليمون الحلو، والقمح والأرز، وفى أوجيجى زرعوا الباباز والليمون والرمان فقط ، كما حسنوا زراعة الموز الذى كان أصيلا هناك فى كاسونجو(٦٤) .

كما أدخلوا زراعات النيلة والقنب ، ومن الحيوان البط والحمام والقطط، وسلالات من الحمير والبغال .

---

(60) Richard, Ch. : East African Explorers, London 1960, p. 115.

ولوصف المنازل العربية من الداخل يمكن الرجوع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(61) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 366-371.

(62) Salde, R. : op. cit., p. 87.

(63) Rine, L. : op. cit., p. 30.

(64) Stanley, H. M. : Through the dark Cont. vol. 2, p. 123

عنوا بالقطن الذى جادت زراعته شأنه شأن الأرز والذرة ، مستغلين وفرة المياه واتساع الأرض الخصبة ، فجادت زراعته فى الفتـــرة ما بين ١٨٨٥ — ١٨٩٠ عندما أجبر العرب الزنوج على زراعة هذه المحاصيل ، حتى أصبح الأرز عصب غذاء الزنوج بعد ذلك(٦٥) .

ولقد أجمع المستكشفون الأجانب الذين شاهدوا هذا التقدم الزراعى على أنه بعث عربى للكونغو ، كما اعترف بذلك موظفو حكومة الكونغو الحرة بعد عام ١٨٩٣ فى تقاريرهم بهذا ، واصدرت الحكومة أوامرها بالحفـــاظ على هذه النظم والمزارع العربية(٦٦) .

التعدين والصناعة :

لمـــا عرف العرب غنى الكونغو بمعادنه كالحديد والنحاس والفضـــة والذهب والفحم فى غرب بحيرة تنجانيقا نقبوا عنه واستخرجوا الذهب من وديان الأنهار ، وباعوه فى أسواق مانيانجا ، كما أسهم العرب فى صناعات يدوية كبيرة ، مستخدمين الزنوج معهم كصناعات : الحبال والسلاسل ، الحصير ، النسيج . كما طوروا صناعات استخراج الزيوت من الخروع ونخيل الزيت ، لدرجة أن الأوروبيين استغلوا هذا التطوير فيما بعد فى عملياتهم الصناعية المتقدمة(٦٧) .

ادخل العرب صناعات لم يكن للزنوج فى الكونغو عهد بها : كصناعة الصابون ، وصنعوه من بوتاس صناعى ، أخذوه من حرق سبائط المـــوز وأوراقه وخلطه بزيت النخيل(٦٨) .

وراجت حياة الحرفيين كالحدادين والبنـــائين والنجارين والخيـــاطين والفخارين وصناع الحبال ، وارتفعت أجورهم ، وذلك نتيجة نشاط حركة

---

(65) Mirack, M. P. : Agriculture in Congo Basin, London 1987. p. 233.

(66) Oliver, R. : History of East Africa, vol. 1, p. 272.

(67) Procceeding of the R. G. Coc. vol. 20, session 70, p. 323.

(68) Stanley, H. M. : The Congo and the founding of its free state vol. 2, p. 357.

التعمير والبناء والتجارة . كما انتعشت صناعة الأسلحة النارية واصلاحها ، وصناعة المذاليج والأقفال والسرج ، كما اشتهروا بتلوين الفخار(٦٩) .

التجــارة والمــال :

لم تكن هناك تجارة بالمعنى المعروف قبل وصول العرب الى الكونغو ، ولكن بدخولهم نشطت الأعمال التجارية نتيجة استغلال المجارى المائيـة التى ربطت بين الكونغو والزمبيزى ، كذلك شق الطرق وقطع الغابات ، وتأمين المرور خلالها(٧٠) .

وكان للعرب نظام للنقل النهرى بواسطة القوارب على صفحة نهـر اللوالابا ، استطاعوا به ربط كل قبائل المنطقة وأسواقها(٧١) .

كان من نتيجة ذلك أن كثر الطلب على منتجات الاقليـم ، وارتفعت الأسعار ، وقد وصف الرحالة أسواقهم هناك التى جلب اليها العرب منتجات الشرق العربى من بلح وسـجاجيد ولآلىء ومجوهرات وملح وغـير ذلك ليتبادلوه بالعاج ، والرقيق(٧٢) ، وكان من اشهر الأسواق التى دعمها الوجود العربى فى الكونغو : اسواق ، نيانجوى ، وأونيانيمبى ، وكاسونجو .

كما نظم العرب مواعيد التئام هذه الأسواق طبقا لمواعيد الحصـاد وظروف المناخ ، وتوالد الحيوانات ، ومواعيـد وصول افواج الرقيـق والعاج(٧٣) .

وكان من نتيجة هذا استقرار العرب فى مستوطنات فى مراكز التقاء الطرق ، والأماكن التىيسهل على الوطنيين التجمع فيها، وكونوا ارستقراطية عربية وسط القارة تلاهم رؤساء القبائل من الزنوج كتابعين لهم ، معترفين بفضلهم ، فسكنوا حولهم(٧٤) .

---

(69) Hinde, S. L. : op. cit., p. 201.
(70) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 328-329.
(71) Slade, R. : op. ¸it., p. 116.
(72) Hamilton, G. : op. cit., p. 162.
(73) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 333.
(74) Miracl, M. P. : op. cit., p. 332.

اما عن العملة ، فكانت تسمى ريبا Riba أو اجزاء صغيرة من القماش المصنوع من الألياف والأعشاب والقواقع ، وكانت المقايضة هى أساس التعامل آنذاك(٧٥) .

الطب :

اعتمد العرب على الأطباء واستعمال العقاقير والنباتات الطبية ، وقاوموا الشعوذة ، وطاردوا الأطباء السحرة Witch Doctors ، الذين انزووا بعيدا عن قراهم ، وكان الزنوج ميسورى الحال ، يعتمدون فى علاجهم على الأطباء العرب ، الذين ارتحلوا فى ركاب العرب الداخلين الى قلب الكونغو(٧٦) ، ومن الطريف أن العرب فى وجودهم فى الكونغو احتفظوا بالابر الطبية والقطن الطبى والخيوط والأدوية التى كان الرحالة الأجانب يحضرونها معهم ، ويحصلون هم عليها منهم(٧٧) . ويقول بيرتون انه كان لديهم اطباء مهرة عالجوه هو من مرضه مثل سناى بن عامر(٧٨) ، كما اشتهر الطبيب محمد بن حلفان فى أوجيجى(٧٩) .

كما احتاطوا لأنفسهم من العدوى بالمادة المأخوذة من المرض نفسه ، كالجدرى ، وعزلوا المرضى به حتى لا يتفشى المرض بين الأصحاء منهم(٨٠) ، اذ كان الجدرى من الأمراض الفتاكة ، التى قضت على الكثير من الأهالى ، كما حدث فى عام ١٨٨٧ فى سانكورو(٨١) .

حياة العرب العامة فى الكونغو واثرها على الزنوج :

عاش العرب فى الكونغو عيشة رغدة ، وخالطهم الزنوج وشاركوهم حياتهم وتأثروا بهم وبسلوكهم ومعاملتهم ومأكلهم وملبسهم ، حتى تأثبت

---

(75) Jamlson, J. : op. cit., p. 252.

(76) Hamilton, G. : op. cit., p. 162.

(77) Stanley, H. M. : The Congo and the founding, p. 160.

(78) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 280.

(79) James, B. : op. cit., p. 75.

(80) Lewis, I. M. : op. cit., p. 178.

(81) Stevenson : op. cit., p. 7.

المنازل ، ولكم تعجب الأوروبيون انفسهم من ذلك ، اذ شاهدوا أسرة نومهم ذات الخشب المحفور والمنقوش ، وفرشت بالحرير والستان ، والناموسيات على الشبابيك ، واستعملوا الشموع والقناديل فى الاضاءة ، واقتنوا الكئوس الفضية والبللورية(٨٢) .

كانت زياراتهم واجتماعاتهم منظمة فى مواعيدها ، وفى حجرات واسعة، معدة لهذا الغرض ، تمر عليهم القهوة فى فناجين جميلة يصبها خدم على جانب كبير من النظافة ، وينهون جلساتهم بالطعام الجماعى(٨٣) .

وطعامهم كان دسما ومنوعا ، كالأرز بالكارى ، وأنواع البهار ، واللحم المطهى بالبصل والمسلى ، والسمك والطيور والخضروات ، وتناولوا المنبهات كالقهوة والشاى ، ودخنوا الغليون (٨٤) .

كل هذا يدل على حياة الاستقرار والأمان التى عاشوها وعاشها معهم الوطنيون الزنوج الذين تعلموا الطهى والتعامل والمجالسة ، فهذا الزعيم سالا سالا كان يأكل الأرز مطهيا ، وقدم لضيوفه الدجاج المحمر والمسلوق(٨٥)، كما رددوا معهم عبارات الترحيب بالضيوف باللغة العربية ، وشارك الزنوج العرب فى وداع ضيوفهم بطبولهم ورقصاتهم الوطنية .

وعندما اتخذ العرب زينتهم فى مهاجرهم فى الكونغو ، رصعوا ثيابهم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، قلدهم الزنوج فارتدوا الملابس مثلهم وزينوها بأسلوبهم الوطنى بالاسلاك وانياب وعظام الحيوانات ، وصففت النساء شعورهن مثل نساء العرب ، وحلق الرجال رؤوسهم مثل العرب(٨٦) .

---

(82) Cameroon, V. : op. cit., pè 47-163.

(83) Cameroon, Ibid, p. 150.

(84) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 329.

(85) Jameson : op. cit., p. 314.

(٨٦) لمزيد عن حياة العرب فى الكونغو وتأثر الزنوج هناك بهم ، يرجع الى رسالة يواقيم رزق : المرجع السابق .

وعموما اكتسب الزنوج ثقافات ومهارات من العرب جعلتهم أكثر احتراما فى نظر الأوروبيين حين لقاءاتهم بهم ، واستقبالاتهم الرسمية لهم(٨٧) .

ونختم هذه الدراسة بقول أحد الكونغوليين المثقفين وهو جرينفيل وزير الدولة فى حكومة لومومبا : « لقد زور البلجيكيون كل شىء فى الكونغو، فليست مدينة ستانلى فيل من قبل سوى مدينة تيبوتيب القديمة ، التى أقامها قبل قدوم الرحالة ستانلى ، وليس العرب — كما قالوا لنا — تجار رقيق ، وانما هم تلك الموجة الانسانية التى اختلطت بنا وصاهرتنا ، وتركوا لنا على أرضنا دماءهم ، والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة ، وليس أعز علينا شىء سوى هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى ، كما يسيل دمنا فى بلادنا ... على أيدى نفس أعداء العرب فى القرن الماضى »(٨٨) .

---

(87) James, B. : op. cit., p. 46.

(٨٨) يواقيم رزق : معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

دراســة تاريخية للهجرة اليمنية الى شرق افريقيا
فى النصف الاول من القرن العشرين

للدكتور فاروق عثمان اباظة

مقــــــــدمة :

يهدف هذا البحث الى دراسة تاريخ الهجرة اليمنية الى شرق أفريقيــا فى النصف الأول من القرن العشرين ، باعتبار ان هذا التاريخ يشكل صفحة من صفحات تاريخ العرب فى شرق افريقيا ، الذى يعد من الصفحات المجيدة فى التاريخ الافريقى .

وهذه الدراســة لها جذورها التاريخية العميقة التى تتصــل بكافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ليس بالنسبة لليمن فحسب، وانما بالنسبة لشرق افريقيا أيضا . كما ان هذه الدراسة تتصل كذلك بعوامل جغرافية متعددة الجوانب ، وترتبط ارتباطا وثيقا بحركة التاريخ العربى والافريقى الحديث والمعاصر .

وان ما نعنيه باليمن فى هذا البحث ، هو اليمن بشطريه الشــمالى والجنوبى من جهة ، وما نعنيه بشرق افريقيا فيتمثل فى النطاق الجغــرانى الممتد من الحدود الشمالية للصومال ـــ المطل على مضيق باب المندب وخليج عدن شمالا ويصل جنوبا الى كينيا ، وتنجانيقا ، وزنجبار وموزمبيق ، المطلة على المحيط الهندى ، من جهة اخرى . وان اختيارنا لفترة البحث فى النصف الأول من القرن العشرين ، انما يعود لمـــا تميز به هذا النطاق الجغــرافى فى الفترة المشار اليها من اهمية ، حيث انعكست عليه كل التأثيرات التاريخية السابقة ، بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كما تعرضت هذه المنطقة لتغيرات عديدة فى تلك المجالات وخاصة اثنــاء الحربين العالميتين الأولى والثانية ، بكل ما نتج عنهما من نتائج عديدة كان لها أعمق الأثر على حركة الهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا من جهة ، بل وحركة الهجرة الافريقية الى جنوب اليمن آنذاكَ ، من جهة اخرى .

وسوف نعالج هذا البحث من الناحية المنهجية بدراسة التعريف العلمى للهجرة وتطبيقه على الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا ، التى سنتتبع حركتها فى النصف الأول من القرن العشرين ، باعتبارها امتدادا طبيعيا لحركتها الدائمة فى العصور السابقة ، وسوف نتطرق بعد ذلك الى ظاهرة تجنيد المهاجرين اليمنيين فى الجيش الايطالى بالصومال ثم نتعقب مجالات انفاق اليمنيين لواردات المهجر فى بلادهم، وأخيرا نتتبع مدى نجاح اليمنيين بمهجرهم فى شرق افريقيا فى فترة الدراسة ، وكيف تحولت الهجرة بعد ذلك الى البلاد العربية النفطية .

أولا ــ التعريف العلمى للهجرة وتطبيقه على الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا:

يحدد التعريف العلمى للهجرة بأنها تغيير دائم أو شبه دائم لمحل الاقامة بصرف النظر عن طول مدة هذا التغيير أو قصره . وتتطلب دراسة الهجرة التعرف على الظروف المحيطة بالمهاجر فى موطنه الأصلى من جهة ، ثم بمحل الاقامة الذى هاجر اليه من جهة أخرى . هذا فضلا عن معرفة "العقبات التى تحدث أو نظرا نتيجة لعملية الهجرة ، والتى قد تكون طفيفة فى بعض الحالات ، وجسيمة فى حالات اخرى . كما أن هذه العقبات تتأثر بالعوامل الشخصية المحركة للهجرة وما يتصل بها من مقارنة بين عوامل متعلقة بمكان المنشأ وأخرى متعلقة بمكان الوصول . بالاضافة الى ما يمكن أن تحدثه قوانين الهجرة من تأثير فى حركة المهاجر من موطنه الأصلى الى مكان الوصول ، ومدى الاتصالات أو العلاقات الشخصية التى تمهد سبيل الهجرة، فضلا عن المسافة بين الوطن الأصلى والمهجر ، وان كانت المسافة على الرغم من اهميتها المطلقة ليست هى العامل الأهم فى معظم الحالات .

ويراعى الباحث دائما فى تفسير حركة الهجرة فى عصر من العصور عملية اتخاذ القرار لدى الفرد أو الجماعات ، اذ نجد فى الدراسات الخاصة بالهجرة أن عوامل الطرد والجذب عادة ما يشار اليها لكى تساعد على فهم آلية الهجرة وتحديد مدى حيويتها . وفى رأى بعض العلماء أن الهجرة كعملية تحدث بعد اتخاذ الفرد أو الجماعات لقرار من القرارات ينجم عن تقييم لكافة النواحى والبدائل فى الموطن الأصلى من جهة ، والمهجر من جهة أخرى ، « فكل شخص معرض دائما لعوامل فى محل اقامته ، بعضها يمثل قيدا على حركته أو هجرته ، والبعض الآخر يشجعه عليها . كما يؤخذ

فى الحسبان أن هناك عديد من العوامل السلبية والايجابية تأتى من الأماكن المختلفة المحتمل الوصول اليها . والقرار الخاص بالتحرك أو عدم التحرك يكون قائما على أساس كل هذه العوامل »(١) .

وتعتبر الهجرة من أهم مجالات البحث ليس بالنسبة للمؤرخين فحسب، بل بالنسبة للمتخصصين فى مجالات العلوم الأخرى كالجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا . وتعتبر المساهمات التى تقدمها فروع الدراسات المختلفة عن الهجرة مكملة ومتصلة ببعضها البعض . ويشكل النقص فى البيانات الاحصائية واحدا من أهم المعوقات فى دراسات الهجرة . وتزيد هذه الصعوبة بالنسبة للهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا وغيرها اذا ما علمنا أن اول تعداد لسكان الشطر الشمالى من اليمن قد أجرى عام ١٩٧٤ ، وأن هذا الشطر الشمالى من اليمن ظل فى النصف الأول من القرن العشرين — وهى الفترة التى نعنى بدراستها فى هذا البحث — تحت حكم الامامة الزيدية معزولا سياسيا وحضاريا عن العالم الخارجى ، منذ جلاء العثمانيين عنه فى مطلع عام ١٩١٩(٢) ، وحتى قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ واعلان الجمهورية .

اما بالنسبة للشطر الجنوبى من اليمن فقد ظل طوال تلك الفترة تحت سيطرة بريطانيا منذ احتلالها لعدن فى التاسع عشر من يناير عام ١٨٣٩(٣) وحتى جلائها عنها فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٦٧(٤) . ولم تعن الادارة البريطانية فى عهد تبعية عدن لشركة الهند الشرقية «East India Company» أى منذ احتلالها وحتى انتقال تبعيتها الى وزارة الهند «India Office» فى عام ١٨٥٨(٥) — الا باحصاء عدد سكان عدن نفسها عدة مرات كان آخرها فى عهد الشركة المذكورة الاحصاء الذى أجرى فى عام ١٨٥٦ وقدر سكان

---

(1) Kosinski, L. A., & Prothero R. : People on the Move, p 5.

(٢) فاروق عثمان أباظة (دكتور) : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ — ١٩١٨ ، ص ٤٣٢ .

(٣) فاروق عثمان أباظة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ — ١٩١٨ ، ص ١٩٥ .

(4) Gavin, R. J. : Aden Under British Rule, 1839-1967, p. 350.

(5) Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800-1878, XII

عدن بعشرين الف وستمائة واربع وخمسين نسمة . وعندما تحولت عدن من تبعيتها لوزارة الهند ، وصارت مستعمرة تابعة « لوزارة المستعمرات البريطانية Colonial Office» فقد أجرى احصاء رسمى لسكان عدن فى عام ١٩٤٦ كان ثانى احصاء يجرى منذ تحولها الى مستعمرة . واقتصر هذا الاحصاء على عدن فقط دون غيرها من النواحى التسع فى جنوب اليمن . وقد اظهر هذا الاحصاء أن سكان عدن كانوا قد بلغوا ٨٠ر٥١٦ نسمة ، بينما قدر عددهم فى الاحصاء التالى الذى أجرى عام ١٩٥٥ بزيادة واضحة اذ بلغوا ١٣٨ر٤٤١ نسمة(٦) . واشتمل هذا الاحصاء على تحديد الجنسيات المقيمة فى عدن آنذاك على النحو التالى : اليمنيون ٤٨ر٠٨٨ نسمة ، والعدنيون العرب ٢٦ر٩١٠ نسمة ، وعرب الشرق الأوسط ٢ر٦٠٨ نسمة ، وعرب المحميات ١٨ر٨٨١ نسمة ، واليهود ٨٣١ نسمة ، والأوربيون ٧٢٦ نسمة ، والهنود المسلمون ١٠ر٤٣٥ نسمة ، والهنود البانيان ٤ر٧٨٥ نسمة، والهنود الفرس ٥٩٦ نسمة ، بينما بلغ الصوماليون ١٠ر١١ نسمة(٧) . ويهمنا فى بحثنا هذا الاشارة الى زيادة عدد الصوماليين المهاجرين الى عدن آنذاك حيث سنتناول هذه الظاهرة بالدراسة عند الاشارة الى هجرة الأفارقة الى اليمن فى ظروف تاريخية معينة .

على ان ثمة دراسات حول الهجرة فى اطار الوطن العربى قد اجريت ونشرت فى بضع نشرات ودوريات ، وحوت اشارات مختلفة عن الهجرة اليمنية ، مما يتيح الفرصة للاستفادة منها فى دراساتنا هذه . ومن هذه الدراسات ذلك البحث الذى قام باعداده « هاليداى Halliday » فى عام ١٩٧٨ عن الهجرة الى الدول المنتجة للنفط والذى اهتم فيه بوجه خاص بدور اليمنيين(٨) . وكذلك البحث الذى قام باعداده « سوانسون Swanson » فى نفس السنة والذى اهتم بتحليل النتائج الاقتصادية

---

(6) The Colomial Office List, 1960, Her Majesty's Stationery Office 1960., p. 56.

(٧) حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ .

(8) Halliday, F. :
«Migration and the Labor Force in the Oil - Producing States of the Middle East, kuwait University, Journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies, vol. 13, January 1978, p. 65.

للهجرة فى الجمهورية العربية اليمنية(٩) . هذا فضلا عن الدراسة التى قام باعدادها شكيب الخامرى حول الهجرة اليمنية الى الولايات المتحدة الامريكية ، والتى قدم فيها « نموذجا من ديترويت بالولايات المتحدة الامريكية » فى عام ١٩٧٩(١٠) .

ووفقا لتعداد سكان الجمهورية العربية اليمنية الذى أجرى فى عام ١٩٧٤ والذى أشرنا اليه ، تم تقدير عدد المهاجرين اليمنيين بحوالى ١٫٢٣٤٫٠٠٠ مهاجر . وقد أشارت احدى الدراسات الخاصة بأشكال الهجرة فى الشرق الأوسط الى أن اليمن تعد واحدة من الدول الأكثر تصديرا للايدى العاملة فى العالم اذا ما قيست الهجرة منها بالنسبة لعدد سكانها الذى يبلغ تعدادهم ٦٫٥ مليون نسمة ، كما ان أكثر من نصف الأيدى العاملة فى اليمن قد هاجرت أساسا الى الدول النفطية فى الشرق الأوسط(١١) . وطبقا لعدد الأسر فى الجمهورية العربية اليمنية والبالغ عددها ٩٠٦٫١٨٥ أسرة ، يوجد ١٫٣٦ مهاجر لكل أسرة(١٢) ، وهذا الرقم يشير الى المدى الذى أصبحت تساهم به الأسرة اليمنية فى سوق العمالة الدولية ، كما نبين أيضا مدى أهمية الهجرة للمجتمع اليمنى .

وبينما تعتمد اقتصاديات بعض الدول العربية المنتجة للنفط بدرجة كبيرة على الأيدى العاملة اليمنية التى تقدر بمئات الآلاف ، نجد أن اليمن ذاتها قد شهدت فى الآونة الأخيرة نقصا خطيرا فى الأيدى العاملة .

---

(9) Swanson J. C. :

The Consequences if Emigration for Economic Development in the Yemen Arab Rupublic, (ph. D. Dissertation) Detroit, Michigan : Wayne State University 1978., p. 17.

(١٠) شكيب الخامرى : الهجرة اليمنية الى أمريكا ، نموذج من ديترويت بالولايات المتحدة الامريكية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، نشرة دورية يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت ، والجمعية الجغرافية الكويتية ، فبراير ١٩٨٢ ، ص ٥.

(11) Halliday, F. : op. cit., pp. 65-66.

(١٢) الجمهورية العربية اليمنية ، الكتاب السنوى للاحصاء ، ١٩٧٦ — ١٩٧٧ ، ص ٥٥ .

وبالنسبة لتنمية الاقتصاد اليمنى ، فان النقص فى الأيدى العاملة يعتبر من أهم المشكلات التى تواجه اليمن فى الوقت الحاضر . وقد أوضح تقـرير البنك الدولى فى عام ١٩٧٨ عن مشكلة نقص الأيدى العـاملة فى اليمن « أن هذا النقص فى الأيدى العاملة نشأ عن هجرة الأيدى العاملة على نطاق واسع الى الدول العربية المنتجة للنفط ، التى يوجد بها ما يقدر بنحو ٢٠٪ من الأيدى العاملة من الذكور (اليمنيين) »(١٣) هذا فى الوقت الذى ازداد فيه الطلب على الأيدى العاملة فى اليمن بدرجة شديدة نتيجة للنمو السريع لبرامج التنمية المختلفة التى تقرها الحكومة اليمنية ، وكنتيجة للتوسع المتزايد فى النشاط التجارى الخاص . وهذا النقص فى القوى البشرية يحد بدرجة خطيرة من فاعلية ادارة الأعمال العامة فى اليمن فى الوقت الحاضر . وتكمن المشكلة فى استحالة تعويض هذا الفاقد البشرى من الأيدى العاملة الناتج عن الهجرة اليمنية ، حيث لا يوجد اقبال على الهجرة الى اليمن فى المقابل على نحو ما حدث فى عدن فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مما اضطر الحكومة اليمنية لكى تواجه أهداف التطور الاقتصادى السريع لخطة السنوات الخمس أن تقرر جلب ١٠٢٫٠٠٠ عامل الى اليمن من الهند وباكستان وشرق افريقيا وخاصة من الحبشة والصومال(١٤) ، وأصبحت هذه القضية موضع مناقشات ومفاوضات على المستوى الدولى فى السنوات العشر الأخيرة ، فقد سافر وفد يمنى مؤلف من موظفين مدنيين ورجال أعمال برئاسة وزير التخطيط الى باكستان فى شهر ديسمبر ١٩٧٧٧ ، وكان الهدف الأساسى لسفر هذا الوفد هو التوصل الى اتفاق مع الحكومة الباكستانية لارسال عمال الى اليمن . وبدأت حكومة الجمهورية العربية اليمنية فى نفس الوقت فى البحث عن حلول لمشكلة الهجرة اليمنية — التى يصعب السيطرة عليها — الى خارج البلاد . فلأول مرة تصدر حكومة صنعاء قوانين فى عام ١٩٧٥

---

(١٣) نشرة البنك الدولى لعام ١٩٧٨ (١/١ — ١١) .

(14) Gubari, M. A. :

«An Interview with Minister of Economy in the Yemen Arab Republic, on A Number of Internal Issues» kuwait University, Journal of the Gulf and Arabian peninsula Studies, vol. 13, January 1978, pp. 126-127.

تمنع هجرة الأيدى العاملة اليمنية ، كما قررت الحكومة الامتناع عن اصدار جوازات سفر جديدة كخطوة أولى للحد من آثار تلك المشكلة(١٥) .

ومن جهة أخرى فقد كان للهجرة اليمنية تأثيرا ايجابيا على الدخل القومى فى شطرى اليمن . فعلى الرغم من أن الجمهورية العربية اليمنية تعتبر دولة زراعية ، الا أن دخلاها من العملات الصعبة كبيرا . وقد جاء هذا الدخل من مدخرات المهاجرين العاملين فى الخارج بصفة أساسية طبقا لبيانات البنك المركزى فى صنعاء . فقد ازداد حجم التحويلات المالية الخاصة بدرجة هائلة خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ حتى بلغت قيمة هذه التحويلات فى عام ١٩٧٦/١٩٧٧ كما تشير البيانات المذكورة ٤٥١١ مليون ريال يمنى ، أى أكثر من بليون دولار امريكى . ويشمل هذا الرقم اجمالى التحويلات الخاصة من العملات الأجنبية الى الريالات اليمنية . ويأتى القدر الأكبر من هذ التحويلات من المهاجرين لفترة قصيرة الذين يرسلون مدخراتهم الى أسرهم فى اليمن(١٦) . وقد أعلن محمد عبد الوهاب غوبارى الذى كان وزيرا للاقتصاد فى الجمهورية العربية اليمنية آنذاك أن الاقتصاد اليمنى أصبح يعانى من أكبر عجز فى الميزان التجارى فى العالم (٩٥٪) . وعلى النقيض من ذلك فان لدى اليمن فائضا فى ميزان المدفوعات ، وتنجم المسألة كنتيجة طبيعية للتحويلات المالية التى يقوم بها المهاجرون اليمنيون الى وطنهم الأم(١٧) .

وتجدر الاشارة الى أن الواردات غير المنظورة من النقود الى اليمنيين فى وطنهم الأم من أقاربهم فى المهجر بشرق افريقيا وغيرها كانت ضخمة بالنسبة لحجم تجارة بلدهم ، ولهذا اثرت هجرة اليمنيين على أحوالهم الاجتماعية فى وطنهم من حيث خلق رخاء مستعار مزيف ومعتمد على مصادر غير موثوق بها . وكان هذا الحال شغل المفكرين الشاغل فى اليمن الذين

---

(15) Steffen, H. :

Yemes Arab Republi, Final Report. Sana'a, Y. A. R. and Zurich, Switzerland, Central planning Organization and Dept. of Geography, University of Zurich, 1978, p. 93.

(16) Steffen, H. : op. cit., pp. 93, 94.

(١٧) شكيب الخامرى : المرجع السابق ، ص ١٩ — ٢٠ .

كانوا يرون أن الهجرة المستمرة أضرت باليمنيين اكثر مما نفعتهم . كما أن مستوى المعيشة العالى نسبيا الذى تعود عليه المهاجرون فى خارج اليمن والسهولة التى الفوها لدى كسبهم العيش فى المهاجر لا تستطيع أن تقدم لهم مثله بالبيئة اليمنية ذاتها الا بالعمل الشاق والصبر المضنى الطويل . لذلك فان اكثر الناس تعاسة فى اليمن وخاصة فى المناطق الصحراوية قليلة الوديان كحضرموت هم الذين يحملون عقليات المهاجر ، ولا يطيقون الملاءمة بين طاقاتهم المحتملة التى يتطلبها كسب العيش من التربة الحضرمية .

وقد حال توفر العيش باليمن عامة بحضرموت خاصة على حساب المهاجر ، دون تفكير اليمنى فى مستقبله ، ومرت القرون وهو سادر فى غيه ، مطمئن الى ما تدره عليه المهاجر من اموال تكفيه مشقة عنت العيش . لذلك نظر اليمنى الى وطنه وكأنه منزل ذكريات مؤلمة ومضحكة فى آن واحد ، لأنه وطن فى نظره يعيد الى ذاكرته أيام الفاقة والحرمان والعيش النكد المحدود أيام الصبا . وطفق المهاجر اليمنى فى غدوه ورواحه بين وطنه والمهجر يرفع تدريجيا من مستوى معيشته ويعقد أكثر فأكثر ، بفضل مكاسبه الخارجية المستعارة ، استهلاكاته المنزلية ، ولكنه لم يحاول الا فى حدود ضيقة لا تكاد تذكر تعمير أرضه ليجعل منها فى وقته مصدر رزق أوفر مما كان على عهد آبائه وأجداده ، والذى استطاع عمله فى أحسن حالاته ، هو أنه جعل بلاده ـ وخاصة فى منطقة حضرموت التى تعاظمت نسبة المهاجرين منها ـ تنطق بخيرات المهاجر فى الأجور والسكن والمطعم والملبس ، فخلق بقصد أو بدون قصد ، هوة سحيقة بين حضرموت الحقيقية وحضرموت الاصطناعية . وعلى مر السنين ظلت جذوة القلق من طغيان الرخاء المستعار الذى تتيحه الهجرة والمهاجر لليمنيين ـ وخاصة الحضارمة ـ حية فى نفوس بعض مفكريهم تواكب روح الارتياح الذى غمر آخرين من عيشة المهاجر ومعطياتها. وقد صور الأدب اليمنى تلك الهواجس المفرحة والمحزنة شعرا أبلغ مما صورها أى شىء آخر . وسوف نورد فيما يلى مقتطفات شعرية من الأدب الحضرمى لمجرد الدلالة على ما شغل أذهان الحضارمة عبر القرون الطويلة فى مجال الهجرة التى جعلتهم يأكلون لقمتهم مع غصة التخوف من فقدانها ، بين محبذ للهجرة ، ومنفر لها .

وعندما اختلت موازين العيش السهل الرتيب لأهالى حضرموت

المعتمدين على أقاربهم فى المهجر — على سبيل المثال — من جراء أهوال الحرب العالمية الثانية ، وانقطع وارد الأموال من بلاد المهجر ، فقد أسقط فى يد أثرياء المهجر المقيمين بحضرموت ، وزادت هجرة الكثيرين منهم الى عدن(١٨) ، وبرزت لهم بلادهم ساخرة شامتة ما يعانون ، فكانت مجاعة عام ١٩٤٣ المروعة التى أودت بحياة خمسة عشر الف شخص معظمهم من العمال الذين كانوا يدورون فى فلك الأثرياء ، الذين باعوا أحجارهم الكريمة وأثاثهم وملابس نسائهم وفرشهم وأوانيهم ، ومنهم من عاش على الديون الجائرة والهبات الحكومية الى أن انقشعت غاشية المجاعة ، وأما اليمنيين اللذين ظلوا ملتصقين بالأرض ، فلم تصبهم المجاعة بأذى . فعاش المزارعون والصيادون ، وذووا الحرف الأساسية الصغيرة ، وأرباب المواشى والدواجن ، بعيدين عن التيارات الخارجية وما جرته من بلوى على بلادهم .

ثانيا — حركة الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا فى النصف الأول من القرن العشرين :

تعتبر المنطقة الممتدة من مسقط الواقعة على الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة العربية ، من جهة أولى ، والى موزمبيق على الساحل الشرقى لافريقيا ، من جهة ثانية ، والتى تشكل قاعدة لمثلث تتمثل قمته فى برزخ السويس فى أقصى الشمال ، من جهة ثالثة ، فيضم فى داخله جزءا من المحيط الهندى وبحر العرب وخليج عدن والبحر الأحمر بساحليه الآسيوى والافريقى ، انما تمثل هذه المنطقة الكبرى فى مجموعها نطاقا جغرافيا وحضاريا متكاملا فى مختلف النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بوجه عام . اذ نشطت حركة الهجرة بين سكان هذا النطاق من مكان الى آخر ، وخاصة هجرة العرب واليمنيين بوجه عام ، والحضارمة بوجه خاص، الى مناطق شرق افريقيا ، وهجرة عناصر افريقية الى اليمن بصفة خاصة

---

(١٨) حمزة على ابراهيم لقمان : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

وقد أشار الى أن أغلب العمال اليمنيين وعرب المحميات يأتون الى عدن للبحث عن أعمال فيها ، ويتركون عائلاتهم فى بلادهم ، وأغلبهم وخصوصا اليمنيون ، يعيشون حياة بسيطة بالنسبة لعرب عدن وبقية الأجناس ، وكثيرون لا يسكنون فى بيوت ، بل يستغلون جو عدن المناسب الذى لا تهبط حرارته الى أقل من ٧٠ درجة فاهرنهيتية فى الليل فيفرشون سررهم على الأرصفة وفى الميادين وحتى فى سفوح الجبال .

والى الجزيرة العربية بصفة عامة ، نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية متنوعة عبر عصور التاريخ(١٩) . وقد ساعدت على ذلك سهولة الاتصال البحرى بين سواحل الجزيرة العربية الغربية والجنوبية والشرقية من جهة ، والسواحل الافريقية الشرقية المثلة فى السودان والحبشة والصومال وكينيا وتنجانيقا وزنجبار وموزمبيق من جهة أخرى(٢٠) ، والتى أطلق العرب على الجزء الجنوبى من تلك السواحل « بر الزنج »(٢١) . ويرجع تحقيق ذلك الى عامل مناخى جغرافى هام يتصل بحركة الرياح التجارية ، التى تهب من الشمال والشمال الشرقى فى الشتاء ابتداء من شهر ديسمبر ، ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية شهر فبراير ، كما تعكس هده الرياح اتجاهها مع أوائل الربيع وأثناء الصيف ابتداء من شهر أبريل حتى أواخر شهر سبتمبر ، ويتفق ذلك أيضا مع اتجاه الساحل ا لـ غربى للمحيط الهندى ، الذى يتبع خطا مستقيما تقريبا متجها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من موزمبيق وتنجانيقا وزنجبار ، الى مدخل خليج عدن وموانى جنوب الجزيرة العربية على الساحل اليمنى ، ثم الى خليج عمان فى اقصى الشمال الشرقى(٢٢) .

وقد استفاد البحارة والتجار العرب عامة ، واليمنيون بوجه خاص ، من هذه الظاهرة عبر عصور التاريخ ، وساعدتهم على ذلك معرفتهم بعلم الفلك وتحديد الاتجاهات الجغرافية بالشمس والكواكب . وترتب على ذلك استقرار جاليات عربية بوجه عام ، ويمنية بوجه خاص ، على سواحل

---

(19) Ingrams, William H. :
A Report on the Social, Economic, and Political Condition of the Hadramawt, London, Colonial Office, 1936, pp. 141, 144.

(20) Leubuscher, C. :
Tanganika Territory, p. 15.

(٢١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية بالقاهرة ، العدد ١٤ ، لسنة ١٩٦٦ — ١٩٦٧ ، ص ١٦٩ .

(22) Hollingsworth, L. W. :

Zanzibar under the Foreign Office, pp. 1, 10.

البحار الشرقية وخاصة سواحل افريقيا الشرقية لخدمة الأغراض التجارية(٢٣) . بل ان موقع اليمن الفريد فى الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية جعلها أكثر قربا من الساحل الشرقى لافريقيا من جهة ، كما جعلها تتحكم فى حركة المرور من البحر الأحمر واليه من جهة أخرى . كما أدى هذا الموقع الى مساعدة اليمن على القيام بدور بارز فى تاريخ التجارة الدولية منذ اقدم العصور ، وعلى اقامة علاقات واسعة مع العالم الخارجي . فقد كان اليمنيون منذ العصور القديمة يقومون بتنظيم التجارة التى كانت تصل الى مصر وبلاد الرافدين وبلاد المشرق العربى عامة ، ومنها تنقل الى أوربا بعد ذلك ، سواء أكانت هذه التجارة من بلادهم أو من افريقيا أو الشرق الأقصى . وكان لليمنيين تاريخ بارز فى التجارة العالمية ، كما كانت لديهم خبرة كبيرة بالأسواق ، حتى أنهم احتكروا جزءا كبيرا من التجارة أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، هذا الأسلوب الذى دفع اليمنبين التجارة أسلوبهم التلقيدى فى الحياة ، هذا الأسلوب الذى دفع اليمنيين الى جعل المحيط الهندى بجانبيه الاسيوى والافريقى ميدانا لنشاطهم ، واسسوا هناك العديد من المراكز التجارية الهامة ، وحققوا فيها ثروات طائلة . ومع انتشار الاسلام فى القرن السابع الميلادى وفى أعقابه زادت الهجرات الى هناك ، واندمج العرب مع أهالى تلك البلاد ، ونتج عن ذلك أجناس ولغات وعادات جمعت كثيرا من الصفات المشتركة بين العرب واهالى فى بلاد الأصليين(٢٤) . وقد حدث ذلك الاندماج بطريقة طبيعية سلمية دون اللجوء الى أساليب القوة والقمع والاضطهاد . وقد نجح العرب فى تكوين امارات عربية اسلامية فى تلك الجهات ، ثم تقلصت تلك الامارات تحت

---

(23) Drewes, A. Y. :

Sabaean Inscription for Ethiopia, p. 3.

القى هذا البحث فى ندوة الحضارة اليمنية فى عدن (٢٢ — ٢٧ فبراير ١٩٧٥) بعنوان « نقوش سبئية من الحبشة » وقد أورد « دريفز » وثائق تؤكد اقامة اعداد كبيرة من السبئيين بالحبشة فيما بين عامى ٤٥٠ — ٣٠٠ ق . م . وأن اللغة السبئية قد تركت آثارا واضحة فى لغة الحبشة القديمة آنذاك مما يؤكد أن الهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا قديمة العهد .

(24) Coupland, R. .

East Africa and Its Invaders, p. 21.

السيطرة الأوربية ، وخلفت جاليات عربية اسلامية لها مكانتها هناك(٢٥) . وكان لليمنيين بصفة عامة ، وللحضارمة بصفة خاصة ، دور كبير فى هذا المجال(٢٦) .

وكان اليمنيون يقومون بتصريف منتجاتهم من النسيج ، وصناعة الحلى ، والأوانى المزخرفة ، ومركبات الروائح العطرية ، ومستحضرات البخور والصمغ ، والسمك المجفف ، والملح ، والتبغ الحمى ، والاعشاب الطبية ، وأعشاب الصباغة . وكان اليمنيون يستوردون من شرق افريقيا اخشاب بناء السفن ، والحديد ، والقصدير ، والنحاس ، والأحجار الكريمة ، والعاج ، والقطن ، والتوابل ، والسمسم ، والأرز ، وغيره من المواد الغذائية . وكان الكثيرون من اليمنيين يستقرون فى تلك المناطق ليقوموا بدور الوسط فى العمليات التجارية . كما كانت السفن اليمنية المنطلقة من موانى اليمن الجنوبية كالشحر والمكلا وعدن ، والغربية كموانى مخا والحديدة ، فضلا عن موانى عسير كاللحية وميدى وجيزان — التى انضمت الى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٣٤ — كانت تلك السفن اليمنية تنقل البضائع من اليمن الى شرق أفريقيا . ورغم تدخل السفن الأوربية فى هذا المجال منذ مطلع العصور الحديثة ، فقد ظل اليمنيون يمارسون ذلك العمل الملاحى البحرى والتجارى فى وجه الأخطار المحدقة والمنافسة الضاربة ، فى تحرك موسمى منتظم على سفنهم الشراعية . وقد بلغ الميمنيون — والحضارمة على وجه الخصوص — الى جانب العمانيين ذروة المجد فى مجال الملاحة البحرية بين سواحل الجزيرة العربية وشرق أفريقيا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين بدأت مراكبهم فى التدهور بسبب منافسة السفن البخارية الأوربية لهم فى هذا المجال .

فمن الموانى اليمنية ، مثل ميناءى مخا والحديدة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وعدن والمكلا والشحر المطلة على بحر العرب ، وهى موانى

---

(٢٥) جمال زكريا قاسم (دكتور) : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ، مجلة كلية الآداب — جامعة عين شمس ، العدد (١٠) مايو ١٩٦٧ ، ص ٢٧٧ — ٢٣٠ .

(٢٦) محمد عبد القادر بامطرف : الهجرة اليمنية ، مجلة الثقافة الجديدة ، عدن ، العدد ٦ — ٧ ، السنة الأولى ١٩٧١ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

ترتبط بالمرتفعات والسهول اليمنية الداخلية المكتظة بالسكان عن طريق القوافل ، انطلقت موجات الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا حيث استقبلتهم موانى الصومال وكينيا وتنجانيقا وزنجبار وموزمبيق وهناك عملوا كمزارعين وتجار وحرفيين ، فضلا عن اشتغالهم بأوجه التعليم الدينى ، واخيرا اشتغل بعضهم بأعمال الجندية(٢٧) . وقد زادت هجرة اليمنيين الى شرق افريقيا اثناء العصر الاسلامى ، واستمرت حتى مجىء البرتغاليين فى مطلع العصور الحديثة ، وظلت حتى العصر العمانى ، وحتى خضوع المنطقة للسيطرة الاستعمارية الأوربية من جديد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبقيت حتى النصف الأول من القرن العشرين(٢٨) موضع دراستنا فى هذا البحث .

وتجدر الاشارة الى أن الاسلام قد انتشر فى شرق افريقيا عن طريق التجارة وما صاحبها من هجرة للعناصر العربية بصفة عامة ، واليمنية والعمانية بصفة خاصة ، فى أعقاب ظهوره فى القرن السابع الميلادى ، ولهذا فان نسبة المسلمين تزداد على السواحل ، وتنقص بالاتجاه نحو الداخل (٢٩) . ويصدق هذا فى المناطق التى تقع فى جنوبى خط الاستواء ، أما المناطق الواقعة الى الشمال منه فان الاسلام يعم حتى يصبح الديانة الوحيدة فى الصومال ، وذلك لقرب تلك البقاع من شبه الجزيرة العربية وسهولة الاتصال بين سواحلها والساحل الشرقى لافريقيا . ومع نهاية العصور الوسطى كانت المدن الاسلامية تنتشر على طول هذا الساحل من سواكن بالسودان شمالا الى موزمبيق جنوبا ، وكانت بمثابة مراكز تجارية نشطة ومجتمعات اسلامية مؤثرة(٣٠) .

---

(27) Tarcici, A. :
The Queen of Sheba's Land, Yemen, (Arabia Felix), p. 129.

(٢٨) محمد السيد غلاب وآخرون : البلدان الاسلامية والاقليات المسلمة فى العالم المعاصر ، دراسة أعدت بمناسبة المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول ، بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض (صفر ١٣٩٩ هـ/ يناير ١٩٧٩ م) ، ص ٦٥٧—٦٦١ .

(٢٩) حسن أحمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، جـ ١ ، ص ٤٣٤—٤٣٩ .

(٣٠) حسن ابراهيم حسن (دكتور) : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

وعندما جاء البرتغاليون الى المحيط الهندى فى نهاية القرن الخامس عشر شرعوا فى احتلال زنجبار فى سنة ١٥٠٣ ، واستولوا على مدينة كلوة فى سنة ١٥٠٥ ، وانتشروا فى مياه المحيط الهندى ، حتى دخلت مناطق النفوذ البرتغالى تحت السيطرة الأسبانية (١٥٨٠ — ١٦٤٠) . ثم بدأ النفوذ البرتغالى ينحسر عن شرقى افريقيا حتى بدأت مدنها تستعيد قوتها ومجدها . اذ تمكن العمانيون من بسط نفوذهم على الساحل الشرقى لافريقيا وتمكن اليعاربة (اسرة بنى يعرب) الذين حكموا عمان أن يقضوا على ما بقى للبرتغاليين من نفوذ فى مدينة « ممبسة » فى كينيا بل تعقبهم حتى موزمبيق، واصبحت السلطة فى ساحل افريقيا الشرقية مرتبطة بعمان حتى انتهت سلطة اليعاربة فى عمان فى عام ١٧٤١ وجاء سلطان السعيديين . وفى عام ١٨٣٢ نقل سلطان عمان سعيد بن سلطان عاصمته من مدينة مسقط الى زنجبار ، وهكذا ارتبط القسم الشرقى من كينيا بزنجبار .

وفى عام ١٨٥٦ توفى سلطان عمان سعيد بن سلطان فقسمت مملكته بين ولديه ، فحكم ابنه ثوينى عمان ، وحكم ابنه الآخر ماجد زنجبار . ثم قام سلطان زنجبار ماجد بنقل عاصمته من زنجبار الى دار السلام على ساحل البر الافريقى . وبعد وفاة ماجد خلفه اخوه الصغير برغش ، وضعفت السلطة العمانية فى شرق افريقيا تدريجيا ، وتعرضت المنطقة لهجمة استعمارية جديدة ، تواطأت عليها الدول الأوروبية واقتسمت سلطنة زنجبار فيما بينها ، فكان نصيب انجلترا القسم الأوسط من الساحل الذى عرف باسم كينيا . وقد تنازل سلطان زنجبار عنها وهو يومذاك السلطان سيد خليفة الذى اعقب برغش اثر وفاته قبل عام ١٨٨٨ . واصبحت المنطقة قسمين : المحمية وهى المنطقة الساحلية التى تتبع اسميا سلطان زنجبار ، والمنطقة الداخلية التى غدت مستعمرة بريطانية . ثم تنازل سلطان زنجبار بعد ذلك عن ممتلكاته تحت الضغط البريطانى فى عام ١٩٦٣ ، وتوحد الجزءان باسم كينيا ، التى نالت استقلالها فى عام ١٩٦٤ . وقد ارتفع عدد سكان عاصمتها نيروبى من ٥٣ الفا فى سنة ١٩٤٥ الى ٩٥ الف فى سنة ١٩٥٢ ، ويوشك المجتمع هناك ان يتخطى الحدود من اقتصاد ريفى

الى اقتصاد قوامه الصناعة والمال الحضرى مما يوحى بظهور طبقة عمالية عريضة(٣١) .

ويقدر عدد سكان كينيا بأحد عشر مليونا ، ولا تقل نسبة المسلمين بينهم عن ٣٥ ٪ فيكون عددهم زهاء ٣٫٨٥٠٫٠٠٠ نسمة ، وتوجد بينهم نسبة كبيرة من الحضارمة اليمنيين وخاصة فى ميناء ماليندى(٣٢) .

اما بالنسبة لموزمبيق فيبلغ عدد سكانها سبعة ملايين نسمة وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٢٥ ٪ ، وتعيش على الساحل جماعات من الهنود معظمهم من الاسماعيلية . وقد حكمت البرتغال موزمبيق من مستعمراتها « جوا » فى الهند ، ثم أصبحت موزمبيق مستعمرة مفردة ، وحصلت على استقلالها بعد حدوث اضطرابات عنيفة . ويقدر عدد الأوربيين فى موزمبيق بتسعين الفا ، ومعظمهم من البرتغاليين ، وهم يتمتعون بامتيازات واسعة ويوجد الى جانبهم خمسة وعشرون الفا من المولدين نتيجة التزاوج العرقى المختلط ، ويحظون هناك ببعض الامتيازات ، كما يوجد بالبلاد خمسة عشر الفا من الاسيويين بين عرب وهنود(٣٣) .

اما بالنسبة لتنجانيقا فيبلغ تعداد سكانها الأفارقة ٧٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة، والعرب ١٣٫٠٠٠ نسمة ، والهنود ٤٥٫٠٠٠ نسمة ، والاوربيون ١٦٫٠٠٠ نسمة . وكان بين العرب هناك نسبة كبيرة من المهاجرين اليمنيين(٣٤) .

وكانت هجرة اليمنيين الى شرق افريقيا تزداد مع تعرض بلادهم عبر العصور المختلفة لألوان من الصراع المذهبى ، والظلم السياسى ، والضرائب الباهظة ، ومعاناة الجفاف ، والأوضاع الاقتصادية الصعبة ، ومن ثم أصبحت الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا ومناطق المحيط الهندى تقليدا منظما لدى اليمنيين يتوارثونه جيلا بعد جيل(٣٥) . كما كانت هجرة الأفارقة الى اليمن

---

(٣١) بازيل دافيدسون : صحوة افريقيا ، ترجمة عبد القادر حمزة ، ص ١١٩ .

(٣٢) محمد السيد غلاب وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٦٣ .

(٣٣) محمد السيد غلاب وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٦٧ .

(٣٤) بازيل دافيدسون : المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

(35) Stookey, R, W. : Yemen, The Politics of the Yemen Arab Republic, p. 9.

m

فى بعض فترات التاريخ ناتجة عن نفس الظروف ، وتأكيدا للامتداد الطبيعى بين اليمن وشرق افريقيا وتقاربهما ، وحاجة كل من المنطقتين لكى تكمل كل منهما الأخرى(٣٦) ، اذا ما اقتضت المتغيرات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ذلك بين آونة واخرى(٣٧) ، الأمر الذى سنلاحظه بوضوح على مدار هذا البحث .

وقد ساعد على تنشيط الهجرة من الجزيرة العربية بصفة عامة ، ومن اليمن بصفة خاصة ، الى الساحل الشرقى لافريقيا ، تميز هذا الساحل الممتد من مضيق باب المندب شمالا الى « سوفالا » جنوبا بثروته السمكية ، وبحيراته الشاطئية التى يتوافر فيها الملح ، فضلا عما تميزت به المنطقة الداخلية من بحيرات مالحة ، وينابيع للمياه العذبة ، ورواسب معدنية منها الحديد والذهب والنحاس . وقد أدى الافتقار الى الوثائق التاريخية الى الاعتقاد بأن الاتصال ما بين الداخل والمرافىء المتناثرة على الساحل الشرقى لافريقيا كان معدوما خلال القرون التى سبقت مجىء البرتغاليين الى المحيط الهندى فى نهاية القرن الخامس عشر . غير انه ظهرت أدلة جديدة تثبت أنه لم يكن من الممكن فرض التجارة بعيدة المدى فجاة على مجتمعات الداخل ، وأنها جاءت بالأحرى لتنضم الى شبكات من علاقات التبادل المحلية والاقليمية فى المنتجات الغذائية والماشية بشكل خاص فى الملح والأدوات الحديدية والعاج . ومنذ مطلع القرن التاسع عشر كانت طرق القوافل بين الساحل الشرقى لافريقيا والمناطق الداخلية قد استقرت تماما بهدف مواجهة الطلب المتزايد على انتاج تلك المناطق واستجابة لحركة التجارة العالمية فى المحيط الهندى والتى كان لليمنيين دور ملحوظ فيها صاحبه هجرة كثير من اليمنيين الى الساحل الشرقى لافريقيا(٣٨) .

واذا كانت العلاقات التجارية بين الساحل الشرقى لافريقيا والمناطق

---

(36) Gullain : Documents sur l'Historiques et le Commerce de l'Afrique Oriental, Tome 1, p. 22.

(٣٧) جلال يحيى (دكتور) : العرب فى شرق افريقية ، مجلة نهضة افريقية ، السنة الثانية ، العدد ٢٢ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٩ .

(٣٨) جوزيف فريدريك موبيليزا : طرق القوافل بشرق افريقيا ، مجلة رسالة اليونسكو ، العدد ٢٧٧ ، يونية ١٩٨٤ ، ص ٢٧ .

الداخلية التى شاركت فيها العناصر اليمنية المهاجرة ، قد نهضت على بنى أساسية اقتصادية محلية سابقة عليها ، وساعدت على قيامها فى بعض الحالات ، فانها قد تركت فيها مع ذلك آثارا عميقة . فهى لم تؤد الى تعزيز استغلال ثروات افريقيا الشرقية الطبيعية والبشرية فحسب ، وانما أفضت كذلك الى حدوث تحولات اجتماعية وسياسية فيها . بل أن هذه العلاقات التجارية بين ساحل شرق افريقيا والمناطق الداخلية قد يسرت اندماج افريقيا الشرقية فى الاقتصاد العالمى على أسس غير متكافئة ، من حيث انها كانت تتمثل فى معظمها فى تصدير المواد الأولية الافريقية واستيراد مواد استهلاكية مصنعة ، الأمر الذى أدى الى اختلال البنى الانتاجية والاستهلاكية واضطراب نظم الانتاج والتبادل القائمة . وفى اطار هذا الاقتصاد العالمى كان المشتغلون بصيد الفيلة وحشد الرقيق ، وكذلك الحمالون ، وبشكل غير مباشر منتجو المواد الغذائية ، هم الذين مهدوا السبيل فى منتصف القرن التاسع عشر وفى أعقابه لقيام حركة هجرة العمال الصناعيين والزراعيين ، الذى أصبحوا يشكلون القوى العاملة فى خدمة اغراض الاستعمار الأوربى لشرق أفريقيا حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين(٣٩) . على أنه تجدر الاشارة كذلك الى أن تجارة القوافل بين الساحل الشرقى لافريقيا والمناطق الداخلية ، والتى شارك اليمنيون فيها ، قد ساعدت على انتشار اللغة السواحلية من الساحل الى الداخل ، مما أحال الى وحدة ثقافية واحدة منطقة تضم زامبيا ، ومالاوى ، وشرق زائير ، وشمال موزمبيق . كذلك كان من آثار توسع الحركة التجارية نحو الداخل انتشار الدين الاسلامى فى هذه المنطقة من القارة دون حاجة الى جهاد أو حروب ، وذلك من خلال العناصر اليمنية المشاركة فى هذه الحركة ، وخاصة الحضارمة(٤٠) .

واذا كان التجار والمهاجرون اليمنيون بصفة خاصة ، والعرب بصفة عامة ، قد اكتفوا قبل ثمانينات القرن الماضى وتسعيناته بالعمل فى المناطق الساحلية بشرق أفريقيا ، فان ذلك كان عائدا لجهود البريطانيين والألمان

---

(٣٩) على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقية فى العصر الحديث ، ص ٢٢٧ .

(٤٠) جوزيف فريدريك موبيليزا : المرجع السابق ، ص ٢٨—٢٩ .

التى بدات تنفذ الى المنطقة باطراد(٤١) ، وتتهدد مصالح العرب فى المناطق الداخلية من شرق أفريقيا ، وازاء هذا الوضع الأخير حاول العرب فرض سيطرتهم السياسية على بعض المناطق بغية حماية مصالحهم التجارية .
وكان الأوربيون الموجودون فى المناطق الداخلية من شرق أفريقيا يشتغلون بالتجارة أو يعملون كأعضاء فى بعثات تبشيرية ، وكانوا جميعا يرغبون فى ان تحتل حكومات بلادهم هذه المنطقة لكى ينعموا بالحماية والأمن ويطلقوا أيديهم فى تحقيق أهدافهم دون عائق . وكانت الأساليب التى اتبعها الأوربيون للتغلغل فى المنطقة تختلف من مكان لآخر ، لكنها كانت تشترك فى مجموعها فى اللجوء الى القوة والعمل حيثما أمكن على عقد الاحلاف الدبلوماسية مع جماعة ضد جماعة أخرى . وكان رد الافريقيين على ذلك عسكريا او دبلوماسيا ، وأن تمثل أحيانا فى الانسحاب أو الامتناع عن التعاون أو اتخاذ موقف سلبى . وفى أثناء القرن التاسع عشر زاد العرب بوجه عام ، واليمنيون بوجه خاص ، ممن كانوا قد هاجروا الى شرق أفريقية، من أنشطتهم فى المناطق الداخلية حرصا على تلبية الطلب المتزايد على العاج والرقيق ، وترتب على ذلك ازدهار تلك التجارة التى صاحبها نشوء مدن كثيرة على امتداد الساحل . ومع مجىء الألمان اصبحت هذه التجارة فى خطر بسبب سعيهم الى احلال تجارتهم الالمانية محل التجارة العربية(٤٢) .
وقد ساء ذلك السكان المحليين وأثار استياء العرب واليمنيين بشكل خاص ، مما جعلهم يعمدون الى المقاومة . وكان الألمان فى تنجانيقا شأنهم فى ذلك شأن الانجليز فى كينيا ، فى نهاية القرن الماضى ، متمرسين فى تطبيق سياسة « فرق تسد » عن طريق التحالف مع فريق ضد آخر ، وكانت هناك أحلاف كثيرة من هذا النوع . غير أن عرب الساحل وخاصة من حديثى العهد بالهجرة ومنهم عناصر يمنية هم الذين وضعوا أنفسهم بعد ذلك فى خدمة الألمان ، كما وضعوها فى خدمة الانجليز والايطاليين ، فكانوا بذلك أول من استخدمتهم القوى الاستعمارية من المحليين لتحقيق أهدافها(٤٣) .

---

(41) Davidson, A. B. and others : A History of Africa 1918-1967, p. 348.

(42) Davidson, A. B. and others : op. cit., p. 349.

(٤٣) هنرى موانزى : شرق افريقيا ، الدبلوماسية والتحدى ، مجلة رسالة اليونسكو العدد ٢٧٦ ، مايو ١٩٨٤ ، ص ٣٠ — ٣١ .

وتجدر الاشارة الى أن الصراع الانجليزى الرفنسى ـــ بعد أفول نجم البرتغاليين فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى وانحسار النفوذ الهولندى فى الجانب الشرقى من المحيط الهندى ـــ قد انتهى بشكل خرجت منه بريطانيا ولها تفوق ملحوظ فى سواحل شرق افريقيا ، وخاصة فى أعقاب احتلالها لعدن فى ١٩ يناير عام ١٨٣٩(٤٤) . هذا فضلا عن ظهور طلائع الايطاليين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى هذه السواحل وظهور الألمان هناك فى نهاية القرن المذكور . فقد أثر ذلك فى مستقبل العرب بوجه عام ، واليمنيين بوجه خاص ، فى شرق افريقيا ، مع تفوق بريطانيا الملحـــوظ بامكاناتها الضخمة سياسيا واقتصاديا وعسكريا وتبشيريا على امكاناتهم(٤٥) ، مما سمح لها بفرض سيطرتها بالقوة دون أن ينازعها فى ذلك منازع ، بحيث تحقق لها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية فى النصف الأول من القرن العشرين المركز الأول فى تحريك دفة السياسة والاقتصـــاد فى الجـــانب الشرقى من القارة الافريقية(٤٦) ، ومكنها من وضع حد للقوى المنافسة هناك فرنسية وايطالية والمانية الى جانب القوى العربية . وكان قد سجل لنـــا أحد الرحالة المصريين ويدعى توفيق ميخائيل أوضاع سلطنة زنجبار فى ظل السيطرة البريطانية فى كتاب نشر فى القاهرة فى عام ١٩٠١ بعنـــوان « غرائب الأخبار عن شرق أفريقية وزنجبار » . وتعرض المؤلف فيه الى وصف رحلته التى قام بها فى عام ١٨٩٩ ، فوصف سكان زنجبار وغيرهم من سكان مقاطعات شرق افريقيا ، ولاحظ بصفة خاصة سيطرة الهنــــود « البانيان » على المعاملات التجارية هناك ، كما أورد فى كتابه ملاحظته بأن سلطنة زنجبار ترتبط بشعور الولاء الروحى للخليفة العثمانى ، وكان ذلك صدى لحركة الجامعة الاسلامية التى شملت أقطار العالم الاسلامى فى هذه الفترة والتى روج لها الحضارمة اليمنيون فى تلك المناطق ، وان كان ذلك لا يعنى ارتباط سلطنة زنجبار سياسيا آنذاك بالدولة العثمانية(٤٧) .

---

(٤٤) فاروق عثمان أباظة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ـــ ١٩١٨ ، ص ١٩٥ ـــ ١٩٦ .

(45) Davidson, A. B. and others : op. cit., pp. 349, 350

(٤٦) سافلييف . ى . و . فاسلييف ، ج : موجز تاريخ افريقيا ، تعريب أمين الشريف ، ص ٩٨ ـــ ٩٩ .

(٤٧) توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق افريقية وزنجبار ، ص ٩٩ ـــ ١٠٠ .

وتجدر الاشارة الى أن قرابة نصف سكان اقليم حضرموت بالشطر الجنوبى من اليمن قد هاجروا الى مناطق عديدة معظمها فى أرجاء المحيط الهندى ومنها الساحل الشرقى لافريقيا . وفى احصاء تقريبى لعدد المهاجرين اليمنيين فى عام ١٩٣٥ ، ورد أنهم بلغوا ١٠٣ر٩٩ مهاجرا ، كان منهم ٣٣٥ر٧١ فى اندونيسيا ، و٠٠٠ر١٠ فى الهند ، و٠٠٠ر٣ فى الملايو وسنغافورة ، بينما كان نصيب شرق افريقيا من المهاجرين اليمنيين ٧٥٠ر١٤ مهاجرا ، موزعين بين الحبشة والصومال وكينيا وتنجانيقا وموزمبيق وزنجبار(٤٨) . وقد عمل هؤلاء المهاجرين اليمنيين فى مجال الصناعة ، والأراضى العقارية والزراعة ، والسمسرة ، والوظائف الكتابية والتعليم ، والتوكيلات التجارية ، والخدمات المنزلية ، وأعمال البناء ، والتجارة الصغيرة ، والمطاعم ، واعمال الشحن والتفريغ ، والجندية .

ومن جهة اخرى فقد كان للهجرة اليمنية تأثيرا ايجابيا كبيرا على الدخل القومى فى شطرى اليمن فى القرنين الأخيرين على وجه الخصوص . فقد جلب « آل الكثيرى » فى عام ١٨٤٥ أموالا طائلة من اقطاعياتهم فى « حيدر آباد » التى كانت تدر عليهم ايرادا سنويا بلغ ٢٥٠ الف روبية هندية ، مما ساعد الكثيرين على استعادة سلطنتهم من يافع عام ١٨٤٨ ، بعد أن كانت قد اندثرت قبل ذلك بقرابة قرن من الزمان . كما جلب « آل القعيطى » فى حضرموت مليونا ونصف من الروبيات الهندية ، كانت تمثل حصيلة تسوية لعام واحد من اقطاعياتهم فى « حيدر آباد » ، مما ساعد القعيطيين على اقامة سلطنتهم فى حضرموت عام ١٨٦٦ . وكان محسن بن عبد الله العولقى يزود الكسادى أمير المكلا السابق بمبلغ ستين الف روبية هندية كل عام لمقاومة التوسع القعيطى . وقد قدرت بشكل تقريبى عوائد المهجر من تحاويل المهاجرين اليمنيين السنوية من النقود فى عام ١٩٣٠ بحوالى ثمانمائة الف جنيه ، منها سبعمائة الف جنيه ترد من اندونيسيا والملايو وسنغافورة ، ففى تلك السنة كانت توجد فى سنغافورة ١٣ أسرة يمنية تمتلك من العقارات ما قيمته ٠٠٠ر٥٤٤ر٢ جنيه ، ومن هذا المبلغ بلغت عقارات أسرة واحدة

---

(٤٨) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

وقد اشار الى انه حصل على المعلومات الاحصائية من الادارات المختصة بشئون الهجرة فى وزارة الداخلية بعدن .

١٧٠ر١٧٠٠٠ جنيه آنذاك . وفى الهند حيث كان يعمل قرابة ٦٠٠٠ر٦ شخص فى جيش « حيدر آباد » ، استطاعت بعض الأسر اليمنية الجنوبية البلوغ الى درجة المليونيرات . اما صغار التجار والعمال اليمنيين فى المهجر ، وهم يشكلون اغلبية المهاجرين ، فكانوا يرسلون عدة آلاف من الريالات التى يحصلون عليها فى المهجر ، اضافة الى ما كانوا قد حولوه من نفقات لذويهم ، عندما كانوا يحضرون الى الوطن ويقضون فترات سعيدة بين أسرهم ، ثم يعودون الى المهجر من حيث أتوا ليجدوا العمل المضمون والاجر الكافى . ويرجع ضمان المهاجرين الصغار لأعمالهم وأجورهم لقيامهم بتقسيم المهاجر الى مناطق اعاشة فيما بينهم بالرضا والاتفق : فمثلا كان سكان المنطقة الواقعة بين شبام ، وتريم ، وأهالى حورة ، والسيطان ، بجنوبى اليمن يهاجرون الى جنوب شرق آسيا . بينما كان سكان تارية ، ووادى عدم، وعينات ، وقسم يهاجرون الى ممبسة ، ودار السلام ، فى شرق افريقيا . وكان سكان القطن ، والكسر ، ووادى عمد ، والأودية ، يهاجرون الى الهند . وكان الدواعن يهاجرون الى مصر ، والسودان ، والحبشة ، وكان أهالى الشحر ، وحجر ، يهاجرون الى الصومال ، وزنجبار ، ولا عبرة بحالات قليلة شاذة عن هذه القاعدة التقليدية العامة(٤٩) . فمثلا حدث أثناء الحرب العالمية الأولى أن تداخلت الهجرة بعض الشىء ، فكان النهدى مثلا يهاجر الى ممبسة ، وأصبح الشحرى يهاجر الى الحبشة ، اذ استطاع كل منهم تكوين زمالات وصداقات تسهل له العيش فى مهاجر جديدة . اما المهرة فكانوا منذ القدم اقل اليمنيين هجرة ، وظلوا محتفظين بحرفة الملاحة البحرية ، وتجارة الاسماك ، بين اقليمهم وشرق افريقيا والهند ، والخليج العربى . ولذلك لم يتعرضوا لما يغرس فيهم روح الاتكالية على موارد الخارج فى رفع مستوى معيشتهم ، الذى كانت تهدده التيارات العالمية بين يوم وآخر(٥٠) .

ثالثا — تجنيد المهاجرين اليمنيين فى الجيش الايطالى بالصومال :

وكما كان يعمل قرابة ٦٠٠٠ر٦ شخص من المهاجرين اليمنيين فى جيش « حيدر آباد » فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت الجندية واحدة من الأعمال

---

(٤٩) سعيد بن على المغيرى : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٢٥٨ .

(٥٠) سعيد بن على المغيرى : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

التى اشتغل بها اليمنيون فى شرق أفريقيا . فقد التحــق الكثيرون من المهاجرين اليمنيين فى شرق افريقيا بسلك الجندية فى الجيش الايطــالى بالصومال ، وخاصة قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى ، وفى أعقادها ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية . ويؤكد ذلك الخطاب الذى أرسله الى حــكومة بومبــاى « ميجــور جنــرال ســير جــورج يونج هاســبند «Major General Sir George J. Younghusband المقيم الســياسى البريطانى فى عدن فى ٢٣ سبتمبر عام ١٩١٥(٥١) ، والذى يدور موضوعه حول « السياسة البريطانية فى اليمن » والذى أرفق به مذكرة كتبها « هارولد جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن والمؤرخــة فى ٨ سبتمبر ١٩١٥ ، وتدور حول قيام الايطاليين فى مقديشيو(٥١٢) بتجنيــد عساكر من المهاجرين اليمنيين هناك . اذ اوضح « يونج هاسبند » فى هذا الخطاب انه التقى بالضابط الايطالى « الكولونيل بودر Colonel Bodrero » وانه قد اهتم كثيرا بأن يتعرف منه على رايه فى المقدرة القتالية للعــرب اليمنيين الذين جندهم الايطاليون من محمية عدن والبلاد المجاورة ، مبديا اعجابه بهذا الضابط الايطالى الذى استطاع ان يدرب هؤلاء الرجال بحيث أصبحوا جنودا اكفاء . وأكد أن الضابط البريطانى يستطيع أن يحقق نتيجة أفضل بكثير فى هذا المجال ، كما رأى أن الوقت حينذاك (فى سنة ١٩١٥) هو أنسب وقت لمحاولة تنفيذ تلك التجربة على نحو ما فعل الايطاليون فى الصــومال .

وقال « يونج هاسبند » فى خطابه لحكومة بومباى انه يمكن البدء فى اختيار مائتين من رجال القبائل اليمنية المقاتلة ، على أن يركبوا الجمــال

---

(51) Foreign and Commonwealth Office, jndia Office, Political and Secret Library, London, B. 216, Judical and Secret Memoranda, (M. 3/3528). British Policy in the Yemen, Memoranda by Major - General sir G. J. Younghusband, political Resident, Adcs, and Lieutenant Colonel H. F. Jacob, First Assistant Resident, Aden. No. C. 695, Dated 23 rd September 1915, Enclosure No. 1. Memorandum on the employment of Italians at Mogadiscio of Askaris from Arabia, by H. F. Ja jacob 8th September 1915, p. 1.

(٥٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ٥٣٦ .

ويدربوا للعمل كشافين مقاتلين . وتوقع أن يكون لهذه التجربة تأثير سياسى ممتاز . كما قال أيضا أن « الكولونيل بودريرو »،قد أكد له أن هذا الفيلق ستكون له مقدرة قتالية لا شك فيها . واقترح « يونج هاسبند » على حكومة « بومباى » تكليف » الميجور جنرال أوتلى «Major W. J. Ottly» من طلاع فرقة « السيخ » الثالثة والعشرين البريطانية لتشكيل هذا الفيلق وتدريبه ، باعتباره من أنسب الضباط الذين يمكنهم القيام بهذا العمل بكفاءة فائقة(٥٣) .

وقد أشار « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى مذكرته المؤرخة فى ٨ سبتمبر ١٩١٥ والتى دارت حول قيام الايطاليين فى مقديشيو بتجنيد عساكر من اليمنيين ، بأنه قابل « الكولونيل بودريرو » فى اليوم الرابع من سبتمبر ١٩١٥ وهو ضابط ايطالى يعمل فى مكتب المستعمرات الايطالى ويقوم بتدريب المجندين من المهاجرين اليمنيين الذين هاجروا من عدن والمناطق اليمنية التى كان يحتلها الأتراك العثمانيون آنذاك للعمل فى الصومال ، كجنود فى الجيش الايطالى .

وكان الايطاليون يقبلون على تجنيد رجال القبائل اليمنية من المناطق التى كان يمثلها الأتراك العثمانيون فى شمال اليمن منذ مطلع القرن العشرين ، وان كانت تلك العملية قد توقفت مؤقتا أثناء الحرب الايطالية مع العثمانيين فى طرابلس الغرب عام ١٩١١ . ورغم أن الايطاليين كلفوا هؤلاء الرجال بالعمل فى مستعمرة اريتريا فى سنة ١٨٩٠ ، وفى الصومال الايطالى ، غير انهم ارسلوهم أيضا الى طرابلس الغرب حيث قاتلوا بكفاءة ضد الأتراك والسنوسيين أثناء الحرب المذكورة(٥٤) . وقد أكد « بودريرو » « لجاكوب » أن المقاتلين اليمنيين الذين قام بتجنيدهم من المهاجرين الى الصومال كانوا يفوقون فى كفاءتهم القتالية زملاءهم من الأحباش الذين اختارهم « بودريرو » من أسمرة وجندهم زرحا من الزمن . وقد قام الايطاليون بتجنيد ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل يمنى على نحو ما أوضحه « بودريرو » الذى أبدى دهشته وتعجبه من عدم قيام البريطانيين بتجنيد مقاتلين محليين من عدن والمناطق اليمنية الأخرى آنذاك(٥٥) .

---

(53) I. O. L., B. 216., op. cit., p. 2.

(٥٤) عثمان صالح سبى : تاريخ اريتريا ، ص ١٨١ .

(55) I. O. L., B. 216., op. cit,. p. 3.

واشار « جاكوب » كذلك فى مذكرته الى أن الايطاليين كانوا يمنحون المجندين اليمنين رواتب شهرية ليشتروا منها ملابسهم ، ولا يحصلون على وجبات غذائية الا اذا توغلوا فى داخل أراضى الصومال ، للقيام بأعمال عسكرية ، أو لازالة الغابات وشق الطرق . وكان يسمح لهؤلاء المهاجرين اليمنيين بزيارة أوطانهم بعد عامين من الخدمة العسكرية المتصلة . أما من كانوا يؤثرون منهم البقاء فى مواقعهم فقد كان يسمح لهم بالاشتغال بالتجارة ، وان كانوا معرضين للاستدعاء دائما للالتحاق بالقوات الاحتياطية الايطالية ، على أن يمنح كل منهم فى تلك الحالة نصف راتبه . وكان المجندون من المهاجرين اليمنيين يتزوجون من نساء من القبائل الصومالية ، نظرا لأن الكثيرين منهم لم يصطحبوا زوجاتهم معهم فى الهجرة ، أو لم يسبق لهم الزواج من قبل .

كما أن « جاكوب » قد أشار كذلك الى أن « الكولونيل بودريرو » القائد الايطالى فى الصومال ، كان يهتم برجاله من اليمنيين اهتماما شخصيا، ويختلط بهم دون قيود لأنه كان يدرك أهمية الاتصالات الشخصية فى تنمية ولائهم ، حتى أنه كان يفصل من يستبد من ضباطه فى معاملتهم حتى لا يتعرض نظام اشرافه « الأبوى » للانهيار . كما انه كان يتبع نظاما معتدلا فى التأديب، ولهذا فان الجلد كان محرما على حد قوله « فنحن لا نستعمله كما تفعلون أنتم (يقصد البريطانيين) »(٥٦) .

وقد استفسر « جاكوب » من الكثيرين من المجندين اليمنيين عن كيفية معاملة الطليان لهم فوجدهم راضين عن طريقة المعاملة لديهم . فالضابط الايطالى كان أكثر اتصالا برجاله من الضباط البريطانيين . وقال « جاكوب » أيضا انه رأى ضابطا ايطاليا فى الحبشة يبادل جنديا قبعته عندما تبين أن غطاء راس الجندى لا يقيه من حرارة الشمس المحرقة .

وقد حاول « بودريرو » أن يعلم المجندين اليمنيين فى الصومال اللغة الايطالية بما يعمق ولاءهم لايطاليا ، ويسهل التعامل معهم . كما أنه لم يكن يضيع أى وقت للاستعراضات العسكرية الرسمية . وكان تدريبهم على الأسلحة الصغيرة يتم فى حرص بالغ ، كما كان معظمهم مسلحين بالبنادق .

---

(56) I. O. L., B. 216., Ibid., p. 4- ,

واختتم « جاكوب » مذكرته بالاشارة الى انه قد أورد تلك المقتطفات من حديثه مع الضابط الايطالى « بودريرو » ليؤكد ما اوضحته التقارير السابقة عن الطريقة « الماكرة » التى كانت تتبعها ايطاليا فى نشر نفوذها فى شرق أفريقيا عن طريق استقطاب العناصر اليمنية المهاجرة الى الصومال . وكان أسلوب الايطاليين يتركز فى العمل على « طلينة Italization المهاجرين اليمنيين تدريجيا فى تلك المناطق(٥٧) .

وتجدر الاشارة الى ان ظاهرة اشتغال المهاجرين اليمنيين بالجندية لم يقتصر على شرق افريقيا انما تشكل ظاهرة عامة فى المناطق التى هاجر اليها اليمنيون فى القارة الاسيوية كذلك وخاصة فى الهند . اذا كانت هجرة اليمنيين وخاصة الحضارمة الى سواحل « كوجرات » و« كونكان » و« مالابار » فى أواخر القرن الثامن عشر وأثناء القرن التاسع عشر الميلاديين، بغرض الاشتغال فى جيوش الدويلات المسلحة فى اقليم « ماراثا » وفى وسط وجنوب وغرب بلاد الهند . وقد تكونت هذه الدويلات عقب تفكك الامبراطورية المغولية فى عام ١٧٠٧(٥٨) . وعلى الرغم من صعوبة تأريخ بداية اشتغال المهاجرين اليمنيين فى دويلات « الماراثا »(٥٩) تأريخا دقيقا ، الا أنه يمكن القول ان استخدامهم قد بدأ فى عام ١٧٤٢ على وجه التحديد . وقد قدر عدد اليمنيين هناك عام ١٨٠٠ بحوالى خمسة آلاف شخص ، وقد أقام احد « الجمعدرات » العرب امارة صغيرة مستقلة « مانقرول » استمرت ما بين ١٧٤٧ — ١٩٤٧ م(٦٠) . وفى عام ١٧٩٣ م عرف الوجود العربى اليمنى فى دولة « البرنسال » فى « تاجبور » وقد أثار ازدياد نفوذهم فى اقليم « كاثيافار » انتباه الجندى البريطانى « جيمس ماكموردو » الذى زار

---

(57) I. O. L., B. 216., op. cit., p. 4.

(58) The Gazetteer of India, Bombay presidency kulaba and Janjira, Bombay 1883, p. 38.

(59) The Relations Between South Arabia and the Decean From the 17th till the 20th Céntury (Osmania University, Hyderabad, 1971). p. 43.

(60) Menon, V. P. : Story of the integration of Indian states, (Bombay, Orient Longmans 1961) pp. 128-135.

« كوجرات » فى عام ١٨٠٩ . وكغيرهم من زعماء العشائر استخدموا العرب اليمنيين كجنود للحراسة(٦١) .

على أن أكثر هؤلاء اليمنيين كانوا من الحضارمة الذين نزوحوا الى الهند . وقد كان الحراس اليمنيون فى طليعة قوات الحراسة فى قلاع « بارودا » و« برساد » « سانخيدا » وغيرها من القلاع الحصينة . وكانوا يدينون بالولاء والطاعة لمن بيده مخصصاتهم المالية ، وكان وجود العرب اليمنيين فى خدمة أحد الحكام دليلا على أن فى استطاعة ذلك الحاكم القيام بواجباته وتنفيذ التزاماته ، الأمر الذى شجع أولئك القادة العرب اليمنيين على التدخل فى الشؤون الداخلية لتلك الدويلات(٦٢) . ومع ازدياد الوجود البريطانى فى الهند وتغلبه على هذه الدويلات منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، فقد حاول الانجليز ارجاع عدد من الحضارمة الى بلادهم ، بينما أبقوا على المولدين منهم للعمل بالجيش البريطانى فى « حيدر آباد » فى يناير ١٨١٨ . كما كون بعض هؤلاء المولدين ثروة طائلة مثل « عمر بن عوض » الذى أصبحت أسرته من القيعطيين فى « حيدر آباد » مصدر الالهام والقوة والدعم المادى « لسلطنة القعيطيين » فى حضرموت فيما قبل استقلال جنوب اليمن فى نهاية نوفمبر عام ١٩٦٧(٦٣) . وهكذا لم يقتصر اشتغال المهاجرين اليمنيين بالجندية فى الصومال فحسب بل ان تجربتهم فى الهند كانت أسبق فى هذا المجال(٦٤) .

---

(61) Macmurdo, James : Journal of a Route Thraugh the Peninsula of Gazeraut in 1809 and 1810, edited by Suresh Ghandra Ghosh as the Plninsula Gujarat in the early 19th Century, (New Delhy : Sterling 1977) pp. 64, 65.

(62) Majumdar, R. C. and Dighe V. G. : The History and Culture of the Indian People, vol. 8. Bombay, Bhratiya vidya Bhavan, p. 512.

(63) The Indian History Congress, 40 Session, Andhra University (Visakhopatnam 1979). British Attitude towards the Arab Mercenaries of the Nizam. p. 1, 5.

(٦٤) عمر الخالدى : عرب حضرموت فى حيدر آباد ، ترجمة جمال محمود حامد ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الخامس والأربعون ، السنة الثانية عشرة يناير ١٩٨٦ م/ربيع الثانى ١٤٠٦ هـ ، ص ١٤١ .

رابعا — مجالات انفاق اليمنيين لواردات المهجر :

ولتتبع مجالات انفاق اليمنيين لواردات المهجر من شرق افريقيا او غيره من المناطق ، فانه يمكن أن نتخذ من واقع حضرموت نموذجا لما كان يحدث فى بقية المناطق اليمنية . فلقد كانت احدى الأسر المعروفة فى حضرموت وهى أسرة « آل الكاف » بالمهجر تمتلك اكبر ثروة يمنية ، وكانت مضرب المثل بين اليمنيين فى السعة واليسر . ومن تلك الثروة الطائلة كان « آل الكاف » هم الذين أسهموا بقسم لا يستهان به من ايراداتهم من المهجر فى التعليم ، والخدمة الطبية ، والادارة العامة ، وتعبيد الطرق فى وادى حضرموت ، وكان « آل الكاف » يدفعون « للسلطان الكثيرى » كل عام ٦٠٠٠ ريال فى ميزانية « السلطنة الكثيرية » ، مساهمة منهم فى ادارة شئون مدينة سيئون وقريتى تريس ومريمة . ويدفعون كل عام ما معدله ٤٠٠٠ ريال لحفظ الأمن فى منطقة تريم . وفى عام ١٩٣٤ أنفق السـيد أبو بكر بن شـيخ الكاف ١٢٠٠٠ ريال لايجاد حل لقضية خلاف بين قبائل آل تريم وسكان مدينـة تريم . كما أنفق « آل الكاف » على مستوصف صغير فى تريم ٢٤٠٠٠ ريالا سنويا لطبيب مؤهل وأدوية ولوازم ، اضافة الى ٢٤٠٠٠ ريال كانوا ينفقونها سنويا فى أوجه البر والاحسان الأخرى وفى تعبيد الطرقات . وكان « آل الكاف » هم الذين انشأوا جميع سواقى الشرب الواقعة على طرق القوافل بين ساحل حضرموت والمنطقة الداخلية ، وكلفهم اصلاح « عقبـة العرشة » ٧٠٠٠ ريال . كما أنهم هم الذين شقوا طريق السيارات بين الساحل والداخل لمسافة ٢٠٠ ميل ، وكلفهم ذلك ١٨٠ الف ريال . وقـد افتتحت تلك الطريق المعروفة بالطريق الشرقية فى عام ١٩٣٧ ، وكانت تسمى طريق الكاف حتى وقت قريب . وأنفق « آل الكاف » ١٥٠ الف ريال على ترتيبات الأمن الذى نعمت به حضرموت ثلاث سنوات ، فيما بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٩(٦٥) .

بل ان جميع المدارس فيما كان يسمى قبل استقلال جنوب اليمن عام ١٩٦٧ يسمى « بالدولة الكثيرية » كان يتولى الصرف عليها أثرياء « آل السقاف » و« آل الكاف » من أموال رصدوها خاصة لهذا ولغـيره من

(65) Her Majesty's Stationery Office, London, The Colonial Office List, 1960, p. 59.

الأغراض الانسانية النبيلة . فكان آل السقاف يديرون مدرسة النهضة بسيئون وكانت تضم ٥٠٠ طالبا وسبعة مدرسين ، كما كانوا يديرون مدرسة أخرى تضم ١٠٠ طالب ، هذا فيما عدا معونات مالية كانوا يدفعونها لمدارس قرآنية للبنين والبنات فى سيئون وتريم . كما كان « آل الكاف » يتولون الانفاق على مدرستين بتريم هما مدرسة الأخوة والمعاونة التى كانت تضم ٤٠٠ طالبا ، ومدرسة آل الكاف التى كانت تضم بين ٣٠٠ — ٤٠٠ طالبا . وكانوا ينفقون على مدرستين فى مدينة الخريبة بوادى « دوعن » ، ويسهمون فى نفقات مدرستى المكلا والشحر قبل الاستقلال . فاذا استثنينا أسرة « آل السقاف » التى تنفق على جانب من التعليم بسيئون وتريم ، فان أسرة « آل الكاف » كانت الأسرة الوحيدة بحضرموت التى كانت تنفق على نشر التعليم فى المنطقة على نطاق واسع وكانت كل هذه الأموال ترد « لآل الكاف » و« آل السقاف » من المهجر بصفة منتظمة حتى قبيل الاستقلال(٦٦) .

وفى مدن وقرى عديدة بمنطقة حضرموت الساحلية والداخلية كان ينفق بعض موسرى المهاجر أموالا كثيرة على موارد ماء الشرب ، وأعمال الرى ، وعلى دور العبادة ، وعلى المطابخ العامة ، وعلى الصدقات والاصلاح بين الناس . وغنى عن القول أن روح المنفعة العامة التى تجلت فى البعض من أثرياء المهجر قد رفعت عن كاهل السلطات اليمنية ثقل القيام ببعض الخدمات العامة .

والى جانب أوجه الانفاق المحمودة لايرادات المهجر فى جزئها الاكبر ، فقد كان الجزء الأصغر من هذه الايرادات — بعد الانفاق العادى على الأسر وعلى شراء الأسلحة واقتناء الأثاث الفاخر والفراش الوثير فقد كان يصرف فى اذكاء الفتن ، واثارة النعرات العشائرية البدائية ، وفى تعدد الزوجات ، واقامة الولائم والحفلات ، وشراء الممتلكات الزراعية الباهظة الثمن ، القليلة الانتاج ، للترفيه والمباهاة ، وفى شراء السيارات ، وتزيين ديار السكن بالنقوش والألوان ، ولاقتناء الديار الكبيرة التى يصعب الاعتناء بها ، الى آخر سلسلة مظاهر النزوات العارمة التى يولدها الثراء السهل ، كشراء الملابس العديدة والحلى الذهبية وغيرها . وللاسف الشديد فان أثرياء المهجر لم يستثمروا شيئا يذكر من ثرواتهم الطائلة فى وطنهم يدعمون به

---

(٦٦)صلاح البكرى : فى جنوب الجزيرة العربية ، ص ٢٥٠ .

عودتهم ، بل ظلوا كمن يعيش فى واحة نائية يجلب ماءها من بقاع بعيدة محفوفة طريقها بكل المخاطر . بينما كان فى استطاعة اليمنيين المهاجرين الموسرين أن ينشئوا فى بلادهم السدود ، ويرفعوا من مستويات مياههم الجوفية ، فيوسعوا رقعة الزراعة للحبوب والخضروات ، ويغرسوا ملايين النخيل ، مما يقيهم غائلة الجوع على أقل تقدير ، اذا انقطعت صلاتهم بالمهجر لأى سبب من الأسباب . وهذا ما كان يفعله صغار المزارعين فى اليمن ، دون أن يتشدقوا برعاية أقاربهم فى المهجر ، فيضيفون الى مئات نخيلهم عشرات النخيل المثمرة ، ويزيدون الى رقعة أرضهم المزروعة أشجارا صالحة للزراعة ، ولهذا فهؤلاء طاب لهم العيش فى البلاد . وكانت محاصيل التمر بحضرموت على سبيل المثال ، كالعملة الدارجة للمقايضة والتعامل بالنسبة لليمنيين ، كما كانت الأبقار بالنسبة لأهالى شرق افريقيا تعتبر عملتهم الرئيسية فى التعامل التجارى والاجتماعى ، فكان كثيرون من أهالى حضرموت ليس لهم حيلة ولا حرفة ولا كسب غير ثمرة النخل ، فلا يأتى وقت الرطب الا وقد اشتدت حاجتهم اليه ، يبيعون بعضه ليشتروا بثمنه حاجتهم من الحبوب والكساء ، ويدخرون البقية يأكلونه تمرا فى بقية شهور السنة .

ولهذا فقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها (١٩٣٩ — ١٩٤٥) أن اهتز الكيان الهش الذى ابتناه المهاجرون باليمن ، ومزقهم الجوع شر ممزق ، فافتقرت عائلات بأكملها كان البنان يشير اليها فى وفرة المال والضياع ، وظلت المجاعة تهدد حضرموت حتى عام ١٩٥٠ (٦٧) . ولقد ثبت لليمنيين أن الكسب السهل يولد الغفلة والفساد فى التدبير ، بعد أن افتقرت عائلات موسرة فى المهاجر لأن أفرادها ، كملاك متغيبين ، عاشوا عيشة رخاء وسعة فى حضرموت ، وكأن دخولهم من المهجر سوف تبقى ثابتة الى الأبد . فكان عميد العائلة الذى كون الثروة ينفق عن سعة ، وربما جاز له ذلك ، وجاء أبناءه من بعده فكان ينفق كل واحد منهم ما كان ينفقه أبوه ، مع أنهم ورثة كسالى لا أقل ولا أكثر ، ثم جاء أبناءهم من بعدهم وكانوا أكثر عددا واشرس ضراوة فى تبديد المال فكان كل واحد منهم يتطلع الى أن يعيش فى المستوى الذى كان يعيش فيه جده ويوسع من ملذاته ومباذله ، فتبددت الثروة رغم ما كان قد أصابها من ضائقات ضرائيبية فى المهجر .

---

(67) Gavin, R. J. : Aden Under British Rule 1839-1967, p. 311.

ومهما كانت طبيعة تصرف الأثرياء المهجرين فى ثرواتهم فى بلادهم ، فان تلك الثروات كانت تعود بالنفع العميم ، بصورة غير مباشرة على اليمن بوجه عام . فكان منها ما يذهب الى خزينة الجهاز الحاكم فى شبه رسوم وضرائب ، ومنها ما كان يذهب عطاءات لأشخاص معينيين ، ومنها ما كان يذهب أجور العمال فى خدمة الأثرياء ، ومنها ما كان يذهب الى التجار المحليين اثمانا لخدمات أو حاجيات استهلاكية ، ومنها ما يدخر للمستقبل بكل احتمالاته المفاجئة . ويدور دولاب النفع العام دورته الكاملة فتنتقل الاموال من يد الى يد بحكم الخدمة المتبادلة بين أبناء الوطن الواحد ، ولا يختل دوران هذا الدولاب الا حينما تخرج هذه الأموال الى الخارج لشراء الحاجيات الاستهلاكية دون وجود عوائد مقابلة . وهذا ما يؤكده الاحصاء التالى الذى نقارن فيه بين قيمة الواردات والصادرات فى اليمن الجنوبية عبر خمس سنوات على النحو التالى (٦٨) :

السنة	قيمة الواردات بالدينار	قيمة الصادرات بالدينار
١٩٦٤	٤ر١٣٢ر٢٧٠	٢٧٦ر٨٧٢
١٩٦٥	٣ر٨٦٤ر٠٤١	١٨٦ر٧٧٤
١٩٦٦	٣ر٠٩٧ر٨٢٥	١٦٩ر٠٢٨
١٩٦٧	٣ر٨٠٢ر٦٦٠	١٠٩ر٧٤٥
١٩٦٨	٣ر١٨٤ر٧٨٧	٤٧ر٥٢٣

ويؤكد هذا الاحصاء الفرق المتزايد بين قيمةالواردات وقيمةالصادرات، ولكى يغطى هذا الفرق فقد كان على المهجرين أن يوفروا كل عام مبلغا من المال للمقيمين باليمن يتراوح بين ٤ — ٣ ½ مليون دينار للحفاظ على المستوى المعيشى الذى كان اليمنيون يتمتعون به خلال عام ١٩٦٨ .

(٦٨) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٦٤ . وقد أشار الى أنه حصل على المعلومات الاحصائية من الادارات الحكومية المعنية فى عــدن .

خامسا ـ مدى نجاح اليمنين بمهجرهم فى شرق افريقيا :

وتجدر الاشارة الى مدى نجاح اليمنيين بمهجرهم فى شرق افريقيا الذى يعود الى أسباب ذاتية واخرى موضوعية . ذلك ان اليمنيين ظلوا فى مهاجرهم بعيدين عن المشاكل المحلية وعما لا يعنيهم ، خاصة وان همهم انصب على جمع الأموال وتكوين الثروات وتحويل جانب منها الى الوطن ، وهذا جعلهم ينغلقون على أنفسهم فى وسط عاداتهم وتقاليدهم . وكان العرف اليمنى يقضى بعدم لحاق الزوجات بأزواجهن فى المهاجر ، ولهذا اضطر المهاجرون الى التزوج من فتيات السكان الأصليين ويفرضون على أبنائهم المولدين عزلتهم ، بل ان الكثيرين منهم أرسلوا أبناءهم الى اليمن للتعليم ، وبناتهم للزواج والبقاء بها حتى الموت .

وكان اليمنيون يتولون الزعامات الدينية فى المهاجر ، التى كان معظم أهلها وحكامها يدينون بالاسلام ، كما كانوا يتولون وظائف التربية والتعليم ، فأكدت هذه الزعامات للمينيين نوعا من السمو فى نفوس السكان الأصليين فيكرمونهم ، ويبالغون فى تحيتهم ويرعون مصالحهم . وما زال اليمنيون يذكرون عبارة « بانا مكوبا » أى « السيد الكبير » فى شرق أفريقيا ، وهى عبارة تحية يقابل بها الأهالى هناك المهاجر اليمنى تعبيرا عن تقديرهم واحترامهم(٦٩) .

كما عرف اليمنيون فى مهاجرهم فى شرق افريقيا بالاقتصاد فى العيش والمثابرة على العمل واحترام القوانين والعادات المحلية ، وبهذا لم يجعلوا من أنفسهم مصدر قلق أو مشاكل للسلطات القائمة فى المهاجر ، الأمر الذى سهل لهم العمل والاتجار فى مختلف المجالات . وكان تعاون اليمنيين الوثيق وتآزرهم وعطفهم على بعضهم البعض مضرب المثل بين الجاليات الأخرى فى مجالات الارتزاق والتسهيل المالى والكفالات . وكانوا يقفون الى جانب أبناء جاليتهم الذين يلاقون صعوبات معينة فى معاملاتهم مع المهاجرين من الجنسيات الأخرى . على أن ثمة حوادث بلغت الى درجة الفتنة ، أما فيما بين اليمنيين أنفسهم فى المهجر ، أو بينهم وبين مهاجرين آخرين . ففى عام ١٩١١ حدثت فتنة الاشاديين والعلويين (وجميعهم من اليمنيين) فى

---

(٦٩) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

اندونيسيا . وفى عام ١٩١٦ ، حدثت فتنة اليمنيين « بحيدر آباد » . وفى عام ١٩٢٨ ، حدثت فتنة اليمنيين وآل عمان بجزيرة زنجبار كما حدثت فتنة اخرى عام ١٩٦١(٧٠) . وقد سالت الدماء فى هذه الفتن الا انها حقنت بعد حين وتصافى القوم . ورغم ضعف الأسباب التى أدت الى حدوث تلك المشاحنات وخاصة ما كان منها بين اليمنيين أنفسهم ، فانها اثرت فى وحدة الصف الأخوى اليمنى ، وامتدت مضاعفاتها الى اليمن ذاته لمدى بعيد .

كما وجدت عوامل اخرى موضوعية أدت الى نجاح اليمنيين فى مهجرهم بشرق افريقيا ، الى جانب العوامل الذاتية التى أشرنا اليها . ومن أهم هذه العوامل الموضوعية ان اليمنيين المهاجرين وخاصة الحضارمة هاجروا الى أقطار كان اهلها الأصليون بالنسبة لهم اقل تعليما وحضارة ومعرفة بأساليب العيش واقل تضامنا ومسئولية . بل ان المهاجر التى هاجر اليها اليمنيون فى شرق افريقيا كانت ترسف تحت اغلال الاستعمار الانجليزى والفرنسى والايطالى والألمانى(٧١) ، فكان الحاكم المستعمر يقف لأسباب تخدم أهدافه الى صف الأجانب من اليمنيين وغيرهم ، أكثر مما كان يقف الى جانب السكان الأفارقة الأصليين . بل ان اليمنيين تمتعوا منذ عام ١٨٨٨ بالحماية البريطانية فى شرق افريقيا ، وكانت المحاكم القنصلية والادارة الاستعمارية تناصرهم ، وخاصة فى مناطق الصومال البريطانى وكينيا(٧٢) ، وقد استغل بعضهم هذه التسهيلات الاستعمارية الى ابعد مدى .

---

(٧٠) سعيد على على المغيرى : المرجع السابق ، ص ٤٨٠ .

وقد أشار الى انه « فى يوم أول يونية ١٩٦١ دخلت زنجبار فى تاريخ جديد فى هذا اليوم ، يوم الانتخابات فى زنجبار والجزيرة الخضراء ، ففى هذا اليوم شبت نار الفتنة ما بين الحزب المسمى افروشيرازى ، وما بين حزب الوطن ، ووقع القتال فى نفس بلدة زنجبار ، ثم توسعت هذه الفتنة فى داخلية الأرياف فقتل الاطفال والنساء ، وفر السكان من الأرياف الى داخلية بلدة زنجبار ، فامتلأت بلدة زنجبار من اللاجئين فى المدارس والمستشفيات والبيوت من رجال ونساء وأطفال ، وأسفرت هذه الحادثة المؤلمة عن مقتل سبعين نفرا بموجب تقرير الحكومة ، وأكثرهم من العرب العمانيين والحضارمة ، وعن الخبر ان القتلى أكثر من ذلك » .

(٧١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ — ١٩١٤ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(72) The Colonial Office List 1960, Her Majesty's Stationery Office, London 1960, kenya, pp. 108, 109.

وتجدر الاشارة كذلك الى أن من عوامل نجاح اليمنيين فى مهجرهم بشرق أفريقيا سهولة الهجرة الى هناك ، والتى كانت لا تقيدها جوازات سفر ولا رخص دخول أو اقامة او عمل ، فضلا عن أن التداول فى عملات المهاجر كان حرا لا قيود عليه . ولم تكن الحركات الوطنية بمعظم تلك الأقطار بشرق افريقيا قد بلغت حدا من النمو والقوة(٧٣) ، بحيث تحمى العامل المحلى المهيض الجناح من المنافسة الذكية التى يلقاها من الأجانب على اختلاف جنسياتهم ، على الصعيدين الاقتصادى والمهنى(٧٤) .

وعلى أية حال فان بعض الأسباب الذاتية التى كان يرى فيها المهاجرون الأوائل من اليمنيين سلما لنجاحهم فيما قبل بداية القرن العشرين ، فانها قد بدأت تزول تدريجيا منذ بداية ذلك القرن . اذ لم يعد المهاجرون اليمنيون منغلقين على أنفسهم ، أو متقوقعين داخل عاداتهم وتقاليدهم وأنظمة زواجهم وثقافتهم . ولم يعد الأبناء يرون فى مؤسسات وطنهم الثقافية ، فى اليمن وحضرموت بصفة خاصة ، ما يروى عطشهم الى المعرفة الحديثة ، كما انهم لم يجدوا فى أجدادهم مصادر لأى الهام ايجابى ، بل ان فتياتهم من المهاجر وجدن فى مساقط رؤوسهن بالمهجر ازواجا اقرب الى أحلامهن من الأزواج الذين كن يأملن فيهن فى وطنهم الأصلى فى اليمن . والواقع أن المهجريين اليمنيين — ويرجع ذلك بصفة أساسية الى كثرة المولدين بينهم رجالا ونساء — شبوا على الطوق وكبروا بمقدار ما كبرت مساقط رؤوسهم وتقدمت وازدهرت ، ففضلوا أن يكونوا من المهاجر واليها بكل ما فيها من خير وشر ، من أن يظلوا على الحائط متفرجين ومتطفلين على موائد الغير ومتكففين أياديهم . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل سيل المهاجرين يتدفق من اليمن الى الخارج وخاصة شرق افريقيا ، كما أن تحاويلهم النقدية الى ذويهم باليمن تدر المزيد بصفة مستمرة . بل ان الهجرة زاد معدلها من اليمن الى شرق أفريقيا بشكل تدريجى مع بداية القرن العشرين ، ولم يجد المهاجرون ما يغريهم على العودة الى وطنهم اليمن نتيجة لسوء الأوضاع الداخلية هناك ،

---

(73) Davidson, A. B. and others : op. cit., p. 353.

(74) Smirnov, S. R. : A History of Africa, 1918-1967, U. S S. R. Academy of Science, Institute of Africa, «NAUkA» Publishing House, Moscow 1968, p. 351.

مما جعلهم يغادرونه الى غير رجعة سيما وانه أصبح ميسورا بشكل تدريجى اصطحاب الزوجة اليمنية لمصاحبة زوجها الى اى مكان فى العالم ، كما أن الهجرة شملت أسرا باكملها أيضا بعد أن كانت قاصرة على هجرة أفراد فحسب .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية فى اليوم الثالث من سبتمبر ١٩٣٩ بين المانيا النازية من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، فان المهاجرين اليمنيين لم يشعروا بوطأتها الا فى أعقاب اعلان ايطاليا الحرب على الحلفاء فى العاشر من يونيو ١٩٤٠ ودخول جنودها الى كينيا والصومال ، مما جعلها تفرض القيود الشديدة فى كل انحاء شرق افريقيا بما فيها الصومال والحبشة — على الهجرة والتجارة(٧٥) . وقد حد هذا من تحاويل الأموال الى اليمن وأثر تأثيرا بالغا على الأسر اليمنية التى كانت ترد اليها أموالها من تلك المناطق . وعندما أعلنت اليابان الحرب ضد الحلفاء والولايات المتحدة الامريكية فى اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ ، فقد نزلت القوات اليابانية فى اليوم التالى فى الملايو ، كما نزلت قوات يابانية كذلك فى سنغافورة ، وفى اليوم الأول من مارس احتلت القوات اليابانية ايضا جزيرة جاوة(٧٦) . وقد ترتب على ذلك توقف الهجرة من اليمن الى أقطار الشرق الأقصى ، أما الهجرة الى الهند وشرق افريقيا فقد استمرت بصورة متقطعة ، وقد أدت هذه الظروف كذلك الى انقطاع تحويل الأموال من أقطار جنوب شرق آسيا ، وبدأ المهجرون يمدون أيديهم على مدخراتهم حتى نفدت ، وركبتهم الديون فباعوا املاكهم الثابتة والمنقولة . وكان طبيعيا أن تظهر المجاعة فى مناطق عديدة من اليمن فى مطلع عام ١٩٤٣ ، ولم ينتصف هذا العام الا وقد انتشرت على مدى أوسع فى بلاد اليمن . ولقد صاحب تلك الأزمات ظهور الجفاف فى معظم أرجاء اليمن ، ومرت على اليمنيين سبع سنين عجاف كانت بدايتها فى عام ١٩٤١ . ومن المعروف أن للجفاف دورات خبيثة فى اليمن كدورات الكساد الاقتصادى فى البلاد الأخرى . وآخر مجاعة حدثت فى اليمن — فى فترة البحث — كانت مجاعة وادى « عمد » فى سنة ١٩٤٨ .

---

(75) Davidson, A. B. and others : op. cit., pp. 354, 355.

(٧٦) هربرت فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ١٧٨٩ — ١٩٥٠ ، ص ٦٧٧ .

ومن المعروف كذلك أن الجمهورية العربية اليمنية هى واحدة من بلدان العالم الثامن التى تعانى من مشكلة الغذاء . اذ تفاقمت أزمة نقصان المواد الغذائية فيها خلال سنوات القحط التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وكانت آخرها ابان المدة من ١٩٦٦ — ١٩٧٣ مع تزايد الطلب على هذه المواد الغذائية وتدهور انتاجها(٧٧) . ومع انفتاح اليمن على العالم الخارجى فى السنوات التى أعقبت قيام الثورة اليمنية فى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، ثم ازدياد القوة الشرائية وبخاصة لدى سكان المدن ، أصبح القطاع الزراعى عاجزا عن سد احتياجات السكان المتزايدة من السلع الزراعية(٧٨)، واصبحت المستوردات من هذه السلع تشكل فى عام ١٩٨١ نحوا من ٣٧٪ من قيمة اجمالى الواردات . وتعادل قيمتها أيضا حوالى ٦٩ ضعفا من مجموع صادراتها الزراعية ، ارتفعت فى عام ١٩٨٢ الى ٢٢٠ ضعفا(٧٩) بسبب تدنى الصادرات الزراعية الى اقل من ثلث قيمة تلك الصادرات فى عام ١٩٨١(٨٠) .

على أنه قد خفف من وطأة هذه المجاعات أثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها ذلك الرخاء الذى ساد ساحل الشطر الجنوبى من اليمن وخاصة فى قاعدة عدن العسكرية البريطانية . اذ أفرز ذلك الرخاء نوعا من التعادل المعقول بين ما فقدته اليمن من واردات المهجر ، وما حصلت عليه من مكاسب الحرب(٨١) ، حيث ظهر بالساحل اليمنى فى الجنوب نوع من الازدهار المؤقت،

---

(77) U. N., F A O., Productios, Yearbook 1982, vol. 36., FAO. Statestics Series, No. 47., Rome 1983, Table 3., p. 67.

(78) U. N., FAO., Trade, Yearbook 1982. vol. 36, FAO Statestics Series, No. 49, Rome 1983, Table 6, p. 43.

(٧٩) مقبل أحمد محمد : القطاع الزراعى : « أهدافه واستثماراته » مجلة الوعى الزراعى التى تصدرها وزارة الزراعة بالجمهورية العربية اليمنية ، السنة الثالثة ، العدد الخامس ، أغسطس ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

(٨٠) عباس فاضل السعدى (دكتور) : التحليل الجغرافى لمشكلة الغذاء فى اليمن بحث نشرته مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الصادرة عن جامعة الكويت ، العدد الثالث والاربعون ، السنة الحادية عشرة ، شول ١٤٠٥ هـ / يوليو ١٩٨٥ ، ص ١٥٦ .

(٨١) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

مما حدا بكثير من الأسر اليمنية الى التجول من المناطق الداخلية الى الساحل لتعمل فى مختلف الخدمات البدنية(٨٢) .

ويوضح احصاء نشرته الامم المتحدة عام ١٩٥٥ أن مساحة عدن والمحميات تبلغ ١١٢ الف ميل مربع ، وأن عدد السكان بلغ نحو ٦٥٠ الف نسمة منهم ١٥٠ الف فى عدن . وتدخل ميناء عدن مائة باخرة فى الاسبوع على مدار السنة وانها من اهم الثغور فى العالم ، وبلغ دخل البريطانيين منها سنويا آنذاك نحو ١٥٠٠ مليون دولار(٨٣) .

ورغم نمو طبقة من حديثى الثراء فى عدن نتيجة للازدهار المؤقت اثناء الحرب العالمية الثانية وفى اعقابها ، فقد ادت الهجرة من مناطق اليمن الداخلية الى عدن الى وجود نسبة كبيرة من السكان الذين لا منازل لهم حتى بلغت نسبتهم ٩٪ من العدد الكلى للسكان فى عام ١٩٥٥ ، اذ كان عدد هؤلاء فى تلك السنة قد بلغ ١٥٫٢٨٧ نسمة . بل ان هجرة الكثيرين من شرق افريقيا وخاصة من الصومال وكينيا الى عدن آنذاك(٨٤) — نتيجة لسوء معاملة الحكومات الاستعمارية — قد جعلت افراد الجالية الصومالية فى عدن تقدر فى نفس السنة بعشرة آلاف نسمة ، عمل معظمهم فى شراء وبيع المواشى المستوردة اصلا من الصومال الى عدن ، وفى الأعمال الأخرى كالتجارة والوظائف الادارية والشركات(٨٥) .

ونظرا لازدياد هجرة اليمنيين والأفارقة الى عدن اثناء الحرب العالمية الثانية وفى اعقابها فقد ارتفع عدد المساكن حتى بلغ ٢١٥٥ مسكنا فى « وادى العيدروس » و« وادى الطويلة » و« الشيخ اسحق » و(وادى المحراق) بالمعلا و(وادى المحراق) بالتواهى . اما « بستان مهدى »

---

(82) Gavin, R. J. : op. cit., p. 380.

(٨٣) أمين سعيد : اليمن تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى ، ص ١٧٧ .

(٨٤) بازيل دافيدسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

(٨٥) قحطان محمد الشعبى : الاستعمار البريطانى ومعركتنا العربية فى جنوب اليمن ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

و« السيسبان » فقد بلغ عدد المساكن فيهما ٦٠٠ مسكن وبالمدارة ٣٠٠ مسكن ، وبالمحوا ٢٠٠ مسكن ، و« بالشيخ الدويل » ١٠٠ مسكن ، وبالمسبح ٧٦٢ مسكن ، وبعشش الحكومة ٩٢ مسكن . وبذلك يبلغ مجموع هذه المساكن المؤقتة ٤٢١٢ مسكنا مبنية من خشب الصناديق وسعف النخل وصفائح البترول والبراميل والورق المقوى وبعضها بالحجارة والطين والاسمنت . وبالاضافة الى هذه المساكن المؤقتة فقد بنت حكومة عدن مساكن شعبية فى « حجيف » تعرف باسم « الروضة » فى سنة ١٩٥٥ — ١٩٥٦ لاسكان العمال وعائلاتهم . ويسميها الصوماليون « بالقلوعة » وهى كلمة صومالية الأصل . وبلغ عدد المساكن أو البلوكات ٢٥٠ ، كل بلوك يضم ست شقق ، واذا قدرنا سكان كل شقة بستة أنفس فان سكان الروضة يبلغون تسعة آلاف نسمة اغلبهم من مهاجرى الصومال الى اليمن وكل شقة مؤجرة بخمسة وعشرين شلنا ،ومعنى هذا ان الحكومة تحصل على ابجار شهرى مقداره سبعة وثلاثون ألف شلن فى الشهر . وفى منطقة صحراوية فى « الشيخ عثمان » نرهت قرية جديدة نتيجة لزيادة عدد المهاجرين عرفت باسم « القاهرة » ، وبالرغم من أن بيوتها قد أقيمت تحت اشراف ادارة الأشغال العمومية فان بيوتها ضيقة للغاية وعددها ١١٣٠ بيتا . واذا قدرنا سكان كل بيت بستة أنفس فان مجموع سكان « القاهرة » تلك يبلغ ستة آلاف وسبعمائة وثمانين نسمة . وفى « الشيخ عثمان » أيضا نجد ٨٧٦ بيتا عماليا ، وستين بيتا لعمال النظافة ، واذا قدرنا سكان كل بيت بستة أنفس فان المجموع الكلى يكون ٥٦١٦ نسمة . وبهذا نجد أن عدد سكان البيوت المؤقتة التى عاش فيها المهاجرون فى عدن والشيخ عثمان والمعلا والتواهى وعدد سكان « الروضة » و« القاهرة » من ضواحى عدن يبلغ اثنين وأربعين الفا وخمسمائة وواحدا وستين نسمة ، ونظرا لازدياد عدد المهاجرين فلا شك أن عدد الساكنين قد زاد كثيرا حتى بلغ فى عام ١١٥٦ قرابة خمسين الف نسمة ، بينما بلغ سكان عدن نفسها فى تلك السنة قرابة مائتى الف نسمة(٨٦) ، اى أن المهاجرين من اليمنيين والصوماليين والأحباش قد بلغوا قرابة ربع سكان عدن آنذاك ، مما يؤكد ظاهرة الهجرة من الساحل

---

(86) Her Majesty,s Stationery Office, London, The Colonial Office List, 1960, p. 56.

الافريقى الى الساحل اليمنى ، سعيا وراء العيش والازدهار المؤقت أثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها(٨٧) .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها مع مطلع شهر سبتمبر عام ١٩٤٥(٨٨) . كان الموقف بالنسبة للهجرة اليمنية يختلف من منطقة الى أخرى من مناطق المهجر . فقد كانت الهجرة الى الشرق الأقصى متوقفة تماما ، وكان وارد الأموال المحولة من جاوه مقطوعا بشكل كامل ، اما من الملايو فقد كانت الأموال ترد بشكل محدود ومنقطع . بينما كانت الهجرة من اليمن الى الهند مستمرة ، كما ان وارد الأموال منها متقطع ، وكان سبب استمرار الهجرة الى الهند ان نظام « حيدر آباد » كان يجند اليمنيين فور وصولهم الى ميناء « بومباى » ليقاوم بهم محاولة الهند ضمه بالقوة الى الاتحاد الهندى . أما الهجرة الى شرق افريقيا وهو ما يعنينا فى هذه الدراسة فى المقام الأول ، فقد كانت تتم بعد الحصول على ترخيص دخول مسبق من هناك ، أو من دار المقيم السياسى البريطانى فى عدن أو بالمكلا ، وذلك بالنسبة لاقطار شرق افريقيا الأربعة حينذاك وهى زنجبار ، واوغندا ، وكينيا ، وتنجانيقا ، ولمدة ثلاثة أشهر فقط آنذاك . وقد لعب الاقليم المهرى فى جنوب شرق اليمن دورا هاما فى تهجير اليمنيين الى شرق افريقيا . وكانت السلطات فى تلك الأقطار الأربعة الافريقية تحترم وثائق السفر المعطاة من « السلطان بن عفرير » لليمنيين وتسمح لهم بالدخول باعتبار أنهم رعايا السلطان المهرى . وقد خففت هذه الطريقة عن المئات من اليمنيين الضائقة التى كانوا يعانونها من انقطاع واردات المهجر ، وخاصة سكان المناطق التميمية والشنفرية الذين كانوا يعتمدون على تحاويل أبنائهم المقيمين فى شرق أفريقيا . على أن الأموال الواردة آنذاك من منطقة شرق افريقيا بما فيها الصومال والحبشة لم يعد ما يصل منها أكثر مما يسد رمق افراد الأسر المعتمدين عليها باليمن . ولا يتم ذلك الا بموجب اجراءات مكتبية مطولة يستصدر بموجبها أولو الشأن شهادات من السلطات المحلية باليمن بعدد أفراد كل أسرة وبمقدار حاجتها الضرورية من النقد . وكان يهدف البريطانيون

---

(٨٧) حمزة على ابراهيم لقمان : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦.
(٨٨) هربرت فيشر : المرجع السابق ، ص ٧١٣ .

باعتبارهم الحكام الفعليين لمنطقة شرق افريقيا ، بما فيها الحبشة والصومال، بعد طرد ايطاليا من تلك المناطق ، الى الحد من تحويل الأموال خارج منطقة شرق افريقيا . غير أنهم بحكم شعورهم بمسئوليتهم الأدبية ازاء السكان اليمنيين فى نفس الوقت ، بحكم وضعهم فى جنوب اليمن ومركزهم فى عدن، فقد وافقوا على هذه الاجراءات المؤدية الى تحويل أموال من المهاجرين اليمنيين بشرق افريقيا الى ذويهم بالأراضى اليمنية .

بل أن فرنسا أعلنت أن جيبوتى وساحل لصومال الفرنسى منطقة حرة من أول يناير سنة ١٩٤٩ . وكان هذا القرار يتمشى مع النظام الموجود منذ سنة ١٩٠٦ والذى يسمح بمرور تجارة « الترانزيت » من والى الحبشة دون فرض أية رسوم عليها . ثم جاءت فرنسا وغيرت العملة الموجودة فى جيبوتى و فى ساحل الصومال الفرنسى فى ١٧ مارس ١٩٤٩ ،واصبح هناك ما يسمى « فرنك جيبوتى » وهو « فرنك » مستقل كل « غطائه » من الذهب ، ويشرف على اصداره اتحاد المصارف الفرنسى الامريكى الموجود فى نيويورك . وألغيت بذلك كل سلطات مكاتب العملة ،واصبح من حق من يحمل هذه الفرنكات الجديدة أن يحولها أو يحول أية كمية منها الى الدولارات ، دون أى قيد أو أية اجراءات أخرى ، وساعد ذلك على اتساع العمليات التجارية ، كما شجع على الاتجار مع الحبشة عن طريق جيبوتى وجود خط للسكة الحديد يربط بينهما . ولقد لعب المهاجرون اليمنيون دورا ملحوظا فى الحركة التجارية فى جيبوتى والحبشة آنذاك(٨٩) . ولكن السلطات الفرنسية كانت تحد من تحويل أموال المهاجرين اليمنيين الى ذويهم بالأراضى اليمنية . وقد نتج عن كل هذا تقليص فى الخدمات التى كان ينفق عليها فى اليمن الموسرون من اليمنيين المهاجرين بشرق افريقيا ، وأصبح أقاربهم باليمن بحاجة الى ما يسد عوزهم . أما أعداد المهاجرين اليمنيين فى تلك الاقطار فقد ظلت ثابتة تقريبا على ما كانت عليه منذ عام ١٩٣٥ .

كذلك حدث فى أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة أن أغلقت أعداد من المؤسسات الحربية البريطانية فى جنوب اليمن أبوابها ، فوجد

---

(٨٩) جلال يحيى (دكتور) : جيبوتى من موانى افريقية ، مجلة نهضة افريقية ، القاهرة ، العدد ٢٣ ، لشهر أكتوبر ١٩٥٩ ، ص ٧ .

كثير من اليمنيين أنفسهم بدون عمل ، فحاولوا الهجرة الى مهاجرهم التقليدية. غير أنهم ارتطموا بسدود منيعة منها ازدياد القيود الخارجية على الهجرة ، وشددت اجراءات الأمن بالمهاجر ، واستحدثت قواعد اشد على سيولة العملة وتحويلها من بلد الى آخر وخاصة فى اقطار شرق افريقيا .

بل واعقب ذلك من ناحية أخرى اشتداد ادوار الحركات الوطنية الاستقلالية فى هذه المهاجر بشرق افريقيا وغيرها وصاحب ذلك استقلال مجموعة منها ما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٧ . اذ نالت اندونيسيا استقلالها فى عام ١٩٤٥ وملكت زمام امرها فى عام ١٩٤٩ . كما نالت الهند والباكستان استقلالها فى عام ١٩٤٧ . وفى عام ١٩٦٠ نالت الصومال استقلالها كذلك ، واعقبتها تنجانيقا بنيل استقلالها عام ١٩٦١ . بينما استقلت أوغندا عام ١٩٦٢ ، وحصلت جزيرة زنجبار على استقلالها كذلك فى ٩ نوفمبر ١٩٦٣ ، ثم نالت كينيا استقلالها فى نفس السنة(٩٠) ، وتم جلاء الانجليز عن الشطر الجنوبى من اليمن فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٧(٩١) . وقد قامت فى كل هذه الاقطار الاسيوية والافريقية حكومات وطنية ذات سيادة ، واصبح من الأمور البديهية أن توجه كل حكومة من هذه الحكومات همها نحو حل مشكلات مواطنيها والمشكلات التى خلفها الاستعمار فى كل منها .

وفى مقدمة المشاكل التى خلفها الاستعمار فى هذه المناطق مشكلة المهاجرين بها ، الذين ظلوا سنين عديدة مسيطرين على جانب كبير من اقتصاد البلاد ، وخاصة بلدان شرق افريقيا ، ومتحكمين فى أرزاق قطاعات كبيرة من شعوبها بامتلاكهم زمام المهن كبيرها وصغيرها ، وهى مشكلات لا زالت تتاسى بلدان شرق افريقيا منها الامرين . ولهذا اختطت تلك الأقطار لنفسها سبل الخلاص من السيطرة الاجنبية الداخلية ، باصدار سلسلة من التشريعات بين عامى ١٩٥٠ و١٩٦٧ ، كان من نصيب اليمنيين من بينها فى مناطق الهجرة بالمحيط الهندى بوجه عام ، وشرق افريقيا بوجه خاص ، ما يلى :

---

(90) Smirnov, S. R. : op. cit., p. 363.

(91) Trevelyan, H. . The Middle East in Revolution, Aden 1967. p. 266.

أولا — أوقفت اندونيسيا تحويل أية أموال الى حضرموت وعموم اليمن بمبادلة تجارية ، كما أوقفت هجرة اليمنيين اليها الا بسابق ترخيص دخول .

ثانيا — فرضت سنغافورة — عقب نيل استقلالها الداخلى فى عام ١٩٥٩ — نفس القيود على اليمنيين ، بيد انهم تمكنوا بوسيلة أو بأخرى من بيع الجزء الأكبر من ممتلكاتهم بها ، وامتلكوا باثمانها عقارات فى عدن وبيروت والقاهرة ، أما ممتلكاتهم فى اندونيسيا فتركوها لمن بقى منهم هناك.

ثالثا — أوقفت الهند وباكستان تحويل أية أموال الى اليمن ومنعتا الهجرة اليها الا باذن دخول مسبق . كما أن الهند صادرت الاقطاعات الزراعية التى كان يمتلكها أغنياء الحضارمة اليمنيين «بحيدر آباد» ، وسرحت جنود نظام « حيدر آباد » بعد أن قضت على حكم النظام نفسه ، وسوت معاشات جنود النظام اليمنيين ، ورحلتهم هم وعوائلهم الى حضرموت .

رابعا — اوقفت اقطار شرق افريقيا هجرة اليمنين اليها الا باذن مسبق ومنعت تحويل الأموال الا فى حدود ضيقة جدا .

وفى الوقت الذى تلاشت فيه هجرة اليمنين الى مناطق جنوب شرق آسيا وانقطعت عنهم مواردها ، أخذت الهجرة الى شرق افريقيا تتضاءل تدريجيا ، الا أن وارد الأموال منها ما فتىء يرد الى اليمن ، ولكن فى أضيق الحدود ، على نحو ما تشير اليه الاحصائية التالية :(٩٢)

السنة	العائدون		المهاجرون	
	شرق افريقيا	الصومال	شرق افريقيا	الصومال
١٩٦٣	٧٨٧	٣٣	٨٤٦	٢٧
١٩٦٤	٤٧٩	١	٩١٦	٢٧
١٩٦٥	٢٩٦	٢٩	١٠٣٥	٢٣
١٩٦٦	١٨٧	٨٨	٥٥٥	٣٢٠
١٩٦٧	٤٣٧	٢٣	٩٢٣	٣٤٣
١٩٦٨	٤٢٤	١٢٩	٣٤٠	٢٠٣
١٩٦٩	٢٣٩	٣٩	٣٥٢	١٠٣
المجموع	٢٨٤٩	٣٤٢	٤٩٦٧	١٠٥٦

(٩٢) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٧٠ .
وقد أشار الى أن هذه الاحصائيات قد حصل عليها من الادارات المختصة بشئون الهجرة فى وزارة الداخلية بعدن .

وعلى اثر مثل هذا التقليص المدبر للهجرة الى مناطق شرق افريقيا من قبل القوى الأوربية المسيطرة عليها ، كانلجترا وفرنسا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وبسبب الاجراءات التى يعانى منها اليمنيون داخل مهاجرهم للحد من نشاطهم ، وايصاد ابواب العيش فى وجوههم تحت مختلف المعاذير، فقد ضاق معظم المهاجرين اليمنيين الا من استوطن المنطقة التى هاجر اليها واصبحوا جزءا من اهلها ، وتوافدوا الى بلادهم فى مجاميع كبيرة فى حالات من البؤس والفاقة ، وكانت قد شاعت فى المهاجر أنباء محاولة التنقيب عن البترول فى اليمن(٩٣) . غير أن آمال اليمنيين خابت ولو مؤقتا فى امكانيات بلادهم الاقتصادية ، وبداوا يفكرون فى طريق الخلاص .

سادسا — تحول الهجرة اليمنية الى البلاد العربية النفطية :

بعد أن قيدت حركة الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا نسبيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ، فقد اتجهت الهجرة اليمنية الى البلاد العربية النفطية فى الخليج العربى والملكة العربية السعودية على وجه الخصوص ، وجاء هذا التوجه بغريزة الطيور المهاجرة التى لا تخذلها حاسة التوجيه والارشاد التى تأصلت عند اليمنيين عبر القرون . اذ طرا على هذه البلاد تحول كبير الى الثراء الذى ارتباط بانتاج البترول والذى أشار الى ارقامه المعتمدة ملحق دائرة المعارف البريطانية الصادر فى عام ١٩٦٣(٩٤) . وقد تبين أن انتاج البترول السعودى قد زاد من حوالى ٢٠٠ مليون برميل فى عام ١٩٥٠ قيمتها حوالى ٥٠٠ مليون دولار ، الى حوالى ٣٦٠ مليون برميل فى عام ١٩٥٩ قيمتها حوالى ١٠٠٠ مليون دولار . بينما زاد انتاج البترول فى الكويت فى عام ١٩٦٠ الى حوالى ٦٠٠ مليون برميل قيمتها ١٧٠٠ مليون دولار بعد أن كان الانتاج فى عام ١٩٥٠ حوالى ١٢٥ مليون برميل قيمتها حوالى ٣١٦ مليون دولار . فى حين ظل عدد سكان الملكة العربية السعودية بين عامى ١٩٥٠ و١٩٥٩ فى حدود الستة ملايين ، بينما تراوح عدد سكان الكويت — بما فيهم الاجانب من مختلف الجنسيات — بين ١٧٠ الف و٣٢٠ الف نسمة . وقد ذاعت أنباء هذه الثروة البترولية الطائلة فى جميع أرجاء العالم العربى ،

---

(93) Le Monde, Paris, 13 eme Novembre 1977.

(94) The Encyclopaedia Britanica, 1963.

مما شجع اليمنيين وخاصة الحضارمة على الهجرة الى هذين القطرين العربيين، بل ان بعض الحضارمة فى المهاجر الأخرى قد انتقلوا اليهما ايضا . وقد بلغ عدد الحضارمة الذين يعملون فى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٦٩ ما يتراوح بين ١٥٠ و١٨٠ الف شخص ، بينما بلغ من يعملون من الحضارمة فى الخليج العربى فى نفس السنة ما يتراوح بين ٣٥ و٤٠ ألف حضرمى . ويشير الاحصاء التالى الى أعداد المهاجرين من اليمنيين الى المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى والعائدين منهم الى اليمن فى الأعوام السبعة المنتهية بعام ١٩٦٩ على النحو التالى :(٩٥)

السنة	المملكة العربية السعودية		دول الخليج العربى	
	المهاجرون	العائدون	المهاجرون	العائدون
١٩٦٣	١٨٠٩	٧٠١	١٠٠٨	٧٧٥
١٩٦٤	١٧٠٦	٥٥٦	١١٠٠	١٣٦٦
١٩٦٥	٢٥٩١	١٨٠٨	١٩١٧	١٤٠٠
١٩٦٦	١١٤٧	٦٧٤	١١٩١	٢٠٢٩
١٩٦٧	٤٨٨٧	١٩٦٤	١٤٩٧	٢٨٦٤
١٩٦٨	١٢٩٨	١٨٥١	١٣٣٣	١٣٤٣
١٩٦٩	٢٥١٦	١٩٩٩	٣٠٨٣	٣٦٨٣
المجموع	١٥٩٥٤	٩٥٥٣	١١١٢٩	١٢٤٦٠

على انه ينبغى الاشارة الى أن عدد المهاجرين اليمنيين الى المملكة العربية السعودية والى دول الخليج العربى فى الاحصاء المشار اليه لا يشمل عدد المهاجرين الذين هاجروا الى تلك الدول خلال هذه السنوات السبع بطريق البر ، والذين كان يبلغ معدلهم السنوى قرابة الف وخمسمائة نسمة ، والتى أخذت هجرتهم شكل التسلسل فى مواقف كثيرة ، بعد أن أصبحت أبواب مهاجرهم التقليدية الى شرق افريقيا وغيرها تكاد تكون موصدة .

(٩٥) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٧١ .
وقد أشار الى أن هذه الاحصاءيات قد حصل عليهـا من الادارات المختصة بشئون الهجرة فى وزارة الداخلية بعدن .

ونظرا لأن معظم اليمنيين المهاجرين كانوا يقصدون المهاجر المختلفة وهم أشبه بالمفلسين مما كان يعوق دخولهم الى تلك المهاجر فان الكثيرين منهم كانوا يتمكنون من الحصول على أعمال هناك بمساعدة المهاجرين الذين سبقوهم من اخوانهم ومواطنيهم . على أن تعرض بعض اليمنيين فى مهاجرهم للضغوط المختلفة ، جعل الاقامة لا تطيب لهم هناك ، وكان ذلك من دواعى عودتهم الى وطنهم ، بعد أن علموا بتغير الأوضاع فيه بما يتيح لهم فرص ايجاد العمل والكسب المناسب(٩٦) وذلك فى أعقاب ثورة اليمن الوطنية فى السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ ، واستقلال جنوب اليمن فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٦٧ .

---

(٩٦) عبد الرحمن سلطان : الثورة اليمنية وقضايا المستقبل ، ص ٩١ .

المغتربون العرب
فى
غربى افريقيا

حلمى شعراوى

مقدمة :

تتعدد الاطر التى تندرج تحتها دراسة وضع « الجاليات العربية » خاصة فى أفريقيا ، من بحوث الهجرة والاستيطان » الى بحوث التكوينات العرقية فى القارة ووضع الاقليات بينها ، الى « سوسيولوجيا التثاقف » فى مناطق الاحتكاك شمال وشرقى القارة الى الدراسات التاريخية حول تطور العلاقات العربية الافريقية . وأخيرا دراسات الاقتصاد السياسى « لتطور المجتمعات النامية » والعلاقات فيما بينها من جهة أو علاقاتها معا بالنظام الراسماالى العالمى وتطوراته من جهة أخرى .

ويتصل موضوع « المغتربين العرب خاصة فى غربى افريقيا بأكثر من اطار من هذه الأطر على المستوى التاريخى أو السوسيلوجى أو التطورات الاقتصادية والاجتماعية للعلاقات الاقليمية والدولية بين المنطقتين العربية والافريقية .

وتلخص هذه الورقة النتائج الأولية لبحث موسع يقوم به الكاتب عن وضع الجاليات السورية اللبنانية فى المنطقة استغرق بعض الجهد الخاص عام ١٩٨٦ وما زال يتصل بجهود أخرى قد تستغرق بعض الوقت حتى يمكن بلورته . ولذا فالنتائج الواردة هنا مازالت قابلة للمناقشة والتعديل .

وتفترض حدود هذه الورقة ــ مهما ضاقت ــ التعرض للاتى :

القسم الأول : اشكاليات التعريف ومنهج البحث .

القسم الثانى : طبيعة الدراسات السابقة فى الموضوع .

القسم الثالث : « المفتربون » العرب فى افريقيا .. لماذا من سوريا الكبرى ولماذا فى غرب افريقيا ..

القسم الرابع : بعض نتائج دراسة حالة السنغال وبعض الملاحظات على السياسات العربية تجاه المشكلة .

الهوامش والمراجع : وفيها محاولة لحصر الأدبيات الهامة والحديثة فى هذا الموضوع .

القسم الأول : اشكاليات التعريف ومناهج البحث :

تتعامل دراسة المفتربين العرب مع أكثر من تعريف لعدد من المصطلحات بالضرورة ويؤدى الأخذ بأحدها دون الاخر الى توجه مختلف فى الدراسة والمنهج بشكل واضح ولذا نتعرض هنا لبعضها ولو بايجاز .

حول التعريفات :

ا ــ الهجرة والمهاجرون :

يبدأ التعامل مع هذا المصطلح من دراسات الهجرة الشعبية قديمة الجذور فى التاريخ وما يترتب عليها من اندماج أو تصارع ثقافى واجتماعى لينتهى الى التعامل مع هجرة الأيدى العاملة من مناطق الطرد الى مناطق الجذب الحديث .وفى اطار موضوعنا وتاريخية الهجرة العربية لافريقيا فانه لابد من الاهتمام بتحليلات الهجرة الشعبية التى تعتبر الموطن الجديد امتدادا للموطن القديم جغرافيا واجتماعيا(١) حيث تعتبر الهجرة هنا تلقائية مهما كان الموطن الأصلى عامل طرد نتيجة توفر الظروف للهجرة المتبادلة بين المنطقتين .

وكثيرا ما تنحصر فى هذا الصدد أوجه المعالجة بين الدراسات السكانية والديموجرافية أو الدراسات الاقتصادية البحتة .

---

(1) S. Amin, Contemporary Migration in west Africa - paper to IDEP Seminar, Sept 1972 on «Strategy of Economic Development».

فى هذا الاطار تقوم دراسة الهجرة باعتبارها عملية نزوح Migration من طرف لاخر تدرس ظروفها العملية أو الاقتصادية سواء بحكم تاثير النازحين Emignants على المجتمع القديم وخلخلته ديموجرافيا واجتماعيا أو بتاثير الوافدين على المجتمع الجديد من هذه الزاوية . ولكن وضع المغتربين العرب هنا يثير العديد من المسائل بسبب اتصال العلاقات العربية الافريقية. لفترات طويلة اتخذت فيها الهجرات أشكالا مختلفة وفق أطر اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة أيضا .

ولعله مما يلفت النظر هنا غياب دراسة الهجرة العربية فى كثير من الدراسات الحديثة رغم تعامل هذه الدراسات مع الهجرة التلقائية (الشعوبية) او المخططة (الرق ..) أو الغازية (الاستيطانية الاستعمارية) أو العاملة وحتى الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية حين تعاملت مع مختلف أنماط الهجرة لم تورد بينها الهجرة العربية الى العالم الجديد أو أفريقيا(٢) .

فهل لذلك صلة بالطبيعة الخاصة للعلاقات العربية الافريقية أم بغلبة الطابع التاريخى على الاجتماعى الاقتصادى الحديث .

وهنا نسجل الملاحظة أيضا عن ضآلة الدراسات حول الهجرة المتبادلة من الجانب الافريقى الى العالم العربى ، طبيعتها واثارها ، رغم ثراء أدب الرحلات العربية وكتب التاريخ التراثية بالحديث عن هذا الموضوع .

ب ــ الجماعة (الجالية) والأقلية :

دخلت دراسة الجماعة Community مبكرا فى الفلسفة السياسية اليونانية او العربية لتمييز جماعات البحث عن السلطة فى الدولة ــ المدينة او الخلافة والامبراطورية . ثم أدت مجتمعات التصنيع وحركةالتمدن والتحضر الى معالجة دور جماعات التجار والحرفيين ... الخ كما أدى ظهور مجتمع الولايات المتحدة بوجه خاص الى دراسة الجماعات المكونة له برز منها الجيثو اليهودى والزنجى .. ومدى التكيف والتثاقف مع الجماعات الأخرى او المجتمع الجديد ككل . وقد شملت هذه الدراسات أيضا جماعة

---

(2) N. Palsby, Community. in : International Encyclipedia of Soual Scince, vol 3-4. pp. 156-174.

« المستوطنين الأوربيين » فى افريقيا عند محاولة نفى صفة الاستعمارية عنها ووضعت العرب والهنود على نفس مستوى الجماعة الاوروبية(٣) ومعنى ذلك أن دراسة الجماعة أو الجالية قد لا تنشأ من دراسة « الهجرة » بل « الاندماج » وفق المنهج الذى نتبعه او التوجه الذى نتبناه سواء كان التاريخ الاجتماعى السياسى أو الاقتصادى السياسى .

والى هنا لا تدخل دراسة الجماعة أو الجالية فى مشكلات الجدل الانثولوجى أو تاريخ التشريع الاجتماعى .. بسبب التمييز الواضح اذا كانت الجماعة أجنبية او الاندماج الواضح اذا اعتبرت أقلية محلية .

وتعتبر حالات الاستيطان الأوربى فى جنوب أفريقيا أو اليهودى فى فلسطين استثناء من هذا الجدول بسبب الطبيعة الاستعمارية للجماعتين .

أما تعريف « الأقلية » فانها تتشابك فى عمليات تمييز الجوانب العرقية والقومية والدينية واللغوية ، كما تثير الأقلية مسائل التمايز فى التقاليد الثابتة الطويلة او الموقف المتميز فى المجتمع بالنسبة للسلطة أو الايديولوجية(٤) .

ويثير وجود الجاليات العربية فى افريقيا كثيرا من موضوعات البحث فى هذه الأمور جميعا قد ترد تباعا فى هذه الدراسة ، ذلك أن المغتربين العرب أو الجاليات العربية فى غرب أفريقيا خاصة من السوريين واللبنانيين ، ترتبط دراستهم بدرجة أكبر بدراسة « الجماعات » وتبقى مشكلة علاقة وضعهم هذا بالاندماج العربى التاريخى القديم فى افريقيا وبحث أسباب وضع الاغتراب الحديث فى القارة .

وبينما يتخذ العرب وضع الجاليات فى غرب أفريقيا ، فان وضعهم يختلف الى حد كبير فى شرقى القارة اذ هم هناك اقرب الى وضع الأقليات الوطنية منه الى وضع الجاليات أو الجماعات بسبب ظروف الحضور التاريخى الطويل والمكثف مما جعل الادارة الاستعمارية نفسها تضعهم وفق

---

(3) Lord Hailey, African Survey oxf. 1957- p. 384-86.

(٤) الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية — نفس المصدر — مجلد ٩ — ١٠ ، ص ٣٦٥ — ٣٧١ .

بعض الظروف تحت فئة « الأهالى Native » وتعتبرهم فى ظـــروفه أخرى غير أهالى Non native (٥) .

وبينما تنفرد مناهج الاقتصاد السياسى بدراسة الجماعات العربية فى غرب افريقيـــا فان هذه المنـــاهج تتداخـــل مع المنـــاهج الانثروبولوجية والسوسيولوجية فى دراسة هذه الجماعات أو الأقليات العربية فى شرقه القـــارة .

(جـ) المفتربون العرب :

يميل العرب انفسهم حديثا الى استعمال هذا المصطلح خاصة بعد التطورات النقطية فى الوطن الأم أو تطور التنافس العربى الاسرائيلى فى افريقيا ، وهنا يصبح « الموطن مقابل المهجر » خاصة اذا حقق ذلك بعض النفع لهذا الطرف او ذاك فى الموطن أو المهجر . الا أن ذلك اكد وضعهم كأجانب فى مجتمعات المهجر وأصبحت كلمة « الجالية » عند كثير من العربه تعنى « المفتربين » وتنفى أية امكانية للحديث عن الاندماج .

وقد تكون الهجرة السورية اللبنانية الحديثة الى الامريكتين هى سببه شيوع مصطلحات الجالية والاغتراب على الحضور العربى خارج أى وطن عربى دون اهتمام بتمييز وضعهم الخاص فى أفريقيا ، ولم تهتم القواميس السياسية أو الاجتماعية العربية بهذا التمييز كما أن دراسات المهجـــر نفسها وتركيزها على المهجر الامريكى قد ساهمت . كما سنرى . فى تأكيد هذا المعنى ، بل وزيادة غربتهم فى المجتمعات الافريقية . وقد لاحظ الباحث أن تسمية المجتمعات الافريقية لهم بـــ « نار » أو « كورال » فى السنغال ونيجيريا على التوالى انما تربطهم بالابيض أو الأجنبى بدورها لتؤكد عزلتهم عن المجتمع والتاريخ العربى على السواء وبالنسبة للمفتربين العرب أو « الجاليات » فى غرب افريقيا فان الشائع فى تسميتهم فى الأدبيات المعروفة هو أنهم « السوريون » ولم يتميز اللبنانيون عن السوريين الا مؤخرا بعد

---

(5) A. I. Salim, Native or Non-Native in : History and Social Change in east Africa ed : B. Ogot, East African Litera Ture Burean, Nairobi 1976 p. 65-85.

الاستقلال اللبنانى والافريقى على السواء . كما يعرفون كذلك «بالشرقيين» Levantines فى كثير من المراجع اشارة لمجيئهم من شرق المتوسط وفى المصادر الافريقية الرسمية الأحدث يعاملون كأجانب Aliens مقابل المواطنين .

ويثير وجود الموريتانيين أو المغاربة فى بعض بلدان افريقيا الفرنكفونية او وجود السودانيين واليمنيين فى البعض الآخر الانجلوفون مشكلات أخرى حول الجالية والأقلية حيث يقترب وضع الموريتانيين والسودانيين على وجه الخصوص من تعريف الأقلية الوطنية بأكثر مما يعتبروا كجاليات أجنبية لأسباب تتعلق بالاندماج التاريخى والتقارب العرقى أو اللغوى ... الخ ويفرض ذلك بالضرورة اختلاف منهج الدراسة ومنطلقاته فى التعامل مع هذه الجماعات تحديدا لصلتها بالحضور العربى القديم فى أفريقيا وطبيعته الاجتماعية مما يثير التساؤل حول وضع الجاليات الحالية كاستمرار أو وجود منقطع الصلة بالحضور القديم .

الاطار النظرى ومناهج البحث :

يتصل موضوع الجاليات العربية فى افريقيا بعدد من المناهج ذات الأطر النظرية المختلفة فلان العلاقات العربية الافريقية تضرب طويلا فى التاريخ فاننا نصبح أمام الخيار بين المنهج التاريخى المثالى أو المادى الجدلى ، ولأنها واقع على الأرض الافريقيــة والعربية فاننا نصــبح أمام المناهج الديموجرافية والدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية ، ولأن هنــاك مشكلات قريبة النمط منها ، كالاستيطان الأوربى فى القارة أو الحاليــات الاسيوية وغيرها وان اختلفت ظروفها فان المنهج المقارن يفرض نفسه على مثل هذا البحث أيضا .

ولا تخفى دراسات هذا الموضوع فى الســنوات الأخيرة نهجهــا « الذرائعى » تارة برؤية وظيفية للظاهرة ، أو درسها فى أطار التطــــور الاقتصادى السياسى للواقع العربى والافريقى على السواء . وليست مساحة هذه الورقة بالتى تسمح بتناول كل ذلك ولكننا يمكننا أن نشير هنا الى بعض اثار استعمال هذه المناهج المتنوعة على موضوعنا لنجعل وقائع الدراسة نفسها بعد ذلك تعبر عن المنهج الذى سوف نستقر عليه .

١ — اطار المنهج الديموجرافى :

يشارك المنهج التاريخى المثالى فى تجريد الظاهرة من سياقها فى التاريخ الاجتماعى وجدليته وذلك اما بالاعتماد على المنطق الاحصائى بلا أساس والاغراق فى الاحصاءات السكانية التى تدور حول حركة الهجرة ، محليا أو اقليميا أو دوليا ، وندفع دراسات الهجرة بدورها الى التركيز على المجتمع الطارد أو المستقبل لدراسة آثارها البشرية او الحضرية من هنا يتخذ المنهج الديموجرافى الطابع الوظيفى بالضرورة لدراسة « الدور » الذى تقوم به الظاهرة فى مرحلة معينة وفى نسق اجتماعى معين معزولا عن السياق الاجتماعى التاريخى لأى من المجتمعين وفى معظم دراسات « الهجرة » يتخذ البحث منهجا كوزموبوليتانيا يدرس حركة الهجرة على النطاق العالمى بحيث تحتل الهجرة العربية لافريقيا مثلا أقل مساحة بجوار الهجرة الى الامريكتين او استراليا ، وحين تتصل الدراسة بالشرق الأوسط فانها تركز على هجرة اليهود لامريكا وفلسطين ، حتى كانت الدراسات الحديثة عن الهجرة والتى ركزت على « هجرة العقول » من العالم الثالث لاوربا أو هجرة العمال على مستوى اقليمى أو داخلى . لذلك فان استعراض احد الباحثين لمائتى بحث عربى عن السكان والهجرة لا يكثف اى بحث رئيسى عن الهجرة المتبادلة بين الوطن العربى وافريقيا ، حيث ترد فى صفحات قليلة جدا فى هذا البحث أو ذاك وفى الاطار الاحصائى لحركة الهجرة فى العالم(٦) .

٢ — اطار المنهج المقارن :

لا شك انه اثرى بقدر ملحوظ مختلف علوم الإجتماع والاقتصاد السياسى والتى تتعلق بموضوعنا هنا . ولكننا لا نستطيع — رغم ذلك — أن نأخذه على اطلاقه ومن منطلقات نظرية أساسية خاصة بموضوعنا هنا ويتطبق ذلك على المستويات المختلفة لمعالجة هذا الموضوع . فثمة مستوى المقارنة بين اطار وجود الجاليات العربية فى افريقيا شرقا أو غربا وبين اطار الهجرة العربية للامريكتين ، اذ يتدخل البعد التاريخى ليعطى أبعادا فى دراسة الجاليات العربية بأفريقيا تختلف عن البعد السوسيولوجى أو العرقى فى دراسة الجاليات بالامريكتين .

---

(٦) محمد الجوهرى وعبد الله الخريجى ، مقدمة فى علم السكان ، جـ ٢ ، الهجرة ، دار الشروق — جدة ١٩٨٠ — المراجع .

وثمة مستوى المقارنة بين وضع الجاليات العربية فى أفريقيا والجاليات الاسيوية سواء من ناحية البعد الحضارى وتأثيره فى الاندماج والتثاقف من عدمه أو من ناحية سياسات دول الوطن الام ونظرتها لهذه الهجــرات وتعاملها معها (اليمنيون والسودانيون مثلا يعتبرون مواطنين فى نيجيريا وعدد آخر من الدول) بينما لا تحظى أية جالية أسيوية بهذا الوضع فى أفريقيــا .

وثمة مستوى ثالث للمقارنة بين الجاليات العربية أو الاسيوية وبين الجماعات الاوروبية المستوطنة فى أفريقيا (الجنوب الافريقى) او التى استوطنت لبعض الوقت وهاجرت (فى الجزائر والمستعمرات البرتغالية) وهو اطار استعمارى يتعلق بالظاهرة الكولونيالية والامبريالية ، لا نتفق مع طبيعة شروط التكافؤ فى العلاقة بين العرب والأفارقة تاريخيا أو فى الوقت الحالى ودور الرأسمالية العالمية فى ادارة هذه العلاقات .

٣ ـ اطار المنهج التاريخى الاجتماعى :

اغرقت المدرسة التاريخية العربيه فى نزوعها المثالى ، وهى التى تعتبر مسئولة عن كثير من الخلط فى تناول هذه القضية . فعند هذه المدرسة ، تنبعث « روح الأمة » بشكل تلقائى لتحتق « أهدافها السامية » فى حقبــة معينة ، وهكذا ازدهرت العلاقات العربية الافريقية لحظة انبعــاث الامة العربية مبشرة بالاسلام فيما بين القرن الثامن والرابع عشر حيث استقبلت بروح الأخوة على الجانب الافريقى وهى ذات انجاز مثالى دائما ، يحتاج لابراز التاثير الايجابى واتخاذ الموقف الدفاعى عن « السلبيات » مثــل « الرق » أو التجارة .... الــخ أما مرحلة تدهور هذه العلاقات فهى بسبب « الروح الصليبية » الأوربية أو سيادة روح الهزيمة عند الامة العربيــة والشعوب الافريقية ، حتى اذا كانت مرحلة التحرر الوطنى « فانها مرحلة استعادة المجد الغابر » للعلاقات محورها العروبة والاسلام ، أو « دور » المركز العربى فى تحرير التخوم الافريقية سواء بالاسلام العربى عند البعض أو الدولة الوطنية القومية عند البعض الآخر « ثورة يوليو ١٩٥٢ » .

والجاليات العربية هنا اما بقايا عهد الاتصال الزاهر أو نزوح الى

أرض ليست غريبة فى فترة التدهور يتحملون فيها ظروفه حتى يتجدد « دورهم » فترة التحرر أو فترة ازدهار التعاون العربى الافريقى .

الا أنه من منظور تاريخى جدلى مختلف تتخذ التطورات العربية والافريقية طابعا آخر فديناميات العلاقة بينهما تخضع لطبيعة أنماط الانتاج السائدة والعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية على الجانبين تلك التى ادت الى انماط من الهجرة الشعبية المتبادلة منذ وقت سابق على الانتشار العربى بالاسلام ، ثم أدى التطور المتكافىء على الجانبين الى علاقات متكافئة بدورها وقد تكون غير متكافئة أحيانا وفى هذا الاطار نبحث ظاهرة الرق فى المجتمع الافريقى والعربى على السواء ، كما تبحث أثار الهجرة والانتقال على المستوى الشعبى من الجانبين .. وفى مرحلة تالية من التطورات الاقتصادية السياسية على المستوى العالمى ، يبرز دور الرأسمالية الامبريالية واستيعابها للمنطقتين العربية والافريقية وما يسمى بالتدهور فهو انقطاع مفروض عليهما ولتصبح مرحلة التحرر الوطنى محاولة خروج المنطقتين من اطار التبعية الذى فرض عليهما أيضا ..

والجاليات هنا احدى عناصر التطور الاقتصادى السياسى لهذه المجتمعات وجزء من مكوناتها الطبقية . الأفارقة فى العالم العربى جزء من بقايا المرحلة شبه الاقطاعية الكامنة ، فى الواقع العربى والجاليات العربية هى جزء من مرحلة السيطرة الراسمالية المشبوهة على الجانبين يبقى على وضع هذه الجاليات حتى يتم تحرير المنطقتين من علاقات التبعية المشتركة مع المركز الراسمالى الأوربى .

الدراسة الميدانية :

كان أسلوب الدراسة الميدانية لهذا الموضوع أحد وسائل البحث الهامة رغم ضيق المدة التى استغرقها تحقيقه الا أن الباحث استفاد من زيارة كل من السنغال ونيجيريا بشكل كشف عن العناصر الضرورية للدراسة الى جانب توفير بعض المعلومات والمقارنات الضرورية .

لقد شملت الزيارة مقابلات مفصلة لعدد من شخصيات الجالية ومؤسساتها بل وفقرائها وعدد من الشخصيات الافريقية المسئولة فى مواقع

مختلفة حكومية وحزبية كما ادت لجمع مادة احصائية وملاحظات مباشرة كانت ذات فائدة كبيرة للبحث وتعتبر هذه المادة الى جانب القراءات المسجلة اساسا طيبا لخطة بحث شاملة جديرة ان تتم من حول هذا الموضوع الهام .

القسم الثـــانى

الدراسات السابقة فى الموضوع :

تعكس طبيعة الدراسات السابقة وتحديد هويتها الاختلاف كذلك حول طبيعة النظر للموضوع اما باعتبار المفتربين العرب الحاليين فى غربى افريقيا استمرارا لحضور سابق ، ومن ثم ضرورة اللجوء الى الدراسات التاريخية التقليدية عن العلاقات العربية الافريقية ، أو النظر اليهم ضمن عمليـــة منفصلة «لتهجيرهم» الى هذه المنطقة ومن ثم يكتفى بالدراسات السوسيولوجية الحديثة وتحديد طبيعتها لدى العرب والأفارقة والأوربيين .

وقد راينا أن المناهج التى تتناول هذه القضية تفرض نفسها على تحديد طبيعة الدراسات عنها سواء كان المنهج التاريخى المادى او المثالى من جهة أو المنهج الديموجرافى والمقارن من جهة أخرى . ومع ذلك فلابد من الاشارة الى أن الفكر السياسى العربى قد عرف فى فترات مبكرة دراسة الجاليـــات والأقليات منذ درست أوضاع هذه الجماعات فى المجتمع الاسلامى العربى ، ثم عرف الفكر الحديث دراسة الجاليات حيث ارتبطت بمشكلات نشوء المجتمع الأوربى فى العالم الجديد من جهة ونمو الظاهرة الاستعمارية فى اســـيا وأفريقيا من جهة أخرى . لكن تلك الدراسات التى شملت اليهود والزنوج فى أمريكا الشمالية لم تدرس الجاليات العربية أو المفتربين العرب هناك كما أن دراسة الأقليات فى افريقيا ركزت اول أمرها على دراسة الجاليات الأوربية المستوطنة فى القارة لبحث مشكلات الادارة أو تأثيرهم الثقـــافى والحضارى على الأفارقة .

حتى كانت انتفاضة التحرر الوطنى فيما بين الحربين وفى أعقـــاب الحرب العالمية الثانية فرأينا اهتماما ملحوظا بجاليات العالم الثالث سواء من قبل الاستعماريين القدامى او من قبل المفتربين وابنائهم فى الخارج خاصة الاسيويين (الهنود) والعرب .

أبدت الدراسة الشاملة « للورد هيلى » ١٩٥٧ « المسح الافريقى » اهتماما ملحوظا بوضع الجاليات الأوروبية وغير الأوروبية فى القـــارة الافريقية ومن جهة أخرى يشير باحث هندى الى أن أكثر من ٢٠ دراســة شاملة على الأقل صدرت عن الهنود فى أفريقيا بين ١٩٧٣/٤٣ (٧) . أمـا العرب فقد تركز اهتمامهم على الجاليات العربية فى العالم الجديد فى حدود الاهتمامات الأدبية (أدب المهجر) ولم يبرز هذا الاهتمام وبشكل علمى الا بعد الحرب الثانية أيضا وبروز الدور الامريكى فى قضايا الشرق الأوسط عندئذ بدأ الاهتمام بهذه الجاليات فى ظل البحث عن مقابلة (اللوبى العـربى) « باللوبى اليهودى » من جهة أو ابراز « الروح العربية الوطنية — متسقة مع تصاعد حركة التحرر العربية الوطنية فى الفترة الناصرية من جهة ثانية . أو رغبة عند البعض فى اظهار تميز اللبنانيين الفينيقيين والمسيحيين خاصة فى مواجهة العروبة الاسلامية التى تصوروا أنها تهدد خصوصية لبنـــان وهو مما دفع بالبعض الآخر لدراسات متخصصة عن العرب المسلمين فى أمريكا .

واذا ما أخذنا بمنهج الاتصال التاريخى لعلاقات العرب بأفريقيا فان ذلك لابد أن يرجع بنا الى أدب الرحلات العربية أو ما يمكن تسميته « بالاثنوجرافيا العربية » وهو ما استفاد منه الاوربيون كثيرا فى معرفتهم بالواقع الافريقى لخدمة المصالح الراسمالية الاستعمارية نفسها . وهنا نذكر أعمـال البدرى والسعدى واليعقوبى وابن حوقل وابن بطوطة والمقريزى وابن خلـدون والوزان وعمر التونسى وغيرهم الكثير . وقد ورد عند هؤلاء جميعا ، فضلا عن ميلهم للتأريخ وصفا للواقع الافريقى وطبيعة حضور العرب فيه . ومما يلفت النظر فى متابعة الكتابات العربية الحديثة عن تاريخ العلاقات العربية الافريقية الميل الملحوظ لابراز البعد التاريخى أو الثقافى (الاسلامى) دون الاجتماعى فى هذا الواقع ، ومن ثم أدى ذلك الى تجاهل ملحوظ للاشـارة الى طبيعة الجاليات العربية فى البلدان الافريقية والجاليات الافريقية فى العالم العربى علما بأن تناول الجوانب الاجتماعية فى هذه الدراسات كان يمكن أن يعالج خلالها طبيعة ومرحلة النمو المتكافىء وآثاره فى الحضـور

---

(7) S. Dutt, India and the third world zed. London 1984 p. 167-180.

المتبادل على الجانبين . وقد ادى ذلك الى ان تنفرد الدراسات الأوربية تقريبا حتى وقت قريب بدراسة الابعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للوجود العربى دون أن تخلو بالطبع من الانحياز وفى الاطار التاريخى للدراسات العربية ظلت الاشارة الى الجاليات « عابرة ولم تنشأ دراسات حديثة عن الجماعات العربية فى أفريقيا الا مؤخرا . عندئذ ــ أيضا ــ يمكن ملاحظة أنها درست فى اطار هموم بعض البلدان العربية تجاه « ابنائها فى الخارج ».

ولذا درسها لبنانيون أو سوريون أو يمنيون أى من البلدان التى تشكل مصادر الهجرة الحديثة الأساسية .

اما الجانب الافريقى فقد شغل بدراسة الاستعمار والسياسات الاستعمارية أو الاستعمار الاستيطانى الأوربى ثم الاستعمار الحديث وآلياته ، ويلاحظ أن الجاليات العربية لم تشغل الباحث الافريقى حتى الآن، رغم توفر بعض الكتابات البارزة عن اطار التعاون العربى الافريقى ، أبعاده الاقتصادية السياسية أو مشكلاته التاريخية .

فى العجالة التالية ــ وفى حدود هذه الورقة ــ يمكننا أن نشير بتركيز الى الدراسات الحديثة عن الجاليات العربية ــ السورية واللبنانية ــ فى غرب افريقيا ، اتفاقا مع روح هذا البحث من ناحية ولاتفاقه مع الدلالات المشار اليها سابقا من ناحية اخرى .

على الجانب الأوروبى :

امتد الاهتمام بدراسة الجاليات السورية واللبنانية منذ فترة بين الحربين فترة التوسع فى الهجرة حتى منتصف السبعينيات ــ فترة الانكماش . حيث مضت على النحو التالى :

(أ) دراسات مسئولى الادارة الاستعمارية وابرزها دراسة ديسبورد Desbordes عن الهجرة السورية اللبنانية فى أفريقيا الغربية الفرنسية عام ١٩٣٨ برزت فيها مشاكل هذه الادارة نتيجة منافسة الجاليات العربية مع الاوروبيين(٨) .

---

(8) I. G. Desbordes :
L'Immigration Libano-Syrienne en Afrique occidentale francaise, Universite de poitier 1938.

(ب) فيما بعد الحرب العالمية الثانية بدات تغيرات الخريطة الاجتماعية الاقتصادية لافريقيا تهم الدول الاوروبية التى توشك على تسليم الادارة للافريقيين . وهنا تأتى دراسة بوير عن التجارة فى غرب افريقيا (١٩٥٣) كنموذج للاهتمام بوضع الجاليات السورية اللبنانية فى السوق الافريقى(٩) .

(جـ) مع بداية توسع الانضمامات الأوربية بافريقيا المستقلة والصراعات الدولية والاجتماعية فيها تنوعت الدراسات الاوروبية أيضا عن الجاليات العربية فصدرت دراسات جورج جاى (الفرنسى) ١٩٥٧ ووايدر (الامريكى) ١٩٦١ وفان ديرلان (الهولندى) ١٩٧٥ وربتا كروز اوبرين (البريطانية) ١٩٧٢/٧٥/١٩٧٩(١٠) .

على الجانب العربى :

لا يمكننا هنا الزعم أن ببليوجرافيا كاملة أو محققة قد تمت سى هذا الصدد لكن بعض الجهد الذى تم والموثوق فى جديته قد يساعد علىاستخلاص بعنس الدلالات هنا .

(أ) بدأ الاهتمام العربى من جانب الكتاب اللبنانيين بالأساس لظروف قطرية كما أشرنا فى نفس فترة اهتمام الاداريين الاستعماريين (فيما بين الحربين) ونتيجة تصاعد مشكلات المنافسة مع الاوربيين المستوطنيس

---

(9) P. Bauer : West African Trade London 1953.

(10) R. C. O'Brien :
a) White Siciety in Black Africa, London 1972.
b) The Lebanese entrepreneurs in the Senegal in «Cahiers de L'Etudes Africaines» vol. 1975.
c) Foreign Ascendance in the Economy and state the French and Lebanese in «The political Economy of underdevelopment, Dependence in senegal editor: R. C. O Brien.
— G. Gayet, Les Libanais et Les Suriens dans L'ouest African (Brussels 1957).
— B. Winder, the Lebanese in West Africa in Comparative Studies in Societies and History vol 4. 1961-62. p. 297-333.
— Laan, H. L. van der the Lebanese traders in Sierra Leone the Hagne Mouton 1975.

هناك ، ولذا كانت الكتابات بالاساس تسجيلا لرحلا تالكتاب لمنطقة غرب افريقيا ــ وابرز امثلتها كتابات عبد الله حشيمة (١٩٣١) وكامل مروة (١٩٣٨) ، وحتى كتابات أحمد حسن مطر (١٩٥٠) وادموند سعدى (بيروت ١٩٥٢)(١١) .

(ب) اثارت مرحلة الاستقلال قلق بعض الشباب من أبناء الجاليات اللبنانيين أو القريبين من مشكلاتهم فى الوطن الأم وذلك بسبب موجة البحث عن « ضحية » فيما بعد الاستعمار الأوروبى فجاءت كتابات دفاعية فى الغالب لكنها ايضا اكثر الكتابات علمية ويذكر فى مقدمتها هنا دراسات الدكتوراه التى قدمها « مروان حنا لجامعة » اكسفورد ١٩٥٩ وايلى صفا لجامعة سانت اوغسطين ببيروت ١٩٦٠(١٢) .

(ج) لم تبرز خارج هذا الاطار اشارات هامة للهجرة السورية اللبنانية لغرب أفريقيا ضمن البحوث العربية فى الديموجرافيا أو الجغرافيا البشرية أو حتى موضوع الهجرة المباشر وخاصة فى مصر حيث اقتصر على اشارات احصائية فى بضع صفحات هنا أو هنالك . وكان ذلك فى اطار عدم اتساق واضح بين علاقات مصر الناصرية المتطورة بافريقيا وتكوين الثقافة السياسية فى مصر تجاه العالم الثالث(١٣) .

---

(١١) عبد الله حشيمة : فى بلاد الزنج ــ بيروت ١٩٣١ .
كامل مروه : نحن فى افريقيا ، بيروت ١٩٣٨ .
احمد حسن مطر :
A. H. Mattar, Social and Commercial Guide of the Lebanese and Syrians in West Africa Brooklyn 1950.
ادموند خليل سعدى :

E. K. Saade', Le Liban dans Le Monde Beurut 1952.
(12) Marwan Hanna, Lebanese Emigrants in West Africa (unpublished ph. D. thesis oxf. 1959.
— Elie Safa, L'Emigration Libanase, Beirut 1960.

(١٣) انظر معظم دراسات الجغرافيا البشرية عن السكان ، وان كان يعتبر من اهمها :
ا ــ د. محمد السيد غلاب ود. محمد صبحى عبد الحكيم : السكان ديموغرافيا وجغرافيا ، مكتبة الانجلو ــ القاهرة ١٩٦٧ .

=

(د) لا يمكن رصد دراسة سمير أمين عن « عالم رجال الأعمال السنغاليين » (١٩٦٩) ضمن الاهتمامات العربية الحديثة بهذا الموضوع ـ وهى عمل جاد بالفعل ـ سواء لتركيزها على السنغاليين من جهة أو لصدورها فى اطار الثقافة الأوربية من جهة أخرى . ولذا لا يقابلها الا صدور موسوعة حسن حدة (السورى) عن تاريخ المغتربين العرب فى العالم (١٩٧٥) وهى تجميع موسوعى اكثر منها دراسة علمية للموضوع(١٤) .

على الجانب الأفريقى :

(أ) تتشابه الدراسات الافريقية الى حد ما مع الدراسات العربية فى اهتماماتها التاريخية الثقافية بموضوع العلاقات العربية الافريقية منذ أسسها شيخ انتا ديوب عن زنوجية مصر لا عروبتها فى دراساته المشهورة وحتى دراسة بوبو هاما عن « الوحدة الافريقية » مع اشارات لوجود الفنيقيين والسوريين واليهود المبكر فى الممالك الافريقية القديمة(١٥) وفيما بين ذلك لابد من التنبيه لاهتمام بعض الدارسين الافريقيين بمقولة تنسيب بعض القبائل الافريقية الى اصول عربية وخصوصا من مناطق الاتصال الوثيق (شمال نيجيريا ـ منطقة الساحل) منذ أواخر القرن ١٩(١٦) .

(ب) ولم يمنع ذلك من وجود اهتمام مبكر بوضع السوريين واللبنانيين بوجه خاص وكمهاجرين محدثين منذ وقت مبكر فى الدراسات الافريقية

=

٢ ـ د. محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، جغرافية السكان ، مكتبة الانجلو القاهرة ـ بدون تاريخ .

٣ ـ محمد الجوهرى ـ عبد الله الخريجى : مقدمة فى علم السكان ، ج ٢ الهجرة ـ دار الشروق ١٩٨٠ .

(14) Samir Amin, Le Monde des Affairs Sengalais Paris 1970.

حسن حدة : تاريخ المغتربين العرب فى العالم ج ١ ـ ٢ ، دار دمشق ١٩٧٤ .

(١٥) بوبو هاما : بحث أسس ومكونات الوحدة الافريقية ، ترجمة الهيئة العامة للاستعلامات ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

(١٦) الى جانب اشارات بوبو هاما لهذه الظاهرة بالنسبة للفولا والتكرور .. الخ . انظر : ابراهيم صالح بن يونس (نيجيرى) : تاريخ الاسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم وبورنو ـ مكتبة الحلبى ـ القاهرة ١٩٧٦ .

كما يبدو ذلك عند ادوارد بالايدن E. Blyden فى دراسته الشـيقة عن « المسيحية والاسلام والجينس الزنجى » ١٨٨٧ وقيامه منذ وصوله للوزارة فى ليبريا بزيارة الشرق الأوسط وتعلم العربية ودعوته اللبنانيين للهجـرة للمنطقة مشيدا بدورهم التنموى هناك(١٧) .

(جـ) من زاوية أخرى يمكن القول أنه لا تتوفر فى الانتاج الثقـافى بغرب افريقيا فى حدود الفحص الأولى الذى قمت به اثناء زيارة جامعات السنغال ونيجيريا دراسات متخصصة عن وضع الجاليات السورية واللبنانية فى المنطقة ولكنها ترد فى اطار دراسات الاقتصاد السياسى لبعض بلدان المنطقة من قبل بعض مثقفيها وفى اطار تطور سياسات الافرقة او التأميم أو نمو الراسمالية المحلية تحت شعارات التوطين IndigeniZation .. الخ. ويمكن تسجيل كثير من المصادر لكننا لا نستطيع ذكر قائمة مطولة من دراسات الاقتصاد السياسى الافريقية الا من اهتم بابراز وضع الجاليات السورية اللبنانية بشكل خاص فى هذا الاطار مثل مشوت ديوب فى دراسته عن « تاريخ الطبقات الاجتماعية فى غرب افريقيا ـ حالة السـنغال ومالى ١٩٧١ » أو أديبايو اويديجى عن « توطين الاقتصاد الافريقى » ١٩٨١ ، أو « كلود اكى » عن الاقتصاد السياسى لافريقيا ١٩٨١ ، أو « فورى وميدار » عن « الدولة والبرجوازية » فى ساحل العاج ١٩٨٢(١٨) .

بل واهتم البعض بطبيعة علاقات السوريين واللبنانيين مع الشرائح الاجتماعية الافريقية والأوروبية مثل عثمان ديوب فى « ورثة الاستقلال »

---

(17) E. Blyden, Christianity, Islam and Negrorace, Whittingham & Co. London 1887.

(18) M. Diop, Histoire des Classes Sociales dans L'Afrique de L'onest tom-I Le Mali-z-Le Senegal L'Hormattan paris - ed2-1985.

— A. Adedeji, (ed) Indigenization of African Econimies Huchison, co, London 1981.

— C. Ake, A political Economy of africa Long man, London, 1981.

Y. Faure - J. Madard, Etat et Bourgeoisie En Cote D'ivoire. Karthala-Paris 1982.

١٩٨٢ أو أ. ديارا عن علاقات المجموعات العرقية فى السنغال ضمن المشروع الدراسى لليونسكو عن الموضوع فى اكثر من دولة افريقية(١٩) .

ثالثا ـ الجاليات السورية اللبنانية فى غربى افريقيا :

١ — من الهجرة المتبادلة الى « الاغتراب » فى غربى أفريقيا :

لم تهتم دراسات الهجرة الشعبية كثيرا بالابعاد التاريخية الاجتماعية لها الا فى حدود ما يشمل الهجرة الى الامريكتين فى العصر الحديث ولذا بقيت الهجرة المتبادلة فى المنطقتين العربية والافريقية دون دراسات معمقة تتيح تفسيرات أخرى خلاف الرؤية العربية المثالية للتاريخ او الرؤية الافريقية المنحازة احيانا كثيرة للتفسير الأوروبى الحديث للعلاقات العربية الافريقية لذا تجرى التفسيرات الحالية دون اعتبار « للمتصل التاريخى » بين المنطقتين وظروف الانقطاع التاريخى بينهما أيضا . وفى ظل غياب تفسير تاريخى جدلى لهذه العلاقات ، ظل المنهج العربى يتابع فترات « الفتح » «والازدهار» والتأثير الحضارى العربى الاسلامى فقط(٢٠) الى أن أصبح الحديث عن المهجر بعد انقطاع هذه العلاقات ، كما ظل الأفارقة يتحدثون عن الرقيق أو الأفارقة فى « الدياسبورا » العربية . وقد تكون ثمة مظاهر أساسية لكل ذلك الا أن وضعها أيضا فى سياق التطور الجدلى التاريخى قد يغير كثيرا من الاستنتاجات والمواقف .

ودون الدخول فى تفاصيل ليس هنا مكانها فان القراءة التحليلية لتاريخ الهجرة الشعبية بين المنطقتين وابعادها الاجتماعية الاقتصادية قد تركز على

---

(19) O. B. Diap, Les Heritiers d'une Independence N. E. A. Dakar 1982.

— F. A. Diara, Ethnic group relations in Senegal in «Two studies in /thinic group relations in Africa» unesco 1974.

(٢٠) لسنا بحاجة لذكر العديد من الكتب والدراسات العربية عن « انتشار العروبة والاسلام فى افريقيا » أو حضارة العرب والاسلام فى افريقيا ، أو المسلمون فى أفريقيا من وجهة نظر عربية بحتة الى غير ذلك من العناوين القريبة وان كان لا ينكر التقدم الذى حدث فى هذا المفهوم مؤخرا بحلول عناوين مثل « العلاقات العربية الافريقية » وان بقيت فى اطار التاريخ أو « العرب وافريقيا » فى اطار معالجة مشكلات العلاقات بين المنطقتين .

علاقات التفاعل المبكر بينهما وليست علاقات السيطرة وذلك اذا ما تعاملنا مع ظواهر التطور المتكافىء للمنطقتين على نحو ما نجد الكثير من ظواهرها فى المراحل التاريخية المختلفة والسابقة على الاستعمار الأوربى لهما . اننا كثيرا ما نتجاهل أبعاد تلك العلاقات فى مناطق البحر الأحمر (اليمن — اثيوبيا) أو عبر البحر الأبيض (الفنيقيين وشمال افريقيا) أو عبر المحيط الهندى (مدغشقر والجزر — جنوب الجزيرة العربية) أو عبر الصحراء (الفراعنة — الزنوج) ولسنا بحاجة لأن نذكر هنا ممالك الامهر أو الاشانتى وقرطاج وغانا فى اطار هذه العلاقات نفسها ؟ والذى يرجع الى العصر التاريخى نفسه سوف يجد مملكة غانا مزدهرة من القرن الثالث الميلادى حيث لم تكن قد قامت المملكة العربية الاسلامية بعد وفى « غانا » اندمج الفينيقيون وغيرهم من البيض (العرب) ليشكلوا قبائل التكرور والسير اكولى على نحو ما ذكر بوبوها ما وغيره .

وثمة كثير من الظواهر الاجتماعية التى نشأت نتيجة هذه العلاقات للدلالة على قوة التماذج الثقافى الناتج عنها ومثال ذلك فى تركيب لغات واسعة الانتشار مثل السواحيلية والهوسا وغيرها وما تعكسه من علاقات معروفة مع اللغة العربية — وبنفس القدر عرفت اللغة العربية الشعراء السود الذين أخصبوا انتاجها فى هذا الميدان مما لا يمكن ان يصدر الا عن عملية اندماج واسعة لآلاف الأفارقة الذين جاءوا للتجارة ثم الحج والتعليم(٢١) .

أن العلاقات العربية الافريقية لم تؤد الى ما أحدثته الثقافة الأوروبية مثلا عندما وصلت غازية الى افريقيا بقوة الانتاج الراسمالى والقهر

---

(٢١) انظر : عبد الجليل التميمى : الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصور الحديثة . من منشورات الجمعية التاريخية المغربية — تونس ١٩٨١ .

— عبده بدوى : السود والحضارة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

— Umar AL Naquar, The Pilgrimage Tradition in West Africa Khartoum unw. Press 1972.

— A. Ajaye (ed) Athousand years of West African History, Ibadan 1979.

الاستعمارى ، ولم تظل العربية بذلك مغتربة مثلما ظلت الفرنسية والانجليزية ومختلف اللغات الأوربية فى مستعمراتها . ومساهمة الثقافة الافريقية فى الثقافة العربية بانتاج العلماء ومخطوطات الفقه والتاريخ مما تذخر به خزائن « كانو » و« تمبكتو » و« لامو » وزنجبار وغيرها من مراكز الثقافة الافريقية العربية .

ومن الناحية السياسية فان علاقة العرب بافريقيا أو الحضور العربى فى أفريقيا لم يؤد الى سقوط السلطة السياسية التقليدية فى المجتمعات الافريقية كما حدث مباشرة مع الاستعمار الأوربى وذلك نتيجة التنامى المتكافىء للطبقة التجارية الحاكمة فى المنطقتين وعلى العكس فان المجموعات الافريقية فى الوطن العربى أدت الى تولى الكثيرين حكم أقطار عربية بل واحدثوا أهم ظاهرة سياسية وهى فعل الثورة نفسه فيما عرف بثورة الزنج فى الوطن العربى كأحد أشكال التحرر الشعبى الرئيسية التى عرفتها المنطقة العربية .

معنى ذلك أن فترة الاتصال العربية الافريقية فى مراحلها التاريخية كان يمكن أن تؤدى الى تطورات مختلفة لو مضت فى مسيرتها التاريخية هذه لكن المرحلة الاستعمارية التى أحدثت فترة الانقطاع الأساسية فى هذه العلاقات مصحوبة بحضور السوريين واللبنانيين فى الاطار الاستعمارى الحديث هى التى جعلت اشكال الحضور فى أعقابها ـ فترة الاستقلال وكانها بداية جديدة ومن هنا تحدث التعقيدات فى تصور وضع الأقليات أو الجاليات العربية بما يحتاج لقراءة منهجية جديدة للاحداث خاصة وأن الاتصال الذى حدث فيما بعد الحرب العالمية الثانية حدث فى اطار التحرر الوطنى ولعبت فيه ظواهر الاتصال الوطنية بدورها دورا ايجابيا لا يمكن أن ينعكس بالسلب على كثير من ظواهر الاتصال والحضور القديم .

فى هذا الاطار يمكن فهم كيف عزلت مرحلة الانقطاع دورة الثقافة العربية الافريقية الحيوى لتبقى فى الاطار الدينى فقط ببعده السلفى والصوفى الذى عاش فى هذه المنطقة.

وفى هذا الاطار أيضا يمكن النظر الى مسألة الجاليات لا باعتبارها بالضرورة ايجابية من ايجابيات التاريخ ولكن قد تحسب على سلبيات المرحلة

الاستعمارية كما نميل لتفسيرها وهى مثل الرق الذى ربطناه بنمط الانتاج شبه الاقطاعى فى المنطقتين تفسر فى اطارها الاجتماعى الاقتصادى ولبس بمجرد سلبية أو ايجابية العلاقات بين المنطقتين .

القســـم الثالث

المغتربون فى افريقيا .. لمـــاذا من سوريا الكبرى ولماذا فى غرب أفريقيا

مقـــــدمة :

قد لا يتفق القول باغتراب العرب فى افريقيا فى هذا المدخل مع ما سبق شرحه طويلا عن عوامل التوحد والتكامل بين العرب والأفارقة على مر قرون طويلة قبل الاسلام وبعده ، ولكننا ربطنا هذا التوحد والاندماج طوال تلك الفترة بالتطور المتكافىء وآثاره الاجتماعية والثقافية الى جانب أبعـــــاده الاقتصادية .

وكان يلزم أن تستمر هذه العوامل لتستمر عملية الاندماج بين العرب والأفارقة لو استمر تطورهما الذاتى المستقل لتخلق نوعا من « العالمية العربية الافريقية » فى عصر التحرر الوطنى والتغيرات الاجتماعية الكبرى .

الا اننا رأينا أن ذلك لم يكن هو المسار الطبيعى الذى مضى فيه تاريخ المنطقتين ، حيث تطور الأمر على الجانب الشمالى للبحر المتوسط لصــــالح النظام الراسمالى الذى تبعه نشوء وتطور السوق العالمى والظـــــاهرة الاستعمارية العالمية بدورها ، لتنتقل المنطقتين العربية والافريقية من مرحلة التطور المتكافىء المستقل الى مراحل متدرجة للتبعية لهذا السوق العالمى الجديد وما فرضه من أنماط التعامل والتبادل والحياة الاجتماعية والثقافية ، على السواء .. ولقد رأينا كيف أصبحت المدن الساحلية الأولى فى غـــرب افريقيا ــــ مثلا ــــ منطقة تلاقى العرب والأفارقة معا سعيا وراء تنظيم التبادل التجارى مع السوق الأوربية كما حدث فى سان لويس (السنغال) والكاب فير وغيرها .

وكان السعى الأوربى الى الذهب الافريقى عن طريق عرب الشمال الافريقى ممن قادتهم الممالك المغربية لعدة قرون بين السابع والتاسع عشر ،

وهو امر أبقى على قدر من العلاقات العربية الافريقية لبعض الوقت ولو ضمن اطار « خارجى » لكن حاجة السوق الأوروبى فى أعقاب ذلك الى تجارة الرقيق للعمل فى المزرعة الأوروبية الجديدة بالامريكتين ، وتنوع عناصر التجارة الدولية الجديدة باقترانها بالصناعة الاوربية أيضا جعل دور العرب ينكمش فى العلاقات الأوربية الافريقية ، ثم كان الصراع على تقسيم العالم العربى أيضا فى ظل الحكم العثمانى واستعماله مزارع واسواق بدوره مما جعل عملية التقسيم والسيطرة والتحكم الاقتصادى تصبح هى الآلية الأساسية للتعامل داخل المنطقتين وخارجهما .

وبانتقال طرق النقل من داخل القارة الى سواحلها وسيادة الأساطيل الأوربية على البحار والمحيطات تحمل التجارة الأوربية ، انقطع الاتصال المادى والاجتماعى بين العرب والأفارقة ، رغم وجود بعض عناصر الاتصال الثقافى عن طريق الاسلام الا انه بدون اساس مادى كاف لم تكن لوفود الحج أو قراءة المخطوطات الدينية أن تقوم بالدور التاريخى الذى كانت تنجزه عناصر التطور السابق .

شهد القرن الثامن عشر الانقطاع الكامل تقريبا بسبب عوامل ذاتية حدثت داخل التطور العربى نفسه (انقسام المملكة المغربية على العثمانية وتقسيم الملكتين) وعوامل خارجية هى السياسة الأوربية والاطار الجديد للرأسمالية الغربية نفسها وحاجاتها الجديدة من المنطقتين .

وفى وسط فترة الانقطاع هذه ظهرت حاجة أوروبا « لجماعات بشرية » متنوعة فى مستعمراتها الجديدة ولاغراض جديدة ، وذلك مع ظهور الحاجة الى تطوير انتاجية هذه المستعمرات بأساليب جديدة ، فكان ثمة حاجة لتطوير الزراعات وخلق أسواق فى مستعمرات افريقيا ومن ثم ألغى الرق بل ورفعت الدعوات لعودة الرقيق الى « بلادهم » فى أفريقيا خاصة فيما عرف « بالصهيونية السوداء » أى العودة للوطن للام وسميت تلك العملية « بتحرير الرقيق » كنزعة انسانية قادتها بريطانيا ثم بعض الدول الأوربية من ورائها ، ومع « الغاء الرق » على هذا النطاق الواسع كان ثمة حاجة لأيدى عاملة جديدة تدير اقتصاديات من نوع جديد فى الامريكتين وافريقيا فشجعت الهجرة العربية الى الامريكتين وافريقيا ، على السواء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى فترة « تحرير الرقيق » نفسها . وفى

هذا الاطار تم تشجيع رحيل الآلاف من السوريين الى الامريكتين ، واتجهوا بالبعض الى غرب أفريقيا ، كما جاءوا فى مرحلة اخرى بالاسيويين (الهنود) الى شرق أفريقيا لأغراض مماثلة .

ويكاد المرء من خلال قراءة الظروف التى هاجر فيها عرب المشرق الى الامريكتين وأفريقيا أن يصفها « بالموجة الثانية للرق الجماعى » أو « الرق العربى فى الغرب » وهى لا تكاد تختلف عن موجة ثالثة شهدناها فى النصف الثانى من القرن العشرين اذا تأملنا ظروف عمل العرب ولأفارقة وغيرهم فى بلدان الغرب الرأسمالية فيما يسمى بالعمالة أو هجرة العقول :

فاذا ما تناولنا وصول المفتربين العرب الى غرب افريقيا مقترنا بهذه الانماط الجديدة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية فاننا لا يمكن أن نتصور الا أن يعيشوا غرباء على أرض عرفها اجدادهم كأرض توحدوا وتزاوجوا عليها من قبل . ولم يكن « الاغتراب » مصير العرب وحدهم على نطـاق بلدان العالم الثالث فى ذلك الوقت ، بل كان اغتراب الأفارقة أيضا على أرضهم نتيجة معايشة انماط انتاج جديدة لم يختاروها مثل العمل فى المحاصيل النقدية الواسعة أو انتاج المواد الخام لصناعات لا تخصهم . وقد يكون نمط التجارة الذى أجاده العرب قد اعفاهم من أشكال الرق التقليدية ووصل بهم تدريجيا لاوضاع افضل بالتاكيد ولكن الظروف النفسية التى وصف بها وجودهم لعدة عقود وصعوبة أن يصيروا شركاء للاوروبيين أو الافريقيين على السواء بسبب سيادة النمط الأوروبى قد يساعد على فهم الاستغلال الجماعى لهم لفترات طويلة وبقائهم غرباء فى المناطق التى يعيشون فيها بما يشبه وضع الرقيق الأفارقة الذين استمروا فى المجتمع الامريكى ثم أصبح بعضهم ضمن برجوازية ذلك المجتمع مؤخرا .

وبعد هذه المقدمة فانه لابد من بعض التفاصيل لايضاح ابعادها من خلال معرفة :

اولا : الهجرة من سوريا الكبرى .. لمـــاذا ؟

ثانيا : الهجرة الى غرب افريقيا وخاصة السنغال ونيجيريا وظروف وجود المفتربين من الاستعمار الى الاستقلال .

أولا : الهجرة من سوريا الكبرى .. لماذا ؟

لابد ان يربط الباحث هجرة « السوريين » و « اللبنانيين » من سوريا الكبرى الى غرب افريقيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين بهجرتهم ايضا او — أساسا — الى الامريكتين حيث الأعداد الكبرى هناك ، حتى يمكن تفسير الظاهرة من خلال منظور واحد .

ويقتضى الأمر أيضا عند الحديث عن اغتراب السوريين الى غرب افريقيا الا نتصور أنهم العرب الوحيدون فى هذه المنطقة ، فثمة جاليات موريتانية وسودانية ويمنية بدرجات مختلفة الى جانب الجاليات الأخرى ولابد من دراسات مسحية ومقارنة واسعة تشمل جميع هؤلاء وظروف كل منهم واستخراج العام والخاص من واقعهم بالنسبة للوطن العربى والافريقى . كما تتطلب دراستهم المقارنة بوضع الجاليات الاسيوية (من هنود وباكستانيين ..) والجاليات الأوربية التى تتسيد الموقف هنا أو هناك فى الدول الافريقية .

وحيث تؤثر الظروف المادية والتاريخية والاجتماعية التى كانت وراء هجرة هذه الجالية من سوريا الكبرى الى غرب افريقيا وصياغة سلوكها وتعاملاتها فى المنطقة الافريقية فى انماط ما زال بعضها يحكم وجودها حتى الآن فان معرفة هذه الظروف جديرة بأن تفتح الباب أمام فهم الكثير عن واقع الجاليات ومشكلاتها الحالية فى القارة الافريقية .

وتجدر الاشارة هنا الى اننا سنستعمل تعبير المغتربين ليشمل « السوريين واللبنانيين » بصفتهم وجنسياتهم الحالية بما يمكن أن يشمل أيضا وضع الاردنيين والفلسطينيين ازاء الاتفاق العربى العام على ان سوريا الكبرى كانت حتى أوائل القرن تشمل هذه الأقطار العربية المختلفة من جهة كما أن ثمة اجماع من الدراسات التى تعرضنا لها حول المغتربين على أن المهجر الامريكى أو الافريقى قد تعامل مع هؤلاء المغتربين لعقود طويلة باعتبار أن مصطلح « السوريين » يعنى هؤلاء جميعا وخاصة السوريين واللبنانيين الذين يشكلون جسد الجالية الرئيسى . أجمع على ذلك « فيليب حتى » (١٩٢٤) وجورج طعمة فى الستينيات وانتهاء بدراسات علمية حديثة من ابناء الجاليات فى امريكا الشمالية مثل سمير ونبيل ابراهام عن العرب فى العالم الجديد (١٩٨٣) .

التفسير الحضارى النفسى للهجرة :

قد يكون الجهد الأساسى لكتابة التاريخ القديم والحديث للمنطقة عند فيليب حتى أو فؤاد مازان أو غيرهما هو الذى يدفع بالبحث فى أسباب الهجرة التى تتبع سلوك أهل سوريا الكبرى فى الترحال وعبور البحار والالتفاف حول القارات وتنشيط حركة الملاحة والتجارة الدولية منذ وقت مبكر فى التاريخ كأحد الانجازات الحضارية لهذه المنطقة . ويفرد « فيليب حتى » أحد اكبر مؤرخى سوريا الكبرى فصلا كاملا « للنشاط البحرى والتوسع الاستعمارى » الذى عرفه هذا الشعب منذ العصور التاريخية المبكرة حتى اصبح المتوسط بحيرة فينيقية قبل أن تكون يونانية او رومانية ، بل وثبت أن الفينيقيين قد قاموا بالدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين بألفى عام كما أنهم قد امتدوا بالرحلة الى الاطلسى قبل أن يكتب الادريسى عن عبور العرب لبحر الظلمات(٢٢) .

وهو وان كان يحاول صياغة أسباب مادية لهذه الروح المهاجرة دائما فانه يرجعها الى محاصرة الكنعانين فى اتجاه المتوسط فاكتشفوه مجالا للابحار والتجارة .

وتقترب هذ الدراسات من ذلك الاتجاه الذى يأخذ بالتفسير النفسى للهجرة كخاصية عرقية عند بعض الشعوب عازلا اياها عنظروفها الموضوعية ولذا يرجع د. جورج طعمة تفسيره للظاهرة الحديثة « بان الهجرة مستمرة من سوريا عبر التاريخ او أن ميل الفرد العربى السورى ومزاجه الشخصى هو السعى دائما الى ما هو أوسع من ذاته ولا يكتفى بأرضه وطنا . أو ان الهجرة والاغتراب طابع للتوسع الحضارى فى الشعب ذاته » وهى فى نفس الوقت ظاهرة قومية ... الخ(٢٣) .

ولا شك أن ظروفا طبيعية وتاريخية معينة قد أدت ببعض الشعوب الى اللجوء لظاهرة الهجرة ضمن تحديها الحضارى لهذه الظروف ، فالحصار

---

(٢٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، دار الثقافة ــ بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٠٤ ــ ١١٦ .

(٢٣) جورج طعمة : المغتربون العرب فى امريكا الشمالية ، وزارة الثقافة والارشاد ــ بدون ، ص ٤٧ .

بين الجبل والمياه يجعل شعبا مثل الشعب اللبنانى ، ومثله الشعب اليمنى ، يلجأ الى البحر مخرجا كلما حلت به ظروف ضاغطة لابد من بحثها بدورها ، ولا يكفى تفسيرها بالسمات العرقية التى لا تصدق فى كل الظروف وهى لا تفسر بالقطع توقف هذا الميل العرقى عن الفاعلية فى فترات طويلة من التاريخ اذا اختفت ظروف معينة مثلما هو الحال مع الشعب اللبنانى نفسه أو الشعب العمانى الذى ابحر فى المحيط الهندى وسيطر عليه لقــــرون طويلة ثم توقف تماما فى ظروف أخرى .

الظروف التاريخية للهجرة :

يكاد تفسير الظرف التاريخى الحديث للهجرة السورية الى العــالم الجديد او افريقيا ان يشمل عناصر مادية كثيرة مما يرد فى تفســـيرات اقتصادية وسياسية بعد ذلك .

فالظروف التاريخية الحديثة فى ظل الحكم العثمانى والصراع الدولى من حول الرجل المريض هى التى جعلت تقسيم سوريا الكبــرى الى خمس ولايات يأخذ منحنى مختلفا عن وضع « الولاية العربية » أو الاســــلامية العثمانية الموحدة التابعة للمركز القوى . ومع القرن التاسع عشر أصبحت سوريا الكبرى تضم : ولايات ١ ــ حلب . ٢ ــ بيروت . ٣ ــ الشام (سورية) . ٤ ــ متصرفية لبنان . ٥ ــ متصرفية القدس .

وهذه الظروف التاريخية هى التى جعلت القوى الكبرى تفرض تقسيما آخر او مواز لهذه المنطقة الى مسلمين سنة ــ ومسلمين شيعة ــ ومسلمين دروز ــ ومسيحيين مارونيين ــ مسيحيين أرثوذكس وكاثوليك ــ يهود . وهى طوائف دينية قديمة وراسخة من ناحية لكنها تأخذ طابعها الســـياسى الخاص فى ظروف التقسيم الدولى للامبراطورية العثمانية لتحمى كل قوة منها طائفة معينة تستخدمها محليا ودوليا لخدمة مصالحها كما سنرى بالنسبة لعنصر الهجرة من والى المنطقة .

وسوف لا نعالج هنا مشكلة النفوذ السياسى من وراء تثبيت نفــوذ المارونيين أو فتح باب الهجــرة الوافدة من اليهود لفلســـطين وآثار ذلك التاريخية ولكننا هنا سوف نلتفت الى محاولة معالجة المشاكل الاقتصادية أو

الاجتماعية الناتجة عن هذه الصراعات بتشجيع هجرة اللبنانيين مسيحيين ومسلمين الى الخارج وفق خطط معينة .

لقد أدت هذه السياسات الى المذابح المشهورة بين المسلمين والمسيحيين عام ١٨٤٠ مرة وفى عام ١٨٦٠ مرة أخرى أعتى من الأولى . ونتج عن ذلك اعادة تقسيم المنطقة بين كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا حيث لا ينتقل مع هذه القوى الأوربية نمط التقدم الأوربى وانما لتدخل المنطقة مرحلة تخلف لم تشهدها فى أى وقت سابق ، اذ كانت منطقة معروفة بزراعة الذرة والقمح وصناعة الحرير وتصديره الى العراق وآسيا فتحولت الى مناطق فقيرة زاد من التأثير عليها ظروف افتتاح قناة السويس وتحويل طرق التجارة وغزو السوق الأوربى واليابانى لها(٢٤) .

واضيف الى ذلك تجنيد أبنائها فى الجيوش المتحاربة والضغط العثمانى فى فترة الضعف على الأقليات الدينية خوفا من استخدام الدول الغربية لولاءاتها لها ومع ذلك فقد سارعت هذه القوى الأجنبية بالعمل الثقافى الدينى الذى يضمن لهم الولاء بأكثر ما عملت على تحسين ظروف التبادل الاقتصادى الذى يضمن تحسين ظروف المعيشة .

نشأت كلية سان جورج الفرنسية والكلية الامريكية فى بيروت (جامعتان بعد ذلك) وتدفقت الارساليات المسيحية لتثبت ثقافة جديدة وتيارات فكرية وسياسية جديدة تعددت آثارها بين شعوب المنطقة بعد ذلك ومن بين هذه الآثار كان تشجيع الهجرة أمام اللبنانيين بحثا عن حل لازمتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ورهبا من السلطة العثمانية فى نفس الوقت .

ورغم أن كثيرا من الباحثين يلاحظون أن الهجرة فى بدايتها كانت فى الأغلب مسيحية الا أن العنصر الدينى لم يكن الأساس من ورائها حيث تشير معظم المصادر الى انتشارها كرد فعل اجتماعى واقتصادى بين مناطق مختلفة ضمن مسيحيين ومسلمين على السواء .

---

(24) Al. Saliba, Emigration from Syria in: Arabs in the Newworld ed by : S. N. Abraham wayne State University USA 1983, p.30-43.

الظروف الاقتصادية ــ السياسية :

أدى الصراع السياسى الدولى من حول سوريا الكبرى الى اقتسام النفوذ بالمنطقة وتحددت مساحة منطقة لبنان فى اتفاق ١٨٦٤ بين تركيا والدول الاستعمارية حيث قصدت الأخيرة أن تبدأ بعزل المسيحيين فى جبل لبنان لصالحها تمهيدا لفرض المشروع الصهيونى لصالح اليهود فى فلسطين.

وكانت الصراعات الدينية التى نشأت من بدايات التقسيم قد اودت بحياة حوالى مائة الف من اللبنانيين مسيحيين ودروز فى جبل لبنان وحوله . وازاء تعدد القوى القائمة على التقسيم ضاقت مساحة جبل لبنان ذات الحكم الادارى الذاتى وتعددت مشكلاته الاقتصادية والاجتماعية .

وكانت منطقة الجبل تتمتع برخاء اقتصادى ملحوظ من قبل كما كانت سوريا كذلك وازدهرت صناعة النسيج فى بيروت حتى حدث الصراع الدولى من حول سوريا والجبل وغيرها فعزل الجبل عن منطقته الزراعية فى البقاع وتدهورت الزراعة كذلك فى صيدا وطير وأدت الصراعات العسكرية أحيانا الى تعبئة أبناء البلاد فى الجيوش المتصارعة بما قدره البعض بربع مليون نسمة . أما سوريا فقد عانت من هجمات البدو فى أطرافها ازاء الصعوبات الاقتصادية .

وازاء الضغط الاستعمارى ايضا اضطرت تركيا الى اتباع سياسة الباب المفتوح فضر ذلك بالزراعة وانخفض محصول القمح والذرة وتوقف انتاج القطن .

وانهارت صناعة النسيج المتقدمة فى لبنان وسوريا ، وكذلك الحرير الذى كان مصدرا أساسيا للضرائب .

وجاء افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ فأثر فى تجارة سوريا مع العراق وايران حتى أرسل الحكام الوفود لفتح أسواق فى الولايات المتحدة وفرنسا دون جدوى .

ومع الحرب العالمية الأولى والأضرار التى لحقت بالأيدى العاملة نتيجة عملهم مع القوات المتصارعة انخفضت الصناعات التى تستوعب الأيدى

العاملة فتدهور انتاج الحرير الى سدس قيمته بين ١٠ — ١٩١٤ وعانت صناعة زيت الزيتون والكحوليات والأخشاب ، وفقدت البلاد ١٥٠ الف من أبنائها فى الحرب فى تقدير الاخوة ابراهام .

وفى هذا المناخ المنهار اقتصاديا والماساوى اجتماعيا ، ومع تصارع أكثر من خمس قوى دولية على هذه المساحة الصغيرة وشعبها الذى لم يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة يمكننا تصور الأسباب الحقيقية وراء هجـــرة الآلاف من أبناء سوريا الكبرى بحثا عن الاستقرار فى العالم الجديد .

ليس مصادفة أن تردد معظم مراجع هذا البحث دور الارساليـــات التبشيرية فى دفع أبناء سوريا الكبرى الى الهجرة ليكون الشعور الدينى المسيحى مثل الشعور بالاضطهاد والفقر الشديد عند الشيعة فى الجنوب أساسا لهجرة امتدت من طليل ورحبة وطرابلس فى الشمال الى المتن فى بيروت وصبرا وطير فى الجنوب .

ومن هذا التنوع فى المناطق وطبيعة الجماعة وظروفها الاجتماعية يمكننا القول أن الهجرة من سوريا الكبرى بهذه الاعداد التى بلغت أكثر من مائة ألف الى الولايات المتحدة وحدها بين ١٨٧٨ والحرب العالمية الثانية لا يمكن تفسيرها بمجرد « حب المغامرة » أو « الميل الحضارى » التاريخى لدى عرب سوريا الكبرى للهجرة الى ظروف أكثر تعاسة بالولايات المتحدة ناهيك عن أمريكا اللاتينية أو غرب أفريقيا .

لكن المنطقى هو أن الغزو الامبريالى للمنطقة ، والتبعية المفروضـــة عليها للسوق العالمية وتنظيمات الرأســمالية الدولية وادارتها الساســية للصراع ، هى التى ادخلت شعب هذه المنطقة الى عالم الترحال . لقد خلق هذا العامل الدولى الجديد ظروفا شاقة أمام شعب سوريا الكبـــرى جعله يلجأ الى تراث قديم كان يرتبط بالنمو والازدهار وهو تراث الهجرة الفينيقى العربى القديم .

ولكن الاعتبار النفسى والحضارى أو مجرد الصراعات الدينية لم يكن من الممكن أن تدفع فيما بين ١٨٧٨ و١٩١٤ الى هجرة حوالى مائة الف مهاجر يشكلون أكثر من ربع سكان جبل لبنان فى ذلك الوقت . ولعل هذا هـــو

ما يقصد بتصدير التخلف الى بلدان العالم الثالث مع الغزوة الاستعمارية له بوسائل شتى ومنها استنزاف أبنائه كما حدث مع افريقيا من قبل عن طريق تجارة الرقيق .

واذا كان نظام الرق الافريقى من غرب افريقيا عبر الاطلنطى قد خدم الاستعمار الاوربى لاراضى العالم الجديد فى أمريكا الشمالية والجنوبية فان نظام نزوح المهاجرين من سوريا الكبرى عقب الغاء الرق الافريقى يشير الى حاجة هذه المستعمرات لقوى من نوع جديد خاصة فى المستعمرات الافريقية، قوة للاعمال التجارية وتشغيل الراسمال المالى فى تلك الفترة . ويبدو الحاح هذه الحاجة — فيما يشير اليه فيليب حتى — عن دور السماسرة فى شحن المهاجرين حتى انهم لم يكونوا يعرفون الى أين يتجهون ، هل الى امريكا او المكسيك أو استراليا او افريقيا ! كما اشار جورج طعمة الى دور المبشرين فى اغراء الاهالى بالهجرة ، وعمليات السماسرة فى تهريب المهاجرين من رقابة العثمانيين على السفن المغلقة الى مرسيليا حيث يتولاهم السماسرة اليهـــود .

ان التطورات الاقتصادية الاجتماعية التى جرت فى منطقة ســـوريا الكبرى على يد الراسمالية الامبريالية الجديدة لم تكن وفق خطة استثمار تنموى فى المنطقة تجعل الهجرة اختيارا لكنها كانت صراعا على المنطقـــة الاستراتيجية سارعت بافقارها وربطها بالمناطق الأخرى وفق منطق الظاهرة الاستعمارية انعكست هنـــا فى « هجرة المفتربين » الى غرب افريقيـــا والأمريكتين .

المفتربون فى غرب افريقيا :

وخاصة السنغال ونيجيريا من الاستعمار الى الاستقلال :

ليس تدفق المهاجرين « السوريين » الى منطقة غرب افريقيا شـــيئا غريبا على حركة هجرتهم من سوريا الكبرى . فازاء الظروف السابق شرحها عن المناخ الذى ساد المنطقة العربية ، انطلق أبناء هذه المنطقة الى الخارج، وليس طوعا فقط وفق تراث طويل للهجرة كما نعرف ولكن وفق ادارة القوى العالمية الجديدة لمناطق الاهتمام والمصالح الراسمالية أيضا .

لقد فرض ذلك الهجرة اولا الى امريكا الشمالية ثم الى أمريكا الوسطى (المكسيك) والجنوبية (البرازيل) وكان ذلك مفهوما رغم بعد الشـــقة على فقراء سوريا فقد كانت الحاجة اليهم هناك للتجارة الصغيرة او العمـــل المحدود .

وفى خلال نفس الفترة تقريبا وهى النصف الثانى من القرن التاسـع عشر كان الوصول ايضا الى منطقة غرب افريقيا وتبع ذلك انتشارهم فى انحاء افريقيا حتى اقصى الجنوب .

ان دواعى البحث فقط هى التى جعلتنا نركز على هجرتهم الى غرب افريقيا بل ونكون اكثر تركيزا على السنغال – كاحدى المناطق المســماة بالفرنكفونية ، ونيجيريا كأحد أمثلة منطقة الانجلوفون . ولكن تجارب الهجرة فى بلدان مثل سيراليون وغانا وليبريا وغينيا ثم غينابيسا وتعتبر من الحيوية للدراسة بنفس القدر بل وتحتاج الى دراسات نوعية بدورها لما نوحى به من استنتاجات هامة ، ولا شك انه سياتى فى ذكرها دائما عند ضرورات المقارنة فى هذا البحث حيث يمكن أن تتقدم الدلالة فى اى منها عن اختياراتنا بالتركيز على السنغال ونيجيريا .

ولابد من الاشارة أن السنغال ونيجيريا تتمتع بموقع خاص فى البحث لأسباب موضوعية ايضا وليس مجرد الأسباب العملية .

فالسنغال كانت ومازالت الى حد كبير – مركز النفوذ الفرنسى التقليدى واداة المصالح الفرنسية الكبرى فى المنطقة ، وكانت دائما مدخـــل غرب افريقيا فى المصالح والاتصال ، وانعكس ذلك على تكوينها الاقتصـــادى والاجتماعى وصياغة وضعها وتطورها السياسى وما يزال . وليس صدفة أيضا انه فى السنوات الأولى لاستقلال الدول الافريقية أوائل الستينيات كان عدد المهاجرين السوريين واللبنانيين فى السنغال هو اكبر رقم معلن أو معروف فى غرب افريقيا وهو عشرة آلاف مغترب بالاضافة لاسرهم .

أما نيجيريا : فقد كانت لفترة طويلة تحتل المكانة الثانية فى تعـــداد المهاجرين ففى السنوات الأولى للاستقلال أيضا بلغوا أكثر من ستة آلاف مهاجر بالاضافة لاسرهم أيضا وذلك بحكم اتساع البلاد وتنوع اقتصادياتها

وحجم المصالح البريطانية الكبير فيها فضلا عن التنوع الاجتماعى والدينى تحديدا .

ويكاد تأمل عدد المغتربين من سوريين ولبنانيين وغيرهم فى مستعمرة أو اخرى فى اى فترة تكون موضع الدراسة أن يرتبط بحجم المصالح الأوروبية واداراتها بأكثر مما يرتبط بمجرد توفر الثروة أو امكانيات اشباع حاجات المغتربين .

وهذه الملاحظة هى التى ستقود البحث فى هذا القسم بدوره كما ساهمت فى بعض الاستنتاجات الخاصة به من قبل وأهم هذه الاستنتاجات ان المغتربين فى الموجة الحديثة كانوا موضع استغلال مستمر من قبل القوى الرأسمالية الاستعمارية بأكثر مما أداروا الموقف لصالحهم أو لصالح بيئاتهم الأصلية اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا . وسوف يساعد فحص هذا الواقع فى نهاية الدراسة على استخلاص مستقبل وضع المغتربين من جهة ومستقبل العلاقات العربية الافريقية نفسها من جهة أخرى .

ظروف المهجر الافريقى الجديد :

لابد أن نلقى نظرة عامة على طبيعة الاقتصاد الافريقى « الاستعمارى » فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقت وصول المغتربين الى المنطقة لتحدد ظروف وصولهم مرتبطة بهذا التطور الاقتصادى .

ففى تلك الفترة بدأ ازدهار ثلاث محاصيل رئيسية فى المنطقة على الأقل هى الفول السودانى وزيت النخيل والمطاط الى جانب استمرار تجارة الذهب طبعا . وقد كانت التجارة الأخيرة قد نقلت الى مركزها الأوربى بانهيار الدول العربية فى الشمال واضطرارها الى التجارة مع أوربا بالاساس عن طريق لقائها عند سان لويس بالسنغال حاليا حيث كان يلتقى التاجر العربى والافريقى مع الأوروبى طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وعلى الساحل الافريقى تكسرت قدرة العرب الاقتصادية ، ودمرت الممالك الافريقية وانفرد الأوروبى بتجارة الذهب ثم الرقيق وقاد العملية التجارية التبادلية الى عملية رأسمالية كبيرة أصبح مركزها فى أوروبا وليس الوطن العربى أو افريقيا .

وبدأت مصالح وسياسات الدول الأوربية نفسها تختلف فى هذا الاطار بل وبدأ نوع من التخصص الى حد ما ، ففرنسا تمارس زراعة الفول السودانى على نطاق واسع فى مستعمراتها ، وبريطانيا تنمى انتاج زيت النخيل ، والولايات المتحدة تضمن مطاط ليبريا . وتبلورت هذه السياسات — وفق سمير أمين — بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ تقريبا وهى نفس الفترة التى بدات فيها الهجرة الأوربية وكذلك هجرة المفتربين العرب الى غرب افريقيا(٢٥) .

تخصصت فرنسا فى انتاج الفول السودانى ازاء رخص عملية انتاجه ونقله البحرى نسبيا بما يتفق مع قلة امكانيات الراسمالية الفرنسية فى ذلك الوقت واهتمام فرنسا بالنفوذ السياسى وتوسيع رقعة الامبراطورية النابليونية ، فصدرت من سموا «بالبيض الصفار» من الاداريين والعسكريين، الذين استقروا على الساحل حتى بدأ توصيل أول خطوط السكك الحديدية فى السنغال من السواحل الى الداخل عام ١٨٨٥ .

واهتمت بريطانيا بزيت النخيل فى نيجيريا أولا — وهى الأقدر على تكاليفه الرأسمالية فى الجنوب الساحلى منها حتى أدخلت زراعة الفول السودانى فى الشمال ومدت اليه طريق السكك الحديدية أيضا عام ١٩١١.

ولم يكن جوت نيجيريا وانتشار البعوض والملاريا بمشجع للانجليزى على الاستقرار فى نيجيريا ، ولذا لم تعرف هذه المنطقة الاستيطان الأوروبى.

بذلك دخلت منطقة غرب افريقيا عصر الاقتصاد الراسمالى ، والمحاصيل الزراعية النقدية لصالح الاحتكارات الأوروبية وكانت هذه الاحتكارات تهتم بتنمية حركة النقد فى المنطقة حتى تخلق أسواقا لتطورها الصناعى فى المركز . ومن خلال هذا التراكم يمكن تمويل البنية التحتية اللازمة لآليات العملية الاستعمارية ، فبدأ اقتصاد المنطقة كله خاضعا للتوجيه من الخارج. لكن الأوربى لم يكن ليستطيع الاستيطان فى المنطقة لتنشيط العملية التجارية أو الاستثمارية لذا بدت الحاجة لفئات صغيرة اخرى يمكنها أن تقوم بهذه الأعباء .

---

(25) S. Amin, Neo-Colonialism in west Africa Monthly Revieu press N. Y 1973 p. 3-40 «The Goundnut economy of Senegal and the Limits of Light Industralzation» 1880-1970.

وكان السوريون واللبنانيون بل واليمنيون ــ كما سنرى فى تجارة الجلد هم هذه الأدوات الطيعة الهاربة من ظروفها الشاقة .

وكان اقتصاد تجارى مثل هذا الذى نشأ يحتاج الى خبرة تجارية ، ووسطاء تجاريين من بلدان فقيرة مشابهة يدور عن طريقهم رأس المال دون اقتطاع انصبة كبيرة منه .

وكان السوريون ــ فى الخبرة الفرنسية والبريطانية ــ هم هذا النوع ، وليس صدفة أن مجموعة الفقراء الذين جىء بهم الى داكار على وجه الخصوص من على أرصفة مارسيليا هم أفقر اللبنانيين من الشيعة بجنوب لبنان ــ حسب ريتا أوبرين ــ بينما كان من وصل الى سان لويس لعمليات تجارية متقدمة من المارونيين .

والوضع هنا شبيه باقتلاع بريطانيا لآلاف الهنود للعمل فى السكك الحديدية فى شرق افريقيا ازاء قدرة الهنود على هذا العمل الشاق الذى رفضه عرب الخليج والافريقيون فى المنطقة الشرقية من افريقيا .

الاغتراب الى المهجر الجديد :

كان السوريون واللبنانيون يهجرون بالآلاف من بلادهم لوجهة لا يعرفونها فى الغالب كما ترصد معظم المراجع . الا أن يكون المغترب حاملا لرسالة من قريب له فى الامريكتين يغريه فيه بالحضور . ويشير « مروان حنا » وفاندرلان مثلا الى « عامل الصدفة » فى الانتقال من مارسيليا الى غرب افريقيا بالنسبة للمهاجرين الأول حيث كانوا يقصدون العالم الجديد بالتأكيد . ولكن الباحثان يشيران لذلك وهما يصفان أيضا دور وكالات الشحن والسماسرة النشيطين فى موانى مرسيليا(٢٦) .

وتتعدد الروايات عن سنوات وصول المغتربين الى موانى غرب افريقيا ، ولكن الأكثر ترددا هو وصول أول مغترب مثلا الى سان لويس

---

(26) M. Hanna, The Lobanese in West Africa (Weekly) London. 19, 29 April, 3 May 1958.

فان دار لان : مرجع سابق ، ص ١

بالسنغال عام ١٨٦٠ اى بعد تاريخ بداية الهجرة الى الولايات المتحدة نفسها ، ببضعة سنوات . وتتابعت الهجرة بعد ذلك ليشار الى اول وصول لغانا سنة ١٨٧٠ والى سيراليون ١٨٨٠ والى غينيا ١٨٩٨ والى نيجيريا ١٨٩٠ .

وتذكر المصادر المتعددة أن الرحلة كانت عادة تمضى من مرسيليا الى أمريكا اللاتينية — اذا كانت هى المقصد — مرورا بسان لويس بالسنغال كأول الموانى الفرنسية فى غرب افريقيا . وهى نفسها المركز التجارى الافريقى العربى الأوربى القديم .

ولابد أن يربط القارىء بين تواريخ وصول المهاجرين على هذا النحو وبداية المشروع التجارى الأوربى حول المحصول الزراعى النقدى فى غرب افريقيا بل ومع انشاء السكك الحديدية للتعامل مع الداخل بعد التركيز على الساحل لبضعة عقود .

ورغم اننا لا نأخذ كثيرا بالتفسير الفردى أو النفسى لهجرة المغترب العربى الى المنطقة واختياره لغرب افريقيا بديلا للامريكتين الا انه لا مانع من ذكر ما ترده المصادر فى هذا الصدد للكشف عن المستوى الاجتماعى للمغترب الذى وصل الى هذه المنطقة ليخدم الأوروبى ويقاسم الأفريقى ظروفه مع فارق التمتع بمهارة تجارية تاريخية لم يمارسها الافريقى خلال تطوره الحديث .

يرجع البعض أسباب الاختيار الى العوامل التالية دون داع للدخول فى تفاصيل تاريخية هنا رغم انها مثيرة(٢٧) .

(أ) قلة تكلفة الرحلة الى غرب افريقيا عنها الى العالم الجديد .

(ب) عدم طلب شهادات صحية من أمراض يعانون منها معلا حيث تتحدث المصادر عن شرط الخلو من التراكوما الذى وضعته السلطات الامريكية .

---

(27) Elie Safa, L'Emigration Libanans Beirut 1960.

(جـ) عدم الحاجة الى تأشيرة دخول للمستعمرات الفرنسية خاصة ازاء اعتبارهم مواطنين فرنسيين خاضعين لنفس نوع الاستعمار .

(د) بداية القيود الرسمية على الهجرة للولايات المتحدة عموما أواخر القرن التاسع عشر .

وقليل من المصادر الذى اشار الى نوع آخر من المغتربين جاء من مانشستر الى سيراليون ونيجيريا (المستعمرات البريطانية) بعد ان فشلوا فى العمل فى الصناعة البريطانية او لحاجة الادارة الاستعمارية لخبرتهم التجارية فى مستعمراتها .

وقد ذكر لى عددٍ من قيادات الجالية اليمنية فى نيجيريا أن أجدادهم قد جاءوا من عدن الى شمال نيجيريا ليعملوا فى صناعة الجلد التى يجيدونها والتى كان المستعمرون البريطانيون فى حاجة اليها نتيجة وفرة الثروة الحيوانية فى مناطق نيجيريا وخاصة الشمالية .

ولا يبدو المجىء من مانشستر أو عدن متسقا مع القول كثيرا بالاختيار الحر لرحيل المغترب الى المنطقة وانما بدت الادارة الاستعمارية ومصالحها هى سيدة الموقف طول الوقت مستفيدة بالضرورة من الطبيعة الغالبة فى النمط السلوكى للسوريين واللبنانيين أو اليمنيين ... الخ .

وما يلفت النظر بحق هو النصوص التى يقراها الباحث فى وصف حالة المهاجرين لبضعة شهور أو سنوات من وصولهم عن آلام معيشتهم ومعاناتهم ، ومجال عملهم كباعة متجولين يحملون البضاعة على أكتافهم أو يجلسون بها فى الشوارع حتى يطاردهم البوليس أحيانا الى ان يتطور حال المهاجر ويبدأ فى فتح دكانته !

لكن الأكثر اثارة هنا هو تكرار هذه الصورة فى بحوث اجراها عرب عن المهاجرين للولايات المتحدة أو اجانب وعرب عن المهاجرين الى غرب افريقيا وفى سنوات متقاربة طالت — بالطبع — بالنسبة لافريقيا .

ويضيف باحث مثل « وايندر » ثلاثة أنماط للهاجرين وهم يتحملون هذه البدايات الصعبة فيفرق بين نمط الراضى السعيد فى الولايات المتحدة حتى بوضع الدونية الذى يعانونه ، ونمط التكيف السريع نتيجة تشابه ملحوظ فى

البيئة عندما يعيشون فى البرازيل وامريكا اللاتينية عموما ، ونمط المهاجر « المحافظ على نفسه فى المجتمع الافريقى يأخذ موقفا وسطا بين الأوروبى والافريقى ، برا جعله يشبه اليهود فى المنطقة أو ما سماه بعض الفرنسيين من جهة اخرى بالقوة الثالثة » . وهو وصف اقرب الى الصحة ، سواء كقوة اجتماعية اقتصادية أو قوة حضارية ان صح التعبير نتيجة حالة التماسك والمحافظة التى يعيشونها حتى الآن تقريبا(٢٨) .

وفى اطار هذا الوضع تتحدث مصادر كثيرة عن نوع المقاومة الاقتصادية والاجتماعية التى واجهها المغتربون فى غرب افريقيا عموما وخاصة فى المستعمرات الفرنسية ونموذجها السنغال اما فى المستعمرات البريطانية فتعددت اشكال المقاومة خاصة فى نيجيريا وسيراليون .

فالسنغال كانت موضع اقبال من جانب جالية فرنسية كبيرة نسبيا اشتغلت بالتجارة فى اطار شركات الاستثمار الكبرى للفول السودانى خاصة واستفادوا بعد قليل من تخلق شرائح جديدة مخلطة ممن عرفوا « بالكريول » فى غرب افريقيا عامة وكانوا أقرب للاوربيين من اى شريحة أخرى .

ويصف سمير امين و« وايندر » طبيعة الصراع بين صغار الاوربيين هؤلاء من جهة والسوريين واللبنانيين من جهة أخرى(٢٩) .

ذلك أن قدرة السوريين واللبنانيين على العمل فى الجو الافريقى ، وعلى دخولهم لمناطق زراعة الفول السودانى بداخل البلاد ، ومعرفتهم بهذا النمط من التبادل التجارى (نظير بضاعة صغيرة) وقدرتهم على الاقتراب من الافريقى وتبادل الثقة مما ينشط عملية الاقراض والربا ويحرك السوق فترة وجود المحصول فى الأرض . كل ذلك جعل « السورى » يحتل موقعه فى هذه التجارة بسرعة ملفتة وينمى ثروته نسبيا ويكسب ثقة الشركات الكبرى ومكاتبها فى العاصمة مباشرة . واثار ذلك صغار التجار الفرنسيين والكريول وصغار الاداريين فبدأوا فى وضع العراقيل والصعوبات أمام حياة السوريين فى المنطقة(٣٠) .

---

(٢٨) بايل وايندر : مرجع سابق ، ص ٢٩٧ .
(٢٩) سمير امين : عالم رجال الأعمال ، مرجع سابق ، ص ١٢ .
(٣٠) سمير امين : مرجع سابق .

ومن جهة أخرى كانت الشركات الكبرى والادارة العليا تنظر للمسألة نظرة مختلفة لحيوية هؤلاء السوريين ، لأنهم أحدثوا رخاء فى السوق المحلى بزيادة السعر والانتاج مما ساعد فى انعاش المستعمرة « وهو ما سبق الاشارة اليه » بالاقتصاد النقدى الذى بثه النمط الراسمالى الجديد .

لعل ذلك يفسر ظاهرة انتشار اللبنانيين فى الأقاليم الداخلية بالبلاد لفترة طويلة من تاريخ الاغتراب انطلاقا من الكاولاك فى السنغال والى كانو والشمال عموما فى نيجيريا .

ويشبه وضع الكريول فى السنغال وسيراليون وضع أبناء قبائل الايبو فى شرق نيجيريا حيث انهم معروفون بحبهم على التجارة والانتشار بها فى اقاليم نيجيريا الأخرى ، ولذا كانوا اول من أحس بمنافسة السوريين واللبنانيين وقاوموا وجودهم كثيرا . ويعتبر الاقليم الشرقى فى نيجيريا اقل الأقاليم فى اعداد اللبنانيين والسوريين طوال الوقت بينما ساعدت الأوضاع الاقطاعية وشبه الاقطاعية فى الشمال وغرب نيجيريا على قيام السوريين بدور التجارة خاصة مع دخول نمط المحاصيل والتجارة الجديدة : ولذا فانه فى فترات محددة بلغ عدد المغتربين فى الشمال اربعة أخماس عدد المغتربين فى نيجيريا (كانو — الهضبة — بورنو) ثم فى ايبادان بغرب نيجيريا بينما كان أقل عدد فى شرق نيجيريا .

ويعنى ذلك ان تجارة الفول السودانى كانت أساس وجود المغتربين فى نيجيريا وان كانت ليست مصدر الثروة الرئيسى بينما زيت النخيل كان فى الشرق ولذا لم يعمل فيه المغتربون كثيرا .

نمط التجارة الجديدة ونسبة تزايد الهجرة حتى الاستقلال :

انطلق اللبنانيون من وضع الوساطة فى عملية التنمية الجديدة ومحورها الرأسمالية التجارية فكان عليهم السعى وراء المجالات الجديدة المطروحة فى اقتصاديات هذه المجتمعات وليس اللجوء الى أنماط النمو التقليدية خاصة اذا سلمنا بانهم فى الواقع كانوا قد استجلبوا لهذا الغرض.

من هنا كان تركيزهم فى السنغال ونيجيريا على تجارة الفول السودانى واقتصاديات النقد الجديدة ، كما كان تركيزهم فى غينيا على المطاط ، بن

وانتقلوا الى عالم الماس فى سيراليون عندما دخل اقتصاديات هذه البلاد فى الخمسينات من هذا القرن كما تفوقوا فى عالم النقل البرى فى مختلف المستعمرات حيث لم تدخل الشركات الأوربية هذا المجال .

وقد كان تراكم المال المحدود فى أيديهم فرصة لأعمال تجارية جديدة أيضا فراجت على أيديهم تجارة الأقمشة المستوردة من أوربا أساسا .

يلخص وايندر التجربة بالقول « أنهم وان بداوا باعة جائلين يبيعون الأقمشة ومواد الزينة فانهم تطوروا الى تجارة التجزئة والنسيج وكوسطاء بين الافريقيين والاوربيين فى تسويق محصول الفول السودانى وزيت النخيل حيث انتقلوا بعد ذلك الى النقل والصناعة وبعض المزارع ودور الملاهى وبدخول الافريقيين أنفسهم بعد قليل عالم تجارة التجزئة فقد انتقل السوريون الى التجارة الكبيرة ، ومع توسع الحضر وبناء المنازل بدأوا فى ملكية العقارات على نطاق واسع حيث كان يحال بينهم عادة وبين ملكية الأراضى الزراعية ويضيف ماندرلان انهم فى أنحاء افريقيا أدى اندماجهم فى الحياة الافريقية الى الاشتغال بتجارة الكولا والارز والتجارة العامة البسيطة .

ويلاحظ الباحثون عامة فى تاريخ الجاليات السورية واللبنانية انهم لم يشكلوا طوال الفترة الأولى من اغترابهم قطاعا كبيرا فى التكوين الطبقى الجديد فى غرب افريقيا الا مع تضخم وجود رأس المال الأوروبى نفسه فى بلدان المنطقة أواخر الثلاثينات حيث ظلوا باعداد كبيرة اقرب الى الكادحين منهم الى الرأسماليين الى أن قفز بعضهم ليشارك فى تكوينات الطبقة المتوسطة اقتصاديا وذلك بسبب قيام الاقتصاد على احتكارات أوربية تجارية كبيرة وحصار التجارة المحلية ومنافذها عبر الشركات الأوربية التى ترتبط بنوع الاستعمار القائم .

ان احصائية مثل التالية بعد قد تظهر هذا الوضع من الواقع السنغالى فى مجال التجارة والنقل . فيما قبل الاستقلال ، وهى لا تشير الى تضخم حجمهم الراسمالى وانما الى زيادة الاحتكار على المستوى الأوروبى وتعدد أشكال الأعمال التجارية الصغيرة على الجانب السورى اللبنانى(٣١) .

---

(٣١) مشموت ديوب : مرجع سابق .

سنة ١٩١٩		سنة ١٩٣٥	
شركات اوروبية	شركات لبنانية	اوروبية	لبنانية
٢٨٣	٦٧	١٣٨	٨٥٧

وفى ليبريا سجلت الاحصائيات سيطرتهم على ٦٥٪ من العمليات التجارية الداخلية بعد الحرب الثانية .

وسجلت احصائيات أخرى سيطرتهم على ٣٠٪ من مبانى داكار أواخر الخمسينات لكن معظم الاحصائيات لا تذكر شيئا عن نسبتهم فى الانتاج الزراعى عن طريق ملكية الأراضى مع تفسيرات بأنهم عانوا من الفقر من خلال الزراعة فى لبنان ولم يكونوا مستعدين للحياة الرتيبة المحدودة الداخل فى الزراعة التى عرفوها فى سوريا الكبرى قبل رحيلهم عنها ، ولكن التفسير الأكثر قبولا هو أن ذلك نظام ملكية الأرض الافريقية بين المشاعية والاقطاعية لم يكن يسمح بدخول السوريين هذا النطاق الا بقوة الفرض الأوروبى . وفى نفس الوقت الذى لم يتوفر فى غرب افريقيا اعداد المستوطنين الأوروبين الذين يفرضون هذا النمط على نحو ما فعلوا فى شرق وجنوب القارة . ويقوى هذا التفسير اذا ربطناه بفكرتنا عن ارتباط التحولات الاقتصادية الاجتماعية بالاطار الأوروبى أساسا للجاليات السورية اللبنانية بنمط الاستغلال الأوروبى أساسا ، ولذا حرص هذا النمط على خطر ملكيتهم للاراضى أو الزراعة وابقائهم لغرض التراكم التجارى المالى .

ولقد بالغ الكثيرون فى دور اللبنانيين والسوريين الاقتصادى والاجتماعى فى غرب أفريقيا نتيجة ملاحظة معايشتهم للحياة اليومية للافريقيين بأكثر مما هو نتيجة حجمهم السكانى أو دورهم فى المكونات الراسمالية الجديدة . وتشير طبيعة مجالات نفوذهم والنسب الكبيرة التى تبدو من الاحصاءات السابقة الى طبيعة هذا الدور « الافقى » لا الراسى فى حياة الاقتصاد الافريقى وذلك طوال الفترة الاستعمارية بوجه خاص .

تطور الهجرة السورية اللبنانية فى الفترة الاستعمارية :

لو اننا تتبعنا بشكل اكثر عمقا طبيعة التطور الاحصائى لاعداد السوريين واللبنانيين فى غرب افريقيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين اى فى الفترة الاستعمارية التى

تعنيها لساعد ذلك فى الوصول الى بعض الاستنتاجات الهامة فى هــذا الصـــدد .

ان دراسات نوعية عن السنغال وسيراليون ونيجيريا مثلا تشير الى أنهم لم يتضاعفوا بأكثر من المئات فى اى بلد افريقى بين السبعينات من القرن الماضى والعقد الأول من هذا القرن ولم تبدأ احصاءات جادة عنهم الا اوائل الثلاثينات حيث تنقل بعض المصادر عن عبد الله حشيمة فى كتابة « فى بلاد الزنج » الصادر عام ١٩٣١ بعد زيارة لمنطقة غرب افريقيا تطور وجودهم هناك على النحو التالى :(٣٢)

(أ) فى البلاد الناطقة بالفرنسية :

الســـنغال	٣٠٠٠ مهاجر
الســـودان (مالى)	٧٠٠
غينيـــــا	١٨٠٠
ســـاحل العـــاج	٦٠٠

(ب) وفى البلدان الناطقة بالانجليزية :

نيجـــيريا	٤٥٠
ليبـــريا	٦٠
غانـــــا	٦٠٠
ســـيراليون	١٨٠٠

وفى احصاء آخر يورده مروان حنا مستخلصا من عدة مصادر عن تطور الهجرة الى نيجيريا وغانا وسيراليون حتى عام ١٩٥٧ نجد الأرقـــام التاليـــة :

---

(٣٢) مروان حنا : مجلة غرب افريقيا ــ مرجع سابق .

	نيجيريا	غانا	سيراليون
١٩٠١	—	—	٤١
١٩١١	٩٠	٤٦	٢٦٦
١٩٢١	١٤٣	٢٣٤	٥٦٣
١٩٣١	٤١٩	١١٤٠	١١٦٦
١٩٤٨	—	١٣٧٠	١١١٦
١٩٥٢	١٨٩٥	—	١٢٠٤
١٩٥٧	—	—	٢٦١٢

ويورد لورد هيلى أرقاما قريبة فى مسحه الشامل الصادر عام ١٩٥٧ عن آخر احصاءات توفرت له فى ذلك الوقت عن المغتربين اللبنانيين والسوريين فى غرب افريقيا أوائل الخمسينات :

نيجيريا	١٥٠٩	بينهم ١٤٩ سوريا
سيراليون	١٢٠٤	بينهم حوالى ٢٠ سوريا
ساحل العاج	١٣٠٧	معظمهم لبنانيين

ولابد أن نلاحظ هنا ان معظم هذه الاحصاءات تهتم بالجيل الأول المسجل أى رب الاسرة فقط مشيرة الى انها تستبعد عائلة المهاجر اذ انه من المعروف أن معظمهم لسنوات طويلة لم يكونوا يصطحبون زوجاتهم . وقد ساعدهم ذلك على الاندماج بالزواج احيانا من الافريقيات .

ولذلك فقد جاء احصاء آخر أورده فاندرلان نقلا عن مصادر وزارة الخارجية اللبنانية يبدو انه كان يضم مجموعة المغتربين ومن معهم ممن يحملون جوازات السفر اللبنانية ، فجاء الاحصاء عام ١٩٦٢ على النحو التالى :(٣٣)

---

(٣٣) فان درلان : مرجع سابق ، ص ٣٦٦ .

السنغال	١٠٠٧٠
نيجيريا	٦١٥٠
غينيا	٣٠٠٨
ليبريا	٢٦٩٧
غانا	٢٢٠٠
ساحل العاج	١٨٠٠
غنيابيساو	١٠٥٠
جامبيا	٦٥٠
داهومى	٩٥

وهذا مما جعل فاندرلان ووايندر على السواء يذهبان الى أن مجموع المغتربين فى غرب افريقيا لم يزد فى مجمله سنة الاستقلال عن ٣٠ — ٤٠ ألف نسمة .

ولذا يقارن « فاندرلان » فى احصاء آخر بين اعداد المغتربين السوريين واللبنانيين فى غرب امريقا الفرنسية ومجمل الأجانب فى عدد من البلاد على النحو التالى :

	السنغال	ساحل العاج	السودان «مالى»	فولتا العليا	النيجر	داهومى	موريتانيا	المجمل
اللبنانيين	٢٥٥٧	١٢٧٩	٤٠٥	٦٧	٢٣	١٦	٧	٥٢٨٤
السوريين	١٥٣	٤٥	٢٥	٨	٢	٢	—	٢٣٥
الأجانب	٤٦٥٢٧	١٤٤٥٦	٧١١٣	٢٤٤١	٢٦٨٢	٢٥٢١	١٦١٦	٧٨٣٥٦

ومعنى ذلك أن الاوربيين رغم استجلابهم لهذه الجاليات فقد كانوا يحاصرون وجودهم فى حدود خدمة الاغراض الاستعمارية الرأسمالية بأكثر من اتاحة فرصة تزايدهم باعداد متدفقة ازاء الصعوبات المستمرة التى يتعرضون لها .

ومعنى ذلك أيضا أن العيش فى ظل الاستقلال مع النظم الافريقية بتنوع توجهاتها قد أتاح أرضا أرحب للقاء العربى الافريقى ممثلا فى قبول أعداد أكبر من المغتربين على النحو الذى تطورت به أعدادهم فى البلدان

الافريقية وخاصة فى السنغال وساحل العاج ونيجيريا وغانا وغيرها مشاركين الطبقات الافريقية الجديدة علاقات الانتاج الجديدة وان تعددت مشكلات هذه المشاركة بدورها .

الاطار السياسى والاجتماعى :

أشرنا من قبل الى ان عدد المغتربين فى معظم دول غرب افريقيا لم يتعد بضع مئات فى اية مستعمرة فرنسية او بريطانية لعدة عقود من أواخر القرن الماضى وحتى العقد الأول من القرن العشرين ومع ذلك فقد بدت هناك سياسات اقتصادية واجتماعية متعمدة تجاههم من قبل الادارة والاوربيين انفسهم أكبر من حجمهم لعدم اتاحة الفرصة لأى « نفوذ » حقيقى الا فى اطار الصراع السياسى والاجتماعى الرائد داخل وخارج المستعمرة . ومن المفيد اجمال بعض معالم هذا الاطار .

السياسة الاستعمارية وموقف الأوربيين :

على الرغم من اجماع الباحثين على الاستفادة الكبيرة من وجود السوريين واللبنانيين فى مضاعفة انتاج الفول السودانى وزيت النخيل فى السنغال ونيجيريا وسيراليون وغيرها من بلدان المنطقة على ما تشهد بذلك دراسات متخصصة لاقتصاد هذه المستعمرات فى تلك الفترة ، رغم تثبيت أسعار هذه المنتجات لعشرات السنين ولصالح الشركات الأوربية الكبرى (ليتون وسمير امين) فان السياسة الاستعمارية لم تحم هؤلاء الوسطاء باية قوانين خاصة بقدر ما راعت مشاعر الأوربيين والمخلطين (الكريول) وصغار الموظفين والشركات الصغرى التى وجهت سخطها نحو هؤلاء الغرباء .

وفى السنوات الأولى من هذا القرن وكان الخلاف بين تركيا والحلفاء يتصاعد فان المغتربين عانوا نتيجة ذلك لبعض الوقت حتى اثبتوا ولاءهم لبريطانيا وفرنسا .

ومن واقع تحليل اجراءات القوتين الاستعماريتين فى المنطقة فان بريطانيا كانت دائما أكثر تشددا معهم بسبب قيادتها للمواجهة مع تركيا التى يعتبر المغتربن من رعاياها وتركز ثرواتها فى المستعمرة فى يد شركاتها

الكبيرة (ليفنتس ... الـخ) عكس الفرنسيين التى كانت الزراعة الواسعة للفول السودانى تتطلب الدور الوسيط للمفتربين عى نطاق واسع .

وقد أدت نتائج الحرب الأولى الى سحب كثير من الأوربيين للعمل فى جيوش بلادهم فانتعش حال التجار لبعض الوقت ، وبعد أن عاد الاوروبيون عاطلين بعد الحرب أثاروا الأحقاد ضد المفتربين وانفجرت أحداث مثل أحداث ١٩١٩ فى سيراليون كادت تؤدى بوجودهم فى المستعمرة (حرق الأهالى لمحلاتهم ومنازلهم وتشريد العشرات منهم)(٣٤) .

وقد أدى هذا الموقف المنافس للمصالح الأوربية الحاكمة وعناصرها الى لجوء اللبنانيين والسوريين الى اسواق اليابان والمانيا وهولندا ممن فتحوا أسواق هذه المنطقة عن طريق اللبنانيين والسوريين .

وفى كل هذا المناخ كان قانون الجنسية مشكلة دائمة حيث كان المفتربون يعتبرون « أتراكا » أو عثمانيين حتى وقعت معاهدة لوزان ١٩٢٣ فأصبح على السوريين واللبنانيين ان يختاروا خلال عامين بين الجنسية اللبنانية والسورية أو يبقوا أتراكا فكان ذلك مجالا لحسم موقفهم ومع ذلك بقى عدد منهم يعانى حتى عام ١٩٣٧ من مشكلة الاختيار .

وقد ساعد على مجيئهم بكثرة كلبنانيين وسوريين بعد عام ١٩٢٤ صدر قانون الحصة أو الكوتا فى الولايات المتحدة وهو الذى حدد هجرتهم الى العالم الجديد فتزايد اتجاههم الى غرب امريقيا .

ولم يبدأ اهتمام « الوطن الأم » الرسمى بهم الا فى الخمسينات بعد أن ظلوا يعانون تعسف الحماية الفرنسية او البريطانية منذ اول تدخل الى جانبهم مى غينيا من جانب العثمانيين عام ١٩٠٦ .

موقف السلطات والمجتمع الافريقى :

لم تمر فترة فى تاريخ المفتربين لم تشهد اضطرابا فى المجتمع الافريقى ضدهم يؤدى بعضه الى انفجارات مدمرة لمصالحهم . عرفت ذلك غينيا وسيراليون وغانا وليبريا والسنغال بما كاد أن يصير مثلا فى المناطق المجاورة .

---

(٣٤) وايندر : مرجع سابق ، ص ٣٠١ .

ولا يمكن فصل معظم هذه الاضطرابات الاجتماعية عن أسبابها المحلية والأجنبية فعلى المستوى المحلى يشعر الافريقيون انهم محرومون بسبب التاجر المباشر بأكثر من شعورهم بظلم الشركة الكبيرة خاصة اذا ما ظهرت قوانين مثل ما حدث فى سيراليون تمنع تجارة الافريقيين فى الماس مثلا فى الثلاثينيات الى ان يسمح لهم بذلك متأخرا فى الخمسينات .

والعامل المحلى الثانى هو توجهات الحركة الوطنية الافريقية منذ الحرب الأولى وفيما بين الحربين واتجاه المشاعر الوطنية ضد المستغلين الأجانب بالطبع وخاصة المباشرين منهم .

ومن جهة ثالثة انتشرت البطالة كثيرا فى الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٣١/٢٩ فانعكس ذلك على توجه السخط على أصحاب المحلات اللبنانيين والسوريين .

وفيما قبل الاستقلال عرفت المجتمعات الافريقية حملات صحف محلية معينة لأكثر من عشر سنوات Echo فى داكار فى الاربعينات والخمسينات وحملات أحزاب معروفة بالتوتر العنصرى المضاد للعرب مثل حزب المجلس الوطنى لنيجيريا (شرق) ضد الشماليين والمغتربين الموالين لهم . كما وقعت أحداث غانا ١٩٤٨/١٩٥٠ — واحداث نيجيريا ١٩٥٥ .

أما العامل الذى يشترك فيه العنصر الداخلى والخارجى فيتمثل فى المنظمات الاقتصادية التى تبدو محلية بينما قامت فى الواقع وفق تطورات السياسة المحلية البريطانية ، أى تعديل نظام السوق الداخلى والملكة به يبدو لصالح الافريقيين فيما سمى بهيئات التسويق الوطنية أو الجمعيات التعاونية الافريقية . تم ذلك خاصة بعد الحرب الثانية لترضية الافريقيين المطالبين بالاستقلال السياسى من جهة ، ونقل بعض المصالح لهم من اللبنانيين والسوريين فى السوق المحلى لضمان السيطرة على الطرفين من جهة اخرى . ولذا نلاحظ زيادة التوترات بين الافريقين والمغتربين فى الخمسينات وهى نفس التوترات والمواقف التى ستشهدها فى السبعينات لأسباب مشابهة(٣٥) .

---

(٣٥) ريتا كروز اوبرين : رجال الأعمال اللبنانين فى السنغال ، كراسة الدراسات الافريقية ، مرجع سابق ، ص ١٠٣—١٠٤ .

مواجهة المغتربين للموقف :

فى غياب أية « حماية وطنية » من قبل الوطن الأم للمغتربين طوال فترة اغترابهم فانهم لجأوا الى التمركز حول الذات لحماية انفسهم بانفسهم أو اختراق المجتمع القائم فى محاولات للسيطرة من الداخل لضمان الدعم لهـم .

وفى الحالتين فان التمركز لم يكن « مجتمعيا » يقوم على المؤسسات والتنظيمات التى تساند حركتهم وانما اتبعت الأليات التالية :

(أ) الحياة فى « جيتو » معروفة فى كل مدينة .

(ب) الانتقال من الريف الى الحضر بكثافة بدءا من فتـــرة ما بين الحربين .

(جـ) الانكفاء على الذات الريفية أو الطائفية بمعنى تكتل كل أبناء قرية واقليم وطائفة دينية أو عرقية .

(و) رفض اى « دور تبشيرى » لصالح الدين أو الثقافة الوافـدة معهم ودون محاولة لاندماج مع المجتمع الافريقى .

(هـ) اللجوء الى اختراق المجتمع الافريقى عن طريق الوسائل غير المباشرة فأصبحوا بذلك عنصرا من عناصر النفاق السياسى أو الفسـاد (الرشوة) .

(د) عدم الرغبة فى المشاركة الفعلية فى عملية التنمية المحلية وفق « المشروع الاقتصادى » الوطنى المطروح تمسكا بنمط التجارة التى تيسر لهم نقل أموالهم للخارج .

(ز) عدم التعبير عن انتمائهم للوطن الأم أو تدعيم الصلة والانتماء الا فى المناسبات الاجتماعية العامة اما بشكل اجتماعى بالنسبة للوطـن القطرى (لبنان ــ سوريا) أو بشكل سياسى فى حالة الأحداث السائدة الكبيرة التى لم تختلف عليها مع الشعوب الافريقية نفسها (تأميم القناة ــ زعامة عبد الناصر ... الـخ) .

لذلك لم تنشأ الا تنظيمات داخلية بينهم ذات طابع اجتماعى مثـــل النوادى أو الجمعيات الاجتماعية ، ولم تقفز فكرة « الجامعة اللبنانية » الا فى اطار طائفى أيضا عندما طرحها الرئيس الجميل فى الخمسينات .

ان كلا من العناصر السابقة يحتاج لفصل وحده ليعالج على النحـو الذى يكشف طبيعة حضور المغتربين فى المجتمعات الافريقية والصراعات التى تحيط بهم أو ينتمون اليها وتأثير ذلك فى علاقاتهم الداخلية والخارجية واطار العلاقات العربية الافريقية نفسها . مع أهمية الانتباه لبعض الفروق القائمة بين وضعهم فى مجتمع افريقى او آخر أو الاختلافات فى علاقات هذه الجالية أو تلك بالنظام الافريقى .

ولذا فان تناول حالة مثل وضعهم فى السنغال قد يساعد على تبين بعض هذه الأبعاد كما سيرد بعد .

القســم الرابع :

دراسة حالة

المغتربين السوريين واللبنانيين فى السنغال

البـــــداية :

لم ينطلق فقراء اللبنانيين من قراهم فى الستينات والسبعينات من القرن الماضى الى مرسيليا ثم الى غرب افريقيا بمجرد الصدفة ، فان ادبيات الهجرة السورية اللبنانية تكشف الكثير عن دور السماسرة على مقــاهى بيروت لشحن المسافرين الى « العالم الجديد » .

وعن دور « المرابين » الذين يقرضون الأهل لدفع التكاليف ، ودور المهربين الذين يسهلون الوصول الى « البواخر » بعيدا عن أعين رجـــال الشرطة والجمارك العثمانيين المرتشين بدورهم لمخالفة أوامر الســـــلطة العثمانية بمنع الهجرة عن الطريق الشرعى .

اما الطريق الشرعى فتصوره نداءات الحاكم العام لافريقيا ا لغربية الفرنسية للقنصل الفرنسى فى بيروت لتشجيع الهجرة ، كما تصوره زيارة

امبراطور البرازيل للبنان وفلسطين وسوريا عام ١٨٧٧ لتشجيع الهجرة الى بلاده(٣٦) .

فى هذه الفترة وصل أوائل المغتربين الى سواحل غنيا والسنغال وسيراليون .. وتذكر بعض المصادر التى تنقل عن حكايات المغتربين فى معظمها أن أول مهاجر الى السنغال كان على عكر والذى وصل عام ١٨٧٠ ، بينما تردد مصادر اخرى أن ذلك كان فى وقت مبكر حين وصل أول مهاجر عام ١٨٦٠ ليذهب البعض الآخر انها كانت سنة ١٨٧٦ .

هذه الفترة بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ هى الفترة التى شهدت ادخال محصول الفول السودانى الى السنغال ثم بقية أقاليم غرب أفريقيا . وفى عام ١٨٨٥ تم اقامة أول خط سكك حديدية بين سان لويس وداكار ثم الى حوض النيجر فى الداخل ليصل بمحصول الفول السودانى السنوى من ٢١ ألف طن سنة ١٨٧٠ الى نصف مليون طن بعد قرن تقريبا .

يلفت النظر هنا الى اتجاه البنوك الفرنسية فى السبعينات من القرن الماضى لعمليات تمويل زراعة الفول السودانى لاستخراج الزيوت والشحوم منه . وفى مقدمة البنوك بنك روتشيلد الذى حول أعمال الشركة الوطنية للاستثمار S N I وليس صدفة ان عناصر يهودية من السماسرة فى مرسيليا كانوا يدفعون بالمهاجرين الى غرب افريقيا .

لم يتوافد السوريون واللبنانيون بالمئات الى السنغال فى السنوات الأولى كما توحى صورتهم بعد ذلك ، انما جاءوا فى مجموعات صغيرة من فقراء قرى الجنوب اللبنانى نتيجة فقر مدقع بالمنطقة اللبنانية لا تسمح للافراد بادخار نفقات السفر الى العالم الجديد .

جاء معظمهم من قرى « بيت شباب » وطير « وحدث الجبة » و« دير القمر » ومن صيدا و« جبل عامل » ، وسواء كان الاختيار الشخصى لهؤلاء الفقراء أن يتوجهوا الى غرب افريقيا باعتبار التكلفة المحدودة للطريق ، أو كان الاختيار توجيها من السلطات الفرنسية التى قصدت أرسالهم الى

(٣٦) حسن حدة : مرجع سابق ، ص ٦٦ .

المناطق الافريقية لتكون قدرتهم على المعايشة والحياة هناك أسهل فان النتيجة كانت واحدة فى قدرة هؤلاء على تحمل المشاق والأمراض والجو الذى جعل غرب افريقيا تسمى مقبرة الرجل الأبيض ، كما يسر اسلامهم مخالطة الافريقيين ، ولقد كان حرص الفرنسيين والبريطانيين رغم ظروف هذه البيئة أن يبقى القادمون اليها أصحاء قادرين على العمل ، ولذا تسجل المصادر المختلفة طرد العديد من القادمين بعد بضعة سنوات لمعاناتهم من مرض الحمى والصفراء والخوف من انتشار المرض عن طريقهم .

لقد ظلت أعداد اللبنانيين والسوريين فى السنغال محدودة حتى أوائل القرن العشرين ، اذ تشير كتابات مشموت ديوب وسمير أمين وغيرهما أن الرقم لم يتجاوز المائة أسرة حتى عام ١٩٠٠ ، بل لم يزد عن ٥٠٠ حتى عام ١٩١٤ .

ارتبط وجود اللبنانيين والسوريين فى فترة وصولهم الأولى التى استغرقت بين ٣٠ — ٤٠ عاما بعدة ظواهر اقتصادية لها أهميتها فى وضعهم بالمجتمع السنغالى ومعظم مجتمعات غرب افريقيا بعد ذلك وهى :

(أ) تحمل عبء العمل داخل البلاد نيابة عن الأوروبيين لمواجهة مصاعب منطقة الساحل الصحراوية .

(ب) دور الوسيط بين القاعدة الافريقية العاملة والمنتجة للفول السودانى بأرخص التكاليف وبين الشركات الأوروبية التى كانت تنزعج من عجز صغار التجار الفرنسيين من القيام بهذا الدور .

(ج) ادخال النقد « وتدوير المال » فى الوسط الافريقى الذى كان ما زال مرتبطا باقتصاد المقايضة .

وفى وصف معظم الكتاب لآليات تنفيذ هذه الرؤية فانهم يصفون كيف ترك السورى — اللبنانى فى المدينة بعض الوقت يبيع « الخرز » ويحمل بعض البضائع فى صندوقه ويتجول فى الشوارع بحثا عن قوت يومه بصعوبة حتى يدفعونه بعد ذلك للعمل بقوة وقد يقسو أحيانا على الافريقى ليجمع المال المناسب . ويوصف هنا كيف بدأت السلطات المحلية تطرد اللبنانيين من الشوارع تجبرهم على العمل فى المحلات أو الرحيل الى الداخل بكميات

هزيلة من المال تنمو من خلال اخلاصهم فى العمل وسط مزارع الفول السودانى .

وكانت السياسات الفرنسية فى منطقة سنجامبيا تتجاذبها عدة اتجاهات :

(أ) سياسة تدفعها الشركات الكبرى لتشجيع المغتربين ليكونوا وسطائها المباشرين مع المزارعين الأفارقة ، وقد أدى اندفاع عدد من السوريين واللبنانيين فى الارتباط بهذا الاتجاه الى تكوين ثروات سريعة .

(ب) سياسة تدفعها الادارة العليا فى المستعمرة لتكوين طبقة سنغالية وسيطة تحمى المصالح الفرنسية وتشكل قاعدة سياسية واجتماعية لها فى المستقبل وكان يتولاها الحاكم الفرنسى الشهير فى تلك الفترة فايدزى تطلعا منه أيضا لدفع السنغاليين لحماية المناطق المجاورة للسكك الحديدية الجديدة .

(ج) سياسة المنافسة المحلية المحدودة بين من يسمون صغار البيض من التجار والاداريين وهى التى تقبل اللبنانيين كوسطاء فى الداخل مع وضع قيود مستمرة على نفوذهم اقتصاديا فى منافسة الفرنسيين(٣٧) .

ولقد أدت هذه السياسات الى خضوع اللبنانيين لنتائج الصراعات بين هذه الاتجاهات ولذا سرعان ما انتقل اللبنانيون من الاتجار فى الكولا ليقتصروا على الاتجار فى الفول السودانى حتى يتركوا هامشا للتجار الافريقيين الأقدر على التعامل مع جمهور الكولا من الافريقيين .

قد يكون من المفيد هنا أن نرصد مجالات حركة السوريين واللبنانيين المحدودة فى التجارة المحلية وطبيعة الهامش الذى ترك لهم فى فترة بدايتهم هذه حتى تستطيع أن ترصد التطورات التى عرضت لهم بعد ذلك سواء بجهدهم الذاتى أو بهوامش جديدة فتحها أمامهم السوق المحلى والدولى(٣٨) .

---

(٣٧) سمير أمين : الاستعمار الجديد فى غرب افريقيا ، مرجع سابق ص ٣ — ٤٠ .

(٣٨) ر . ك . اوبرين : الاقتصاد السياسى للتخلف — التبعية فى السنغال ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ — ١٢٦ .

— فقد سبق القول انهم بدأوا باعة متجولين يبيعون « الخـــرز » والخردوات البسيطة .

— تناقلوا ثمرة الكولا بين الأفارقة أساسا كما تاجروا فى الأقمشـة المستوردة . ثم هجروا تجارة الكولا والصمغ للافريقيين .

— انتقلوا الى تجارة الفول السودانى يشـــترونه من المزارعين الافريقيين حيث يوفر لهم اللبنانيون والسوريون بعض الأموال المقترضـة من البنوك فى موسم البذر وقبل الحصاد . وقد عمدت البنوك الأوروبية الى قصر الاقراض على السوريين واللبنانيين لابراز عدم الثقة فى الافريقيين من ناحية وربط المغتربين بالسوق وبالبنك من ناحية أخرى . وقد أستمر تراث عدم الثقة بالافريقيين واستبدالهم بالمغتربين حتى الآن عنصر توتر دائم بين الجالية وأهل البلاد .

— تدعمت صلتهم بالشركات الكبرى وتوترت علاقتهم بالبيض الصغار حيث كان الأوروبيون يحقدون على اللبنانيين لتقدمهم فى هذه العلاقة بسبب ما يعرضونه من أسعار رخيصة تكسب الافريقى ، وما يطلبونه من ربحية محدودة تكسبالشركة الكبيرة بينما الأوربيون يطمعون فى تحقيق ربحية عالية تخسر الجانبين ومن هنا صدرت المضايقات للسوريين من هذه العناصر التى كانت ذات تعود أيضا على رجال الادارة المحليين .

فى فترة البداية أيضا ونتيجة نشاط السوريين واللبنانيين انهار مركز صغار التجار الأفارقة والمخلطين الذين كانوا قد بنوا مراكزهم التجارية والاجتماعية بسان لويس فى علاقة مباشرة مع الفرنسيين .

ويرصد سمير أمين بالتفصيل كيف انهــار مركز عشرات العــائلات الافريقية والمخلطة المعروفة وتحولوا الى أصحاب حوانيت صغيرة . لقد كان هناك مثلا ٢٥٠٠ تاجر سنغالى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حول سان لويس وجورية فانهار معظمهم والتقى النشاط والحيوية اللبنانية والسورية برؤية فرنسية بعيدة المدى ترى عدم تقدم طبقات افريقية تجارية واسعة سرعان ما تواجه المصالح الفرنسية بعد ذلك ، ومن هنا سقطت سياسة « فابديربى » الحاكم الفرنسى لتترسخ أقدام السوريين واللبنانيين

فى التجارة الكبرى ـ الفول السودانى ـ مع هامش صغير للافارقة فى تجارة الصمغ والكولا(٣٩) .

بين الحـــربين :

شهدت فترة بين الحربين تزايدا ملحوظا فى اعداد ومصالح الجالية فمع بداية الحرب بدأ تجنيد الفرنسيين وانسحابهم من السوق ، واتسعت حاجات فرنسا قبل غيرها الى المحاصيل الزراعية والمواد الخام ، وبـــدأ راس المال والراسمالية التجارية تنتقل الى مرحلة جديدة من الرأسمالية المالية التى تتجه لتوسيع « استثماراتها » فى المستعمرات وتحتاج أدوات محلية لذلك من البرجوازية الأوربية أو المحلية وخاصة الوسيطة النشطة مثـل اللبنانيين والسوريين .

لذلك نلاحظ انه فى الفترة بين الحربين ١٩١٧ ـ ١٩٣٦ قفز عـــدد اللبنانيين والسوريين فى السنغال من ٥٠٠ عام ١٩١٧ الى ٢٣٠٠ عـــام ١٩٣٦ ، بل ليصبح حوالى ٨ آلاف عام ١٩٤٥ م .

يذكر ديوب(٤٠) عن هذه الفترة انها شهدت انشاء أربعـــة شركات كبرى لبنانية لتجارة الفول السودانى رغم بقائهم كوسطاء الا انها طردت السنغاليين تماما من هذه التجارة .

بل أنه يرصد تطور عدد المحلات السورية واللبنانية من ٦٧ محـــل عمل وتجارة الى ٨٥٧ محل من ١٩١٩ ـ ١٩٣٥ م .

وفى نفس الفترة يرصد انخفاض عدد المحلات الأوروبية وخاصـــة الصغيرة من ٢٨٣ الى ١٣٨ محلا .

فى هذه الفترة ارتفع محصول الفول السودانى من ٢٠٠ الف طن عام ١٩١٤ الى ٤٣٠ الف طن عام ١٩٤٠ .

---

(٣٩) سمير أمين : عالم رجال الاعمال ، ص ١٧ .

(٤٠) مشموت ديوب : مرجع سابق ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

لكن بمضى الفترة بين الحربين ، والتى بدأت بغياب الفرنسيين تسببا من الساحة واضطراب أحوال الأوروبيين فان المستقبل سرعان ما شهد عودة ١٢ الف فرنسى الى البلاد بعد الحرب يبحثون عن منافذ تجارية أو أوضاع جماعية ووظائف فى هذه الساحة يضيقوا على الافريقيين والسوريين واللبنانيين على السواء .

وفى نفس الوقت شهدت فترة ما بين الحربين أزمات سنورد ذكرها فيما بعد وكانت مدة الأزمة الاقتصادية العالمية من ٢٩ — ١٩٣٠ هى أكبر فترات الضيق بالنسبة للبنانيين والسوريين .

وقد امتدت الأزمة أيضا الى صراع اللبنانيين والفرنسيين بسبب تزايد عدد الشركات الفرنسية الاحتكارية الكبيرة وقيام البنك المركزى لغرب أفريقيا ممن بدوا حريصين على حركة تدوير رأس المال أكثر من حرصهم على تنظيم العلاقة بين الأوروبيين والسوريين واللبنانيين .

وقد تمثل ذلك فى الصراع على مجال جديد دخله السوريون واللبنانيون هو مجال « مقاشر الفول » الذى كان تحت سيطرة الأوربيين وحدهم وعندما بدأ انسحاب الأوروبيين من هذا المجال حاولوا نقله لبعض العناصر الافريقية ففشلوا لأن البرجوازية السنغالية كانت قد ضربت نتيجة سياسات سابقة . وهنا انتقل الصراع حولها الى السوريين واللبنانيين .

فى فترة بين الحربين أيضا انتقل السوريون واللبنانيون الى مجال النقل حيث بدأوا فى تملك الشاحنات على نطاق واسع ومن هنا بدأ تحكمهم فى تجارة الفول السودانى تماما ، لكن من موقع الوساطة حتى الآن .

أعقاب الحرب الثانية والاستقلال :

فى هذه الفترة بدأ صراع آخر مع الاوربيين والافريقيين على السواء ، فمن جهة ثمة عودة واسعة للاوربيين بعد الحرب يحاولون استرداد مكانتهم ، وقفز رقم الفرنسيين من ١٥ الف نسمة سنة ١٩٤٨ حتى وصل أواخر الخمسينات الى ٤٠ الف نسمة . ولا نستطيع هنا أن نستبعد اثار الثورة الجزائرية من جهة واثار الحرب فى فرنسا من جهة أخرى كعامل يدفع الفرنسيين من رجال أعمال ومزارعين الى مستعمرة مستقرة مثل السنغال .

أشرنا الى تزايد رقم الأوربيين لتبدو الى جواره حقيقة رقم السوريين — اللبنانيين والذى لم يتجاوز حتى نهاية الخمسينات عشرة آلاف نسمة .

لكن الملاحظ على احصاءات توزيعهم فى هذه الفترة هى أنهم كانوا ما يزالون فى مواقعهم الداخل تاركين الساحل للاوروبيين أو لوكلائهم من بعض رجال الأعمال السنغاليين . ومع ذلك فان العاصمة لم يكن خلـــوا منهم بالطبع ويرصد واجيندر وسمير أمين وغيرهم توزيع مجال رجال الأعمال فى العاصمة والاقاليم السنغالية المختلفة على النحو التالى :

٢٥٠ محل تجارى فى العاصمة داكار .

٨٠ فى محافظة سبين سالوم .

٥٠ فى كولاك .

٤٠ فى ديوربيـــل .

٥٠ فى تـــيز

٢٠ فى كازامانس .

١٢ فى ســـان لويس

١٥ فى مبـــــور .

وكما توسع السوريون — اللبنانيون فى تجارة الفول السودانى وأعمال النقل فقد عادت اليهم مرة أخرى تجارة الصمغ بعد سحبها من السنغاليين .

وقد احتكر اللبنانيون الى حد كبير التعامل مع البنوك الفرنسية فى مجال التجارة حتى لقد التجأ التجار السنغاليون الى راس المال الايطالى والامريكى يحاولون ادخاله لصالحهم وقد نجحوا نسبيا لكن سرعان ما عشلت المحاولة لصالح اللبنانيين فى هذا المجال .

هنا تشير المصادر الى لجوء اللبنانيين أيضا لتنويع التجارة من جانبهم مع اليابان وانجلترا وهى الفترة التى تعرف أنها كانت فترة تنافس استعمارى واسع للقوى الغربية الكبرى فى المستعمرات بعد الحرب الثانية .

ونستطيع أن نتصور أن اللبنانيين وقد كانوا موضع صراع قوى داخل الدولة المستعمرة "الأم" ، فانهم الآن أصبحوا موضع صراع قوى استعمارية

متعددة داخل عمليات الاستثمار الاوربى لافريقيا مما وضعهم فى النهاية أمام الشعوب الافريقية وكانهم وسطاء هذه القوى لا اداتها .

ومع ذلك فان ديوب يرصد لصالحهم فى هذه الفترة توسيع نطاق التجارة الاقليمية أيضا لأن اللبنانيين هم الذين نشطوا التجارة مع غنيا (الموز والاناناس) ومع المغرب (الذرة) وتجارة التمر (موريتانيا) والاناناس (ساحل العاج) .

وفى هذه الفترة فى أعقاب الحرب الثانية ، دخل اللبنانيون والسوريون مجال التطورات الجديدة فى الاستثمار الأوربى للمستعمرة .

ان المصادر هنا تسجل الآتى :

— توسعهم فى زراعة الارز والقطن لحاجة فرنسا خاصة الى المحصول الأخير مقابل حاجة السنغاليين للارز .

— التوسع فى انشاء شركات النقل .

— دخول مشروعات صغيرة بعدد اكبر مثل البقالة .

وتقوم ريتا كروز اوبرين لوضع تصنيف لمجالات انشطة اللبنانيين فى أعقاب الاستقلال وقد استقرت أمورهم فى السنغال على نطاق واسع مع ابداء ملاحظة ثابتة عند كروز أوبرين وغيرها من الباحثين هو أن اللبنانيين قد ركزوا فى السنغال اكثر من غيرها على طابع « التجارة » مهى أكثر من الأعمال الانتاجية خاصة بعد انسحابهم كما سنرى من العمل فى مجال تجارة الفول السودانى نفسه .

فى هذا الاطار يرد تصنيفها شاملا الآتى :(٤١)

حوالى ٣٧٤ مشروع لبنانى متوسط تضم حوالى ١٨٩٥ عامل توزيعها كالآتى :

---

(٤١) ر . ك . اوبرين : رجال الاعمال السنغاليين : فى مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

٧٤٪ مؤسسات تجارية .

١٠٪ فى الخدمات .

٨ ٪ نقل .

٥ ٪ صناعات صغيرة وتحويلية .

وهى تحصر هذه المشروعات فى الآتى :

مطاعم — فنادق — سوبر ماركت — ملاهى — كيماويات — خدمات (جراجات تنظيف) — وكالات للسفريات — مشغولات معدنية — السجاد — مشغولات جلدية — الزجاج — منتجات الألبان — الروائح — صناعة الصابون — الحلويات .

والملفت هنا أن ريتا كروز أوبرين تتساءل تجاه اللبنانيين عن عدم اشتغالهم بالصناعة مثل زملائهم فى نيجيريا او مثل الاسيويين فى شرق أفريقيا ، بينما هى تدرس سيطرة الأوربيين على الصناعة فى كتاب جيد لها عن « البيض فى مجتمع أسود » .

لكن المفيد فى هذا الحصر للسيدة أوبرين انها فرقت بين المشروع الكبير (الذى بدا من كتابها أنه فى يد الأوربيين) والمشروع المتوسط فى المجالات التى ذكرتها والتى تركت كهامش للجالية اللبنانية والسورية . وعند ذلك يبقى ملاحظتان :

(أ) أن الموريتانيين والمغاربة يشكلون جالية كبيرة بدورهم تتخذ طابعا محليا فى الغالب كما سنرى بعد وأنهم يسيطرون على تجارة البقالة والتجارة الصغيرة عموما (اغطية الراس والخردوات) .

(ب) أن ثمة احصاء آخر لطبيعة المحلات الصغيرة فى داكار عند استقلال البلاد يشير للاتى :

١ — ان مجموع محلات اللبنانيين والسوريين فى العاصمة ١٠٣١ محل .

٢ — ان ذلك مقابل ٢٦٣ محل فقط للاوربيين .

فى السبعينيات :

على الرغم مما يقال عن تأثير الاجراءات الافريقية المحلية فى الحد من وجود الجاليات الأجنبية وتطور مصالحها ورغم محاولة السلطات المحلية فتح نوافذ من المصالح المحدودة للفئات الافريقية الصاعدة أو الطبقات الجديدة ، فاننا نلاحظ أن الاستقرار السياسى والاجتماعى للشريحة المحدودة الحاكمة فى السنغال لفترة طويلة بقيادة الرئيس سنغور وفلسفته التى طورها دائما فى اطار المصالح الأوروبية ، لم تؤد الى تضييق مجال الوجود والحركة والنمو كثيرا أمام الجاليات الأجنبية سواء الفرنسية أو اللبنانية .

والمقصود من ذلك كما نأمل أن تضعه فى خلاصة هذا البحث انه ليس صحيحا أن المصالح الافريقية تتعارض تلقائيا مع وجود عناصر ذات علاقة تاريخية بهذا المجتمع او ذاك وانما المهم هى طبيعة علاقات الانتاج التى يتحركون فيها خاصة اذا ما كان قرار الاستقلال ان صح التعبير فى يد الاحتكارات الاستعمارية الكبرى .

ومن الملاحظة الأولى للاحصاءات نجد أن اللبنانيين مثل الأوربيين قد تزايد عددهم فى السنغال من ٢٠ ألف أواخر الستينات الى حوالى ٣٠ ألف أوائل السبعينات وما زال قريبا من ذلك حتى الآن .

ويبقى دائما أن التجار ورجال الأعمال اللبنانيين قد جاءوا فى أحضان السياسة الاستعمارية الفرنسية وظلوا كذلك مع تطورات الرأسمالية الفرنسية مالية واحتكارية ومتعددة الجنسية ، وأن مساهمتهم الحقيقية مع السنغاليين فى عملية تطور مستقل انما ستنتظر ترتيبات استقلالية شاملة فى المجتمع السنغالى بأكثر مما هى اختيار لهذه الجالية أو تلك .

وقد يساعد احصاء مثل الآتى بعد على تصور العلاقات داخل المجتمع السنغالى فى أوائل السبعينات ، باعتبارها مرحلة موازنة بين نفوذ الدولة ونفوذ القطاع الخاص الذى أخذ فى الضغط على الدولة طوال السبعينات حتى أخرج كثير من القطاعات من أطار التخطيط والتوجيه الذى لم يكن اشتراكيا بالتأكيد بقدر ما كان لضمان بعض المصالح العامة للفئات الحاكمة المحدودة والمتعاونة مع الجاليات الأوروبية واللبنانية على السواء .

الجدول التالى يبين طبيعة هذه العلاقات فى بداية انطلاق سياسة دعم القطاع الخاص فى السبعينيات :(٤٢)

الفئة	أعمال تجارية	صناعات	مشروعات مالية	خدمات	مجموع كلى
أوربيين	٨٩٩	٣٤٦	٤٧	٦٩٦	١٩٨٨
سنغاليين	٣٤١	٢٤	٢	٩٠	٤٥٧
لبنانيين	٣٥٧	٨	—	١١٠	٤٧٥
ابناء الراس الأخضر	٣	٦	—	٤	١٣
اسيويين	—	—	—	١١	١١

ويستخلص ديوب هنا من تحليله لتعداد السكان مدى نفوذ الاوربيين فى مثل هذه الاحصاءات مشيرا للآتى :

(أ) ان الاوربيين الذين لا يشكلون من السكان الا ٧٥ر٠٪ يتملوكون ٦٧٪ من مجمل الأعمال التجارية فى البلاد .

(ب) ان اللبنانيين وهم يشكلون ٣٧ر٠٪ يمتلكون ١٦٪ من الأعمال التجارية .

(جـ) أما السنغاليون وهم الذين يشكلون ٩٨٫٧٪ من السكان فلا يملكون سوى ١٥٫٥٪ من مجمل الأعمال التجارية فى البلاد .

ومن الواضح مدى الظلم الذى يعانيه اهل البلاد ، ومدى ما يحتله اللبنانيون بالفعل بالمقارنة بهم لكن تظل نسبة الأوربيين وتحكمهم فى القرار مسئولية أولى ورثتها السنغال من فترة الاستعمار على حد تعبير ديوب نفسه .

ويشار فى هذا الصدد الى مسالة حجم هذه الأعمال نفسها ، فحيث لا تزيد قيمة اكبر المحال السنغالية عن ٥ مليون فرنك افريقى فان شركة فرنسية تجارية عادية تقدر بـ ٢٥٠ مليون فرنك .

(٤٢) نفس المرجع .

كما يلاحظ ان الأوروبيين يسيطرون على ٩٩٪ من المشروعات الصناعية ويكاد يكون ١٠٠٪ من المؤسسات المالية التى يلاحظ غياب اللبنانى عنها تماما حتى الآن .

وفى اطار الجدول السابق تذكر بعض التفاصيل لتوضح بعض المجالات التى يركز اللبنانيون والسوريون عليها عملهم مما له دلالة فى التحليل النهائى لمشاركتهم فى الاقتصاد السنغالى .

— ترصد مختلف المصادر اوائل السبعينات حوالى ٣٠٠ تاجرا لبنانيا كبيرا فى البلاد منهم ٤٦ فى العاصمة وحدها والباقى فى الاقاليم .

— فى مجال تصنيفهم التجارى فهناك ٨ تجار كبار فى مجال تسويق الأرز وخمسة يملكون شركات نقل كبيرة و٨ مضارب أو مقاشر للفول السودانى وعدد منهم يعمل فى صناعات الصابون والبسكويت والمعدات وتربية الدواجن ومجازر اللحوم .

ورصد « ديوب » ايضا ان احد التقارير البنكية اشار الى أن حركة القروض والاعتمادات من البنوك الكبرى وقد خصصت حوالى ٢٢ مليار فرنك افريقى لهذا الغرض فان السنغاليين لم يتمتعوا بأكثر من ٣٪ منها والباقى معظمه لكبار التجار مشيرا الى اللبنانيين والاوروبيين بالطبع ويذكرنا هنا بفترات سابقة — يشير لها سمير امين — كان أقراض البنوك منها قد وصل ١٤ مليار فرنك لم ينل السنغاليون منها الا مليار واحد والباقى للبنانيين والأوروبيين ، ويتساءل سمير امين على الأساس الاستعمارى الذى ما زالت بنوك تحت سيطرة الدولة المستقلة تلتزمه .

من الملفت أيضا فى تحليل مجالات العمل التجارى للبنائيين والسوريين أن الاخيرين كما عزفوا عن مجال المشروعات البنكية فانهم ابتعدوا نسبيا ولفترة طويلة عن مجال صيد السمك أو الصناعات التحويلية ، ولكن الدراسة الحديثة تلاحظ منذ بداية السبعينات بداية مشاركة راس المال اللبنانى السورى مع السنغالى وخاصة فى مجال شركات النقل على وجه التحديد الى جانت مشروعات صغيرة أخرى مثل الصيدلة والانشاءات المعمارية ، والطباعة والنشر .

وترتبط كثير من ترتيبات المشاركة ، لا بالاتجاه التوطنى والاستقلالى، لحركة راس المال اللبنانى أو السورى بقدر ما هى نوع من مواجهة قوانين السنفلة التى بدأت تصدر تباعا .

التطورات الأخيرة فى وضع المغتربين :

شهدت السنوات الأخيرة عددا من التطورات الهامة تنعكس بالضرورة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمغتربين العرب فى غرب افريقيا ويتداخل تأثير بعضها فى الآخر سلبا وايجابا بما يحدث قدرا من الاضطراب فى حياة الجالية فى السنغال على وجه الخصوص رغم الاستقرار النسبى الذى تتمتع به بالمقارنة بعديد من البلاد الافريقية المجاورة .

ان اجراءات الحكم فى السنغال طوال السنوات الأخيرة لتشجيع القطاع الخاص والاضطراد فى اجراءات نقل مسئوولية التعاونيات أو القطاع الحكومى الى القطاع الخاص انما يوحى بنقل الامتياز الفعلى فى التجارة والانتاج الى قطاعات واسعة من الرأسماليين أو التجار أو المستثمرين وفى مقدمتهم الأوربيين واللبنانيين والسوريين وغيرهم .

الا أن حرص النظام السنغالى على محاولة ترضية القطاع السنغالى الرأسمالى والتجار الذين يعانون أزمة النمو منذ مدة يجعل وضع الجاليات الأجنبية فى مأزق بدوره لمحاولة التوافق مع هذا التطور .

لذلك يتجه الحديث كثيرا الى اكثر القطاعات التى تلقى تشجيع الحكومة لاستمرارها بعض الوقت فى يد الأجانب وهو الصناعة وتشجيع انتقال الأجانب من عالم التجارة والمحلات التجارية الى عالم المقاولات الأكبر والتصنيع . أن ذلك يحقق للمجتمع السنغالى فى نظر المخطط الحالى عنصرين :

— مزيد من الاستثمار فى السنغال مع ترك فرصة القطاعات الأخرى لطبقة سنغالية تضغط منذ وقت مبكر من الاستقلال .

— توفير فرص عمل لأكبر عدد من السنغاليين سواء من الأجيال المتطلعة محليا للعمل أو العائدة من أوروبا تبحث عن عمل فى بلادها .

وحين يتطلع المجتمع السنغالى الى اللبنانيين والسوريين غالبا ينظر الى تجربة وتاريخ هؤلاء المغتربين منذ فترة طويلة وكيف تعمل الأسرة فى مشروعها التجارى أو الراسمالى وتتبادل المواقع فيه دون اتاحة فرصة عمل كبيرة للسنغاليين .

لذلك فقد حرصت فى عدد من المقابلات التى أجريتها فى داكار أثناء زيارتى للسنغال فى أبريل ١٩٨٦ أن أستطلع بالأساس امكانيات هذا الانتقال الى عالم الصناعة والمشروع الصناعى الخفيف على الأقل وتكشف بعض أحاديث من قابلتهم للاحاطة بالجو العام الذى يسيطر على حياة الجالية حاليا ومدى تصوراتهم لتحقيق هذه النقلة الى مجالات تلقى ترحيب المجتمع الاقتصادى فى السنغال والطبقات الجديدة فيه من جهة وتبقى على امكانيات الاستقرار والربح لأبناء الجالية من جهة أخرى .

وقد أتيح لى قراءة جدول تم أعداده من واقع سجلات السفارة اللبنانية فى داكار ومراجعة وقائعه مع عدد من شخصيات الجالية من كبار رجال الأعمال المعروفين فى السنغال وهو ما تم الاطلاع على ما به من المعلومات الرئيسية بأذن مشكور للسيد السفير اللبنانى .

وقد ضم سجل السفارة هذا عناوين ٤٥ شركة ومصنع ورؤوس أموالها وعدد العاملين فيها وتاريخ تسجيلها ... الخ .

ومن المطالعة الأولية له يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

(أ) ان معظم هذه الشركات والمصانع يرجع الى أواخر الستينات وخلال السبعينيات وهى فترة الانفتاح فى الاقتصاد السنغالى ودخول الراسمال المحلى المحدود أصلا لقطاع التجارة وقصر بعض القطاعات المحلية عليه .

(ب) ان مجموع الصناعات المسجلة مازال فى اطار انتاج المواد الاستهلاكية مثل البلاستيك والأقمشة والصابون والورق والأدوات الصحية والعطور والأحذية والمشروبات ... الخ أى أنه يدور فى اطار التبعية حيث المواد الخام لكل ذلك من السوق الأوربى . كما انه يعنى انه يتحرك فى حدود ضيقة لانتاج الاستهلاكيات .

(جـ) ان الشركات المسجلة ما زالت باسماء الأشخاص والعائلات مما يشير الى تمسك السوريين واللبنانيين بعزلتهم وعدم تحولهم الى نطاق المشروع الاقتصادى المحلى او الوطنى .

(د) أن قليل من المشروعات مما يزيد العاملون فيه عن مائة عامل (٣ مشروعات) ورغم حرص اللبنانيين على تعيين اقاربهم لكننا سنفترض أن فى ذلك بداية لتشكيل قيمة اقتصادية بالنسبة للعمال المحليين .

(هـ) لا تعنى رؤوس الأموال المسجلة أمام هذه المشروعات قيمة راسمالية تذكر ازاء ما هو متعارف عليه من صفر راس المال الذى تسجل به مثل هذه المشروعات .

يمكن ان نستخلص من العرض السابق لوقائع الحضور الاقتصادى للمغتربين فى تطوره ومشاركته فى جوانب الاقتصاد المختلفة ، انهم لم يكونوا غائبين عن العمل المنتج الى حد بعيد فى حدود الهامش الذى أتاحه له الاستثمار الغربى فى السنغال ، فهم من البداية مع عملية التقشير واستخلاص الزيوت وعملية النقل البرى ثم حدود الصناعات الصغيرة ومواجهة حاجات الاستهلاك مثل صناعة الأقمشة والصابون والمياه الغازية ، ارتقاء الى النسيج والبلاستيك .

يلاحظ ايضا انهم دائما على هامش الراسمالية الأوربية يحاولون منافستها فى الحدود المتاحة . كما يلاحظ أنهم لم يقوموا بتنمية المشاركة مع البرجوازية السنغالية وان كانت مثل هذه المشاركة فى المجال الاقتصادى لا تتم عادة كأختيار وانما تجرى وفق تطور داخلى للصراعات داخل المجتمع مثل اتجاهه الى « السنغلة » تارة والى « التدويل » او التأمير تارة أخرى اى توسيع قطاع الدولة او تضييقه الى جانب القطاع الخاص ثم الى قرارات « توطين » أو تدجين Undigenzation الصناعة .

اى انها كلها سياسات تعتمد على اختيارات الاغلبية والقرار السياسى وليس مجرد اختيارات اقلية جاءت فى ظروف الاغتراب التى عاشتها الجالية اللبنانية السورية او الموريتانية او غيرها وقد لفت نظرى ادراك بعض قادة الجالية لهذه الحقائق بأنفسهم .

نعرض هنا نموذجا منهم :

ـ ففى مقابلة مع ابناء شخصية كبيرة بينهم مثل عبد الكريم البرجى عرضوا مجالات نشاطهم الشخصية على النحو التالى :

٣٠ بناية ـ ٣ فنادق ـ سينما ـ شركة للاثاثات ـ شركة للتصدير والاستيراد ـ معمل صابون ـ شركة نقل باللوريات ـ شركة للاثاثات .

ذكر فايز البرجى أنهم يستخدمون حوالى ٢٥٠ عامل سنغالى وانهم قدموا كثيرا من الخدمات الاجتماعية للمجتمع السنغالى وانه شخصيا حصل على الجنسية السنغالية .

ذكر أن هناك حوالى ١٠٠ راسمالى لبنانى كبير ، وانهم يتجهون الآن الى الانتقال من تجارة التجزئة الى المشاريع الصناعية الكبيرة ليتركوا التجزئة للسنغاليين .

ولكنه أشار الى ان ذلك يعتمد أيضا على التنظيم الدولى للتجارة ومدى قدرتهم على النفاذ الى السوق الأوربية .

عندما أثرت مسألة اتجاه أغنياء الجالية الى التصنيع والمشروعات الانتاجية ذكر لى الكثيرون ارتباط أسماء البعض بصناعات معينة ، وكان استعراض قائمة الغرف التجارية والمسجلين فيها مساعدا لى بدوره على التأكد من بعض هذه الحقائق(٤٣) .

ومن ذلك مثلا ارتباط عدة مشروعات فى الصناعات والمجالات الانتاجية التالية بالأسماء مرتين كل منها :

---

(43) Principales Entreprises et Commerciales Du Senegal.

بدون تاريخ

وانظر أيضا قائمة مماثلة فى :

Annuaire Des Entreprises et organismes D'Outre - Mer (1985) Rene Moreux & co paris.

الورق — على حب الله .

النسيج شقير — بليل .

الصالون — البرجى — فخرى .

البلاستيك — يزبك — صقلاوى — بعلبكى .

العطور — هلال .

المقاولات — شقير — ياسين .

أدوات طبية — بحسون .

صناعة أدوات — عميص .

الجلود والاحذية — الاسفنج .

الحلويات — فاخورى .

اللحوم — فلفلى .

الزجاج — على فواز — سعيد حب الله .

رخام — سمير حاج على .

واذا كان ذلك هو هامش الحركة فى حدود الاقتصاد الحر تماما لصالح الأوروبيين تم الاقتصاد الموجه من قبل الدولة التى ترتبط بالنظام الاقتصادى والسياسى الأوروبى الراسمالى ، فان الخطوات الأخيرة لتنظيم القطاع الخاص بهامش اكبر للبرجوازية المحلية قد يشهد مرحلة جديدة فى العلاقات والمشاركة كما سنرى بعد ، وقد ابدى عدد من قيادات الجالية اللبنانية ترحيبهم بالخطوات الجديدة على أى حال بما يأملون معه خفض درجة التوتر الاجتماعى حول وجود اللبنانيين . وكانت هذه الملاحظة الأخيرة فى اطار اشارتهم لنتائج هذا القلق فى الفترة الأخيرة برحيل بضعة آلاف من المفتربين فى السنغال الى ساحل العاج وزائير حيث يشعرون بجو الحرية الاقتصادية المطلق الذى الفوه من قبل .

الاطار السياسى والاجتماعى والثقافى للمغتربين

رغم أن المغتربين العرب يبدون للوهلة الأولى كأنهم مجرد قوة اقتصادية وحسب خاصة فى الفترات الأخيرة بعد أن قضوا أكثر من نصف قرن قوة هامشية للاقتصاد السياسى لمستعمرة تقليدية فى السنغال رغم ذلك فان مراجعة حجم وجودهم المتناثر وسط شعب فقير ، وامكانيات نمو وتنمية محدودة يجعل ثقلهم فى الحياة العامة سياسية واجتماعية وثقافية مما لا يستهان به .

وهذا الباب مما يحتاج لدراسات تفصيلية محلية من الواقع نفسه وعن طريق فريق بحث متنوع يجمع هذا الشتات من الجزئيات التى ترتبط فيها ظروف صدور القرارات السياسية الكبرى بوجودهم واثر السياسات الاقتصادية المتبعة على حجم هذا الوجود ، كما يتتبع تأثير المجالات التى ينشط فيها المغتربون ، اذ قد تكون التجارة فى مجال الاستهلاكيات أو الخردوات ظاهرة عادية كجزء من حياة اقتصادية عامة ، ولكن الملاهى والسينما وأساليب التعامل غير القانونية مع رجال الادارة مثلا قد تكون أكثر تأثيرا فى البنية الاجتماعية من تجارة الاستهلاك .

لذلك فان هذا الفصل سوف يقتصر فى حدود الامكانيات التى توفرت للبحث على الاقتراب من هذه الجوانب آملا أن يتاح التوسع فى عرضها وتحليلها بعد توفر المزيد من الدراسات والمعلومات التفصيلية فى هذا الصدد .

على الجانب السياسى :

لا ننسى أن الرئيس سنغور قد طرح منذ أواخر الخمسينات فلسفة الاشتراكية الافريقية فى نفس الوقت الذى كانت تطرح فيه أفكار الزنوج . ومعنى ذلك باختصار طرح عنصرين تنظيميين فى البيئة السنغالية .

١ — قدر من تدخل الدولة لمواجهة موجات التأميم والاشتراكية التى سادت افريقيا منذ أوائل الخمسينات .

٢ — ترويج أفكار الزنوجة عن قدرات الزنجى الخاصة التى لا تشارك طبائع المجتمع الرأسمالى العقلانية (وقد تكون التجارية) بمعنى ترك هذه الأمور لغير الافريقيين .

وقد وفر ذلك للجاليات الأوروبية والى جانبها اللبنانية قدرا من الحريات لفترة طويلة فى السنغال .

وظلت هذه الجاليات حتى أوائل السبعينات تتمتع بحرية الحركة على الرغم من صدور قوانين واجراءات كالآتى :(٤٤)

١ — انشاء المكتب الزراعى التجارى O. C. A سنة ١٩٦١ للسيطرة على تسويق محصول الفول السودانى حتى تتولاه الشركات الأوربية الكبرى فى موانى السنغال ، وهو ما سمى باجراءات التأميم .

٢ — انشاء الشركة الوطنية للتوزيع التى اقتربت أكثر من الفلاح السنغالى وضربت نسبيا قدرة اللبنانيين فى الاقراض والاتجار بمحصول الفول السودانى .

٣ — افرقة الغرفة التجارية سنة ١٩٦٩ لمنح امتيازات أكبر للسنغاليين أو المتجنسين بالسنغالية .

٤ — قانون التوطين أو السنغلة Indiqenzation سنة ١٩٧٩ الذى أعطى نسبة الأغلبية فى المشروع الاقتصادى للسنغاليين (تكوين الشركة السنغالية للتجارة والصناعة) .

٥ — قوانين القطاع الخاص منذ عام ١٩٨١ لحماية التجارة السنغالية وهو ما انتهى بقوانين ١٩٨٦ لقصر أية مساهمة أجنبية على نسبة ٤٩٪ من رأس مال المشروع بل وقصر حوالى ٧٠ نوع من المشروعات والتجارة على السنغاليين . ومع ذلك فقد فتح الباب لتملك الأجانب للاراضى بنسب محدودة لأول مرة تقريبا تشجيعا للاستثمار فى القطاع الزراعى والتجارى .

---

(44) G. Hessling, Histoire politique du Senegal Karthala-Paris 1985 p. 60 — 75.

وقد كانت كل هذه القوانين تعمل على اعطاء طابع افريقى أو سنغالى لرجل الأعمال الوطنى خاصة بعد أن تعددت أشكال عودة الطبقة التجارية السنغالية الى السوق بوراثتها المستمرة لراس المال الأوروبى الصغير بعد اقتصار الرأسمال الأوروبى على الشركات الكبرى والشركات متعددة الجنسية على مستوى غرب افريقيا كله .

وبوراثة الأوروبيين — وليس اللبنانيين دخل رأس المال السنغالى المحدود منافسا للبنانيين ومضيقا عليهم الخناق تدريجيا(٤٥) .

وفى هذا الاطار فرضت الرأسمالية المحلية الجديدة تطورات سياسية مصاحبة لها باصدار قوانين تعدد الأحزاب المحدود سنة ١٩٧٦ (ثلاثة احزاب) ثم الحرية الكاملة فى تكوين الأحزاب السياسية فى عهد الرئيس عبده ديوف منذ ١٩٨١ ، ليظهر بين الأحزاب السياسية من يتولى الدفاع عن الرأسمالية السنغالية مثل الحزب الديمقراطى والحركة الاشتراكية الديمقراطية .

كما عادت أحزاب يسارية تقليدية (الاستقلال) أو ظهرت قوى يسارية متطرفة (الرابطة الديمقراطية — العمل) وكلها تدور حول رفض الرأسمالية الأجنبية فى السنغال بالأساس وعدم السماح بنمو رأسمالى محلى فى البلاد.

ولقد شهدت فترة العشرين عاما الأخيرة محاولات أمريكية وأوروبية غير فرنسية للنفاذ الى منطقة غرب افريقيا عامة والسنغال — المركز الاقتصادى للمنطقة بوجه خاص ، وسجل الباحثون محاولات الرأسمالية السنغالية الوليدة الاتصال بهذه القوى الجديدة فى محاولة للتخلص من سيطرة الرأسمالية الفرنسية ، وهو ما فرض محاولات (الحياد) والتوتر السياسى الدولى من حوله أحيانا ، كما بدأ الأمر فى سياسات الرئيس عبده ديوف .

وقد تكون هذه الملاحظة مقيدة لرأس المال العربى الذى عزف عن دراسة الواقع الافريقى ليبحث منافذ الاستثمار الجديدة فى العالم الثالث تخلصا بدوره من نفوذ رأس المال الأوربى عليه أو استغلاله فى العالم الثالث وهو باب ما زال جديدا بالدراسة فى مجال التعاون العربى الافريقى.

O. B. Diep, Les Heritiers d'une Independence (Les Nouvelles Editions Africanis, Dakar 1982. pp. 53-60.

على الجانب الاجتماعى :

تتنوع الدراسة هنا أيضا لتشمل عدة جوانب فرعية :

أ — مشكلة التجنس :

طرحت هذه المشكلة نفسها منذ انجلت الامبراطورية العثمانية فى العشرينات وكان عليهم الاختيار بين الجنسية التركية أو الفرنسية اللبنانية السورية . وظل البعض حتى الثلاثينيات فى هذا التردد كما كانت السلطات الفرنسية بدورها مترددة ازاء حسم مشكلة الولاء فى مواجهة التحالف التركى الألمانى .

لكن المشكلة عادت على نطاق واسع عند استقلال السنغال حيث كان البعض قد حصل على الجنسية الفرنسية وتمسك بها وما يزال (عدد محدود) بينما احتفظت الأغلبية بالجنسية اللبنانية أو السورية ، وقد بدأت الحكومة السنغالية تضع شروط صعبة للتجنس من جانبها منذ ١٩٦٢ ، ورغم قدرة اللبنانيين والسوريين على التغلب على مثل هذه الصعوبات الا أن ميلهم الاجتماعى للاحتفاظ بصفتهم اللبنانية جعلهم لا يقبلون على الجنسية السنغالية .

وفى تقدير عدد من المصادر والسفارة اللبنانية بداكار وعدد ممن قابلتهم هناك فان من تجنسوا بالجنسية السنغالية لا يزيد عن ٥٪ ويقول البعض ١٠٪ فقط .

ولقد تفاقمت المشكلة مؤخرا فقط عندما اشتدت قوانين العمل والاقامة والاستثمار فى السنغال واصبح على المقيمين أن يستفيدوا أكثر من قوانين السنغلة الاقتصادية . هنا اشتدت أيضا شروط التجنس السنغالية بحيث تتطلب الآتى :

(أ) الاقامة عشر سنوات .

(ب) التخلى عن جنسيته اللبنانية .

(ج) لا يتمتع بكامل الحقوق الا بعد حصوله على الجنسية — بشروطها — لمدة عشر سنوات أخرى .

ويشير من قابلتهم فى داكار الى أن البعض، ازاء الظروف القائمة فى لبنان والتى يستحيل معها التفكير فى العودة ، بل وظروف الدول الافريقية المحيطة قد فكر فى الخضوع لقانون الجنسية السنغالى الجديد ليستفيد من الفرص المتاحة للمتجنسين ، ومعنى ذلك التخلى عن الجنسية اللبنانية ولو بطريقة صورية ، وأشار البعض الى انهم حصلوا على وعد بأن تظل الجمهورية اللبنانية معترفة بجوازات سفرهم رغم اسقاط الجنسية وحين نفذ البعض التخلى عن الجنسية والحصول على جنسية السنغال فانهم لم يحصلوا على جواز السفر اللبنانى . ولا يشعروا بقيام الوعد « الودى » واستمراره .

٢ ـ النشاط الجماعى والانقسامية :

يعترف معظم من قابلتهم فى السنغال من المغتربين ان الفردية تسيطر على عقلية أفراد الجالية بشكل يضر أحيانا بمصالحهم ويرجعون ذلك للظروف التعسة التى عاش معظمهم فيها كأفراد والى ظروف عائلاتهم فى لبنان والحاجة الى التأمين المستمر لها بما يستغرق امكاناتهم ، ويتفق الجميع مع تحليل الباحثين بأنها من تأثير شيوع النمط التجارى الصغير لفترة طويلة فى حياة أبناء الجالية وقد يكون مفهوما أن يشيع الانقسام على أساس طائفى بين الموارنة والشيعة .. الخ باعتبار ان ذلك ما زال سمة الحياة الاجتماعية فى لبنان نفسها ، ولكن « الفردية » المطلقة التى يتحدث عنها افراد الجالية بأنفسهم ويبداون بها الحديث مع اى باحث كان هو الظاهرة الملفتة ، وهو ما يسجله الأفارقة انفسهم عن اللبنانيين والسوريين كعامل معوق للالتقاء بهم(٤٦) .

لقد لفت البعض انتباهى الى قائمة الشركات والمشروعات اللبنانية التى كانت بيدى وأنا احدثه ، مشيرا الى ان اكثر من ٩٠٪ من أسماء الشركات والمحلات هى باسماء الأشخاص وليست باسماء تجارية ، مثل فواز اخوان ، برجى اخوان ، حب الله وأولاده ... الخ وهى ظاهرة يمكن التحقق منها بسهولة من اى قائمة للغرفة التجارية أو الاعلانات .. وهو ما توفر للغرفة بالفعل ولا يحتاج لفرز احصائى كبير .

---

(٤٦) فطومة ديارا ـ مرجع سابق .

ومن هذه المواقف الفردية ينطلق التعليق على صعوبة العمل الجماعى بينهم ، فلا يعقل أن تكون هذه الملايين بين أيديهم ولا يوجد نادى للجالية فى داكار العاصمة الكبيرة لكل غرب افريقيا والتى كان بها اكبر عدد للمغتربين لفترات طويلة . وان كان هناك بعض النوادى الصغيرة فى الكولاخ أويتبز فهى نوادى اجتماعية أو رياضية للشباب لتغطية الوقت فقط أكثر منها مقرا لعمل اجتماعى جماعى بأى شكل .

وينعكس هذا الموقف على ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل هنا وهى نسبة الفقراء بين المغتربين العرب فى غرب افريقيا . ان أكثر الاحصاءات التى سبق الاشارة اليها تشير الى عدد ١٠٠ ـ ٣٠٠ من رجال الأعمال مهما تنوعت مصادر الاحصاء . كما أن مسميات المحلات التجارية بقدر ما تشمل الصغير جدا منها لم تزد احصائيا عن ١٠٠٠ محل تجارى . فاذا ما كان تقدير الجالية يصل الى ٢٥ الف فى أقل حالاتها فى السنوات الأخيرة ، فانه يمكننا تصور وجود من ٥٠ ـ ٦٠٪ من أبناء الجالية الفقراء(٤٧) .

لقد قابلت الكثيرين ممن يذكرون انهم حضروا الى المنطقة منذ ثلاثين أو أربعين عاما وانهم بداء فى زيارة الوطن منذ سنوات فقط ، ومعنى ذلك أن الجالية تعيش ظروف المجتمع الافريقى الذى يعيش تمايزا طبقيا حازا هذه الفترة بأكثر مما يعيش ظروف الجالية الأوروبية التى تتمتع بالتفوق أو تغادر الاقليم . وان كان ذلك لا ينفى تسجيل ظاهرة الهجرة الواسعة للعناصر التجارية والمتعددة الى مواقع استثمارية جديدة فى منطقة غرب أفريقيا مشيرين الى ساحل العاج ، وهناك يسجل البعض أن الجالية اللبنانية والسورية اصبحت تزيد عن ١٥٠ الف نسمة وتشكل احدى أقوى عناصر التحكم فى الاقتصاد العاجى الراسمالى المحلى خاصة .

لقد أثر الجو المضطرب أمام الجالية اللبنانية السورية سواء فى الوطن الأم (لبنان) أو المهجر الى حالة جديدة من الاضطراب فى السلوك الاجتماعى قريبة الشبه تقره وصولهم من الاستعمار الأوروبى . ومعنى ذلك أنهم يعيشون ارتباطا محددا بظاهرة الاستعمار الجديد مثلما نداء مع الاستعمار التقليدى . وهذه هى المشكلة .

---

(٤٧) مقابلات لشخصيات لبنانية فى داكار (عائلات بورجى وحب الله ...) .

لقد توقع الكثيرون ان فترة ازدهار التعاون العربى الافريقى وضخامة المال العربى وموقع السنغال خاصة لدى دوائر هذا التعاون المالية (علاقتها بالسعودية) أن تشكل الجاليات العربية اداة انتقال بعض راس المال العربى الى المجتمع الافريقى ، الا ان سمعة الجاليات فى الاقتصاد المحلى من جهة وتبعية عمنية الاستثمار لدى الطرفين للسوق الأوروبية أساسا لم تسمح بتقدم فعلى فى هذا الاتجاه .

ومن ثم لم تستطع الجاليات العربية فى بلد كالسنغال أن تكون وسيطا لتحرير الاقتصاد الوطنى أو ارساء قواعد تعاون عربى أفريقى متحـــرر .

السياسة العربية تجاه الجاليات اللبنانية السورية :

لا يسعنى هنا معالجة هذا الباب الكبير من الدراسة ولكننا نشير فقط الى بعض القضايا الأساسية بشأن هذه السياسات كأبواب جديدة للدراسة.

وذلك على النحو التالى :

١ — ان سجلات جامعة الدول العربية لا تسجل عناية خاصة بقضية المغتربين العرب فى أفريقيا الا فى اضيق الحدود وفى السنوات الأخـــيرة فقط (١٩٧٩) بما يشير الى اقترانها بظواهر نمو التعاون العربى الافريقى والرغبة فى استثمار هذه الجاليات لصالح تطويره أحيانا .

لكننا سنلاحظ هنا انها لا تذكر الا فى مقررات اجتماعات وزراء الاعلام العرب وضمن المطالبة بالاستفادة من وجود الجاليات العربية لخدمة القضايا القومية .

وهو منطلق تضرب جذوره فى استثمار الجاليات العربية بالولايات المتحدة بدعوى مقابلة « اللوبى الصهيونى » هناك . وهو تصور لايصدر عن اية معرفة بالواقع الافريقى ووضع الجاليات السلبى فيه .

٢ — ان ثمة ميل يلاحظه الباحث والمراقب لدى كل من ســـوريا ولبنان لعدم السماح بمعالجة الدول العربية الأخرى لهذا الموضوع حتى لا تحدث « تدخلات » أخرى من غير الدول المعنية بالقضية خاصة وانها تتخذ

لدى البعض شكلا حزبيا بتوجهات معنية تحرص على عدم مناقشتها أو شكلا استثماريا لدى البعض الآخر . وقد زاد ذلك من قطرية معالجة موضوع الجاليات .

٣ — ان ثمة محاولة منذ منتصف الستينات يقودها المارونيون اللبنانيون لتأكيد وجود الجامعة اللبنانية الثقافية العالمية كحركة جامعة اللبنانيين المغتربين الى جانب عنايتهم الخاصة بهذا الموضوع لاستثمار أموال اللبنانيين فى الولايات المتحدة وبالأخص فى أمريكا اللاتينية (تسمية وزارة الخارجية بوزارة المغتربين أيضا) . ويسجل لبنانيو افريقيا غياب هذه الجامعة عنهم أساسا (حيث يلمحون الى أن أغلبهم شيعيون ومن ثم لم تمتد اليهم نشاطات « الجامعة اللبنانية العالمية » الا فى السنوات الأخيرة .

وحين وصل هذا النشاط افريقيا من قبل المارونيين ، كانت الحركة الشيعية فى لبنان قد قويت أيضا بعد نجاح الثورة الايرانية وتوجهاتها الاسلامية الشيعية الواضحة مما بات سندا نسبيا للجاليات اللبنانية الشيعية فى غرب افريقيا .

وخلال هذه الحركة المترددة على المستوى القومى والقطرى تجاه اللبنانيين والسوريين عقدت عشرات المؤتمرات ، واستثمرت موضوعهم عشرات القوى وخاصة فى لبنان حاليا حيث تمول هذه الجاليات العديد من الحركات الطائفية القائمة فى لبنان . ولذا نقول انه جدير بدراسة شاملة وامبيريقية فى نفس الوقت .

العــرب والتفرقة العنصرية فى افريقيــا

الدكتورة/ سلوى محمد لبيب

مقـــــــدمة :

فى هذا البحث « العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا » ســوف أتناول الموضوع من عدة جوانب أعتقد انها تمثل أهمية بالنســـبة لكل من العرب والأفارقة ، وسوف أركز فى هذا البحث على الجوانب السياسية من الموضوع أما النواحى التاريخية فان أساتذة التاريخ قد عالجوا هذا الموضوع من كافة جوانبه .

وسوف يتناول البحث النقاط التالية :

ــ تعريف التفرقة العنصرية حيث أن لهذا المسمى الكثير من المفاهيم والتعريفات المختلفة ، كما ان التفرقة العنصرية تأخذ فى أفريقيا أشــكال متعددة تبدأ من التفرقة بين الأفارقة بعضهم البعض بشكل مستتر كما يحدث فى كلا من ليبيريا وروواندا وبورندى مثلا ، وتنتهى بسياسة « الابارتهيد » المطبقة الآن فى جمهورية جنوب افريقيا وهى عبارة عن تقنين للتفـــرقة العنصرية والنص عليها فى دستور الدولة .

وفى نفس الجزء سوف أتناول المعنى المقصود « بالعرب » فان كلمة « عرب » تحمل فى طياتها الكثير من المعانى وتحتاج الى تحديد لمعالجـــة الموضوع بطريقة علمية سليمة . فهل المقصود بالعرب هنا القبائل العربية التى دخلت القارة الافريقية للتجارة أم الدول العربية ؟ ايضا هناك دول عربية أفريقية وأخرى عربية فقط وحتى هذه فان الاراء تختلف بالنسبة لها كما هو الحال بالنسبة للصومال مثلا . أم هل المقصود بالعرب الأقليـــات العربية الموجودة فى القارة الافريقية ؟ كل هذا سوف يكون محل دراسة فى هذا الجزء من البحث .

ــ بعد الوصول الى تعريفات ومفاهيم محددة فى الجزء الأول سأنتقل

فى هذا الجزء الى دراسة المواقف العربية تجاه التفرقة العنصرية فى افريقيا، وهذه المواقف بدورها تنقسم الى مواقف جماعية وأخرى فردية . ففى حالة المواقف الجماعية سوف أتناول موقف الدول العربية من التفرقة العنصرية منذ انشاء التنظيمات الدولية بدءا من عصبة الأمم والأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية الى جانب التنظيمات الدولية الأخرى مثل مؤتمرات عدم الانحياز والتعاون الافرو اسيوى والمؤتمرات الاسلامية وغيرها من التنظيمات الدولية العديدة .

وهنا سيتم الربط بين مواقف العرب من التفرقة العنصرية فى افريقيا وكيف ارتبطت هذه المواقف ارتباطا وثيقا بالتفرقة العنصرية فى اسرائيل ، بحيث أصدرت الامم المتحدة مرة قرار يدين كل من التفرقة العنصرية فى اسرائيل وفى جمهورية جنوب افريقيا على حدا سواء ، وفى هذا الجزء سوف تكون المواقف هى مواقف للدول لأن الممثل فى التنظيمات الدولية هى الدول العربية أو الشعوب العربية عن طريق دولها .

أما بالنسبة للمواقف الفردية نمما لا شك فيه أن هناك دول عربية كان لها مواقف مميزة بالنسبة للتفرقة العنصرية بكافة مظاهرها فى القارة الافريقية ، ويمكن ذكر مصر وهى دولة عربية أفريقية والجزائر ثم المملكة العربية السعودية التى كان لها دورا هام فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية ، الى جانب دولة اخرى تثير مجالا للساؤلات وحقلا خصبا للمناقشات وهى السودان . فالسودان دولة عربية تتهم بممارسة التفرقة العنصرية داخل افريقيا ، ولها فى نفس الوقت مواقف لا يمكن انكارها فيما يتعلق بمحاربة التفرقة العنصرية . أى ان المواقف الفردية للدول العربية لا يمكن الأخذ بها كقضية سلم بها انما هى مثار نقاش وحوار سوف أحاول أن أقوم بتحليله فى هذا الجزء من الدراسة .

وبعد ذلك سوف أنتقل الى معالجة نقطة مبنية على التركيبات الثقافية والحضارية والفكرية اكثر منها على الوقائع السياسية وحقائق العلاقات الدولية . فهناك ارتباط مباشر بين العرب والاسلام وهناك جدل فكرى قوى حول الاسلام من التفرقة العنصرية بدءا من موقف العرب والاسلام بالنسبة للرق والرقيق ونهاية بالمواقف الفكرية والثقافية التى تدور الآن بين الدول العربية والدول الافريقية . ولعل قرارات المؤتمر الاسلامى الأخير

الذى عقد فى الكويت فى يناير ١٩٨٧ والقرار الذى اتخذه بشأن تأييد دول المواجهة التى تقود حرب الكفاح ضد ما يحدث فى جمهورية جنوب افريقيا وهو صورة مسافرة التفرتة العنصرية هو احد المؤشرات لمدى الاهتمام الاسلامى بقضايا التفرقة العنصرية ككل .

وفى هذا الجزء أيضا سوف أعرض للاتجاهات الفكرية السائدة فى الدول الافريقية أو بمعنى أدق فى الفكر الافريقى . هذا الفكر الذى ينعكس فى كتابات المفكرين والساسة الأفارقة وعن رأيهم فى الاسلام والعرب والتفرقة العنصرية وهى قضية على قدر كبير من الحساسية ، ولكن من الضرورى أن تواجه وأن تقيم على أسس موضوعية سليمة حتى يمكن التوصل الى فهم مشترك بين الفكر الافريقى والفكر العربى ، بدلا من الاستمرار فى محاولة شرح المواقف العربية دون تفهم لرد الفعل الافريقى وخاصة رد فعل المثقفين وتوجهاتهم الفكرية التى لها أثر واضح فى العلاقات العربية الافريقية ككل .

— وفى النهاية سوف أحاول أن أصل فى ختام هذه الدراسة الى نتائج محددة حول العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا . هل كانت هناك ءسلا مواقف عربية فعالة فى مواجهة التفرقة العنصرية ؟

هل كان العرب أحد أسباب وجود التفرقة العنصرية بشكل أو باخر فى القارة الافريقية أم كانوا عامل من عوامل القضاء عليها ؟ وهل هناك اختلاف بين مواقف الدول العربية الجماعية ومواقفها الفردية أم أن هناك تشابه وتناسق فيما بينهما ؟ وفى النهاية هل أدت المواقف العربية تجاه التفرقة العنصرية فى افريقيا الى زيادة التعاون العربى الافريقى أم أن تأثيرها كان بالسلب ؟

أولا — التفرقة العنصرية :

لا شك أن التميز العنصرى لم يكن وليد العصور الحديثة فقد وجد بين كثير من المجتمعات القديمة ولا يزال يتفاقم فى المجتمعات الحديثة . والتميز يوجد بين أشد المجتمعات بدائية وأكثرها تطورا . وظاهرة التميز العنصرى تتفاوت من حيث الممارسة بين مجتمع وآخر كما أنها تختلف من فترة تاريخية

الى اخرى . وبالرغم من أن الاغريق عرفوا النظام الطبقى اذ كان المجتمع ينقسم الى طبقة من الأسياد واخرى من العبيد ، كما أن الاغريق نظروا[1] الى الشعوب والأجناس الأخرى على أنهم برابرة ، الا ان التميز العنصرى كما نعرفه اليوم بدأ فى القرن الخامس عشر . فان البداية الحقيقية للعنصرية وافقت حركة الاستكشاف الجغرافية وبداية استعمار افريقيا وظهر التميز العنصرى القائم على اساس اختلاف لون البشرة الى جانب الواقع الاقتصادى . وقد تزايدت الاتجاهات العنصرية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الى درجة ان اصبحت مذهبا له اتباعه ومناصروه(٢) .

فبالرغم من انتشار مبادىء وافكار الثورتين الفرنسية والامريكية وكذلك الحملة ضد العبودية فى بريطانيا . الا أن حدة الفكر العنصرى تزايدت بعكس كل التوقعات(٣) . وساعد على ذلك بطريقة مباشرة التطور الصناعى الذى حدث فى أوروبا والولايات المتحدة والذى أدى الى انتشار المغازل الميكانيكية وزيادة الحاجة الى اليد العاملة فى جعل الرق الذى كان فى دور الاضمحلال شرط اساسى للازدهار الاقتصادى فى الدول الأوربية والولايات المتحدة(٤) . وظهرت كتابات عديدة بين المفكرين ساعدت على نشر العنصرية وصبغها بالصبغة العلمية من هذه الكتابات والنظريات ، نظرية داروين فى التطور(٥) وفكرة البقاء للاصلح . حيث تلقنها البيض ليجعلوا منها مبررا لسياسة التوسع على حساب الشعوب غير البيضاء وذلك على اساس خلقهم لنظرية استندت الى نظرية داروين وأطلقوا عليها « النظرية الاجتماعية الدارونية » وهى تنادى بالانتقاء الاجتماعى كمقابل لمبدأ الاختيار عند داروين(٦) كذلك ظهر

---

(١)

(٢) جوان كوماس – الخرافات العرقية فى كتاب العرقين وآراء العلم، ترجمة انطران بطرس خورى – دار الثقافة بيروت ، ص ١٢–١٤ .

(٣) لم تكن مبادىء الثورة الفرنسية أو الامريكية ذات تأثير قوى الا بالنسبة للرجل الأبيض .

(٤) كوماس ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٥) تشارلز داروين . أصل الأنواع ، ترجمة أحمد مظهر ، مراجعة در حليم لنقر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٩٤ ، ج ١ .

(٦) د. يسرى عبد الرزاق الجوهرى – السلالات البشرية ، بيرار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ . ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

مذهب « تفوق العرق الآرى » التى قامت على أساس وجود فوارق طبيعية بين الساميين والآريين من حيث الجوهر والجسم والذهن وقد أرسى الأساس لهذه القارة العالمان « كوبينو وريتان » اللذان وضعا « نظرية الاعراق »(٧) .

وقد اختلف الكتاب فيما بعد على تعريف العرق فنجد أن التعاريف تختلف من مفكر الى آخر فهناك من يعرف العرق بأنه « مجموعة بشرية تختلف اختلافا بينا عن المجموعات الأخرى بسبب وجود اختلافات بيولوجية واضحة »(٨) ، وهناك من يعرفها بأن « الأعراق البشرية هى مجموعات بشرية تختلف لأسباب بيولوجية معينة ولكنها قابلة للتبادل بالرغم من الحواجز الجغرافية »(٩) .. وتعريف آخر « ان الجماعة العرقية هى واحدة من المجموعات البشرية التى تحافظ على خصائص فردية بيولوجية وحضارية عن طريق العزل الجغرافى والاجتماعى »(١٠) .

وقد كانت هذه النظريات الأساس الذى انطلقت منه العنصرية فى الفكر الحديث على أساس تفوق عرق أو جنس على جنس آخر واستباحت لنفسها حرية سيطرة الاجناس على بعضها وخاصة الجنس الأبيض على الجنس الاسود والملون على اساس وجود أعراق « راقية » وأخرى « منحطة » وأن هناك سلالات قادرة وأخرى عاجزة عن تحقيق التطور الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . وقد استغل الأوروبيين هذه النظريات منطلقين من الأساس العنصرى بأن المستعمر الأبيض ذو عقلية فذة سامية على نقيض الاسود والملون الذى اعتبر ذا عقلية « منحطة » . ولقد قامت ظاهرة الاضطهاد الحضارى على هذا الأساس .

ومما يذكر أن اليونسكو قد قامت منذ عام ١٩٥٠ برعاية بحث يختص بالحقائق العلمية عن « العرق » بهدف استئصال العنصرية وسعت لنشر

---

(٧) كوماس ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠ .

(8) Boyd, W., Gentiecs and the race of man, Boston U. S. A. p. 207.

(9) Dabzhansky, T., on species and races of living and Fossilman Anthrop. 1944, p. 265.

(10) Mantagu, A, Discussion and criticizm on the Race concept, current Anthropolgy 1904, vo. 5, p. 317.

تلك الحقائق على اوسع نطاق ممكن وقد نشر بيان عام ١٩٥١ أدان بكل وضوح الفكرة القائلة بوجود فردية أساسية فى الأنواع البشرية بسبب العرق واشار الى ضرورة التميز بين الحقيقة البيولوجية للعرق وخرافة العرق التى وصفها بأنها ظاهرة اجتماعية خطيرة(١١) . كما صدرت مجموعة من المطبوعات والدراسات اهمها مسألة العرق فى العصر الحديث (١٩٥٦)، والعرق والعلم والمجتمع (١٩٧٥) وسلسلة من كتاب بعنوان مسألة العرق والفكر الحديث . كما عقد اجتماعا على مستوى الخبراء فى موسكو عام ١٩٦٤ وآخر فى ١٩٦٧ . كما دعى المؤتمر العام لليونسكو عام ١٩٧٢ الى اعداد مشروع اعلان خاص بالعرق والتفرض العرقى و يقدم مجموعة مبادىء يمكن أن يطبق عالميا وقد اعد البيان فعلا فى عام ١٩٧٧(١٢) .

والعنصرية اليوم تفهم فى ضوء القانون الدولى على أسس مختلفة وليس على أساس المعنى البيولوجى الوراثى القديم فالعنصرية تقوم على أى من الأسس الخمس التالية ، العرق ، اللون ، النسل ، الأصل القومى والأصل العرقى ، اى أن اى تمييز يستند الى أى من هذه الأسس يعتبر من وجهة نظر القانون الدولى تمييزا عنصريا(١٣) .

فالعنصرية اذا هى اضفاء مميزات على مجموعة من الأفراد بزعم انها تنتمى الى عرق محدد أو أصل معين ، وان تلك الصفات أو المميزات لا تتمتع بها الجماعات أو الاعراق الأخرى سواء التى تعيش على نفس الاقليم أو الدولة أو سواها ، وما يترتب على ذلك أن تتمتع الفئة الأولى بكل المزايا والحقوق وأن تنتقص أو تهدد الحقوق والحريات للجماعات الأخرى(١٤) . والى جانب أن العنصرية هى مشكلة اجتماعية الا انها مشكلة اقتصادية وسياسية فى آن واحد .

---

(11) UNESCO. The concept of Race, Results of on Inguiry. 1961. p. 89-90.

(١٢) الأمم المتحده وحقوق الانسان . مطبوعات الامم المتحدة ، نيويورك ١٩٧٨ ، ص ١٩٢ — ١٨٣ .

(١٣) المادة الأولى من اعلان الامم المتحدة للقضاء على كافة اشكال التميز العنصرى ، والمادة الأولى الفقرة (١) من الاتفاقية الدولية للقضاء على كافة اشكال التميز العنصرى .

(14) Green, L. : Human Rights and colour discrimination, pp. 422-426 .

وقد اهتمت المواثيق الدولية بمشكلة العنصرية هذه منذ عام ١٧٤٨ وذلك فى معاهدة وستفاليا التى أنهت حرب الثلاثين عاما ، وهى تعتبر أول معاهدة فى العصر الحديث تتناول حقوق الانسان حيث نص فيها على حرية ممارسة العبادات المختلفة داخل اقليم البلدان الموقعة على الاتفاقية (١٥) . ثم جاءت بعد ذلك معاهدة فينا المعقود فى عام ١٨١٥ لتخطو خطوة مهمة حيث حرمت تجارة الرقيق الاسود وضمنت حرية ممارسة الأديان(١٦) . وقد جاءت معاهدة برلين عام ١٨٧٨ مؤكدة لنصوص اتفاقية فينا وقد طبقت بتوسع فى أعقاب الحرب العالمية الأولى واصبح قبول شروط هذه المعاهدة شرطا اساسيا للاعتراف بالدول الجديدة . وقد توالى الاهتمام بعد ذلك بمشكلة التفرقة العنصرية سواء فى ظل عصبة الأمم أو فى ظل الأمم المتحدة . وقد تم تعريف التميز العنصرى فى الاتفاقية الدولية لازالة كافة اشكال التميز العنصرى والتى أنشأت طبقا لقرار ١٠٦ ود — ١٨ ، الصادر فى عام ١٩٦٣، عرفت الاتفاقية التميز العنصرى بأنه « كل تميز أو استعباد أو تحديد أو تفضيل يقوم على العنصر أو اللون أو الأصل أو الانتماء القومى أو العرقى لا تكون نتيجة المباشرة أوغير المباشرة التعرض او المساس بحقوق الانسان المعروفة والحريات الأساسية التى لا غنى عنها لأى انسان فى الحياة أو التمتع بهذه الحقوق أو ممارستها على نحو وفى ظروف تكفل المساواة الانسانية فى الميادين المنصوص عليها فى المادة الخامسة من هذه الاتفاقية وهى على سبيل المثال لا الحصر : الميدان السياسى ، الاقتصادى ، الاجتماعى ، الثقافى ، أو فى اى ميدان آخر من ميادين الحياة العامة » .

والتفرقة العنصرية تاخذ أشكالا متعددة فى مجال التطبيق تختلف من مكان الى آخر حسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فهناك التحيز العنصرى والتميز العنصرى والفصل العنصرى وأخيرا هناك الابارتهيد والتميز العنصرى أكثر عمقا من التحيز العنصرى ويمارس فعلا فى مجال التطبيق أما الفصل العنصرى فهو أكثر عمقا من التميز العنصرى

---

(١٥) د. الشافعى محمد بشير أزمة حقوق الانسان فى جنوب أفريقيا — مجلة القانون والاقتصاد . العدد ٣ ، ١٩٦٩ القاهرة ، ص ٦٧٨ .

(١٦) د. عز الدين فودة ، الضمانات الدولية لحقوق الانسان ، المجلة المصرية للقانون الدولى — المجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ ، ص ٨١ .

وأخيرا هناك الابارتهيد وهى سياسة الفصل العنصرى المقننة والمطبقة فعلا فى جمهورية جنوب افريقيا والتى نص عليها الدستور .

وفى معالجتنا للتفرقة العنصرية فى هذه الدراسة سوف اقصر البحث على سياسة التفرقة العنصرية التى تمارس فى جمهورية جنوب افريقيا والتى تمثل مشكلة عالمية واقليمية على جانب كبير من الخطــورة . حيث أنه من الصعوبة بمكان أن أتعرض للتفرقة العنصرية بمفهومها الواسع أو كمــا عرفتها المواثيق الدولية . لأن التفرقة العنصرية بهذه الصورة تمارس بشكل أو باخر فى معظم الدول الافريقية ان لم يكن كلها مما يمثل مشكلة أمــام الباحث . فمن المعروف أن معظم الدول الافريقية تعانى بحـــكم تركيبها الاجتماعى والسياسى من وجود مجموعات فى داخلها سواء من الأفارقة او غير الأفارقة لا تمارس حقوقها كاملة وتتعرض بشكل أو باخر لنوع من أنواع التمييز القائمة على أساس العرق ، اللون ، النسب ، الأصل القومى والأصل العرقى واحيانا على أساس الدين أو الجنس . ولذلك سوف اقتصر هنا على التفرقة العنصرية والنظم العنصرية الموجودة فى جمهورية جنوب افريقيا على وجه الخصوص وخاصة أن هذه مشكلة عالمية شديدة التعقيد ، ويكفى معرفة أن جنوب افريقيا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تعلن صراحة عـــدم المساواة بين رعاياها ، وقد تم ذلك لأول مرة فى بيان الحزب الوطنى عند دخوله الانتخابات فى جنوب افريقيا فى عام ١٩٤٧ فقد أعلن الحــزب فى اعترافه انتهاج سياسة « الابارتهيد » التى أصبحت فيما بعد سياسة الحزب والدولة معا . وقد شرح بيان الحزب (الابارتهيد) على انها سياسة تقوم على أساس من صيانة وحفظ شخصية الشعوب المحلية كجماعات للسكان البيض فى البلاد وصيانة وحفظ شخصية الشعوب المحلية كجماعات عنصرية منفصلة . وبذلك اصبحت جنوب افريقيا هى الدول الوحيدة فى العالم التى تعلن صراحة عدم المساواة بين رعاياها ولا تعترف بأى وثيقة دولية خاصة بحماية حقوق الانسان ابتداء من الاعلان العالمى لحقوق الانسان الصادر فى ١٠ مارس عام ١٩٤٨ الى المعاهدة الدولية لمنع جريمة الفصل العنصـــرى والمعاقبة عليها التى أقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٣٠ نوفمبر١٩٧٣ . وقد أصدرت حكومة الحزب الوطنى منذ توليها السلطة فى جنوب افريقيا فى عام ١٩٤٨ مجمــوعة كبيرة من القـــوانين والتشريعات التى جعلت « الابارتهيد » سياسة مقننة وأصدر البرلمان مئات من القوانين ، وصدرت

فى ظل تلك القوانين آلاف من التعليمات والاعلانات والاخطارات الحكومية التى حكمت الحياة اليومية لأكثر من أربعة أخماس مجموع سكان جنـوب افريقيا ، اى الخمسة عشر مليون شخص غير البيض . وقد أثارت تصرفات حكومة جنوب افريقيا مشاعر الراى العام العالمى على نحو لم يعرف له مثيل تجاه اى قضية انسانية اخرى .

ثانيا ــ العــرب :

الواقع أن مدلول كلمة « العرب » تطور خلال العصور وخاصة فى العصور الوسطى فكان يقصد به قبل الاسلام سكان الجزيرة العربية ، وفى صدر الاسلام وطوال العصر الأموى استعمل لفظ « عرب » للدلالة على المسلمين ابناء الجزيرة العربية تمييزا لهم عن سكان البلاد الذى امتد اليها الاسلام . ولكن منذ القرن التاسع الميلادى اندمج ابناء الجزيرة مع بقيـة السكان وظهرت حضارة خاصة أمدها الاسلام بأهم طاقاتها واسهم فيها كل أبناء الدول الاسلامية عن عرب وفرس وأتراك وشارك فيها المسلمون وغير المسلمين وأصبحت اللغة العربية هى اللغة الغالبة واكتب كلمة « عرب » معنى ثقافيا وحضاريا فأصبحت تدل على سكان الوطن العربى الذين يمتدون فى اللغة العربية والتاريخ والثقافة العربية بصرف النظـــر عن دينهم أو أصلهم(١٧) .

وفى الواقع أن كلمات « عرب » و« أفارقة » و« اســلام » من المصطلحات التى يكثر تداولها فى دراسة العلاقات العربية الافريقية وان كان استعمال كثير من هذه المصطلحات يشوبه غموض كثير مما يؤدى أحيانا الى خلط فى المفاهيم . وقد ساعد ذلك على اذكاء المفهوم العنصرى الذى يفترض أن العرب ساميون والأفارقة حاميون وان كان هذا الافتراض غير صحيح فان العرب اليوم يرجعون الى سلالات بشريةمتعددة واجناس شتى، كما أن افريقيا القارة قد عرفت العرب منذ عهد قديم وتفاعلت العنـاصر البشرية فى جزيرة العرب وافريقيا الجغرافية قبل الاسلام وبعده وامتزجت دماء هذه العناصر بصورة يصعب فى كثير من الأحوال التميز بين من كان

---

(١٧) د. محمد محمد أمين ــ تطور العلاقات العربية الافريقيـة فى العصور الوسطى فى كتاب العلاقات العربية الافريقية ، استاذ د. خيرى عيسى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٣٢ .

أصله ساميا عمن كان أصله حاميا . ولذلك فان محاولة اعطاء العروبة مفهوما عرقيا هو مفهوم خاطىء قد يؤدى الى فصل البلدان الافريقية عن العروبة باثارة المفهوم العرقى وذلك بربط استعمال اللغة العربية بخط عرقى موهوم .

وتتضح هذه الحقيقة بجلاء اذا نظرنا الى المحاولات التى قام بها الكتاب الاوربيين الذين حاولوا رسم خطا فاصلا بين افريقيا السوداء وأفريقيا العربية ، فمثلا الباحث الانثروبولوجى « سلجمان » يمد هذا الخط من مصب السنغال فى غرب افريقيا ويلتزم مجرى النهر الى نحو منتصفه ثم يتجه الخط شرقا الى منحنى النيجر الى الجنوب من بلدة تمبكتو ثم الى بحيرة تشاد ثم شرقا حتى يصل الى مجرى بحر العرب ، وعندما يقترب الخط من جبال النوبا يتجه نحو الشمال ويدور حول النيل الأبيض ثم يمتد عبر الجزيرة فى اتجاه غربى شرقى حتى يبلغ سفوح هضبة الحبشة ثم يتحه نحو الجنوب حتى يصل الى المحيط الهندى . أما « ورذنجتون » فقد وضع الحد بين افريقيا السوداء وافريقيا العربية بخط يبدأ شمال مصب السنغال ويمتد الى الشرق بحيث يضم ثنيه النيجر ولكنه يقسم جمهوريات موريتانيا ومالى والنيجر وتشاد الى قسمين الشمال يتبع افريقيا العربية والجنوب يتبع افريقيا السوداء ، وينتهى هذا الخط عند التقائه بحدود السودان الغربية عند دارفور يتتبع الحد السياسى لجمهورية السودان ويدور جنوبا حول السودان واثيوبيا وكينيا حتى ينتهى الى المحيط الهندى ، أما « جورج كمبل » فهو يسير مع خط « ورذنجتون » الى أن يفترق عند السودان حيث يضم « كمبل » السودان داخل افريقية عند العربية(١٨) .

ومن الملاحظ أن هذه الخطوط والتقسيمات تختلف مع بعضها البعض كما أنها ليست فاصلة بأى حال بين افريقيا العربية وأفريقيا السوداء . فالعروبة ليست لها ارتباطات سلالية تجمع بين افرادها او تقتصر على سلالة معينة ، وانما هى رباط لغوى ثقافى حضارى يجمع بين الالوان والأجناس . وكما أن العروبة ليست سوى رباط حضارى لغوى ثقافى ، كذلك فان

---

(١٨) د. محمد عبد الغنى سعودى : العروبة والافريقية مواجهة أم تضامن ؟ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

الافريقية ليست رباطا سلاليا انما هى رباط جغرافى ، حضاريا سياسيا بصرف النظر عن اللغة والدين والسلالة(١٩) .

ومن النقاط التى يجب الاشارة اليها قضية ربط العروبة بالاسلام فى افريقيا ومما لا شك فيه أن هناك ارتباط قوى بين الاسلام والعروبة بحيث يصعب الفصل بينهما ولكن من غير المقبول أن يحاول الكتاب أن يخصصوا هذا بالنسبة للقارة الافريقية فقط اى أن يفهم أن الربط بين الاسلام والعروبة قاصر على افريقيا وان هناك مفهوما مخالفا لهذه الصيغة بحيث يصبح الفصل بين الاسلام والعربية فى غير افريقيا امر ممكن . فى حين أن الفصل بين العربية والاسلام غير ممكن حتى فى البلدان العربية اللسان ذلك لأن التاريخ يتقلص الى أدنى الحدود اذا اقتطعنا فيه الفترات المتعلقة بتاريخ الاسلام فى بلاد العرب كما أن أداة الاسلام فى التبليغ كانت اللغة العربية أساسا . ومن الخطورة بمكان اعطاء الاسلام مفهوما دينيا ضيقا متعصبا بل المفهوم الحضارى الواسع بحيث يمكن اثارة نعرات الاقليات غير المسلمة فى البلدان العربية .

وبالرغم من الخلافات التى تدور حول تعريف العروبة والافريقية فمن المؤكد انه ليست هناك أفريقيا بدون مسلمين أو بدون عرب وأنه يجب تعريف المفهوم الحضارى لهذه المسميات ومن الصواب القول بأن للعرب وجودا ذاتيا مستقرا عن الأفارقة من حيث الثقافة فان هناك تطورا ثقافيا للشعوب الافريقية يخالف التطور الثقافى للعرب والاختلاف فى التطور الثقافى هذا لا يضر أبدا بالعلاقات العربية الافريقية ، وانما هو يحترم الذاتية الخاصة للافارقة وللعرب ويساعد على ابراز قوة الترابط الحضارى منذ القدم بين العرب والافارقة . ولن تكون هناك أفريقيا بدون عرب فالعرب يشكلون ما يقارب من ثلثى سكان القارة ، كما أن الأرض العربية فى أفريقيا تزيد على نصف مساحة القارة .

وفى هذه الدراسة ولتسهيل مهمة الباحث فسوف أتناول العرب على

---

(١٩) لتفاصيل أكثر :

Hazem zaki Nusibeh. the Ideas of Arab Nationalism, N. Y. Carnnil university press, 1959.

أنهم الدول العربية الأعضاء فى جامعة الدول العربية ومن المعروف أن شرط « العروبة » بقبول دولة عربية عضوا فى الجامعة العربية والمنصوص عليه فى المادة الأولى من ميثاق جامعة الدول العربية لم يعرف بصراحة فى الميثاق وانما عرف بعد ذلك من قبل اللجان التحضيرية ونص على أن الدولة العربية هى الدولة التى تكون اللغة العربية فيها هى اللغة « الرسميه » وبالرغم مما ثار من نقاش حول هذا الموضوع فان هذا التعريف هو التعريف المأخوذ به من قبل المشرع فى القانون الدولى ولذلك فان الحديث عن العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا سوف يكون أساسا بالنسبة للدول العربية .

ثالثا — العرب والتفرقة العنصرية فى الأمم المتحدة :

منذ أن وجدت المنظمة العالمية ووجدت الجمعية العامة للامم المتحدة وفى أولى دوراتها وهى فى مواجهة مشكلة التميز العنصرى . ففى عام ١٩٤٦ واثناء اجتماع الجمعية العامة ابرزت مسالة المعاملة التميزية التى تقوم بها حكومة جنوب افريقيا ضد مواطنى جنوب افريقيا الذين هم من أصل هندى . وقد تقدمت الهند بهذه الشكوى . وقد اتخذت الجمعية العامة قرارا أعربت فيه عن أن معاملة الهنود فى أنحاء جنوب افريقيا يجب أن تكون « متفقة مع الالتزامات الدولية التى تقضى بها الاتفاقيات المتعددة بين الحكومتين والنصوص ذات العلاقة فى ميثاق الأمم المتحدة(٢٠) وقد ناقشت الجمعية العامة هذا الموضوع فى الفترة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٢ واتخذت أربعة قرارات دعت فيها حكومتا الهند وباكستان وجنوب افريقيا لعقد اجتماع مائدة مستديرة لايجاد حل للمسالة فى موضوع البحث(٢١) وفى عام ١٩٥٢ ادرج فى جدول أعمال الجمعية العامة لدورتها السابقة بندا بعنوان « مسالة النزاع العنصرى فى جنوب افريقيا الناجم عن تطبيق سياسات التفرقة العنصرية « أبارتهيد » لحكومة جنوب افريقيا » وقد تم ذلك بناء على طلب تقدمت به ثلاثة عشر دولة عربية واسيوية من بينها مصر وتم تشكيل لجنة من ثلاثة أعضاء خاصة بالوضع العنصرى فى جنوب افريقيا(٢٢) وقامت اللجنة المشكلة فى الأعوام ١٩٥٣ و١٩٥٤ و١٩٥٥ بدراسة الأوضاع فى

---

(٢٠) القرار رقم ٤٤ الدورة الاولى للجمعية العامة .
(٢١) انظر القرارات رقم ٣٩٥ (د — ٥) ، ٥١١ (د — ٦) .
(٢٢) القرار رقم ٦١٦ ب (د — ٧) .

جنوب افريقيا التى رفضت التعاون معها بحجة أن هذا تدخل فى الشئون الداخلية لجمهورية جنوب افريقيا .

ومنذ عام ١٩٥٥ رفضت حكومة جنوب افريقيا المشاركة فى مناقشة هذه المسألة وقد واصلت الجمعية العامة توجيه نداءاتها من خلال قراراتها المتعددة ولكن دون جدوى(٢٣) .

وحتى عام ١٩٤٧ لم تكن هناك فى الأمم المتحدة سوى ١٥ دولة من أفريقيا وآسيا منها ست دول أعضاء فى جامعة الدول العربية وفى عام ١٩٥٥ وبعد انعقاد مؤتمر باندونج تكونت المجموعة العربية فى الأمم المتحدة، وهى من المجموعات القليلة التى عاصرت انشاء الأمم المتحدة وتعتبر المجموعة العربية هى النواة الأولى للمجموعة الاسيوية الافريقية وقد بدأت نشاطها الفعلى منذ مؤتمر سان فرانسسكو للامم المتحدة ولكن وجودها تبلور بعد عام ١٩٥٥ وقد أسهمت بتقديم عدة اقتراحات الى الجمعية العامة للامم المتحدة وفى المجموعة العربية يحاول الأعضاء الوصول الى اتفاق بشأن الموضوعات المعروضة عن طريق اتباع الرأى السائد فى المجموعة ولا يوجد التزام على أعضاء المجموعة لتطبيق ما تصل اليه المجموعة العربية فى الأمم المتحدة سوى الالتزام الأدبى(٢٤) . وقد كان لموقف الدول العربية أثره فى اصدار الجمعية العامة للامم المتحدة لقرارها رقم ١٧٦١ (١٧) بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٦٢ بشأن التفرقة العنصرية والتى دعت فيه الدول الأعضاء الى فرض عقوبات دبلوماسية واقتصادية على جنوب افريقيا وانشاء لجنة خاصة من اجل ملاحقة السياسة العنصرية لحكومة جنوب افريقيا ولكى تقوم بتقديم التقارير إلى الجمعية العامة أو مجلس الأمن أو الاثنين معا . وقد تم تقوية نطاق تفويض هذه اللجنة فى عام ١٩٧٠ لتشمل جميع جوانب سياسة الابارتهيد فى جنوب افريقيا ، وفى عام ١٩٧٤ تغير اسم اللجنة الى « اللجنة الخاصة ضد الابارتهيد » . وقد كان هناك تعاون وتساند بين الدول العربية

---

(٢٣) انظر القرارات ٧٢١ (د — ٨) ٨٢٠ (د — ٩) ٩١٧ (د — ١٠) ١٠١٦ (د — ١١) ١٧٨ (د — ١٢) ١٤٨ (د — ١٣) .

(٢٤) د. مصطفى عبد العزيز : التصويت والقوى السياسية فى الجمعية العامة للامم المتحدة — مركز الأبحاث — بيروت ، يناير ١٩٦٨ ، ص ٢٣٠ .

والافريقية منذ عام ١٩٦٢ فيما يتعلق بمشكلة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا(٢٥) . وقد صدر اعلان الامم المتحدة للقضاء على التميز العنصرى بكافة اشكاله فى عام ١٩٦٣ وقد تضمن هذا الاعلان أن اى أساس للتفرقة العنصرية او التفوق العرقى هو خاطىء علميا وانه لا يوجد اى مبرر نظرى أو علمى للتميز العنصرى(٢٦) . وفى عام ١٩٦٥ انشأت الجمعية العامة صندوق الوديعة لمساعدة ضحايا الفصل العنصرى واقامت وحدة خاصة فى سكرتارية الأمم المتحدة تعرف الآن بالمركز المناهض للفصل العنصرى . وفى عام ١٩٧٣ أقرت الجمعية العامة الاتفاقية الدولية بشأن قمع جريمة الفصل العنصرى، ومعاقبة مرتكبيها وعرضها للتوقيع عليها وناشدت جميع الدول أن تصادق عليها فى أسرع وقت ممكن . وقد قررت الاتفاقية فى مادتها الأولى أن الفصل العنصرى هو جريمة ضد الانسانية وأن الأفعال الناجمة عن سياسات وتطبيقات الفصل العنصرى وغيرها من سياسات وممارسات هى جرائم تتنافى مع القانون الدولى . وتلتزم الدول الأطراف فى الاتفاقية بأن تعلن تجريمها عن طريق التشريع أو اى طريق قانونى آخر للافراد والمنظمات والمؤسسات الذين يقومون بارتكاب جريمة الفصل العنصرى . وقد عرفت الاتفاقية فى المادة الثانية منها المقصود بعبارة جريمة الفصل العنصرى بأنها سياسات وممارسات التفرقة والتميز العنصرى كما هو مطبق فى افريقيا الجنوبية (جنوبيا أفريقيا — روديسيا سابقا — ناميبيا) وقد اقتصر هذا التعريف على أساس أنه ينص على سياسة الارباتهيد فى جنوب افريقيا نقط ولا يمتد الى النظام العنصرى الصهيونى فى فلسطين المحتلة مثلا .

وقد أصبحت هذه الاتفاقية نافذة المفعول فى ١٨ يوليو ١٩٨٦ وقد صدقت عليها ٥٨ دولة من بينها الدول العربية .

وقد تجلى الموقف العربى من التفرقة العنصرية فى افريقيا فى عام ١٩٧٤ فى الجمعية العامة فى التصويت لمنع جنوب افريقيا من حضور جلسات باقى دورة الجمعية التاسعة والعشرين والتى رأسها عبد العزيز

---

(25) David, A. K., The Impact of African states on the United Natons : International organisation : 1969. pp. 20-47.

(26) The Uinted Natians and Human Riqhts-salns-No. E781-18 1978. p. 87.

بوتفليقة وزير خارجية الجزائر(٢٧) . ومما يذكر أنه فى الدورة الثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة كان لاتحاد الدول العربية والافريقية أثره فى صدور قرار الجمعية العامة للامم المتحدة باعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية وهو أول قرار من المنظمة العالمية يدين السياسة الاسرائيلية ويوصمها بالعنصرية(٢٨) . وقد كان لاستعانة الدول الافريقية بأصوات الدول العربية الدور الأول فى اصدار قرار عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمعية العامة بوقف عنصرية جنوب أفريقيا فى الدورة التاسعة والعشرون بعد أن استخدمت أمريكا وفرنسا حق الفيتو فى مجلس الأمن لمنع المشروع الذى تقدمت به الدول الافريقية لطرد جنوب افريقيا من الجمعية العامة(٢٩) . وقد اعتبر هذا القرار تحولا فى تاريخ المنظمة العالمية يوضح مدى اهمية تكاتف الدول العربية والافريقية فى القضايا المشتركة للحصول على الأغلبية فى الجمعية العامة .

وفى عام ١٩٧٦ وعندما قام النظام العنصرى باعلان الاستقلال الزائف للترانسكاى والبانتوستان الأخرى فى ٢٦ أكتوبر ١٩٧٦ بادرت الجمعية العامة باتخاذ قرار أدانت فيه بشدة انشاء البانتوستانات باعتباره احراء يؤدى الى تدعيم سياسة الفصل العنصرى المحرمة والمدانة دوليا(٣٠) .

وكذلك قامت باستنكار أحداث سويتو والاعمال الوحشية التى اتخذت من قبل الشرطة فى جمهورية جنوب افريقيا . وقررت اعلان ٢١ مارس اليوم العالمى الخاص بالقضاء على التميز العنصرى . وقد التزمت الدول العربية بهذه القرارات واتخذت يوم ٢١ مارس كيوم عالمى للقضاء على التمييز العنصرى . وقد شاركت الدول العربية مشاركة فعالة فى اللجنة الخاصة بالتفرقة العنصرية والتى سبق الاشارة اليها ووقعت على النداء الذى صدر عن الحلقة الدراسية التى نظمتها اللجنة بالتعاون مع حكومة الجمهورية الديمقراطية الألمانية فى مدينة برلين فى الفترة من ٣١ أغسطس الى ٢ سبتمبر ١٩٩٨١ والذى أطلق عليه اعلان برلين والذى تضمن الكثير من

(27) Ali A. Mazrui, Black Africa and the Arabs. p. 22-25.
(28) U. N. A/c. 3/L. 2/59, 15 October 1975.
(29) Herald Trubion. London. 15/12/1974.
(٣٠) سلوى لبيب ــ الترانسكاى ــ السياسية الدولية .

الفقرات واهمها ضرورة تتبع المساندة التى تقدم الى النظام العنصرى عن طريق توريد الأسلحة والتكنولوجيا والمواد الحيوية الأخرى بما يتنافى مع قرارات الامم المتحدة أو أن يكونعام ١٩٨٢ هو عام التعبئة الدولية ضد الفصل العنصرى وكذلك ساهمت الدول العربية فى برنامج العمل الذى اعتمدته اللجنة الخاصة بمناهضة الفصل العنصرى فى جلستها (٥٣٠) المعقودة فى نيويورك فى ٢٥ اكتوبر ١٩٨٣ والذى تضمن بنودا خاصة بالعلاقات الدبلوماسية والقنصلية وغيرها من العلاقات الرسمية مع جمهورية جنوب افريقيا والتعاون العسكرى والنووى والخطر البترولى والتعاون الاقتصادى وشركات الخطوط الجوية والملاحة البحرية والتعاون الثقافى والتربوى والرياضى وغيره من اشكال التعاون مع جنوب افريقيا وتقديم المساعدة الى شعب جنوب افريقيا والى حركتى تحريره المعترف بهما من قبل منظمة الوحدة الافريقية والمطالبة بالافراج عن السجناء السياسيين ووضع حد للقمع .

وفى الوقت الذى كانت فيه السياسات العنصرية محل نظر الجمعية العامة منذ دورة انعقادها الأولى ، الا أن مجلس الأمن لم ينظر الموضوع الا بعد وقوع مجزرة شاربفيل فى جنوب افريقيا عام ١٩٦٠ . وعلى أثر ذلك طلبت ٢٦ دولة افريقية واسيوية عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن للنظر فى الموقف الذى يهدد السلم والأمن العالميين .

وفى عام ١٩٦٣ نظر مجلس الأمن مرة أخرى فى مسألة النزاع العنصرى بناء على طلب (٣٢) دولة أفريقية وصفت الحالة بأنها متفجرة . وقد أصدر مجلس الأمن قراره رقم (١٨١) والذى يتضمن :

(أ) يستنكر مجلس الأمن بشدة السياسات العنصرية لجنوب أفريقيا .

(ب) يطالب حكومة جنوب أفريقيا تنمية سياسات التفرقة العنصرية « أبارتهيد » واطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين .

(ج) مقاطعة بضائع جنوب افريقيا والامتناع عن تصدير المواد الاستراتيجيةذات القيمة العسكرية المباشرة لها .

(د) ايقاف بيع وشحن الأسلحة والذخائر من جميع الأنواع والمركبات العسكرية الى جنوب افريقيا .

ومما يذكر أن الفقرة (ج) لم تحصل على الأغلبيـــة المطلوبة بسبب اعتراض الولايات المتحدة عليها . وتكونت لجنة من الخبراء من ممثلى الفلبين وغانا والمغرب من أجل دراسة وسائل تسوية الوضع فى جنوب افريقيا وقد رفضت حكومة جنوب افريقيا أن تتعاون مع مجمـــوعة الخبراء المشـكلة ووصفت قرار المجلس بأنه محاولة لا مثيل لها للتدخل المتعمد .

وقد استأنف مجلس الأمن النظر فى الموقف الخطير فى جنـــوب افريقيا وذلك فى ٢٧ أبريل ١٩٦٤ وتقدم المغرب وساحل العاج بمشروع قرار الذى صدر بعد ذلك طالب فيه النظام العنصرى بأنهاء المحاكمات الجـــارية وفق القوانين العنصرية .

وفى الفترة من ١٩٦٥ الى ١٩٦٩ لم ينظر مجلس الامن فى مســـألة النزاع العنصرى فى الجنوب الافريقى ، ولكن فى عام ١٩٧٠ نظر مجلس الأمن فى موضوع التفرقة العنصرية واعتمد قرارا اكد فيه أن الحالة فى الجنوب الافريقى تشكل تهديدا جديا وخطيرا للسلم والأمن الدوليين ويؤكد من جديد قراراته التى أتخذها فى عامى ١٩٦٣ و١٩٦٤ .

وقد تقدمت بورندى وزامبيا وسوريا وسيراليون ونيبال بمشروع قرار ضد التفرقة العنصرية وصدر القرار بأغلبية ١٢ صوت مقابل لا شىء وامتناع أمريكا وفرنسا وبريطانيا عن التصويت(٣١) . وخلال السنوات من ١٩٧١ الى ١٩٧٥ لم ينظر مجلس الأمن فى هذا الموضوع ، علما بأن هناك بندا كان يدرج فى كل مرة ينعقد فيها للنظر فى مشكلة النزاع العنصرى . وعلى اثر مجزرة سويتو وأعمال القتل والعنف التى ارتكبها نظام الفصل العنصرى تقـــدمت العديد من الدول برسائل الى مجلس الأمن طالبة انعقاده للنظر فى الوضع المتفاقم وقد اتخذ المجلس قرارا ادان فيه بشدة أحداث سويتو . واستأنف المجلس النظر فى الموضوع عام ١٩٧٥ بناء على طلبات عديدة وبعد مناقشات طويلة قدمت أربع مشروعات قرارات تتضمن عقوبات طبقا للفصل السابع

(31) Un. Doc. S/12/00, U. N. Doc S./12101.

من الميثاق ، ولكن لم ير أى منها النور بسبب الفيتو الثلاثى (الامريكى — الفرنسى — البريطانى)(٣٢) .

من العرض السابق يتضح أن الأمم المتحدة واجهزتها المختلفة سواء الجمعية العامة او مجلس الأمن قد اهتمت وناقشت وأتخذت العديد من التوصيات والقرارات الخاصة بالفصل العنصرى فى الجنوب الافريقى . وأن هذه القرارات والتوصيات وان لم تكن على القدر المطلوب من الفاعلية الا أنها كانت ذات أثر لا ينكر فى ايقاظ الرأى العام والضمير العالمى . وكان لها أثر مباشر ايضا فى وضع النظم العنصرية فى عزلة عن المجتمع الدولى وكان لهذه العزلة أثرا فعالافى توجيهات هذه النظم وفى محاولاتها اليائسة لتعديل سياستها وان كانت التعديلات فى معظم الأحيان هى من حيث الشكل وليس من حيث الجوهر . وقد ساهمت الدول العربية مساهمة فعالة منذ عام ١٩٤٦ فى اتخاذ هذه القرارات والتوصيات وبدا واضحا مدى ثقل الأصوات العربية والافريقية فى الجمعيةالعامة وكذلك يلاحظ أن معظم مشاريع القرارات المقدمة الى مجلس الأمن كانت الدول العربية الافريقية (الجزائر) والدول العربية غير الافريقية (سوريا) (وذلك على سبيل المثال وليس الحصر) وبهذا فيمكن القول بأن الدول العربية لعبت دورا لا يمكن انكاره بالنسبة لقضية التفرقة العنصرية وذلك فى داخل التنظيم العالمى .

رابعا — الجامعة العربية والتفرقة العنصرية فى افريقيا :

قد اهتمت الجامعة العربية منذ انشائها بقضية التفرقة العنصرية وان كان مجال هذا الاهتمام قد اختلف بتطور القضية نفسها فى المجال العالمى فمع أن ميثاق جامعة الدول العربية قد سبق الاعلان العالمى لحقوق الانسان بثلاث سنوات الا أنه قد تضمن من النصوص ما يوافق تماما هذا الاعلان العالمى .

وبعد أن اثيرت القضية عالميا فى بداية الستينات وبعد مذبحة « شاربفيل » فى عام ١٩٦٠ ، بحث مجلس الجامعة العربية الذى عقد فى ابريل عام ١٩٦٠ قضية التميز العنصرى فى جنوب افريقيا واضطهاد الأقلية

---

(٣٢) وثائق الأمم المتحدة
U. N. Doc. S/12312, S/12311, S/1230.

للاغلبية الساحقة من اهل البلاد الوطنيين وما ترتب على ذلك من أحداث خطيرة تهدد الأمن فى المنطقة والسلام العالمى وما تؤدى اليه من اثارة اسباب العداوة والبغضاء بين البشرية . وانه بناء على قرارات الأمم المتحدة المتعاقبة منذ عام ١٩٤٦ بمعارضة سياسة حكومة اتحاد جنوب افريقيا ، وقرار مجلس الامن الذى صدر فى أول ابريل من عام ١٩٦٠ والتزاما بقرارات باندونج وسائر المؤتمرات الاسيوية والافريقية بشأن مناهضة سياسة التميز العنصرى ، فان مجلس الجامعة يشجب سياسة التميز العنصرى ويناشد الضمير العالمى العمل على وقف أعمال العنف الجارية هناك . ويدعو الى التعاون مع المجموعة الاسيوية الافريقية وسائر الدول المؤيدة لها لاتخاذ خطة مشتركة فى هذا الشأن مع الأمم المتحدة وهيئاتها ولجانها المختلفة وسائر المحافل الدولية وايضا مضاعفة الجهود وبشتى وسائل الاعلام لتبصير الراى العام العربى والعالمى بمواقف سياسة التميز العنصرى والدعوة الى التعاون الدولى للقضاء عليها دعما للسلام العالمى(٣٣) .

وعند الاعلان عن قيام جمهورية جنوب افريقيا فى عام ١٩٦١ اعترفت بها معظم دول العالم ، أصدر مجلس الجامعة العربية قراره بارجاء اعتراف الدول العربية بالجمهورية مادامت حكومتها لا تمثل الأغلبية العظمى من سكان البلاد وتنتهج سياسة التميز العنصرى(٣٤) .

وقد كان هذا القرار خطوة تستحق الاعجاب من جانب الجامعة العربية التى كانت تؤيد مواقف الدول الافريقية حديثة الاستقلال التى لم تكن قد كونت المنظمة الاقليمية الخاصة بها بعد كما اظهر هذا القرار مدى اهتمام الجامعة بمشاكل القارة الافريقية وربطها بقضايا الأمة العربية .

وفى عام ١٩٦٤ حدث تطور هام فى موقف الجامعة والدول العربية بالنسبة لسياسة التفرقة العنصرية . فقد تم الربط والمقارنة لأول مرة فى مجلس الجامعة وفى قرار رسمى بين التميز العنصرى وسيطرة الأقلية الأوروبية فى جنوب افريقيا وبين الاحتلال الصهيونى لفلسطين والتميز العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل واتخذته قاعدة لاعمالها العدوانية المتصلة

---

(٣٣) ق ١٦٥٩ / د. ٣٣ / ج ٢ — ١٩٦٠/٤/٩ .
(٣٤) ق ١٧٨٧/د ٣٦/ج٢ — ١٩٦١/٩/١٩ .

وربطت بين الكفاح الوطنى فى جنوب افريقيا والكفاح العربى فى فلسطين .

فقد ظلت جنوب افريقيا تستند الى الفقرة السابعة من المادة الثانية من الفصل الأول من ميثاق الأمم المتحدة ، والتى تنص على انه ليس فى الميثاق ما يسوغ للامم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما ، وليس فيه ما يتقضى الأعضاء أن يعرضوا مثل هذه المسائل لأن تخل بحكم الميثاق ، على ان هذا المبدأ لا يخل بتطبيق تدابير القمع الواردة فى الفصل السابع « ويختص الفصل السابع بما يتخذ من الأعمال فى حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان . ولابد قبل اتخاذ أية اجراءات من موافقة مجلس الأمن على أن الحالة المعروضة أمامه « تهديد للسلام » طبقا لنص المادة (٣٩) من الميثاق .

وبهذا يمكن تطبيق المواد ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ من الميثاق والتى تنص على اتخاذ التدابير السلمية أولا ثم اللجوء الى وسائل المقاطعة المختلفة واذا عجز المجلس عن طريق هاتين الوسيلتين لجأ الى استخدام القوة المسلحة التى تلزم لحفظ الأمن والسلم .

وقد ظل نشاط الأمم المتحدة حتى عام ١٩٦٣ قاصرا على « توصيات » صادرة من الجمعية العامة تقدم الى مجلس الأمن . وكان هذا نتيجة للتأثير الفعال للدول الغربية الضالعة مع جنوب افريقيا ولها معها روابط اقتصادية متشابكة . الى أن تغلب الرأى العا م العالمى عن طريق الدول الافريقية والاسيوية التى التحقت بالأمم المتحدة وأصبحت تمثل قوة عددية لا يستهان بها فى داخل الجمعية العامة وعلى هذا طلبت الجمعية العامة فى عام ١٩٦٢ من الدول الأعضاء تطبيق واتخاذ اجراءات سياسية واقتصادية ضد جنوب افريقيا(٣٥) وتكونت لجنة خاصة من احد عشر عضوا سميت « اللجنة الخاصة بسياسات الابارتهيد » لمتابعة الأسلحة والمعدات الحربية بكل أنواعها ووسائل النقل الحربى الى جنوب افريقيا بما فى ذلك المعدات والمواد اللازمة لصناعة وصيانة الأسلحة والمعدات هناك(٣٦) .

---

(٣٥) تقرير السكرتارية العامة للامم المتحدة (حلقة برازيليا ١٩٦٦).

(٣٦) قرار مجلس الامن رقم ١٨/ج/١٩٦٣ .

وقد أصدر مجلس الجامعة العربية على هذا الأســاس قراره فى سبتمبر عام ١٩٦٤ دعا فيه جميع الدول وبصفة خاصة التى مازالت لهــا علاقات دبلوماسية وقنصلية واقتصادية مع حكومة جنوب افريقيا أن تقطع هذه العلاقات وأن توقف أى صورة أخرى من صور تشجيع سياسة التفرقة العنصرية . كما أكد المجلس المسئولية الكبيرة للسلطات الاستعمارية التى تدير مناطق مجاورة لجنوبى افريقيا فى استمرار انتهاج سياسة التفــرقة العنصرية . وأدان المجلس التميز العنصرى فى جميع صوره فى افريقيا وفى جميع أنحاء العالم . كما طالب المجلس باطلاق سراح « نلسون مانديلا » وسائر القوميين المعتقلين او المسجونين بموجب القوانين التحكمية فى جنوب افريقيا . كما ناشد المجلس جميع البلاد المنتجة للبترول أن توقف كاجراء عاجل تمويلها بالزيت والمنتجات البترولية الى جنوب افريقيا .

ودعى جميع الدول الافريقية ان تطبق على الفور القرار الذى صدر فى اديس ابابا فى مايو ١٩٦٣ بمقاطعة بضائع جنوبى افريقيا ووقف تمويلها بالمعادن والمواد الخام الأخرى ووقف استيراد البضائع منها .

وقد امتثلت الدول العربية ومعظم الدول الافريقية ما عدا ملاوى — لهذا القرار وقطعت علاقاتها الدبلوماسية ومعظم العلاقات الاقتصــادية وأصبحت الدول التى لهــا تمثيل دبلوماسى مع جنوب افريقيا قلة من دول العالم(٣٧) لديها من المصالح المادية ما يجعلها تخاطر بالتعاون مع نظــام الحكم العنصرى فى بريتوريا .

وكنتيجة لضغط الدول العربية والافريقية وباقى دول العالم الثــالث اضطرت جنوب افريقيا الى الانسحاب من منظمة الأغذية والزراعة الدولية فى عام ١٩٦٣ ومن منظمة العمل الدولية ومنظمة الصحة العالمية فى عام ١٩٦٤ ومن اليونسكو فى عام ١٩٦٥ ، كما تم طرد جنوب افريقيا من عــدة

---

(٣٧) الولايات المتحدة — كندا — الارجنتين — البرازيل — بريطانيا — فرنسا — بلجيكا — هولندا — المانيا الغربية — ايطاليا — اليونان — أسبانيا — سويسرا — فنلندا — السويد — النمسا . كما احتفظت ملاوى بعلاقتها الدبلوماسية مع جنوب افريقيا وكذلك اسرائيل التى رفعت درجة تمثيلها الى درجة سفير فى مارس ١٩٧٤ .

مؤتمرات لاتحاد البريد العالمى واتحاد المواصلات السلكية واللاسلكية ومنظمة الطيران المدنى .

وفى مارس عام ١٩٦٧ أصدر مجلس الجامعة قرارا ضمنه ذكر قرارات وبيانات مؤتمرى القمة الثانى الذى انعقد فى الاسكندرية فى ٥ سبتمبر ١٩٦٤ والمؤتمر الثالث الذى عقد فى الدار البيضاء فى ٩ سبتمبر ١٩٦٥ والذى استنكر التفرقة العنصرية بكافة صورها وايد الكفاح ضدها . وأشار قرار المجلس الى أن الكفاح الوطنى فى جنوب افريقيا ضد التمييز العنصرى وسيطرة الأقلية الأوروبية على الشعب مطابق فى دواعيه وأهدافه للكفاح العربى ضد الاحتلال الصهيونى لفلسطين والتمييز العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل واتخذت منه قاعدة لاعمالها العدوانية . كما اعتبر المجلس أن شجب التفرقة العنصرية بكافة اشكالها والوانها مبدا اساسى من المبادىء العربية خاصة والانسانية عامة .

وقرر المجلس مناشدة جميع الدول وخاصة تلك التى تربطها علاقات تقليدية مع حكومة جنوب افريقيا أن تنفذ بدقة قرارات الامم المتحدة الخاصة بالتفرقة العنصرية وأن تقوم بقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية وان توقف اى صورة تشجيع سياسة التفرقة العنصرية وأكدت أن الدول العربية أعضاء الجامعة المنتجة للبترول تنفذ مقاطعة جنوب افريقيا وعدم تموينها بالبترول وتناشد سائر بلدان العالم المنتجة للبترول وقف تمويل الحكومة العنصرية بمنتجات البترول .

وحث المجلس الدول العربية الأعضاء فى الجامعة لبذل كل مساعدة سياسية وادبية لكافة الجهات التى تحارب التفرقة العنصرية وان تشارك الدول العربية فى مختلف البرامج الانسانية التى خصصت من أجل مساعدة ضحايا التفرقة العنصرية . وقد التزمت الدول العربية كلها بهذه التوصيات(٣٨) .

كما قرر مجلس الجامعة العربية فى نفس الجلسة(٣٩) بانضمام الدول العربية الأعضاء الى الاتفاقية الدولية للقضاء على التمييز العنصرى بجميع

---

(٣٨) ق ٢٣٠٣/د ٤٧/ج ٣ — ١٩٦٧/٣/١٨ .
(٣٩) ق ٢٣١٦/د ٤٧/ج ٣ — ١٩٦٧/٣/١٨ .

أشكاله التى وافقت عليها الجمعية العامة للامم المتحدة فى ديسمبر عام ١٩٦٥(٤٠) بشرط اثبات التحفظ الآتى :

(أ) تحفظ خاص باسرائيل وبمقتضاه أن قبول الدول العربية لهذه الاتفاقية وابرام حكوماتها لها لا يحوى بأية حال معنى الاعتراف باسرائيل ولا يؤدى الى دخول الدول العربية معها فى معاملات مما تنظمه هذه الاتفاقيــة .

(ب) عدم قبول ما تضمنته المادة (٢٢) من هذه الاتفاقية من تقرير الولاية الالزامية لمحكمة العدل الدولية(٤١) .

وقد عاد المجلس وأكد هذه المبادىء فى جلسته المنعقدة فى مارس ١٩٦٨ بمناسبة الاحتفال باليوم الدولى للقضاء على التفرقة العنصرية والمحدد له يوم ١٢ مارس من كل عام وهو اليوم الذى يوافق مذبحة شاربفيل فى عام ١٩٦٠(٤٢) .

وقد أكدت قرارات مؤتمر القمة العربى السادس الذى عقد فى الجزائر من ٢٦ الى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٧٣ ضرورة قطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والاقتصادية والثقافية وغيرها مع جنوب افريقيا وروديسيا وتطبيق الحظر التام لتصدير البترول العربى .

وفى عام ١٩٧٥ أعلن مجلس الجامعة العربية فى دورة انعقاده العادية الثالثة والستين عن أن المجلس قد بحث الموقف فى جنوب القارة الافريقية وانه يؤكد من جديد تضامن الدول العربية مع الدول الافريقية الشقيقة من أجل تحرير كل شبر من أفريقيا من الاستعمار الاستيطانى والتفرقة العنصرية. واعلن المجلس عن ان اعلان دار السلام بشأن جنوب القارة الافريقية يعبر بصدق عن موقف الدول العربية ويعتبر وثيقة تاريخية على درب النضال من أجل التحرير فضلا على تأكيده للعالم أجمع لمخاطر وجرائم الاستعمار الاستيطانى العنصرى ضد الشعوب التى اغتصبت حريتها وأراضيها . وعلى

---

(٤٠) قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٢١٠٦ فى ١٩٦٥/١٢/٢١ .
(٤١) تحفظ وفد المملكة العربية السعودية .
(٤٢) ق ٢٣٨٢/د ٤٩/ج ٤ — ١٩٦٨/٣/٧ .

هذا قرر المجلس الموافقة على كل ما يتضمنه هذا الاعلان واعتبره وثيقة من وثائق الجامعة العربية(٤٣) .

وكانت هذه بلا شك خطوة واسعة من خطوات تأكيد التعاون العربى الافريقى فى محاربة التفرقة العنصرية بأشكالها المختلفة . وقد عضدت الدول العربية الدول الافريقية فى محاولاتها لاستصدار قرار بوقف عضويه حكومة جنوب افريقيا العنصرية فى المنظمة العالمية للارصاد الجويه وتأييد دعوة اقليم ناميبيا لحضور اجتماعات هذه الدورة كمراقب(٤٤) .

وتأكد هذا الاتجاه فى قرارات مجلس الجامعة العربية فى مارس ١٩٧٦ . فقد قرر المجلس الموافقة على توصية اللجنة السياسية والتى نصت على ادانة الانظمة العنصرية فى جميع أشكالها وصورها فى أفريقيا وفلسطين وجميع أنحاء العالم . وتؤكد تأييدها لكفاح شعوب زمبابوى وازانيا وناميبيا المطابق فى دواعيه وأهدافه لكفاح الشعوب العربية ضد الاحتلال الصهيونى فى فلسطين والتمييز العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل. وتعتبر القضايا الوطنية لهذه الشعوب قضايا افريقية عربية .

واكد المجلس التزام الدول العربية بمقاطعة الانظمة العنصرية ومساعدة حركات التحرير الافريقية فى جنوب القارة لتحقيق آمال شعوبها فى الحرية والاستقلال . وأشاد المجلس ايضا بدور الدول المجاورة لزمبابوى وازانيا وناميبيا فى الكفاح ضد الأنظمة العنصرية فى جنوب القارة الافريقية واحكام طوق العزلة حولها مما يتفق مع قرارات جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية والامم المتحدة ويدين المجلس بشدة عدوان أنظمة الأقليات العنصرية على الدول الافريقية المستقلة بجنوب القارة تحت ستار ما يطلق عليه باطلا حق التتبع .

ويناشد جميع الدول والشعوب المحبة للسلام أن تقف الى جانب كفاح القارة الافريقية ضد قوى الاستعمار والعنصرية . ويدين المجلس النظام العنصرى فى جنوب افريقيا لعدوانه على جمهورية انجولا الشعبية ولاحتلال

---

(٤٤) ق ٣٢٣٢/د ٦٣/ج ٤ — ١٩٧٥/٤/٢٦ .
(٤٣) ق ٣٢٣٩/د ٦٣/ج ٤ — ١٩٧٥/٤/٢٦ .

جزءا من أراضيها الوطنية ويطالب بالانسحاب الفورى غير المشروط المدوان العنصرى(٤٥) .

وبهذا لم تدخر الجامعة العربية وسعا فى سبيل محاربة العنصرية سواء فى الجنوب الافريقى أو فى فلسطين وبذلت كل الجهود سواء مادية أو سياسية او اقتصادية فى هذا السبيل .

وقد استمرت الجامعة العربية فى مجهوداتها ومشاركتها فى مواجهة التفرقة العنصرية فى الجنوب الافريقى وان كانت أحداث السبعينات قد أثرت الى حد ما فى تلك المشاركة فبعد عقد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ونقل الجامعة العربية الى تونس وبسبب الخلافات التى سادت الساحة العربية نجد أن الجامعة العربية قد واجهت مرحلة ركود نسبى حتى أوائل الثمانينات ، حيث بدات الجامعة العربية مرة أخرى فى ممارسة نشاطها ولعل القضية الوحيدة التى اجمعت الأقطار العربية منذ وقت طويل على تأييدها بالاضافة الى قضية تصفية الاستعمار هى قضية التميز العنصرى فى جنوب افريقيا . ولكن وبعد أن بدأت مفوضات كامب ديفيد بين مصر واسرائيل اهتزت الصورة ، فنجد أن زائير قد أعادت علاقتها مع اسرائيل وبررت موقفها بأن اسرائيل قد وافقت على التفاوض من أجل السلام وتبادلت التمثيل الدبلوماسى مع أكبر دولة عربية فى افريقيا « مصر » وقد أبدت كثير من الدول الافريقية موقف زائير وقد أعلن راديو « لاجوس » فى ٩ يناير عام ١٩٧٨ على اعادة زائير لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل « بانه وقد عقدت دولة المواجهة الرئيسية معاهدة صلح مع اسرائيل وأقامت معها علاقات دبلوماسية فلا يمنع الأفارقة من استئناف العلاقات مع اسرائيل سوى علاقة الأخيرة بجنوب افريقيا وخطر انقطاع المساعدات الاقتصادية العربية لافريقيا(٤٦) وقد كان رد فعل الدول العربية تجاه زائير رد فعل قوى حيث اتفقت معظم الاراء على ضرورة عزل نظام زائير وتوقيع العقوبات السياسية والاقتصادية عليها . وقد قطعت المملكة العربية السعودية علاقاتها مع

---

(٤٥) ق ٣٣٨٨/د ٦٥/ج ٢ — ١٩٧٦/٣/٢١ .

(٤٦) د. محمد عمر بشير — المجموعة العربية فى منظمة الوحدة الافريقية ، كتاب العرب وافريقيا ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٥٧ .

زائير . وكذلك تشجب مجلس الأمة الكويتى قرار زائير باعادة العلاقات مع اسرائيل وكذلك هاجمت قرار زائير كلا من تونس والجزائر واليمن الديمقراطية ، وقطعت دولة الامارات العربية المتحدة علاقاتها مع زائير وقد بادرت الجامعة العربية وأصدرت بيانا تعرب فيه عن دهشتها بقرار زائير الذى يتناقض مع مبادىء التعاون العربى، الافريقى والتضامن ضد الأنظمة العنصرية المعادية وارسلت مبعوث لها الى السكرتير الادارى لمنظمة الوحدة الافريقية وكذلك الى قادة عدد من الدول الافريقية مثل السنغال وساحل العاج وانجولا واثيوبيا وكينيا وتنزانيا وزامبيا وزمبابوى لشرح وجهة نظر الجامعة العربية(٤٧) كما قام الأمين العام للجامعة العربية بمقابلة الرئيس دانبيل آراب لوى رئيس كينيا والرئيس جوليوس نيريرى رئيس تنزانيا فى مايو ١٩٨٢ للتشاور فى الأوضاع الخاصة باعادة زائير لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . وقد أثيرت فى تلك المقابلات فكرة أن عودة العلاقات مع اسرائيل انما هى طعن فى ظهر حركات التحرير فى ناميبيا وجنوب افريقيا والى الثورة الفلسطينية .

وبهذا نجد أن الجامعة العربية تأثرت الى حد كبير باقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر واسرائيل وادى ذلك الىنوع من البلبلة فى داخل المجموعة العربية الافريقية وفى موقف الجامعة العربية نفسها . وان كانت الأوضاع قد استقرت بعد ذلك وبدأت الجامعة العربية مرة أخرى فى تركيز الاهتمام على الفصل العنصرى فى جنوب افريقيا .

ففى اغسطس عام ١٩٨٤ قام الأمين العام للجامعة العربية بحضور الحلقة الدراسية التى عقدت فى لاجوس فى الفترة من ١٣ الى ١٦ اغسطس لدراسة المركز القانونى لنظام الفصل العنصرى والجوانب القانونية الأخرى للكفاح ضد الفصل العنصرى والذى صدر عنه اعلان التزمت به دول الجامعة العربية لمكافحة الفصل والتمييز العنصرى .

كما تم عقد مؤتمر التضامن العربى مع الكفاح من أجل التحرير فى جنوب افريقيا والذى نظمته الجامعة العربية بالتعاون مع لجنة الأمم المتحدة الخاصة لمناهضة الفصل العنصرى والذى انعقد فى تونس فى الفترة من

---

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٧ الى ٩ اغسطس عام ١٩٨٤ . وقد كان هـذا المؤتمر هاما فى تأكيد التضامن المتنامى بين افريقيا والعالم العربى فى الكفاح المشترك من أجل الحرية وكذلك قام بصياغة خطة العمل للمرحلة التالية(٤٨) .

ومع أن الجامعة العربية وهى المعبرة عن الارادة السياسية العربية الكلية اتخذت الكثير من المواقف والقرارات الخاصة بالتفرقة العنصرية فى افريقيا الا أن هذه القرارات والتوصيات قد شابها البعد عن الواقع فى كثير من الأحيان وخاصة فيما يتعلق بالفترة الأخيرة .

خامسا ـ العرب ومؤتمرات عدم الانحياز والتفرقة العنصرية فى افريقيا :

كان اللقاء الأول للدول العربية والافريقية فى مؤتمر باندونج وقد حضر هذا المؤتمر من الدول العربية كل من المملكة العربية السعودية وسوريا والعراق والاردن ولبنان واليمن ومن الدول العربية الافريقية مصر والسودان ومن الدول الافريقية اثيوبيا وليبريا وساحل الذهب « غانا » ولم تدع جنوب افريقيا لهذا الاجتماع وكذلك لم تدع اسرائيل وبالرغم من أن مؤتمر باندونج لم يشر اشارة صريحة الى سياسة عدم الانحياز الا أن هذا المؤتمر كان منطلقا اندفعت منه سياسة عدم الانحياز التى اتبعتها فيما بعد معظم الدول العربية . وقد عقد مؤتمر تحضرى لدول عدم الانحياز فى القاهرة فى يونيو عام ١٩٦١ حضره ممثلو احدى وعشرون دولة منها ١٧ دولة افرواسيوية . وقد وضع هذا الاجتماع أساس حرية اختيار الدول فى الحكم على القضايا الدولية . وقد عقد مؤتمر القمة الأول لعدم الانحياز فى يوغوسلافيا فى سبتمبر ١٩٦١ وحضره ممثلو ٢٥ دولة ومؤتمر القمة الثانى فى القاهرة فى اكتوبر ١٩٦٤ وحضره ممثلو ٤٩ دولة ومؤتمر القمة الثالث فى زامبيا (لوساكا) فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ وحضره ممثلو ٥٤ دولة ، ومؤتمر القمة الرابع فى الجزائر فى سبتمبر ١٩٧٣ وحضره ممثلو ٧٦ دولة ومؤتمر القمة الخامس فى سيرى لانكا (كولومبو) فى أغسطس ١٩٧٦ وقد عقدت عدة مؤتمرات فى الثمانينات كان أهمها مؤتمر عدم الانحياز الذى عقد فى هرارى فى يناير ١٩٨٦ والذى اتخذت فيه عدة قرارات هامة لمواجهة التفرقة العنصرية فى افريقيا ومنها انشاء صندوق افريقيا .

---

(٤٨) نشرة مركز الامم المتحدة لمناهضة الفصل العنصرى يناير ١٩٨٦.

وفى كل هذه المؤتمرات كان ممثلو حركات التحرير فى افريقيا يمثلون كمراقبين ، وقد ناقشت مؤتمرات عدم الانحياز قضية التفرقة العنصرية فى افريقيا واتخذت عدة قرارات بهذا الشأن ومن بينها القرار الصادر من مؤتمر القمة الرابع الذى عقد فى الجزائر فى لفترة من ٥ — ٩ سبتمبر ١٩٧٣ وقد حضر هذا المؤتمر (٢١) دولة عربية و(٣٣) دولة افريقية كما حضره الأمين العام للجامعة العربية والسكرتير الادارى لمنظمة الوحدة الافريقية . كما أن مؤتمر دول عدم الانحياز الذى عقد فى « داكار » على مستوى الوزراء فى فبراير ١٩٧٥ صدر عنه اعلان « داكار » الذى تضمن بعض القرارات الاقتصادية الهامة وكذلك قرارات تتعلق بتصفية الاستعمار الاقتصادى وتأييد التضامن مع حركات التحرير الافريقية والفلسطينية وادانة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا(٤٩) . وكذلك فى المؤتمر الذى عقد فى سيريلانكا فى عام ١٩٧٩ .

وقد انشأ صندوق أطلق عليه صندوق افريقيا وتتمثل أهداف الصندوق فى الآتى :

(أ) دعم القدرة الاقتصادية والمالية لدول خط المواجهة بما يمكنها من محاربة نظام الفصل العنصرى فى بريتوريا وتأييد حركات التحرير فى جنوب افريقيا (ناميبيا) فى كفاحها الذى لا يكل ضد الاضطهاد العنصرى والاستعمارى .

(ب) مساعدة دول خط المواجهة فى فرض عقوبات ضد جنوب افريقيا وفى تحمل اى اجراءات اقتصادية انتقامية تتعرض لها من قبل النظام العنصرى .

ولتحقيق هذه الأهداف سوف تتخذ التدابير التالية :

(أ) التخفيف من أزمات نقص السلع الأساسية التى تترتب على تنفيذ العقوبات ضد جنوب افريقيا بما فى ذلك انشاء احتياطى استراتيجى للاغاثة .

---

(٤٩) تقرير وفد جمورية مصر العربية الذى حضر مؤتمر داكار بالسنغال فى ٨ فبراير ١٩٧٥ .

(ب) دعم شبكات النقل والمواصلات التى تتعــرض للاضرار بسبب الكفاح ضد العنصرية .

(ج) المواجهة الفعالة للاثار السلبية على التجارة التى تنجم عن الاجراءات المتخذة ضد نظام جنوب افريقيا .

(د) حشد الرأى العام الدولى وتعبئة الموارد المالية من اجل تحقيق أهداف الصندوق .

وقد اجتمعت لجنة الصندوق المكونة من رؤساء دول وحكومات الهند وزامبيــا وزمبابوى ونيجيريا والجــزائر والكونغـو ويوغوســلافيا وبيرو والارجنتين فى نيودلهى فى يناير ١٩٨٧ لبدا أعمال الصندوق الافريقى المنبثق من حركة عدم الانحياز(٥٠) .

سادسا ــ المواقف الفردية للدول العربية من التفرقة العنصرية فى افريقيا :

لقد تباينت مواقف الدول العربية والدول الافريقية بالنسبة لعدد من القضايا الأمر الذى يدعو بنا الى القول بانه ليس هناك موقف موحد للدول العربية تجاه القضايا الافريقية والعكس صحيح . ولكن لعل القضـــــية الوحيدة التى اجتمعت الأقطار العربية منذ وقت طويل على تأيدها بالاضافة الى تصفية الاستعمار هى قضية التميز العنصرى فى جنوب افريقيا وفى الواقع انه بالرغم من هذا الاجماع فان جنوب افريقيا قد تمكنت من تحدى هذه القرارات الى الحد الذى دعت بعض الكتاب الى القول بأن جنـــوب أفريقيا استطاعت أن تحصل على النفط العربى بطريقة أو بأخرى(٥١) وان كان هذا القول مشكوك فيه فمنذ أن اتخذ مؤتمر القمة العربى فى الجزائر عام ١٩٧٣ القرار بقطع النفط عن جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا التزمت الاقطار العربية المصدرة للنفط بنص القرار علما بأن ايران حتى سقوط الشاه كانت تمد جنوب افريقيا بتسعين فى المائة من حاجاتها الى النفط . وفى الواقع أن العلاقات الفردية تعطى مساحة أكبر فى مجال العلاقات الدولية

---

(٥٠) الوثائق الختامية ــ صندوق افريقيا ، نيودلهى يناير ١٩٨٧ .

(٥١) محمد عمر بشير : المجموعة العربية فى منظمة الوحدة الافريقية من كتاب العرب وافريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٤٠ .

وسيظل التعاون الثنائى يؤدى دورا مهما فى التعاون العربى الافريقى يمتص التأثيرات السياسية التى تنعكس على العمل العربى المشترك .

وسوف اذكر هنا بعض المواقف الفردية للدول العربية من التفرقة .

مصــــر :

لقد تميز موقف مصر من قضية جنوب افريقيا بتأييد المنظمات الوطنية فى جنوب افريقيا ومساعدتها ومعارضتها الحلول التى طرحتهـا الولايات المتحدة وخاصة تلك التى تدعو الى التسوية عن طريق التفاوض . وقد ساد شعور بالتشائم حول الموقف المصرى من جنوب افريقيا بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل ، خاصة وأن اسرائيل حليف لجنوب افريقيا ، وان كانت مصر قد استمرت فى توقفها من جنوب افريقيا وظلت مساعداتها قائمة لحركات التحرير فى جنوب افريقيا .

المملكة العربية السعودية :

أما المملكة العربية السعودية فقد اشتركت فى سلسلة طويلة من التصويت ضد التفرقة العنصرية والتميز العنصرى .دور السعودية يبدو واضحا من مضابط جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الأمن . ويتلخص هذا فى أن الموقف السعودى كان منسجما مع مواقف معظم الدول النامية وهو موقف التأييد للشعوب التى تعانى من التفرقة العنصرية ومع أنه لا يمكن القول بأن المملكة العربية السعودية قد تزعمت الحملة ضد التفرقة العنصرية الا أن الموقف السعودى كان موقف التأييد المستمر للحملة . وقد صوتت المملكة العربية السعودية الى جانب معظم مشروعات القـرارات المتعلقة بحقوق الانسان فيما عدا ما كان منها مختصا بعقوبة الاعدام أو بحرية تغيير الدين(٥٢) ومعارضة المملكة لهذين الجانبين من حقوق الانسان ما هى الا نتيجة للتقاليد الاسلامية التى تحكم وجهات نظر المملكة العربية السعودية. ولذلك فقد جاء تفسير المملكة العربية السعودية لحقوق الانسان مختلفـا عن التفسير الغربى أو الشيوعى ، وقد امتنعت المملكة عن التوقيـع على

---

(٥٢) د. عبد الله القباع : المملكة العربية السعودية والمنظمات الدولية، السعودية مشتركة ، مكتبات عكاظ ، ١٩٨١ ، ص ٩٥ .

الميثاق العالمى لحقوق الانسان على اساس أن المادة (١٨) من الميثاق تنص على حرية تغيير الدين والمعتقدات ، وقد صدقت المملكة العربية السعودية على ميثاق الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى عام ١٩٦٦ بعد تعديل المادة المتعلقة بالدين .

أما بالنسبة لحركات التحرر فى افريقيا الجنوبية فقد ساهمت السعودية فى قرارات المؤتمرات المختلفة التى عالجت هذه القضية ولكنها انتهجت سياسة حذره فى مساعدة حركات التحرر حيث امتنعت عن مساعدة الحركات التى تميل الى الاتحاد السوفيتى ، وقد اعترض مندوب المملكة العربية السعودية صراحة فى مؤتمر القمة الافريقى الأول الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٧٧ على منح مساعدات للدول الافريقية التى تتبنى العقيدة الماركسية حتى لا تكون جسرا يصل عبره اليساريون الى قمة السلطة فى أفريقيا(٥٣) .

العــــراق :

فى عام ١٩٤٩ وعند نظر موضوع التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا فى الجمعية العامة أشار مندوب العراق النقطة التالية « اذا قامت أمة بعملية ابادة جماعية فماذا يكون موقفنا فى الأمم المتحدة ؟ هل نقف مكتوفى الأيدى ؟ »(٥٤) أى ان العراق قد ساهمت منذ البداية فى مواجهة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا . وقد تبنت العراق خط الكفاح المسلح باعتباره الطريقة الوحيدة القادرة على تحقيق الاستقلال والتحرر لشعوب الجنوب الافريقى كما أن العراق يضع قضية النضال الوطنى فى الجزء الجنوبى من القارة ضمن اطار النضال العالمى ضد الامبريالية . كما ركز العراق على التشابه بين الدولتين العنصريتين اسرائيل وجنوب افريقيا .

وقد تأثر موقف العراق من التفرقة العنصرية فى الجنوب الافريقى تأثرا مباشرا بالحرب العراقية الايرانية حيث انكمش حجم المساعدات والمعونات العراقية لحركات التحرر فى الجنوب الافريقى .

---

(٥٣) العرب وأفريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٥ .

(٥٤) محاضر جلسات الدورة الثالثة للجمعية العامة ـ الجزء الثانى ١٩٤٩ ، ص ٤٥٤ .

الكــويت :

هناك اهتمام واضح من قبل الكويت تجاه قضية التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا ويبدو هذا واضحا فى السلوك التصويتى للكويت فى الأمم المتحدة وكذلك مواقفها فى مؤتمرات القمة الاسلامية وغيرها من التنظيمات التى تناقش التفرقة العنصرية و الكويت تتخذ موقفا مؤيدا لنقل السلطة السياسية الى الأفارقة بالوسائل السلمية املا فى التوصل الى تشكيل حكومة افريقية معتدلة . فالكويت بذلك تعارض التفرقة العنصرية فى افريقيا وتتبنى الحلول السلمية لهذه القضية الشائكة .

الجــزائر :

ينص دستور الجزائر فى المادة الثانية على أن الجزائر جزء لا ينجزأ من المغرب العربى و العالم الافريقى وافريقيا . وقد التزمت الجــزائر منذ استقلالها بالتصدى للتفرقة العنصرية فى افريقيا . وللجزائر صلة وثيقة بحركات التحرر فى الجنوب الافريقى ، خاصة تلك التى واجهت الاستعمار البرتغالى والاستعمار الاستيطانى فى جنوب افريقيا . وقد أنشأت الجزائر مكاتب لمعظم حركات التحرر وأصبحت الثالثة بعد مصر مباشرة . وقد كان لمثل الجزائر دور هام فى معظم المؤتمرات الدولية العالمية والاقليمية مما جعل الجزائر قبله الحركات التحررية ضد التفرقة العنصرية وقد كانت الجزائر وراء الكثير من القرارات التى اتخذت لمحاربة ومواجهة الفصل والتمييز العنصريين .

الســـودان :

لان السودان يعانى من مشاكل اقتصادية وسياسية وبخاصة مشكلة جنوب السودان ، فقد كان دور السودان اقل مما كان متوقعا له . وقد اقتصر دور السودان فيما يتعلقبالتفرقة العنصرية فى افريقيا على الموافقة على كافة القرارا تالتى تدين التفرقة العنصرية سواء فى المنظمات العالمية أو الاقليمية وفى المؤتمرات الدولية المختلفة . كما أن موقف السودان كان موقفا محايدا من الحلول التى اقترحت للتسوية السلمبة للاوضاع السائدة فى الجنوب الافريقى .

وهكذا نرى أن المواقف الفردية للدول العربية تفاوتت بين دولة واخرى.
وقبل الانتهاء من هذه الدراسة يجب ان اشير الى أن العروبة والاسلام مرتبطان ومتلازمان وقد بدا ذلك واضحا فى المؤتمرات الاسلامية التى تشارك الدول العربية فى عضويتها والتى اتخذت الكثير من القرارات الهامة فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية فى افريقيا ففى مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى السادس والذى عقد فى جدة فى الفترة من ١٢ — ١٥ يوليو ١٩٧٥ اتخذ قرار بأدانة التفرقة العنصرية وبضرورة مساعدة الدول التى تعانى من الاستعمار الاستيطانى فى الجنوب الافريقى(٥٥) وقد تناولت مؤتمرات القمة الاسلامية موضوع التفرقة المنصرية من جميع زواياه ، وفى فبراير عام ١٩٨٦ وفى مؤتمر القمة الاسلامى الذى عقد فى الكويت تقرر انشاء صندوق لدعم دول المواجهة فى الجنوب الافريقى وكان ذلك دليلا واضحا على مدى اهتمام الدول الاسلامية والعربية بالذات بقضايا التفرقة العنصرية فى افريقيا .

الخاتمة :

مما لا شك فيه أن العرب فى افريقيا يمثلون اتجاها حضاريا وثقافيا مميزا وهذا الاتجاه المتميز يندمج ويتكامل مع الحضارة والثقافة الافريقية الخالصة بحيث يصبح من الصعب الفصل بينهما أو تخيل القارة الافريقية بدون العرب .

وقد مثلت التفرقة العنصرية فى افريقيا مشكلة شديدة التعقيد تواجه الضمير الانسانى والراى العام العالمى وتهدد السلام والأمن العالمين . وقد كان للعرب مواقف مميزة تجاه هذه القضية ،وقد ظهرت هذه المواقف من خلال التنظيمات العالمية وعلى رأسها الأمم المتحدة بأجهزتها المختلفة ومنذ انشائها فى عام ١٩٤٥ ، أو من خلال المنظمات الاقليمية كالجامعة العربية التى تضم الدول العربية والتى ينظر اليها على أنها الارادة السياسية الجماعية للدول العربية . كذلك شارك العرب فى كثير من المنظمات والمؤتمرات الأخرى التى تناولت قضية التفرقة العنصربة مثل مؤتمرات عدم

(٥٥) راجع قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الاسواى السادس ، يولية ١٩٧٥ .

الانحياز والمؤتمرات الاسلامية ومؤتمرات التضامن الافرو — اسيوى . وفى كل هذه التنظيمات لعبت الدول العربية دورا مميزا بالنسبة لتفاعلها مع القارة الافريقية ووجود دول عربية افريقية .

وقد كانت هناك الى جانب العلاقات الجماعية علاقات أخرى ثنائية ومواقف فردية فيما يتعلق بقضايا التمييز العنصرى فى القارة الافريقية وعلى وجه الخصوص فى الجنوب الافريقى وقد تميزت تلك المواقف الفردية بالاجماع فى معظم الأحوال وبالتباين والاختلاف أيضا ومما يذكر أن لبنان مثلا لم يقطع علاقته القنصلية مع جنوب افريقيا حتى عام ١٩٧٣ ، كما أن العلاقات التجارية لبعض الدول الأعضاء والجامعة العربية مع جنوب افريقيا لم تكن معقودة حتى عام ١٩٧٣ وكثيرا ما كانت بضائع جنوب افريقيا تتداول بطريقة غير رسمية فى بعض الأسواق العربية (عمر بشير — العرب فى افريقيا ص ٢٥٢) .

وفى الواقع أن مواقف الدول العربية وخاصة الدول النفطية تحتاج الى تدعيم اكثر لحركات التحرر فى الجنوب الافريقى بصرف النظر عن هويتها الايديولوجية اذ أنها حركات تحريرية من نوع خاص فى مواجهة استعمار من نوع خاص .

الدول العربيـــة
فى
منظمة الوحدة الافريقية

د. عبد الرحمن اسماعيل الصالحى

مقـــــدمة :

ليس هناك شك أن وجود تسع دول عربية فى اطار منظمة الوحـــدة الافريقية بحكم افريقيتهم تمثل منذ الوهلة الأولى آمالا كبيرة تنعقد على مدى اسهام هذه الدول فى تدعيم التعاون العربى الافريقى بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية بحيث تصبح ديناميكية هذا التعاون واضحة المعالم وعميقة فى تأثيرها ، الأمر الذى قد يحد من تداخل دول أخرى ذات اتجاهات عنصرية واستعمارية تعمل ضمن استراتيجية مخططة لخلخلة هذا التعاون ولتحل محل الوجود العربى فى افريقيا بل لا نكون مغالين القول بتقويض هذا الوجود وهى بهذا تحقق أهدافا مزدوجة .

وهذه الدول العربية هى مصر والسودان والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والصومال وموريتانيا وجيبوتى .

ويمكن لهذه الدول أن تلعب دورا هاما ومتميزا داخل اطار منظمة الوحدة الافريقية ، وأن تنعكس الاثار الايجابية لهذا الدور على مجالات التعـــاون العربى الافريقى بكل ابعادها ومحدداتها خاصة وأن هذه الدول تمثل اكثر من ٧٢ بالمائة من مســـاحة الدول العربية كلها واكثـــر من ثلثى عدد الســـكان العرب(١) ولقد أسهمت بالفعل هذه الدول منذ انشاء المنظمة الافريقية فى عديد من القضايا والمشكلات الافريقية والعربية المشتركة وتباينت الادوار وتأرجحت النتائج بين الفشل والنجاح .

---

(1) Ismael Tarq Y. The U. A. L in Africa Northwestern University press Evanston, 1971, p. 107.

وان كانت العلاقات بين الدول العربية سواء الافريقية منها او الاسيوية وبين افريقيا علاقات راسخة ولها مقدماتها ودعاماتها الا أن لكل منها أوضاع متميزة(٢) ، ولعل هذه التباينات تمثل المصالح الوطنية لكل طـرف ، فلكل تطلعاته وعلاقاته الدولية التى قد لا تتفق مع باقى الأطراف .

ومن هنا كانت اهمية التركيز على تلافى الاثار السلبية التى يمكن أن تمنى بها مسيرة التعاون ولتحديد ما يجب عمله ولايجاد التوازن بين الكلمة والفعـل .

عروبة أم افريقية الدول الأعضاء فى منظمة الوحـدة الافريقيـة

ان الروابط العربية الافريقية روابط حضارية منذ مئات السنين ، وكان محورها الأساسى الانسان العربى والافريقى ومن ثم فان مجال التعـاون بينهما يستهدف التصدى لتحديات اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية ، وهو تعاون له ارضيته التى يستطيع أن يحدد معالمه فوقها .

وهناك مجموعة من العوامل والأسس التى تؤكد قيام علاقات تعاون عربى أفريقى لعل من أبرزها العوامل التاريخية والثقافية والجغرافية ومشاعر مجابهة المخاطر المحدقة بكلا الطرفين نتيجة التكالب الاستعمارى بصوره المستحدثة لتطويق الطرفين ومحاصرتها داخل دائرة صراع الحرب الباردة ، ولا غرابة فى وجود دول تجمع بين العروبة والافريقية فان التلاصق الجغرافى والتلاحم بين القارتين الافريقية والاسيوية أمر فرضته الطبيعـة ، فلا يكاد يفصل بين هاتين القارتين فاصل طبيعى سوى الشقة المائية التى يمثلها البحر الأحمر وان كان فى بعض المواقع لا يكاد أن يمثل فاصلا بينهما حيث يضيق البحر عند بوغاز باب المندب(٣) .

---

(٢) د. محمد عمر بشير : « دور المجموعة العربية فى منظمة الوحدة الافريقية » ، فى : العرب وافريقيا : بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربى ، (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤) ، ص ٢٤٤ــ٢٤٦ .

(٣) د. يحيى رجب : « الخلفية السياسية المعاصرة للعلاقات العربية الافريقية » من : د. محمود خيرى عيسى (اشراف) العـلاقات العربية الافريقية (القاهرة : معهد البحوث والدراسات الافريقية ، ١٩٧٨) ، ص ٢٨١ .

ولم تقف الصحراء الكبرى حائلا لاتصال العرب بافريقيا ، فلقد أمكن للعرب الوصول الى قلب القارة ومختلف أجزائها(٤) ، ولقد بات اختلاط شعوب القارتين أمرا طبيعيا حتى تعذر التمييز بين العربى الذى يقطن افريقيا وبين الافريقى الأصل(٥) فلا شك أن العرب يعبرون عن همزات الوصل بين افريقيا واسيا وبين أوربا فى نسق حضارى وثقافى وتاريخى امتد عبر فترات سحيقة ومر بمراحل عصيبة فى تاريخ العرب والأفارقة(٦) .

والروابط العربية الافريقية ترتكز على مرتكزات معينة لعل من أبرزها مجموعة السمات المتميزة والمشتركة التى تعكس الدافع على التعاون ودواعيه التى تكون أبرز ما تكون ممثلة فى التصدى للقوى الاستعمارية بشتى صورها وفى نفس الوقت فى محاولة لايجاد مناخ صالح للتفاهم بين العرب والافارقة لمجابهة مظاهر التخلف(٧) وكلا الطرفين يبذل جهدا فى هذه المضامير سواء على المستوى العربى أو على المستوى الافريقى ، وتتمتع الدول العربية الافريقية بعضوية المنظمتين الاقليميتين ، ومن ثم فانها تلعب دورا المفروض فيه انه دور مضاعف أو مزدوج القوى خاصة وان دواعى التعاون ومرتكزاته تحتم اتباع مبادىء وسياسات عربية افريقية مشتركة ، ذلك أن القضايا المشتركة لها من الأهمية ما يبرر تقرير واقرار هذه المبادىء والسياسات

---

(٤) راجع فى اتصال العرب بافريقيا : د. محمد عبد الغنى سعودى ، قضايا افريقية (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨٠) ص ٧٣ — ٩٠ .

(5) Du Bois, Burghardt, The world and Afric (New York, 1965), p. 180.

(٦) راجع د. عبد الملك عودة ، سنوات الحسم فى افريقيا (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩) ، ص ٢٦—٤٢ .

(٧) مصطفى المصمودى : « البعد الاعلامى فى العلاقات العربية — الافريقية المعاصرة » ، فى : العرب وافريقيا مرجع سابق ، ص ٥٣٥—٥٣٨.

— وراجع فى سمات التخلف الاقتصادى الافريقى :

U. N., Agriculture Economic Bulletin for Africa (New York 1966).

U. N., Asurvey of Economic Conditions in Africa (New York 1967).

خاصة وانها مرتبطة ومتعلقة بقضايا التنمية وقضايا الأمن المشتركة(٨) بالاضافة الى دوافع ثقافية وحضارية(٩) .

العروبة والافريقية التقاء أم تعارض :

لم يكتف المستعمرون بتقسيمهم لافريقيا التقسيم الجائر الذى لم يقم على أدنى أسس اثنية أو اقتصادية أو سياسية او اجتماعية من خلال تقنينهم لهذا الاغتصاب فى اطار مؤتمر برلين الدولى (١٨٨٤ — ١٨٨٥) بل تحدثوا اعلاميا وفكريا وفى أدبياتهم وكتاباتهم السياسية والاقتصادية عن تقسيم آخر لافريقيا بواسطة الصحراء وعرفت الكتابات الحديثة بتسميات عدة ما بين افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء ، وافريقيا جنوب الصحراء وافريقيا شمال الصحراء وافريقيا السوداء (الزنجية) الناطقة بالفرنسية (الفرانكفون) والناطقة بالانجليزية (الانجلوفون) وان أعطت هذه المسميات مدلولا ومقصدا مخططاً له وهو ايجاد حالة من الفرقة بين العرب على وجه الخصوص والأفارقة بصفة عامة الا أنه للدقة العلمية تجدر الاشارة الى وجود فارق بين مفهوم افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء ومفهوم افريقيا العربية وافريقيا غير العربية ، فليس كل ما هو عربى أبيض فالسودان مثلا دولة عربية الا انها ليست بيضاء وفق المفهوم السائد .

وبكاد أن يتركز الفارق المتعمد والذى يوحى بوجود حالة من التناقض بجميع دول عربية وافريقية فى اطار واحد وهو منظمة الوحدة الافريقية يكاد أن يتركز ذلك فى افريقيا العربية ويرى دعاة الفرقة ان دول افريقيا العربية

---

(٨) راجع أمين هويدى : « العرب وافريقيا وقضايا الأمن المشترك »، فى : العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٥٨٧—٥٨٨ .
— د. ابراهيم صقر : فى المناقشات التى دارت حول بحث أمين هويدى ، المرجع السابق مباشرة ، ص ٦٣٢ .
— د. ياسين العيوطى : « رؤية العالم الثالث للوفاق الامريكى السوفيتى » ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٤٧ ، يناير ١٩٧٧ ، ص ٨ — ٢٩ .

(٩) راجع : المنجى الصيادى « مد الحضارة العربية فى الاقطار الافريقية » ، مجلة شؤون عربية (العدد ١٢ ، فبراير ١٩٨٢) ، ص ١٧٢.
— د. طه حسن النور : « العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة »، المرجع السابق مباشرة ، ص ص ١٥٠—١٦٢ .

تدين بولاءين احدهما للعروبة والثانى للافريقية مما يؤثر بل ويعيق طريق الوحدة الافريقية(١٠) ، ولقد عمل الاستعمار منذ وطأ أرض القارة على تلمس بعض نقاط الضعف واستثمارها لمحاولة تفتيت القارة تارة مستغلا الدين واخرى العرق أو الثقافة والى غير ذلك من أساليب الفرقة(١١) ولقد كان ابرز ما استغله الاستعمار هو التركيز على أن العرب مارسوا أنشطة فعالة فى تجارة الرقيق فى افريقيا والتى كانت قاصرة على السود دون البيض ، كما ان العرب يحاولون الزج بالدين الاسلامى لاستغلال افريقيا ولايجاد نوع من التضامن مع مسلمى افريقيا يخشى منه مستغلا فى ايجاد قوى اسلامية فى المنطقة . كما أوحت بعض القوى الاستعمارية للدول الافريقية غير العربية بأن العرب بدخولهم التنظيم الاقليمى سوف يثيرون قضايا عربية داخل المنظمة ومن ثم ستعمل على عرقلة الوحدة الافريقية ولعلهم قصدوا بذلك قضية فلسطين التى وصفوها بانها ليست قضية افريقية وان العرب يضعونها على الساحة الافريقية(١٢) والحقيقة أن هذه الدعاوى بوجود تناقض بين الافريقية والعربية دعاوى استعمارية بالدرجة الأولى قصد منها بدرجة اكبر مصر تأسيسا على انها من أهم الدول العربية ومن أهم الدول الافريقية فضلا عن ثقلها الحضارى فهى ترابط بين افريقيا واسيا ، ولقد عبر أحد الكتاب الغربيين المتخصصين فى الشئون الافريقية « ج. ش. قروليج » عن التخوف من التواجد المصرى فى افريقيا غير العربية بقوله : « ان المساعى التى تبذلها مصر من أجل توحيد الدول العربية تحت سيطرتها تنقل مركز الثقل الى افريقيا البيضاء ، فدعوة مصر الى الوحدة العربية من ناحية ، والمحاولات التى تبذلها الجزائر للقيام بدور هام فى الشئون الافريقية من ناحية اخرى ، هذه العوامل تقلق افريقيا السوداء .. ليس من الممكن

---

(١٠) راجع فى ذلك : د. بطرس بطرس غالى ، « العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية » ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤) ، ص ٨٢—٨٦ .

(١١) راجع د. محمد عبد الغنى سعودى ، « العروبة الافريقية مواجهة ام تضامن » ، فى د. محمود خيرى عيسى (اشراف) ، العلاقات العربية الافريقية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ ، ٢٧٨—٢٧٩ .

(١٢) راجع فى ذلك : د. عبد الملك عودة ، اسرائيل وافريقيا (القاهرة : معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٤) .

التوفيق بين الوحدة العربية والوحدة الافريقية » . والواقع أن هذه الدعاوى مردود عليها :

١ — ان تجارة الرقيق فى المنطقة العربية مشكلة اجتماعية بالدرجة الأولى وليست مشكلة عنصرية ولم تكن التجارة قاصرة على السود بل تعدتها الى الجوارى والحسان من غير السود من جنسيات مختلفة ، كما ان سوق الرقيق لم يكن سوقا عربيا فحسب بل لقد كان السوق العربى اقل هذه الأسواق اذا ما قيس بأسواق الرقيق فى امريكا وبعض موانى أوربا والتى كانت تنظمها الحكومات وتحميها (البرتغال ، اسبانيا ، انجلترا ، هولندا) بعكس التجارة العربية التى كانت تمثل قطاعا خاصا لا علاقة له بالحكومات العربية(١٤) .

٢ — ان العروبة رباط حضارى لغوى ثقافى يجمع بين الوان شتى وهى ليست لها ارتباطات سلالية تجمع بين أفرادها ، والافريقية رباط جغرافى حضارى سياسى بغض النظر عن اللغة والدين والسلالة ، وان كان العرب والأفارقة ارتبطا بقوميهما بفكرة الحرية فضلا عن التشابه الكبير تاريخيا واقتصاديا(١٥) .

ولقد تنبأ من قبل استاذنا الدكتور بطرس بطرس غالى بأن هناك دولا افريقية سوف تنطوى تحت لواء الوحدة العربية متى استكملت عناصرها الواضحة فى التكلم باللغة العربية والاشتراك مع العرب فى الهدف والتراث ومن هذه الدول الصومال وموريتانيا ومن ثم فانه لا تناقض بين الافريقية والعربية(١٦) .

٣ — ان المساعدات المصرية لمسلمى افريقيا خاصة فى مجال التعليم

---

(١٣) فى بحث له بعنوان « مؤتمر اديس ابابا ١٥ — ٢٨ مايو ١٩٦٣ » المنشور بمجلة الدفاع القومى الفرنسية ، يوليو ١٩٦٣ ، ص ١١٥١ — ١١٥٢ ، راجع : د. بطرس بطرس غالى ، مرجع سابق ، ص ٧٨—٨٤ .

(١٤) محمد فايق ، عبد الناصر والثورة الافريقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٢ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(١٥) د. محمدة عبد الغنى سعودى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(١٦) د. بطرس بطرس غالى ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

من خلال الازهر وغيره من الجامعات ومن خلال اذاعة القرآن الكريم واقامة المساجد لم تكن مساعدات بقصد احداث ضجيج او دعاية .

وبالرغم من هذا لم تسلم مصر من دعاوى التشكيك فى دور الازهر ورسالته فى افريقيا ولقد أدعى البعض أنمصر تستهدف اقامة امبراطورية اسلامية فى القارة تحكم من القاهرة فى حين أنمصر ابتعدت عن اقامة أى تكتلات منالدول الاسلامية فى افريقيا حتى لا تكون هناك اضافة لتقسيمات جديدة قائمة على أسس دينية(١٧) .

ومجمل القول : انه ليس ثمة تمارض بين الافريقية والعربية بل ان الاثنين مكملتان لبعضهما ومشتركتان فى عدد من السمات، المتميزة والتقارب بينهما الا الارتباط أو التعاون مسألة جد حيوية لكليهما .

وان كانت هناك صورة قديمة للعرب لدى الأفارقة فانها كادت أن تختفى وحل محلها صورة العرب امتدادا من جهود ثورة يوليو فى افريقيا وحتى الجهود والمساعدات العربية الراهنة وان كانت الأخيرة عليها كثيرا من التحفظات(١٨) .

انتماء الدول العربية الافريقية لافريقيا :

رغم ان هذه الدول تجمع بين الانتماء العربى والانتماء الافريقى الا انها تتباين فى درجة هذا الانتماء على المستوى الرسمى والدستورى ، ويمكن القول ان هذا الانتماء مع تباينه غير واضح المعالم واذا أخذنا عينة من النصوص الدستورية لهذه الدول نجد أن المغرب جاءت فى المقدمة فى نصها على انها دولة افريقية وفى تأكيد الانتماء هذا ، فقد نص القانون الأساسى للدولة الذى صدر عام ١٩٦١ قبلوضع دستور ١٩٦٢ على ما يلى(١٩) :

---

(١٧) ممحد فايق ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(١٨) د. مجدى حماد : دور الجامعة العربية فى التعاون العربى الافريقى : مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الدول العربية والواقع والطموح، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣، ص٥٢٧ـ٥٢٨.

(١٩) راجع فى دساتير الدول العربية الافريقية : د. أمين اسبر ، افريقيا والعرب ، بيروت ، دار الحقائق ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٧ـ١٧٠ .

« يعمل المغرب بكل ما أوتى من امكانيات لتطبيق ميثاق الدار البيضاء وما ينتج عن هذا المؤتمر بهدف قيام الوحـــدة الافريقية ومحــاربة التمييز العنصرى والاستعمار القديم والجديد » ، وقد نص ملحق الدستور الحالى على « المملكة المغربية دولة اسلامية .. لغتها الرسمية هى العربية وهى جزء من المغرب العربى وبصفتها دولة افريقية فانها تجعل من بين اهدافها تحقيق الوحدة الافريقية » ، بينما نجد أن دستور مصر وان لم ينص على الافريقية الا أن كل الدساتير المصرية الصادرة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، أكدت على انتماء مصر للامة العربية وليس معنى ذلك التقليل من درجة الانتماء المصرى لافريقيا فمصر منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ وتضامنها وحركتها الفعالة مع افريقيا ووحدتها ليست محل شك .

وفى دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية الصادر عام ١٩٧٦ ، تشير أكثر من مادة الى تبنى الجزائر لمبادىء وأهداف الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية ، كما تشير الى الالتزام وتشجيع الصيغ الاتحادية والاندماجية العميقة للشعوب العربية ، وفى نص آخر يؤكد على أحد أهداف منظمة الوحدة الافريقية وتشجيع الوحدة بين شعوب القارة يشكلان مطلبا تاريخيا وخطا دائما فى سياسة الجزائر .

وينص دستور تونس فى ديباجته فقط على الانتماء للاسرة العربيـة والتعاون مع الشعوب الافريقية(٢٠) .

وبالنسبة لليبيا فيشير دستورها الى ان ليبيا جزء من افريقيا . بينما السودان ينص الدستور السودانى على أن جمهورية السودان جزء من الكيان العربى الافريقى .

وعن الصومال فقد نص فى المادة الأولى من دستور ١٩٧٩ أن الصومال جمهورية .. جزء من الأمة العربية والشعوب الافريقية ، كما حدد أن لغتيه الرسميتين هما الصومالية والعربية .

وعن موريتانيا فقد غاب ذكر افريقيا فى دستورها الصادر فى عـــام ١٩٦١(٢١) .

---

(٢٠) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .
(٢١) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

وبصفة عامة فانه يمكن القول ان الدول العربية الافريقية تتباين فى نظرتها الى الافريقية والعربية وان كانت لم تتجاهل احداهما ولم ينص فى دساتير بعضها على ذلك ، وهذا امر طبيعى فلكل دولة أوضاعها المختلفة وعلاقاتها المتداخلة والمتشابكة .

طبيعة التواجد العربى فى الميظمة الافريقية :

لا غرابة البتة فى أن تكون هناك دولا عربية افريقية فى آن واحد كما أوضحنا سلفا فليس هناك تناقض بين الاثنتين بل لعل هناك مدعاة للتكامل والترابط ومن ثم فان وجود هذه الدول فى المنظمة الاقليمية العربية أو الافريقية ليس بمستغرب أو مستحدث فهو أمر طبيعى خاصة وأن هناك معايير موضوعية للعضوية فى كل من المنظمتين ، فقد حددت منظمة الوحدة الافريقية شروطا موضوعية للانضمام اليها ، جاءفى بدايتها ان تكون الدولة راغبة الانضمام افريقية ، وهذا الشرط مرتبط ارتباطا وثيقا بالاطار الاقليمى ولقد عنيت كلمة الافريقية اكثر من مدلولها الجغرافى ، وامتد معناها ليشمل الايديولوجية الافريقية باعتبارها المحدد الأساسى للافريقية وهو ما معناه واضعو ميثاق منظمة الوحدة الافريقية وان لم يأت ذلك نصا ، فقد أشار الميثاق صراحة لشرط العضوية دون تحديد أبعاد الافريقية تحديدا مطلقا واكتفى بأن أورد فى ديباجته ما مؤداه ان المنظمة خاصة بافريقيا وأن الأهداف تعمللتحقيق آمال شعوب افريقيا مع تكريس كل الجهد للتقدم الشامل لافريقيا ، وأوردت المادة الأولى نصا ، بأن المنظمة تضم دول القارة الافريقية ومدغشقر والجزر المجاورة للقارة .

وغنى عن الذكر أن افريقيا بمعناها اللفظى وبتحديدها الجغرافى أمر بديهى ولكن ايديولوجيتها هى المحدد الأساسى وهى مرتكز وأساس أهداف ومبادىء المنظمة المتعلقة بمحاربة الاستعمار وتحرير الأراضى الافريقية ومحاربة سياسة التفرقة العنصرية والتأكيد على أعمال مبدأ حق تقرير المصير .

وعلى الجانب الآخر ، يأتى ميثاق جامعة الدول العربية الذى أعطى الحق لكل دولة عربية أن تنضم للجامعة ، ولم يحدد الميثاق معنى العروبة أو المقصود بالدولة العربية ، وترك هذه المسألة لمجلس الجامعة ، وان كان أكثر

المعايير تحديدا للعربية هى الاقليمية الحضارية تلك المتمثلة بالاضافة الى التجاور الجغرافى فى ضرورة توافر حضارة معنية كتقارب اللغة ووحدتها وتقارب الثقافة والتاريخ فضلا عن المصالح الاقتصادية والسياسية المشتركة ومن هنا يمكن القول بأن الوحدة العربية لا تقتصر على الدول ذات الأصول العربية ولا على تلك التى تدين بالاسلام ولكنها تعد مفتوحة لأن تقبل الدول التى تتكلم اللغة العربية وتشترك مع العرب فى هدف واحد وتراث واحد .

ولا شك أن للغة أهمية كبرى فى تحديد روابط الانتماء ، تعـــد من عناصر الوحدة القومية ، بل العامل الهام الذى يولد لدى الشـــعب ارادة الانتظام فى أمة واحدة ، فهى تعد بحق بمثابة الوعاء الذى تختزن فيه خبرات الأمم ومشاعرها وآمالها وآلامها(٢٢) .

ولعل اللغة العربية على وجه التحديد تمثل مناط الأصالة فى الثقافة العربية بل تعد توأم الشخصية العربية(٢٣) اذا جاز هذا التعبير ، حتى لقد باتت عبارة الحضارة العربية ينظر اليها على انها تعنى النظام الاجتماعى للاسلام واستخدام اللغة العربية كوسيلة للتفاهم(٢٤) .

ومجمل القول ان العرب والأفارقة مرتبطون بمجموعة من الســـمات المشتركة والمميزة والتى تعكس دوافع ومرتكزات التعاون بينهما وتلك السمات تتركز فى العوامل التاريخية والجغرافية ومشاعر مجابهة المخاطر الممثلة فى الاستعمار قديمه وحديثه ولعل هذه السمات المشتركة وهذا التلاصق الجغرافى يتعذر معه التمييز بين العربى الذى يقطن افريقيا والافريقى الأصل .

ورغم الاتساق الطبيعى والمنطقى بوجود الدول العربية الافريقية فى منظمة الوحدة الافريقية ، فلقد حاولت بعض القوى الاستعمارية اثارة نمط من أنماط عدم التوافق بين تيار القومية العربية وتيار الافريقية عند تبـــام

---

(٢٢) د. محمد عبد الغنى سعودى ، قضايا افريقية ، مرجع سابق ، ص ١٣١—١٣٢ .
(٢٣) د. الحبيب الجنحانى : التعريب والأصالة والثقافة المعاصرة ، مجلة شؤون عربية ، العدد ١٥ ، مايو ١٩٨٢ ، ص ٤١—٤٥ .
(٢٤) د. أحمد سويلم العمرى : روح الشعب العربى ، المجلة المصرية للعلوم السياسية ، العدد ٦٧ ، مايو ١٩٧٠ ، ص ٤١—٤٢ .

منظمة الوحدة الافريقية فى مايو ١٩٦٣ ، ووصل الأمر لحـــد أن بعض المسئولين الأفارقة طالبوا بالغاء جامعة الدول العربية وانسـحاب الدول العربية الافريقية منها حتى لا ترتبط أكثر بدول غير افريقية ومن ثم تهتم بقضايا غير افريقية ولقد ظل هذا الفكر موجودا الى حد كبير فى المنظمة منذ قيامها وحتى ١٩٧٣ خاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين(٢٥) .

الدول العربية الافريقية والمشكلات العربية الافريقية

أولا — دور الدول العربية الافريقية فى انشاء منظمة الوحدة الافريقية :

كان توقيع ميثاق منظمة الوحدة الافريقية من ملوك ورؤسـاء الدول الافريقية ورؤساء الحكومات المجتمعة فى اديس ابابا (اثيوبيا) فى ٢٥ مايو عام ١٩٦٣ ايذانا بانشاء المنظمة ، واعتبرت تلك الدول المشتركة فى انشاء المنظمة دولا ذات عضوية أصلية بلغ عددها ثلاثين دولة افريقية من بينها ست دول عربية تتمتع بعضوية جامعة الدول العربية وهى مصر والسودان وليبيا والجزائر والمغرب وتونس بالاضافة الى الصومال وموريتانيا(٢٦) اللتين اكتسبتا عضوية لاحقة فى جامعة الدرل العربية أما عن دولة جيبوتى والتى انضمت فيما بعد الى جامعة الدول العربية فقد أصبحت عضوا لاحقا فى منظمة الوحدة الافريقية بعد استقلالها فى ٢٥ يونيو ١٩٧٧ وكانت الدولة التاسعة والاربعين فى المنظمة والتى بلغ عدد الدول الأعضاء فيها خمسين

---

(٢٥) د. مجدى حماد : العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥ .

(٢٦) كان تمثيل هذه الدول كالتالى :

مصر : الرئيس جمال عبد الناصر ، السودان : الفريق ابراهيم عبود ، ليبيا : الأمير حسن رضا ، الجزائر : الرئيس أحمد بن بللا ، تونس : الرئيس الحبيب بورقيبة . ولم يشترك الملك الحسن ملك المغرب فى اجتماع الرؤساء ذلك أن المغرب قرر عدم المشاركة فى اجتماعات تشارك فيها موريتانيا لأنها تعتبرها جزء من المغرب ، وان وقعت المغرب بعد ذلك على الميثاق واعتبرت من الدول ذات العضوية الأصلية . وقد كان وفد الصومال برئاسة أدن عبد الله عثمان ، موريتانيا برئاسة الرئيس مختار ولد داده . راجع فى ذلك :

د. بطرس بطرس غالى ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

— OAU, Basic Documents of Organization of African Unity (Addiss Ababa. Provisional secretarial), (n. d.). p. 13.

دولة ، ولقد كان اسهام الدول العربية الافريقية فى انشاء منظمة الوحدة الافريقية اسهاما متميزا ذلك انها شاركت منذ البداية فى عمل اللجان التى شكلها المؤتمر التمهيدى لوزراء خارجية الدول الافريقية عند انشاء المنظمة والذى بدأ أعماله فى ١٥مايو عام ١٩٦٣(٢٧) .

ولقد استمر جهود الدول العربية الافريقية حتى أعلن قيام المنظمة ، وكان أول مؤتمر قمة افريقى يعقد فى القاهرة من ١٧ — ٢١ يوليو عام ١٩٦٤، وحضرته ٣٣ دولة وراس المؤتمر المضيف جمال عبد الناصر ، ولم تكن القاهرة هى الدولة العربية الافريقية التى حظيت بانعقاد مؤتمر القمة الافريقى الأول بها بل لقد انعقد المؤتمر فى أربع دول عربية افريقية بخلاف القاهرة(٢٨) فضلا عن انعقاد مجلس الوزراء بهذه الدول فى جلسته السابقة لانعقاد مؤتمر رؤساء الدول والحكومات .

وباجنب هذا فقد اسهمت الدول العربية الافريقية فى تشكيل جهاز الامانة العامة للمنظمة حيث تولى فى بداية قيام المنظمة بناء على ترشيح مصر احد أبناء الجزائر وظيفة أمين مساعد للمنظمة واستمرت فترتين متتاليتين . حتى حل محله جزائرى آخر فى عام ١٩٧٢(٢٩) .

---

(٢٧) على سبيل المثال لا الحصر شاركت مصر والمغرب وتونس فى اللجنة التى شكلت لبحث العلاقة بين الأمم المتحدة وافريقيا وكذلك ، شاركت المغرب والصومال فى احدى اللجان الفرعية المشكلة لدراسة التفرقة العنصرية ، كما شاركت مصر والسودان فى لجنة نزع السلاح ، واسهمت تونس فى لجنة التخلص من الاستعمار .
ولقد كان لمصر دورا بارزا فى تقريب وجهات النظر المتباينة التى ثارت حول مبادىء وأهداف المنظمة وحول ميثاقها بصورة عامة ، فضلا عن أن مصر، تقدم وفدها برئاسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، بمشروع لتحقيق الوحدة الافريقية يتلخص فى اقامة جامعة افريقية على غرار الجامعة العربية . راجع : د. بطرس بطرس غالى ، المرجع السابق ، ص ٥٣—٥٥.
— محمد فائق ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

(٢٨) انعقد مؤتمر رؤساء الدول والحكومات فى الجزائر فى سبتمبر ١٩٦٨ ، الرباط فى يونيو ١٩٧٢ ، ومدغشقر فى يونيو ١٩٧٤ ، والخرطوم فى يوليو ١٩٧٨ .

(٢٩) كان السيد محمد سحنون ضمن أربع أمناء مساعدين للمنظمة رشحتهم مصر أثناء انعقاد أول مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية فى نهاية يوليو عام ١٩٦٤ ، واستمر حتى ١٩٧٢ حتى حل محله السيد نور الدين جودى .

كما أسهمت الدول العربية الافريقية فى الجهاز الادارى للمنظمة بعدد من الموظفين العاملين من مصر والمغرب والصومال والسودان وموريتانيا .

ولم يغب دور هذه الدول فى مشاركتها فى اللجان المتخصصة التى انشأتها المنظمة بالاضافة الى لجنة تحرير افريقيا وان لم تعتبر لجنة متخصصة حيث لم ينص ميثاق المنظمة على انشائها(٣٠) ، ولقد كانت مصر من الأعضاء المؤسسة فى اللجنة وقد اختيرت على أساس دورها فى حركة التحرير الافريقية وما قدمته من مساعدات لحركات التحرير ، بالاضافة الى اختيار الجزائر عضو أيضا ، ثم بزيادة عدد أعضاء لجنة التحرير(٣١) اضيفت اليها المغرب وموريتانيا والصومال .

ومجمل القول : ان هذه المساهمة العربية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية تعد تعبيرا عن مدى الروابط العربية الافريقية وبانعدام التناقض بين حركتى الوحدة العربية والافريقية وانه ليس هناك سلم تفضيلى يمثل لصالح التعاون العربى مع عرب أسيا اكثر من تعامله مع عرب افريقيا ، وان كان هناك اسبقيات لنوعية التعاون فى مرحلة معينة الا أن ذلك لا يحجب الرؤية الشاملة لحركة الوحدة العربية أو الافريقية(٣٢) التى يجب أن تكون واضحة دائما حتى لا يدخل تيار الحركة فى دروب ومسالك ضيقة قد تعيق من مساره .

ثانيا — القضايا العربية الافريقية المشتركة داخل اطار منظمة الوحدة الافريقية :

رغم ان الوجود العربى داخل اطار منظمة الوحدة الافريقية لم يكن بمثابة جسم غريب الا أن حذر الافارقة لا يمكن غض الطرف عنه خاصة مع

---

(٣٠) كان انشاؤها بمقتضى قرار خاص من مؤتمر القمة الافريقى التأسيسى ، راجع :

Woffers, Michael, Poltics in Organization of African Unity (London. Methuen 1976), pp. 163-194.

— Cervenka, Zdenek. The Unfinished for Unity (New York : Adivision of Holmes & Merier publishers, 1977), pp. 45-63.

(٣١) بدات اللجنة بعدد ٩ أعضاء وزيدت الى ١٧ ثم الى ٢٤ عضوا ومقر اللجنة دار السلام عاصمة تنزانيا . راجع : المرجع السابق مباشرة .

(٣٢) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

استمرارية النزعة القارية الافريقية ومع وجود تراكمات عمل الاستعمار على تغذيتها ، ولقد تجلى ذلك فى بداية قيام منظمة الوحدة الافريقية خاصة مع رغبة دول افريقيا فى أن تنسحب الدول العربية الافريقية من جامعة الدول العربية حتى تكرس ولاءها للمنظمة القارية الجديدة(٣٣) . ولقد تحت مخاوف افريقيا من الزج بمشكلة فلسطين فى اطار المنظمة الجديدة على أساس أنها قضية غير افريقية ويمكن أن تحدث خللا داخل المنظمة .

وعلى الجانب الاخر يمكن القول ان اهتمام الدول العربية والافريقية فى المنظمة بالمشكلات الافريقية وبالقضايا التى تهم القارة لم يكن واهنا وانما كان منسجما فى الاطار العام للمنظمة .

ويمكن فى هذا الاطار عرض هذه الأدوار العربية والافريقية من خلال المنظمة فى اطار زمنى تحدده المتغيرات التى واكبت حياة المنظمة وأثرت فى جل دولتها .

(أ) المرحلة الأولى من ١٩٦٣ — ١٩٦٧ :

وتحدد هذه المرحلة التفاعلات العربية الافريقية داخل المنظمة منذ قيام المنظمة وحتى حرب يونيو ١٩٦٧ . فقد تميزت هذه الفترة بالاهتمام العربى بقضايا افريقية خاصة قضايا تصفية الاستعمار فى افريقيا باعتبارها هدفا من بين مجموعة الأهداف التى نص عليها الميثاق فى مادته الثانية وقد أمكن للمنظمة خلال هذه الفترة الزمنية مساعدة حركات التحرير الوطنية ومساندة الدول التى كانت ما زالت مستعمرة من الحصول على استقلالها ؛ وبالفعل حصلت ٦ دول على الاستقلال ابان هذه الفترة(٣٤) ولم يكن الاهتمام

---

(٣٣) د. مجدى حماد ، فى : جامعة الدول العربية ، مرجع سابق ، ص ٥١١ .

(٣٤) حصلت هذه الدول على استقلالها وانضمت للمنظمة طبقا للتواريخ التالية : كينيا فى ١٩٦٣/١٢/١٢ وانضمت للمنظمة فى عام ١٩٦٤، مالاوى فى ١٩٦٤/٧/٦ وانضمت فى نفس العام ، زامبيا فى ١٩٦٤/١٠/٢٤ وانضمت عام ١٩٦٥ جامبيا فى ١٩٦٥/٢/٢٨ وانضمت فى نفس العام ، بتسوانا فى ١٩٦٦/٩/٣٠ وانضمت فى نفس العام ، ليسوتو فى ١٩٦٦/١٠/٤ وانضمت فى نفس العام . راجع :
د. عبد الرحمن الصالحى ، منظمة الوحدة الافريقية فى خلال عشرين عاما ، القاهرة ، الجمعية الافريقية ، ١٩٨٣ ، ص ٧٤—٧٥ .

العربى الافريقى بقضايا التحرير متحدثا بل لقد أصدرت الجامعة العربية منذ الخمسينات تطالب الدول العربية بمساعدة حركات التحرير فى افريقيا مع تأييد قضاياها فى المحافل الدولية ، وبجانب هذا كان التأييد العربى أيضا لافريقيا فى معارضة سياسة التفرقة العنصرية من منطلق أن هذه السياسة تجافى مبادىء ميثاق جامعة الدول العربية وتأييد جامعة الدول العربية لافريقيا فى هذا الشأن طبقا لقراراها التى أصدرته فى ٩ ابريل عام ١٩٦٠(٣٥) بل لقد كان القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للامم المتحدة ١٧/١٧٦١ فى ٦ نوفمبر ١٩٦٢ بشأن التفرقة العنصرية متأثرا بالجهود العربية ولقد أسهمت الدول العربية الافريقية كذلك فى تسوية بعض المنازعات الدولية الافريقية ، فلقد قامت مصر بدور الوسيط فى عديد من المنازعات الافريقية كالنزاع بين اثيوبيا والصومال والنزاع بين كينيا والصومال ، وغانا وغينيا ،واثيوبيا والسودان ، كذلك قام السودان بدور للتسوية السلمية للمنازعات بين اثيوبيا والصومال وكينيا عام ١٩٦٤ ، وتوصلت الجهود السودانية مع زامبيا من ايقاف التوتر بين الأطراف المتنازعة(٣٦) كما قام بالوساطة الشخصية أيضا الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة ، والرئيس نكروما (غانا) ، والرئبس نيريرى (تنزانيا) . ولعل من المناسب القول بأن منظمة الوحدة الافريقية نجحت فى تسوية بعض المنازعات العربية الافريقية(٣٧) والتى فشلت فيها جامعة الدول العربية .

وعلى الجانب الاخر فان اهم القضايا العربية البارزة على السطح فى تلك الفترة كانت قضية فلسطين والتى كانت تتحاشاها الدول الافريقية

---

(٣٥) راجع وزارة الخارجية المصرية ، التعاون الافريقى العربى ١٩٧٧ — ١٩٧٨ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤ .

(٣٦) راجع :

Lewis. I. M; «Recent Devetopment in the Somalia Disputes», African Affairs, Vd. 66. No. 63 Aprii. 1967. p. 104

— Mayall, James, African Unity and the OAN.

— Mayall, James, «African Unity and the OAU» Year Book of world Affairs, vol. 27, 1975, p. 126.

(37) Andemicael Berhanykun. «Peacefull Settlement Among» African States (New York: UNITAR, 1972).

وتثير كثيرا من التحفظات ضد ادراجها فى جدول أعمال المنظمة باعتبارها قضية عربية وليست افريقية ولعل الرئيس جمال عبد الناصر أراد الحديث عن النزاع العربى. الاسرائيلى بصورة حذره دون اشتعال الحساسيات الافريقية فقال فى خطابه امام المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الافريقية بأديس ابابا (مايو ١٩٦٣) :(٣٨)

« ان الجمهورية العربية المتحدة أتت الى هنا بقلب مفتوح وعقل مفتوح وتقدير للمسئولية مفعم بالنية الصادقة وهى مستعدة أن تتحمل الى كل الحدود مسؤولياتها التاريخية تجاه قارتنا الافريقية .. ولقد جئنا الى هنا بغير انانية ، حتى المشكلة التى نعتبرها من أخطر مشاكلنا وهى مشكلة اسرائيل التى رأت معنا دول مجموعة الدار البيضاء بحق انها أداة من أدوات التسلل الاستعمارى فى القارة وقاعدة من قواعده العدوانية — لن نطرحها للمناقشة فى هذا الاجتماع مؤمنين بأن تقدم العمل الافريقى الحر سوف يكشف الحقيقة .. ويعريها من كل زيف أمام الضمير الافريقى ، وهكذا جئنا الى هنا بغير تحفظات ونؤمن أن نجاح هذا العمل المشترك سوف يفى بكل مطالبنا » .

ولقد ابرز وأكد الرئيس جمال عبد الناصر التصور العربى للنزاع العربى الاسرائيلى أمام المنظمة الافريقية فى أول مؤتمر لرؤساء الدول والحكومات الافريقية فى القاهرة (١٧ — ٢١ يوليو ١٩٦٤) حيث وارد فى كلمته أمام المؤتمر :

« هناك أيضا قضية تشغل بالنا .. نحن نعتبرها قضية مصير .. نعنى بها هذا الجزء من الوطن العربى الذى اقتطع منه لتقوم عليه بالعدوان قاعدة للاستعمار فى اسرائيل .. لا نريدكم فى هذا الأمر أن تأخذوا الموضوع كما طرحنا ، عليكم ، لكننا نريدكم أن تولوه المزيد من توفيقكم ومن بحثكم الأمين »(٣٩) .

---

(٣٨) جمال عبد الناصر ، مجموعة خطب وتصريحات وبيانات ، القسم الرابع ، من فبراير ١٩٦٢ — يونيو ١٩٦٤ ، و(القاهرة : مصلحة الاستعلامات) ، ص ٣٦١ .

(٣٩) مركز الوثائق والبحوث ، نشرة الوثائق : مجموعة الخطب التى التيت فى مؤتمر رؤساء الدول والحكومات لمنظمة الوحدة الافريقية ، ملحق العدد الأول يوليو — أغسطس ١٩٦٤ ، القاهرة ، مصلحة الاستعلامات ١٩٦٤ ، ص ١٣ .

ولقد تحدث فى هذا الشأن ايضا وفى نفس المؤتمر الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة والرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا . وان لم تظهر القضية فيما صدر عن المؤتمر من قرارات وبيانات الا ان المشكلة طرحت فى اطار عمل مشترك أملا فى أن ياتى اليوم التى تتبنى فيه الدول الافريقية الموقف المشترك مع الدول العربية داخل اطار المنظمة الافريقية(٤٠) .

ولقد كان الحديث فى مؤتمر القاهرة بمثابة تدرجا فى عرض القضية وتوزيعا للادوار حيث كان حديث الرئيس المصرى باعتباره المضيف بالاشارة للقضية والدعوة لفهم افريقيا لها ثم جاء حديث الرئيسين التونسى والجزائرى بمطالبة الدول الافريقية بمساندة القضية .

ومما تجدر الاشـــارة اليه ان مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الذى انعقد فى عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ لم يشر فيهما من قريب أو بعيد لقضـــية فلسطين أو للنزاع العربى الاسرائيلى سوى اشارة سلبية حيث اثار وفـــد ملاجاشى فى مؤتمر ١٩٦٦ سؤالا حول عدم دعوة اسرائيل لحضور جلســة الافتتاح(٤١) ، ومما تجدر ملاحظته أيضا انه خلال تلك الفترة وفى نهاية عام ١٩٦٦ كان التمثيل الدبلوماسى الاسرائيلى فى افريقيا يغطى ٢٩ دولة افريقية وكانت دول منظمة الوحدة الافريقية فى ذلك التاريخ ٣٨ دولة بمعنى أن هناك تدع دول لم يكن هناك تمثيل دبلوماسى بينها وبين اسرائيل وهى الدول العربية الافريقية عدا جيبوتى التى لم تكن استقلت بعد بالاضافة الى ليسوتو التى لم تكن لها علاقات حتى عام ١٩٦٦ وان تبادلت العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل عام ١٩٦٧ ذلك انها استقلت فى اكتوبر عام ١٩٦٦ .

ومجمل القول : ان القضية الفلسطينية كانت فى غيبة عن افريقيا حتى منتصف الستينات باستثناء بيان الدار البيضاء عام ١٩٦١ الذى وقعه من

---

(٤٠) د. عبد الملك عودة : الدول الافريقية والقضايا العربية فى : د. محمود خيرى عيسى (اشراف) ، العلاقات العربية الافريقية ، مرجـــع سابق ، ص ٣٢٠ .

(٤١) محمد عبد الله رضا عرفات : منظمة الوحدة الافريقية والصراع العربى الاسرائيلى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٥١ .

افريقيا رؤساء غانا وغينيا ومالى ومصر والمغرب وحكومة الجزائر المؤقتة(٤٢) ولعل السبب ليس القصور العربى فحسب بقدر ما هو الدور الاسرائيلى المركز الذى أدته اسرائيل على عدة محاور اقتصادية وسياسية وعسكرية مع افريقيا وتخللها الى الأنظمة السياسية الافريقية وافهام الافريقيين انهم اكثر الشعوب معاناة من التميز العنصرى وان اسرائيل تعانى مثلهم من هذه التفرقة والتى تقوم على اساس دينى ، أى محاولة ترسيخ معنى معين فى أذهان الأفارقة وان العرب يكرهون اسرائيل لأسباب دينية وانه لا ينبغى حرمان دولة من حقها لمجرد أسباب فنية أو دينية أو عنصرية وفى محاولة تكتيكية تعبر اسرائيل عن موقفها المعلن فى تأييد جنوب افريقيا وتصوت فى الجمعية العامة للامم المتحدة لأول مرة فى نوفمبر عام ١٩٦١ الى جانب مشروع القرار الخاص بفرض عقوبات اقتصادية على جنوب افريقيا(٤٣) وفى الواقع فان هذا الأسلوب الاسرائيلى موجه عن عمد لخدمة أغراضها ومصالحها ، وبالقطع فان مبصر التاريخ يستطيع أن يدرك جيدا أن مؤسسى دولة اسرائيل هم من اليهود الاشكيناز البيض الذين ينتمون الى الحضارات البيضاء التى أذاقت الافريقيين كل صنوف الاستعمار(٤٤) .

(ب) المرحلة الثانية : من ١٩٦٧ — ١٩٧٣ :

حصلت أربع دول افريقية على استقلالها خلال هذه الفترة وانضمت لعضوية منظمة الوحدة الافريقية وبذلك بلغت اثنين وأربعين دولة(٤٥) .

وان كانت منظمة الوحدة الافريقية قد بذلت جهدا ميسورا فى الدعوة الى استقلال هذه الدول ومحاولة تخليص دول افريقيا من الاستعمار الاستيطانى الا أن الجهود المبذولة فى مقاومة الاستعمار الجديد بكل سماته وابعاده لم تثمر بعد ذلك انها واهنة من البداية خاصة ان دول افريقيا لم

---

(٤٢) راجع : أمين اسبر : مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٤٣) د. مجدى حماد : افريقيا فى التوجه الاسرائيلى ، مجلة شؤون عربية ، العدد ١٨ ، أغسطس ١٩٨٢ ، ص ١٥٠ .

(٤٤) د. اسماعيل سرور شلش : العلاقات العربية الافريقية المعاصرة فى ظل الوجود الاسرائيلى فى القارة الافريقية ، مجلة شؤون عربية ، العدد ٣٢ ، أكتوبر ١٩٨٣ ، ص ٥٠—٥١ .

(٤٥) حصلت موريشيوس على استقلالها فى ١٩٦٨/٣/١٢ ، سوازيلاند فى ١٩٦٨/٩/٦ وغينيا الاستوائية فى ١٩٦٨/١٠/١٢ ، وغينيا بيساو فى ١٩٧٣/٩/٢٤ .

تتفق حتى الآن على حد أدنى للتصدى لهذا النوع من الاستعمار خاصة وان المجهودات الأولى فى سبيل تنشيط التعاون الاقتصادى ما زالت قاصرة ومحدودة .

ولقد اتسمت هذه الفترة باستمرار بعض المنازعات الافريقية التى عرضت على منظمة الوحدة الافريقية .

فالنزاع القائم بين الصومال واثيوبيا حول الاوجادين وان مر بفترة تهدئة مؤقتة نتيجة للظروف الداخلية لكل طرف الا انه بدات تظهر بعض المشكلات التى تطورت الى اشتباكات على الحدود فى عام ١٩٧٣ رسعت الصومال لادراج مسألة النزاع فى جدول اعمال وزراء خارجية المنظمة ليعرض على مؤتمر رؤساء الدول والحكومات فى اجتماعه فى اديس ابابا (مايو ١٩٧٣) وأحال المؤتمر أمر النزاع الى لجنة خاصة لمحاولة التوفيق بين البلدين مشكلة من ثمانى دول كان من بينها دولتان عربيتان افريقيتان وهما السودان وموريتانيا(٤٦) وان اخفقت اللجنة فى تحقيق اى نجاح لتمسك كل طرف بوجهة نظره(٤٧) .

وان كانت المساعدات والتأييد العربى للصومال مرجحة خاصة تلك الواردة من السعودية ومصر ، بالرغم من أن الصومال لم تكن قد انضمت بعد لجامعة الدول العربية(٤٨) .

وان كانت هناك اهتمامات عربية انعكست على مسار النزاع الصومالى الاثيوبى فان مسألة انفصال اقليم بيافرا فى نيجيريا لم تشارك فيه الدول العربية الافريقية ، فعندما اشتد القتال داخل نيجيريا واتجهت بعض الدول الافريقية بالتلويح بالاعتراف ببيافرا وتصادف انعقاد مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية فى دورته العادية الرابعة (كنشنسا ، ١١—١٤ سبتمبر

---

(٤٦) أحمد أبو شادى : خريطة الوحدة الافريقية فى عقدها الأول مجلة السياسة الدولية ، العدد ٣٣ ، يوليو ١٩٧٣ ، ص ١٣١—١٣٢ .

(47) Somalia Democratic Republic, Africa Contemporary Record, 1973-1974. (London: Rexocllings, 1974), p. b 245.

(٤٨) دخلت الصومال عضوا جديدا فى جامعة الدول العربية فى ١٩٧٤/٢/١٤ .

١٩٦٧) أصدر المؤتمر قرارا بارسال لجنة استشارية لرئيس حكومة نيجيريا الاتحادية تتألف من رؤساء دول : الكاميرون ، الكونغو ، كينشاسا ، اثيوبيا، غانا ، ليبيريا ، النيجر ، تهدف الى تأكيد رغبة المؤتمر فى الحفاظ على سلامة أراضى نيجيريا ووحدتها .

وبالرغم من عدم وجود جهد عربى متميز الا أن هناك مساعدات عسكرية مصرية قدمت للحكومة النيجيرية حيث قاد بعض الطيارين المصريين طائرات سوفيتية فى عمليات ضد المنشقين فى بيافرا(٤٩) ولعل هذه المساعدات كانت فى اطار ارتباط مصرى سوفيتى فى تلك الفترة وهو ارتباط أملته مصالح متبادلة خاصة وان مساعدات الاتحاد السوفيتى وتدخله فى هذه الحرب الأهلية كان وفقا لاستراتيجية معينة تهدف الى تحقيق مصالح فى المنطقة تتوازن على الأقل مع مصالح الولايات المتحدة الامريكية التى تقف بجانب المنشقين فى بيافرا .

وبجانب هذه القضايا الافريقية فان النزاع العربى الاسرائيلى بدأ يطرح نفسه على المنطقة الافريقية بصورة ملموسة الى حد ما اعتبارا من عام ١٩٦٧ رغم أن العلاقات الاسرائيلية الافريقية فى هذه الفترة كانت متنامية جدا ، فقد كان عدد البعثات الدبلوماسية الاسرائيلية فى افريقيا ٣٢ بعثة فى مقابل ١١ بعثة دبلوماسية افريقية فى اسرائيل ، فضلا عن وجود خمسة قنصليات اسرائيلية فخرية فى ٥ دول افريقية لم تكن استقلت بعد(٥٠) .

ولقد لعبت الدول العربية الافريقية دورا ملموسا داخل منظمة الوحدة الافريقية فقد تقدمت الجزائر والمغرب وموريتانيا للمنظمة باقتراح لاثارة مسألة العدوان الاسرائيلى على الدول العربية فى ٥ يونيو ١٩٦٧ أمام المؤتمر الرابع لرؤساء الدول والحكومات الافريقية ، كما اقترحت الصومال عقد جلسة غير عادية لمجلس وزراء المنظمة لبحث اتخاذ موقف موحد تجاه حرب يونيو .

---

(49) Hartmann, Frederick H., The Relations of Nations Fifth ed. (New York: Macmillan Publishing co., 1978), p. 548.

(٥٠) د. أمين اسبر ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

ولقد باءت هذه الجهود بالفشل ، فقد رفضت اغلبية دول المنظمة هذه المقترحات باعتبار أن المشكلة ليست افريقية وتدخل فى نطاق اختصاص الأمم المتحدة(٥١) كما أن الانعقاد الطارىء لمجلس وزراء المنظمة يستلزم موافقة ثلثى الأعضاء طبقا لنص ميثاق المنظمة(٥٢) .

وفى المؤتمر الرابع لرؤساء الدول والحكومات، الافريقية الذى عقد فى كنشاسا فى سبتمبر ١٩٦٧ رغم أن موضوع العدوان الاسرائيلى على البلاد العربية لم يدرج ضمن جدول الأعمال الا أن السيد اسماعيل الازهرى رئيس السودان ورئيس وفده للمؤتمر اعلن أ ن العدوان على مصر عدوان على كل دولة افريقية .

كما تحدث الاستاذ محمد فائق رئيس الوفد المصرى للمؤتمر عـــرض المسألة بصورة دبلوماسية لبقة فأشار الى أن مصر لم تطلب أدراجها فى جدول الأعمال عن قصد ليس لبساطة الأمر او لأن المنظمة غير جهة اختصاص ولكن حتى لا تحمل المؤتمر تفصيلات مشكلتها التى قد تعيقه عن تحقيـــق نجاحه وان مصر تدرك أن الفرصة ستتاح بعد أيام قليلة لعرض المسألة فى الجمعية العامة للامم المتحدة ، وان مصر حريصة فقط على بيان موقفها دون صدور قرار أو توصية وقد كان من نتيجة هذا التحرك المصرى والسودانى والجزائرى والصومالى والموريتانى أن أصدر المؤتمر اعلانا أعرب فيه عن قلقه ازاء الموقف الخطير الذى يسود بلد افريقى .. وقرر السعى داخــل الأمم المتحدة حتى الجلاء عن أراضى مصر(٥٣) .

وبدات من هذه اللحظة تتنامى اهتمامات المنظمة بالنزاع العـــربى الاسرائيلى وان كانت بداية الاهتمام انه يمثل عدوان على مصر احدى الدول الأعضاء فى المنظمة ولقد كان الجهد العربى داخل المنظمة منصرفا الى حد كبير الى توضيح المسألة وتوضيح الصورة الحقيقية لاسرائيل ولقد نجحت

---

(51) Akinsanya, Adeoye, «The Afro Arab Alliance, Dream or Reality», African Affairs, vol. 75, No. 301, oct. 1976, p. 522.

راجع : محمد عبد الله رضا عرفات ، مرجع سابق ، ص ٢٥٤—٢٥٧.

(٥٢) د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .

— منظمة الوحدة الافريقية ، الميثاق ، المادة ١٢ .

(53) AHG/Res/S.T. 2(IV).

مصر الى حد كبير فى ابراز هذه الصورة خاصة وان عددا كبيرا من الدول الافريقية لم تكن تعى شيئاكثيرا عن هذه القضية خاصة وان العرب استعملوا صورا واشكالا متباينة لعرض القضية(٥٤) .

وطبقا لهذا المحتوى الجديد فقد صور قرار المنظمة فى اجتماع رؤساء الدول والحكومات فى مؤتمرهم الخامس الذى انعقد فى الجزائر (١٣ — ١٦ سبتمبر ١٩٦٨) مؤيدا مصر ومطالباته بانسحاب القوات الأجنبية من جميع الأراضى العربية المحتلة منذ ٥ يونيو عام ١٩٦٧ طبقا لقرار مجلس الأمن فى هذا الشأن(٥٥) .

ويلاحظ أن القرار صدر بعد تحرك مصرى وجزائرى فى أروقة المؤتمر وبعد خطاب وزير الخارجية المصرية وانه يشير لأول مرة للاراضى العربية المحتلة وليس للاراضى المصرية فحسب .

ولقد أصدر مؤتمرى الرؤساء بأديس ابابا عام ١٩٦٩ ، عام ١٩٧ قرارات تؤكد ما سبق أن اصدره المؤتمر بشأن النزاع العربى الاسرائيلى ،

وكان نتيجة الجهود المكثفة عربيا داخل المنظمة وخارجها وعلى مستوى العلاقات الثنائية تفهم افريقى شبه كامل للقضية ومن ثم فلقد اصدر مؤتمر رؤساء الدول والحكومات فى دورته العادية الثانية (٢١ — ٢٣ يونيو ١٩٧١) قرارا مؤكدا على ما ورد فى قراراته السابقة وداعيا الى تنفيذ احكام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وقرر تأليف لجنة من عشر رؤساء افريقيين اطلق عليها لجنة الحكماء للاتصال بمصر واسرائيل بهدف الوصول للسلام الدائم والعادل فى الشرق الأوسط .

ولقد نجح مؤتمر الرباط (١٢—١٥ يونيو ١٩٧٢) فى اصدار قرار يشيد بتعاون مصر مع لجنة الحكماء ويشجب موقف اسرائيل المعوق مع مطالبتها بالانسحاب الفورى من كافة الأراضى العربية المحتلة الى خطوط ما قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، كما اكد القرار على مساندته الفعالة لمصر والى ضرورة مساندة كل دول افريقيا لها وطالب القرار دول افريقيا بالامتناع

---

(٥٤) د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣١١ .

(55) AHG/Res/53.

عن امداد اسرائيل بأية معدات أو أسلحة أو تأييد معنوى يمكنها من الاستمرار فى احتلال الأراضى العربية والافريقية(٥٦) .

ويمكن القول بأن قرارات المنظمة التى صدرت فى هذه الفترة كانت نتيجة جهود عربية مكثفة داخل المنظمة خاصة ذلك الجهد المصرى ، فلقد قارنت مصر دائما بين أعمال القمع الاسرائيلية للمواطنين العرب والأعمال المماثلة من جانب الحكومة العنصرية فى جنوب افريقيا بالاضافة الى جهود الدول الأخرى الممثلة فى الجزائر والمغرب وقد اقتصر مؤتمر القمة بينهما خلال عامى ١٩٦٨ ، ١٩٧٢ فضلا عن جهود موريتانيا التى أسهمت بجهد فعال فى لجنة الحكماء التى رأسها الرئيس مختار ولد داده والملاحظ أن تشكيل لجنة الحكماء كان متوازنا ويمثل جناحين ما بين مؤيد للحق والعربى وبين رافض لاقحام افريقيا فى تلك المشكلة .

وبصفة عامة يمكن القول ان منظمة الوحدة الافريقية التى تصاعدت فيها أصوات كثيرة تبعد النزاع العربى الاسرائيلى عن الدخول فى ردهات المنظمة كل ووضعت هذا النزاع فى أولويات جدول أعمالها وبات شبه دورى فى كل اجتماعاتها منذ عام ١٩٦٧ وان كان قرار ١٩٧٢ جاء متحيزا عن باقى القرارات التى سبقته ولعل ذلك يعكس صورة التواجد الاسرائيلى فى أفريقيا والذى بدأ يهتز كما سنلاحظه فى الفترة المقبلة (١٩٧٣) .

(جـ) المرحلة الثالثة : (١٩٧٣ —

تميزت هذه المرحلة بتغير واضح فى العلاقات الاسرائيلية الافريقية على عكس ما تود اسرائيل ، وفى نفس الوقت نما الاهتمام العربى بافريقيا ولعل هناك من الأسباب الموضوعية ما يؤكد على هذا الاهتمام ، فليس هناك شك أن وقوف عدد كبير من الدول الافريقية فى تأييد العرب بعد حرب ١٩٦٧ ، كذلك بدء تعاطف الافريقيون لمصر والجزائر وتعريتهما لموقف اسرائيل وابراز حقيقتها ، وبذلك أضفى العدوان الاسرائيلى على الأراضى العربية بعدا جديدا للعلاقات العربية الافريقية(٥٧) .

---

(56) A. H. G. p. es 67 (IV).

(٥٧) د. اسماعيل سرور شلش ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

وان كانت الفترة التى بدأت مع مشارف ١٩٧٣ تميزت بتطورات كثيرة مرتبطة باسرائيل والعرب والأفارقة وقضية الشرق الأوسط وهذه التطورات حجبت ما عداها من المتغيرات الا أن الدول العربية داخل المنظمة كان لها دور هام فى عديد من القضايا الافريقية الخالصة وكذلك القضايا الأخرى ذات الصبغة العربية الافريقية .

وتمشيا مع أهمية المتغيرات المرتبطة بالعرب واسرائيل وافريقيا سنبدأ بابراز هذه المتغيرات . فلقد كان مؤتمر وزراء خارجية الدول الافريقية الذى عقد فى اديس ابابا فى نوفمبر ١٩٧٣ بداية لتحولات جزرية فى العلاقة بين المجموعتين العربية والافريقية ، فقد قرر هذا المؤتمر من بين ما قرره توصية الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية بالابقاء على قطع العلاقات مع اسرائيل لحين انسحابها من كافة الأراضى العربية المحتلة ولحين استعادة الشعب الفلسطينى لكافة حقوقه القومية المشروعة ، كما يعترف بشرعية نضال شعب فلسطين لاستعادة حقوقه مع تقرير المساندة الايجابية الكاملة لجمهورية مصر العربية فى نضالها المشروع لاستعادة اراضيها بكافة الطرق(٥٨) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن معظم دول افريقيا كانت قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل فى اواخر عام ١٩٧٢ وفى عام ١٩٧٣ قبل وأثناء وبعد حرب اكتوبر(٥٩) .

وان جاء هذا المؤتمر كنقطة تحول حقيقى فقد مهد له مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية الذى عقد فى اديس ابابا عام ١٩٧٣ والذى شارك فيه رئيس جمهورية مصر العربية مع نائبه ووزير الخارجية وعدد من المسئولين وتم فيه لقاء مصرى افريقى على مستوى عدد كبير من رؤساء الدول ومندوبيهم .

وقد أوضح الرئيس المصرى وجهة النظر المصرية من النزاع العربى الاسرائيلى وان القضية تمثل اعتداء ليس على مصر ولكن على أرض افريقية

---

(58) ECM/Res 12/Rev. (VIII).

(٥٩) راجع فى قطع العلاقات الافريقية الاسرائيلية بالتفصيل د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢١ .

ومن ثم اعتداء عليها ، واكد الرئيس السودانى على نفس المعنى وكذلك طالب الرئيس الجزائرى الدول الافريقية بقطع علاقاتها مع اسرائيل ، وأيد الرئيس الموريتانى حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وقد اكد كثير من رؤساء افريقيا هذا الاتجاه ولم تكن هناك غرابة لصدور قرار المؤتمر يعلن لأول مرة احترام حقوق الشعب الفلسطينى الثابتة والتى تشكل عنصرا أساسيا لحل المشكلة وقد اكد القرار ما سبق تأكيده بشأن استمرار احتلال اسرائيل لجزء من أراضى مصر(٦٠) .

ولعل من المناسب القول بأن هذهالفترة وان اتسمت بقيام علاقات ديناميكية بين بعض الدول العربية والدول الافريقية ولاح فى الافق تغير فى موقف الدول الافريقية تجاه الدول العربية فان مبعث هذا التغير يكمن فى الدور العربى الذى لعبته دبلوماسية القمة فى اطار الزيارات المتبادلة والرسائل المتبادلة ، فضلا عن التفاعل العربى الافريقى على صعيد الأمم المتحدة ، بالاضافة الى العلاقات الدبلوماسية الثنائية بين الدول العربية والافريقية وبروز دور الدول العربية الافريقية داخل منظمة الوحدة الافريقية خاصة دول شمال القارة المثلة فى مصر والجزائر وتونس والمغرب ، فقد ساهمت كل من المغرب وتونس فى تزايد التوجه الافريقى ، كما لعبت الجزائر دورا هاما فى مناهضة الاستعمار فى اطار توثيق العلاقات العربية الافريقية من خلال الاتصال بحركات التحرير فى الجنوب الافريقى ، فضلا عن المساعدات المادية لحركات التحرير(٦١) بصفة عامة ، ولعل هذه الجهود بالاضافة الى الجهد المصرى الفعال فى افريقيا بمختلف العادة سواء فى تأييد ومساندة مناهضة التفرقة العنصرية أو فى مساعدة حركات التحرير وتأييدها أو فى الوقوف بجانب الدول الافريقية ضد الحركات الانفصالية فلقد كان دور مصر فعالا ومساندا لحكومة نيجيريا ضد انفصال اقليم بيافرا ومؤيدا لحكومة زائير فى احداث شابا وان قيل انه يحقق دفعا ضد الحركة السوفيتية فى المنطقة فلا ضير فى أن يكون الهدف مزدوجا خاصة وأن مصر تحترم سيادة سلامة أرضى الدول الافريقية ولا تجيز الحركات الانفصالية

---

(٦٠) محمد عبد الله رضا عرفات ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢—٣٦٠ .

(٦١) راجع : وزارة الخارجية المصرية ، مرجع سابق ، ص ٨—١١ .

— د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٥١—٢٥٢ .

وبخاصة ذات الطابع الهدام الهادف الى الاتجاهات اليسارية المتطرفة(٦٢) .

وان كان عام ١٩٧٣ بداية مرحلة تميزت بالديناميكية الافريقية المنتظمة تجاه القضية الفلسطينية والنزاع العربى الاسرائيلى وبتقلص التواجد الاسرائيلى فى افريقيا فان هذه الديناميكية كانت متمشية مع خط الاتجاه العام الدولى من هذه المسألة .

ولقد أفرزت هذه الفترة عديد من المتغيرات ، فقد كان نتيجة حرب اكتوبر ١٩٧٣ ظهور قوة اقتصادية جديدة ممثلة فى الدول العربية البترولية خاصة مع رفع أسعار النفط ظهور مبادرات سياسية افريقية صوب العرب وانكسار فى العلاقات الاسرائيلية الافريقية الى حد كبير ، وقد ادرك العرب الجهد والمشاعر الافريقية والتى وضحت فى مؤتمر وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى الدورة الثانية غير العادية (١٩—٢١ نوفمبر ١٩٧٣) والتى سبق الاشارة اليه فكان الاتجاه العربى المتميز والذى ظهر فى اطار مؤتمر القمة العربى السادس فى الجزائر (٢٦ — ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣) والذى حضره رئيس جمهورية زائير ممثلا عن منظمة الوحدة الافريقية بصفتها مراقب حيث أصدر المؤتمر قرارات تتعلق بتأييد الدول الافريقية فى كفاحها من اجل التحرير والتقدم الاقتصادى والنضال ضد الاستعمار والتمييز العنصرى ، وقرر المؤتمر(٦٣) دعم التعاون العربى الافريقى فى المجال السياسى ، قطع جميع العلاقات مع جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا وتطبيق حظر تام بترولى على تلك الدول ، مع تمويل الدول الافريقية بالبترول العربى ودعم التعاون الاقتصادى والمالى معها ، وانشاء بنك عربى للتنمية الصناعية والزراعية فى افريقيا « المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا » مع تقديم المساعدات الفورية للشعوب الافريقية التى تعانى القحط وهكذا فقد اتخذت خطوة ايجابية فى العلاقات المتبادلة بين العرب والأفارقة بالتنسيق والتنظيم بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية وكانت المحصلة مجموعة وثائق التعاون العربى الافريقى التى اصدرها مؤتمر القمة العربى الافريقى

---

(٦٢) راجع فى الحركات الانفصالية وطبيعتها التقدمية أو الرجعية : د. بطرس بطرس غالى : حوار حول الحركات الانفصالية ، الاهرام الاقتصادى ، العدد ٤٤٨ ، ١٥ ديسمبر ١٩٧٥ ، ص ٦٦ .

(٦٣) يوسف الحسن : التعاون العربى الافريقى ، بيروت ، دار الوحدة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦ .

الذى عقد فى القاهرة فى مارس ١٩٧٧ وما صاحب ذلك من قيام جامعة الدول العربية بانشاءالمصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا وصندوق القروض للدول الافريقية والصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الافريقية(٦٤) .

ومن المناسب القول بأن المساعدات العربية صوب افريقيا لم تكن بين الدول العربية الواقعة فى آسيا فحسب بل شاركت فيها كذلك الدول العربية الافريقية كمصر والجزائر وليبيا وتونس والسودان(٦٥) ، كما انه من المناسب القول ايضا ان المساعدات والعون العربى لا يقدم الى دول افريقية فحسب بل ان بعض الدول العربية الافريقية تستفيد من هذا العون ايضا كموريتانيا والصومال(٦٦) .

ولقد استمر التأييد الافريقى للعرب فى نزاعهم مع اسرائيل من خلال قرارات منظمة الوحدة الافريقية التى كانت متماثلة الى حد كبير ، وعلى الجانب الاخر فان المعونات المالية العربية للدول الافريقية قد تزايدت بشكل واضح منذ عام ١٩٧٧ وان توقفت أجهزة التعاون الجماعى التى تكونت بموجب وثائق مؤتمر القمة العربى الافريقى فى عام ١٩٧٧ الا أن العون المالى لم يتوقف بالرغم من أن العلاقات العربية الافريقية شابها كثيرا من السلبيات التى سيتعرض لها الباحث فى الجزء الأخير من البحث ، وعلى وجه الخصوص فانموقف الدول العربية الافريقية داخل منظمة الوحدة الافريقية لم يكن منسقا أو على قدر من الاجماع بل لقد حاولت بعض الدول تجميد عضوية مصر فى المنظمة على اثر توقيع اتفاقية كامب دافيد واتفاقية السلام بينمصر واسرائيل وان أصدرت المنظمة قرارا فى هذا الشأن الا أنه لم يشر الى هذه الاتفاقيات بالاسم وان أدان — الاتفاقيات الجزئية وجميع المعاهدات

---

(٦٤) د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢١ .

(٦٥) وهذه الدول بالاشتراك مع بعض الدول العربية الأخرى : السعودية والعراق وسلطنة عمان وقطر والكويت ساهمت فى رأس مال الصندوق العربى للمعونة الفنية لافريقيا .

(٦٦) أعلنت موريتانيا فى ١٩٧٨ تنازلها عن نصيبها فى الأموال المخصصة للكوارث الطبيعية والجفاف لصالح الدول الافريقية غير العربية وقدرها (١٥ مليون دولار) راجع : يوسف الحسن ، مرجع سابق ، ص ٩٣.

المنفردة التى تنتهك الحقوق الثابتة للشعب الفلسطينى(٦٧) . وأيا كان الاختلاف فى الراى والفكر الا أن هذه المحاولات وان باءت بالفشل عكست اثارا سلبية على باقى اعضاء المنظمة . فمصر وان غشاها ما غشى فى فترة ما ركيزة هامة ودعامة قوية من دعامات الوحدة العربية والوحدة الافريقية ولا نكون مغالين بالقول أن العرب والافارقة بدون مصر كيان ينقصه الكثير .

وبصفة عامة فان تباين موقف الدول العربية الافريقية فى عديد من القضايا المطروحة داخل منظمة الوحدة الافريقية كان سمة هذه الفترة وبالتالى انعكس اثره بصورة عامة على العلاقات العربية الافريقية وسيتعرض الباحث لهذه المسألة فى الجزء التالى من البحث .

نظرة مستقبلية لدور الدول العربية الافريقية
فى التعاون العربى الافريقى

تعد الدول العربية الافريقية داخل منظمة الوحدة الافريقية من اهم مرتكزات التعاون العربى الافريقى بل يجب أن تكون بحق قوى الدفع الحقيقية له وان كان هذا التعاون يجب الا يلغى صفة الافريقية عن هذه الدول فان هذه الصفة تمثل جسرا تعبر عليه العلاقات العربية الافريقية(٦٨) .

وبجانب هذا التأكيد فانه لابد من ابراز حقيقة هامة وهى ان الخلافات العربية التى يزج بها داخل منظمة الوحدة الافريقية على أساس أن لها صفة افريقية كالنزاع حول الصحراء الغربية مثلا تعكس آثارا سيئة فى اتجاهات الوحدة الافريقية وتعمل على ترسيخ مدركات افريقية معينة تجاه العرب تؤثر سلبا على مسيرة التعاون العربى الافريقى فمنظمة الوحدة الافريقية لا تخلوا اجتماعاتها على أى مستوى من بحث مشكلة من المشكلات العربية الافريقية . ومما يزيد حدة هذه الاثار السلبية تعاطف الاطراف العربية بل تعاونها مع بعض الاطراف العربية الافريقية ذات الخلافات مع بعض الأطراف الافريقية(٦٩) ، فضلا عن أن اتجاه الدول العربية الافريقية

---

(67) CM/Res. 725, 726 (XXXIII).

(٦٨) راجع : محمد محمد فائق : ثورة ٢٣ يوليو وافريقيا ، فى العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ١٢٢—١٢٣ .

(٦٩) من أبرز الأمثلة نزاع الصومال واثيوبيا حول الأوجادين .

داخل المنظمة متباينة ومتناقضة الأمر الذى يعكس ضعف دور الدول العربية الافريقية داخل المنظمة ، فقد ظهر هذا التباين فى عديد من المنازعات التى عرضت على المنظمة سواء العربى منها أو الافريقى كقضايا الكونغو وزائير وانجولا والقرن الافريقى والصحراء الغربية ، بالاضافة الى مواقف هـذه الدول من قضية ارتيريا .

ولقد برز موضوع البحر الأحمر والجدل حوله هل هو عربى أو افريقى وذلك فى اطار النزاع فى القرن الافريقى ، ولعل الأفارقة والعرب يدركون الاهمية المشتركة فى هذا الأمر فالبحر الأحمر يعكس اهمية بالغة للامن العربى وللامن الافريقى وارتباط هذين بأمن الخليج العربى وبأمن البحر المتوسط(٧٠) .

ولعل الاختلاف الواضح فى الموقف العربى والافريقى من قضايا الطرفين يمثل عائقا من العوائق التى تبطىء من ديناميكية التعاون العربى الافريقى ، فبالرغم من موقف افريقيا من القضية الفلسطينية وتأييدها الكامل وقطع علاقاتها مع اسرائيل ، الا أن الدول العربية لم تتفهم جيدا الموقف الافريقى من النظم العنصرية فى جنوب القارة على انه جزء من مواجهة للقوى المعادية للتحرير الوطنى فى القارة وفى الشرق الأوسط على السواء ، فضلا عن التفسير الضيق فى بعض الأوساط العربية من أن موقف افريقيا فى جانب العرب مبعثه الأساسى الحاجة الى أموال النفط العربية فضلا عن ابقاء العرب على كثير من علاقاتهم الجيدة بالنظم العنصرية الاستعمارية ، فقد بقيت قنصلية جنوب افريقيا فى احدى العواصم العربية تباشر نشاطها فى اطار علاقات طيبة حتى عام ١٩٧٥ ، بل ان الدول العربية فى عام ١٩٧٣ كانت اكبر مصدر للنفط المتجه لجنوب افريقيا(٧١) .

ولعل الوهن الظاهر فى العلاقات العربية الافريقية يعكس بشكل واضح مسألة المساعدات العربية لافريقيا والتى تشارك فيها دول عربية

---

(٧٠) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

(٧١) حلمى شعراوى : قراءة جديدة لوقائع العلاقات بين حركتى التحرير العربى الافريقى ، مجلة المستقبل العربى ، العدد ١٠ نوفمبر ١٩٧٩ ، ص ٨٧ .

افريقية ، فمع تزايد شعور الأفارقة بعدم الثقة المتزايدة فى القوى الكبرى ، كانت هناك أيضا خيبة أمل من جراء فشل الدول العربية النفطية فى الاسهام فى تمويل التنمية الاقتصادية من خلال الفوائض المالية المتوفرة لديها والتى تتجه لبنوك أوربا وأمريكا وبفرض اسهامها جزئيا فى تمويل التنمية ، فانعدم وجود خطة واضحة ومحددة وكذلك غياب الاستراتيجية الثابتة ، كل ذلك يؤثر على مسيرة التعاون بل ويدفع اطراف دولية أخـرى بأن تقدم عونا تكنولوجيا وفنيا وموارد مصنعة الى افريقيا ممولة بأموال عربية وهذا الأمر يمثل نوعا من الاستعمار التكنولوجى .

ويمكن تلافى هذه الآثار بتوضيح الخطط التنموية والعمل من خلال استراتيجية ثابتة واضحة قائمة على زيادة حجم الاعتمادات المتبادلة .

ولا نقول ان وجود الدول العربية فى منظمة الوحدة الافريقية له كل الاثار السلبية على مسيرة التعاون العربى الافريقى بل بالعكس نؤكد أن جهود هذه الدول عجلت بادراك افريقى جيد للقضية الفلسطينية وأسهمت هذه الدول فى دفع عجلة هذا التعاون من خلال الاطر المالية والثقافيـة وما زال امام هذه الدول العديد من الأدوار التى يمكن أن تضطلع بهـا فى افريقيا ، فمصر لها القدرة على التعامل الجيد والتأثير المتوازن فى منطقة حوض النيل والجزائر لها القدرة على التعامل مع الدول التقدمية لارتباطها بحركات التحرير ، ويمكن للمغرب أن تلعب دورا فى جل دول غرب افريقيا الاسلامية وكذلك موريتانيا بحكم صلاتها بمجموعة الفرانكفون يمكن أن تكون مؤثرة لدى هذه الدول(٧٢) وهكذا فانه يمكن توزيع هذه الأدوار بحكم روابط كل دولة وامكانيات فعاليتها السياسية أو الاقتصادية أو الحضارية .

ولعل النقد الذى سقناه يكون بداية للتصحيح ولامكان الاستفادة من طاقات الدول العربية الافريقية فى منظمة الوحدة الافريقية حتى تقدر على أن تلعب دورا اكثر نشاطا لحساب التعاون العربى الافريقى .

ولعل ذلك يعمل على ايجاد حد أدنى من تجميع الارادات والقدرات الذاتية والتعامل فى اطار من الضوابط الحضارية التى لا يفتقر اليها الأصل العربى والافريقى كثيرا .

---

(٧٢) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

العرب والتوغل الاسرائيلى

فى أفريقيـــا

د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم

فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ التوسع الاستعمارى فى افريقيا ، فاحتلت بريطانيا مصر والسودان ، وصار لها مستعمرات فى غرب افريقيا فى كل من نيجيريا وجامبيا وسيراليون وساحل الذهب . وشجعت بريطانيا فى نفس الوقت الاستيطان الأوروبى فى كينيا وفى عام ١٨٩٠ استولت على نياسلاند . وفى عام ١٨٩٤ استولت على أوغندة ، كما اســتولت على مستعمرة الراس الهولندية عام ١٨٠٦ . وفى عام ١٨٨٥ استولت بريطانيا على بتسوانالاند ، كما استولت على روديسيا وزامبيا ، وباختصـــار نجحت بريطانيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى تكوين امبراطورية ضخمة فى أفريقيا تمتد من شمالها الى جنوبها ، ومن شرقها الى غربها .

ولم تكن فرنسا اقل حظامن غريمتها بريطانيا حيث راحت تنافسها فى كل مكان وصل اليه البريطانيون ، وفتح الفرنسيون صفحة الاستعمار فى القارة فى وقت مبكر عندما استولوا على الجزائر فى عام ١٨٣٠ ، واستولوا تباعا على تونس عام ١٨٨١ ثممراكش عام ١٩١٢ . وكانت فرنسا قد شرعت فى فتح مجال جديد فى عام ١٨٩٠ فى السودان الغربى حيث استولت على المنطقة الواقعة حول بحيرة تشاد فى عام ١٩٠٠ ثم غزت، ساحل العـاج وداهومى ، بل واستولت على الجابون عام ١٨٩٢ ، وامتد نفـــوذها الى الكونغو . وفى عام ١٨٩٥ أرسلت حملة عسكرية الى جزيرة مدغشقر فى شرق القارة .

وواضح ان فرنسا حاولت انتضارع انجلترا فى كل أجزاء القارة وكان يراودها حلم ربط مستعمراتها فى شرق القارة فى منطقة جيبوتى بمناطق

غرب افريقيا لتقف أمام خط القاهرة ــ الكاب الذى كان يراود أحلام الساسة من البريطانيين(١) .

ودخلت المانيا بعد وحدتها ذلك المجال الاستعمارى فبدأت بغزو توجو والكاميرون عام ١٨٨٤ ، واستولت على جزء من الأراضى فى جنوب غــرب القارة (ناميبيا حاليا) ومدت نفوذها الى منطقة تنجانيقا ورواندا وأورندى .

وفى عام ١٩٠٨ وضعت الكونغو تحت الادارة البلجيكية . ومع حلول القرن العشرين صار للبرتغال مستعمرتان فى كل من أنجولا وموزمبيق . وضم الأسبان الصحراء الاسبانية .

وكانت ايطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر قد وحدت ممتلكاتها فى شرق القارة وشاركت بريطانيا وفرنسا فى اقتسام الصومال ، ثم استولت على ليبيا عام ١٩١٢ أما الولايات المتحدة الامريكية فقد اشترت قطعة من الأرض فى ليبريا ووطنت بها الزنوج وظل يديرها حاكم امريكى حتى عام ١٨٤٧ ثم أعلنت قيام جمهورية ليبريا ولــما انهزمت المانيا فى الحرب العالمية الأولى تقاسمت كل من انجلترا وفرنسا مستعمراتها حيث وزع الكاميرون وتوجو بين الدولتين ، واستولت بريطانيا على تنجانيقا وحصلت بلجيــكا على رواندا واورندى . اما اتحاد جنوب أفريقيا فقد استولى على أفريقيا الجنوبية الغربية « ناميبيا » .

لكن بعد قيام الحرب العالمية الثانية زادت حدة الحركات التحررية فى أفريقيا وحصلت غالبية دولها على الاستقلال فى عام ١٩٦٠(٢) .

وكان طبيعيا والقارة الافريقية تتمزق وتتوزع بين هذه الدول الأوربية أن تنتشر ثقافة هذه الدول وتطغى على الثقافات المحلية التى قاومت كثيرا هذا الغزو الثقافى . ولما تحررت هذه الدول لم يكن من السهل التخلص من آثار هذا الاستعمار الذى غرس لغته وثقافته بين غالبية شعوب هذه المناطق التى نسيت لغاتها المحلية وصارت اللغة الانجليزية أو الفرنسية بمثابة لغات

---

(١) انظر تفاصيل هذا التكالب الاستعمارى فى كتاب شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٨٠ .

(٢) انظر جدول رقم (١) بدول افريقيا وتاريخ استقلالها .

التفاهم والتخاطب بين هذه الأقوام . وفى هذا الجو الثقافى وفى وسط هذا المناخ الحضارى الغربى وجدت اسرائيل ضالتها المنشودة لأن المهاجرين الى اسرائيل يتكلمون اللغات الأوروبية وهذا ما سهل لها عملية الاحتكاك والتفاهم مع الأفارقة عشية الاستقلال . وهكذا كان الطريق ممهدا نحو السياسة الخارجية الاسرائيلية(٣) .

ومما سهل من مهمة اسرائيل هو أن معظم القيادات الافريقية بعد الاستقلال كانت قد تشربت التراث الغربى بسبب الدراسة فى المعاهد الأوربية والتى كانت تتطلب دراسة اللغات الأوربية ليسهل الحصول على المؤهلات المطلوبة ، وبدأت اسرائيل تقيم علاقات مع هذه الدول الافريقية قبل استقلالها عن طريق الوكالة اليهودية والهيئات النقابية والاجتماعية والمهنية مع مثيلاتها فى أفريقيا(٤) .

وهكذا وجدت دول افريقيا المستقلة نفسها مثقلة بميراث استعمارى وخلفية ثقافية تتفق وتتمشى بشكل سلس مع وجهة النظر الاسرائيلية التى كانت بالفعل قد خطت خطوات واقامت علاقات مع المؤسسات الافريقية المختلفة وكان هذا عاملا قويا فى سياسة اسرائيل نحو القارة الافريقية(٥) وحتى النصف الثانى من الخمسينات لم ترتبط اسرائيل بعلاقات مع افريقيا باستثناء ليبريا التى كانت ثالث دولة تعترف بقيام اسرائيل فى عام ١٩٤٨ وسمحت بفتح قنصلية فى مونروفيا عام ١٩٥٤(٦) .

ومن الأمور الملحوظة ان جمهورية جنوب افريقيا كانت الدولة الوحيدة التى لها علاقات قوية مع الكيان الصهيونى حتى قبل قيام دولة اسرائيل ، وحيث وافقت سلطات جنوب افريقيا العنصرية على المشروع الصهيونى

---

(3) Carter, Gwerdolen : Independence for Africa, London 1961, pp. 3-12.

(٤) رياض القنطار : التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا وطرق مجابهته ، ص ١٧ .

(٥) محمد على العوينى : سياسة اسرائيل الخارجية فى أفريقيا . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٤٢ .

(٦) حمد سليمان المسوفى : التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٣٨ .

وأيدته وكان رئيس جنوب افريقيا كرستيان سماتس (Smuts) ظل يحكم حتى عام ١٩٤٨ صديقا للصهيونية . وبعد قيام اسرائيل وفوز الحزب القومى بزعامة الدكتور مالان (Malan) ارتبط هذا الحزب مع الحركة الصهيونية فى الافكار والنظرة العنصرية(٧) وما أن بدات حركةالتحرر الافريقى حتى أخذ وزير خارجية اسرائيل ويدعى موشى شاريت يرسم سياسته على أساس اقامة علاقات مع دول القارة .

وبرز هذا الاتجاه الصهيونى لمواجهة نتائج مؤتمر باندونج الذى عقد عام ١٩٥٥ وكان لمصر دور واضح وبارز . وخشيت اسرائيل من قيام تكتل افريقى أسيوى ضدها . وبدات اسرائيل تعيد النظر فى سياستها الخارجية ازاء كل من افريقيا وآسيا(٨) .

وساعد اسرائيل على تحقيق جزء من سياستها انفتاح مضايق تيران بعد حرب عام ١٩٥٦ أمام الملاحة الاسرائيلية ، وعبر وزيرخارجية اسرائيل موشى شاريت عن وجهة النظر الاسرائيلية « ان أفريقيا تمثل من وجهة نظارنا ميدانا هاما لا ينبغى أن نسمح بنشوء فراغ فيه بعد حصول اقطارها على الاستقلال لأن ملء هذا الفراغ من قبل قوى غير صديقة سيعتبر نكسة لنا » ويضيف قائلا « ان الاهتمام بأفريقيا نابع أيضا من روابط تاريخية يعود بعضها الى الماضى ويعود البعض الاخر الى مطلع هذا القرن حيث عرضت بعض اقطار افريقيا مثل كينيا على الحركة الصهيونية لتكون وطنا قوميا ينفذ فيه مشروع الانبعاث الاسرائيلى »(٩) .

ومن الطبيعى ان تسعى اسرائيل لاقامة علاقات مع أفريقيا التى تختزن فى باطنها كميات هائلة من المواد الخام والمعادن ومصادر الطاقة ، اضافة الى الثروة الحيوانية والنباتية ، والميادين الفسيحة للاستثمار وتحقيق الارباح الطائلة ، ناهيك عن الموقع الاستراتيجى المتميز فى طرق المواصلات العالمية.

---

(٧) حلمى عبد الكريم الزغبى : مخاطر التغلغل الصهيونى فى أفريقيا . الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٥ .

(٨) عواطف عبد الرحمن : اسرائيل وافريقيا ، مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٥ .

(٩) دافيد كوهين : كتاب اسرائيل والعالم الافرو آسيوى ، اسرائيل ١٩٦٣ ، ص ٨٧ .

أولا : دوافع اسرائيل للقارة الافريقية :

والسؤال الآن : لماذا فضلت اسرائيل القارة الافريقية عن آسيا وأمريكا اللاتينية ؟

ان أسبابا كثيرة دفعت اسرائيل الى التركيز حول القارة الافريقية تتمثل فى أمور ثلاث :

(أ) الدوافع السياسية (ب) المزايا الاستراتيجية (جـ) ظروف القارة

(أ) الدوافع السياسية :

ان أبرز هذه الدوافع السياسية سعى اسرائيل لتحطيم القيود حولها بعد مؤتمر باندونج ومحاولاتها اقامة جسور من الود والصداقة مع شعوب أفريقيا لكى تضمن التأييد لكيانها فى الأمم المتحدة التى تعتبر بمثابة برلمان الشعوب ، وهذا بالاضافة الى ان أفريقيا تمثل جبهة عريضة فى الصراع العربى الاسرائيلى نظرا لموقع عدد من الدول التى تجاور المنطقة العربية وخاصة جنوب الصحراء(١٠) .

كان هدف اسرائيل أساسا من اقامة علاقات مع دول افريقيا هو الحصول على اعتراف دولى شامل فى المحافل الدولية ولكى تضرب الحصار العربى المفروض عليها ، ومحاولة اسقاطه من خلال شبكة من العلاقات مع الكتلة الافروآسيوية ، والاقطار الافريقية والعمل على قيام علاقات مع هذه الدول . وبعد انشاء ميناء ايلات ازداد اهتمام اسرائيل بافريقيا وعبر رئيس وزراء اسرائيل دافيد بن جوريون عن هذا الاهتمام أثناء افتتاح ايلات « ان العلاقات مع افريقيا تحتل المرتبة الأولى فى علاقات اسرائيل الخارجية مع العالم لما تشكله من سوق ضخمة تحتاجها لتصرية المنتجات ومجالا لممارسة مختلف الأنشطة ، واعمار المناطق الصحراوية فى تلك الأقطار(١١) .

وبدأت اسرائيل تقدم المساعدات الى الدول الافريقية ابتداء من عام ١٩٥٨ وكانت هذه وسيلة استجابت لها الدول الافريقية ، وأسهمت هذه المساعدات فى تمهيد الطريق نحو التغلغل الصهيونى فى القارة .

---

(١٠) حمد سليمان المشوفى : مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .
(١١) مجلة معاريف الاسرائيلية : فى ١٩٦٢/١٠/١١ .

(ب) المزايا الاستراتيجية :

عندما أحست اسرائيل بخطورة الحصار العربى حولها وجدت ان هناك دولا افريقية يمكن أن تشكل قوة استراتيجية ، فسعت الى اقامة علاقات مع الدول التى تحيط بالعالم العربى مثل أوغنده وكينيا ، وتشاد واعتقد الاسرائيليون أن التحالف مع هذه الدول يمكن ان يشكل تهديدا للبلاد العربية فى مصر والسودان والجزائر وليبيا والمغرب .

ولقد ساعدت الظروف الفكرية المنتشرة فى افريقيا على تكوين انطباع لدى بعض القيادات الافريقية من ان اسرائيل تشكل منارة فى الشرق ونموذجا يمكن أن يحتذى به فى مجالات التنمية والتعمير(١٢) . ونجحت اسرائيل فعلا فى كسب ثقة بعض القيادات السياسية والافريقية التى تجاوبت بسرعة مع الكيان الصهيونى(١٣) .

(جـ) ظروف القارة :

حمل الاستعمار عصاه ورحل عن أفريقيا بعد أن تركها بؤرة للجهل والفقر والمرض والتخلف . واحست الحكومات الوطنية الافريقية أن هذه التركة وهذا الميراث الاستعمارى يصعب حمله وأن امكانيات هذه القادة الافريقية لا تستطيع ان تعبر هذه المرحلة من التخلف دون اعتماد على قوى أخرى فكان ذلك عاملا لأن تتبوأ اسرائيل هذه المكانة .

وابتداء من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٧ تمتعت اسرائيل بقبول واسع النطاق فى افريقيا ، ووطدت علاقاتها مع الأفارقة وارتفعت بعثاتها الدبلوماسية من ست بعثات عام ١٩٦٠ الى ثلاث وعشرين بعثة فى عام ١٩٦١ حتى بلغ اثنتين وثلاثين بعثة عام ١٩٧٣(١٤) .

وكانت المجموعات اليهودية التى تنتشر فى بعض الأقطار الافريقية بمثابة ركيزة للتوغل الاسرائيلى ، وكانت هذه المجموعات قد دخلت القارة

---

(١٢) صحيفة دافار : لسان حال الهستدروت فى ١٩٦٠/٣/٢٤ .
(١٣) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ١٧ .
(14) Michael Curtis and Swzan Gitclson (ed) Israel in the Third World, New Brunswich, 1976, p. 183.

مع الاستعمار الأوربى وبلغت مكانة كبيرة مما أتاح لها الفرصة لأن تلعب دورا هاما فى الاقتصاد الافريقى ولا تزال هذه المجموعات حليفا مخلصا لاسرائيل ، وتعمل من أجل توطيد علاقات الصهاينة بالقارة حتى وأن تعارضت مع مصالح الدول التى تعيش فيها(١٥) .

ونجحت اسرائيل فى توطيد علاقاتها مع الدول الافريقية حيث عبر عدد من زعماء افريقيا عن ترحيبهم باسرائيل ونذكر منهم الزعيم الكينى توم امبويا عندما قال « ان أى أفريقى يزور اسرائيل سيعجب لا محالة بالانجازات التى حققتها فى فترة وجيزة رغم قحل أرضها وقلة مواردها الطبيعية ولذا فقد كنا جميعا مشتاقين للنسج على منوال تلك التجارب فى بلادنا »(١٦) .

واكد هذا الرئيس جوليوس نيريرى « ان اسرائيل بلد صغير ولكنه يستطيع أن يقدم الكثير لبلد مثل بلدى . اننا نستطيع أن نتعلم دروسا نافعة من اسرائيل نظرا لتشابه المشاكل التى تواجهنا وعلى راسها مشكلة بناء الامة وتوحيدها ثم تعمير الأرض »(١٧) .

ونجحت اسرائيل فى تحقيق أمانى الزعماء الأفارقة حتى فى المسائل الكمالية ويروى أحد المسئولين عن أحد مكاتب الاعلام العربى فى صيف عام ١٩٧٤ قصة طريفة توضح قدرة اسرائيل على تلبية رغبات الأفارقة عندما طلب رئيس افريقى غرفة نوم فرعونية فى قصره الجديد بعد أن فشلت شركة النصر المصرية للتصدير والاستيراد فى تحقيق هذه الرغبة طوال مشاورات استمرت اكثر من سنة اشهر وتمكنت اسرائيل من استيراد الغرفة عن طريق أحد عملائها فى ايطاليا وتم توصيلها الى مقر الرئيس الافريقى خلال فترة لا تتجاوز بضعة أسابيع(١٨) .

---

(١٥) شئون اسرائيلية : مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد عدد ٦٥ لعام ١٩٨٣ .

(١٦) انظر هذه العبارة فى

The Journal of Modern African Studies, voi 16, 1978. pp. 360-362.

(17) Ibid : p. 362.

(١٨) يوسف الحسن : التعاون العربى الافريقى ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٥٢ ـ ٦٠ .

والآن ننتقل الى مرحلة التغلغل الاسرائيلى فى القارة .

ثانيا — مرحلة التغلغل الاسرائيلى فى أفريقيا :

عندما شرعت اسرائيل فى التوغل داخل القارة بنت استراتيجيتها على أربعة محاور أساسية ، حيث قامت فى المرحلة الأولى بالمبادرة بالاعتراف باستقلال الدول الافريقية ثم قامت بانشاء علاقات دبلوماسية معها وفى المرحلة الثالثة عرضت المعونات الفنية والمالية واخيرا عقد الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية .

وكانت اسرائيل منذ قيامها تسعى لاقامة علاقات مع الأقطار الافريقية ونجحت فى تحقيق هذا الهدف من خلال اللقاءات المباشرة مع حركات التحرر ومع الشخصيات الافريقية ومع ممثلى الأحزاب فى كل البلدان الافريقية جنوب الصحراء ونجح حزب الماباى (حزب عمال اسرائيل) فى الفترة من عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٧٠ فى أن يعزز مكانته فى كل من السنغال وأوغنده ومالى وغانا .

واعترفت اسرائيل بالدول الافريقية فور استقلالها وأرسلت الوفود للتهنئة وتقديم المساعدات وكانت غانا تجربة واضحة فى هذا المجال

وجاءت بعد ذلك مرحلة اقامة علاقات دبلوماسية مع الحكام الأفارقة ومن هؤلاء الزعماء جومو كينياتا أول رئيس لكينيا الذى استقبل جولدا مائير أثناء احتفالات الاستقلال وأيضا الرئيس الليبيرى وليام توبمان الذى كانت له علاقات قوية مع اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ ، وايضا الرئيس جوزيف موبوتو رئيس زائير والذى كان يتلقى دورة عسكرية فى اسرائيل . وأيضا الامبراطور هيلاسلاسى امبراطور أثيوبياوهناك أيضا الرئيس فوليكس هوفا بوانى رئيس ساحل العاج ، وليوليولد سنجور رئيس السنغال السابق والذى كانت له علاقة مع رئيس المؤتمر الصهيونى ناحوم جولدمان أيام أن كان سنجور طالبا فى جامعة السوربون .

وجاءت بعد ذلك مرحلة هامة وحيوية الا وهى مرحلة التمثيل الدبلوماسى حيث نجحت اسرائيل فى انشاء شبكة من العلاقات الدبلوماسية مع حوالى

ثلاثين دولة افريقية عدا جنوب افريقيا(١٩) . ووطدت اسرائيل علاقاتها عن طريق تبادل الزيارات بينها وبين الرؤساء الأفارقة حيث زار تل أبيب كل من حكومات نيجيريا وتشاد وفولتا العليا وتوجود وليبيريا وساحل العاج والجابون ومالى(٢٠) .

وتبع هذا التمثيل الدبلوماسى مرحلة أخرى من التغلغل الاقتصادى فى القارة واعتمدت اسرائيل على بعض رجال الأعمال من أسرة روتشلد وشفارتس واحتل هذا النشاط الاقتصادى الاسرائيلى فى أفريقيا مكان الصدارة فى مجمل التجارة الصهيونية . فقامت بعملية مسح للاسواق واعدت الدراسات عن ظروف كل دولة واحتياجاتها من السلع ، ودرجة المنافسة مع الدول الأخرى وقامت بعد ذلك بعقد المعاهدات التجارية مثل الاتفاق مع غانا عام ١٩٥٨ وتبعته دول أخرى مثل اثيوبيا وأوغنده وتوجو وداهومى وفولتا العليا والجابون وليبيريا الكاميرون وأفريقيا عام ١٩٦٢(٢١) وقامت اسرائيل بفتح المكاتب التجارية وقدمت التسهيلات المالية وأقامت المعارض التجارية مثل معرض غانا الدولى ١٩٥٧ ومعرض زامبيا ١٩٦٧ ومعرض نيروبى ١٩٦٧ ، ومعرض أديس أبابا ١٩٦٨ . ونتيجة لهذه الحركة التجارية النشطة ارتفعت صادرات اسرائيل من ١٠ر٥ مليون عام ١٩٦٠ الى ٤٧ر٥ مليون عام ١٩٧١ . اى بزيادة تقدر بأربعة أضعاف مقابل ارتفاع الواردات الافريقية فى نفس الفترة من ١٧ر٨٢ مليون الى ٢٥ر٥ مليون دولار . وبعبارة أخرى نجحت اسرائيل فى استغلال افريقيا كسوق لتصريف منتجاتها وتضاعف هذه الصادرات أربعة أضعاف خلال عشر سنوات وكان هذا النجاح قائما على اساس تصدير منتجات لم تجد سوقا غير افريقيا لها مثل السجاد والأثاث واستغلال القارة للحصول على المواد الخام(٢٢) .

ولم يتوقف نشاط اسرائيل على المجالات السياسية والاقتصادية بل تعداه الى مجال اشد خطرا الا وهو المجال العسكرى . فلقد أرسلت اسرائيل بعثات عسكرية بأعداد كبيرة ، بل وارسلت وحدات كاملة الى بعض الدول

---

(١٩) انظر جدول رقم (٢) عن التمثيل الدبلوماسى فى افريقيا .

(٢٠) خالد اسماعيل : علاقات اسرائيل بالدول النامية لعام ١٩٦٨ ، السلسلة الاعلامية ، عدد ١٧ ، ص ١٧ — ١٨ .

(٢١) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(٢٢) انظر بالتفصيل جدول رقم (٣) عن صادرات اسرائيل ووارداتها .

مثل زائير واشرفت على تنظيم وتدريب الأفارقة وارسلت المستشارين من اجل تدريب الجيوش الافريقية ، وتصدير الأسلحة وتصدير تجارب الشباب الطلائعى المدرب الى الاقطار الافريقية . وقامت اسرائيل بانشاء قواعد عسكرية فى بعض الدول الافريقية مثل القواعد الجوية فى تشاد والقواعد البحرية فى الحبشة فى مصوع وفى مدخل البحر الأحمر ، وانشاء وحدات شبه عسكرية مثلما حدث فى كينيا واوغنده وتشاد .

ولم يتوقف نشاطها على تلك النواحى السابقة ، بل امتد الى النواحى العلمية والثقافية . فلقد حاولت اسرائيل تقديم رشوة الى الصحف من أجل غزو العقول الافريقية والاشادة بالوجود الاسرائيلى ونجحت فى شراء بعض الصحف مثل صحف كينيا تايمز (Kenya Times) وبعض صحف ليبيريا مثل ليبيريا ستار وديلى لستر والى جانب هذا قامت بعرض أفلام سينمائية تدور حول ما يسمى بكفاح اسرائيل وتقدمها الاقتصادى والاجتماعى وعقدت اسرائيل حوالى ثمان واربعين اتفاقية ثقافية مع ثمان عشرة دولة افريقية فى الفترة من ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٤ (٢٣) .

واستطاعت اسرائيل فى الفترة من ١٩٦٠ حتى عام ١٩٧١ أن تعقد احدى وخمسين اتفاقية للصداقة والتعاون فى المجالات المختلفة مع خمس وعشرين دولة افريقية .

ولكن ما هى العوامل التى ساعدت على نجاح هذا النشاط الاسرائيلى فى افريقيا ؟

يمكن ان نجمل العوامل التى ساعدت على نجاح اسرائيل فى القارة الافريقية فى أربعة عوامل هى بايجاز ما يلى :

(أ) العوامل العربية :

حيث ساعدت بعض العوامل العربية السلبية والتى وقفتها تجاه اسرائيل فى القارة وكان التقصير العربى سببا فى تحرك الكيان الاسرائيلى فى القارة وكان عدم التحرك العربى الجماعى لمواجهة هذا النشاط

---

(٢٣) الارشيف العبرى ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد.

الاسرائيلى سببا فى ازدياد توغل اسرائيل فىالقارة ، كما لم تبذل الدول العربية جهودا جادة تجاه ما يجرى فى القارة باستثناء الدور الذى قامت به مصـــر .

وتمثل هذا النشاط العربى السلبى فى عدم وضع برامج لتبـــادل الزيارات بين الزعماء العرب وزعماء افريقيا . يضاف الى ذلك أيضا عدم قدرة الدول العربية على توفير احتياجات الدول الافريقية بسبب ظروفها الاقتصادية والاجتماعية .

كل هذه العوامل كانت سببا فى تحرك اسرائيل بسهولة وتوغلها الى داخل افريقيا كما ان اسرائيل لعبت دورا خطيرا فى استغلال عملية تجارة الرقيق لا سيما فى شرق القارة وفى وادى النيل بشكل ترك آثارا سيئة فى نفوس الأفارقة واستثمرت اسرائيل هذه العملية واشعلت نار الحقد بين العرب والأفارقة خصوصا فى فترة ما بعد استقلال البلدان الافريقية وخصوصا فى زنجبار وجنوب السودان(٢٤) .

(ب) العوامل الافريقية :

لقد كان لظروف القارة الافريقية عشية الاستقلال أثره فى امتـداد النشاط الصهيونى الى القارة ، وكانت اسرائيل تنتظر الفرصة لتدخل القارة وساعدها على ذلك عدة عوامل افريقية ومنها حاجة دول افريقيا الى مساعدات مادية وفنية لتطوير وتنمية مواردها ، وأيضا بسبب عدم وجود منافسة قوية فى القارة تعرقل من نشاط اسرائيل الذى ظهر فى شكل شركات احتكارية يمتلكها الصهاينة ومنهم أوبنهايمر الذى يعرف بملك جنوب افريقيا غير المتوج والذى يمتلك ٣٢٪ من انتاج الذهب فى العالم و٨٠٪ من الماس ويمتلك نسبة كبيرة من اسهم شركة اليورانيوم(٢٥) .

---

(٢٤) مدثر عبد الرحيم الطيب : نظرة افريقيا للنزاع العربى الاسرائيلى، ضمن كتاب العرب وافريقيا ، بيروت ١٩٨٤ .

(٢٥) انظر الارشيف العبرى بجامعة بغداد وايضا حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق ، ص ٣٠ ــ ٣٥ .

(جـ) العوامل الاسرائيلية :

وقد تمثلت هذه العوامل فى قدرات اسرائيل على تقديم الخبرة وامتلاك التكنولوجيا التى تحتاجها أفريقيا بالاضافة الى وجود شركات صهيونية قادرة على العمل فى الخارج وخصوصا فى مشروعات تحتاج اليها القارة الافريقية مثل مد الطرق وتطوير مصادر الرى وانشاء الفنادق السياحية ، وفى المجال الزراعى .

(د) العوامل الخارجية :

ساعدت عوامل خارجية على توغل اسرائيل فى القارة ومن أهم هذه العوامل الدعم السياسى من جانب الدول الغربية مثل بريطانيا وبلجيكا ، ولقد ساعدت بريطانيا اسرائيل على اقامة قنصلية فخرية لها فى سيراليون وكينيا لكى تكون ركيزة تتوغل منها الى داخل القارة(٢٦) . وقامت الدول الغربية بتمويل المشروعات الصهيونية فى أفريقيا وخصوصا دعم الولايات المتحدة لهذه المشروعات بالاضافة الى استثمار اسرائيل للمنظمات الدولية ووكالات الأمم المتحدة من أجل دعم هذا النشاط الاسرائيلى وكان الخبراء الصهاينة الذين جاءوا الى أفريقيا من هذه الدول يعملون لخدمة اسرائيل أولا وقبل كل شىء .

هذه باختصار العوامل الأربع التى مكنت لاسرائيل من توسيع نشاطها فى القارة ، وكان أهم عامل فى هذا المضمار ضعف الوجود العربى فى هذه الفترة وعدم قدرته على مجاراة التوسع الاسرائيلى الذى استثمر خلو الساحة الافريقية من المنافسة العربية ، وحاجة القارة الى الجهود الجبارة لتطوير اقتصادياتها ، فراحت تتوسع وتتوغل فى القارة .

ثالثا — مرحلة قطع العلاقات بين أفريقيا واسرائيل :

رغم أن اسرائيل قد تمكنت من التوغل داخل القارة مستغلة حاجة الدول الافريقية الى الدعم المادى والفنى بعد استقلالها ، الا أن صورة

---

(٢٦) منذر عنبتاوى : أضواء على الاعلام الاسرائيلى . مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢٠ .

اسرائيل التى ظلت ترسمها فى ذهن الأفارقة بدأت تتغير مع مرور الأيام وبروز الأحداث التى اكدت عكس ما كانت تزعم اسرائيل ايهام الأفارقة به . ثم جاءت أحداث حرب يونية ١٩٦٧ لتقضى على تلك الفكرة الصهيونية بأن اسرائيل حمل وديع أو حمامة بيضاء تنشد السلام والأمان ، وأحس الأفارقة أن اسرائيل ما هى الا رأس جسر يعبر منه المستعمرون مرة أخرى الى القارة بعد أن عانت كثيرا من الاستعمار الغربى ، وأدرك الافارقة أن الحركة الصهيونية حركة عنصرية توسعية لا تقل كثيرا عن الحركة النازية سوء فى الفكر او التطبيق .

بعد حرب يونيو ١٩٦٧ أدركت غينيا هذه الحقيقة — فكانت أول دولة افريقية تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . وتلتها دول افريقية أخرى ففى عام ١٩٧٢ وقبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ قطعت كل من الكونغو الشعبية واوغندة وتشاد وبورندى وتوجو وزائير علاقاتها مع اسرائيل أى أن ستة دول قطعت العلاقات قبل الحرب فى عام ١٩٧٣ .

وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ قطعت بقية الدول الافريقية علاقاتها مع اسرائيل ما عدا مالاوى وسوازيلاند وموريشيوس وليسوتو(٢٧) . ومنذ عام ١٩٧٣ استقلت دول افريقية لكنها لم تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ، وهذه الدول هى غينيا بيساو ، وموزمبيق وساوتومى وبرنسيب وانجولا وجزر الراس الأخضر ، وجزر القمر .

ولنا أن نتساءل هل كانت حرب أكتوبر هى الدافع الى هذه الانعكاسة فى العلاقات بين اسرائيل والدول الافريقية ام أن عوامل أخرى قد ساعدت على هذه النكسة فى العلاقات ؟

مما لا شك فيه أن حرب اكتوبر كانت أهم وأبرز العوامل التى دفعت دول افريقيا الى تغيير اتجاهاتها ، وتقطع علاقاتها مع اسرائيل لكن هذا لا يغفل الأمور الأخرى التى ترسبت من الحقبة القليلة الماضية وازدادت رسوخا مع الأيام وجاءت الحرب لتكشف بجلاء عن أطماع الصهيونية على

---

(٢٧) انظر جدول الدول التى قطعت علاقاتها مع اسرائيل وعددها تسع وعشرون دولة ولم يبق سوى أربع دول هى التى تدور فى فلك اتحاد جنوب أفريقيا (جدول ٤) انظر صحيفة المحرر اللبنانية فى ١٩٧٣/١١/١٣ .

حقيقتها وانها دولة توسعية امبريالية عنصرية فكانت خطوة قطع العلاقات رد الفعل الطبيعى تجاه زيف هذا العدو الاسرائيلى ، ويمكن أن نحدد العوامل الأخرى التى ساعدت على هذه القطيعة وهى :

(أ) عوامل ارتبطت باسرائيل ذاتها :

ثبت للافارقة بشكل خاص أن هناك علاقة وثيقة بين اسرائيل وحكومة جنوب افريقيا وظهر التطابق بعد حرب ١٩٦٧ فى المواقف العدائية لهذه الكيانات ضد العرب والأفارقة .

وجاء تأييد اسرائيل للتميز العنصرى فى روديسيا ليضيف بعدا جديدا وتلاه التأييد الاسرائيلى للبرتغال لكى تقف أمام موجة التحرر فى كل من انجولا وموزمبيق وغينيا بيساو . ووصل الأمر الى درجة تآمر اسرائيل على وحدة الاقطار الافريقية وتدعيم الحركات الانفصالية وحركات التمرد فى جنـوب السودان واغتيال باتريس لومومبا الزعيم الكونغولى ، ودعم الحـركة الانفصالية فى بيافرا (شرق نيجيريا)(٢٨) .

وبعد الحرب فى عام١٩٦٧ تدهور مركز اسرائيل الاقتصادى، فاضطرت الى تقليص مساعداتها الى الدول الافريقية وبالطبع تآثرت هذه الدول بهذا الانكماش الاسرائيلى الذى عرقل تنفيذ المشروعات الاسرائيليـة فى دول افريقيا وتآثرت تباعا الحركة السياسية وقلت رءوس الأموال الاسرائيلية فكان هذا عاملا فى ابراز عجز الكيان الصهيونى عن تلبية احتياجات الدول الافريقية . يضاف الى ذلك أن الأفارقة داخل اسرائيل احسوا بنوع من التفرقة العنصرية الشبيهة بما هو مطبق فى جنوب القارة فبدأت تتغير صورة اسرائيل فى القارة .

(ب) عوامل مرتبطة بالقارة ذاتها :

بعد حرب يونية ١٩٦٧ بدأت الدول الافريقية تدرك حقيقة النظـام الاسرائيلى ومدى ارتباطه بالنظام العنصرى فى جنوب القارة وكان لمنظمة الوحدة الافريقية دور بارز وفعال فى علاقات اسرائيل بأفريقيـا . وكانت

---

(٢٨) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

المنظمة تحجم عن اتخاذ قرارات أو مواقف لدعم القضية العربية وظل هذا الحال هو موقف المنظمة حتى حرب يونيو ١٩٦٧ ومن هنا طرا التحول فى موقف المنظمة لكنه كان ضئيلا فأصدرت اعلانا يعرب عن انزعاجها لاحتلال جزء من أراضى مصر لكونها أحد الأعضاء فى المنظمة واشار الاعلان الى دعم الموقف العربى فى الأمم المتحدة من أجل تحقيق الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة(٢٩) .

وفى عام ١٩٦٨ اجتمع مجلس وزراء المنظمة فى اديس ابابا وأكد على ضرورة تقديم الدعم المادى والمعنوى الفعال لمصر والدول العربية التى احتلت أراضيها وتطور الأمر فى نفس العام أثناء انعقاد مؤتمر القمة الافريقى فى الجزائر حيث صدر قرار (٥٣) يطالب بالانسحاب الصهيونى من جميع الأراضى العربية المحتلة وليس من سيناء فقط ، كما أدان المؤتمر السياسة العدوانية لاسرائيل وطالبها بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢(٣٠) .

وتغير موقف المنظمة بعد ذلك حتى جاء المؤتمر السابع فى أثيوبيا عام ١٩٦٩ وادرج بند للقضية الفلسطينية وأيد اعضاء المؤتمر الحق العربى الكامل وطالبوا بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة(٣١) .

ومما لا شك فيه ان هذا القرار يعتبر بمثابة تحول خطير وهام للمنظمة تجاه القضية الفلسطينية حيث بدات دول القارة الافريقية تتفهم حقيقة الأوضاع وكانت اجتماعات المنظمة فى عام ١٩٧١ فى اديس ابابا وفى الرباط عام ١٩٧٢ خير دليل على هذا التحول وتأييدها للنضال العربى بسبب مواقفها المتعنتة ، وادانتها للكيان الاسرائيلى بسبب علاقاته مع جنوب أفريقيا وروديسيا والبرتغال .

(جـ) عوامل مرتبطة بالموقف العربى :

لقد تغير الموقف العربى بعد حرب يونية ١٩٦٧ وكانت مطالب الدول الافريقية واحتياجاتها من الأسباب التى ادت الى التقارب بين العرب

---

(٢٩) يحيى رجب : الرابطة بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٤٧ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

وافريقيا وهذا التقارب كان له اثره الكبير فى اقدام الدول الافريقية على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل ونظرا لأهمية هذا الدور العربى فى تلك المرحلة فسوف نفرد له بندا خاصا بعد الانتهاء من العوامل الأخرى التى ساعدت على قطع العلاقات بين الأفارقة واسرائيل .

(د) دور مصر فى مناهضة العنصرية والصهيونية فى افريقيا :

لا نستطيع أن نتجاهل الدور الكبير الذى قامت به مصر فى مقاومة النشاط الصهيونى فى افريقيا منذ تحرك اسرائيل نحو القارة ، وكان هذا الدور متميزا حيث عملت مصر عبر كافة المؤتمرات الدولية وخصوصا المؤتمرات التى تشترك فيها الدول الافريقية على عزل اسرائيل وتجلى هذا الدور منذ مؤتمر باندونج فى عام ١٩٥٥ .

ولم يقتصر دور مصر على المجال الدبلوماسى بل تعداه الى الصعيد الاقتصادى وحاربت مصر اسرائيل بسلاح اقتصادى تمثل فى تقديم المساعدات الاقتصادية والفنية وارسال الخبراء الى الدول الافريقية(٣٢) .

(هـ) عوامل تتصل بالدول الأخرى (عوامل دولية) :

بدأت بعض الدول تغير سياستها نحو افريقيا وأخذت تنتهج سياسة أكثر اعتدالا ، وظهر كل من الاتحاد السوفيتى والصين على مسرح الأحداث الافريقية وايدا حركات التحرر فى القارة وقدما المساعدات الاقتصادية والفنية لدول مثل تنزانيا والحبشة وأوغندة بالاضافة الى تدريب الكوادر الافريقية وظهر دور دولة أخرى هى يوغوسلافيا التى راحت تساند الدول الافريقية وتقدم لها الدعم والعون الفنى(٣٣) .

هذه هى العوامل التى ساعدت على اقدام الدول الافريقية على قطع علاقاتها مع اسرائيل ، لكن أبرز هذه العوامل التى دفعت دول افريقيا بشكل

---

(٣١) عصام محسن الجبورى : العلاقات العربية الافريقية ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٤٢ .
(٣٢) حمد المشوقى : مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .
(٣٣) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

يكاد يكون جماعيا ، هو الموقف العربى فى تلك الفترة وهو ما سنعالجه مع الدور المصرى بشكل مفصل .

رابعا — الموقف العربى من التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا :

لقد شكلت المقاطعة العربية عاملا حاسما فى مواجهة النشاط الاسرائيلى فى افريقيا حيث أن هذه المقاطعة حرمت اسرائيل من التعامل الاقتصادى مع الدول الاخرى وسدت أبواب العديد من الأسواق فى وجهه بل ومنعت تدفق الاستثمارات الى كيانه وكانت المقاطعة قد أدت الى الحاق اضرار كبيرة بالقدرة الاقتصادية لهذا الهيكل الاسرائيلى ولقد احست الاوساط الاسرائيلية بخطورة هذه المقاطعة لدرجة أن تقدير وزارة التجارة والصناعة فى اسرائيل افاد أن المقاطعة العربية حددت من امكانية تطوير التبادل التجارى بين اسرائيل والدول الافريقية حتى ان صادرات اسرائيل الى أفريقيا لم تتجاوز ١٠ ٪ (٣٤) .

وبدات العلاقات العربية بين العرب واسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية حينما اهتمت مصر بقضايا المستقبل السياسى فى حوض وادى النيل وقضايا تصفية الاستعمار الايطالى فى أفريقيا ونظرا لعضويتها فى الأمم المتحدة بدات تهتم بنشاط مجلس الوصاية الدولى ومستقبل الشعوب الافريقية التى كانت خاضعة للانتداب فى ظل عصبة الامم . وساهمت جامعة الدول العربية منذ تأسيسها بدور فعال فى مجال العمل من اجل حق تقرير المصير لشعوب المنطقة التى كانت خاضعة للاستعمار الايطالى(٣٥) . وشاركت الجامعة منذ عام ١٩٤٦ فى قرارتها المتعاقبة بمعارضة سياسة اتحاد جنوب أفريقيا المبنية على التميز العنصرى . وكان موقف الدول العربية ايجابيا فى الامم المتحدة حيث صدر القرار رقم ١٧٦١ بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٦٢ بشأن التفرقة العنصرية والذى دعت فيه الدول الأعضاء الى فرض عقوبات اقتصادية ودبلوماسية على جنوب افريقيا .

---

(٣٤) وزارة التجارة والصناعة الاسرائيلية ، النشرة الشهرية عدد رقم ١٢/٣ فى ١٩٧٥/٤/١ .

(٣٥) انظر دور مصر فى مساندة بعض دول افريقيا فى :
عبد الله عبد الرازق ابراهيم : مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا ، القاهرة ١٩٨٦ .

ولعبت الدول العربية دورا كبيرا فى عزل اسرائيل فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ وبعد حرب عام ١١٥٦ بدأ الدور العربى يظهر بشكل واضح فى المجال الافريقى ولفتت مصر فى، مؤتمر أديس ابابا عام ١٩٦٣ الى حقيقة الصراع العربى الاسرائيلى وكان لهذا الموقف اثره فى عقد العديد من الاجتماعات التى أبرزت صورة النزاع العربى الاسرائيلى فاستنكرت الدول الافريقية فى اجتماعاتها العدوان الاسرائيلى وتطورت النظرة الافريقية الى درجة تبنى وجهة النظر العربية وربط اسرائيل بالاستعمار الجديد وادانة الصهيونية كحركة عنصرية(٣٦) .

وعقب حرب اكتوبر ١٩٧٣ قامت الدول الافريقية بتأييد النضال العربى وطالبت بانسحاب اسرائيل من الأراضى المحتلة ، كما ربطت الدول الافريقية بين حركة التحرير الفلسطينية وبين حركات التحرر الافريقية واعتبرت قضية فلسطين قضية عربية افريقية .

وأحس العرب بأهمية هذا التعاون العربى الافريقى . فانعقد مؤتمر القمة العربى السادس فى الجزائر فى الفترة من ٢٦ — ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ بهدف دعم العلاقة بين الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية واعرب المؤتمر عن تقدير الدول العربية للدول الافريقية لتأكيد التضامن العربى الافريقى من خلال الدورة الاستثنائية لمجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية التى انعقدت فى الفترة من ١٠ — ٢٢ نوفمبر ١٩٧٣ واتخذ المؤتمر عددا من القرارات التى تهدف الى دعم التعاون العربىالافريقى ومنها تعزيز التعاون العربى الافريقى بزيادة التمثيل العربى فى أفريقيا وقطع جميع العلاقات الاقتصادية والقنصلية مع جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا من قبل الدول العربية التى لم تقم بذلك بعد . وتطبيق حظر تام لتصدير البترول العربى الى هذه الدول الثلاث ومضاعفة التأييد على الصعيدين الدبلوماسى والمادى لكفاح منظمات التحرير الافريقية .

كما وافق المؤتمر على تكليف الأمانة العامة لجامعة الدول العربية باتخاذ الاجراءات التنفيذية والاتصال بالامانة العامة لمنظمة الوحدة الافريقية لتنظيم مشاورات دورية على مختلف المستويات بين الدول العربية والافريقية .

---

(٣٦) عبد الملك عودة : الدول الافريقية والقضايا العربية . ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية ، ص ٣١٦ .

وهكذا كانت قرارات مؤتمر القمة العربى السادس فى الجزائر تأييدا لما قرره مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى دورته الثامنة غير العادية التى عقدت فى أديس أبابا فى الفترة من ١٩ — ٢١ فبراير عام ١٩٧٣ وذلك لتحقيق التضامن الافريقى ودعم التعاون فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية . ولقد كانت حرب اكتوبر بمثابة نقطة الانطلاق نحو هذا التعاون بين العرب والأفارقة وغير هذا التعاون من هيكل السياسة الافريقية تجاه العرب(٣٧) وأقر مؤتمر القمة العربى اقامة صندوق عربى أفريقى برأسمال قدره مائة مليون دولار ، وارتفع رأس المال فيما بعد الى مائتى مليون دولار لمساعدة الدول الافريقية التى تواجه صعوبات اقتصادية بسبب ارتفاع أسعار البترول . وفى نهاية عام ١٩٧٤ أقرض صندوق المعونة البترولية خمسين مليون دولار الى ست عشرة دولة افريقية وكانت الفائدة ١٪ لكنها ألغيت تماما فى نوفمبر ١٩٧٤ ، على أن يبدأ الدفع بعد عشر سنوات ويوزع الدين على أقساط تتراوح ما بين خمسة عشر عاما وخمسة وعشرين عاما . وانشىء بنك عربى للتنمية الزراعية والصناعية لافريقيا فى الخرطوم فى يناير ١٩٧٤ برأسمال مبدئى قدره مائة وخمسة وتسعين مليون دولار ، ارتفعت الى مائتى واحدى وثلاثين مليونا من الدولارات فى عام ١٩٧٤(٣٨) .

وتجلى هذا التعاون العربى الافريقى فى الأمم المتحدة فى الدورة ٢٩ والتى رأسها عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٤ حيث قررت الجمعية العامة للامم المتحدة دعوة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لحضور اجتماعات الجمعية العامة بصفة مراقب والقاء خطاب بها عن المشكلة الفلسطينية وكذا القرار الخاص بالتصويت على منع جمهورية جنوب افريقيا من حضور جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة وكان للدور الافريقى العربى أثره الكبير فى مثل هذه القرارات(٣٩) .

---

(37) Zdenek Cervenka . The Afro - Arab Alliance, p. 79.

(٣٨) محمد عبد الغنى سعودى: العروبة والافريقية مواجهة أم تضامن. بحث ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية الذى تصدره المنظمة العربية للتعليم والثقافة والعلوم . القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢٧٧—٢٧٨ .

(٣٩) عبد العزيز سرحان : المنظمات الاقليمية والمتخصصة ، القاهرة ١٩٧٤ « منظمة الوحدة الافريقية وأزمة الشرق الأوسط » ، ص ٨٠ .

وفى الدورة الثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة كان لاتحاد الدول العربية والافريقية أثره فى صدور قرار الجمعية العامة باعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية وهو أول قرار من المنظمة يدين فيه السياسة الاسرائيلية(٤٠) .

وفى مؤتمر وزراء الخارجية العرب والأفارقة الذى عقد فى داكار بالسنغال فى ١٩ ابريل ١٩٧٦ وافق المؤتمر على برنامج التعاون الدولى الافريقى فى شتى المجالات وأدان المؤتمر الاستعمار والصهيونية والفصل العنصرى وسائر أشكال التمييز العنصرى فى افريقيا وفلسطين والأراضى العربية المحتلة .

وهكذا تضافرت عوامل عديدة ساعدت على التقارب العربى الافريقى عبر السنوات الماضية وكان للدعم الذى قدمته الدول العربية لحركات التحرر الوطنى فى افريقيا أثره فى تقوية هذا التضامن . يضاف الى ذلك دور الدول العربية وخصوصا مصر فى دعم حركة عدم الانحياز ، وقيام منظمة الوحدة الافريقية والمشاركة المستمرة فى اعمالها وكان لهذا الدور الكبير اثره فى اهتزاز صورة الأفارقة عن اسرائيل بسبب عدوانها المتكرر على مصر فى أعوام ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وقد توج هذا التعاون العربى الافريقى بقرار المنظمة فى عام ١٩٧٣ والذى تضمن تحذيرا لاسرائيل بأن رفضها الجلاء عن البلاد العربية المحتلة يعتبر اعتداء على القارة الافريقية وتهديدا لوحدتها وأن الدول الافريقية مدعوة لأن تتخذ اية اجراءات سياسية واقتصادية مناسبة لصد ذلك العدوان . وبالفعل وضعت هذه القرارات موضع التنفيذ حينما اقدمت دول القارة على قطع علاقاتها السياسية مع اسرائيل اثناء الشهور التالية لهذا الاجتماع ولما قامت حرب اكتوبر ١٩٧٣ انتهجت احدى وعشرين دولة نفس المسار الافريقى واستمر بعد ذلك قطع العلاقات حتى وصلت الى حوالى اثنتين وأربعين دولة . أى جميع الدول فى المنظمة باستثناء الدول الأربع التى تسير فى فلك اتحاد جنوب افريقيا كما سبق القول . وقدمت الجامعة العربية مساعدات اقتصادية الى حركات التحرر الوطنى فى موزمبيق (مليون دولار) وأنجولا (مليون دولار) وجزر القمر (نصف مليون دولار) وجزر

---

(40) U. N. General Assemply 30th Session : A. C. 3L. 2159. 15 October 1975.

ساوتومى وبرنسيب (نصف مليون دولار) وشهدت القاهرة انعقاد مؤتمر القمة العربى الافريقى الأول فى الفترة من السابع حتى التاسع من مارس ١٩٧٧ ولقد صدر عن هذا المؤتمر أربعة وثائق تغطى الأسس والأسانيد التاريخية والحضارية التى تستند عليها المجموعة العربية الافريقية .

ولقد قدمت الدول العربية المساهمات المالية التالية :

١ — المملكة العربية السعودية ١٠٠٠ مليون دولار

٢ — الكويت ٢٤١ مليون دولار

٣ — دولة الامارات ١٣٧ مليون دولار

٤ — دولة قطر ٧٧ مليون دولار

٥ — جمهورية مصر العربية مليون دولار لحركات التحرر الامريقى

٦ — المملكة الاردنية الهاشمية مليون دولار لحركات التحرر الافريقى

٧ — ليبيا ٢ مليون دولار(٤١)

هذا وقد صدر عن المؤتمر اربع وثائق اساسية هى :

١ — الاعلان السياسى الذى سمى « اعلان القاهرة » .

٢ — اعلان وبرنامج عمل التعاون الافريقى والعربى .

٣ — اعلان التعاون الاقتصادى والمالى الافريقى والعربى .

٤ — تنظيم طريقة العمل لتحقيق التعاون الافريقى العربى .

وتهدف هذه الوثائق الأربع الى بذل الجهود لتحقيق الأهداف الواردة فى الاعلان . والعمل على دعم التفاهم بين الشعوب العربية والافريقية ، واحترام السيادة والمساواة بين هذه الدول ، والكفاح المشترك ضد السيطرة والتفرقة العنصرية والاستغلال فى جميع صوره .

---

(٤١) انظر يحيى رجب : التعاون السياسى العربى الافريقى بعد عام ١٩٧٣ ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية ، ص ٣٧٧—٤٢١ .

ونصت الوثائق أيضا على الالتزام بسياسة عدم الانحيـاز ، وادانة الامبريالية والإستعمار الجديد والصهيونية والفصل العنصرى وسائر أشكال التمييز سواء فى أفريقيا أو فى فلسطين والأراضى المحتلة ، بالاضـافة الى تعزيز التبادل الدبلوماسى والاقتصادى والاتصالات بين كافة الهيئات القومية. ونصت الوثائق أيضـا على ضرورة التعاون فى ميدان الوسائل الاعلاميـة كالصحافة ووكالات الأنباء والأقمار الصناعية وتبادل المعلومات والخبرات والمساعدة فى حل المشكلات الاجتماعية ، هذا فضلا عن تنسيق الأبحاث العلمية وانشاء خدمات استشارية مشتركة . ولم تغفل الوثائق المجالات الاقتصادية والمالية حيث طالبت بتدعيم موارد المؤسسات المالية الوطنيـة والمتعددة الأطراف التى تعمل فى ميدان التنمية الافريقية سواء المؤسسات الافريقية أو العربية . وزيادة المساعدات المالية الثنائية وتنسيق المساعدات المقدمة من الدول العربية والمؤسسات المالية الجماعية وذلك تعزيزا لأثرها الانمائى فى الدول الافريقية وتشجيع وتوظيف رءوس الأموال العربية فى الدول الافريقية فى شكل قروض أو ودائع واستثمارات مباشرة خاصة عن طريق المشروعات المشتركة(٤٢) .

وهكذا وضع هذا المؤتمر الأسس لخطة واسعة للتعاون العـربى الافريقى وكان لها دورها الكبير فى تقليص التوسع الاسرائيلى فى القـارة . ويمكن أن نجمل هذا التعاون الاقتصادى العربى لافريقيا فى الخطوات التالية :

١ — الصندوق العربى لتقديم القروض لدول افريقيا الذى أنشىء عام ١٩٧٤ ، برأسمال قدره ٢٠٠ مليون دولار ساهمت فيه الدول العربية بمبلغ ١٨٥ مليون دولار .

٢ — الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الافريقية وانشىء بتوصية من المجلس الاقتصادى للجامعة العربية فىديسمبر عام ١٩٧٣ من أجـل المساعدات الفنية .

٣ — المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا وانشىء عـام ١٩٧٤ وشارك فيه كل من العراق والمغرب وموريتانيا والكويت وقطـر

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٤١٤ — ٤١٧ .

والسعودية والجزائر وليبيا وسوريا والسودان ولبنان والاردن ، وبلغ الاكتتاب فيه الأول ٣٣١ مليون دولار وكان مقره الخرطوم .

والى جانب هذه البرامج داخل اطار الجامعة العربية فان هناك جهودا أخرى خارج اطار الجامعة ويتمثل هذه فى النواحى التالية :

١ — المصرف العربى الدولى وتأسس عام ١٩٧٣ برأسمال قدره ٨١٫٥ مليون دولار .

٢ — البنك الافريقى للتنمية وانشىء عام ١٩٦٥ ورأسماله ٥٠٠ مليون دولار وهو اول بنك ينشىء على مستوى القارة .

٣ — البنك العربى الافريقى .

٤ — الشركة العربية الافريقية للاستثمار والتجارة .

٥ — مؤسسات عربية على مستوى قطرى لكل من الكويت والسعودية وابو ظبى والبنك العربى الليبى(٤٣) .

خامسا : اسرائيل تجدد النشاط فى القارة :

رغم كل الجهود التى بذلها العرب من أجل الحد من النشاط الاسرائيلى فى القارة ورغم ما أنجزه العرب من جهود ومساعدات لشعوب القارة الافريقية ، ورغم ما قامت به الدول الافريقية بقطع علاقاتها مع اسرائيل الا أن هذه الدول الافريقية لم تكن جادة فى مواقفها واتضح أنه رغم قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول الافريقية واسرائيل الا أن العلاقات الاقتصادية بقيت كعادتها . وكنتيجة لذلك استمر الوجود الاسرائيلى فى ازدهاره ولم يتأثر هذا النشاط بقطع العلاقات ، ولم يحدث ضرر للمصالح الاسرائيلية حيث تحول نشاط الافراد الاسرائيليين الى حلقة اتصال بين تل أبيب وعواصم الدول الافريقية واكد المسئولون فى اسرائيل أن الأفراد الذين يعملون فى أفريقيا يمثلون سفراء للكيان الاسرائيلى وانهم أدوا الدور الذى يقوم به السفراء .

---

(٤٣) انظر هذه الشركات بالتفصيل فى كتاب : حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق .

ولقد اتضح انمعظم الدول الافريقية التى قطعت علاقاتها مع اسرائيل لم تغلق الأبواب بشكل نهائى أمام النشاط الدبلوماسى حيث ظل النشـاط الصهيونى يزداد من خلال المستشارين والخبراء الذين كانوا يعملون فى أكثر من تسع عشرة دولة أفريقية مثل زائير ، ونيجيريا وكينيا وساحل العـاج وليبيريا وافريقيا الوسطى وتوجو . وعبرت حكومة اسرائيل عن رأيها فى عملية قطع العلاقات حيث اعلنت أن العلاقات فى الوقت الحاضر اقوى مما كانت عليه قبل قطع العلاقات الدبلوماسية وأن هذه العلاقات قد اتسعت وتحسنت فى كل المجالات(٤٤).

واستمر هذا التبادل التجارى بين اسرائيل والدول الافريقية وتشـير الاحصائيات بأن حجم الصادرات الاسرائيلية فى عام ١٩٧٥ قد بلغ ٤٩٫٥ مليون دولار التى منها ٢٩٫٥ مليون دولار الى دول غرب افريقيا و٢٠ مليون دولار الى اقطار شرق افريقيا ، وهذا مقابل ٤٢ مليون دولار عام ١٩٧٤(٤٥).

واذا القينا نظرة على التبادل التجارى بين اسرائيل وكينيا مثلا نلحظ استمرار التبادل بينهما برغم قطع العلاقات .

ففى عام ١٩٧٧ كانت الصادرات ٦٫٦ مليون دولار والواردات ١٫٨ مليون دولار .

وفى عام ١٩٧٨ كانت الصادارات ٧٫١ مليـون دولار والواردات ٤ مليون دولار .

وفى عام ١٩٧٩ كانت الصادرات ١٠٫٤ مليون دولار والواردات ٢٫٧ مليون دولار .

وفى عام ١٩٨٠ كانت الصادرات ١٣٫٤ مليوندولار والواردات ٤٫٦ مليون دولار(٤٦) .

والى جانب هذا النشاط التجارى يوجد نشاط الشركات الصهيونية

---

(٤٤) الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل عام ١٩٧٦ ، ص ١٦٥ .
(٤٥) جريدة الجروزيلم بوست فى ١٩٧٦/٥/٢٨ .
(٤٦) مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، العدد ٤٢–٤٣ ديسـمبر ١٩٨١ .

والخبراء الصهاينة جنبا الى جنب مع النشاط العسكرى والاستعانة بالخبراء العسكريين(٤٧) .

والسؤال الآن : ما هى العوامل التى ساعدت اسرائيل على مواصلة نشاطها فى القارة رغم التضامن العربى الافريقى ؟

للاجابة على هذا السؤال نجد أن هناك عددا من العوامل التى ساعدت على هذا النشاط الصهيونى الجديد فى القارة . ويمكن ان نوجز هذه العوامل على النحو التالى :

(أ) العوامل العربية :

كانت العوامل العربية من الأمور التى سلهت لاسرائيل معاودة نشاطها فى القارة الافريقية وهناك من الأسباب والعلل التى مهدت لاسرائيل الطريق ومنهـا :

١ — عدم استغلال القرار الافريقى واستثماره وتطويره بعد مرحلة قطع العلاقات لتشمل أوجه النشاط الأخرى .

٢ — عدم بلورة سياسة عربية موحدة تجاه القارة الافريقية تحاول أن تقذف بثقلها السياسى والاقتصادى فى القارة وتؤمن الوجود العربى هناك .

٣ — تباين المواقف العربية من الصراع حيث تباينت مواقف الدول العربية من قضية الصراع العربى الاسرائيلى ووقفت بعض الدول العربية موقف المتفرج من محاولات التغلغل الاسرائيلى فى أفريقيا وكانت هــذه المواقف المتباينة سببا فى عدم الاقدام على قرار جماعى كان لرد فعله الاثر فى تقليص النفوذ الاسرائيلى فى القارة .

٤ — ضآلة تأثير المساعدات الاقتصادية العربية لافريقيا ورغم أن المساعدات الاقتصادية للقارة كانت ضخمة الا أنها لم تحدث الأثر المطلوب فى الحد من النشاط الصهيونى أو تصفيته . ورغم أن المساعدات قد بلغت فى

---

(٤٧) حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

عام واحد حوالى ١٥٠ مليون دولار وقدمت الى حوالى ثلاث وثلاين دولة أفريقية بالاضافة الى القروض التى تدمها الصندوق العربى للمعونة الفنية الافريقية والمصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى القارة الا ان هذه القروض والمعونات العربية — رغم ضخامتها لم تحقق النتائج السياسية المطلوبة لوضع حد للنشاط الاسرائيلى فى افريقيا . ان السبب فى ذلك هو عدم وجود سياسة عربية مبلورة ومحددة لهذه المساعدات ، ولم توجد برامج مشتركة تخطط لها سياسات معينة ومثال ذلك أن دولا مثل ليبيريا والكونغو تقف الى جانب اسرائيل وتحصل على مساعدات من العرب حيث حصلت ليبيريا عام ١٩٧٥ على ١٤ مليون دولار وحصلت الكونغو (زائير) على ١٣ مليون دولار من الصندوق العربى للقروض الافريقية . ومن أغرب الأمور أن تصل المساعدات الى موبوتو حوالى ٣٥٠ مليون دولار وهو يسير فى فلك اسرائيل ، وكان من الواجب أن توجه القروض والمساعدات لمن يقف الى جانب الصف العربى .

يضاف الى ذلك أن المساعدات العربية لم تصل الى العدد الأكبر من الأقطار الافريقية ولم تمتد الى المجالات المختلفة التى تفيد الصالح العام ولم يحس الرجل الافريقى بقيمة هذه المساعدات لأنها لم تكن جميعها فى شكل مشروعات انمائية أو انشائية كشق الطرق أو مد شبكات الرى واقامة السدود كما لم تخصص القروض للمشروعات التى يستفيد منها الأفارقة . والأهم من ذلك أن الكوادر الفنية الافريقية لم تصاحب هذه المساعدات ولو اقترنت هذه القروض بالخبرة العربية لأحس الافريقى بالكيان العربى ولأسهم فى تجسيد الشخصية العربية فى القارة .

٥ — ضآلة التمثيل الدبلوماسى فى أفريقيا حيث لم تكن للدول العربية شبكة واسعة من التمثيل الدبلوماسى مع أقطار افريقيا حتى عام ١٩٧٦ ووصلت هذه البعثات الى حوالى ١٩ بعثة على مستوى القارة الا انها لم تبلغ المستوى المطلوب لتقطع الطريق على الكيان الصهيونى فى العودة للقارة ، ويضاف الى ضآلة الوجود الدبلوماسى العربى فى القارة فانه لم يكن هناك اهتمام باختيار المبعوثين الدبلوماسيين الذين تتوافر فيهم المواصفات المطلوبة والمستوى الرفيع وفهم اللغات الافريقية والمحلية وعادات الافارقة ودراسة التاريخ الافريقى حتى يتسنى لهم أداء وجبهم على الوجه الأكمل .

٦ — تقصير الاعلام العربى الذى كان فى مقدوره أن يحقق الكثير على الصعيد العربى والافريقى لو أنه ركز على مخاطبة الأفارقة وابراز مخاطر الكيان الصهيونى وان يستغل بعض الأحداث الهامة ويسخرها لخدمة قضايا العرب والأفارقة وكان من الممكن استغلال الترابط الوثيق بين اسرائيل وجنوب أفريقيا فى محاولة لتشويه صورة هذا الكيان الصهيونى فى القارة بالاضافة الى التركيز على الجوانب السلبية للنشاط الصهيونى وابراز أهمية التضامن العربى وما يحمله من فوائد للعرب والأفارقة(٤٨) .

ولكن هذا التقصير الاعلامى لا يعنى أن الاعلام لم يطور صورته ، بل على العكس فقد حدثت بعض الأعمال والجهود العربية منذ عام ١٩٧٣ تمثلت فى النشاط الاعلامى الذى بداته الادارة العامة للاعلام بجامعة الدول العربية وانشاء عدد من المكاتب الاعلامية فى عدد من الدول الافريقية وعقد سلسلة من القاءات بين الاعلاميين العرب والأفارقة ومنها اللقاء بين الاذاعات العربية واتحاد المنظمات الدولية الوطنية للاذاعة والتلفزيون فى أفريقيا فى مدينة الرباط عام ١٩٧٣ ، وايضا انعقاد المؤتمر التأسيسى لاتحاد الصحفيين الأفارقة فى القاهرة عام ١٩٧٥ ، وكذلك انعقاد الندوة العربية الافريقية لوكالات الانباء فى عام ١٩٧٥ بتونس .

والخلاصة أن العوامل العربية وقصور وسائل الاعلام وعدم وضع استراتيجية عربية للقروض لافريقيا كانت كلها عوامل ساعدت على عودة النشاط الاسرائيلى للقارة خصوصا بعد مرحلة قطع العلاقات الدبلوماسية بين الأفارقة واسرائيل ، والتى كانت قمة التعاون العربى الافريقى ، لكن القصور العربى فى وضع البرامج ورسم السياسات تجاه افريقيا جعل من هذه القطيعة أمرا قليل التأثير فى السياسة الافريقية ، وعادت اسرائيل من جديد الى القارة . ولم تكن العوامل العربية وحدها هى المسئول عن ذلك بل هناك عوامل أخرى على الصعيدين الافريقى والدولى .

(ب) العوامل الافريقية :

تكمن العوامل الافريقية فى عودة العلاقات واستمرار النشاط بين

---

(٤٨) محمد على العوينى : الاعلام الدولى لجامعة الدول العربية فى أفريقيا ، مجلة معهد الدراسات العربية ، العدد ١٩٧٦/٧ ، ص ١٩٧٥ .

اسرائيل وافريقيا أى أن الدول الافريقية لم تكن جادة حين تبت الغالبية قرار قطع العلاقات وكانت مجرد استجابة لموقف منظمة الوحدة الافريقية . ومعنى هذا ان هذه الدول الافريقية لم تكن تعنى انهاء الوجـــود الاسرائيلى فى القـــارة(٤٩) .

كذلك حرصت الدول الافريقية على عدم ضياع مورد من المعونات يأتى اليها من الكيان الصهيونى ، أو المعونات الفنية التى تقدمها اسرائيل لهم فى فترة هم فى أشد الحاجة الى هذا الدعم المالى والفنى والاقتصادى ، وكانت الدول الافريقية تحاول الاستفادة من الحصول علىدعم سواء من العرب أو اسرائيل .

(جـ) العوامل الدولية :

من العوامل الدولية التى ساعدت على استمرار اسرائيل فى نشاطها الاقتصادى فى القارة الافريقية ذلك الدعم الامريكى للنشاط الصهيونى منذ النصف الثانى من الخمسينات حيث تكفلت الولايات المتحدة الامريكية بتمويل النشاط الصهيونى فى هذه القارة . ولذا قامت اسرائيل بالدور نيابة عن الدول الاستعمارية ، وتعهدت أمريكا بتقديم مساعدات فى حدود ١٥٠ مليون دولار لتمويل المساعدات الاسرائيلية لافريقيا وتعويض اسرائيــل عن أية خسارة تلحق بها نتيجة امداد اسرائيل بالأسلحة لافريقيا وهناك أيضا الدعم الفرنسى الذى حاول الصهاينة الاستفادة منه فى افريقيا وخصــوصا فى مجموعة الدول الناطقة بالفرنسية ولذا سعت اسرائيل لتحسين علاقاتها مع باريس واستفادت اسرائيل أيضا من الموقف البريطانى الذى سهل عملية عودة النشاط الصهيونى لافريقيــا والمعروف أن بريطانيــا لها علاقات مع دول الكومنولث البريطانى وهو ما حاولت اسرائيل الاستفادة منــه فى زيادة علاقاتها مع دول القارة ولا ننسى الدور الذى لعبته الأمم المتحدة فى مساعدة اسرائيل لاعادة نشاطها للقارة وذلك عن طريق اختيار عدد من الخبـــراء الصهاينة لمساعدة الدول النامية ومنها دول أفريقيا ، وهــذه كلها عوامل ساعدت على ازدياد النشاط الصهيونى فى القارة الافريقية . ونتيجة هذه العوامل الثلاث حققت اسرائيل نشاطا مكثفا بعودة علاقاتها مع دول افريقيا

---

(٤٩) حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

وتكثف هذا النشاط فى أكثر من عشرة دول افريقية مثل زائير وساحل العاج وليبيريا وافريقيا الوسطى واوغنده وتشاد وكينيا وتوجو والجابون والكاميرون ونيجيريا . كما نجحت اسرائيل فى دفع ثلاثة دول افريقية لاستئناف علاقاتها الدبلوماسية كاملة وهى زائير وليبيريا والجابون وهناك دول اخرى تعتزم عودة العلاقات مع اسرائيل مثل ساحل العاج ونيجيريا وكينيا وتوجو والكاميرون والسنغال ووصل الأمر الى حد وقوف دول أفريقية مثل زائير والجابون وليبيريا فى الجمعية العامة ضد اية مبادرة تستهدف تجميد عضوية اسرائيل فى الأمم المتحدة . كما أعادت اسرائيل تدريب قوات الحماية الخاصة وأشرف المستشارون الصهاينة على اعادة تنظيم الجيوش الافريقية .

سادسا : دور العرب لمواجهة النشاط الاسرائيلى الجديد :

مما لا شك فيه أن التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا ووصوله الى مكان الصدارة فى بعض الدول الافريقية يشكل خطرا كبيرا على الأمن القومى العربى ويتمثل هذا فى محاولات اسرائيل لأن تجد لها موقع قدم لها عند مدخل البحر الأحمر وفى المحيط الهندى عن طريق تعزيز وجودها فى كينيا وبعض الدول الافريقية الأخرى وسعى اسرائيل لاقامة علاقات مع دول متاخمة للبلاد العربية مثل تشاد ونيجيريا والنيجر وافريقيا الوسطى والسنغال بقصد توسيع الدائرة المعادية للعرب . وايضا محاولات اسرائيل للاضرار بالعلاقات العربية الافريقية بقصد تقوية نفوذها على حساب العرب . وفى مقابل هذا النشاط الصهيونى فى القارة الافريقية لابد من تحرك عربى لمجابهة هذا النشاط الصهيونى ، ولملء الفراغ فى القارة . وهناك عدة عوامل لابد من التحرك العربى من خلالها حتى يأتى التحرك بالثمار المرجوة من هذا التعاون العربى الافريقى .

(أ) ضرورة الحضور العربى فى القارة الافريقية :

لقد كان واضحا أن ضعف العلاقات العربية بالدول الافريقية فى أواخر الخمسينات كان من العوامل الرئيسية التى ساعدت على انتشار النشاط الصهيونى فى أفريقيا .

وكذلك محاولة الدول العربية الاستفادة من عضوية بعض الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية . وبالطبع يخدم هذا الكثير من القضايا

الافريقية من خلال هذه الدول . وكذلك يجب أن يعتمد العرب على بعض الدول الصديقة لهم والتى يمكن ان تساهم فى عرقلة النشاط الاسرائيلى فى القارة ومن هذه الدول الاتحاد السوفيتى والصين وكوبا .

(ب) توسيع شبكة العلاقات الدبلوماسية مع الاقطار الافريقية :

تقتضى المصالح القومية اعادة النظر فى علاقات دول افريقيا مع أقطار العالم العربى ووضع خطة تحرك دبلوماسى فى المرحلة القادمة لأن التمثيل الدبلوماسى العربى أقل من ناحية الحجم من التمثيل الدبلوماسى الاسرائيلى حيث احتفظت بحوالى واحد وثلاثين بعثة دبلوماسية على مستوى السفارة أو القنصلية بينما لم يصل التمثيل الدبلوماسى العربى الى هذا الرقم وكان لمصر وحدها احدى وستين بعثة حتى عام ١٩٦٧ ، والجزائر ثلاث بعثات وتونس اربع بعثات ولبنان ٩ بعثات(٥٠) .

اما بقية الدول العربية فلم يكن لها بعثات دبلوماسية من أقطار افريقيا وبعد عام ١٩٦٧ اتسعت الدائرة ، وصار لمصر ٣٤ بعثة عام ١٩٦٧ والجزائر ١٥ بعثة وتونس ١٥ ولبنان ١٣ بعثة ، وبدأت بعض دول المشرق تقيم مع الأقطار الافريقية لكنها دون المستوى المطلوب(٥١) .

وعلى الدول العربية ان تدعم نشاطها الدبلوماسى فى افريقيا وأن يكون هناك اهتمام باختيار البعثات الدبلوماسية فى الاقطار والتركيز على الكفاءة والتخصص والالمام بعادات الأفارقة ولغاتهم وان يكون هناك تنسيق بين البعثات الدبلوماسية لضمان أكبر قدر من النجاح لمهماتها .

(جـ) تنمية العلاقات السياسية :

يجب ان تتم التنمية للعلاقات السياسية بين الشعوب العربية والافريقية من خلال منظمة الوحدة الافريقية وأن يشارك العرب فى عضوية المنظمة كما يتم التعاون من خلال العلاقات بين الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية وأن يكون هناك حوار عربى افريقى من أجل تعزيز التعاون

---

(٥٠) رياض القنطار : التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا وطرق مجابهته مركز الأبحاث منظمة التحرير ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧٩ .
(٥١) عصام الجبورى : مصدر سابق ، ص ٢٨٠ .

وتوطيد أشكال هذا التعاون فى كافة المجالات . وان يتم الدعوة لعقد مؤتمرات قمة مشتركة مثل مؤتمر عام ١٩٧٧ واقرار برامج مشتركة والسعى لتنفيذها ومعالجة أوجه القصور ومناطق الضعف فى مسيرة التعاون العربى الافريقى.

ويجب على العرب ان يكثفوا العمل العربى الجماعى بمنظمة الوحدة الافريقية وأن تحاول الجامعة العربية مد جسور بين اقطار افريقيا والعالم العربى وان تعمل على تطوير شبكة التعاون مع دول المنظمة لتحقيق الفائدة المشتركة لدول الجامعة ومنظمة الوحدة الافريقية . وذلك لان هذا التعاون يمكن ان يسد الثغرات ويقفل الأبواب امام تحركات اسرائيل فى القارة .

(د) اقامة العلاقات وتبادل الزيارات :

تستطيع الدول العربية ان تسد الطرق امام اسرائيل من خلال تطوير العلاقات مع الدول الافريقية وخصوصا الدول التى يشكل المسلمون غالبية بها مثل نيجيريا والسنغال ومالى وتشاد والنيجر ولو تحركت الدول العربية نحو هذه الأقطار لاستطاعت أن تعزز العلاقات وأن تكسر الحواجز وأن تقطع الطريق امام اسرائيل ومما لا شك فيه أن تبادل الزيارات مع الدول الافريقية يوطد من أواصر الصداقة ويدعم العلاقات الثنائية ويذيب الخلافات ويقضى على الفرقة ويغير بن اثار السياسة الاسرائيلية التى تهدف دائما الى تشويه صورة العرب واعتبارهم من تجار الرقيق واذا ما تمت الزيارات وتبادل زعماء القارة اللقاءات مع العرب كلما اتضحت صورة هذا التعاون وازدادته رسوخا وشموخا ، ومع رسوخها تتلاشى الدعاية الاسرائيلية ، وتفقد الصهيونية أسلحتها الدعائية ضد العرب .

(هـ) الدعم العسكرى والاقتصادى :

يجب على الدول العربية ان تنشىء المؤسسات والأجهزة التى تتابع النشاط العربى والاشراف على تنفيذ المشروعات اسوة بما تقوم به اسرائيل من نشاط مماثل وواجب على العرب انينسقوا الجهود وان يوحدوا الأطراف فى شكل مؤسسة واحدة تعمل فى المجال الاقتصادى . وان ينشئوا شركة عربية متخصصة لدعم هذا التعاون الاقتصادى العربى فى افريقيا وأن يزداد حجم هذا التبادل التجارى لتغطية احتياجات القارة ولمنع تسرب التجارة الاسرائيلية ، وان تكون هذه السياسات قائمة على برامج متخصصة تضم

الخبراء العرب والأفارقة لوضع السياسات واعداد البرامج وطريقة التنفيذ(٥٢) .

وان تقوم الدول العربية بتقديم المساعدات للدول الافريقية وخصوصا فى مجال التدريب العسكرى وتقديم الخبرات اللازمة والخبراء فى هذه الناحية .

(و) دعم المجال الاعلامى العربى :

يلعب الاعلام دورا خطيرا فى دعم العلاقات العربية الافريقية ، ولقد نجحت اسرائيل من خلال اجهزة اعلامها أن تشوه صورة العرب وان تعرقل عمليات التعاون الثقافى العربى الافريقى خصوصا فى الدول التى تدين غالبيتها بالاسلام(٥٣) وتتطلب هذه الدعاية الصهيونية النشطة خطة اعلامية عربية وقيام الاعلاميين بالانتقال الى واقع الأحداث فى افريقيا ومخاطبة الأفارقة واعداد المعارض الفنية للرسوم والافلام الوثائقية التى تناقش القضايا العربية وفى مقدمتها الصراع مع الصهيونية ومحاولة التوصل الى اتفاقيات للتعاون الثقافى الاعلامى بالاضافة الى انشاء محطة اذاعة عربية موجهة الى القارة الافريقية ويضاف الى ذلك دعم الصحف الافريقية التى تخدم القضايا العربية وأن توزع الكتب العربية التى تعكس الواقع الحضارى للأمة العربية وارتباطها التاريخى بالقارة الافريقية حتى تصحح المفاهيم وتنجلى الحقائق ويعيش الافريقى فى جو من الصراحة التامة بعيدا عن تأثير الدعاية الصهيونية التى لوثت أفكاره وغيرت من وجهة نظره نحو أخيه العربى الذى يشاركه فى نفس التاريخ الاستعمارى والذى عانى مثله من الاستعمار والاضطهاد والتميز العنصرى . ان الدعاية هامة فى هذه المرحلة من تاريخ العرب وعلاقاتهم بافريقيا واذا لم توضع خطة مدروسة للاعلام العربى ، فسوف تظل الساحة خالية أمام اسرائيل وسوف تظل التربة الافريقية خصبة تزرع فيها ما تشاء من أفكار وتجنى ثمر هذا الغرس على حساب العرب والأفارقة .

---

(٥٢) حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(٥٣) انظر جدول الدول الاسلامية ونسب المسلمين فى القارة شكل رقم (٥) .

وفى الختام نستطيع القول أن ضعف الدور العربى فى القارة الافريقية تمثل فى غياب البرامج وقلة أساليب التخطيط ونقص الموارد التى تحتاج اليها القارة الافريقية كما أن سياسة الارتجال ادت الى غياب التنسيق وبعثرة الجهود العربية وهذا ما جعل التاثير العربى ضعيفا اذا ما قورن بالأثر الصهيونى . كما أن الأموال العربية لم توجه الوجهة السليمة فى افريقيا لأنها قدمت فى شكل أموال نقدية لحكومات هذه الدول الافريقية ولم يستفد منها السواد الأعظم من الشعب ولم تحس الجماهير الافريقية بأثر هذه المساعدات الملموس .

يضاف الى ذلك أن عدم وجود الخبراء العرب الذين يتابعون المشروعات ويشرفون على التنفيذ أثره فى قلة الوجود العربى الحقيقى ، ولذا لابد من ارتباط الأموال العربية بتلك الخبرة التى تتفاعل على الأرض الافريقية بجسدة آمال الأفارقة والعرب فى التصدى للكيان الصهيونى .

ولقد كان غياب الشركات العربية التى تقوم بتنفيذ المشروعات عاملا هاما فى احساس الافريقى بالواقع العربى ، ولهذا لم تحقق المشروعات العربية فى افريقيا الهدف المطلوب بسبب غياب الخبراء العرب والشركات العربية .

كل هذه العوامل لابد وان تتكاتف جميعا نحو هدف واحد هو التصدى العربى للانتشار الاسرائيلى فى افريقيا ، ولن تتحقق هذه الرغبة العربية فى التعاون مع الأفارقة ضد الاسرائيلين الا بالسياسات القومية الجماعية التى تقوم على أسس علمية لا تقل أثرا ، بل تضارع الدعاية والنشاط الصهيونى فى القارة .

ان الامكانيات العربية كثيرة والجهود العربية مخلصة نحو مساعدة الأفارقة والوقوف بجانبهم أمام المحاولات الاستعمارية التى تسعى للنيل من استقلالهم ، وأن الأمة العربية تدرك البعد السياسى والجغرافى والاقتصادى للقارة الافريقية وأن محاولات التعاون مع القارة واجب عربى نحو الأفارقة .

لكن هذه النظريات لا تصبح حقيقة ملموسة الا اذا ترجمت الى برنامج منسق وخطط ملموسة ومشاريع مدروسة وخبرة عربية محسوسة تتابع التنفيذ ، وتعالج أوجه القصور فى ظل مناخ عربى أفريقى سليم .

جـدول (١)

جدول الدول الافريقية وتاريخ أستقلالها

اســم الدولة	تاريخ استقلالها
١ — مصـر	١٩٢٢
٢ — ليبيـا	١٩٥١
٣ — السـودان	١٩٥٦
٤ — المغـرب	١٩٥٦
٥ — تونـس	١٩٥٦
٦ — غانـا	١٩٥٧
٧ — غينيـا	١٩٥٨
٨ — جمهورية افريقيا الوسـطى	١٩٦٠
٩ — تشـاد	١٩٦٠
١٠ — توجـو	١٩٦٠
١١ — الجابـون	١٩٦٠
١٢ — داهـومى	١٩٦٠
١٣ — زائـير	١٩٦٠
١٤ — سـاحل العـاج	١٩٦٠
١٥ — السـنغال	١٩٦٠
١٦ — الصـومال	١٩٦٠
١٧ — فولتـا العليـا	١٩٦٠
١٨ — الكامـيرون	١٩٦٠
١٩ — الكونغـو برازافيـل	١٩٦٠
٢٠ — مـالى	١٩٦٠
٢١ — مالاجـاش	١٩٦٠
٢٢ — موريتـانيا	١٩٦٠
٢٣ — النيجـر	١٩٦٠
٢٤ — نيجـيريا	١٩٦٠
٢٥ — سـيراليون	١٩٦١

(تابع) جـدول (١)

اسم الدولة	تاريخ استقلالها
٢٦ – اوغنــدة	١٩٦٢
٢٧ – بورنــدى	١٩٦٢
٢٨ – الجــزائر	١٩٦٢
٢٩ – روانــدا	١٩٦٢
٣٠ – كينيــا	١٩٦٣
٣١ – زامبيــا	١٩٦٤
٣٢ – جامبيــا	١٩٦٤
٣٣ – مــالاوى	١٩٦٤
٣٤ – بتســوانا	١٩٦٦
٣٥ – ليســوتو	١٩٦٦
٣٦ – غينيــا الاســتوائية	١٩٦٨
٣٧ – موريشــيوس	١٩٦٨
٣٨ – ســوازى لانــد	١٩٦٩
٣٩ – غينيــا بيســاو	١٩٧٣
٤٠ – موزمبيــق	١٩٧٥
٤١ – انجــولا	١٩٧٥
٤٢ – ســاوتومى وبرنســيب	١٩٧٥
٤٣ – جــزر الكومــور	١٩٧٦
٤٤ – كيب فردى	١٩٧٦
٤٥ – جــزر سيشــل	١٩٧٦
٤٦ – جمهــورية جيبــوتى	١٩٧٧

جـدول (٢)

التمثيل الدبلوماسى لاسرائيل فى افريقيا

اسم الدولة	اسم الدولة
١ ـ غينيا الاستوائية	١٧ ـ السنغال
٢ ـ أثيوبيا	١٨ ـ سيراليون
٣ ـ الجابون	١٩ ـ تنزانيا
٤ ـ جامبيا	٢٠ ـ تشاد
٥ ـ غانا	٢١ ـ توجو
٦ ـ ساحل العاج	٢٢ ـ اوغندة
٧ ـ كينيا	٢٣ ـ فولتا العليا
٨ ـ ليسوتو	٢٤ ـ زامبيا
٩ ـ ليبريا	٢٥ ـ جنوب افريقيا
١٠ ـ مالاوى	٢٦ ـ بتسوانا
١١ ـ ملاجاش	٢٧ ـ بوروندى
١٢ ـ مالى	٢٨ ـ الكاميرون
١٣ ـ موريشيوس	٢٩ ـ افريقيا الوسطى
١٤ ـ النيجر	٣٠ ـ الكونغو برازافيل (زائير
١٥ ـ نيجيريا	٣١ ـ الكونغو كنشاسا
١٦ ـ رواندا	٣٢ ـ داهومى

جـــدول (٣)

صادرات وواردات اسرائيل لافريقيا

السنة	الصادرات للقارة مليون دولار	الواردات منها مليون دولار	ملاحظات
١٩٥٨	٤ر٥٦٤	١٤ر١٠٨	
١٩٥٩	٦ر١٢٦	١٤ر٠١٨	
١٩٦٠	١٠ر٥٢٥	١٧ر٨٢٠	
١٩٦١	١٣ر٤٣٢	٢٠ر٣٧٦	
١٩٦٢	١٠ر٧٢١	٢٠ر٣٢٥	**انخفاض الصادرات :**
١٩٦٣	١١ر٦٥٠	٢١ر٩١١	لاحظ ان حجم الصـــــــادرات
١٩٦٤	١٢ر٦٢٠	٢٧ر٤٤٠	ارتفع من ٥ر١٠ مليون عـــام
١٩٦٥	٢١ر٢٥٠	٢٧ر٢٨٦	١٩٦٠ الى ٥ر٤٧ مليون عام
١٩٦٦	١٩ر٥٥٠	٢٦ر٦٧١	١٩٧١ (اربعة اضعاف)
١٩٦٧	٢٤ر٠٠٠	٢٧ر٠٨٣	لـــم ترتفـــع الواردات الا من
١٩٦٨	٢٨ر١٢٥	٣٠ر٩٦٥	١٧ر٨٢ مليون دولار الى ٠ر٢٥
١٩٦٩	٣٤ر٢٤٦	٣١ر١٣٣	مليون دولار .
١٩٧٠	٤١ر٥٤٢	٣٠ر١٤١	
١٩٧١	٤٧ر٤٢١	٢٥ر٢١١	

المصدر : الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل لعام ١٩٧١ — ١٩٧٢ .

جــدول (٤)

الدول التى قطعت علاقاتها مع اسرائيل

اسم الدولة	تاريخ قطع العلاقات
١ ــ غينيـــــــا	٥ /٦ /١٩٦٧
٢ ــ تشـــــاد	٢٧/١١/١٩٧٢
٣ ــ أوغنـــــده	٣٠/٣ /١٩٧٢
٤ ــ الكونغــو برازافيــل	٣١/٣ /١٩٧٢
٥ ــ النيجـــــر	١ /١ /١٩٧٣
٦ ــ مـــالى	٥ /١ /١٩٧٣
٧ ــ بورونـــدى	١٦/٥ /١٩٧٣
٨ ــ توجـــــو	٢١/٩ /١٩٧٣
٩ ــ زائـــير	١٠/٤ /١٩٧٣
١٠ ــ داهـــومى	٩ /٥ /١٩٧٣
١١ ــ روانـــــدا	٩ /١٠/١٩٧٣
١٢ ــ فولتـــا العليـــــا	١٠/١٠/١٩٧٣
١٣ ــ الكاميرون	٣ /١٠/١٩٧٣
١٤ ــ غينيـــا الاســـتوائية	١٥/١٠/١٩٧٣
١٥ ــ تنزانيـــــا	١٩/١٠/١٩٧٣
١٦ ــ مالاجـــاش	٢٠/١٠/١٩٧٣
١٧ ــ افريقيـــا الوســـطى	٢١/١٠/١٩٧٣
١٨ ــ أثيوبيـــــا	٢٣/١٠/١٩٧٣
١٩ ــ نيجـــــيريا	٢٥/١٠/١٩٧٣
٢٠ ــ جامبيـــا	٢٦/١٠/١٩٧٣
٢١ ــ زامبيــــــا	٢٦/١٠/١٩٧٣
٢٢ ــ غانـــــا	٢٨/١٠/١٩٧٣
٢٣ ــ الســـــــنغال	٢٩/١٠/١٩٧٣
٢٤ ــ جابـــــون	٢٩/١٠/١٩٧٣
٢٥ ــ ســـيراليون	٢٩/١٠/١٩٧٣

اسم الدولة	تاريخ قطع العلاقات
٢٦ ــ كينيـــــا	١ /١١/١٩٧٣
٢٧ ــ ليبـــيريا	٢ /١١/١٩٧٣
٢٨ ــ بتســـوانلاند	٤ /١١/١٩٧٣
٢٩ ــ ســـاحل العـــاج	٣ /١١/١٩٧٣

الدول التى لم تقطع العلاقات :

١ ــ مــالاوى
٢ ــ ســـوازى لانــد
٣ ــ موريشـــيوس
٤ ــ ليســـوتو

المصدر : جريدة المحرر اللبنانية فى ١٣/١١/١٩٧٣ .

جـــدول (٥)

نسب المسلمين فى القارة الى عدد السكان

اسم الدولة	النسبة المئوية
١ ــ موريتــــانيا	٪٩٩ر٥٪
٢ ــ الســــنغال	٪٧٦ر٥٪
٣ ــ جامبيــــا	٪٥٦
٤ ــ مــــالى	٪٥٦
٥ ــ غينيــــا	٪٧٩
٦ ــ غانـــــا	٪٣ر٥
٧ ــ فولتــا العليـــا	٪١٩
٨ ــ داهــــومى	٪٧ر٥
٩ ــ نيجـــــــريا	٪٤٤
١٠ ــ النيجـــــر	٪٧٨
١١ ــ ســـاحل العـــاج	٪١٩
١٢ ــ توجـــــو	٪٧
١٣ ــ الكونغـــو برازافيـــل	٪ ٧ر
١٤ ــ جمهورية افريقيـــا الوســـطى	٪٣
١٥ ــ الجابـــــون	٪ ١ر٣
١٦ ــ تشـــــــاد	٪٥٠
١٧ ــ الكامــــيرون	٪١٧ر٥
١٨ ــ ملاجـــاش	٪ ٤ر٤
١٩ ــ كومـــورو	٪٩٥
٢٠ ــ الســــودان	٪٧٠
٢١ ــ اثيوبيـــــا	٪٣٣ر٧
٢٢ ــ ارتـــــيريا	٪٥٠
٢٣ ــ الصــــومال	٪١٠٠
٢٤ ــ ســـاحل الصـــــومال	٪١٠٠
٢٥ ــ كينيــــا	٪١٠

اسم الدولة	النسبة المئوية
٢٦ — أوغنـــــدة	٤ر٥ ٪
٢٧ — تنزانيـــا (تنجانيقـــا)	٢٧٪
٢٨ — زنجبــــــار	٩٨٪
٢٩ — مـــالاوى	٦ر١٠ ٪
٣٠ — زامبيـــــا	٥ر ٪
٣١ — روديســـيا الجنوبية	١ر ٪
٣٢ — أنجـــولا	صفر٪
٣٣ — موزمبيــــــق	٥ر٢٤ ٪
٣٤ — بتشـــوانلاند	صفر٪
٣٥ — ســـوازى لانـــد	صفر٪
٣٦ — اتحاد افريقيـــا الجنوبية	٢ر٢ ٪
٣٧ — ســـــيراليون	٨ر٦٨ ٪
٣٨ — مصـــــــر	٣ر٩٣ ٪

المصدر :

Jacques Baulin . The Arab Role in Africa, p. 29.

باب المندب والامن العربى الافريقى

لواء أ. ح دكتور
محمد رضا توفيق فودة

بســـم الله الرحمن الرحيم

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

(صدق الله العظيم)

مقـــــدمة :

نحن نعيش اليوم فى عالم متشابك المصالح يتميز بدرجة عالبـــة من الاعتماد المتبادل بين دولة فى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية . وكل دولة تحاول أن ترسم لنفسها نمطا للحياة يساعد شـــعبها على ادارة شئونها على أساس المشاركة فى تحمل الأعباء والتمتع بالمزايا . كما أن هذا النمط يجب ان يحقق للدولة أسلوبا مناسبا لحل مشاكلها مع جيرانها ومع باقى دول العالم .

ولا شك أن المصالح المتشابكة ليست بالضرورة متطابقة أو متجانسة ، لذا فعندما تتعارض المصالح فقد تضطر الدولة للدخول فى مواجهة مسلحة مما يؤثر على أمنها القومى ، لذا فعلى الدولة أو الدول التى تسعى لتحقيق أمنها القومى أو الاقليمى أن تعمل على رفع قدرتها الشاملة اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا .

ولا شك أن الأهمية الجيوبولوتيكية للدولة هى أحد العـــوامل التى تعرض الدولة للصراع الدولى وخاصة اذا ما كانت تطل على احد الممـــرات المائية الهامة مثل مضيق باب المندب .

وتواجه الدول العربية والافريقية بمشكلات اقتصـــــادية واجتماعية وسياسية معقدة تهدد أمنها القومى ، لذا كان عليها أن تسعى للوقوف على

التهديدات الموجهة اليها سعيا وراء الوصول الى صيغة مقبولة لتحقيق الأمن العربى الافريقى .

وهناك خلط فى مفهوم الأمن القومى وأصبح يشوبه الغموض والتباين ، حيث نجد الخلط الملحوظ بين عدة مفاهيم للامن مثل :

— الأمن القومى .

— الأمن الوطنى .

— الأمن الاقليمى .

— الأمن الجماعى .

ونجد أن هناك غموضا فى مفهوم الأمن القومى سائدا فى جميع الأوساط حيث يقع فى فخه كثير من الساسة والكتاب والقادة والمفكرين بل والرأى العام ، مما يؤدى الى استخدام المفهوم فى غير موضعه(١) .

أولا — مفاهيم الأمن القومى :

ويقصد بكلمة الأمن الطمأنينة وهذا يعبر عن الوجود السياسى والالتزام بالولاء والطاعة ازاء السلطة وصاحبها ، والاستقرار والقدرة على مواجهة المفاجآت المتوقعة وغير المتوقعة دون أن يترتب على ذلك اضطراب فى الأوضاع السائدة بما يعنيه ذلك من تقلص للطمانينة والاستقرار(٢) .

وفى نطاق التعاملات الدولية المعاصرة يجب أن نفرق بين ثلاثة مفاهيم متداولة وهى الأمن القومى ، الأمن الاقليمى ، الأمن الجماعى . واقدم هذه الاصطلاحات هو اصطلاح الأمن القومى والذى ظهر مع ظهور الدولة القومية فى أوروبا الحديثة وبصفة خاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقد تناوله العديد من المفكرين بتعاريف مختلفة كالآتى :

— هو تلك المجموعة من القواعد الحركية التى يجب على الدولة ان

(١) د. السيد عليوة : الأمن القومى العربى ومضاعفات حرب الخليج ، السياسة الدولية ، العدد ٨١ ، القاهرة ، يوليو ١٩٨٥ ، ص ٣٠—٣١.
(٢) د. حامد ربيع : نظرية الأمن القومى العربى ، القاهرة ، دار الموقف العربى ١٩٨٤ ، ص ٣٧ .

تحافظ على احترامها ، وان تفرض على الدول المتعاملة معهـا مراعاتها لتستطيع أن تضمن لنفسها نوعا من الحماية الذاتية الوقائية الاقليمية(٣) .

ولقد عبر روبرت مكنمارا عن ذلك بالآتى :

(أ) ان الوضع العسكرى الخالص ليس هو العنصر الرئيسى فى الأمن القومى حيث أن أى دولة يمكنهاان تزيد رصيدها من التسليح الى نقطة عندها لا يمكن ان تشترى مزيدا من الأمن لنفسها بمجرد حـوزتها لمزيد من السلاح والعتاد(٤) .

(ب) ان الأمن ينشأ من التنمية ولكن قد يحدث تخريب من الداخل أو عدوان من الخارج ، ولهذا وجب احتفاظ الدولة بقدرة عسكرية مناسبة لمواجهة هذا التهديد . فالقوة العسكرية يمكن أن تساعد فى توفير القانون والنظام ولكن لا يمكن أن يتم ذلك الا بقدر وجود أساس للقانون والنظام فى المجتمع النامى ورغبة أساسية فى التعاون من جانب الشعب .

(ج) ان الأمن هو التنمية وبدون تنمية لا يوجد أمن ، والدول النامية التى لا تنمو فى الواقع لا يمكنها فى بساطة أن تظل آمنة ، وذلك لأن مواطنيها لا يمكنهم التخلى عن طبيعتهم الانسانية ، كما انه لا يمكن أن تتم التنميـة بدون قدر أدنى من النظام والاستقرار ، وان عدم التنمية يجلب عـدم الاستقرار والنظام ، فالقانون والنظام هما مظلة الاستقرار والدرع التى تتحقق خلفه التنمية وهى الحقيقة الأساسية للامن .

(د) ان اى مجتمع يمر بمرحلة التحول الى مجتمع عصرى فان الأمن يكون معناه التنمية ، والأمن ليس هو المعدات العسكرية وان كان يتضمنها ، وليس القوة العسكرية وان كان اطارها ، وليس النشاط العسكرى التقليدى وان كان يشمله .

اما فردريك ليسيت فقد عبر عن ذلك : بأن امتلاك الدولة للقـوة العسكرية الكافية يحقق لها الاستقرار والرخاء فى الداخل والخارج ، وان

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٤) روبرت مكنمارا : جوهر الأمن ، القاهرة ، ترجمة هيئـة الأمن القومى ١٩٦٩ ، ص ١٣٩—١٤٠ .

الغرض الأساسى من الاقتصاد فى الدولة ليس الثروة فقط ، ولكن القوة والثروة معا ، لان الثروة القومية تزداد وتؤمن بالقوة الوطنية ، ومن هنا فان القوة اكثر اهمية من الغنى واليسر ، لأن الضعف يؤدى الى التخلى عن جميع الممتلكات ليست فقط الثروة ولكن جميع قوى الانتاج والحرية والاستقلال الوطنى حيث توضع جميعا فى يد الطرف الذى يستطيع أن يملى ارادته بالقوة على الدولة نتيجة لتفوقه فى القدرة العسكرية .

وقد عرفه أمين هويدى « بانه الاجراءات التى تتخذها الدولة فى حدود طاقاتها للحفاظ على كيانها ومصالحها فى الحاضر والمستقبل مع مراعاة المتغيرات الدولية » وهذا التعريف يتضمن :(٥)

— أن تشمل الاجراءات كافة المجالات فى الدولة ، فمسائل الاقتصاد والدفاع والأمن كل لا يتجزأ .

— أن تكون هذه الاجراءات داخل طاقتها اذ أن الامال الطموحة التى تجاوز الامكانيات كثيرا ما تقود الى التهلكة .

— التخطيط للحاضر والمستقبل القريب والبعيد .

— مراعاة المتغيرات الدولية التى تحتاج الى اعادة التقييم بين وقت وآخر ومطابقة اجراءاتنا مع المتغيرات الحاضرة والمنتظرة .

— ومن هنا يتضح ان الأمن القومى مجاله الاستراتيجية للدولة اى استخدام كافة موارد الدولة المتاحة لتحقيق اغراضها .

وفى تعريف آخر انه : « تأمين كيان الدولة أو مجموعة من الدرل من الاخطار التى تتهددها داخليا وخارجيا ، وتأمين مصالحها ، وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق أهدافها وغاياتها القومية(٦) .

---

(٥) أمين هويدى : الأمن العربى فى مواجهة الأمن الاسرائيلى ، بيروت، دار الطليعة ١٩٧٥ ، ص ٤٤ .

(٦) د. على الدين هلال : الأمن العربى والصراع الاستراتيجى فى البحر الأحمر ، المستقبل العربى ، العدد ٩ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٧٩ ، ص ٩٨—٩٩ .

ويدور هذا المفهوم حول ثلاثة محاور رئيسية :

— تأمين كيان الدولة او مجموعة الدول الذى يتمثل فى المقام الأول فى وحدة اراضيها وحماية اقليمها .

— ان هذا التأمين يكون فى مواجهة كافة الأخطار الداخلية والخارجية القائمة والمحتملة .

— تحقيق الأهداف العامة للمجتمع التى تتمثل عادة فى الاستقرار السياسى والاجتماعى والتنمية الشاملة مع اختلاف الأساليب التى يمكن أن تتحقق بها هذه الأهداف .

اما مفهوم الأمن القومى فى نظر والترليمان فيتحقق « عندما تكون الدولة آمنة وذلك عند المدى الذى تكون فيه غير معرضة لخطر التضحية بقيمها الجوهرية ، اذا ما رغبت فى تحاشى الحرب ، وتكون قادرة على المحافظة عليها اذا ما تعرضت للتحدى ، وذلك بالانتصار فى الحرب » .

وهناك تعريف آخر يعرف الأمن القومى بانه « يهدف الى تأمين الأمة من الداخل ودفع التهديد والعدوان الخارجى بما يكفل للامة حياة مستقرة تساعد على النهوض والتقدم »(٧) .

وهناك من يعرف الأمن القومى بانه « يشير الى مبدأ يتضمن حق الافراد والجماعات — المؤسسية وغير المؤسسية — للحماية ضد الانتهاك التعسفى لشكل وجودهم المتكامل ، بما فى ذلك اعرافهم وثقافتهم » . وقد ارتبط هذا المفهوم تقليديا باقليم جغرافى محدد تتمتع فيه سلطة حكومية ما بصفة السيادة(٨) .

ومن التعاريف السابقة يمكننا أن نحدد خصائص مفهوم الأمن القومى كالآتى :

— انه ينبع أساسا من الخصائص الجيبولوتيكية للاقليم .

---

(٧) لواء اح . عدلى حسن سعيد : الأمن القومى واستراتيجية تحقيقه ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧ ، ص ١١ .

(٨) د. محمد السيد السعيد : الأمن الافريقى ، مشكلاته وافاقه ، السياسة الدولية ، عدد ٧٩ ، القاهرة ، يناير ١٩٨٥ ، ص ٧٧ .

— يتجه مفهوم الأمن القومى أساسا الى الدول المجاورة ، حيث يدور حول حماية الاقليم القومى .

— هو مفهوم استراتيجى حيث يتلمس عناصر الضعف الاستراتيجى فى الاقليم القومى ، ومحاولة تخطى ذلك الضعف باتخاذ اجراءات وقائية تضمن الا يكون ذلك الضعف مصدرا لتمزقات معادية قد تكون قاتلة لذا يجب أن يكون حصيلة التعاون بين المخطط العسكرى والسياسى .

— هو عملية تقنين لمجموعة من المبادىء تتضمن قواعد للسلوك القومى تمثل الحد الأدنى للحماية الذاتية .

الأمن الاقليمى :

وهو اصطلاح أكثر حداثة برز بشكل واضح ما بين الحربين العالميتين ليعبر عن سياسة مجموعة من الدول تنتمى الى اقليم واحد تسعى من خلال وضع وتنظيم تعاون عسكرى لدول ذلك الاقليم من منع أى قوة أجنبية أو خارجية عن التدخل فى الاقليم . وجوهر هذه السياسة هو التعبئة بالاقليم من جانب والتصدى للقوى الداخلية على الاقليم من جانب آخر ، وحماية الوضع القائم من جانب آخر ، وحماية الوضع القائم من جانب ثالث(٩) .

الأمن الجماعى :

أضاف دالاس الى فكرة الأمن الاقليمى مفهوم الأمن الجماعى ، ويعنى « التزام جميع دول منطقة معينة فيما بينها بحيث أن الاعتداء على أى دولة من تلك الدول يعنى دخول جميع دول ذلك التنظيم مباشرة فى الحرب ضد الدولة المعتدية » .

وهدف دالاس من ذلك الى احاطة الاتحاد السوفيتى بمجموعة من الاتفاقيات الاقليمية المتناسقة والمترابطة حيث كل اتفاقية تتضمن دولة هى طرف ثابت فى اتفاقيتين فى آن واحد .

ولا شك أن الأمن الحقيقى للدولة ينبع من معرفتها العميقة لمصادر

---

(٩) د. حامد ربيع ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

قوتها فى الميادين المختلفة ، ثم تنمية هذه القدرات تنمية حقيقية حيث تكون المحصلة المتراكمة لذلك هى زيادة قدرة الدولة التى تعتبر درع الأمن الحقيقى لحاضرها ومستقبلها . فالأمن يبنى على التنمية ، والتنمية تبنى على التقدم فى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والمرتبطة مع بعضها ارتباطا مباشرا ، ويتوقف النمو فى احداها على النمو فى غيرها من المجالات ، فكلما تطورت التنمية كلما زاد الأمن وزادت أعماقه وارتفع بنيانه .

وهكذا يتسع مفهوم الأمن القومى ليشمل عناصر المصلحة القومية السياسية والاقتصادية والعسكرية . ولما كانت المصلحة القومية هى عامل متغير ، لذا فقد اتصف الأمن القومى بصفة التغير والنسبية ، فالأمن القومى للدولة العظمى يتصف بالهجوم والعالمية نظرا لأن مصالحها تنتشر وتتسع على رقعة العالم ، بينما الأمن القومى للدولة الصغرى يتصف بالدفاع والذاتية لأن مصالحها اقليمية ومحدودة .

ومن هنا فان الأمن القومى يعتبر متغيرا ومختلفا من نظام لآخر ، ويتأثر بالنظام السياسى القائم ونوع الزعامات فى الدولة والوطن ، ويتفاعل الأمن القومى بابعاده السياسية ، الاقتصادية ، العسكرية ، الاجتماعية والبيئية داخل مجالاته الثلاثة وهى المجال الداخلى والمجال الاقليمى والمجال الدولى ليفرز ويعزز الأمن والاستقرار والرخاء والسكينة للمواطنين(١٠) .

ثانيا — الأهمية الجيوبولوتيكية لباب المندب :

يبلغ اتساع مضيق باب المندب ٢٣٫٢ كم فيما بين راس باب المندب شرقا وراس سيعان غربا . وتقسم جزيرة بريم التى تبلغ مساحتها ١٢٫٨ كيلو متر مربع المضيق الى ممرين ملاحيين ، الشرقى وهو الممر الاسيوى ويبلغ اتساعه حوالى ثلاثة كيلو مترا ، والغربى ويبلغ اتساعه حوالى ٢٠ كيلو مترا ويوجد فى هذا الممر ست جزر يطلق عليها مجموعة جزر « سبعا » وهى تقترب من الساحل الغربى للبحر الأحمر أكثر بالاضافة الى وجود بعض الشعب المرجانية التى تحد من حرية الملاحة ، وبذا فان الممر الغربى يبلغ اتساعه الصالح للملاحة حوالى ١٧ كيلو مترا .

---

(١٠) د. محمود محمد خليل : المصلحة القومية ، المجلة العسكرية للقوات المسلحة ، العدد ٢٢٨ ، ١٩٨٣ ، ص ١٨ .

ويبلغ قاع المضيق فى الممر الشرقى حوالى ٨ر١ مترا ، اما فى الغربى فيبلغ ٦٣ مترا ، وينحدر القاع نحو خليج عدن حيث يصل عمقه الى ١٠٠٠ متر وبذا فان صلاحية الملاحة تكون أكثر فى الممر الغربى من المضيق . وكلما اتجهنا جنوبا او شمالا من المضيق يتسع البحر الأحمر ، وبالتالى فلن قوة الضغط من قبل الدول المطلة عليه تقل .

ويمكننا تقسيم الدول المطلة على المضيق والبحر الأحمر من حيث مدى امكانياتها فى التأثير والسيطرة على المضيق سواء أكانت هذه السيطرة سيطرة جغرافية أو سيطرة استراتيجية الى مجموعتين :(١١)

المجموعة الأولى :

وهى الأكثر تأثيرا والتى تتوفر لها السيطرة الجغرافية وهى اليمن الجنوبى وجيبوتى . وان كانت امكانيات اليمن الجنوبى أكثر لسيطرة ميناء عدن على المضيق ، ولبعد ميناء جيبوتى وانحرافه عن خط الملاحة الرئيسى حيث يلزم للسفن المتجهة الى جيبوتى أن تقطع مسافة تستغرق ست ساعات للوصول الى الميناء .

المجموعة الثانية :

وهى الصومال واثيوبيا واليمن الشمالى ، ويتوفر لهما السيطرة الاستراتيجية حيث توفر ذلك مجموعة الجزر المنتشرة أمام سواحلها . ومن يسيطر على تلك الجزر يمكنه السيطرة على المضيق من اتجاه الشمال حيث جزر : دهلك ، قمران ، الطير ، الزبير ، فراسان وكذلك من اتجاه الجنوب حيث جزر : عبد الخورى ، سمحا ، درزى ، سوقطرة .

ونفتقر مجموعة الجزر فى باب المندب الى السكان بل ان بعضا منها يخلو من السكان ، وهذا يؤدى الى امكانية استغلال تلك الجزر بواسطة قوى خارجية بحرية فى سرية تامة . كذلك تتميز المنطقة بوجود مجموعة من الموانى الحيوية مثل : الحديدة ، المكلا وعدن على الساحل الاسيوى وموانى

---

(١١) د. محمود توفيق محمود ، المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، دار المريخ الرياض ١٩٨٣ ، ص ٩٠ — ١٢٠ .

مصوع ، عصب ، أبوك ، بربرة وجيبوتى على الساحل الافريقى . وجميعها من الموانى الحيوية التى تصلح للاستخدامات العسكرية وهذا يزيد من الأهمية الجيواستراتيجية لكل من اليمن الجنوبى واثيوبيا وجيبوتى . وبالرغم من ذلك فهناك صعوبة فى عمليات الانزال البحرى فى المنطقة نتيجة لوجود الشعب المرجانية والتى تشكل حواجز موازية لخ طالساحل ، ولكنها تسمح بعمليات انزال بحرى محدودة .

ولا شك أن باب المندب قد اكتسب أهميته من وجهة النظر الاستراتيجية من وجوده كبوابة جنوبية للبحر الأحمر حيث يقع بين الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية وبين افريقيا . وقد اظهرت حرب اكتوبر ١٩٧٣ أهمية مضيق باب المندب حيث تمكنت البحرية المصرية من اغلاقه والسيطرة عليه ، وبذا فان من يسيطر على باب المندب يمكنه السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر وقناة السويس .

ولا شك أن وجود قناة السويس قد زاد من الأهمية الجيوبولوتيكية له خاصة مع ما تم من تطوير بها بحيث تسمح بمرور ناقلات البترول حمولة ١٥٠٫٠٠٠ طن ، والناقلات الفارغة فى رحلة العودة حتى حمولة ٣٧٠٫٠٠٠ طن .

أما من وجهة نظر الأهمية الاقتصادية فهو بوابة الممر المائى الذى يحمل الطاقة الى أوروبا ، حيث يربط منابع البترول فى الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية بالدول الأوروبية ، وتمر عبره ناقلات البترول الخام والمواد الأولية اللازمة للصناعة الى أوروبا ، وكذلك المواد المصنعة أو النصف مصنعة من أوروبا الى دول شرق افريقيا ومنطقة الخليج العربى ، اى انه حركة ملاحية دائبة ، ومتنفس حيوى لمجموعة دول أوربا ومصدر التجارة المتصلة الى دول الشرق الاقصى واسيا واستراليا .

وقد ركزت التجارة الدولية على استخدام البحر الأحمر نظرا لقصر المسافة بين الغرب والشرق ، حيث تبلغ المسافة من جبل طارق الى مضيق باب المندب حوالى ٦٥٠٠ كيلو مترا ، بينما تصل المسافة بينهما عن طريق رأس الرجاء الصالح الى حوالى ١٩٠٠٠ كيلو مترا اى ثلاثة اضعاف المسافة، بالاضافة الى ما توفره من طاقة مستهلكة واختصارا للوقت .

ويمر من مضيق باب المندب ٤٠٪ من اسطول الناقلات المحمل بالبترول وحوالى ٩٣٪ من هذا الاسطول فارغة فى اتجاهها لمصادر انتاج البترول فى المنطقة .

أما من وجهة نظر الأهمية السياسية فانه يمثل تيار هجــرة بشرية عظيمة الشأن من البلاد العربية الى السواحل الافريقية والتى مثلت أولى الروابط العربية الافريقية فى الجوانب الاقتصادية والثقــافية والسياسية والحضارية ، كما كان باب المندب همزة الوصل بين شعوب الاقاليم الواقعة عليه والعالم المحيط بها ومع العالم الخارجى فى الشرق والغرب(١٢) .

ثالثا ـ العلاقات العربية الافريقية حول باب المندب :

تطل كل من جيبوتى واثيوبيا والصومال على المضيق من جهة الغرب اى من الساحل الافريقى ، واليمن الجنوبى واليمن الشمالى من جهة الشرق اى من الساحل الاسيوى . ويمكن تقســيم هذه الدول الى مجمــوعتين : المجموعة الأولى : وهى ذات التأثير المباشر على المضيق وهى اليمن الجنوبى وجيبوتى ، اما المجموعة الثانية : فتأثيرها غير مباشر وهى الجمهورية العربية اليمنية واثيوبيا والصومال .

وقد كانت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية مستعمرة بريطانية منذ عام ١٩٣٧ حتى قيام ثورة اكتوبر عام ١٩٦٣ ، ونجاح جبهة التحرير فى الحصول على الاستقلال فى نوفمبر ١٩٦٧ واعلن عن قيام « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية » وبرحيل بريطانيا عن شرق السويس وظهور الحركات الاشتراكية فى المنطقة ولجوء اليمن الجنوبى الى الاتحاد السوفيتى لامداده بالسلاح ، تطورت العلاقات بينهما حيث وقعت معاهدة صداقة وتعاون بينهما ودخل اليمن الجنوبى فى دائرة الاستقطاب السوفيتى .

اما جمهورية جيبوتى وهى ما سميت بالصومال الفرنسى سابقا ، حيث يرجع ارتباط فرنسا بالمنطقة منذ عام ١٩٦٢ وقامت ببناء ميناء فى منطقة رأس جيبوتى فى عام ١٨٨٨ ، وقد نالت جيبوتى استقلالها فى ٨ مايو عام ١٩٧٧

---

(١٢) أحمد بن بريك : أثر صراعات دول القرن الافريقى على أمن باب المندب ، مركز الدراسات العربية ، لندن ١٩٨٦ ، ص ٢ .

وانضمت الى جامعة الدول العربية ، ولكنها ما زالت على علاقات وثيقة مع فرنسا وما زال الوجود الفرنسى بها حتى اليوم .

وقد ظهر اليمن الشمالى بظهور المملكة المتوكلية الهاشمية فى اعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقلت الى الولايات العثمانية عام ١٨٧٢ . وفى مارس ١٩١٤ اعترفت تركيا لبريطانيا بحمايتها للولايات التسع المعروفة باليمن السفلى ، ولكن بهزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى أعلن الامام يحيى بن حميد الدين قيام دولة اليمن المستقلة بما فيها الولايات التسع السفلى .

ولجأ الامام يحيى للتفاوض مع انجلترا التى رفضت الاعتراف له بأى سيطرة على الولايات التسع ، مما أدى الى لجوءه للمقاومة المسلحة وانتهى أدت الى عقد معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤ ، والتى اعترف فيها الامام بحدود اتفاق عام ١٩١٤ . وبقيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ أعلن عن قيام الجمهورية العربية اليمنية . وهى خارج دائرة الاستقطاب العالمى حاليا ، وتحاول ان نقيم علاقات متوازنة بين كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .

وترتبط نشأة اثيوبيا بقيام مملكة اكسوم فى شمال هضبة الحبشة فى القرن الأول الميلادى ، وبدأت فى التوسع فى عهد منليك الثانى (١٨٨٩ — ١٩١٣) حيث ضمت اقاليم الأوجادين وهود ثم ارتيريا عام ١٩٦٢ عندما الغى الامبراطور هيلاسلاسى الاتحاد الفيدرالى واعلن ارتيريا كأحد محافظات اثيوبيا . وبقيام انقلاب عام ١٩٧٤ وتغيير نظام الحكم الى نظام رئاسى اتبع الخط الاشتراكى . وبذا نجد انه قد حدث تحول فى العلاقات بين اثيوبيا والولايات المتحدة لتتجه اثيوبيا نحو الاتحاد السوفيتى وتوقع معه معاهدة صداقة وتعاون مازالت سارية المفعول حتى اليوم . بل وارتبطت اثيوبيا بحلف ثلاثى يضم كل من اليمن الجنوبى وليبيا ، ولا شك ان هذا الحلف يشكل خطورة حيث يضم دولتين — تابعتين للخط السوفيتى — ومسيطرتين على المضيق ، احدهما وهى اليمن الجنوبى لها تأثير مباشر على المضيق والأخرى وهى اثيوبيا ذات تأثير غير مباشر عليه .

لا شك أن للصومال بموقعها الحالى أهمية كبيرة فى السيطرة على المنطقة جنوب مضيق باب المندب . وقد تعرض الصومال لعمليات التقسيم

والتفتيت نتيجة لاطماع الدول الكبرى فى المنطقة ، ونتيجة لاتفاقيات الحماية التى وقعتها تلك الدول مع شيوخ القبائل فى المنطقة . وقد قسم الصومال الى الصومال الفرنسى الذى خضع للسيطرة الفرنسية ، الصومال الانجليزى وخضع للسيطرة البريطانيع والصومال الايطالى وكان يخضع للسـيطرة الايطالية ثم استقطع اقليم الاوجادين بواسطة بريطانيا ومنح لاثيوبيا مقابل منع التغلغل الايطالى فى اتجاه السودان ، وعند اعلان استقلال كينيا أعلنت انجلترا ان اقليم N. F. O هو جزء من كينيا .

ونتيجة للمقاومة الوطنية الصومالية اضطرت كل من انجلترا وايطاليا الى منح الاقليم الاستقلال حيث توحدا عام ١٩٦٠ وشكلا جمهورية الصومال الديمقراطية والتى اصبحت عضوا بالجامعة العربية .

وقد اقامت الصومال علاقات وطيدة مع الاتحاد السوفيتى ووقعت معه معاهدة صداقة وتعاون ، وتمكنت من بناء قواتها المسلحة بمساعدنه وخاضت عدة جولات حربية مع اثيوبيا أخرها عام ١٩٧٧ بهدف اسـترداد اقليم الاوجادين ، وقد أدت هذه الجولة التى حدثت ضـد ارادة الاتحـاد السوفيتى — الذى كان يرغب فى فرض استرخاء عسكرى على المنطقـة وتكوين اتحاد كونفيدرالى بين اثيوبيا واليمن الجنوبى والصومال — الى تحوله لمساعدة اثيوبيا ، مما اضطر الصومال الى الغاء معاهدة الصداقة والتعاون وطرد الخبراء السوفيت ، وتحولها اتجاه الولايا تالمتحدة للحصول على السلاح الذى يمكنه من تأمين حدوده . وبالرغم من قيام هذه الجولات بين دولتين احدهما شمال المضيق والأخرى جنوبه ، الا أن الملاحة فى المضيق لم تتعرض لأى مخاطر نتيجة لعدم قيام معارك بحرية بينهما(١٣) .

وبذا فاننا جد ان هناك علاقات صداقة وارتباط تربط بين بعض الدول ذات التأثير على الضيق مثل علاقات اليمن الجنوى واثيوبيا . وعلاقات عداء بين بعض هذه الدول مثل العلاقاتالاثيوبية الصومالية ، وهناك دول اخرى تقيم علاقات متوازنة مع باقى الدول مثل اليمن الشمالى وجيبوتى . الا انه توجد صراعات بالمنطقة بالاضافة الى الصراع الصومال الاثيوبى ، والاثيوبى

---

(١٣) د. محمد رضا فودة : اثر التكامل المصرى السودانى على الصراع فى القرن الافريقى ، رسالة دكتوراه ،كلية الدفاع الوطنى ١٩٨٥ ، ص ٢٠٠.

الكينى وهذه الصراعات تؤثر على أمن البحر الأحمر ككل والذى يعتبر امن مضيق باب المندب جزءاً منه وهذه الصراعات هى :

— الصراع العربى الاسرائيلى .

— مشكلة ارتيريا .

— النزاع على الحدود بين السودان واثيوبيا .

— النزاع الصومالى الاثيوبى حول الاوجادين .

رابعا — الصراع الدولى فى منطقة القرن الافريقى واثره على الأمن العربى الافريقى :

اهتم المصريون فى العصور القديمة بوجود موطىء قدم لهم على الشواطىء فى كل من ارتيريا والصومال وجنوب الجزيرة العربية للحصول على البخور والعطور والاخشاب اللازمة للمعابد وكذلك لجلب الفضة والذهب . وقد دخل فى دائرة التنافس الفينيقيون حيث أرسل « جيرام » ملك صور سفنه الى البحر لتأتى له بالذهب الذى اشتهر فى تلك المنطقة ، وكان المارون عبر باب المندب والبحر الأحمر يدفعون الجزية للمسيطرين على شواطىء المنطقة .

أما فى العصور الوسطى وبانتشار الاسلام فى ربوع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال أفريقيا ، سيطر العرب على المداخل الجنوبية والشمالية للبحر الاحمر وعلى أهم مواقع التجارة . وفى عهد الخلفاء الأمويين جرد العرب حملة بحرية لاتخاذ مركز بحرى على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر « الشاطىء الارتيرى » حيث احتلت مجموعة جزر دهلك المقابلة لمصوع ، وانطلقوا منه الى بقية المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى . وقد أقام العرب القلاع والحصون فى هذه الجزر تأمينا لحرية الملاحة وقيام ولايات اسلامية غربية مزدهرة فى دهلك والشاطىء الارتيرى .

وبافتتاح قناة السويس اشتد الصراع بالمنطقة حيث حاولت الدول الاستعمارية الكبرى الحصول على محطات بحرية على طريق المواصلات الحيوى بين الشرق والغرب ، ثم تحولت تلك المحطات الى قواعد هامة ونواة للاستعمار الأوروبى فى المنطقة . فنجد أن بريطانيا قد سيطرت على

عدن حيث منها تسيطر على مضيق باب المندب والمحيط الهندى ، وبذا يمكنها الانطلاق شرقا صوب باقى الجزيرة العربية وغربا نحو مستعمراتها فى افريقيا ، وقامت كذلك بالسيطرة على زيلع وبربرة فامكنها السيطرة من خلال الصومال البريطانى على المدخل الجنوبى للمضيق .

أما فرنسا فقد سيطرت على ميناء جيبوتى من خلال تواجدها فى الصومال الفرنسى وربطته بخط سكة حديد جيبوتى/أديس أبابا للانطلاق منه غربا .

أما ايطاليا فانها سيطرت على ارتيريا أملا فى السيطرة على الحبشة والانطلاق منه غربا للسودان .

وهنا يظهر بوضوح دور دول الكتلة الغربية فى السيطرة على منطقة المضيق حتى الستينيات من هذا القرن .

اما فى الفترة التى تلت الستينات وخاصة بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وما أثبتته من اهمية السيطرة على المضيق للدولة التى ترغب فى أن تلعب دورا حيويا رئيسيا فى المنطقة يحقق لها أمنها القومى ، ومع التطور التكنولوجى الهائل فقد ازداد الصراع حدة فى منطقة المضيق .

ويحتل الصراع العربى — الاسرائيلى المركز الأول فى هذا الصراع حيث يشكل باب المندب اهمية استراتيجية لاسرائيل :

— فمن وجهة النظر السياسية تحاول اسرائيل اثبات وجودها فى منطقة باب المندب والبحر الاحمر لنفى ما تنادى به الدول العربية من أن البحر الأحمر وهو بحيرة عربية . ومن هنا جاء التعاون الاسرائيلى الأثيوبى ومحاولة اخماد الثورة الارترية حتى لا تستقل وتصبح جميع الدول المطلة على البحر الأحمر هى دول عربية . وبالرغم من أن العلاقات الدبلوماسية متطوعة بين اثيوبيا واسرائيل ، وبالرغم من التحالف السوفيتى الاثيوبى ، الا أن العلاقات تحت السطح مازالت مستمرة مع اثيوبيا(١٤) ، نتيجة للمصالح المتبادلة بين اسرائيل واثيوبيا .

---

(١٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

— كذلك فان الوجود الاسرائيلى فى منطقة باب المندب يحقق لها تفادى اغلاق باب المندب فى وجه الملاحة الاسرائيلية خاصة بعد ما حدث فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ .

— وهذا الوجود يحقق أيضا اقترابها من المحيط الهندى حيث تصلها بشرق افريقيا وجنوب شرق آسيا ، ومن هنا فقد سعت للتواجد فى مجموعة جزر أرخبيل دهلك الاثيوبية(١٥) .

— تسعى اسرائيل لتجعل من البحر الاحمر حاجز فصل بين العرب والأفارقة والعرب والاسيويين بدلا من أن يكون همزة وصل او رباط بينهم(١٦) .

— وفى اطار التعاون الاستراتيجى الامريكى الاسرائيلى يمكن لاسرائيل أن تلعب دورا حيويا فى منطقة باب المندب فى نطاق الاستراتيجية الامريكية فى المنطقة .

— كذلك فان باب المندب يشكل نقطة رئيسية فى البعد الاقتصادى للامن القومى الاسرائيلى حيث من خلاله يمكنها غزو أسواق شرق افريقيا والاقتراب من منابع البترول فى الخليج العربى ، ويمثل أقصر الطرق الى شرق اسيا ، بل والى جنوب افريقيا حليفة اسرائيل .

— تتبنى اسرائيل فى استراتيجيتها فكرة تدويل باب المندب مع استمرار التواجد البحرى لها فى المنطقة ومن هنا جاء حرص اسرائيل على استمرار علاقتها مع اثيوبيا وارسالها مجموعة من القوات الخاصة فى يناير ١٩٧٦ لتدريب القوات الخاصة الاثيوبية .

ولا شك أن اسرائيل تلعب دورا حيويا فى تغذية الصراعات الدائرة فى منطقة البحر الاحمر ، سواء كانت تلك الصراعات بين دول عربية أو بين دول عربية وأخرى افريقية ، وتهدف من ذلك الى بث الفرقة بين دول المنطقة

---

(١٥) د. السيد عليوة : باب المندب فى الاستراتيجية الاسرائيلية ، مركز الدراسات العربية ، لندن ١٩٨٦ ، ص ١٣ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٧ .

واثارة النزعات القبلية حتى تضمن عدم اتحاد دول المنطقة وقيامها بوضع استراتيجية موحدة تضر بالمصالح الاسرائيلية فى المنطقة . وهناك من الأمثلة الكثير حيث نجد مشكلة ارتيريا ، الصراع الصومالى الاثيوبى وانحياز اليمن الجنوبى الى جانب اثيوبيا ، مشكلة جنوب السودان وأثرها على العلاقات السودانية الاثيوبية . كذلك الخلافات المصرية السعودية أبان حرب اليمن .

ويجيىء التدخل الاسرائيلى اما مباشرا بالامداد بالأسلحة والذخائر وبعثات التدريب أو غير مباشر بمحاولة اثارة النزاع دون ظهورها على السطح ، ولا شك أن فشل الدول المطلة على البحر الأحمر فى عقد مؤتمر أمن البحر الأحمر عام ١٩٨٤ عند قيام ليبيا ببث الالغام فيه كانت وراءه اسرائيل بالتنسيق مع اثيوبيا ، اقتناعا من اسرائيل بأن أى استراتيجية أمنية سوف توضع للبحر الأحمر دون اشتراكها فى وضعها سوف تجيىء فى غير صالح اسرائيل .

ولا شك أن الاستراتيجية الاسرائيلية فى منطقة باب المندب سوف تؤدى الى اضعاف الروابط العربية الافريقية فى أبعادها السياسية والاقتصادية والحضارية ، وأن هذه الاستراتيجية لن يقتصر تأثيرها على الدول المحيطة بباب المندب ، بل سوف تمتد لتشمل دول افريقية وعربية أخرى .

ويدخل باب المندب ضمن الاستراتيجية السوفيتية فى المنطقة حيث يحقق له وجوده فى المنطقة اهدافه ومصالحه سواء اكانت هذه المصالح هى مصالح سياسية أو اقتصادية او عسكرية(١٧) حيث :

— يرى الاتحاد السوفيتى أن وجوده فى المنطقة يعكس مصالحه العامة فى افريقيا والمحيط الهندى ومنافسته للمصالح الغربية .

— تأمين وبقاء التسهيلات الجوية والبحرية التى تمكنه من مراقبة تحرك القوات الامريكية وتقوية وجوده فى منطقة المحيط الهندى وفى داخل البحر الأحمر .

---

(١٧) د. محمد رضا فودة : الدور السوفيتى فى منطقة البحر الأحمر ، مجلة الحرس الوطنى السعودى ، العدد ٥٢ ، الرياض ، فبراير ١٩٨٧ ، ص ٦٨ — ٧٠ .

— مساندة الأنظمة الماركسية فى المنطقة .

— استمرار وجوده فى المنطقة سيجعله يوضع فى الاعتبار — على الأقل بطريق غير مباشر — فى أى تطور يطرأ فى البحر الأحمر والخليج العربى .

— فتح مزيد من الأسواق الخارجية فى المنطقة أمام صادرات السلاح السوفيتى والصناعات السوفيتية المدنية مقابل عملات صعبة أو سلع استراتيجية (البن — القطن — الذهب — الخ) .

— تخليص النفوذ والوجود الامريكى والغربى فى المنطقة وابعاد دول المنطقة عن الاحلاف الغربية .

— السيطرة على الممرات المائية ومنطقة المضيق حيث يمكن تهديد خطوط الملاحة الغربية ، بل وقفل المضيق فى حالات التوتر أو الدخول فى مواجهة سافرة مع الولايات المتحدة الامريكية بالرغم من أن كليهما يتحاشى ذلك .

— العمل على قيام أنظمة حكم صديقة أو موالية من دول المنطقة تعمل على الحفاظ على مصالحه بها .

— محاولة السيطرة على مصادر الطاقة والمواد الاستراتيجية فى المنطقة وجعلها وسيلة ضغط على المعسكر الغربى .

وعلى ضوء أهداف ومصالح الاتحاد السوفيتى فى المنطقة وفى ضوء المتغيرات الدولية يمكن ايضاح استراتيجية الاتحاد السوفيتى فى المنطقة كالآتى :

— محاولة احتواء دول القرن الافريقى (الصومال — اثيوبيا) بالاضافة الى اليمن الجنوبى وادخالها فى حلف أو اتحاد يدور فى فلك الاتحاد السوفيتى وبذا تتم له السيطرة على باب المندب(١٨) ، وقد نجح فى توقيع اتفاق بين

---

(18) Samual Makinda, Shifting Alliances in the Harn of Africa, Survival, Jan 1985. p. 13.

كل من اثيوبيا واليمن الجنوبى وليبيا ، ومازالت محاولاته لاخضاع الصومال وضم السودان جارية . وهنا يجب أن نلاحظ موقف الاتحاد السوفيتى فى حالة نجاحه فى الحفاظ على علاقات قوية أو سيطرته على كل من الصومال واثيوبيا واليمن الجنوبى والسودان ، فيمكنه بذلك السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وايجاد وجود مستمر له داخله ، ولا شك أن ذلك سوف يكون دافعا للاتجاه شمالا لاحكام سيطرته على البحر الاحمر شماله وجنوبه .

— نشر النفوذ السياسى والاقتصادى فى المنطقة بما يمكنه من التخفيف من حدة النفوذ والسيطرة الامريكية والاوربية الغربية ، ويساعد على نشر الايديولوجية السوفيتية فى المنطقة(١٩) .

— استنزاف جهود وامكانيات الولايات المتحدة والدول الغربية نتيجة لتواجده ونشاطه فى المنطقة ، بما يجعلها تشعر بقوة التهديد السوفيتى لاستغلال مثل تلك المواقف فى مباحثاته مع الولايات المتحدة الامريكية .

— التوسع فى عقد اتفاقيات الدفاع المشترك والحصول على التسهيلات البحرية والجوية مع زيادة التواجد العسكرى فى دول المنطقة .

— الاحتفاظ بمعدات عسكرية كبيرة محفوظة فى بعض دول المنطقة ، مع الاحتفاظ بقوات جوية حديثة متمركزة فى قواعد جوية فى بعض دول المنطقة يعمل عليها طيارون كوبيون أو من ألمانيا الشرقية أو سوفييت بما يمكنه من سرعة التحرك فى المنطقة .

— مواجهة التحدى الايديولوجى والسياسى لجمهورية الصين الشعبية بعد اكتسابها مواقع جديدة فى القارة فى تنزانيا وزائير ولدى حركات التحرير فى افريقيا الجنوبية وفى موزمبيق(٢٠) .

---

(١٩) عبد الرحمن اسماعيل الصالحى ، التدخل الأجنبى فى القرن الافريقى ، الندوة الدولية للقرن الافريقى ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، يناير ١٩٨٥ ، ص ١٦ .

(٢٠) د. مجدى حماد : الاتحاد السوفيتى وكوبا والقرن الافريقى ، السياسة الدولية ، عدد ٥٤ ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .

وقد جاء موقف الاتحاد السوفيتى من مشاكل المنطقة انطــــلاقا من استراتيجيته فيها ، فنجد انه كان يمد جبهات التحرير الارترية بالمساعدات خاصة الجبهة الشعبية لتحرير ارتيريا ، وجاءت جميع مواقفه فى الأمم المتحدة مؤيدة لاستقلال ارتيريا بهدف امكانية السيطرة عليها عند استقلالها وبذا يمكن أن يحقق وجوده فى البحر الأحمر . ولكن بتحوله من الصومال الى اثيوبيا أوقف مساعدته لجبهات التحرير الارترية حتى لا تستطيع أن تحقق استقلالها، حيث لا تمثل اثيوبيا بدون ارتيريا اى قيمة استراتيجية للاتحاد السوفيتى .

وقد حاول الاتحاد السوفيتى تكوين اتحاد كونفيدرالى يجمع كل من الصومال واثيوبيا واليمن الجنوبى بهدف التغلب على مشكلة الاوجادين حيث سوف تصبح جزءا من الاتحاد سواء أكانت تتبع اثيوبيا أو تنتقل تبعيتها الى الصومال . ولكن مع قيام جبهة تحرير الصومال الغربى بمحاولة تحــــرير الاوجادين وتدخل الصومال الى جانبها دون علم الاتحاد السوفيتى ، ممـــا ادى الى تحوله اتجاه اثيوبيا . ومازال الاتحاد السوفيتى يعمل على تثبيت اقدامه فى داخل اثيوبيا بهدف زيادة سيطرته على منطقة باب المندب بتواجده أيضا فى اليمن الشمالى . ولا شك أن استراتيجية الاتحاد السوفيتى المبنية على السيطرة على اكتاف المضيق ، تعززها عملية اضعاف لدول المضــــيق عسكريا وابقاءها فى احتياج للاتحاد السوفيتى بصفة مستمرة ، مع تجميد مشكلة ارتيريا والاوجادين ، سوف يجعل احتياج كل من اثيوبيا واليــمن الجنوبى للاتحاد السوفيتى مستمرة وبذا يضمن استمراره فى المنطقة وابعاد الولايات المتحدة الامريكية عنها .

أما بالنسبة لمشكلة الحدود الســــودانية الاثيوبية فيقوم الاتحـــــاد السوفيتى بتغذية المتمردين بجنوب السودان من خلال اثيوبيا بهدف زعزعة الاستقرار بالسودان وردا على نشاط جبهات التحرير الارترية عبر الحدود السودانية .

أما الولايات المتحدة الامريكية والدول الغربية ، فيقلقها الوجـــــود السوفيتى فى المنطقة بهذه الصورة خاصة بعد توطد العلاقات الاثيوبيـــة السوفيتية وهذا يشكل تهديدا للاهداف والمصالح الامريكية التى نوضحها فيما يلى :

— العمل على تخفيف حدة التوتر على الحدود الاثيوبية مع الصومال والسودان .

— تشجيع التعاون الوثيق بين كينيا والصومال .

— مساعدة الدول الصديقة فى المنطقة وخاصة كينيا والصومال والسودان ، ومدهم بالمعونة الاقتصادية والعسكرية لتنفيذ المخططات العسكرية لها .

— تشجيع الجهود المحلية المناهضة للسوفييت .

— منع الاتحاد السوفيتى من الوصول الى منابع البترول أو المياه الدافئة أو تنفيذ حلمه القيصرى القديم .

— تأمين حرية حركتها فى البحر الأحمر ومنطقة المضيق ، وفى المقابل محاولة تعويق الكتلة الشرقية من التمتع بنفس المزايا .

— تأمين المصالح الاقتصادية والاستثمارات الامريكية والغربية فى المنطقة والقارة الافريقية ، مع المحافظة على الأسواق الامريكية ومحاولة فتح أسواق جديدة فى المنطقة .

— استخدام العون الاقتصادى والسياسى والعسكرى كوسيلة ضغط لتحقيق أهدافها وتنفيذ سياستها فى القارة ، والعمل على استقطاب الصومال بعيدا عن الفلك السوفيتى مع توسيع هوة الخلاف بينهما(٢١) .

— تجنب الوصول بالمشاكل الافريقية الى المواجهة المباشرة مع السوفييت حفاظا على استمرار نجاح سياسة الوفاق الدولى بينهما(٢٢) .

وقد وجدت الولايات المتحدة فى نطاق استراتيجيتها فى المنطقة أن أى وجود عسكرى كبير على الأرض كثيرا ما يؤدى الى عكس الفرض المقصود منه فقد كانت القواعد البريطانية أحيانا بحاجة الى اعداد كبيرة من الجنود

---

(٢١) لواء أ. ح. محمد نجاتى ابراهيم : استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية وأثرها على الأمن القومى ، الندوة العسكرية العلمية الافريقية أكاديمية ناصر العسكرية العليا ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٤ ، ص ١٥ .

(٢٢) كلية الدفاع الوطنى ، دراسة النظام الدولى والقوتين الأعظم ، بحث غير منشور ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١٠ .

لحمايتها . لذا فقد لجأت الولايات المتحدة الى استخدام أسلوب التسهيلات بالرغم من انها تحتاج الى منشئات أمنية فى المنطقة المباشرة بالاضافة الى مطارات ومنشـئات دعم متقدمة ، مع التركيز على القدرات الجوية والبحرية(٢٣) .

وانطلاقا من استراتيجية الولايات المتحدة فقد احتفظت بعلاقات وثيقة مع اثيوبيا واستمرت كذلك لفترة طويلة فى فترة حكم الامبراطور هيلاسلاسى، ولم تكن المشكلة بين الصومال واثيوبيا — من وجهة النظر الامريكية — تشكل خطرا كبيرا على اثيوبيا ، وقد قامت الولايات المتحدة بعمل دراسة عسكرية خاصة خلصت منها انه من غير المنطقى ان تهدد دولة تعدادها ثلاثة ملايين نسمة ، دولة كاثيوبيا يبلغ تعدادها أكثر من ثلاثين مليون نسمة ، واستبعدت الدراسة امكانية قيام الصومال بعدوان عسكرى على اثيوبيا ، بالرغم من ان الأحداث التى طرأت بعد ذلك فى عام ١٩٦٤ ، ١٩٧٧ اثبتت عكس ذلك(٢٤).

وانطلاقا من الاستراتيجية الامريكية فى المنطقة جاء موقفها من مشاكل المنطقة . فنرى انها ترى ان أنسب أسلوب لحل المشكلة الارترية هو الحل السلمى باعطاءها استقلالا اداريا ذاتيا فى اطار الوحدة الاثيوبية وذلك الموقف لم يتغير حتى بعد قيام الثورة الاثيوبية وتوجهها اتجاه الاتحاد السوفيتى ، نظرا لاقتناعها بأن استقلال ارتيريا وتوجهها العربى سيحيل البحر الأحمر بحيرة عربية ، وهذا يتعارض مع استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية التى تعارض أى تكتل عربى فى المنطقة خاصة بعد حرب ١٩٧٣ . كذلك تحاول الولايات المتحدة الامريكية تحسين علاقاتها مع اثيوبيا أملا فى أن تعود مرة أخرى الى الحظيرة الامريكية ، وهذا يتمشى مع استراتيجية الولايات المتحدة فى المنطقة والتى تعمل على ابعاد الوجود السوفيتى منها(٢٥) .

---

(٢٣) هيئة الاركان البريطانية ، تقرير اللجنة الاطلسية البريطانية ، وثائق سلسلة الدراسات الاستراتيجية ، مركز العالم الثالث ، لندن ١٩٨٣، ص ١٨ .

(٢٤) سوسن حسين، السياسة الامريكية فى افريقيا، السياسة الدولية، عدد ٥٤ ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٣٨ .

(٢٥) د. محمد رضا فودة : أثر التكامل المصرى السودانى على الصراع فى القرن الافريقى مرجع سابق ، ص٣٩٩ .

أما الموقف الامريكى من مشكلة الاوجادين فهو أيضا بقاء الاوجادين كجزء من اثيوبيا ولم يتغير ذلك الموقف حتى بعد خروج الولايات المتحدة من اثيوبيا وتحولها اتجاه الصومال ودعمها بالأسلحة الدفاعية . بل حافظت الولايات المتحدة على عدم قطع الخيط نهائيا مع اثيوبيا فاوقفت منحها الهبات الا انها لم توقف مبيعات السلاح المتعاقد عليها . وتهدف الولايات المتحدة من حل المشكلة سلميا الى :

— عدم تطور المواجهة الاثيوبية الصومالية الى مواجهة بين القوتين العظمتين .

— ان استمرار التوتر فى الاوجادين سوف يؤدى الى زيادة الاحتياج الاثيوبى للوجود السوفيتى والكوبى للمعاونة فى مجابهة الموقف وهذا يتعارض مع السياسة الامريكية فى المنطقة .

وبتكرار الاعتداءات الاثيوبية على الصومال واحتياج الصومال لتسليح أمريكى يعوضها ما فقدته من أسلحة سوفيتية ، توصلت الولايات المتحدة الى اتفاق مع الصومال على أن تمدها بأسلحة دفاعية مقابل الحصول على تسهيلات جوية وبحرية فى شمال الصومال وبذا نجد أنه قد تم تحول الولايات المتحدة الى الصومال لتعوض الوجود الذى فقدته فى اثيوبيا وبذا يمكنها أن تؤدى الدور الذى ترغبه من جنوب المضيق بدلا من شماله .

وهنا يجدر الاشارة الى أن كلا من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية ترغبان فى بقاء ارتيريا كجزء من اثيوبيا ، حيث باستقلال ارتيريا تصبح اثيوبيا دولة حبيسة غير ذات اهمية لكليهما . كذلك يوجد صراع بين الدولتين لاستقطاب اليمن الشمالى الذى يحاول أن يحتفظ بعلاقات متوازنة بينهما .

أما فرنسا فانها تثبت أقدامها فى جيبوتى بالرغم من نيلها الاستقلال ويأتى ذلك من خلال تقديم المعونات وتدريب القوات المسلحة لها .

وبذا فاننا نجد أن الصراع العالمى وخاصة بين القوتين العظمتين وجه الى السيطرة على السلع الاستراتيجية والممرات المائية الدولية . فبينما نجد أن الولايات المتحدة الامريكية تضع ضمن استراتيجيتها ضرورة لمحافظة

على أمن دول الخليج العربى حتى لا تتأثر صادرات البترول اليها أو الى الدول الأوروبية ، نجد أن الاتحاد السوفيتى يتسابق لتكوين احزمة تحيط بمناطق البترول التابعة للولايات المتحدة ويحاول الاتحاد السوفيتى ادخال دولا عربية وافريقية فى تلك الأحزمة مثل اليمن الجنوبى ، اثيوبيا ، ليبيا ، انجولا .

كذلك نجد أن كلا من الدولتين يتصارعان للسيطرة على الدول العربية والافريقية ذات المواد الأولية الحيوية سواء للصناعات الحربية أو للناحية الاقتصادية وهنا نجد أن اسلوب وشكل السيطرة يختلف من قوة لأخرى وكذلك من موقف لاخر فنجد أن :

— الاتحاد السوفيتى قد استطاع أن يكتسب فى السنوات الاخيرة مواقع هامة لتحقيق استراتيجية فى القارة الافريقية تحت ستار مساعدة حركات التحرر ، واصبح الوجود السوفيتى واضح فى كثير من الدول العربية والافريقية مثل اليمن الجنوبى ، ليبيا ، انجولا .. الخ .

— أما الولايات المتحدة الامريكية فنجد انها قد اقتنعت عقب نشوب الحرب الايرانية العراقية ، واستيلاء الاتحاد السوفيتى على افغانستان بضرورة دعم وجودها فى افريقيا والدول العربية حيث سعت الى الحصول على التسهيلات العسكرية بالاضافة الى دعم وجودها فى كينيا والصومال وكذلك وجودها البحرى فى المحيط الهندى ، بالاضافة الى دعم المملكة العربية السعودية باحتياجاتها من كافة انواع الأسلحة المتطورة للغاية لدعم قدراتها القتالية .

وبذا فان قيام الدول العظمى بامداد الدول العربية والافريقية بأحدث ما فى ترساناتهم من الأسلحة والمعدات المتطورة والتى لا تقوى جيوش هذه الدول على استيعابها ، وتقوم فى مقابل ذلك بأخذ اثمانها ان لم تكن نقدا فتكون مقابل سلع استراتيجية مثل البن والقطن ، ولا شك أن ذلك يؤثر على الأمن القومى لتلك الدول فى بعده الاقتصادى والداخلى ويؤثر على التنمية الشاملة للدولة .

ان الاستقطاب العالمى للدول المحيطة بباب المندب بواسطة القوى العظمى واتباعها للخط السياسى والايديولوجى لتلك الدول ادى الى زيادة

الفرقة وزيادة حدة المشاكل بين تلك الدول وخلق التكتلات مما أدى الى عدم استقرارها وتفرغها للتنمية الشاملة التى هى محور أمن تلك الدول .

كذلك فان استمرار الاضطرابات بين دول المنطقة وعدم حل مشاكلها بالطرق السلمية سوف يؤدى الى زيادة اقبالها على استيراد السلاح ، كذلك سوف يؤدى الى زيادة حدة مشكلة اللاجئين وما لها من اثار ضارة بالأمن القومى للدولة المضيفة لهم .

يشكل الصراع الدولى بالمنطقة تهديدا للمصالح العربية والافريقية ، ويهدد بغلق باب المندب فى وجه ناقلات البترول من الخليج الى الدول العربية والافريقية .

ولا شك أن لمحاولات التسلل الاسرائيلى للمنطقة مرة أخرى خاصة بعد اعادة علاقاتها مع زائير ، وما تسعى اليه من محاولة خلق تيار معارض للدول العربية فى افريقيا أثره على توتر العلاقات العربية — الافريقية نظرا لأن الدول العربية ترى فى استمرار قطع الدول الافريقية لعلاقاتها مع اسرائيل وسيلة للضغط عليها لاعادة الحق العربى الى أصحابه .

خامسا — نحو مفهوم لأمن منطقة باب المندب :

هناك عوامل عديدة تحتم وجود أمن عربى — افريقى مشترك وبصفة خاصة لمنطقة باب المندب :(٢٦)

— فمن الناحية الجغرافية تشكل الدول العربية الاسيوية والدول الافريقية كتلة استراتيجية واحدة يحدها شرقا الخليج العربى وشمالا البحر المتوسط وغربا المحيط الأطلسى وجنوبا المحيط الهندى ويعتبر باب المندب أحد النقاط الحيوية فى تلك الكتلة . كذلك فان الدول العربية يقع بعضا منها فى اسيا وهذه تعتبر حلقة وصل بين العالم العربى واسيا ، وباقى الدول العربية فى افريقيا وعددها تسع دول يبلغ تعداد سكانها حوالى ثلث تعداد سكان افريقيا وهى تعتبر كحلقة وصل لافريقيا باوروبا .

---

(٢٦) د. محمد رضا فودة : مستقبل التعاون العربى الافريقى ، الندوة العسكرية العلمية الافريقية ، أكاديمية ناصر العسكرية العليا ١٩٨٤ ، ص ١٥ — ١٨ .

ـ ومن الناحية الاقتصادية تعتبر الدول العربية والافريقية مخزنا هائلا للمواد الخام والمواد الاستراتيجية التى تحتاجها الدول الكبرى للصناعة ، بالاضافة الى انها ايضا مصدرا رئيسيا للطاقة المطلوبة لتصنيع المواد الخام . كذلك فان الدول العربية والافريقية فى منطقة باب المندب تعتبر خطوط مواصلات استراتيجية تمر فيها المواد الخام فى طريقها للدول الكبرى وكذلك المواد المصنعة فى طريقها الى الدول العربية والافريقية ، وبالرغم من الموارد الهائلة التى تمتلكها كثير من الدول العربية والافريقية الا أن حالة الفقر والتأخر ما زالت سائدة بين شعوبها مما يهدد أمنها القومى .

وهناك قضايا امنية مشتركة تحتم وجود أمن عربى ـ افريقى مشترك وهى :

ـ مشكلة اللاجئين .

ـ مشكلة التخلف واهدار الامكانيات .

ـ امتلاك القدرة النووية .

ـ الاستقطاب الدولى .

ـ ضعف فاعلية المنظمات الاقليمية .

وبذا فاننا نجد : أن هناك تأثيرا متبادلا بين ما يحدث فى الدول العربية وما يحدث فى الدول الافريقية ، وان هناك علاقات افريقية عربية قديمة ومستمرة فى جميع المجالات ، وانه يجب وجود نظرة مشتركة لأغلب المشاكل المتشابهة والقضايا المشتركة ، لذا يجب وضع استراتيجية وسياسة موحدة لمواجهتها وتعاون كامل فى التنفيذ .

ولما كان مضيق باب المندب هو أحد مفاتيح الأمن العربى الافريقى لذا يجب ان يولى عناية خاصة من قبل الدول العربية والافريقية ، ولتحقيق أمن باب المندب يجب :

١ ـ تحقيق الأمن القومى للدول المطلة على المضيق ، وهذا لن يتأتى الا اذا تم حل المشاكل الداخلية بتلك الدول كخطوة أولى ، يليها حل المشاكل بين تلك الدول وبعضها ، أى انه يجب حل مشكلة ارتيريا ومشكلة الاوجادين والحفاظ على استقلال جيبوتى .

٢ — ابعاد دول المنطقة عن دائرة الصرا عوالاستقطاب الدولى ولا شك ان الخطوة الأولى والخاصة بتحقيق الأمن القومى لدول المنطقة ستكون العامل الأساسى لتحقيق الخطوة الثانية ، نظرا لانه اذا ما حلت مشاكل المنطقة فلن يكون هناك احتياج لتدخل قوى خارجية تحمى نظام ضد الآخر .

٣ — الامتناع عن منح القواعد والتسهيلات للدول الأجنبية بالمنطقة .

٤ — لابد من تحقيق السيطرة على جزر باب المندب بالتواجد فيها سواء أكان تواجدا عسكريا أو مدنيا أو مشتركا منعا لاستغلالها من قبل دول أخرى دون علم من الدول صاحبة السلطة الشرعية على تلك الجزر ، وكذلك وضع خطة مستمرة لمراقبة تلك الجزر خاصة تلك التى يصعب الاقامة المستمرة فيها من قبل مواطنى دول المنطقة .

٥ — وضع استراتيجية عربية افريقية مشتركة لتأمين باب المندب تراعى الاعتراف بحق الدول الأخرى فى استخدام المضيق ، ولا شك أن مثل تلك الخطوة لن تؤدى الى الفرض المنشود منها الا اذا تم ازالة الخلافات القائمة بين بعض الدول العربية بالمنطقة واثيوبيا ، وذلك بهدف أن تقوم كل دولة بتحمل مسئوليتها فى تأمين المنطقة . ويمكن أن يتأتى ذلك عن طريق تكوين هيئة دول حوض البحر الاحمر لتكون هيئة مسئولة عن وضع خطة تأمين البحر الاحمر والذى يمثل باب المندب احد قطاعاته ، وتتولى تحديد مسئوليات كل دولة المادية والعسكرية والاقتصادية ، وكذلك القيادات المسئولة عن تأمين كل قطاع ، وحجم القوات وأماكن تمركزها وأسلوب التنسيق بينها ومسئولية السيطرة عليها ، وأسلوب التأكد من استعدادها المستمر ، ونظام للمراقبة والانذار .

٦ — أن تشارك الدول العربية المعنية بأمن باب المندب فى تكاليف خطة التأمين مثل المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى .

٧ — تنشيط منطقة باب المندب اقتصاديا وسياسيا حتى تصبح كمنطقة جذب يمكنها تحقيق عائد بالعملات الحرة يعود على دول المنطقة .

الخاتمـــــــة :

لا شك أن مضيق باب المندب يلعب دورا رئيسيا فى تحقيق أمن المنطقة وان من يسيطر على المضيق يمكنه التأثير فى الملاحة بالبحر الاحمر وكذلك بقناة السويس . وان وجود استراتيجية موحدة لدول المنطقة لتأمينه اصبح ضرورة ملحة لابعاد الوجود الأجنبى من المنطقة ، وان الامتناع عن منـــح التسهيلات هو أحد الضروريات لابعاد ذلك الوجود الأجنبى ، وانه فى غياب أمن عربى جماعى وأمن أفريقى جماعى أصبحت هناك ضرورة للتنسيق بين دول المنطقة لتحقيق أمن باب المندب مفتاح افريقيا من الشرق ومفتاح آسيا من الغرب . ومن هنا جاء المقترح الخاص بانشاء هيئة دول حوض البحر الأحمر والتى ستكون مسئولة عن وضع الخطط اللازمة للتأمين مع استمرار المتابعة والتنسيق بين الدول وتدبير الموارد المالية اللازمة لخطة التأمين ، وذلك حتى لا تتكرر حوادث تلغيم البحر الاحمر وما لها من اثر على الأمن القومى لدول المنطقة .

الزعماء (المتطورون) فى حزب التجمع الافريقى ١٩٤٦ ـ ١٩٥١

د. عبد القادر زبادية

يمر الزعيم الافريقى (المتطور) حسب نظرية فرانتز فانون بثلاثة مراحل وذلك فى طريقه لبلوغ مرحلة « التطور الفكرى ليبلغ درجة الوعى الكامل » :

١ ـ المرحلة الأولى : هى الامتزاج اللامتوازن ، وفيها يكون استيحاؤه أوروبيا ، وعند التجربة يعطى الدليل على انه تمكن من ثقافة « الوطن الام » ويستطيع الاتيان فيهابانتاج مماثل ومقلد (بفتح اللام) .

٢ ـ المرحلة الثانية : هى مرحلة الاضطراب والنهوض الذاتى وفيها : « يقرر (الزعيم) أن يتذكر من هو .. ولكن بما انه ليس جزءا من شعبه وذلك لأن علاقاته بشعبه هى علاقات خارجية فقط ، فانه يكتفى بتذكر كيف يعيشون ليس الا ، فتبرز حوادث الماضى فى اعماق ذكرياته من خلال أيام صباه كما كان قد عاشها ، فالاساطير القديمة يعاد تفسيرها على ضوء الجماليات المستعارة وعلى اساس مفاهيم العالم المكتشف تحت أجواء أخرى »(١) .

٣ ـ المرحلة الثالثة : تتصف بالانتاج القتالى والكتابة الثورية والوطنية وفيها : « فان كثيرا من الرجال والنساء الذين كانوا حتى هذه المرحلة لم يفكروا أبدا فى العمل الأدبى أو الكتابى يجدون أنفسهم فى ظروف استثنائية فهم اما أن يكونوا فى السجن مع ثوار الجبال أو على وشك التنكيل بهم فيشعرون بالحاجة الى الحديث لشعبهم ، فيركبون الجمل المعبرة عما يختلج فى صدر أمتهم ، وهكذا يصبحون اللسان الناطق عن واقع جديد للعمل »(٢) .

---

(1) Frantz Fanon, Présence Africaine, paris 1963, p. 179.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

ان هذه المرحلة الأخيرة لم يمثلها الزعمـــاء السياسيون فى افريقيـــا الفرنسية قبل مرحلة الاستقلال الا فى حالتين استثنائيتين جدا وهما :

١ — هفويت بوانيى أثناء فتـــرة تزعمه لحركة التجمـــع الافريقى الديمقراطى فى الفتـــرة ما بين ١٩٤٦ و١٩٥١ حينمـــا كان ذلك التجمع كنفدراليا شعبيا كما سيأتى بيانه .

٢ — بعض الذين كانوا أوفياء لمبادىء ذلك الاتحاد فى الفترة نفسها وعلى راسهم دربوسيى (D'Arboussier) فى فولتا العليا (بوركينا فاسو حاليـــا) .

وفى غير ذلك فان الزعماء المتطـــورين (Les Evoluers) (٣) كانوا يتوقفون عند بلوغ المرحلة الثانية فقط ، وكانت مطالبهم ومطامحهم لا تخرج عن نطاق ابراز الشخصية فى نطاق النظام السياسى والاقتصادى والثقافى للوطن الام للتخلص من عامل الشعور الاجبارى بالنقص من جراء التميز الذى يجعلهم فى درجة أقل والذى ظل يلاحقهم بصورة قانونية وعملية حتى بعد بلوغهم مرحلة الثقافة والتطور التى كان يوجد عليها أترابهم من الفرنسيين لحما ودما ، ويضاف الى هذا المطالبة بتطبيق القوانين الدســــــتورية على شعوبهم بالشكل الذى اعترفت به وأقرته السلطات الفرنسية نتيجة للتطور الذى أدخل عليها بعد الحرب فيما يتعلق بالمستعمرات كنتيجة وتفادى مما للظروف الخارجية القاهرة .

ويعزى للهجين السنغالى أبى بوالات (Abbé Boilat) حين تأليفه لكتاب فى النحو للغة الولوف (Wolof) سنة ١٨٥٣ ضيقه ، ولأول مرة ، ذرعا بما كان يذهب اليه الفرنسيون من نفى أى تطور حضارى لغوى للافارقة ، فاستفهم : كيف يكون ممكنا لهؤلاء الرجال من غير ثقافة ومن غير نحويين ولا أكاديميين ولا حتى قواعد كلامية أن يكون فى لغتهم مثـــل هذا الترتيب وقواعد البناء والطريقة ؟

---

(٣) أى الذين تثقفوا الى حد ما فى المدارس الفرنسية وارتقوا عن مستوى الأهالى العاديين وأصبحوا أقرب الى الفرنسيين فى تفكيرهم وارتباطهم ونظام حياتهم .

ثم أجاب عن هذا التساؤل بقوله : « انه بالرغم من أن الولوف هم سود كمعظم السود الأفارقة ، فان لهم الاعتقاد الأكثر تواضعا فى انهم البيض الاكثر نقاوة ، وان اكثر ما يجرحهم هو اخذهم كعبيد او جنود مكبلين للحمل (Serrers) .. ومعنى أن تكون مسيحيا فأنت أبيض ومعناه أن تكون حرا وأن تكون لك حقوقك »(٤) .

مثل هذا الشعور هو تعبير عما كان يختلج فى نفسية كل افريقى (متطور) تجاه موقف الاوروبيين منه فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهذا يشير الى حقيقة هى أن مطالب المتطورين كانت تتطور مع الزمان ، والانسان ابن محيطه كما يقولون فبعد خمسين سنة من الشعور الذى أبداه بوالات هذا نجد سنغاليا (متطورا) آخر هو ندياى سلدور (N'Daye Celdor) الذى كان فى سنة ١٩١٢ نائب الرئيس فى الاتحاد السنغالى لنشر اللغة الفرنسية يصرح بأن الحاكم الفرنسى العام : « لا يحب السود .. وقد عمل منذ مجيئه فى عام ١٩٠٤ على القائنا بوحشية خارج مجموعة زملائنا من الوطن الام »(٥) .

ولكن قضية المتطورين لم تظهر بوضوح الا فى بداية الحرب العالمية الأولى واثناءها وبعدها ، ومن بين الأوائل الذين يمثلونها فى الحقبة الأولى هو بليزديان (Bilaise Diagne) ولذلك فهو يستحق هنا بعض العناية . ينحدر بليزديان من طبقة وسطى ازداد اتساعها من جراء قرنين من التجارة الفرنسية فى منطقة الساحل السنغالى ، وقرن واحد من الثقافة الفرنسية فى الأربع بلديات السنغالية التى ارتقى قسم من سكانها حتى ذلك الوقت ، الى درجة التمتع بالحقوق السياسية وأصبحوا (مواطنين) فرنسيين ، ولهم الحق فى انتخاب ممثل عنهم الى الجمعية الوطنية الفرنسية . وقد كان بليزديان أول افريقى ينتخب لهذا المنصب فى السنة ١٩١٤(٦) .

وأثناء المعركة الانتخابية وقف الى جانب ديان طائفة لبو (Lebou) والزعماء المسلمون والمثقفون المتطورون الذين كانوا قد انضموا فى جمعية

---

(4) Claude Wauthier, L'Afrique des Africains, paris 1944,p.41.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .

(6) Robert Delavignette, Freedom and authority in French west Africa, London 1950, p. 420 ff.

أطلقوا عليها اسم « الشباب السنغالى » ، وكان هدفها هو المطالبة بالاجور المماثلة للموظفين الأفارقة باجور الفرنسيين ، وفى سنة ١٩١٦ ، كان هناك اتجاه فى فرنسا لالغاء حقوق المواطنة التى كانت البلديات السنغالية الأربع تتمتع بها ، فوقف بليزديان ضد ذلك الاتجاه ، ونجح فى تثبيتها . وفى سنة ١٩١٧ عين بليزديان مندوبا ساميا للتجنيد فبلغ عدد الأفارقة الذين جندوا مائة وثمانين الفا ، وكانت فرنسا فى حاجة شديدة لهم وكانت الخسائر بينهم كبيرة ، ولكن الحاكم العام فولنهافن (V. Vollenhaven) وقف ضد تعيين بليز فى هذا المنصب لأن ذلك يؤدى الى التضييق من صلاحيته ولأنه كان ضد تكاثر الأفارقة فى الجيش ، وعندما لم ينجح فى مسعاه اضطر الى الاستقالة(٧) . وقد اعيد انتخاب بليز فى سنة ١٩٢٠ بأغلبية ، وعمل كرئيس للمؤتمر الافريقى لسنة ١٩١٩(٨) . وفى الوقت الذى كان فيه ديان يدافع دائما عن امتيازات المواطنة الفرنسية للبلديات الأربع السنغالية فانه عرف الى جانب ذلك بوقوفه الى جانب النظام الاستعمارى فى البلاد الى حد انه كان يوجد المبررات للعمل الاجبارى ولانعدام الديمقراطية التى تتمتع بها البلديات الأربع بين المؤسسات الفرنسية الأخرى خارج حدود تلك البلديات ، وامام نداء ماركوس فريفى للحرية وتصريح ١٩٢٠ المتعلق بحقوق الشعب الزنجى فى العالم ، أجاب بليزديان :

« نحن الأهالى الفرنسيين نرغب أن نبقى فرنسيين ما دامت فرنسا قد اعطتنا كل حرية .. ان النخبة من الأهالى الفرنسيين التى هى المسئولة عن الأهالى فى مستعمراتنا لا تستطيع أن تسمح ، دون أن تكون فاشلة فى واجباتها الجديدة ، بنظريات الانفصال والانعتاق الثورية التى اعطيتموها اسمكم لتحدثوا القلاقل وانعدام النظام »(٩) .

---

(٧) المصدر نفسه .

(٨) عمل قبله فى هذا المنصب كاربوت ولكن هذا كان يختلف عن ديان بكونه كان هجينا ، أبوه فرنسى وأمه سنغالية ، وهو من سان لويس .

(9) CF. Thomas Hodkin «Background to Afrique occidentab Francaise : Afrique Reaction and French role», in west africa, Janury, 1954, p. 313;

Wesley Johnson «The ascendancy of Biiaise Diagne and the beginning of African Polities», In Africa No 3July 1966, pp. 235-252; Chrles Cris, La paroll est. Me Bilaise Diagne, premu homme d'etat Africain, paris 1961, p. 15.

وعند مقارنة هذا التصريح بما جاء فى منشور الدعاية الانتخابية الذى أصدره ديان مع انصاره نلاحظ الى أى حد كان للرجل (المتطور) مجال يعمل فى نطاقه ولا يتعداه فقد جاء فى ذلك المنشور :

« اذا كنتم ترغبون فى أن يكون لكم مكان تحت الشمس ، اذهبوا لصناديق الاقتراع ، ليس لتتخذوا لكم سيدا ولكن لتختاروا بحرية صديقا من جنسكم يدافع عنكم فى كل مجال ، وذلك مما يجعل مناهضيكم يضطرون امام فكركم السياسى وتيقظكم الاجتماعى »(١٠) .

وقد ذهب الزعماء المسلمون الى تأييد بليز ضد منافسه كاريوت وكان لهم دور كبير فى انجاحه ، قال كاريوت : ان « المرابطين » قد حصلوا على التزام من عدد كبير بين الناخبين فحلفوهم بالقرآن لكى ينتخبوا ويحصلوا على أصوات أخرى لصالح ديان . وهذا الاخير قد قدم نفسه على انه المرشح الأهلى الحقيقى ، وقد قرر المرابطون أن كل من لا ينتخب لصالحه يعتبر مرتدا ولن يسمح له أن يتزوج أو يدفن وفقا لقواعد الدين الاسلامى »(١١) .

وكان الزعماء المسلمون يؤيدون ديان ليحميهم ضد تدخل الادارة فى شئونهم عند الحاجة ، أما فى غير ذلك فان ديان المتطور لم يكن لينظر الى استقلال الافارقة بغير المنظار الذى كان ينظر به اليه الفرنسيون مثلا(١٢) . يقول ديان فى هذا الصدد : « يمكن للانسان أن يتصور يوما سيأتى ، يستطيع فيه الجنس الاسود التحكم فى مصيره بكل نضج ، مع ثقافة عميقة تعطى السود فكرة الشعور القوى بالتضامن الوثيق الذى سيتواجد بينهم وبين فرنسا »(١٣) .

ويذهب ديان فى تفكيره داخل اطار الاستعمار الفرنسى الى حد الاقتناع بالمصير الفرنسى لبلاده ، وهو ينظر الى ذلك بمنظار المقتنع المغتبط بفضائل ذلك الاستعمار فيقول : « اننى من حيث الجوهر من أولئك الذين يقبلون أن

---

(10) Ibid, p. 18.

(11) Irving Markovitz «The Political thought of Bilaise and Lamine Guye, in Présence Africaine, No 72 paris 1969, p. 28.

(12) Cros, op. cit. p. 137.

(13) Ibid.

التقليد السياسى لفرنسا .. يمكن أن يجد أهدافه النهائية فى الوحدة ، وفى نفس الوقت فى الفكرة والعقيدة وفى الوحدة الروحية بين الوطن الام فرنسا وبين عرقيات الشعب المنتشر عبر ممتلكاتنا فيما وراء البحار .. اقول ذلك وأنا أحمل فى فكرى أن نهاية الاستعمار هى الوحدة ويجب على أن اضيف أن كل خاصيات الاهالى يجب أن تحترم فى تقاليدها وعاداتها » ويستطرد ديان (المتطور فى تفكيره هذا) الى القول : ان كل ما يربطنا والذى يجب أن يربطنا فى الوضعية النهائية هو الروح المشتركة ويبدأ ذلك بالمصالح المادية أولا ، ثم تتبع بمجهودات مشتركة لتثقيف الأهالى الذين سوف يؤدى بهم ذلك تدريجيا الى مستوى (الفرنسيين) وذلك ما سيكون اسمنت الرابطة التى لا تنفصل بيننا » .

ثم يضيف ديان الى رايه هذا الاشارة الى ما أحدثته ظروف الحرب ويفسر دور الأفارقة الذين كان يسهر على تجنيدهم لها بانه مجهود مشترك فى هذا النطاق ، فيقول « والى هذا الحد يجب أن نذكر ، بالرغم من أن هذا أصبح الآن بديهيا ، ان الحرب قد تجاوزت كل هذا وخلفت وضعية ، سواء من أحب أم كره ، فانها انتجت الجهود المشتركة والتضحيات المشتركة والمصير المشترك »(١٤) .

ويرى ديان أن الاستعمار الفرنسى لا يمكن أن يقارن بغيره ، لأن (أساسه انسانى) فى حين أن غيره من أنواع الاستعمار انما تدفعها دوافع مادية . ويرى أن من واجب جميع المواطنين أن يعملوا ما فى وسعهم للتغلب على المساوىء الموجودة فى الاستعمار كأى شىء انسانى فى الحياة له مساوئه ومحاسنه ، وهو فى هذا التحليل يذهب الى حد نعت الاستعمار الفرنسى بالتقدم والاجابية » . ثم يستطرد الى القول :

« اذا كنا نعترف بأن الاستعمار الفرنسى ، كأى عمل انسانى آخر له بعض النقائص ، ونحن هنا لنعمل على اختفائها ، فانه من حقنا أن نؤكد على القول بان فرنسا قد تسببت للاهالى الأفارقة أن يجتازوا فى وقت قصير مرحلة من التطور ، اذا نحن أردنا وزنها فانها أكثر اعتبارا مما مرت به فرنسا خلال ما يقرب من العشرين قرنا ، وما ذلك الا لأنكم اشتملتمونا وضممتونا فى

---

(14) Ibid.

اهتماماتكم الوطنية الأساسية تحت ظروف معينة ، وسيصبح منذ الآن فصاعدا لا يخدم بلاده ولا مصالحها ولا مصالح فرنسا القارية ولا مصالح مواطنيه ، من سيقول لكم هنا أن الاستعمار يجب أن تكون له نهاية أخرى غير التى تربط مصالحنا اكثر وتجعلها مشتركة »(١٥) .

لقد عبر واكد ديان عن نظرته وفلسفته هذه تجاه الاستعمار الفرنسى فى خطبته أمام أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ فاتح يناير (جانفى) ١٩٣٠ ، وكانت بمثابة رد منه على بداية احترام المطالب الوطنية فى جهات أخرى ، لأنه كان يرى أن من مصلحة بلاده هو الارتباط بفرنسا الى الابد ولا عجب فى ذلك فهو رجل (متطور) .

ان ديان يمثل فكرة الجيل الأول من (المتطورين) فى نطاق الاستعمار الفرنسى بافريقيا الفرنسية دون شك ، ولم يبتعد جيل المتطورين الذى أتى بعده عن هذه الفكرة الا فى بعض الشكليات .

يمكن أن يعتبر لمين قاى (Lamine Gueye) شخصية بارزة أمام المؤرخين لتمثيل الجيل الثانى . لقد حارب لمين قاى حتى الاستقلال المظاهر البيروقراطية والتمييز العنصرى فى الاستعمار الفرنسى ، وقد كان من الوجوه البارزة بين المتطورين من حيث المستوى الثقافى فقد حصل على درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس فى سنة ١٩٢١ وخصص بحثه فيها لاثبات التعايش الحاصل بين المجموعة التى ارتقت الى مستوى (المواطنة الفرنسية) وبين المجموعة التى كانت تعيش تحت طائلة القوانين الخاصة بالأفارقة ، وقد كون لنفسه انصارا من حوله ، ادعوا اتباع أفكار الاشتراكيين ، وهم المجموعة التى تطورت تحت زعامته فى سنة ١٩٣٠ لتشكل (الفدرالية السنغالية) كفرع افريقى للحزب الاشتراكى الفرنسى .

وقد دافع بشدة مع انصاره فى الفدرالية السنغالية وبمساعدة الحزب الاشتراكى الفرنسى لهم على وجوب القبول القانونى للنخبة الافريقية (المتطورون) كى تصبح لها حقوقها فى المساواة مع المواطنين الفرنسيين بالأصالة وذلك ، فيما يتعلق بالواجبات والفوائد الاجتماعية والاقتصادية والامتزاج السياسى أيضا (Assimilation Politiqué) .

(15) Ibid, pp. 24-27; Markovitz, op. cit, p. 31 F.

ورغم ذهاب لمين قاى هذا المذهب منذ وقت مبكر ، فانه لم يستطع البداية فى تحقيق ما كان يصبو له تدريجيا الا بعد الحرب الكونية الثانية ، ففى ٧ مايو ١٩٤٦ صدر قانون لمين قاى الأول القاضى بان كل هؤلاء الذين هم تحت تشريع الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار لهم كمواطنين فرنسيين نفس اتساع ذلك التشريع لمواطنى الوطن الام . لقد كان لمين قاى (متطورا) لذلك كان يدافع عن طبقة المتطورين بالدرجة الأولى ، وهو الذى قدم مشروع هذا القانون وسمى باسمه .

وفى سنة ١٩٥٠ صدر قانون ثان باسم لمين قاى أيضا يقتضى بأن الموظفين الأفارقة جديرون بأن تكون لهم حقوق متساوية مع الموظفين الفرنسيين .

وفى كتابه مراحل وآفاق الاتحاد الفرنسى (E'Tapes et perspectives de L'union Francaise) الذى أصدره حينما أصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى الفرنسى فى باريس ، دافع لمين قاى عن الاتحاد الفرنسى، ولم يتوقف فيما ابداه من آراء فى هذا الكتاب عند حدود ذلك الاتحاد كما اقتضاها دستور ١٩٢٤ بل ذهب الى الدفاع عن فكرة (العمل العقائدى) على حد تعبيره فيما يتعلق بهذا الاتحاد ، وكان يرى أن نظرية العمل العقائدى هذه تهدف الى توحيد الأفارقة بالفرنسيين (مخترعى الحريات) على حد تعبيره ، واقترح عددا من الاصلاحات تهدف كلها الى اشتراك الأفارقة فى مختلف المؤسسات السياسية الموجودة آنذاك ، وكانمن جملة ما اقترحه فى هذا الصدد :

« على المستوى الوطنى (يتكون) مجلس يدعى للعمل ليتعرف على المشاكل الكبرى لما وراء البحار ، وتعطى له الصلاحية اللازمة كبرلمان مختص، وان حضور اغلبية منتخبة من خارج الوطن الام فيه سوف يجعل أمامه مشاكل عاطفية وسياسية اقل من تلكَ التى تظهر فى حالة مجلس الاتحاد الفرنسى الحالى الذى سيتطلب دستوره ادخال تغييرات عليه »(١٦) .

---

(16) Lamine Guye, étapes et perspectives de L'union Francaise, edition de L'union Fransise,paris 1955, p. 39..

ويرفض لمين قاى كبقية المتطورين فى افريقيا الغربية الفرنسية فكرة الاستقلال ليستبدلها بفكرة المناداة بالمساواة تحت السيادة الفرنسية فيقول حرفيا : « ان المطلوب من فرنسا هو بكل دقة المعاملة بالمساواة فى تطبيق قوانينها »(١٧) .

وعندما تأسست المجالس الاقليمية والمجلس (الفدرالى) المسمى بالمجلس الكبير فى افريقيا الاستوائية والغربية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية ، كان لمين قاى من المتحمسين للاستفادة من هذا العمل الفرنسى فى تأكيد نظرياته الاتحادية ، فخطب فى روفيسك مثلا فى ٢ ديسمبر ١٩٤٦ قائلا : « اننا سنتمكن من عمل كل شىء من خلال فرنسا ، كل شىء من خلال الجمهورية ولكن لا شىء بدون فرنسا ولا يمكن شىء بدون الجمهورية »(١٨) .

بين لمين قاى وسنغور :

كان سنغور من اتباع ومحميى لمين قاى فى البداية ، وكان قد قضى فترة طويلة خارج السنغال ، قضاها فى فرنسا ، حيث حصل على شهادة التبريز فى نحو اللغة الفرنسية ، فلما رجع للسنغال انضم الى لمين قاى فاصبغ عليه من الحماية ما مكنه من الدخول فى سلك الزعامة السياسية بين فئة (المتطورين) .

وكان سنغور قد حضر عددا من المؤتمرات الطلابية بالخصوص اثناء تواجده فى أوروبا وكان من بين الذين التقى بهم وتأثر بافكارهم هو ايمى سيزار من المارتينيك الذى كان من ابرز من تعود اليهم الدعوة الى الجامعة الزنجية ، وهى فكرة يعود الفضل الأول فيها الى زنوج البحر الكاريبى واميركا ، وقد وجدت رواجا بين فئة (المتطورين) والأفارقة فى البداية ، لما كانت تشبعه فى نفوسهم من حب البحث عن الأصل الحضارى والشخصية ، وهى قضية لا تتعارض مع التفكير الأوروبى بحال .

وبعد نهاية الحرب الكونية الثانية كان هناك تطور فى المستعمرات الافريقية من حيث الافكار والمطامح يفوق مجرد طلب المساواة مع الفرنسيين

---

(١٧) المصدر نفسه .

(18) Harkovitz, op. cit. p. 34.

الذى لم يستطع لمين قاى الخروج عنه ، لأنه بحكم تكوينه وارتباطاته الاجتماعية على الأقل كان ليس فى امكانه ملاحظة تلك التطورات الجديدة فى عقول الأفارقة من حوله ، وقد استطاع سنغور أن يفهم ذلك ، فانشق عن لمين قاى وبزه فى الزعامة منذ نهاية الخمسينات ، ولم يخرج سنغور عن المحيط الفكرى والسياسى الذى كان لمين قاى يعمل فيه ، ولكنه تفوق عليه فى اتساع المحيط الاجتماعى الذى اختاره للعمل ، دون ان يرتبط بالثناء على كل ما تنجزه فرنسا وانه لصالح الأفارقة بالصورة التى اشتهر بها لمن قاى .

كان لمين قاى ارستقراطيا من سكان داكار ، وتولى من المناصب الهامة شيخا لبلديتها ، ورئيسا للمجلس الفدرالى ، وأخيرا وزيرا فى الحكومة الفرنسية ولمدة طويلة كان نائبا فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وأهم من ذلك كله كان يعيش فى صداقات مستمرة مع الحكام الفرنسيين ، ويعين انصاره فى المناصب المحلية بمساعدتهم ، فى حين انحدر سنغور من وسط اجتماعى أقل وعرف كيف يتغلب على زعامة قاى ، وهو الكاثوليكى المخلص ، حتى فى الأوساط الاسلامية ولم يتم له ذلك دون مساعدة الفرنسيين بالطبع ، وذلك بعد أن ادركوا أن سنغور بأفكاره أصبح يستطيع ملء الميدان السياسى فى الفترة الجديدة التى أصبحت تعج بما لا تكفى له مبادىء لمين قاى وحدها .

لا يمكن اعتبار سنغور وجها للجيل الثالث فى فئة المتطورين ولكنه حلقة وصل بين افكار الجيل الثانى ومتطلبات الوضعية الجديدة بعد الحرب الكونية الثانية .

فهو استمرار للجيل الثانى فى قالب جديد ، يتفق سنغور مثلا مع لمين قاى فى الارتباط مع فرنسا ولكنهما كانا قد (اختلفا) فى الطريقة التى تنتهجها فرنسا فى الصرف المالى ، فسنغور له أوليات فى هذا الشأن ، فقد جرت بينهما محاورة علنية فى سنة ١٩٤٦ حينما بدآ فى السير نحو (الخلاف) فانتقد سنغور الأسلوب الفرنسى فى انفاق ١٤ مليون من الفرنكات على التعليم الابتدائى فى كامل السنغال ، ولكنها صرفت فى الوقت نفسه ١٧ مليونا من الفرنكات على انشاء محطة خاصة بالشرطة فى داكار فكان جواب لمين قاى (ليس نحن الذين ندفع) ، فراح سنغور فى الرد على هذه الحجة قائلا : « هل قدمت فرنسا لافريقيا لتدفع حضارتنا الى الامام عن طريق الاحتكاك بها أو انها جاءت لتدخل دون سابق انذار خطر الشرطة وذلك على

اكتاف الناس الذين يعيشون أصلا وفق حضـــارة جماعية لا حاجة لهـــا بالشرطة »(١٩) ؟

واذا كانت مثل هذه النظرة للاشياء تكشف عن الكيفية التى يختلف حولها تفكير الرجلين فهى تعبر الى حد كبير عن اختلاف الفترة الزمنية كذلك، فقد جاء سنغور فى وقت أصبحت فيه النظرة الى واجب الحكمة لا تنحصر فى مجرد المحافظة على الأمن ، وكانت هناك مطامع الفئات الاجتماعية الأخرى من خارج المدن لما اتسع مجال الانتخاب ليشملهم أكثر من السابق ، يضاف الى ذلك توسع المجال أمام فئة (المتطورين) الدنيا الغير محظوظة حتى ذلك الوقت(٢٠) . وبالنظر الى أن الاكثرية العظمى من السنغاليين مسلمة ، فقد عرف سنغور كيف يتقرب من الزعماء المسلمين ويضمن تأييدهم له ، معتمدا على (انتقاداته) فى نطاق الارتباط بفرنسا ، وقد أعلن ذلك مفتخرا فى المجلس الوطنى الفرنسى بقوله : « لقد استقبلنا بحفاوة من طرف كبـــراء المرابطين السنغاليين ، أما مناهضونا فقد ردوا بأدب »(٢١) .

واخيرا فقد استقبل السنغاليون الاستقلال تحت زعامة حزب الكتلة الديمقراطية السنغالى Bloc Démocratique Sénégalais (B.D.S) الذى أسسه وتزعمه سنغور ، ثم تحول الى حزب الاستقلال الافريقى ، وظهر كأن كل التطورات كانت تسير بانسجام منذ مؤتمر برازافيل سنة ١٩٤٤ والذى خطط فيه الفرنسيون لتطور افريقيا السوداء الفرنسية فى اطار الاتحاد الفرنسى وباشراك (المتطورين) الأفارقة ، ووضع الحكم فى أيديهم فى حالةالاضطرار .

هوفويت بوانيي والفترة الاستثنائية :

ركزنا لحد الآن عن الأوضاع السياسية بل تطور التفكير الســـياسى لدى فئة الزعماء (المتطورين) كما تمثلها السنغال ، وذلك لأن الســـنغال وداكار بصورة خاصة كانت لا تزال لهما اهميتهما فى التأثر بالفرنسيين أولا

(19) Recueil des Intervention faite a'lanemble natianal francaise par le peruidet Lequld sédar seyhed de 1946, (DAKAR),inteventian de 21 Mars 1946.

(20) Erving, M., Leopdd Sedar senghor and The politics of negritudi, N.York, 1969.

(21) Sengor, hecueil. op. cit., 21/8/1951.

ثم فى التأثير ضمن المخطط الفرنسى دائما وبواسطة فئة المتطورين هذه على المستعمرات الفرنسية الأخرى فى أفريقيا جنوب الصحراء ، ويعود ذلك الى انها اقدم المستعمرات فى افريقيا السوداء ، وقد ركز الفرنسيون عليهـا كمحطة لكل ثقلهم الثقافى والتجارى فى افريقيا السوداء بمثل ما كان الأمر بالنسبة للجزائر فيما يتعلق بموقعها فى الشمال الافريقى ، وبوضـعيتها الخاصة كذلك بالنسبة لجميع مستعمراتهم فى افريقيا . وقد كان لما يجرى فى السنغال صداه واثره على بقية المستعمرات ، الا فيما يتعلق بفترة التجمع الديمقراطى الافريقى الذى أسسه وتزعمه هوفويت بوانيى (من سـاحل العاج) ، وقد وقف منه الزعماء المتطورون فى السنغال موقفا خاصـا كما سنرى ، وتراجع فى الأخير عن شكله الثورى الفدرالى بتراجع زعيمه .

تأسس حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى اكتوبر ١٩٤٦ بمدينة باماكو(٢٢) ، ويعود أساس وجوده الى فكرة اقتناع الممثلين الأفارقة بوجوب الاتحاد ضد التحفظ الذى يبديه الممثلون الفرنسيون والادارة أمام بعـض مقتضيات الدستور فيما يتعلق بالمستعمرات ، ولتحقيق هذه الفكرة تنادوا لاجتماع فى باماكو على هذا الأساس ، وقد احتوى البيان الذى صـدر انذاك آراء كل من هوفويت بوانيى ، لمين قاى ، سـنغور ، ابيتى (من الداهومى آنذاك ، بنيين الآن) ، فيلى دابو سيسوكو (من السـودان (مالى فيما بعد) ، ياسين ديالو (من غينيا) ، فيليكس تشيكايايا وغابريال داربوسى (من افريقيا الاستوائية) . وكانت فكرة الجميع أن يشكلوا جبهة موالاة للدستور والعمل على تطبيقه دون اهمال فيما يتعلق ببلدانهم . وقد شاءت الظروف أن يتزعم هذا التجمع هوفويت بوانييى بروح ثورية فعـلا ولمدة تقرب من عشر سنوات . وكان هفويت بوانيى قد تأثر فى هذه الفترة بتطور الوضع النقابى فى بلاده ساحل العاج ، حيث وقعت احتكاكات بين المزارعين الأوروبيين والأفارقة من منتجى الكاكاو والقهوة ، ونتيجة لتضارب المصالح ووقوف الادارة الى جانب الأوروبيين لتضمن لهم مجال التنافس الأقوى هناك ، وذلك بتطبيق اجراءات على غاية من التمييز لصـالح الاوروبيين . وهـذا ما ادى الى تأسـيس النقـابة الافريقية الزراعيـة

---

(22) Rassemblement Democratique Africain (R.D.A).

Syndicat Agricole Africain (S.A.A) فى ساحل العاج واسندت رئاستها الى هفويت . وكانت تلك النقابة أول تجمع جمع حوالى ٢٠ الف افريقى فى نطاق يتجاوز الاطار القبلى ليقف ضد شره الاوروبيين وعنصرية الادارة .

ولد هفويت بوانيى فى ١٩٠٥ فى ياموسوكرو بساحل العاج ، وهو ينحدر من أسرة رئاسة تقليدية فى منطقته . وقد خلف على الزعامة المحلية هناك أحد أعمامه العمدة اكوى (Chef Akoué) الذى كان قد اغتيل نتيجة لشدة موالاته للفرنسيين . وقد حاول ولداه تحويله عن المدرسة الفرنسية خفية ، وذلك لكى يتثقف تقليديا ويتهيأ لمهامه فى المستقبل . الا أن تهرب بعض أولاد الاهالى الاخرين أيضا عن المدرسة الفرنسية ، كما هى عادة الافارقة فى جهات كثيرة فى ذلك الوقت ، جعلت رئيس مركز بوزى الفرنسى ، يحتجز الصبى فيليكس هفويت بوانيى ليتعلم فى المدرسة الابتدائية الفرنسية ، وقد فعل رئيس المركز ذلك تمشيا مع رغبة الفرنسيين فى جلب أولاد الذوات والعائلات ذات الوجاهة التقليدية الى مدارسهم ، كى يكونوا قدوة لغيرهم ويلتزموا بخدمة ثقافتهم على المدى البعيد(٢٣) . وقد تابع هفويت دراسته حتى دخل المدرسة الطبية فى داكار حيث تخرج منها فى سنة ١٩٢٥ طبيبا ، وعاد الى بلاده رئيس مجلة (Chep de Canton) وملاكا من اكبر المزارعين للقهوة ووجيها فى أكبر مجموعة عرقية قبلية هى باوليه (Baoulé) هى أكبر القبائل أهمية وكثرة فى ساحل العاج . وعندما قامت النقابة الافريقية فى سنة ١٩٤٧ بثورة احتجاج دموية فى ابنغورو (Abengourou) بساحل العاج . كان هفويت بوانيى على رئاستها ومؤيدا من الحزب الشيوعى الفرنسى ، وقد اكسبه ذلك شهرة فى كامل افريقيا الفرنسية وخاصة بين الاوساط المناهضة للفرنسيين . وكل ذلك جعل هفويت بوانيى يصبح الشخصية الأولى فى مؤتمر باماكو الذى تأسس فيه التجمع الديمقراطى الافريقى على اساس فدرالى يجمع كل الاتجاهات الوطنية فى افريقيا الفرنسية ، وقد حدد هفويت بوانيى انذاك اتجاه الحزب فى (استهداف تحرير افريقيا من تسلط مقيت هو الامبريالية) .

---

(23) HARDY, G.,Une Conquéte woral. L,enregiment eh Afrique occidentale Franc,aise. paris 1919.

لقد بقى التجمع الديمقراطى الافريقى هدف الادارة الاستعمارية للقضاء على اتجاهاته التى لقيت صدى كبيرا فى الأوساط الوطنية منذ البداية ، وبقى هفويت بوانيى على رئاسته يتعرض للمضايقات حتى الخمسينات . اما بقية النواب « الزعماء المتطورين » فقد ابتعدوا شيئا فشيئا عن حــزب التجمع الديمقراطى الافريقى منذ البداية نتيجة للضغط الذى تعرضــوا له بشكل مباشر من الادارة الفرنسية . فقد تغيب فى آخر لحظة عن الحضور فى مؤتمر باماكو لمين قاى وسنغور ، وذلك نتيجة لطلب تلقياه مباشرة من ماروس موتى (Marus Moutet) الوزير الفرنسىَ للمستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار آنذاك فى أن لا يحضرا ذلك المؤتمر . وبعد احدى عشرة سنة كاملة من تلك المناسبة التاريخية كان سنغور لا يزال يحاول تبرير ذلك بخطأ شخصى كان قد ارتكبه دون قصد منه فقال : « ان هناك خطأ قد ارتكب من طرف النواب السنغاليين .. فى رفضهم لحضور مؤتمر باماكو لحــــزب التجمع الديمقراطى الافريقى ، وبالتأكيد فقد كنت شخصيا أريد الحضور الى هناك ، ولم أتردد فى أن أقول ذلك فى ذلك الوقت لزعماء حزب الوطن الام الذى كنت انتسب له(٢٤) لكن يجب على بكل تواضع أن اتحمل نتيجة النقد الذاتى ، وخطئى كان يتمثل فى اطاعتى للاوامر الى فرضت على من الخارج ، فليكن هذا درسا لكم انتم يا اصدقائى »(٢٥) .

كما انسلخ عن هذا الحزب بعد ذلك بمدة قصيرة كل من دابوسيكو وابيتى (Apity) وقد لخص المــؤرخ الافريقى جـــوزيف كى زربـــو (Ki-Zerbo) وضعية التجمع الديمقراطى الافريقى أمام الاحزاب والحـــكام الفرنسيين فى تحليله التالى : « ان مشروع الاتحاد المقدس هذا من طرف جميع القوى الافريقية الحية والمرموز له باسم التجمع الديمقراطى الافريقى لم يتحقق .. وباختصار فان أحزاب الوطن الأم القت منذ البداية بعــدم رغبتها فى التشكيلات الافريقية وكان الحزب الشيوعى الفرنسى الوحيد الذى استجاب لدعوة التجمع الديمقراطى الافريقى ، وبالنتيجة فان احزاب الوطن الام الأخرى ، وخاصة مناهضى الشيوعيين ، وبواسطة خداع الحكام الاداريين

---

(٢٤) كان سنغور وقتئذ منتسبا للحزب الاشتراكى الفرنسى .
(٢٥) انظر وثائق الاجتماع التأسيسى لمؤتمر الوفاق الافريقى فى داكار، جانفى ، ١٩٥٧ ، ص ٣ .

الذين كانوا يشترونهم لخدمة أغراضهم فى كثير من الأحيان وكانوا هم الذين يعينونهم ، قد اتخذت التجمع الديمقراطى الافريقى كهدف لها »(٢٦) .

ان موقف الاحزاب الفرنسية من التجمع الافريقى الديمقراطى يعود الى أن جميع الحركات التى أظهرها الزعماء المتطورون كانت فى نطاق الأحزاب الفرنسية وبالانتساب لها ، ومن الطبيعى فان أول ظاهرة للتطور خارج (المؤسسات الام) كانت تعتبر بداية سيئة فى نظر الفرنسيين الذين وجدوا فى مستعمراتهم السوداء مجالا ناجحا ومثاليا للالحاق بعد أن فصلوها عن انتماءاتها الحضارية القديمة وقطعوها عن الاتصال بها(٢٧) .

لقد نجح حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى شكله الظاهرى كفدرالية لمعظم التشكيلات الحزبية المحلية ، فانخرط تحت مبادئه : الحزب الديمقراطى للكامرون ، والاتحاد السودانى ، والحزب الديمقراطى لغينيا ، واستطاع أن يكون له فروعا شملت كل أفريقيا الفرنسية ابتداء من القرى الهامة حتى المدن الكبرى ، وكانت له هيئة تنسيق فدرالية (Comité de Ciordination) تشرف وتوجه جميع فروعه، واستطاع بواسطة هذا التنظيم أن يحافظ خلال المؤتمرات الثلاث التى عقدها بين ١٩٤٦ و١٩٥٨ على الأخذ بناصية التوجيه الشامل ويؤكد من خلالها على الولاء العام والاهتمام المشترك لجميع أتباعه فى كامل افريقيا الفرنسية ، بخدمة الأهداف السامية للافارقة ، ونظرا لمبادئه التى تتناقض تماما وأهداف الفرنسيين ، فقد سلطت الادارة عليه جملة من المضايقات فى كل المناطق ، وكانت علاقته بالحزب الشيوعى الفرنسى قوية الى درجة كبيرة ، ومع بداية الخمسينات أثرت عليه عدة عوامل داخلية سلبية من أبرزها الحساسية الاقليمية بين زعمائه . والحقيقة انه منذ البداية كان بين الأعضاء السنغاليين وغيرهم خلافات شخصية ناتجة عن اتجاه الأولين الى عدم الرضى عن تنفذ غيرهم فى شكيلات هذا الحزب الفيدرالى ،وهم يعتبرون أن دور الزعامة السنغالية

---

(26) Ki-ZERBO, Histoire de L,Afique, Paris 1969. p. 505.

(٢٧) كانت كل افريقيا الفرنسية جنوب الصحراء جزء لا يتجزأ من الحضارة العربية الاسلامية وهذا حتى بداية القرن العشرين ، حيث منع السكان بمرسوم ١٩١١ من استعمال اللغة العربية سعيا لقطع جميع العلاقات الحضارية مع العرب .

فى المنطقة يجب أن يعكسه واقع المكانة الخاصة للسنغال كما اقرتها الاعتبارات الفرنسية بالنسبة لكامل المستعمرات الفرنسية فى كامل الغرب الافريقى .

اما هفويت بوانيى فقد مال هو الاخر فى الأخير الى التخلى عن الهدف الفيدرالى وكان من جملة الدوافع لديه على ذلك أن ساحل العاج فى هذه الحالة سيكون نصيبه من المساهمة الضرائبية أكبر وبالتالى فان بقية الاقاليم تستفيد من ذلك على حساب بلاده . لقد امتاز الزعماء المتطورون على الدوام بالاقليمية والمحلية ، وهو واقع ليس له من سبب آخر غير روح القبلية أو الجهوية الضيقة التى تتناسب دائما والتوجيه الفرنسى الأوروبى المبنى على تشجيع الايديولوجية العرقية فى المستعمرات لأن ذلك يساعدهم على التحكم والسهولة فى التسيير حينما تصبح عوامل الوحدة ضعيفة فى كل مستعمرة ويخشى كل قسم من سكانها قسما أو بقية اقسام أخرى .

فى سنة ١٩٥١ قرر هفويت بوانيى كزعيم لحزب التجمع الديمقراطى الافريقى المقاطعة مع الشيوعيين ، فنتج عن ذلك انقسام فى صفوف اللجنة المركزية المسيرة ، وقد تزعم الفئة المعارضة لهذا الاتجاه الجديد غابريال داربوسى (الكاتب العام لتلك اللجنة) ، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين أعضاء اللجنة المركزية ولذلك كان لمعارضته قيمتها وتأثيرها داخل اللجنة المركزية منذ ١٩٥٠ قبل أن يخرج الخلاف حول هذه النقطة عن مراقبة الرجلين . ان داربوسى كان هجينا ،فأبوه كان احد الحكام الفرنسيين فى افريقيا وأمه تنحدر من سلالة الحاج عمر الفوتى الذى كان كخليفة للتيجانية فى منتصف القرن التاسع عشر بالغرب الافريقى ، وقد دخل فى حروب واسعة ومكن للتيجانية كطريقة من ان تأخذ مكانتها الى جانب القادرية(٢٨) .

وقد شغل داربوسى لفترة منصب حاكم فرنسى فى المنطقة قبل ذلك وكان خبيرا بكل شئونها الادارية والسياسية ، وكان خطيبا مفوها فدخل فى معركة عنيفة ضد هفويت بوانيى حول اتجاهه الجديد ، وكان الأول فى تلك المعركة وكان له انصار كثيرون بين صفوف الطلبة خاصة ، وقد انتهت

---

(28) A. ZEBADIA, AHMAD AL-BAKAY AL-Kunti- An Historical study of the political and religion role, London, PH.D. thesis 1974, 887 ps.

تلك المساجلات الفوغائية بانسحاب داريوسى من منصبه كمستشار فى الاتحاد الفرنسى وانسحب من الحزب ولم يتصالح مع زعيمه . ولم يعد اليه الا فى سنة ١٩٥٦ حينما اصبحت المعارضة لا قيمة لها ، وكان ممن انسحبوا أيضا وشكلوا اتجاهات مناهضة لزعامة هفويت فى اتجاهه بالتجمع الديمقراطى الافريقى وجهته الجديدة هذه ، جيبو بكارى الذى شكل حزبا مناهضا للتجمع الديمقراطى الافريقى فى النيجر ، وسلك الطريق نفسه أم نيوبى الذى كان كاتبا عاما لفرع الحزب فى الكاميرون ، لما أبعد فرعه من الحزب .

وفى سنة ١٩٥٦ أصبح سنغور زعيما للسنغال فحاول استقطاب الزعماء البرلمانيين لافريقيا السوداء الفرنسية والمناهضين لمبادىء حزب التجمع الديمقراطى الافريقى ، من خلال التجمع البرلمانى لهؤلاء والموجود منذ سنة ١٩٤٨ تحت اسم نواب ما وراء البحار المستقلون Les indépendant d'outer-mer (I.O.M)،

وقد فعل سنغور ذلك معتمدا على محاولة توسيع ذلك التجمع بحيث يشمل غير النواب أيضا ، ولكن محاولته هذه لم تنجح ، لأن اتحاد النواب رغم ما أصبغ عليه من طابع شعبى فى الفترة الأخيرة ، فان أهدافه لم تستقطب الناس وبقيت محدودة بين الأعضاء السياسيين النواب وبعض انصارهم الطبيعيين(٢٩) .

وخلال فترة قيام حزب التجمع الافريقى الديمقراطى وفقا لمبادئه السياسية كما شرحناها آنفا التفت حوله فئات عديدة من الافارقة ، ونشطت فروعه فكان لها اعداد كبيرة من المنخرطين فى كل الجهات ، وأرسل كاتبه العام برقية تهنئة للزعيم الروسى ستالين فى عيد ميلاده سنة ١٩٤٨ وكل ذلك مما أثار حفيظة الساسة الفرنسيين فى الوطن الام وفى افريقيا ، وخلقت الادارة أحزابا مناوئة لمبادئه كالفئة التى أنشأها سانوفو Sanogo فى ساحل العاج ، كما القى القبض على عدد من اتباع ذلك الحزب من أمثال زوروبى ترا Zoro Bi-Tra وسامبا أمبرواز Samba Ambroise واغتيل بعض أتباعه كما حصل فى قضية السناتور بياكا Biaka وبلغ فى هذه

---

(29) Ki - ZERBO, op. ct., p. 506.

الفترة عدد القتلى من اتباعه حسب الاعترافات الرسمية للادارة ٥٢ افريقيا. أما المساجين فقد بلغ عددهم حسب الاحصاءات المعترف بها اداريا فقط ٣٠٠٠ مناضل ، وقد منعت الاجتماعات فى حقه . ويبدو ان تراجع هفويت عن مبادىء حزبه الأولى تعود الى تقديره لضعف الامكانيات حيث أصبحت النتائج لا تتلاءم مع التضحيات المبذولة مما دفعه حسب تعبيره للعـــودة الى (طريق الواقعية والتعاون) مع الفرنسيين طبعا .

وقد أعلن انسلاخه عن التعاون مع الشيوعيين على أثـــر محادثات اجراها مع فرانسوا ميتران الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب وزير المستعمرات (فرنسا ما وراء البحار) La Francé outer-mer ثم جاءته المناسبة للتصالح الكامل مع الادارة اثناء تدشين ميناء ابيجان فى سنة ١٩٥١ ، وقد استفادت مجموعة (النواب) من المتاعب التى أصبح يعانيها حــزب التجمع الديمقراطى الافريقى منذ تراجع زعيمه ولكن بصورة غير مباشرة ، الا أن النتائج المرتقبة من طرفهم فى هذا الاتجاه كان هفويت بوانيى اكثـــر منهم ذكاء فى قطفها ، ففى سنة ١٩٥٦ أصبحت الادارة الفرنسية والزعماء السياسيون فى فرنسا فى انسجام تام مع حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى اتجاهه الجديد ، واعطوه كل المساندة بتعيين زعيمه وزيرا كامل الحقوق فى الحكومة الفرنسية ، فكان أول افريقى يحظى بهذا المنصب .

والخلاصة التى يمكن ان ينتهى اليها الباحث فى هذا الصدد انه بتخلى هفويت بوانيى الذى كان أول وآخر (متطور) يسلك بالتجمع الافريقى هذا الاتجاه ، ولو لفترة محدودة كما أسلفنا ، أصبح من الواضح ان زعامة المتطورين التى هى وليدة الفترة الاستعمارية ، لن تؤدى الى غير التماشى والخـــط المرسوم لها فى النهاية(٣٠) .

---

(٣٠) وهناك من يذهب الآن الى أن العالم كله ذاهب الى الانصهار الكلى فى الحضارة الغربية وهى مسيرة كانت قد بدأت منذ بداية التوسع الاستعمارى الاوروبى ، ولاتزال مستمرة وبخطوات حثيثة جدا . بحيث أصبح معها مصطلح كلمة (الغرب) لا معنى له من الناحية الحضارية لدى كل البشر باســتثناء المؤرخين . ينظر :

J.M. Robets, the Triumph of the west, London 1985. p. 431.

المرأة العربية والافريقية
فى اطار حركات التحرر الوطنى

دراسة حالة : فلسطين وجنوب أفريقيا

ا. د. عواطف عبد الرحمن

بذور التحالف الصهيونى ــ العنصرى :

قد يبدو ظاهريا أن أساس التحالف الذى يقوم عليه محور تل ابيب ــ بريتوريا لا ينسجم تماما على الأقل فى نظر الغرب مع التاريخ المختلف لكل من الحركة الصهيونية فى فلسطين وحركة الافريكانز المسيطرين على سياسة جنوب افريقيا منذ عام ١٩٤٨ . ذلك ان الأساس الايديولوجى لكل منهما كان مخالفا للاخر فالافريكانز كانوا يرتبطون ارتباطا وثيقا بالنازية خلال الثلاثينات والاربعينات بينما لعبت السياسة النازية التى كانت تهدف الى ابادة اليهود دورا حاسما فى التعجيل باقامة وطن قومى لليهــود فى فلسطين . وعلى الرغم من ذلك فقد حرصت اسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨ على المحافظة على العلاقات الطيبة مع حكام جنوب افريقيا ابتداء من مالان حتى فورستر وهؤلاء لهم تاريخ خاص يتميز بالتزامهم بأكثر اتجاهات الافريكانز تطرفا فى معاداة الافريقيين وفى معاداة السامية على السواء ولكنهم تخلوا عن معاداة السامية على الأقل من الناحية العلنية وذلك حرصا على الهدف الأسمى وهو المحافظة على سيادة البيض . وترتبط اسرائيل وجنوب افريقيا ارتباطا وثيقا فى كافة الميادين الاقتصادية والعسكرية وشئون الأمن والمخابرات وكذلك فى المجال السياسى والثقافى . ورغم وضوح هذه العلاقات المتعددة الجوانب بين كل من اسرائيل وجنوب افريقيا الا ان رصد هذه الحقيقة مهما كانت أهميتها لا تقدم لنا تفسيرا علميا شاملا لأسباب الصلة الوطيدة بين النظامين . فالواقع أن العلاقة بينهما تنطوى على جذور أعمق بكثير من العلاقات المتبادلة سواء فى المجال السياسى أو الاقتصادى والعسكرى . فالواقع أن هناك ادراك لدى

حكام هاتين الدولتين اى اسرائيل وجنوب افريقيا فان هناك تشـابه كبير بينهما وذلك بالرغم من وجود اختلافات فى تاريخ كل منهما واختلافات لاتزال موجودة حتى اليوم فاسرائيل مثلا ليست لديها مشكلة أهل البلاد على نفس النطاق الموجود فى جنوب أفريقيا لأنها طردت غالبية الفلسطينيين . كذلك يختلف مفهوم التمايز العنصرى بالنسبة لكل منهما ففى جنوب افريقيا يكفى ان يكون المرء ابيضا بينما بالنسبة لاسرائيل يكفى أن يكون يهوديا ولكن يكمن التشابه فى كونهما انظمة استيطانية تعتمد على أقليات أجنبية زرعت بالقوة فى اراضى شعوب تناضل من اجل استعادة حقوقها الوطنية(١) .

ولا يمكن فى هذا الصدد اغفال الدور الذى قامت به الجالية اليهودية فى جنوب افريقيا فى دعم العلاقات بين حكومتى اسرائيل وجنوب افريقيا (هاجر الى اسرائيل حتى منتصف السبعينات حوالى ١٠ آلاف يهودى من جنوب افريقيا) .وعلى أساس هذه العلاقات أمكن دعم الصلات المباشرة بين الايديولوجيتين أى بين الذين ينادون بالتفرقة العنصرية وبين زعماء الحركة الصهيونية داخل اسرائيل ذاتها .

ولقد كانت هناك أوقات تباعدت فيها مصالح الدولتين مما أدى الى تعكير صفو العلاقات بينهما مؤقتا وخصوصا فى الفترة التى توطدت خلالها العلاقات، بين اسرائيل والدول الافريقية المستقلة ولكن لم يؤثر ذلك على طبيعة العلاقة بينهما والتى تستند الى السمات المشتركة بينهما . فقـد استطاعت هذه العلاقة أن تتطور على النحو الذى تشير اليه ارقام التجارة وخصوصا تجارة الماس وتصدير الأسلحة والتعاون العسكرى ضد حركات التحرر فى فلسطين المحتلة وناميبيا وجنوب افريقيا عـلاوة على تعاونهما المستمر فى خرق قرارات الأمم المتحدة . وهذا التطور يرجع فى الأساس الى أوجه الشبه الكامنة بين النظامين فالتفرقة العنصرية والصـهيونية ايديولوجيتان عنصريتان . وعلى الرغم من أن كل منهما تزعم انها تسـتمد تبريرها من العهد القديم الا أن مواقفهما الحالية وهى المواقف التى تشكلت داخل اطار الاستعمار الاستيطانى هى التى حددت السمات التى يتميز بها

---

(١) انظر : بيتر هيلر : اسرائيل وجنوب افريقيا — فى (الصهيونية والعنصرية) ، اعداد احمد يوسف القرعى ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ، يناير ١٩٧٧ ، ص ٨٨ — ٩٠ .

كل منهما وهويته وكذلك العلاقة الوثيقة التى تربط بينهما باعتبارهما كيانين عنصريين يستمد كل منهما وجوده من تشريد شعوب أخرى . مما يجعل التحالف بينهما ذا طابع استراتيجى طويل المدى(٣) .

ممارسات القهر العنصرى والصهيونى :

يعد القمع القاسم المشترك لنظامى بريتوريا وتل ابيب فى معاملتهما اليومية للسكان الأصليين فى فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا وفى جنوب لبنان وناميبيا .

ففى فلسطين المحتلة يكاد لا يمر يوم واحد دون أن تتعرض الصحف العالمية الى أعمال القمع والاضطهاد التى تمارسها سلطات الاحتلال الصهيونى ضد سكان الأراضى العربية المحتلة هذا القمع يأخذ أشكالا مختلفة : منع التجول فى المخيمات ، اطلاق النار على المتظاهرين وقتل الأطفال والنساء ، مداهمة منازل المدنيين ، الاعتقالات على نطاق واسع ، تعذيب السجناء وضع مواد كيماوية فتاكة فى مياه الشرب التى يستهلكها سكان الأراضى المحتلة وأخيرا الاستيلاء على ٨٠٪ من مصادر مياه الضفة الغربية المحتلة فى حين أن المناطق المزدحمة بالسكان العرب تواجه حاليا نقصا خطيرا فى مياه الشرب والرى . فضلا عن الاعتداءات المتكررة على الأماكن المقدسة وطمس المعالم الثقافية والحضارية للاراضى العربية المحتلة(٢) .

وفى جنوب افريقيا يعانى الستة وعشرون مليونا من السكان السود الذين يمثلون ما يزيد عن ٧٠٪ من سكان البلاد من نفس المعاملات التعسفية والمضايقات اليومية التى يمارسها ضدهم الحكام البيض فى بريتوريا . وتؤكد التقارير الواردة من جنوب افريقيا أن الاعتقالات بين صفوف أبناء شعب جنوب افريقيا من الافريقيين تجاوزت ٤٧١ الفا عام ١٩٨٤ وذلك طبقا للقانون العنصرى حول « مراقبة السود فى المناطق الخاصة بالبيض »(٤) علما بأن هذه الاعتقالات تهدف عادة الى تشريد هؤلاء نحو المناطق النائية

---

(٢) المصدر السابق : ص ٩١ — ٩٤ .
(٣) صحيفة لوموند الباريسية ٧ نوفمبر ١٩٨٢ .
(٤) صحيفة لوموند ٢٦ فبراير ١٩٨٣ .

المعروفة بالبانتوستان . وبرغم كل التنديدات الصادرة عن المنظمات الدولية التى تدافع عن حقوق الانسان وبرغم كل ما تكتبه الصحافة الغربية الحرة لفضح هذه الأساليب يؤكد كل مرسلى الصحف الأجنبية فى بريتوريا ان النظام العنصرى يتمادى فى اعتداءاته وتجاوزاته فى حق المواطنين السود .

وعلاوة على القوانين الاستثنائية التى تمنع اى مواطن اسود من التنقل والعمل فى مناطق البيض اذا كان لا يملك فى حوزته ترخيصا بهذا الصدد . فقد واصل نظام جنوب افريقيا برغم الانفتاح الامريكى سياسة التشريد الجماعى للسكان السود نحو المناطق المقفرة اقتصاديا والاعتقالات غير القانونية والتوقيفات الطويلة بدون محاكمات وابعاد المعارضين فضلا عن تعدد القوانين القسرية والقمعية فى مجالات حرية الصحافة والاجتماعات والتجمعات »(٥) .

ويسعى النظام العنصرى ايضا الى قلب موازين النظام الديموجرافى لصالحه فى البلاد . فقد اكدت الصحف الغربية فى الصيف الماضى أن بريتوريا قامت بحملة كبيرة للحد من النسل لدى السود فى جنوب افريقيا . وتقول صحيفة ليبراسيون الفرنسية أن ٤٠٪ من النساء السود فى جوهانسبورج يستعملون حبوب منع النسل رغما عن ارادة ازواجهن ذلك ان الأربعة ملايين من البيض فى جنوب افريقيا الذين لا يمثلون سوى ١٧ من مجموع السكان مهددون ديمغرافيا أمام نمو المواطنين السود الذين سيتضاعف عددهم خلال العشرين سنة المقبلة (من عشرين الى أربعين مليونا حسب التقديرات الأخيرة) . حيث ستصل نسبة البيض الى أقل من عشرة بالمائة(٦) .

العدوان والتوسع على حساب الجيران :

استكمالا لسياسة داخلية قوامها القهر والقمع يتبع الكيانان فى تل أبيب وبريتوريا سياسة خارجية تعتمد فى الأساس على العدوان والتوسع على حساب جيرانهما فى منطقتى الشرق الأوسط وافريقيا الجنوبية .

ففى فلسطين المحتلة اعتمد الكيان الصهيونى منذ نشأته فى ١٩٤٨ على

---

(٥) المصدر السابق ، ٣٠ نوفمبر ١٩٨٢ .
(٦) صحيفة ليبراسيون الباريسية ، ٢١ اغسطس ١٩٨٢ .

اسلوب الاعتداءات المتكررة والعدوان الدائم على جيرانه من البلدان العربية متذرعا بمقتضيات أمنية من أجل تبرير مشروعية هذه الممارسات الوحشية ، ابتداء بعدوان ٤٨ ومذابح دير ياسين النكراء والمشاركة فى العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ ومرورا بالحرب التى شنها الصهاينة فى يونيو ١٩٦٧ ضد الاردن ومصر وسوريا وانتهاء بضم الجولان والاعتداءات المتكررة على جنوب لبنان والتى انتهت بغزو لبنان وبمذابح صبرا وشاتيلا واحتلالهم لجنوب لبنان وتصفيتهم للوجود العسكرى الفلسطينى فيه . فى الواقع ان الكيان الصهيونى الذى يعتمد أسلوب العدوان الدائم ومنطق القوة ضد جيرانه مبررا ذلك بضرورات أمنية لا أساس لها من الصحة يرمى الى ضرب قدرات المنطقة بأكملها حتى تبقى على الدوام تحت رحمة سياطه والى تحقيق مشروع اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات الذى نادى به قادة الصهيونية الأوائل. وبالتالى فان ممارسات الصهاينة ليست سوى امتداد طبيعى لنشاطات الامبريالية العالمية الرامية الى ضرب حركات التحرر والى تكبيل شعوب العالم الثالث حتى يمكن نهب خيراتها وثرواتها الطبيعية دون مواجهة اية رادع .

وتتجلى نفس الأساليب والمرامى فى منطقة افريقيا الجنوبية حيث يمارس نظام بريتوريا العنصرى بانتظام على مرأى ومسمع من العالم بأكمله عدوانه ضد البلدان الافريقية المجاورة وبهذا الصدد تقول صحيفة ليبيراسيون « ان ما يزيد عن ١٥ دولة افريقية اى ثلث بلدان القارة السوداء تواجه بطريقة أو بأخرى ضربات هجمة اليأس التى تشنها بريتوريا . خمسة من بين هذه البلدان توجد على خط المواجهة انغولا وموزمبيق وهما البلدان اللذان يعانيان بشكل اكبر من وطأة الضغوط العسكرية ثم زمبابوى ومالاوى وزامبيا وهى ثلاثة بلدان مهددة بالاختناق الاقتصادى الذى تفرضه عليها جنوب افريقيا(٧) .

اما فى زمبابوى حيث تجرى عملية اخماد الفتن العنصرية فان بريتوريا تواجه أخطر تفنيد لسياستها . لأن نجاح موجابى فى سياسته الرامية الى المصالحة بين السود والبيض سوف يأتى على ما تبقى من مصداقية نظام التمييز

---

(٧) المصدر السابق ١٧ فبراير ١٩٨٢ .

العنصرى فى جنوب افريقيا . لذلك فان بريتوريا تسعى بكل وسيلة الى افشال هذا المسار فى زمبابوى .

وفى ناميبيا يتميز الموقف بتعنت بريتوريا الدائم أمام الجهود الرامية الى انجاح المفاوضات الرامية الى ايجاد تسوية قوامها تمكين الشعب الناميبى من الحصول على استقلاله وبرغم وساطة رئيس زامبيا « كواندا » الذى التقى مرتين مع قيادات النظام العنصرى لتسوية المشكلة الناميبية وبرغم اللقاءات التى تمت فى جزر الراس الأخضر بين مسؤولين من جنوب افريقيا وانغولا فضلا عن ابداء بلدان المواجهة استعدادها لايجاد تسوية عادلة للقضية الناميبية فان بريتوريا تمادت بفضل الدعم الدبلوماسى الامريكى لها فى عنادها واضرارها على افشال كل محاولة ترمى الى منح الشعب الناميبى حقه فى تقرير مصيره .

أوضاع المراة فى فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا

الأمم المتحدة وحقوق المراة :

وضعت الأمم المتحدة نصب عينيها تحقيق المساواة بين الرجل والمراة فى الحقوق والواجبات وفرص الحياة وفيما يجب لكل منهما من الاحترام والعدل فى الاطار (الانسانى) كما جاء فى ديباجة الميثاق ، ونصت عليه المواد ١٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، فتكونت لجنة المراة من الدول الأعضاء عام ١٩٤٦ للعمل على مساواة المراة بالرجل فى ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم والحقوق المدنية والاجتماعية . هذا فضلا عما نص عليه الميثاق الدولى لحقوق الانسان ، واعلان القضاء على التمييز ضد المراة ، ثم الاعلان الخاص بحماية النساء والأطفال عند اى طارىء أو فى النزاع المسلح كما تناولت بعض أجهزة الأمم المتحدة حقوقا معينة للنساء كالاتفاق الخاص بالحقوق السياسية للمراة (١٩٥٢) . والاتفاق حول جنسية الزوجة (١٩٥٧) والاتفاق الخاص بتحديد سن الزواج ، وتسجيله واحترام رغبة المراة فى الرفض أو القبول (١٩٦٢) ثم التوصيات الخاصة بهذه الحقوق (١٩٦٥) واخيرا الاتفاق بمنع البغاء أو التجارة بالأفراد (١٩٥٠) تم الاتفاق الاضافى بمنع الرق وتجارة الرقيق أو ممارسة اى عمل من هذا القبيل (١٩٥٦) . كما أدانت اليونسكو أى تفرقة بين الرجل والمراة فى التعليم (١٩٦٠)(٨) .

---

(٨) انظر : مطبوعات لجنة المراة — الأمم المتحدة — رقم ٦٨ ، ٧٨ لعام ١٩٧٩ ، أرشيف المركز الاعلامى للامم المتحدة ، القاهرة .

ولعل ابرز ما قامت به الأمم المتحدة من العمل على تقدم المراة واقرار حقوقها هو ما أقرته الجمعية العامة بجلستها فى ٧ نوفمبر ١٩٦٧ باعلان القضاء على أى تفرقة ضد المراة ، فقد جاء فيه : انه بالرغم مما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة ، والاعلان العالمى لحقوق الانسان ، والمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الانسان ، وما عرضت له أجهزة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة بهذا الشأن ، وبالرغم مما حققه مبدأ المساواة فى الحقوق من تقدم ، فان المراة مازالت تعانى الكثير من الوان التفرقة والتمييز ضدها .

ولكى توضع المعايير والمبادىء التى أقرها الاعلان وتوصيات الأمم المتحدة موضع التنفيذ وتكون لها قوة الزامية فقد صيغ مشروع اتفاقية للقضاء على التمييز ضد المراة تبلورت فيه جميع المبادىء التى سبق أن صدرت عن مختلف أجهزة الأمم المتحدة نيابة عن المجتمع الدولى . وقد صدرت هذه الاتفاقية فى ديسمبر ١٩٧٩ وأعلن عن صدورها فى مؤتمر المراة العالمى الذى انعقد فى كوبنهاجن ١٩٨٠ لمناقشة ما تم تنفيذه خلال الأعوام الخمسة التى مضت على اعلان بدء عقد المراة العالمى فى المكسيك عام ١٩٧٥ .

وقد تضمنت مقدمة هذه الاتفاقية عرضا عاما لأسباب صدورها .

وقد جاء فى هذه المقدمة :

« ان الجمعية العامة اذ ترى أن احد مقاصد الأمم المتحدة المنصوص عليها فى المادتين ١ و٥٥ من الميثاق هو تعزيز الاحترام العالمى لحقوق الانسان والحريات الأساسية دون تمييز بما فى ذلك التمييز على أساس الجنس . واذ نشير الى أن الجمعية العامة قد أصدرت فى ٧ نوفمبر ١٩٦٧

اعلان القضاء على التمييز ضد المراة .

واذ نشير بوجه خاص الى قرارها الصادر فى ديسمبر ١٩٧٨ بشأن صياغة اتفاقية للقضاء على التمييز ضد المراة .

واذ نرى أن التمييز ضد المراة يتنافى وكرامة الانسان ورفاهية المجتمع ويشكل عقبة فى سبيل التحقيق التام لقدرات المراة .

فانها تؤكد أن المراة والرجل يجب أن يشتركا ويسهما على أساس

المســاواة فى عمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وأن ينعما بالتساوى فى الأحوال المعيشية المحسنة واقتناعا منها بأنه من الضرورى تأمين الاعتراف العالمى قانونا بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة .

وتشدد على أهمية استئصال جذور التميز العنصرى ، وجميع أشكال العنصرية ، والاستعمار الجديد ، والعدوان والاحتلال الأجنبى والسيطرة الأجنبية والتدخل فى الشئون الداخلية للدول ، أمر أساسى بالنسبة لتمتع الرجال والنساء بحقوقهم تمتعا كاملا(٩) .

كما تؤكد هذه الاتفاقية على أن تحقيق المساواة بين المرأة والرجل يتطلب أحداث تغيير فى الدور التقليدى المتعارف عليه بالنسبة للرجل . والحقيقة أن هذه المقدمة قد لمست كل ما يجب أن يتحقق وما يجب ان يختفى من على خريطة العالم من أجل تحقيق المساواة أو بمعنى آخر زوال التميز ضد المرأة .

وقد جاءت بنود الاتفاقية الثلاثين فى ستة أجزاء ولعله من المفيد أيضا أن نذكر التعريف الذى قدمته هذه الاتفاقية فى الجزء الاول لمصطلح التميز ضد المرأة .

جاء « أنه يعنى اى تفرقة أو استعباد أو تقييد ويتم على أساس الجنس. ويكون من اثاره أو أغراضه النيل من الاعتراف للمرأة على أساس تساويها بالرجل — بحقوق الانسان والحريات الأساسية فى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والمدنية أو فى أى ميدان آخر ، أو ابطال الاعتراف للمرأة بهذه الحقوق أو تمتعها بها أو ممارستها لها بغض النظر عن حالتها الزوجية » .

ومن المهم أيضا ابراز ما جاء فى هذه البنود من ناحية واجب الدولة الموقعة على الاتفاقية من أجل تحقيق سياسة القضاء على التمييز ضد المراة وقد جاء ذلك فى ٧ فقرات تدور كلها حول مسئوليات الدول فيما يلى :

---

(٩) انظر : اتفاقية القضاء على اشكال التميز ضد المرأة — الأمم المتحدة ، ١٩٧٩ .

* ان تجسد مبادىء المساواة فى دساتيرها الوطنية وتشريعاتها المناسبة اذا لم يكن هذا المبدأ قد ادمج فيها حتى الآن .

* اقرار الحماية القانونية لحقوق المرأة على قدم المساواة مع الرجل وضمان الحماية الفعالة عن طريق المحاكم .

*التزام السلطات والمؤسسات بالامتناع عن الاضطلاع بأى عمل او ممارسة تمييزية ضد المرأة .

* اتخاذ جميع التدابير اللازمة والمناسبة . بما فى ذلك التشريع لتعديل أو الغاء القوانين والأنظمة والاعراف والممارسات القائمة والتى تشكل تمييزا ضد المرأة .

* الغاء جميع أحكام قوانين العقوبات الوطنية(١٠) .

والواقع ان هذه الاتفاقية ليست الوحيدة التى تتناول حقوق المرأة ومبادىء مساواتها بالرجل مع الأخذ فى الاعتبار التميز فى طبيعة المرأة ولذلك تضمنت الاتفاقية المسائل الخاصة بالأمومة وحقوقها .

ويلاحظ انه رغم تعدد الاتفاقيات التى تصل الى ٤٤ اتفاقية حالية تعالج قضايا المرأة ومشاكلها — ان هذه الاتفاقيات لم تغط كل المشاكل الخاصة بالمرأة مثل قوانين الأسرة التقليدية وتأثيرها على أوضاع المرأة وأيضا العنف الجسدى ضد المرأة .

ويمكن القول ان هناك ١٧ اتفاقية صدرت عن الأمم المتحدة ، واتفاقية واحدة عن اليونسكو تتعامل مع مشاكل المرأة وحقوقها مباشرة . ثم حقوق المرأة السياسية والزواج ، والحد الأدنى لسن الزواج ، وجنسية المرأة المتزوجة والغاء جميع اشكال التفرقة العنصرية ، والابارتيد وتحريم السرقة والتجارة فى البشر .

أما الاتفاقية الصادرة عن اليونسكو ، فخاصة بضرورة انهاء التفرقة وتطوير المساواة فى الفرص والمعاملة للجميع فى مجال التعليم .

---

(١٠) المصدر السابق .

وهناك ٢٦ اتفاقية صدرت عن منظمة العمل الدولية ، تتناول أساسا ظروف العمل والحقوق الخاصة بعمل المرأة ، وحماية الأم ، وحقوق المرأة فى الريف .

وحتى الآن لم توقع على هذه الاتفاقية ٧٦ دولة منها جنوب افريقيا واسرائيل ولعل أسوا مظاهر التفرقة والتميز بمعناه الشامل تلك التى تعانى منها المرأة الفلسطينية فى ظل الحكم الصهيونى فى فلسطين المحتلة والمرأة الافريقية فى ظل النظام العنصرى فى جنوب افريقيا وقد يستلزم هذا الكشف عن حقيقة الأوضاع النسائية الفلسطينية والافريقية فى مجالات التعليم والانتاج والمشاركة فى النضال الوطنى فى ظل النظامين الصهيونى والعنصرى ولكن هناك صعوبة موضوعية تحول دون الحصول على المعلومات الدقيقة فى هذا الشأن وذلك بسبب الحظر الذى تفرضه تلك الأنظمة على المعلومات التى تتعلق بالواقع المأساوى للشعبين الفلسطينى والافريقى فضلا عن أن الاحصاءات الرسمية التى تصدرها تلك الحكومات لا تشمل أوضاع المرأة . كما أن واقع الشتات الذى يعيشه الشعب الفلسطينى يضاعف من هذه الصعوبات التى تزداد ازاء ندرة الدراسات الميدانية لواقع المرأة الفلسطينية .

ولذلك سوف نقتصر محاولتنا على رصد المؤشرات العامة بهدف استخلاص الملامح الأساسية لخريطة الواقع النسائى العربى والافريقى فى كل من فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا .

أوضاع المرأة الفلسطينية فى الأراضى المحتلة :

يخوض الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة نضالات عدة ففى حين تقف كافة فئاته وشرائحه بقوة وصلابة لمقاومة الاضطهاد القومى المتمثل فى سياسة التجويع والتفريغ والقهر تخوض المرأة الفلسطينية نضالات مستمرة ضد الاضطهاد الاجتماعى الذى عانت منه كثيرا والذى تمثل فى خضوعها الطويل وتبعيتها لسلطة الرجل سواء كان زوجها أو والدها أو أخاها مما ابقاها طويلا فى عزلة وسلبية وأبعدها عن ممارسة ادوارها الأخرى سواء فى مجال الانتاج الاجتماعى العام أو المشاركة الفعالة فى عمليات التغيير الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتتواكب نشأة الحركة النسائية

الفلسطينية مع تصاعد الحركة الوطنية الفلسطينية ضد الانتداب البريطانى والغزو الصهيونى وهى تعود الى عام ١٩٢١ حيث نشأت جمعية (نادى السيدات العربيات) ومركزها القدس لتدارس مهامها فى رفع مستوى المراة فى مجالى التعليم والتدريب المهنى . كما مارست مهامها فى تقديم العون الاجتماعى للمجتمع الفلسطينى ، الا انه لم يمض عامين على نشأة هذه الجمعية حتى اجبرت على التوقف عن ممارسة نشاطها الاجتماعى الذى اقتصر على ما يسمى (لجان الاسعاف) وذلك لجمع التبرعات لغايات اجتماعية وقومية .

وفى عام ١٩٢٩ تم انشاء أول نقابة فلسطينية تحت اسم (الاتحاد النسائى العربى) وقد شارك هذا الاتحاد فى النضال الوطنى الفلسطينى ضد الانتداب البريطانى وانتشار الحركة الصهيونية على الأراضى الفلسطينية ومارس دوره كجزء أساسى فى اطار انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ .

وفى عام ١٩٣٨ دعى (الاتحاد النسائى العربى) الى عقد مؤتمر عام للمراة العربية وكان ذلك بالاتفاق مع المناضلة الرائدة هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائى العربى العام فى البلاد العربية ، وبالفعل عقد هذا المؤتمر فى مدينة القاهرة تحت شعار (الدفاع عن فلسطين) من أجل فضح سياسة الانتداب البريطانى ومؤامراته لتهويد الأرض(١١) .

وفى عام ١٩٤٨ استكملت المراة الفلسطينية دورها فى النضال الى جانب الرجل وارتقت به الى اعلى درجاته حيث حملت البندقية من اجل الدفاع عن وطنها وفى نفس الوقت استمرت فى تقديم خدماتها فى الحقل الانسانى فكانت تقوم بتضميد جراح المناضلين ورعاية اسر وابناء الشهداء . ومن هذا نقول بأن كفاح المراة الفلسطينية حاليا فى الأراضى المحتلة وعلى كافة المستويات ليس الا امتدادا طبيعيا لدورها التاريخى فى النضال كجزء لا يتجزأ من الوطن الفلسطينى .

هذا وقد ازدادت معاناة المراة الفلسطينية بعد الاحتلال الاسرائيلى

---

(١١) انظر : جمعية الهلال الاحمر : أوضاع المراة الفلسطينية ونشاطاتها فى الأراضى المحتلة ، ورقة مقدمة الى المؤتمر الدولى الأول للمراة العربية والافريقية ، القاهرة ، فبراير ١٩٨٥ .

١٩٦٧ لما تبقى من الأرض الفلسطينية حيث يستخدم الحكم العسكرى الاسرائيلى صلاحيات ادارية واسعة جدا ، وشبكة خاصة من المحاكم العسكرية تحت ستار الحفاظ على ما يسمونه بالأمن ، ويرتكب الحكم العسكرى الصهيونى صورا عديدة من الارهاب والاضطهاد ضد الأقلية العربية فى الشريحة المحتلة عام ١٩٤٨ وفى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلتين لا يجرى مثيلها الا فى الدول التى تسيطر عليها الأقلية البيضاء العنصرية مثل جنوب افريقيا وناميبيا .

ان المرأة الفلسطينية التى تمثل شريحة أساسية فى المجتمع الفلسطينى حرمت بسبب الاحتلال الصهيونى من كافة حقوق الانسان التىتنص عليها المواثيق والأعراف الدولية ويتمثل ذلك فيما يلى :

١ — سلب حقوقها فى الملكية (المنقولة وغير المنقولة) ، ومنعها من استخدامها أو منعها من الاتصال بشخص آخر .

٢ — انتهاك حقوقها المهنية وخصوصا فى الاجهزة الاعلامية كالصحافة مثلا وابرز مثال عمليات الاعتقال المتكررة وفرض الاقامة الجبرية على الصحفية رموندا الطويل وغيرها .

٣ — الاقامة الجبرية فى مناطق يحددها الحكم العسكرى .

كما يفرض الحكم العسكرى الاسرائيلى من خلال المادة (١١١) الاعتقال الادارى على كل شخص تقرر سلطات الحكم العسكرى لسبب ما ، اعتقاله فترة غير محدودة دون محاكمة ، ودون توجيه اى تهمة اليه وقد سن المادة (١١٢) خصيصا حتى يتمكن من طرد اى مواطن عربى خارج البلاد ونفيه .

واستغل الحكم العسكرى الاسرائيلى هذه المواد التى ضمها لما يسميه بالقانون لطرد عائلات وعشائر بكاملها . كما يمارس الاسرائيليون عمليات قمع جماعية ضد العرب فى القرى واحياءالمدن حيث يجرى غرض منع التجول والقيام بحملات تفتيش ارهابية ، واخراج السكان من منازلهم ووضعهم فىالساحات العامة لمدة طويلة يتعرضون أثنائها الى قسوة الطبيعة بالاضافة الى قسوة الارهاب الصهيونى المنظم لدفعهم على الهجرة والنزوح .

ويطبق الحكم الصهيونى نفس المشروع المشبوه الذى يسمى مشروع نقل وتوطين السود الذى سنته سلطات جنوب افريقيا لانتزاع الأفارقة من أماكنهم الطبيعية ليلقى بهم فى أماكن يختارها النظام حيث لا يجدون بالفعل أى مصدر للعيش(١٢) .

قد اتخذ دور المرأة الفلسطينية الوطنى أبعادا جديدة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ حيث دفعتها فظائع الاحتلال الاسرائيلى الى المشاركة فى قيادة النضال المدنى فى الأراضى المحتلة فخرجت على رأس أول مظاهرة نسائية فى غزة فى شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ احتجاجا على الفظائع الاسرائيلية ضد العرب وفى أول اكتوبر من العام نفسه ألقت السلطات الاسرائيلية القبض على فاطمة برناوى بتهمة القاء قنبلة فى سينما « صهيون » وبسبب انتمائها لحركة التحرير الوطنى الفلسطينى وقد حكم عليها بالسجن مدى الحياة .. وقد أظهرت جرأة بالغة لدى محاكمتها وكانت من الطلائع النسائية فى تطور أوجه نضال المرأة .

وقد شكلت المرأة نواة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال عام ١٩٦٨ حيث التحقت الكثيرات بحركة المقاومة وحملن السلاح .. وفى شهر كانون ثانى عام ١٩٦٨ اعتقلت خمس فتيات من نابلس لاشتراكهن فى النضال المسلح وابوائهن مناضلين ينتمون الى حركة فتح .. وفى تشرين الأول ١٩٧٣ اعتصمت ثلاثمائة امرأة فلسطينية من اقارب السجناء فى نابلس وجنين وطولكرم وبير السبع .

وفى عام ١٩٧٤ خرجت النساء بمظاهرة تأييد لياسر عرفات لظهوره أمام الجمعية العامة للامم المتحدة بمناسبة مناقشة قضية فلسطين .

وفى عام ١٩٧٥ أعلن شمعون بيريز الوزير الاسرائيلى مشروع الادارة المدنية فقامت المظاهرات احتجاجا على ذلك واستمرت لمدة اسبوعين .

وقد شهد عام ١٩٨٢ سلسلة طويلة من الأحداث والمصادمات بين

---

(١٢) انظر : أمينة الخطيب : وحدة نضال المرأة الفلسطينية والافريقية ورقة مقدمة الى المؤتمر الدولى الأول للمرأة العربية والافريقية — القاهرة ، فبراير ١٩٨٥ .

المراة الفلسطينية وسلطات الاحتلال فى الأراضى المحتلة ذهب ضحيتها الكثيرات واعتقل الآلاف ومن أبرز هذه الاضرابات والمظاهرات والاعتصامات والمسيرات الاحتجاجية ما اشارت اليه الصحف التى تصدر فى الأراضى المحتلة . وهذه بعض الأمثلة :

١ — صحيفة القدس فى ١٩٨٢/١/١٣ منظمة نسائية فى الجولان توزع منشورات مناهضة لقرار ضم الجولان .

٢ — صحيفة القدس ١٩٨٢/١/٢٥ الهيئات النسائية وامهات ذوى المعتقلين تطالب بتحسين أوضاع المعتقلين .

٣ — صحيفة الفجر ١٩٨٢/٣/٢٥ — فرض نظام التجول على جنين ورفح والاضراب العام يعم غزة واستمرار المظاهرات العارمة فى مدن وقرى الضفة والقطاع مما أدى الى وقوع اصطدامات مع مواقع الجيش الاسرائيلى وجرحت كل من ملكية اسماعيل (١٤ سنة) وسوسن غايز رضوان (١٢ سنة) وفاطمة حسن السر (١٤ سنة) وهناء بولحية وهم من خان يونس.

٤ — صحيفة الشعب ١٩٨٢/٨/٨ اعتصام نسائى بالقدس احتجاجا على الغزو الاسرائيلى بلبنان .

وعلاوة على مشاركة المراة الفلسطينية فى قيادة النضال المدنى ضد الحكم العسكرى الاسرائيلى فى الأراضى المحتلة فقد شاركت فى تنفيذ العديد من العمليات المسلحة واستشهد منهن الكثيرات . كما قامت السلطات الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ بأبعاد عدد كبير من القيادات النسائية البارزة خارج الأراضى المحتلة باعتبارهم يشكلون خطرا على أمنها(١٣) .

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمراة الفلسطينية :

لا تزال مساهمة المراة الفلسطينية فى النشاط الاقتصادى محدودة

---

(١٣) انظر : لجنة العمل النسائى — رام الله : دراسة ميدانية حول أوضاع المراة الفلسطينية فى المناطق المحتلة — مجلد المراة والتنمية فى الثمانينات الصادر عن المؤتمر الاقليمى الثانى للمراة الخليجية ، الكويت ، ص ٩٢٧ — ٩٧٧ .

ويزداد انخراطها فى مجال العمل بازدياد تدهور الحالة الاقتصـــادية فى المناطق المحتلة . ولكن يلاحظ ان مجالات العمل المتاحة للمراة الفلســـطينية محدودة جدا وهى تنحصر فيما يلى :

١ — الأعمال المرتبطة بالمفهوم الاجتماعى الشائع حول دور المـــراة التقليدى (أعمال الخياطة — التنظيف — الطبخ — الأمومة) .

٢ — الأعمال البسيطة الروتينية مثل تعبئة الدواء والحلويات .

٣ — مجالات العمل التى تضم خبرات يدوية ومادية كالعمل فى الزراعة أو بعض الحرف اليدوية(١٤) .

ويمكن ارجاع ذلك الى عدة عوامل تتلخص فيما يلى :

١ — التفتت والتشتت الذى يعيشه المجتمع الفلسطينى والى ارتباط أوضاع التجمعات الفلسطينية الاقتصادية بأوضاع الأقطار المتواجدة فيها .. وبطبيعة العلاقات السائدة فى هذه الأقطار ودرجة تطورها .

٢ — والعامل الثانى له علاقة بالقيم الاجتماعية السائدة التى باتت تتقبل عمل المراة فى هذه المجالات (التعليم — الصحة — السكرتاريا) بلغت نسبة اللواتى تمارسن نشاطهن الاقتصادى فى قطاع الخدمات من مجمـــل القوة العاملة النسائية فى المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ اكثر من ٤٧٪ مقـــابل ٢٤٪ بين الذكور (عام ١٩٧٨) وفى الضفة الغربية تعمل نحو ٤٦٪ من مجموعات المستخدمات (الموظفات والعاملات بأجر) فى مجالات مهنية وفنية واكاديمية مقابل ٨٪ من الذكور من الفئة نفسها .. وفى غزة بلغت النسبة ٥ر٦٢٪ بين الاناث مقابل ٦ر٦٪ بين الذكور (١٩٧٩) وفى مخيمات لبنـــــان بلغت نسبة الاناث اللواتى يمارسن عملا فى المجال المهنى والفنى والاكاديمى وفى مجال الخدمات الأخرى نحو ٤١٪ من مجموع القوة العاملة النسائية .. مقابل ٢٢٪ بين الذكور فى حين بلغت هذه النسبة ٦٤٪ فى مخيم اليرموك ٢١٪ فقط بين الذكور (١٩٧٩) ونجد الظاهرة نفسها فى الأماكن الأخـــرى للتجمعات الفلسطينية .

---

(١٤) المصدر السابق ، ص ٩٣١ .

٣ — ان تقسيم العمل هذا .. المفروض على المراة الفلسطينية فى اماكن تواجد الشعب الفلسطينى المختلفة جزء من الواقع الطبقى وامتداد للتركيبات الاقتصادية الاجتماعية للمجتمعات التى يتواجد فيها شعبها ان وضع المراة الفلسطينية امتداد لظروف الاحتلال والاقتلاع والتشريد من جهة ولتركيبة المجتمعات العربية التى تعيش ضمنها التجمعات الفلسطينية .. ولطبيعة الدولة الصهيونية وسياستها التوسعية الاستيطانية منجهة أخرى .. ومن هنا ياتى التداخل الحاد بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية بالنسبة للمراة الفلسطينية والعربية .. فاضطهاد المراة وكافة اشكال التمييز او التفرقة التى تعرض لها هى جزء من الواقع الطبقى الذى تعيشه وانعكاس للايديولوجية السائدة .

٤ — ان بقاء الأمومة (رعاية الطفل والعناية البيئية) مهمة محصورة بالمراة يشكل القاعدة المادية لعدم المساواة بين الجنسين .. ولابد من تحويل الأمومة الى وظيفة اجتماعية لتأمين المساواة بين الرجل والمراة فى العملية الانتاجية .

ويعكس تقسيم العمل القائم بين الرجل والمراة اثاره السلبية على سائر الظواهر الاجتماعية مما يجعلها تساهم بدورها فى استمرارية التمييز ضد المراة فالزواج المبكر لا يزال العرف السائد .. فأغلبية النساء الفلسطينيات يتزوجن ما بين سن ١٤ــ١٩ (تتراوح النسبة ما بين ٦٠٪ ، ٧٥٪) يتزوج غالبية الرجال ما بين سن ٢٠ــ٢٩ (٦٥٪ الى ٧٥٪) وفى الضفة الغربية تبين من احدى الدراسات التى تناولت وضع مئة امرأة متزوجة أن ٧٥٪ منهن تتزوجن قبل سن العشرين وان أكثر من ٥٠٪ تزوجن من اقرباء لهن .. هذا رغم ان الهجرة بين الشباب من العوامل التى ساهمت فى تأخير سن الزواج فى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين .. ان نسبة التكاثر بين الشعب الفلسطينى لاتزال من أعلى النسب فى العالم .. وفى ظل غياب المؤسسات الاجتماعية الخاصة برعاية الطفولة .. وفى ظل التخلف والتشويه الاقتصادى اللذين يسودان المجتمعات العربية التى تتواجد فيها التجمعات الرئيسية للشعب الفلسطينى .. وفى ظل الايديولوجيا المسيطرة تقف أعباء الأمومة والمسئولية المنزلية كحواجز موضوعية امام مشاركة المراة الجديدة فى النشاط الاقتصادى وفى المجال الانتاجى غير التلقيدى .

المراة الفلسطينية فى مواجهة الغزو الثقافى الصهيونى (التعليم) :

تدرك اسرائيل ان العملية التعليمية ليست عملا محايدا بل هى عملية تهدف الى تغيير واعادة بناء للشخصية الوطنية بغية توجيه هذه الشخصية نحو مسئولياتها القومية والاجتماعية . ولذلك استحدثت الحكومة الاسرائيلية معوقات عديدة كى تحول بين ابناء الشعب الفلسطينى وخصوصا النساء وبين الاستمرار فى العملية التعليمية .

وتتلخص أهداف السياسة التعليمية الاسرائيلية فى المناطق العربية المحتلة فيما يلى :

١ — عرقلة عملية النمو الثقافى واعاقة تطويرها كما ونوعا فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

٢ — اعاقة التعاون المتبادل بين المؤسسات الاكاديمية والتعليمية وصولا الى تفكيك العلاقات الثقافية والوطنية بين سكان المناطق المحتلة .

٣ — استغلال قدرات الشباب الفلسطينى وتحويلها الى قوة عمل رخيصة تعمل فى دائرة الاقتصاد الاسرائيلى .

٤ — تهجير الكفاءات والكوادر العلمية .. التى ترفض التعاون مع السلطات الاسرائيلية .

كما تواجه اسرائيل محاولات الجامعات الفلسطينية لتطوير كلياتها وتوسيعها من أجل استيعاب أكبر عدد ممكن من الطلاب والطالبات (بخاصة أن هذه الجامعات تستوعب سنويا حوالى ٣٠٠٠ طالب وطالبة من أصل ١١٫٠٠٠ طالب وطالبة يجتازون المرحلة الثانوية) بفرض الأوامر العسكرية والتعديلات « القانونية » التى تستخدمها السلطات الاسرائيلية فى تحقيق أهداف سياستها التربوية تجاه التعليم فى المناطق المحتلة(١٥) .

---

(١٥) زيبورا طوبى وآخرون : المراة والتعليم فى الأراضى المحتلة ، ورقة مقدمة الى مؤتمر المراة العالمى بمناسبة انتهاء عقد المراة ، نيروبى ، يوليو ١٩٨٥ .

ورغم اشكال القهر المتعددة التى تمارسها السلطات الصهيونية ضد الشعب الفلسطينى ككل والمراة على وجه الخصوص لحرمانه من ممارسة أبسط حقوقه التى نصت عليها المواثيق العالمية والمحلية ومنها تحصيل العلم واكتسابه فان الجامعات الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة تخوض نضالا دؤوبا من أجل تكريس وجودها وذلك اقتناعا منها بأن القوانين والأوامر العسكرية الاسرائيلية لا تشكل سوى حلقة منحلقاتالقهر القومى والاجتماعى الذى تفرضه سلطات الاحتلال الصهيونى على أبناء وبنات الأرض المحتلة .

وضع المراة الافريقية فى ظل النظام العنصرى فى جنوب افريقيا :

قد يكون من المفيد الاشارة بايجاز الى ملامح النظام العنصرى المعروف بالابارتهيد الذى لا يكاد يطبق الا فى جنوب افريقيا وناميبيا وهو يعنى انعدام قيام صلات من أى نوع بينالمجموعات السكانية فى جنوب افريقيا ويشكل الافريقيون أغلبية السكان (٢٢ مليون) ويليهم الاسيويون (٥ر٣ مليون) ثم البيض سلالة المستعمرين والمهاجرين الأوروبيين (٣ مليون) ويشغل البيض قمة السلم الاجتماعى ويسيطرون على كافة مصادر السلطة والنفوذ السياسى والاقتصادى ويبلغ أجر العامل الابيض خمسة أضعاف أجر الافريقى الأسود. كما يملك البيض ٨٧٪ من الأراضى الخصبة ولا يبقى للافريقيين سوى الأراضى القاحلة الجرداء حيث يعيشون فى المعازل المعروفة بالبانتوسكان ولا يجوز لهم اجتيازها أو الدخول فى مناطق البيض الا باذن أو تصريح للعمل(١٦) .

وفى ظل هذا النظام تعيش المراة الافريقية محرومة من كافة الحقوق الانسانية .

لا تعانى المراة الافريقية من التفرقة العنصرية فحسب بل تعانى من التفرقة القائمة على الجنس اشد مما يعانى الرجل الافريقى من التفرقة انعنصرية . اذ تضع قوانين الابارتهيد كثيرا من القيود على اقامتها وعلى فرص العمل المتاحة لها وعلى حريتها فى التنقل مما لا يدع لها فرصة للاقتراب من مدن البيض ، فضلا عن الاقامة بها ، فاذا واتتها فرصة العمل فيها فان

---

(١٦) انظر : مجلة سيشابا لسان حال حزب المؤتمر الوطنى الافريقى، الأعداد : ديسمبر ١٩٨١ ، يونيو ١٩٨٢ ، يوليو ١٩٨٤ ، لندن .

أجرها يقل عن أجر الرجل الافريقى فى العمل الواحد بكثير . كما لا يتاح لها فرص البقاء أو الاقامة فى مناطق البيض الا لمدة قصيرة مقيدة بتصريح من المسئولين يلغى فى أى وقت ودون سبب .

وبينما تضطر الحاجة الرجل الأبيض الى العمالة الافريقية . فيسمح للافريقى بالاقامة المقيدة كنزيل غير مقيم ولمدة العمل فحسب . فانه لا يسمح له باصطحاب زوجتهوأولاده ، وعليه ان يبقيهم فى معازلهم الجرداء ، ولا يتاح له فرصة زيارتهم الا لمدة اسبوعين فى العام مما يدمر حياتهم الاسرية(١٧) .

أما المرأة السوداء المتعطلة فهى على حد قول جين كولز « نفاية لا حاجة انيها » فاذا قعد بها المرض أو أدركتها الشيخوخة أصبحت فريسة العزل والابعاد ، تحملها مع أمثالها (لوارى) الحكومة من المدن او من أرض الايواء التى تجاور أراضى البيض والمعروفة « بالبقع السوداء » حيث يلقى بهن فى بيوت عارية من غير أسقف تقام فوق أرض جرداء وعرة ، وفى مكان نـــاء عن اقامة البيض خال من كل وسائل الراحة او أى نوع من أنواع الخدمات العامة فلا طرق ولا مدارس ولا تليفون ولا وسيلة للاسعاف ، وفى تلك المعازل النائية تعيش اربعة ملايين امراة سوداء ، وعليهم أن يقمن بكل ما تتطلبه حياتهن من الغذاء والكساء لهن ولأطفالهنفضلا عن اداء الضرائب الحكومية المقررة(١٨) .

فاذا كانت المرأة الافريقية اكثر حظا ووجدت الزوج والحياة الأسرية فى مدينة من مدن البيض فانها تعيش تحت تهديد الابعاد لأى سـبب من الأسباب كالطلاق أو الترمل اذ تفقد حقها فى البقاء فى مسكنها ، فاذا كانت تعيش فى كنف ابويها قبل أن تتزوج ، فانه لا يسمح لها بالعمل ما لم تجد بيتا وهو ما يتعذر على المرأة الافريقية أن تحصل عليه ، فاذا اشتركت فى التظاهر السياسى أو فى عمل من اعمال الاضراب أو تعطلت ولم يعد لها عمل ، فانها تفقد حقها فى الاقامة ، ويقصى بها الىالمعازل .

---

(١٧) انظر : وثائق لجنة مناهضة التفرقة العنصرية ـ ادارة الشئون السياسية ومجلس الأمن ، الامم المتحدة ، نيويورك ، يونيو ١٩٧٦ .

(18) Jane Coles : Some Facts of life for Women in South Africa. The Committe against apar theid. New York. 1978. pp 8-11.

وتشير جين كولز فى تقريرها الذى أشرنا اليه أن التفرقة الثنائية التى تعانى منها المرأة الافريقية وهى تشمل الفرقة العنصرية والتفرقة على أساس الجنس قد كتبت عليها منذ مولدها وعليها أن تواجهها فى كل أدوار حياتها فكل حق من حقوقها قد تحدد مسبقا ولا يوجد أى شكل من أشكال المساواة بينها وبين الرجل وما من سبيل لتغيير ذلك الا بتغيير المجتمع من أساسه .

الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمرأة الافريقية :

من أسوأ ما تتضمنه قوانين الابارتهيد حرمان الملونين والسود من أراضيهم واضافتها الى أراضى البيض ، وحين ينتزع السود من أراضيهم يوضعون فى المعازل أو فى أراض جافة مقفرة . وهذه المعازل قد أعدت فى الواقع للمسنين من الرجال والنساء والأطفال عامة ممن لا يحتاجهم سوق العمل فى مؤسسات البيض ، وكثيرا ما يعوزهم المأوى فيقيمون فى الخيام ، حين تغفل السلطة اقامة مساكن لاستقبالهم . فاذا حدث وأعدت السلطة لهم المساكن فانها تكون من السوء بدرجة لا تليق بسكنى الآدميين .

وتقاسى المرأة حين تضطلع بخدمة المسنين والأطفال كثيرا فهى المسئولة عن اعالتهم ، وفى مثل تلك المعازل الجافة البعيدة عن موارد الماء عليها أن تحمله من منابعه النائية وغالبا ما تكون حفرا بقاع الأنهار الجافة واذا قدر لها أن تعيش فى المدن فان قوانين الابارتهيد تعمل على حرمانها من كل وسائل الراحة ، فالأحياء المعدة للملونين فى مدن البيض تفتقر الى الماء ووسائل الاضاءة . والمنازل لا توفر لقاطنيها الراحة أو الحياة الخاصة . ولا تستطيع المرأة أن تملك فيها دارا الا بالايجار ، وقد حرمت حتى هذا الحق منذ عام ١٩٦٨ فاذا ترملت كان عليها أن تنزح عنها وتعود الى حياة المعازل . أو تعيش فى كنف رجل محظية أو خليلة ، فاذا عادت تكون قد فقدت مسكنها(١٩) .

التعليم :

لا يلقى الملونون فى جنوب افريقية أى نوع من الرعاية التعليمية

---

(١٩)انظر : حسين فوزى النجار : المرأة والابارتهيد فى جنوب أفريقيا — مركز مناهضة العنصرية ، الامم المتحدة ، نيويورك ، أغسطس ١٩٧٩ ، ص ١٧ — ١٩ .

واكثرهم لا يتلقى أى نوع من التعليم الا فى مدارس الارساليات التبشيرية ومع ذلك فان عليهم أن يقوموا بنفقات تعليمهم ، وكثيرا ما يتعذر على الطفل الافريقى أن ينال نوعا من التعليم لعجز أسرته عن القيام بنفقات تعليمه ، فاذا استطاعت الاسرة أن تقوم بنفقات تعليم أبنائها فانها تقدم تعليم البنين على البنات ، ولما كان الفقر هو العائق الأساسى للتقدم فى المجتمعات الافريقية فانه غالبا ما يكون السبب فى حرمان البنات من التعليم ، هذا فضلا عن هبوط مستوى التعليم وقصوره فى مدارس الملونين .

ومن المألوف أن تنزح من نالت حظا من التعليم من بين النسوة الافريقيات للعمل فى المدن فلا يبقى فى الريف غير الأميات ، ونادرا ما تجد زوجه قد نالت حظا من التعليم فى الريف . ولما كان تعليم المراة الافريقية قاصرا غاية القصور فانها لا تنال حظا من الوظائف العامة ، ولا تستطيع بالتالى الارتفاع بمستواها المادى ومادام هذا الحرمان قائما فانها لا تستطيع أن تتخطى سلك الدائرة المقفلة من العجز والحرمان ومازالت اعداد المتعلمات من البنات دون اعداد المتعلمين من البنين بمراحل . ولم يكن حتى عام ١٩٧٣ من النساء الافريقيات اللواتى نلن تعليما عاليا غير أربع طبيبات ومدرستين بالجامعة وأربع أمينات للمكتبات .

العمل :

ونادرا ما تحصل المراة الافريقية على العمل وإن حصلت عليه فبأدنى الأجور وتكون تحت رئاسة من هن دونها فى القدرة وأصغر منها فى السن ، حتى الأعمال التى لا يقوم بها غير النساء فى البلاد التى تفرق فى العمل بين المراة والرجل يقوم بها الرجل الابيض وتحرم منها الملونة والافريقية وفى المعازل ، كما يقول « هـ.ج سيمون » تتضائل فرص العمل المجزى أمام المرأة الافريقية فليست هناك صناعات يمكن أن تعمل فيها ، وليس أمامها غير الخدمة فى البيوت واكثرهن يعمل فى فلاحة الأرض وتتراوح نسبة العاملات منهن فى هذا الميدان ما بين ٨٠٪ و ٩٠٪ والأرض التى يعملن فيها ليست لهن بل هى ملك البيض أما القلة التى تعمل منهن فى حقل التعليم او فى التمريض فانها من الضآلة بحيث لا تذكر . وفى دراسة أعدتها منظمة العمل الدولية ، اكتشفت ان ١٣ر٦٪ من العاملات الافريقيات فى الريف هن اللواتى يجدن عملا مجزيا واكثرهن من العاملات فى فلاحة أراضى البيض أو فى خدمة

اسرهن ، حتى وان كن ممن يحسن القراءة والكتابة او نلن حظا طيبا من التعليم . اذ أن قوانين الابارتهيد تحول بينهن وبين الاقامة أو العمل فى المدن وتحملهن على الاقامة فى المعازل(٢٠) .

المراة الافريقية فى ظل القوانين العنصرية :

لا تتساوى الزوجة الافريقية مع الزوج من الناحية القانونية سواء من حيث القانون العرفى أو من حيث القانون الوضعى بنصوصه الملتوية . فطبقا للقانون الخاص بادارة البانتوستان لعام ١٩٢٧ : ليس للزوجة حق المساواة بزوجها وفى قانون الناتال أن المراة الافريقية تابعة للرجل وهو وليها سواء كان هذا الرجل هو الأب او من يرثه او الزوج ، فاذا طلقت انتقلت الولاية الى الأب أو من يرثه ، ولا تملك المراة الافريقية غير المتزوجة فى قوانين الناتال حرية التصرف ما لم تثبت انها تملك عقارا ثابتا . أو انها رشيدة متعلمة تحسن التصرف مدبرة وغير مسرفة ، ولا يسرى هذا النص على الزوجة حتى وان هجرها زوجها أو تركها دون نفقة . ولا يتيح هذا الوضع للمراة الافريقية حق التعاقد أو المقاضاة أو التقاضى . كما لا يتيح لها حق الانتقال من مكان الى آخر دون اذن من وليها وليس لها أن تملك الا حاجياتها الشخصية ، وما تكسبه من مال يكون تحت وصايته وله أن يستوفى منه ديونه .

ويبرر المسئولون فى حكومة جنوب افريقية هذا الوضع بانه يتفق مع القوانين القبلية الافريقية الا أن هذه القوانين — كما جاء فى تقرير الأمين العام للامم المتحدة الى لجنة المراة — وان اتفقت مع الحياة الجماعية للمجتمعات الافريقية ، فانها لا تتفق مع الطابع الفردى الذى تقوم عليه قوانين البانتوستان ، فبينما ترعى القوانين القبلية حقوق المراة ، تهدمها قوانين البانتوستان الجديدة وتعمل على استعبادها(٢١) .

الزواج والاسرة :

يخضع الزواج فى جنوب افريقيا لقيود اللون والعنصرية ، وفقا

---

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٣ .
(٢١) تقرير الى لجنة أوضاع المراة من السكرتير العام للامم المتحدة ، نيويورك ، ربيع ١٩٧٨ ، ص ٢١ .

للقانون الذى يحول دون قيام علاقة جنسية او زواج بين البيض والسود ، ففى قانون ١٩٢٧ تعد مثل هذه العلاقة جريمة ، بينما يمنع قانون الزواج المختلط لعام ١٩٤٩ أى زواج بين البيض وغير البيض ، فاذا خالف الابيض هذا القانون كان جزاؤه اقل بكثير مما يلقاه الملون من عقاب قاس ، واكثر من طبق عليهم هـذا القانون من البيض كن من النساء .

ووفقا لهذا القانون فان اى زواج يتم بين ابناء الجنس الواحد لا ينال الاعتراف ما لم يتم وفقا لقوانين المدنية او الكنسية ، ولما كان الافريقيون يجرون مراسم الزواج وفقا لتقاليدهم فان مثل هذا الزواج يكون باطلا قانونا ولا يعترف به أمام اى محكمة من محاكم جنوب افريقية ، مما يهضم حق الزوجة قبل الزوج عندما يهجرها أو يطلقها كما يشجع الزوج على الطلاق ويقوض بالتالى أركان الأسرة الافريقية .

أما كارثة الاسرة الافريقية حقا فانها الحصاد السىء لقوانين العمل القاسية اذ انها تلزم الافريقى رجلا أو امراة بالحصول على اذن مسبق بالعمل وفى مناطق معينة لا يتجاوزها ، ولا يسمح للزوجين بالعمل فى مكان واحد مما يحول بينهما وبين تكوين أسرة تتمتع بنوع من الاستقرار . وغالبا ما يتحطم الزواج بسبب هذه القيود البغيضة ، هذا فضلا عن الأعباء التى تنوء بها المراة فى معازل البانتوستان عندما يفترق عنها الزوج للعمل بعيدا ، فاذا اجبرتها مطالب الحياة القاسية على العمل لتعول ابناءها أو المسنين من أسرتها لا تجد سوق العمل الا فى خدمة أسرة البيض وما أقساها من خدمة تباعد بينها وبين من تعولهم فلا يبقى فى هذه المعازل غير المسنين والأطفال يقاسون الفقر والجوع والمرض والتشرد ، ولا يجد الأطفال من الرعاية الواجبة فى تلك السن الغضة ما يصون حياتهم ويحميهم من الانحراف .

المراة وحق التملك :

ليس للمراة الافريقية فى المعازل الحق فى ملكية اى أرض ، فاذا مات عنها زوجها فقدت حق الارث فى أرضه اذا ما اضطرتها الظروف للاقامة بعيدا عن بيت زوجها المتوفى ، أو رفضت العيش فى مكان آخر لا يرضى عنه أهل زوجها واذا كان عليها أن تعمل لتعول ابناءها بعيدا عن بيتها فانها تفقد الحق فى استغلال قطعة الأرض التى تحيط ببيتها على عكس الافريقى

من الرجال فانه يبقى مالكا لقطعة الأرض الملحقة ببيته وله حق استغلالها وزراعتها ، وكثيرا ما تكون تلك المرأة الافريقية هى العائل الوحيد لأسرتها ، وحرمانها من الأرض يعنى حرمان من تعولهم من وسيلة العيش الوحيدة ، كما تمثل قوانين الوراثة تفرقة صارخة بين الرجل والمرأة الافريقيين ، اذ أن ماترثه يذهب الى وليها وهو الذى يديره لها دون مشورة منها ، ويجرى العرف بين الافريقيين بألا ترث الاناث ويذهب الميراث الى الذكور ، حتى وان كان ما ورثته قد جاءها عن طريق الأم .

حرية الانتقـــال :

تحول قوانين جمهورية جنوب افريقيا دون حرية الانتقال للملونين الى مناطق البيض . وقد صدرت عدة قوانين تنظم وتراقب انتقال وهجرة الملونين الى مناطق البيض وهو القانون رقم ٢٥ لعام ١٩٤٥ وقانون الغاء تصاريح البانتو وترتيب المسوغات رقم ٦٧ لعام ١٩٥٢ وقانوناعادة توطين البانتو رقم ١٩ لعام ١٩٥٤ . وبمقتضى هذه القوانين لا يجوز للملونين الاقامة فى المدن الا لوقت محدود ولحاجة العمل . واذا قدر للمرأة الافريقية أن تحصل على تصريح يتيح لها حرية الانتقال الى مناطق البيض فانها عرضة لسحب التصريح منها لأى سبب كأن تشترك فى اضراب او اى عمل سياسى(٢٢) .

المقاومة الافريقية للحكم العنصرى فى جنوب افريقيا

لقد بدأت المقاومة الافريقية للغزو الأبيض يوم بدأ الغزو الأوروبى لجنوب افريقيا ورغم أن المعارك التى دارت بين الافريقيين والاوروبيين لم تكن متكافئة مما أدى الى نجاح الأوروبيين فى فرض سيطرتهم الكاملة على الأرض والموارد الطبيعية ولكنهم فشلوا فى اطفاء جذوة المقاومة الافريقية فقد ظلت مشتعلة تتخذ صورا عديدة غير انها لم تأخذ شكلها المنظم الا فى عام ١٩٢٢ حين تأسس حزب المؤتمر الوطنى الافريقى . وقد بدأ الحزب فى تعبئـــة الافريقيين للنضـال ضد التفرقة العنصرية ومن اجل استخلاص حقـــوقهم المشروعة وكان العمال الافريقيون الذين يعيشون فى المدن هم ركيزة الحزب فى نضاله ومع تطور الوعى الوطنى وتصاعد نشاط الحزب وتغلغله بين

---

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٤ .

التجمعات الافريقية فى المعازل والمناطق الزراعية التى يملكها البيض أخذ الحزب يطور خططه وأساليب عمله فانتهج عدة أساليب تتلائم مع طبيعة وحجم الممارسات العنصرية التى كانت يقوم بها حكم الأقلية البيضاء ضد الافريقيين ومن ابرز هذه الأساليب الاضرابات والمقاطعة واشكال التظاهر المختلفة . وفى عام ١٩٥٥ اصدر الحزب ميثاق الحرية كمنهاج للعمل الوطنى من خلال التحالف مع القوى الأخرى المعارضة لنظام الابارتهيد فى داخل وخارج جنوب افريقيا . وقد واصل الحزب برنامجه فى تعبئة وتجنيد الآلاف من الشباب وقام بتشكيل تنظيم للشباب وآخر للنساء الى جانب تنظيماته الأخرى من صفوف العمال فى المدن. وتركزت استراتيجية الحزب فى النضال من أجل اقامة دولة ديمقراطية تضمن لجميع سكان جنوب افريقيا العدالة والمساواة فى الحقوق والمسئوليات دون تفرقة تمييز بسبب اللون أو العنصر او الجنس . ويؤمن حزب المؤتمر بسيادة التعايش والمساواة بين البيض والملونين الافريقيين داخل دولة ديمقراطية(٢٣) . ولم تنحصر المقاومة الافريقية للنظام العنصرى فى اطار حزب المؤتمر الوطنى الافريقى فحسب بل ظهرت بعض ردود الفعل الوطنية التى طرحت اساليب أخرى لمواجهة العنصرية تمثلت فى رفض الطرح السياسى الذى يتبناه حزب المؤتمر والذى يدور حول فكرة أساسية مفادها أن جنوب افريقيا وثروتها ملك لمن يعيش فوق أرضها فقد اعتبروا ذلك نوعا من المساواة بين المغتصب الدخيل والوطنى الأصيل واسسوا حزب مؤتمر الوحدة الافريقية P A C عام ١٩٥٩ وقادوا الحملة ضد تصاريح المرور وقاموا باحراقها فى مارس ١٩٦٠ مما أدى الى مذبحة شاربفيل التى قتل فيها ٦٩ متظاهرا من الافريقيين واتخذت الأمم المتحدة من هذا التاريخ (٢١ مارس) يوما عالميا ضد التفرقة العنصرية وقد أصدرت الحكومة العنصرية قرارا بوقف نشاط حزب المؤتمر الوطنى الافريقى بعد مذبحة شاربفيل . الا أن كفاح الحزب لم يتوقف بالرغم من حركات القمع والمصادرة واعتقال زعمائه وقد أعرب حزب المؤتمر الوطنى فى جميع بياناته عن عدم ايمانه بالمواجهة العنصرية للحكم العنصرى فى جنوب افريقيا . كما اكد الحزب فى وثائقه الأساسية أن الاستراتيجية التحررية للحزب لن تتحقق الا باجتذاب للنساء الى صفوف النضال الوطنى واشراكهن

---

(٢٣) انظر : وثائق ومطبوعات حزب المؤتمر الوطنى الافريقى — الجمعية الافريقية — القاهرة ١٩٨٥ .

فى جميع المعارك والا فانهن سوف يتحولن الى احتياطى الثورة المضادة ويصبحن قوة معادية للتحرر الوطنى يستفيد منها العدو العنصرى ولو بصورة غير مباشرة(٢٤) .

المقاومة النسائية للحكم العنصرى فى جنوب افريقيا :

يقود النشاط النسائى العلنى فى جنوب افريقيا مجموعة من التنظيمات النسائية التى ترجع نشأتها الى الخمسينات وهى تشمل على التوالى :

١ — رابطة نساء البانتو .

٢ — التنظيم النسائى التابع لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى .

٣ — اتحاد نساء جنوب افريقيا .

وتعمل حركة التحرر الافريقى على اجتذاب أكبر عدد من النساء الافريقيات المنعزلات فى البانتوستان وتعبئتهن من أجل تنظيمهن كقوة ثورية ضد النظام العنصرى . والواقع أن غياب الشروط الانسانية الأولية من الحياة اليومية لآلاف النساء فى جنوب افريقيا يضاعف من صعوبة الدور الذى تقوم به الأحزاب الوطنية لتحرير النساء ومن ثم تنظيمهن كقوة ثورية فاعلة اذ يلاحظ أن وضع النساء الافريقيات فى المعازل أو هؤلاء اللواتى يعملن فى منازل ومزارع البيض تطلق عليهم القوات العنصرية الكلاب والغازات المسيلة للدموع وتدك منازلهم بالبولدوزارات عند وقوع أى اضراب أو مظاهرة احتجاج فهن مستهدفات بالدرجة الأولى من قبل السلطات العنصرية فى جنوب افريقيا اذ يمارسن أحط الأعمال وأول من يتعرض للطرد والابادة المنظمة مما يجعلهن فريسة لكل المخاطر وتزداد بينهن نسبة البطالة بصورة مخيفة أكبر بكثير من البطالة بين الرجال . كما يتقاضين أجرا أقل عن نفس الأعمال التى يقوم بها الرجال ويفقدون أعمالهم فى حالة الحمل كما أن الخوف من الفاقة والخوف من الاغتصاب فى الشوارع ليلا يجعلهن يحجمن عن المشاركة فى العمل العام فضلا عن معارضة أزواجهن ولا يجدن الا الخدمة فى المنازل مما يكرس الوضع التقليدى للمرأة باعتبارها لا تصلح الا للأعمال

---

(٢٤) انظر : وثائق حزب مؤتمر الوحدة الافريقية ، الجمعية الافريقية ، القاهرة ١٩٨٥ .

المنزلية مما يكرس الوضع ويفقدون الفرص لتطوير امكانياتهن واكتساب مهارات جديدة . كما أن الخدمة فى المنازل تحرم هؤلاء النساء من مزايا التجمع فى روابط واتحادات أو نقابات تتولى الدفاع عن مصالحهم وحقوقهم أو تمكنهن من المشاركة فى النضال الوطنى ضد البيض وحتى النساء الافريقيات اللواتى يعملن باعداد كبيرة فى مزارع البيض لا يستطعن تنظيم صفوفهن بسبب الفقر وتخلف الوعى رغم انهن اقل عزلة من الفئة الأولى . كما أن وجودهن داخل هذه المزارع يحول دون اتصالهن بحركة التحرر الوطنى أو بالخارج أو امكانية النفاذ والوصول اليهن من قبل حركة التحرر الوطنى لاشراكهن فى المقاومة الوطنية اذ تعتبر هذه المزارع سجون من نوع آخر(٢٥) .

لا شك أن وطأة الفقر والتمييز ضدهن تجعلهن غير مؤهلات للمقاومة من خلال الجهد الذاتى فى ظل العزلة المفروضة عليهن .

وهنا تبرز مسئولية حركة التحرر فى ضرورة تعبئة النساء الافريقيات بالعمل أولا على كسر عزلتهن واقناعهن بأهداف حركة التحرر فى ظل ميثاق الحرية الذى يهدف الى اقامة مجتمع غير عنصرى يضمن المساواة للجميع ويضمن للمراة على وجه الخصوص المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد ادركت حركة التحرر الافريقى أن القطاع النسائى يحتاج الى جهد مضاعف لتوعيتهن وتعبئتهن وتنظيمهن حول أهداف التحرر الشامل للمجتمع رجاله ونسائه واطفاله .

هذا وقد ادركت المراة الافريقية تدريجيا أن الكفاح للتحرر من التفرقة بين الرجل والمراة لابد أن يمضى جنبا الى جنب مع الكفاح ضد الابارتهيد والتفرقة العنصرية . فعندما تكون الاتحاد النسائى بجنوب افريقية وقد قام لتوحيد جهود المراة الافريقية من كافة العناصر لمناهضة التفرقة بين الرجل والمراة بصورة خاصة والكفاح ضد التفرقة العنصرية بوجه عام نشر بيانا يحمل شعار « الحرية والأمن وحق المساواة والسلام للجميع » كما أعلنت لجنة

---

(٢٥) انظر :

The African Communist No 91-97, 1983-1984, London. pp. 56-66, 18-38, 11-15.

حقوق الانسان فى جنوب افريقية عند احتفالها بالعام الدولى للمراة ان التغيير الجذرى لتحقيق المساواة بين الرجل والمراة لابد وأن يبدأ باقامة مجتمع جديد خال من التفرقة العنصرية سواء فى ذلك التفرقة القائمة على الجنس أو العنصر أو الثقافة وما الى ذلك من كافة أنواع التفرقة(٢٦) .

وفى هذا الاطار من الكفاح المشترك للقضاء على التفرقة العنصرية بكل الوانها شاركت المراة الافريقية الرجل فى كفاحه ضد الابارتهيد . ففى أوائل الخمسينات وقفت المراة الملونة الى جانب الرجل فى حركة المقاومة السلبية لقوانين العنصرية الظالمة وقامت لجنة المراة فى حزب المؤتمر الوطنى الافريقى بتنظيم النشاط النسائى ضد الابارتهيد وتوجيهه فاعتقل بعضهن وارسلن الى السجون .

ولعل اكثر ما عنيت المراة بمقاومته ورفضه تصاريح المرور فحتى الخمسينات كان الرجل وحده هو صاحب الحق فى اذن المرور بينما كان على المراة التى تعيش فى مدن البيض أن تجدد هذا الاذن كل شهر .

وقد تجسد احتجاج المراة الملونة على تصاريح المرور فى القيام بحرقها أمام مقر الحكومة ولم تأبه الحكومة بحركتهن وصممت على تنفيذها بكافة الوسائل وهو ما تصفه هيلدا برنشتين بقولها (لقد صممت السلطات على رأيها فالمسنات من النساء حين ذهبن فى طلب معاشهن الضئيل قيل لهن لا اذن ولا معاش وبتوجيهات من رجال الشرطة وقعت أشد العقوبات واقساها فقتل بعضهن برصاص الشرطة وضرب الأخريات ضربا مبرحا واشعلت النيران فى بيوتهن حتى التهمتها تماما ودمرت كل ممتلكاتهن حتى عم الخراب ونفى من القى القبض عليه ودمرت واختفى الاخرون من الرجال والنساء عن عيون السلطة)(٢٧) .

وبالرغم من المعاملة اللاانسانية وقسوة رجال الشرطة فقد استمرت الافريقيات فى الاحتجاج على مظالم الابارتهيد وعلى انخفاض أجور أزواجهن وقصور الخدمات العامة من المرافق الصحية الى وسائل الاضاءة وغير ذلك من ضروب الحرمان .

---

(٢٦) المصدر السابق ، العدد ٩٨ ، ص ٥٧ — ٦٠ .
(٢٧) انظر : فوزى النجار — مصدر سابق — ص ١٤ .

وعندما صدرت قوانين مقاومة الارهاب فى الستينات القى القبض على عدد من النساء اللواتى عارضن الابارتهيد وحكم عليهن بالسجن الا أن ذلك لم يضعف من مقاومتهن واصرارهن .

وضع المرأة فى مواثيق الثورة الوطنية فى جنوب افريقيا :

ينص ميثاق الحرية على حقوق متساوية للنساء فى المجال السياسى (التصويت والادارة) وينص على ضرورة تمتع المرأة بحقوق متساوية فى العمل والاجازة المدفوعة للمراة العاملة اجازة أموية (برنامج حزب المؤتمر الوطنى والحزب الشيوعى بجنوب افريقيا ١٩٦٢) وينص الميثاق على أن جميع العمال فى المناجم والمزارع والمساكن يتمتعون بكافة الضمانات التى تنص عليها قوانين النقابات العمالية ويطالب الحزب بضرورة ايلاء النساء العاملات رعاية خاصة وازالة جميع القيود المفروضة على النساء العاملات المتزوجات ومنحهم كافة أشكال الرعاية اثناء الحمل وبعد الولادة والغاء تعددالزوجات . وقد أعلن الحزب انه سوف يناضل من أجل الغاء كافة اشكال وصور اللامساواة ضد المراة والتى تنظر اليها باعتبارها مجرد خادمة أو مديرة منزل أو مربية أطفال وسوف يناضل من أجل اشتراك النساء فى مختلف ميادين النشاط الانتاجى المادى والفكرى على أسس متساوية مع الرجال .
وقد اكد حزب المؤتمر الوطنى الذى يقود النضال هو والحزب الشيوعى فى جنوب افريقيا ضمن الجبهة الوطنية الديمقراطية على أهمية مشاركة النساء فى النضال الوطنى وضرورة تعبئتهن من خلال عمل سياسى مكثف وقد أعلن المؤتمر العام للحزب عام ١٩٥٥ أن التجمع النسائى التابع للحرب قد اثبت وجوده فى العمل السياسى والجماهيرى وان كان يحتاج الى مزيد من الاهتمام والتدريب كى تخرج منه قيادات نسائية جماهيرية كما أعلن الحزب أن التجمع النسائى ليس مجرد فرع تابع للحزب ولكنه يمثل العمود الفقرى للعمل الوطنى ويؤكد ذلك بقوله « اننا ندرك جيدا اننا لن نكسب معركة الاستقلال والتحرر دون مشاركة النساء ولذلك علينا أن نعمل على اجتذاب الجموع النسائية الى صفوف النضال الوطنى بأن نساعدهم على تحقيق التحرر الذاتى أولا بتوفير المساواة لهم داخل الاسرة وخارجها وتحريرهم من الأعباء المنزلية ومن هنا تبرز مسئولية أعضاء الحزب من الرجال فى أن يضربن المثل الحى لتحسين

هذا الموقف الملتزم ازاء النساء داخل الحزب وخارجه »(٢٨) .

وفى عام ١٩٨١ عقد التنظيم النسائى التابع لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى مؤتمرا تاريخيا فى لواندا وقد أعلن رئيس الحزب اوليفر تامبو ما يؤكد هذا الاتجاه عندما صرح قائلا : « ان على النساء العضوات فى الحزب أن يعملن بالفعل على انتهاج السلوك المتحرر الذى يتمثل فى التخلص من رواسب الفكر التقليدى ويعملن فى ذات الوقت على مساعدة الرجال لانتهاج نفس المواقف المتحررة ضد أعداء المرأة فالمضطهدين الذين يمارسون الاضطهاد لا يستطيعون مساعدة المضطهدين بقدر ما يستطيع هؤلاء مساعدة أنفسهم فالتحرر مسألة ذاتية فى الأساس كما ان النضال من أجل التغلب على القهر القومى الذى يمارسه الحكم العنصرى ضد شعبنا لهو أيسر بكثير من التغلب على القهر القومى الذى يمارسه الحكم العنصرى ضد شعبنا لهو أيسر بكثير من التغلب على القهر التاريخى الذى يمارسه الرجل ضد المرأة منذ مئات السنين وعلينا أن نتعاون جميعا لتغيير أنماط السلوك اليومية والقيم المتوازنة التى تعمل على ابقاء المرأة فى وضع أدنى من الرجل ويجاوز مرحلة الشعارات الثورية التى تمجد المرأة فحسب وتنتقل الى مرحلة السلوك الثورى التى تنظر الى المرأة كشريك متساوى فىالحقوق والمسئوليات . لذلك نحن ندعو النساء الفقيرات اللاتى يقع عليهن الاضطهاد وبصورة مزدوجة الى الخروج من دائرة المطبخ والأعمال المنزلية الى آفاق النضال الرحبة للمشاركة فى تحرير الوطن بصورة فعالة وايجابية والتنظيم النسائى ليس غاية فى حد ذاته بل هو أداة مرحلية لتنظيم النساءولضمان اشتراكهن فى دائرة النضال القومى العام . وفى عام ١٩٨٣ اعلنت السيدة جيرترود شوب الأمينة العامة للتنظيم النسائى بحزب المؤتمر الوطنى الافريقى : « ان أولى مهامنا هى تحقيق التنمية السياسية لنسائنا مما سيضمن المشاركة الكاملة من جانبهن فى تحرير بلادنا ثم تحرير المجتمع من رواسب السلوك التقليدى المعادى للمرأة »(٢٩) .

كل هذه التصريحات تؤكد على أهمية المشاركة النسائية فى حركة التحرر الوطنى واستحالة تحقيق التحرر الكامل دون المشاركة الواسعة

---

(٢٨) انظر :مجلة سيشابا — ديسمبر ١٩٨١ ، ص ٨ — ١٧ .
(٢٩) المصدر السابق .

لمختلف القطاعات الشعبية وفى مقدمتها النساء كما يتضح ان ذلك لن يتحقق الا من خلال عمل سياسى وعلى نطاق واسع بين التجمعات النسائية مما يساعد على بروز قيادات نسائية تتسم بالشجاعة والقدرة على التاثير فى الجماهير .

الأوضاع الراهنة للنضال النسائى فى جنوب أفريقيا :

كان التحدى الرئيسى الذى تواجهه حركة التحرر الوطنى فى جنوب أفريقيا خلال عام المراة (١٩٨٤) هو كيفية انجاز المهمة الأساسية للحزب التى تتمثل فى ضرورة بناء حركة نسائية ديمقراطية موحدة سواء من الناحية التنظيمية او السياسية تتشكل من التنظيمات النسائية الموجودة فى الساحة مثل اتحاد نساء جنوب افريقيا الذى يتركز نشاطه فى منطقة الراند والتنظيم النسائى المتحد ويتمركز فى منطقة غرب الكيب وهناك بعض التنظيمات النسائية مثل التنظيم النسائى فى الناتال وتنظيم بورث البزابيث .

وشارك هذه التنظيمات فى الاضرابات التى تتصاعد فى مختلف أنحاء جنوب افريقيا بسبب ارتفاع أسعار المواد الغذائية واجور المواصلات تدنى أجور العمال الافريقيين وسائر أشكال التفرقة العنصرية . وبسبب طبيعة هذه الانتفاضات وما تتسم به من كونها استجابة مباشرة للاوضاع الجائرة التى يعانى منها الافريقيين مما يجعلها اشبه بموجات الغضب المتفجرة أكثر منها انتفاضات مسيسة ذات رؤية بعيدة المدى ولذلك فهى تترك انعكاساتها السلبية على النضالات الوطنية للقطاعات النسائية فى جنوب افريقيا ومن هنا انبسقت أهمية بل ضرورة العمل على توحيد وتسييس العمل النسائى فى جنوب أفريقيا مع ربطه بالنضالات الوطنية للقطاعات الشعبية الأخرى مثل الشباب والعمال والمزارعين . وقد انضمت معظم هذه التنظيمات الى الجبهة الديمقراطية المتحدة التى تقود النضال الوطنى فى جنوب افريقيا مما ساعد على نقل هموم وقضايا المراة الى جدول أعمال سائر التنظيمات الجماهيرية وخصوصا الطلبة والعمال ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يلى :

١ — اجازة الأمومة التى وافقت عليها أحد المتاجر الشهيرة فى جنوب افريقيا نتيجة المفاوضات التى أجرتها معها الجبهة المتحدة لعمال التجارة .

٢ — الندوة التى عقدها اتحاد نقابات جنوب افريقيا فى يوليو ١٩٨٣ لمناقشة أوضاع النساء العاملات وموقف العمال الرجال والأزواج من قضايا

الأعمال المنزلية وتربية الأطفال وضرورة المشاركة فيها لتخفيف العبء عن النساء . وقد طرحت بعض الاقتراحات التى تنادى بضرورة النضال المشترك من جانب الرجال والنساء من أجل تخفيض ساعات العمل لتخصيص مزيد من الوقت لاشتراك الرجال فى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال .

٣ — اقام مؤتمر شباب سويتو لجنة نسائية تعمل على نشر روح المساواة بين جميع الأعضاء من أجل التغلب على الاحساس بالنقص لدى النساء وسعيا الى دفعهن للمشاركة الكاملة فى جميع النضالات الوطنية . وقد أصدر المؤتمر الميثاق النسائى الذى أعلن الاتحاد العام لنساء جنوب افريقيا تبنيه وذلك فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر القومى فى عام ١٩٨٤ .

٤ — أعلن اتحاد طلاب آزانيا تعيين امراة فى احدى المواقع القيادية وذلك لأول مرة فى تاريخ الاتحادات الطلابية فى جنوب افريقيا . كما أعرب الاتحاد فى أغسطس ١٩٨٢ عن اهتمامه بدراسة أسباب نقص المشاركة النسائية فى التنظيمات الشعبية والسياسية وقد أرجع سبب سلبية النساء الى التربية المنزلية والمجتمعية الخاطئة التى تغرس فيهن الاحساس بالدونية تجاه الرجل مما يخلق منهن توابع وأدوات للاستغلال والقهر المركب . وقد أصدر اتحاد طلاب آزانيا ميثاق للتعليم أوضح فيه ضرورة الغاء الفوارق من الجنسين فى التعليم العام كما نظم الاتحاد الوطنى مؤتمرا عن النساء فى عام ١٩٨٢ تناول فيه العوائق التى تحول دون مشاركة المراة فى شتى مجالات الانتاج والنضال الوطنى(٣٠) .

لقد أسفر هذا الاهتمام الشعبى المتعدد الوجوه بقضية المراة فى جنوب افريقيا عن اتساع رقعة الاعتراف الجماهيرى بأهمية وخطورة الاسهامات والتضحيات التى تقدمها المراة لحركة النضال الوطنى الاجتماعى . كما تبلور هذا الاعتراف فى صورة اجتماعات سنوية منتظمة للاحتفال باليوم القومى للمراة فى جنوب افريقيا . ومما يجدر ملاحظته أن تراكم النشاط الحزبى المنظم قد ساعد على ظهور وبلورة استراتيجية كاملة لتحرير النساء الافريقيات وذلك ضمن استراتيجية التحرير الشامل الوطنى والاجتماعى لجميع أبناء ومواطنى جنوب افريقيا .

---

(٣٠) انظر :
The African Communist. op. cit., No 98-1984. pp. 59-65

وتستعين هذه التنظيمات فى نشاطاتها الموجهة الى النساء بكافة ادوات الاتصال المباشر فى المعازل والمعسكرات والمزارع التى يمتلكها البيض والمدارس والكنائس والمصانع واطراف المدن . كما تستعين بوسائل الاتصال الجماهيرى المتاحة وأبرزها الراديو والكتيبات والصحف الى تصدرها الأحزاب والتنظيمات الشعبية مثل (ماى بى) ، سيشابا ، افريكان كومينست والفجر وصوت المراة التى يصدرها اتحاد نساء حزب المؤتمر الافريقى . وتطرح وسائل الاعلام الوطنية فى جنوب افريقيا مضمون موحدا وان تعددت أساليبه وهو يدور حول هذه الحقيقة التى تقول : « ان الثورة الوطنية الديمقراطية لن تحرر النساء من القهر الوطنى والاستغلال الطبقى فحسب بل سوف تحررهم فى الأساس من الاضطهاد الذى يلاقوه بسبب كونهن نساء . اننا عندما نتحدث عن تحرير النساء فان ذلك لا يعنى تحرير المراة من سيطرة واستغلال الرجل فحسب بل تهدف الى تحريرهما معا من الاستغلال والقهر القومى والاجتماعى .

قضية تحرير النساء فى اطار العلاقات العربية الافريقية :

رغم اهمية المساندة الرسمية التى توليها الحكومات العربية والافريقية لأى مبادرة تتخذ لدعم التقارب بين العرب والافريقيين ورغم محاولات التقارب التى تزداد وضوحا بين حركات التحرر الوطنى العربية والافريقية وخصوصا منظمة التحرير الفلسطينية وحزب المؤتمر الوطنى الافريقى ومنظمة سوابو الا أن الرؤية الاستراتيجية لأبعاد العلاقات العربية الافريقية لاتزال تطرح من منطلق براجماتى قصير النظر ولازالت تحاول حصر العلاقات العربية الافريقية فى الاطار الرسمى كى تظل اساسا ذات مضمون اقتصادى بحت مما يؤدى الى انفصال هذه العلاقات عن جذورها الشعبية واطارها التحررى سواء فى مجال النضال الوطنى أو التحول الاجتماعى وبالتالى تصبح عاجزة عن تجاوز المرحلة الأولى من الاستقلال الوطنى التى ترجع الى نهاية الخمسينات . واذا كانت ظروف التبعية الثقافية للغرب التى سادت فى أغلب الدول العربية والافريقية بعد مرحلة الاستقلال السياسى قد لعبت دورا حاسما فى سيادة واستمرار المفاهيم الخاطئة والاستجابة للمحاولات الاستعمارية لتشويه وعزل الجبهة العربية عن الجبهة الافريقية فان تراكم النضال الوطنى على الجبهتين وادراك شمول الظاهرة الاستعمارية الذى

تجسد فى امتداداتها العنصرية فى كل منفلسطينوجنوب افريقيا قد ساعد على ظهور عدة محاولات جادة لأنهاء التبعية الاقتصادية والثقافية فى بعض الدول الافريقية والعربية التى تسعى لتحقيق الاستقلال الشامل . وقد انعكس ذلك بصورة ايجابية على العلاقات العربية الافريقية اذ أسهم فى كسر أطواق العزلة المصطنعة بين الشعوب العربية والافريقية وكان مؤتمر باندونج ١٩٥٥ هو نقطة البداية حيث انطلقت منه حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث وبدات علاقات التقارب الافريقية عام ١٩٥٨ كفاتحة للعديد من المؤتمرات النسائية والشبابية والعمالية .

واذا كانت الستينات قد شهدت ذروة المد الوطنى وما صاحبه من تصاعد ملموس فى العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الشعوب العربية والافريقية ، فان النصف الأخير من الستينات قد سجل بداية حركة الجذر الوطنى بكل نتائجها السلبية على صيغة العلاقات العربية ـ الافريقية التى بلغت أوج ازدهارها فى فترة المد التحررى . فقد شهدت هذه المرحلة فى السبعينات الهجمة الاستعمارية الشرسة لتصفية النظم الوطنية ذات البرامج الثورية سواء على الجانب العربى او الافريقى . وكان من آثارها ظهور التجمعات الاقليمية ذات الطابع الاقتصادى على الجانب الافريقى بالذات ، وكان ظهورها نذيرا بمرحلة جديدة من التفتت والتفكك بين الدول الافريقية ذاتها وبينها وبين البلدان العربية .

وقد تحددت المعركة الرئيسية لحركة التحرر الوطنى ضد التبعية والتخلف بكل ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وقد كان لكل هذه التطورات آثارها المباشرة وغير المباشرة على خريطة العلاقات العربية ـ الافريقية ، حيث طرات مجموعة من التغيرات فى أولويات ومضامين العلاقات العربية ـ الافريقية فقد أصبحت مطالبة بالعمل على :

١ ـ مواجهة الاحتكارات الدولية متعددة الجنسيات ، وذلك بانتهاج سياسات اقتصادية تكفل لها انجاز برامج تنموية مستقلة ، تساعدها على اعادة استثمار مواردها طبقا لمصالح القوى الاجتماعية صاحبة الأغلبية .

٢ ـ مواجهة قضية اعادة بناء الثقافة الوطنية بما يتيح بعث وازدهار الشخصية القومية فى كل بلد عربى وأفريقى ، ولا يتحقق ذلك الا بالسيطرة

على حركة بناء التعليم والثقافة والاعلام ، التى تلخص مجمل طموحاته وهموم هذه المجتمعات وتسهم فى تحقيق التمايز الحضارى والقومى والاجتماعى للشعوب العربية والافريقية . ولا شك أن هناك سلبيات ومعوقات عديدة لا تزال تعترض المسيرة الموضوعية للعلاقات العربية ـ الافريقية ، وخصوصا فى ظل المحاولات التى تبذلها الدوائر الاستعمارية لتشويه جوهر هذه العلاقات ، ومحاولة افراغها من محتواها الحقيقى ، واظهارها فى ثوب استغلالى لا تجنى منه الشعوب العربية والافريقية الا اشكالا جديدة من التخلف والتبعية وانعدام الثقة المتبادلة . ولكن لا شك ان ذلك يلقى تبعات جديدة على المثقفين وقادة الفكر العرب والافريقيين ، تتمثل فى ضرورة العمل على اقتحام هذا المجال بالدراسة العلمية والجهد المخلص الدؤوب من أجل اكتشاف نقاط الالتقاء المشتركة ، والعمل على تعميقها ورصد المعوقات الفعلية والرواسب ومعالجتها من خلال الفهم الموضوعى الذى ينطلق من الاعتراف بالاختلافات القائمة فى داخل كل من العالمين العربى والافريقى والاعتراف بوجود بعض الرواسب المعادية التى تركتها الدعاية الصهيونية والاستعمارية خلال سنوات عديدة مضت . وهنا تبرز اهمية العمل الثقافى والاعلامى لازالة الاثار السلبية التى روجها الاعلام الصهيونى لفترة طويلة فى أفريقيا ، فضلا عن مسئولية كل من الاعلام العربى والافريقى فى تقديم الواقع الوطنى بكل متناقضاته وصراعاته وتعقيداته وخلفياته الحضارية والسياسية الى الشعوب العربية والافريقية .

٣ ـ التنسيق بين حركات التحرر الوطنى فى كل من فلسطين وجنوب أفريقيا وناميبيا وذلك لتبادل الخبرات النضالية وخصوصا ما يتعلق بمناهضة الصور المختلفة للتمييز العنصرى التى تمارسها حكومة جنوب افريقيا ضد الافريقيين الملونين فى جنوب افريقيا وناميبيا وايضا مقاومة الشعب الفلسطينى لكافة أشكال الارهاب العنصرى والسياسى الذى يمارسه الحكم العسكرى الاسرائيلى ضد مختلف فئات الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة . وذلك مع الحرص على تدعيم أساليب الاتصال الشخصى المباشر بين قادة حركات التحرر الوطنى الفلسطينى والافريقى وتنظيم تبادل الوثائق والمطبوعات وعقد الندوات والمؤتمرات النوعية التى تضم فصائل المناضلين والمناضلات فى المجالات الثقافية والاعلامية والعمل الجماهيرى . مع العمل على تشجيع الكتاب والمفكرين العرب والافريقيين للاقتراب من جبهات النضال

المدنى والسياسى للجماهير الفلسطينية والافريقية واجراء بحوث ميدانية يمكن الاستناد اليها فى صنع القرارات الخاصة بتعزيز العلاقات النضالية بين شعبى فلسطين وجنوب افريقيا .

وتبرز قضية تحرير المراة العربية فى فلسطين المحتلة والمراة الافريقية فى جنوب افريقيا وناميبيا كجزء لا يتجزأ من قضية التحرر الوطنى والاجتماعى الذى تتحمل تبعاته التنظيمات الثورية برجالها ونسائها فى كلا البلدين ولكن علينا أن ندرك أن انجاز المهام الأساسية لحركة التحرر الوطنى فى كل من فلسطين وجنوب افريقيا والتى تتمثل فى تحقيق التحرير الكامل لشعبى جنوب افريقيا وناميبيا من الحكم العنصرى الأبيض وضمان تحقيق المساواة بين كافة القوى التى يتكون منها هذا الشعب علاوة على استعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وعودته الى أرضه وتشكيل دولته الديموقراطية على كامل ترابه الوطنى كل هذه الأهداف الرئيسية لم تتحقق بعد ولذلك فان النضال من أجل تحرير النساء فى فلسطين وجنوب افريقيا لن يحقق اهدافه كاملة خلال المرحلة الراهنة من النضال بل قد يستغرق عدة أجيال بعد انجاز اهداف التحرر الوطنى فى كل البلدين .

فالواقع أن تحرير النساء الافريقيات والعربيات وتحقيق المساواة الفعلية بينهن وبين الرجال يحتاج الى ثورة اجتماعية شاملة تقتلع جذور المهانة والتحقير التاريخية نحو المراة التى تمتد مئات بل آلاف السنين وتترسب فى عقول ومواقف الأفراد والطبقات وتنعكس على سلوكياتهم اليومية وتحدد نسق القيم الاجتماعى بل وتؤثر بصورة غير مباشرة فى خريطة المصالح الاقتصادية ومتغلغل فى الاطار الثقافى والحضارى للمجتمع . ولا يمكن انجاز هذه الثورة بالقوة او بالوعظ او من خلال الاعتقاد الخاطىء بأن نجاح الثورة الوطنية قد يؤدى بالتالى الى تحرير النساء فلا شك أن هناك تداخلا لا يمكن تجاهله بين أهداف كافة الثورات الوطنية والاجتماعية ولكن علينا أن ندرك جيدا أن لكل ثورة قوانينها ومعطياتها واهدافها الخاصة بها واذا كانت ثورات التحرر الوطنى فى كل من فلسطين وجنوب افريقيا سوف تسهم بصورة فعالة فى دفع قضية المراة العربية والافريقية عدة خطوات الى الامام وانجاز بعض الاهداف العامة التى تشكل جزءا هاما من قضية تحرير النساء ولكن يبقى الجزء الرئيسى من هذه القضية فى حاجة الى جهد جماعى تبذله النساء

والرجال معا لانجازه فى مراحل تاريخية تالية . اذ لابد من القيام بجهد شاق ودؤوب تشارك فيه جميع القوى الاجتماعية ويشمل مختلف المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية والتشريعية وذلك حتى يؤمن الجميع بأهمية بل وضرورة هذا التغيير فى شكل ومضمون العلاقات السائدة بين النساء والرجال فى المرحلة الراهنة . ومن الواضح ان هذا الهدف لن يتحقق فورا او بالنوايا الحسنة او الكتابات المتفائلة بل يستلزم اعادة بناء جذرية للقيم وانماط السلوك السائدة فى المجتمع وداخل الاسرة العربية والافريقية. بالاضافة الى ضرورة تحمل الدولة لمسئولياتها فى تربية الأطفال وتوفير التربية السياسية والاجتماعية للرجال والنساء من أجل ضمان مشاركة الرجال فى الأعمال المنزلية وتحرير النساء من عبودية هذه الأعمال واشراكهن بصورة فعالة فى النشاط الانتاجى والسياسى ومن أجل تغيير النظرة الدونية للمراة والايمان بها ككائن مبدع وقادر على الخلق والتغيير(٣١) .

---

(٣١) انظر : د. عواطف عبد الرحمن : صورة افريقيا فى الصحافة العربية — بحث مقدم الى ندوة العرب وافريقيا — الاردن ، ابريل ١٩٨٤ ، ص ٥٤٤ — ٥٤٦ .

الحوار العربى ـ الافريقى

من أين ... والى أين ؟

د. حسن نافعـــة

١ ــ مفهوم الحوار العربى ــ الأفريقى واطرافه

شاع لفظ الحوار مؤخرا فى الأدبيات السياسية . فكثيرا ما نتحدث عن « الحوار بين الشمال والجنوب » و« الحوار العربى ــ الأوروبى » و« الحوار العربى ــ الافريقى » . غير أن الجمال اللغوى الذى ينطــوى عليه لفظ الحوار لا ينبغى أن يصرف نظرنا عن عدم دقته بالنظر الى خصوصية العلاقات العربية ــ الافريقية .

فالحوار قد ينطوى على معنى الانتقال او الرغبة فى الانتقال من حالة « الصراع » الى حالة « التعـــاون » أو من حالة « القطيعـــة » الى حالة (الاتصال) واذا كان هذا يصدق بدرجة أو بأخرى على « الحوار العربى ــ الأوروبى » أو « الحوار بين الشمال والجنوب » فانه لا يصـــــدق على « الحوار العربى ــ الافريقى » ، لأن العرب والأفارقة لم يكونوا فى حالة صراع أو قطيعة .

كذلك يفترض الحوار وجود طرفين مختلفين فى المصـــالح والمآرب ومحددين على نحو واضح أو قاطع . وقد يصدق هذا على طرفى الحوار العربى ــ الأوروبى أو الشمالى ــ الجنوبى ، ولكنه لا يصدق على طرفى الحوار العربى ــ الافريقى ، لأن التمييز بين العرب والأفارقة ليس واضحا او قاطعا الى هذا الحد ، فالشطر الأعظم من العالم العربى أفريقى بالجغرافيا والانتماء أيضا .

يضاف الى ذلك اننا حين نتحدث عن حوار فانه يسهل فى العادة أن نحصل على نقطة البداية التى شكلت تحولا فى العلاقة ســمح باجــراء

الحوار . وقد تكون هذه النقطة واضحة فيما يتعلق بالحوار بين الشمال والجنوب أو بين العرب وأوروبا ولكنها ليست بهذا القدر من الوضوح فى الحوار العربى — الافريقى . ذلك أنه يستحيل ان نؤرخ للحوار العربى — الافريقى بقرار مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية خلال دورته الثامنة غير العادية بتشكيل لجنة سباعية مهمتها تعزيز التعاون بين منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية أو بقرار القمة العربى السابع بالرباط عام ١٩٧٤ بالموافقة على عقد مؤتمر قمة للدول العربية والافريقية ، ذلك أن هذه القرارات لم تكن بداية الحوار العربى — الافريقى ولكنها كانت بداية مرحلة بناء المؤسسات فى العلاقات العربية — الافريقية .

والواقع أن العلاقات العربية — الافريقية ، صراعية كانت أم تعاونية هى علاقات قديمة تضرب بجذورها أعماق التاريخ ، وكانت هذه العلاقة تتم بشكل طبيعى من خلال المعطيات الجغرافية والبشرية التى توجه حركتها ودون تدخل طرف ثالث ، الى أن تمكن الاستعمار الغربى من القارة ، وقد حال هذا الاستعمار بين هذه التفاعلات العربية الافريقية ، واصطنع الحواجز والسدود بين أفريقيا العربية أو البيضاء التى تقع شمال الصحراء وأفريقيا الزنجية او السوداء التى تقع جنوب الصحراء . لكن عاد الاتصال العربى — الافريقى مرة أخرى فى اطار النضال المشترك ضد الاستعمار الغربى وتطور عبر مراحل مختلفة كمحصلة لتفاعل عوامل محلية واقليمية ودولية الى أن دخل مرحلته المؤسسية التى وصلت ذروتها بانعقاد مؤتمر القمة العربى — الافريقى الأول بالقاهرة فى ٧ مارس عام ١٩٧٧ .

نخلص من هذا الى أن للعلاقات العربية — الافريقية خصوصيتها التى لابد أن تنعكس على طبيعة ومضمون وأهداف الحوار العربى — الافريقى على نحو يميزه بشكل حاسم عن الحوارات الأخرى الدائرة على الساحة الدولية بين كافة النظم الفرعية . لكن هذه الحقيقة لا تعنى بالضرورة أن أهداف الحوار العربى — الأفريقى وأسسه ومضامينه واضحة أو أنها تدرك بطريقة موحدة من جانب اطرافه . ويجب الا يغيب عن الذهن أن الحوار بين الأشقاء أحيانا قد يكون أكثر صعوبة بسبب ما يكتنفه من حساسيات عديدة وردود فعل لا عقلانية .

وربما يكون من المفيد أن نحدد منذ الآن بعض السمات المتعلقة بطرفى الحوار العربى — الافريقى .

١ — تعدد أطراف الحوار ، حيث شارك فى مؤتمر القمة العربى — الافريقى (١٩٧٧) ستون دولة لكل منها سياستها الخارجية المستقلة التى يحددها أدراك النخبة الحاكمة فى كل منها لمصالحها القومية او الذاتية . وعادة ما يكون من الصعب الاتفاق على أرضية مشتركة واضحة المعالم بين هذا العدد الهائل من الدول .

٢ — جميع هذه الدول تنتمى الى العالم الثالث بكل ما يميزها من خصائص اهمها عدم الاستقرار الداخلى وتشوه الهياكل والبنى الداخلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسهولة اختراقها من الخارج . وهذا يضاعف من احتمالات التذبذب وصعوبة الحفاظ على مسار موحد للحوار أو ضمان تطويره بشكل منظم . ولذا فان احتمالات الانتكاسات قائمة ومطروحة باستمرار .

٣ — يترتب على ذلك صعوبة استخلاص ارادة عربية موحدة وارادة أفريقية موحدة تسمح بحوار بين مجموعتين متماسكتين رغم وجود اطار مؤسسى لكل منهما متمثلا فى منظمة الوحدة الافريقية من ناحية وجامعة الدول العربية من ناحية أخرى . ويعكس ظهور التباين السياسى والاجتماعى والايديولوجى فى كل مجموعة ، نفسه على مسار الحوار ويؤدى الى ظهور محاور متقاطعة ومتوازية تتجاوز الاطر المؤسسية للحوار ، وتجعل الحوار يبدو كما لو كان حوارا متعدد الأطراف والمراكز وليس بين طرفين محددى الأهداف والمصالح .

٢ — معطيات الحوار العربى — الافريقى

(أ) الجذور التاريخية :

لم ينشأ الحوار العربى — الافريقى من فراغ ولا جاء نتيجة لحاجة مصلحية عابرة فرضها تطور النظام الدولى ، وانما يستند الى معطيات جغرافية وحضارية وتفاعلات بشرية منذ أقدم العصور ، تجعل هذا الحوار يقف على أرضية صلبة .

ففى العصور السحيقة لم يكن المشرق العربى منفصلا عن افريقيا وانما كانت افريقيا والشرق العربى رقعة واحدة قبل أن تؤدى المتغيرات الجيولوجية الى ظهور البحر الأحمر كحاجز مائى يفصل بين حدود آسيا وافريقيا . ولم يقف البحر حائلا دون اتصال المشرق العربى بافريقيا ، وانما كان هذا الاتصال ميسورا عبر باب المندب وشبه جزيرة سيناء . وشهد المجتمع العربى الجاهلى هجرة عدد من القبائل الافريقية التى استقرت فيه قبل الاسلام كما شهدت أفريقيا هجرات عربية وخصوصا الى السواحل الشرقية والشمالية مما أدى الى تداخل عرقى ولغوى قبل ظهور الاسلام(١).

وقد ادى ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ، وانطلاقه منها الى أرجاء العالم ، الى ترتيب نتائج بعيدة المدى وعميقة الأثر على مسيرة العلاقات العربية ــ الافريقية :

ــ فقد تم تعريب الجزء الشمالى من القارة الافريقية ، حيث لم تكتفه شعوب هذه المنطقة بالدخول فى الاسلام دينا وانما تبنت ايضا لغة القرآن ونسيت تدريجيا ما عداها من اللغات واللهجات السابقة ، وهكذا أصبحت شمال افريقيا جزء لا يتجزأ من الوطن العربى ولعبت دور المحور المفصلى فيما سمى بعد ذلك بالحوار العربى ــ الافريقى .

ــ تكونت أغلبية اسلامية فى عدد من الدول الواقعة شرق ووسط وغرب أمريقيا واقليات اسلامية فى دول افريقية أخرى .

ــ ظهور جاليات عربية قوية فى عدد من الدول سواء فى شرق أفريقية أو غربها وهى جاليات استقرت فى مر احل تاريخية مختلفة .

وقد انعكس ذلك كله فى تفاعل حضارى وتداخل اثنى واتصال تجارى بين العرب والأفارقة على نحو لم يسبق له مثيل من قبل . وتأثرت العديد من اللغات الافريقية واللهجات المحلية باللغة العربية تأثرا عميقا .

---

(١) يوسف فضل حسن ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، ندوة العرب وافريقيا ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص ٢٧ ــ ٢٨ .

واذا كان من الطبيعى ان يشكل هذا التفاعل التاريخى جذورا متينة للعلاقات العربية الافريقية فى العصر الحديث ويفتح آفاقا هائلة لتطوير هذه العلاقات ، الا أنه ليس من الضرورى أن تكون كافة هذه المعطيات التاريخية ذات تأثيرات ايجابية على مسار الحوار العربى — الافريقى فقد مارس العرب تجارة الرقيق فى افريقيا . واستغلت هذه الحقيقة التاريخية لتشويه صورة العرب لدى الافريقيين فى العصر الحديث(٢) ، كما ارتبطت بعض الجاليات العربية ، وخصوصا تلك الجاليات التى استقرت خلال الحقبة الاستعمارية فى غرب افريقيا ، بالاستعمار الغربى وحصلت على امتيازات اقتصادية مما جعل منها قوى معرقلة للتغيير فى مرحلة ما بعد الاستعمار(٣) .

وقد يكون من المفيد هنا أيضا أن نذكر أن وجود الجاليات الاسلامية فى بعض الدول الافريقية ، سواء شكلت أغلبية أم اقلية ، أثار ويثير بعض الحساسيات فى العلاقات العربية — الافريقية خصوصا مع تصاعد موجة المد الدينى وولد مخاوف افريقية من الاستخدام السياسى للاسلام .

وتجدر الاشارة هنا الى أن الاستعمار الغربى للقارة الافريقية قد حال دون استمرار التفاعلات العربية — الافريقية حتى على صعيد الاتصال الدينى والثقافى . ولم يعد فى مقدور مسلمى غرب افريقيا مثلا أن ينهلوا من مراكز العلم فى المغرب أو أن يزوروا الأماكن المقدسة أو الحجاز فى يسر . وحاصر الاستعمار النشاط الاسلامى فى افريقيا من خلال بعثات تبشيرية مكثفة ، وشجع استعمال الاعراف المحلية بدلا من الشريعة ، كما حاصر انتشار اللغة العربية وضيق نطاق استخدامها وروج لمفهوم « الاسلام الاسود » اى الاسلام على الطريقة الافريقية وهو مزيج من التراث الاسلامى والتقاليد الافريقية ، واستغل الى أقصى حد ممكن تجارة الرقيق عند العرب.

---

(٢) المصدر نفسه ، وانظر على وجه الخصوص ما أثير فى اطار مناقشة هذا البحث من تعليقات حول موضوع الرقيق ص ٥٤ — ٦٦ .

(٣) انظر : احمد عيضة سالم : الجاليات العربية فى افريقيا ، ندوة العرب وافريقيا ، ص ١٤٧ وما بعدها .

وباختصار اقام الاستعمار كل الحواجز الممكنة بين ما أسماه «افريقيا العربية» و« افريقيا السوداء »(٤) .

(ب) النضال المشترك ضد الاستعمار ::

خضع كل من أفريقيا والمشرق العربى للاستعمار الغربى . وكان من الطبيعى أن تظهر حركات وطنية تقاوم الاستعمار وتنشد الاستقلال والتحرر من التبعية . لكن هذه الحركات كانت محصورة ومحاصرة داخل الحدود والحواجز السياسية التى اصطنع الاستعمار معظمها . ومن الثابت انه لم تنشأ صلات وروابط عضوية بين حركات التحرر فى كل من الوطن العربى وافريقيا طوال عصور طويلة . ويرجع الفضل فى مد الجسور بين حركات التحرر العربية والافريقية الى الثورة المصرية التى قادها عبد الناصر عام ١٩٥٢ كما سنوضح فيما بعد . وفى آتون معارك التحرر ضد الاستعمار نمى لدى الشعوب الافريقية والعربية وعى مشترك بوحدة المصير وزادت التفاعلات العربية كثافة وعمقا على المستويين الرسمى والشعبى .

واذا كان معظم البلدان العربية والافريقية قد حصلت على استقلالها فقد بقيت مشكلتان من بقايا الحقبة الاستعمارية هما : اسرائيل وجنوب افريقيا . وتمثل الأولى مشكلة تحظى باهتمام رئيسى فى السياسات الافريقية. وقد ساعدت أوجه التماثل بين القضيتين سواء من حيث طبيعتهما كأستعمار استيطانى أو من حيث الوظائف والأدوار التى يقومان بها فى خدمة الاستعمار الغربى ، كما ساعد الكشف عن صلاتهما الوثيقة على نمو الوعى لدى كل من العرب والأفارقة بخطورة كل منهما على أمنهما المشترك . وهكذا أصبحت جنوب افريقيا قضية عربية بقدر ما أصبحت اسرائيل قضية افريقية(٥) .

---

(4) J. F. Ade Ajayi : The Impact of colonialism on Afro-Arab Relations in west Africa.

ورقة مقدمة الى الندوة التى نظمها المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم عن « العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الافريقية » .

وانظر أيضا عز الدين عمر موسى : الاسلام وافريقيا فى ندوة العرب وافريقيا .

(٥) لمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع انظر : مجدى حماد ، النظام السياسى الاستيطانى : اسرائيل وجنوب افريقيا ، بيروت ، دار الوحدة ١٩٨١ .

يضاف الى ذلك كله ويرتبط به أن افريقيا والعالم العربى قد أصبحتا منذ الحرب العالمية الثانية من اهم مناطق الصراع على النفوذ فى العالم بين قطبى النظام الدولى . وقد فرضت هذه الحقيقة على كل من الدول العربية والافريقية تعاونا مشتركا لدعم سياسة عدم الانحياز ومقاومة الأحلاف العسكرية ورفض سياسة الهيمنة أو فرض النفوذ .

واذا كان من شأن هذه المعطيات السياسية أن تسهم ، نظريا على الأقل ، فى ايجاد أرضية مشتركة للتعاون السياسى والاستراتيجى بين المجموعتين العربية والافريقية ، الا انه من المهم ملاحظة انه لا يوجد ادراك عربى موحد او ادراك أفريقى موحد لهذه القضايا . وعلى سبيل المثال فالسياسات العربية نفسها تجاه اسرائيل تختلف والقول نفسه يصدق على موقف الدول الافريقية من جنوب افريقيا . كما أن ادراك هذه الدول جميعا لحقيقة أهداف القوتين العظميين يختلف هو الآخر .

(جـ) دور مشترك مطلوب للاسهام فى صياغة نظام اقتصادى عالمى جديد :

لم تكن اهمية البعد الاقتصادى للعلاقات العربية — الافريقية واضحة فى المراحل الأولى لتطور هذه العلاقات . وكان ذلك يرجع الى أسباب عديدة منها تشابه أو تقارب البنى والهياكل الاقتصادية وانماط الانتاج .. الخ مما ولد انطباعا أوليا بأن اقتصاديات هذه الدول هى اقتصاديات تنافسية وليست تكاملية فى الأساس . وكانت العلاقات الاقتصادية الافقية لا تمثل الا جانبا ضيئلا جدا من حجم النشاط الاقتصادى بهذه الدول بالمقارنة بحجم النشاط مع العالم الخارجى وخصوصا مع الدول المسيطرة على هيكل النظام الرأسمالى .

لكن هذا لم يمنع ان تصبح المعونة واحدة من أهم ادوات السياسة الخارجية للدول العربية ، وخصوصا تلك التى اكتشفت مبكرا أهمية العمق الافريقى للامن القومى العربى وبالذات مصر . وقد اقتصرت هذه المعونة فى مرحلة الكفاح من اجل الاستقلال على الدعم العسكرى والمادى لحركات التحرر الافريقية . وبعد حصول معظم الدول الافريقية على استقلالها بدات أشكال اخرى من المعونات تتدفق فى شكل خبراء وبعثات فنية أو منح دراسية ... الخ . وكانت هذه المعونات تتم لأغراض سياسية أساسا

من بينها محاربة التغلغل الصهيونى فى القارة الافريقية أو التصدى قدر الامكان لبعض محاولات الابتزاز التى تتعرض لها الدول الافريقية من جانب القوى الكبرى .

وعندما قطعت بعض الدول العربية شوطا معقولا فى عملية التصنيع بدأ يتضح أهمية السوق الافريقية لتصريف المنتجات الصناعية . وبالتالى بدأ بعد جديد يظهر كأحد الأبعاد الهامة فى الحوار العربى — الافريقى . لكن البعد الاقتصادى للحوار العربى — الافريقى بدأ ينتقل نقلة كيفية مع بداية الوعى بحقائق النظام الاقتصادى المسيطر التى تقتضى نضالا مشتركا لتعديل شروط التبادل التجارى الدولى وشروط نقل التكنولوجيا واستراتيجيات الشركات متعددة الجنسية ونظام النقد الدولى ... الخ . وحول هذه القضايا شكلت مطالب العالم الثالث نسقا فكريا متكاملا يهدف الى اقامة نظام اقتصادى عالمى جديد .وفى هذا الاطار برزت أهمية تنسيق مواقف الدول العربية والافريقية فى المنظمات الدولية .

لكن هذه المطالب المشتركة بقيت كدقات الطبل الأجوف الى أن أطلت أزمة الطاقة براسها وتمكنت الدول المنتجة للنفط على اثرها من زيادة الاسعار وتكوين فوائض مالية ضخمة . ولأول مرة تبرز مجموعة من دول العالم الثالث كقوة مؤثرة وتلوح امكانية استخدام هذه القوة لاجبار الدول المتقدمة على تعديل موقفها من قضية النظام الاقتصادى العالمى الجديد . وفى الوقت نفسه برزت على السطح أهمية استغلال هذه المتغيرات الجديدة لدفع الحوار العربى — الافريقى من خلال :

١ — توجيه قدر كبير من الفوائض المالية العربية تجاه افريقيا لخدمة المصالح والأهداف السياسية والاستراتيجية لكل من العرب وافريقيا .

٢ — اعادة النظر فى خطط التنمية على مستوى المجموعتين العربية والافريقية فى اتجاه فك الروابط مع العالم الراسمالى وتهيئة الأوضاع لتنمية معتمدة على الذات .

٣ — تنمية التفاعلات الأفقية بين اقتصاديات دول المجموعتين والبدء فى مسيرة تكاملية تعطى للابعاد السياسية للحوار قاعدة مادية تكفل تماسك الحوار على نحو يصعب فصمه بعد ذلك .

ومن الجدير بالذكر ان الحوار العربى ـ الافريقى وصل ذروته فى هذه المرحلة .. وبدأت عملية بناء مؤسساته . لكن ذلك لا يعنى أن هذه الفرصة التاريخية قد تم اغتنامها على الوجه الأكمل كما سنوضح فيما بعد .

نخلص من هذا الاستعراض الى أن كافة المعطيات للعلاقات العربية ـ الافريقية تعطى مساحة واسعة لعمل عربى ـ أفريقى مشترك ، فالمعطيات الجغرافية تؤكد حقيقة أن « البلاد العربية الاسيوية والبلاد الافريقية تشكلان فى واقع الأمر كتلة استراتيجية واحدة »(٦) والمعطيات السياسية تشير الى أن مصادر تهديد الأمن القومى لكل من المجموعتين تكاد تكون واحدة والمعطيات الاقتصادية تؤكد وجود مصلحة مشتركة على مستويات عديدة .

لكن يبقى أن استغلال هذه المساحة الموضوعية لبناء عمل عربى ـ أفريقى مشترك وجاد يتوقف على عوامل كثيرة تتعلق بطبيعة النظم السياسة والاقتصادية والاجتماعية فى كل من الدول العربية والافريقية كما تتعلق بالأوضاع الدولية أيضا .

٣ ـ تطور مسار الحوار العربى ـ الافريقى

سبق أن أشرنا الى أن التفاعلات العربية ـ الافريقية ـ تمتد الى ما قبل عصر الفتوحات الاسلامية . ثم أضاف الفتح الاسلامى لمناطق عديدة من القارة الافريقية ابعادا جديدة لهذه التفاعلات . غير أن التغلغل الاستعمارى فى افريقيا وضع حواجز متعددة بين « افريقيا السوداء » و« افريقيا البيضاء » مما أوقف أو كاد حركة التفاعلات العربية ـ الافريقية ولم تنشأ ، فى اطار النضال ضد الاستعمار ، روابط أو صلات أو عمليات تنسيق بين حركات التحرر العربى وحركات التحرر الافريقية فى المراحل الأولى لظهور هذه الحركات . بالاضافة الى أنه « لم يكن لدعوة العرب للوحدة العربية أو الجماعة الاسلامية أى صدى فى غرب افريقيا أو شرقها.

---

(٦) أمين هويدى : العرب وافريقيا وقضايا الأمن المشترك ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٥٨٣ .

ويبدو انه لم يبق للمسلمين الأفارقة أى تصور للوشائج « العربية — الافريقية » او « الافريقية — الاسلامية » ... وانهم (الأفارقة) تأثروا بما نادى به الاوروبيون من ان أفريقيا السوداء وافريقيا العربية كانتا ومازالتا تمثلان عالمين منفصلين »(٧) .

لذلك فعندما نشأت حركة البان أفريكانزم Pan - Africanism او الجامعة الافريقية او « الوحدة الافريقية » بقيت هذه الحركة بأجنحتها وتصوراتها المختلفة حركة خاصة بافريقيا السوداء . وحتى « نكروما » عندما بدأ فى مناقشة فكرة انشاء « اتحاد الجمهوريات الافريقية الاشتراكية » مع بعض أصدقائه فى لندن عام ١٩٤٦ لم يشرك معه تنظيمات او قيادات من الشمال الافريقى ، رغم أن الحركة الوطنية فى هذه المنطقة كانت متقدمة عنها فى جميع مناطق افريقيا الأخرى(٨) . أما من ناحية الدول العربية فيبدو انه لم تبذل اى محاولة جادة من جانب حركة التحرر العربى لبناء جسور مع حركات التحرر فىافريقيا أو تهتم بحركة الجامعة الافريقية . وحتى مصر فقد بقى اهتمامها محصورا حتى عام ١٩٥٢ فى السودان كأحد « شطرى وادى النيل » . وفى أحسن الأحوال لم تكن اهتمامات مصر الفعلية تتجاوز حوض وادى النيل .

فى هذا الاطار ياتى اهتمام عبد الناصر بافريقيا منذ سنوات الثورة الأولى بمثابة طفرة أو حتى ثورة فى العلاقات العربية — الافريقية . وكان هذا الاهتمام بداية الطريق المستمر والمتصل للحوار العربى — الافريقى .

وفى اعتقادنا أن مسيرة هذا الحوار قد مرت بمرحلتين متميزتين سواء من حيث المضمون الفكرى أو السلوك السياسى : مرحلة ما قبل الحقبة النفطية والتى تمتد منذ قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٤ ، وهى مرحلة تميزت بوجود ملامح لمشروع قومى عربى تقوده مصر . وقد مثلت افريقيا فى اطار هذا المشروع مجالا حيويا للعمل العربى هدف الى ربط المصير الافريقى عضويا بالمصير العربى . وقد استمرت قوة دفع هذا المشروع بعض

---

(٧) يوسف فضل حسن ، مرجع سابق ، ص ٤٤—٤٥ .

(٨) محمد فائق : عبد الناصر والثورة الافريقية ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٧ — ١٨ .

الشيء حتى بعد رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ . اما المرحلة الثانية فهى مرحلة الحقبة النفطية التى انحسر خلالها الدور المصرى وآلت فيه قيادة العمل العربى للدول النفطية اساسا وتميزت بغياب المشروع العربى ، وفيها اتخذ الحوار العربى — الافريقى مسارا آخر من حيث المضمون الفكرى والممارسات السياسية .

اولا — مرحلة ما قبل الحقبة النفطية

حدد عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » مجال حركة السياسة الخارجية المصرية من خلال دوائر ثلاثة متشابكة ومترابطة : الدائرة الأولى وهى الدائرة العربية والدائرة الثانية وهى الدائرة الافريقية والدائرة الثالثة وهى الدائرة الاسلامية . وأوضح عبد الناصر فهمه للدائرة الافريقية على النحو التالى :

« اننا لن نستطيع بحال — حتى لو أردنا — ان نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقيين . لا نستطيع لسبب هام وبديهى وهو اننا فى أفريقيا . ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله »(٩) .

وبالمقارنة بمرحلة القطعية فى العلاقات العربية — الافريقية السابقة على قيام ثورة يوليو ، بدات مسيرة الحوار العربى — الافريقى بعد الثورة المصرية فى اطار سياق خاص لم ينشأ نتيجةالتقاء طبيعى بينارادتين أحدهما عربية والأخرى افريقية وانما نتيجة وعى مبكر بدور مصرى — عربى هدف الى اعداد المسرح الافريقى وتهيئته للالتحام بالأمة العربية . ومن هذه الرؤية الناصرية تبلورت أهداف الأمة العربية وحركتها فى اتجاه افريقيا على النحو التالى :

تصفية الاستعمار على مستوى القارة ، بناء نظام اقليمى يتجاوز اطار الزنجية وتلعب فيه الدول الافرو عربية دورا فاعلا ، ومقاومة التغلغل الاسرائيلى فى القارة الافريقية .

---

(٩) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، وزارة الاعلام (هيئة الاستعلامات) ، د. ت ، ص ٨١ — ٨٢ .

تصفية الاستعمار :

من منطلق أنحماية الاستقلال المصرى تتطلب سياسة نشطة للقضاء على الاستعمار فى المناطق التى يرتبط بها الأمن القومى ارتباطا عضويا تبنت مصر سياسة نشطة لدعم حركات التحرر فى كافة الدول العربية والافريقية وفى هذا الاطار قدمت مصر دعما مهما لكافة حركات التحرر فى افريقيا . ولم يقتصر هذا الدعم على التأييد السياسى فى المحافل الدولية وانما اتخذ الى جانب ذلك صورا متعددة أهمها تقديم الدعم العسكرى لحركات التحرر التى انتهجت خط الكفاح المسلح وخصوصا فىروديسيا وانجولا وموزنبيق وجنوب أفريقيا وتدريب اعداد كبيرة من المناضلين الأفارقة فى المعاهد العسكرية للقوات المصرية المسلحة . كما قامت بفتح العديد من المكاتب السياسية لحركات التحرر الافريقى فى القارة ووجهت اذاعات بمعظم اللغات واللهجات الافريقية الى مختلف أنحاء القارة(١٠) .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن سياسة مصر لم تكن قائمة على محاولة شراء العملاء أو الارتباط بفصيل دون آخر ، فكثيرا ما ساعدت اكثر من حركة تحرر فى دولة واحدة وحاولت أن تستخدم رصيدها السياسى مع الجميع لتوحيد هذه الحركات وزيادة فعاليتها ، وشملت مساعداتها حركات تحرر ذات توجه ليبرالى واخرى ذات توجه ماركسى . وهكذا .

ولهذا تجمعت بالفعل خيوط الثورة الافريقية فى القاهرة التى أصبحت السند الأول والقاعدة الأساسية لهذه الثورة .

واخيرا يجب أن نشير الى نقطة هامة كثيرا ما يتم التغافل عنها أو تجاهلها وهى أن الدعم المصرى (العربى) لحركات التحرر الافريقية لم يكن دعما فى اتجاه واحد وانما سرعان ما تحول الى تلاحم نضالى حقيقى ودعم متبادل . فسرعان ما أصبحت معركة تحرير الجزائر معركة افريقية ونشير هنا بالذات الى قرار مؤتمر الدول المستقلة الذى انعقد فى اكرا عام ١٩٥٨ بالاعتراف بجبهة التحرير الجزائرية كممثل شرعى للجزائر . كما عقد وزراء خارجية الدول المستقلة فى موتروفيا عام ١٩٥٩ ، وبناء على طلب حكومة

---

(١٠) فائق ، عبد الناصر والثورة الافريقية ، ص ٤٤ .

الجزائر المؤقتة ، لبحث المزيد من الدعم السياسى والمادى للثورة الجزائرية، وفيه تقرر قبول حكومة الجزائر المؤقتة كعضو كامل العضوية فى مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة والاجتماعات المنبثقة عنها . وفى المؤتمر الثانى لشعوب الافريقية الذى انعقد فى تونس فى بداية عام ١٩٦٠ صدرت توصية بتكوين فرقة من المتطوعين الأفارقة للمشاركة فى حرب التحرير الجزائرية وهكذا . وفى الاطار نفسه ينبغى أن نشير الى بداية تحول الموقف الافريقى من قضية الصراع العربى — الاسرائيلى بعد عدوان ١٩٦٧ كما سنوضح فيما بعـــد .

بناء الاطار المؤسسى لنظام افريقى على مستوى القارة :

ترتب على مساعدة مصر لحركات التحرر الافريقية مد جسور متينـــة لنعلاقات العربية الافريقية وخصوصا بعد أن برر دور مصر كزعيمة للعالم انعربى . وكانت حركة الوحدة الافريقية قد بدات تدخل مرحلة جديدة بعد استقلال عدد من بلدان القارة ووصول عدد من زعماء حركة الوحدةالافريقية الى السلطة فى هذه البلدان .

وكان يمكن لحركة الوحدة الافريقية أن تستمر متقوقعة فى اطـــارها الزنجى ذى الأساس العنصرى وان تبقى الحواجز قائمة الى الأبد بين أفريقيا السوداء والبيضاء . لكن الجسور التى أقامتهـــا مصر العربية مع حركات التحرر ساعدت على تخليص حركة الوحدة الافريقية منعقدة الزنجية واتجهت نحو بناء نظام تضامنى على مستوى القارة . وكان من اللافت للنظـــر أن يشارك فى أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة ، الذى دعى اليه نكروما لبحث قضية الوحدة الافريقية ، خمس دول عربية هى مصر وليبيا والسودان والمغرب وتونس الى جانب ثلاث دول افريقية هى غانا واثيوبيا وليبيريا .

ونظرا لأن الظروف التى حصلت فيها الدول الافريقية على استقلالها لم تكن واحدة ، حيث انتزعت بعض هذه الدول استقلالها الحقيقى بعـــد معارك سياسية أو عسكرية عنيفة بينما حصل بعضها على استقلاله الشكلى فى اطار ترتيبات محددة فرضت نوعا من التبعية لدول المتروبول ، فسرعان ما انقسمت الدول الافريقية المستقلة الى فريقين تكتلا فى مجموعتين متنافرتين مجموعة دول برازافيل وهو تكتل يضم بعض الدول الناطقة بالفرنسية ويرتبط

ارتباطا وثيقا بالسياسة الفرنسية ، ومجموعة دول « الدار البيضاء » التى تبنت خطا تحرريا ثوريا يطالب بتصفية الاستعمار نهائيا فى القارة ويعتمد مفهوم عدم الانحياز كأسس لسياسته الخارجية . ولأن هذا التجمع الأخير لم يكن تجمعا لغويا لأنه ضم دولا ناطقة بالفرنسية واخرى ناطقة بالانجليزية ودولا عربية ، فضلا عن شعبية التيار الثورى فى القارة فى ذلك الوقت فقد اعتبر هذا التجمع نفسه النواة الحقيقية لحركة الوحدة الافريقية . لكن سرعان ما ادت حركة التحالفات داخل القارة الى ظهور تكتل آخر عرف باسم « مجموعة موتروفيا » .

وبدون الدخول فى تفاصيل الدور المصرى فى اقامة منظمة الوحدة الافريقية يمكن القول دون تجاوز أن مصر لعبت دورا أساسيا للتقريب بين وجهات نظر الدول الافريقية المحافظة منها والثورية للتوصل الى اطار للوحدة الافريقية يحافظ على الشكل الوحدوى على مستوى القارة دون أن يفرغ حركة الوحدة من مضمونها الثورى والتحررى . ولذلك نجح مؤتمر أديس أبابا فى تأسيس منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ حيث اكدت المنظمة أصرارها على تصفية الاستعمار وشكلت لجنة لتحرير أفريقيا اطلق عليها « لجنة التنسيق » تكونت من تسع دول من بينها مصر وضمت معظم الدول الثورية فى القارة ، كما تبنت المنظمة رسميا سياسة عدم الانحياز .

وهكذا كللت جهود مصر ، والتى لحقت بها جهود دول عربية اخرى على رأسها الجزائر ، بالنجاح فى ربط النضال العربى بالنضال الافريقى واصبحت جميع الدول العربية الافريقية تدريجيا جزءا أساسيا وفاعلا فى النظام الافريقى ، ولعبت هذه الدول دور المحور المفصلى الذى يربط بين النظامين العربى والافريقى . ثم بدأت تدريجيا تظهر اطرا مؤسسية للتنسيق بين منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية وخصوصا بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

ولم يكن تحقيق هذا التلاحم بين النظامين العربى والافريقى عملية سهلة فقد استمرت حملة التشكيك فى انتماء مصر الافريقى وفى علاقة القومية العربية بالوحدة الافريقية حتى بعد قيام منظمة الوحدة الافريقية .

مقاومة التغلغل الاسرائيلي فى القارة الافريقية :

لم يكن الصراع العربى — الاسرائيلى واحدا من المحاور الرئيسية للتفاعلات العربية — الافريقية ، على الرغم من أن احدى الدول الافريقية وهى مصر كانت احدى دول المواجهة الرئيسية مع اسرائيل وتعرضت للغزو الاسرائيلى مرتين فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، على الأقل طوال الخمسينات والستينات .

ويرجع ذلك الى اسباب عديدة منها :

١ — تركيز الجهود فى البداية على مهمة تصفية الاستعمار التقليدى فى القارة . وربما اعتقد عبد الناصر انه ليس من المفيد طرح قضايا خلافية تضعف من جبهة النضال العربى — الافريقى المشترك ضد الاستعمار التقليدى فى القارة . فضلا عن أن نجاح تصفية هذاالاستعمار من شأنه اضعاف الركيزة الاستراتيجية التى تعتمد عليها اسرائيل . وقد يكون من المفيد هنا أن نلاحظ أن مصر نفسها لم تقم بتصعيد عدائها لاسرائيل فور قيام الثورة حيث ركزت جهدها فى هذه المرحلة على قضيتى الجلاء والتنمية(١١) .

٢ — نظرا لعمق التغلغل الصهيونى فى أفريقيا ، والموروث عن الحقبةالاستعمارية، آثرت مصر ألا تصبح قضية الصراعالعربى — الاسرائيلى وسيلة لضرب العلاقات العربية — الافريقية فى مرحلة بناء الاطار المؤسسى للنظام الافريقى . ولذلك لم تصر مصر والدول العربية — الافريقية على ادراج قضية الصراع العربى — الاسرائيلى على جدول أعمال المؤتمرات الافريقية العديدة التى شهدتها تلك الفترة ، وخصوصا فى المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الافريقية .

وليس المجال هنا لدراسة أسباب التغلغل الاسرائيلى فى القارة

---

(١١) انظر فى هذه النقطة حسن نافعة : مصر والصراع العربى الاسرائيلى من الصراع المحتوم الى التسوية المستحيلة ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ .

الافريقية ، فهناك دراسات عديدة تناولت هذا الموضوع(١٢) . وقد اتخذ هذا التغلغل مظاهر متعددة اهمها ، تزايد عدد البعثات الدبلوماسية الاسرائيلية فى أفريقيا بصورة مضطردة حتى عام ١٩٧٣ . فقد ارتفع عدد هذه البعثات من ٦ عام ١٩٦٠ الى ٣٢ فى ١٩٧٣(١٣) . وتزايد عدد الخبراء الاسرائيليين فى كافة المجالات بشكل ملحوظ . ولكن ربما كان اخطر هذه المظاهر ابرام اسرائيل لعدد من الاتفاقيات العسكرية والأمنية مع العديد من بلدان افريقيا مع التركيز على دول حوض وادى النيل ففى الفترة من ١٩٦١ — ١٩٦٣ أبرمت اسرائيل اتفاقيات من هذا النوع مع أثيوبيا وأوغندة وكينيا ورواندا وزائير وافريقيا الوسطى وتشاد(١٤) .

وكان من الطبيعى أن يتجه العرب صوب افريقيا بحثا عن التأييد السياسى لموقفهم فى الصراع العربى — الاسرائيلى ، حيث تشكل الدول الافريقية ثقلا تصويتيا كبيرا فى المنظمات الدولية .

وقد بدأ التحول فى الموقف الافريقى تجاه هذا الصراع تدريجيا وبشكل بطىء وخاصة بعد حرب ١٩٦٧ . واسهمت عوامل كثيرة فى احداث هذا التحول منها : الرصيد السياسى لعدد من الدول العربية — الافريقية وفى مقدمتها مصر والجزائر لدى افريقيا والناجم عن مساندتها التاريخية لحركات التحرر فى القارة ، سقوط القناع الذى تخفت وراءه اسرائيل كدولة صغيرة ومسالمة محاطة ببحر من الكراهية العربية وسفوروجهها كدولة توسعية وعنصرية بعد حرب ١٩٦٧ وما تلاها من أحداث ، تعنت اسرائيل تجاه قضية الشعب الفلسطينى ورفضها لكافة التسويات السلمية ، بروز دور منظمة

---

(١٢) انظر على سبيل المثال : عبد الملك عودة : النشاط الاسرائيلى فى افريقيا ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٦ .
عواطف عبد الرحمن : اسرائيل وافريقيا ٤٨ — ١٩٧٣ ، كتب فلسطينية (٥٧) ، بيروت ١٩٧٤ ، انظر على سبيل المثال المراجع التالية :
— مدثر عبد الرحيم : نظرة افريقيا للصراع العربى — الاسرائيلى ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق .

(١٣) مدثر عبد الرحيم ، المصدر نفسه ، ص ٣٩٣ .

(١٤) حلمى الشعراوى : السياسة الاسرائيلية فى افريقيا ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٢٩ .

التحرير الفلسطينية كحركة تحرر واقامتها لجسور قوية مع عدد من حركات التحرر الافريقية ، واخيرا بداية وعى افريقيا بحقيقة وطبيعة علاقات اسرائيل بجنوب افريقيا العنصرية .. وغيرها من العوامل .

ويبدو انه كان لاشراك الدول الافريقية فى محاولات التسوية السلمية عام ١٩٧١ اثر هام فى أحداث هذا التحول . فقد لمست « لجنة الحكماء » الافريقية التى تشكلت بقرار من مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٧١ بناء على اقتراح كينيث كاوندا مدى تعسف اسرائيل .

وكان لتقرير هذه اللجنة الى مؤتمر القمة الافريقى الذى انعقد بالرباط عام ١٩٧٢ أثره فى صدور قرار من المؤتمر يطالب الدول الافريقية بدعم الموقف العربى والامتناع عن تقديم اى مساعدة مادية او معنوية لاسرائيل(١٥) .

وانتقل الموقف الافريقى تجاه اسرائيل نقلة كيفية أخرى بعد أن قررت أربع دول افريقية هى غانا والكونجو وأوغنده وتشاد قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل عام ١٩٧٢ ، ثم تبعتها ٥ دول أخرى هى زائير والنيجر وبوروندى ومالى وتوجو ، وكان لحرب ١٩٧٣ تاثيرات اقليمية وعالمية هامة ساعدت على تعميق العزلة الاسرائيلية وشجعت الدول الافريقية الأخرى على أتخاذ نفس الموقف . وبحلول منتصف السبعينيات كانت جميع الدول الافريقية التى لها علاقات دبلوماسية باسرائيل قد قررت قطع هذه العلاقات ولم يشذ عن هذا الاجماع الافريقى سوى جنوب افريقيا بالطبع والدول التى ترتبط بها أرتباطا وثيقا(١٦) .

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن الموقف العربى عقب حرب ١٩٧٣ بدى صلبا ومتماسكا وخصوصا فى مواجهة اسرائيل مما اسهم اسهاما رئيسيا فى تهيئة الظروف لهذا الاجماع الافريقى . غير انه يتعين علينا أن نضيف

---

(١٥) عصام محسن الجبورى ، العلاقات العربية ـ الافريقية ٦١ ـ ١٩٧١ ، وزارة الثقافة والاعلام ، سلسلة دراسات (٢٤٧) العراق ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨٧ ، نقلا عن يحيى رجب : الرابطة بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ .

أيضا حقيقة على جانب كبير من الأهمية وهى أن قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بقى شكليا لأنه لم يستتبعه قطع العلاقات الاقتصادية أو الثقافية أو العسكرية . أيضا فان هذا الموقف لم يكن يعبر عن تحول جوهرى فى النظرة الافريقية للصراع العربى — الاسرائيلى ، فقد بقى الموقف الافريقى مستندا فى أعماقه الى قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٨ . ذلك لا يعنى التقليل من شأن خطوة قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ولكننا نود أن نؤكد على أن هذه الخطوة لم تكن نهاية المطاف وانما كانت تقتضى عملا عربيا مكثفا لكى تتلوها خطوات تهدف الى اقتلاع التأثير الصهيونى فى افريقيا من جذوره واحداث تحول جوهرى فى رؤية أفريقيا للحركة الصهيونية وارتباطاتها الاستعمارية والعنصرية وما تمثله من خطورة على الأمن القومى الافريقى من خلال ارتباطها بحكومة جنوب أفريقيا .

وقد لاح هذا الأمل لفترة عقب حرب أكتوبر لكنه ما لبث أن انهار مع تفكك الوضع العربى الذى أحدث تأثيرات عكسية خلقت وضعا مواتيا لكى تعيد أو تفكر بعض الدول الافريقية فى اعادة علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل .

نخلص من هذا الى أن الفترة الممتدة من ١٩٥٢ — ١٩٧٤ قد شهدت غرسا واعيا فى تربة العلاقات العربية — الافريقية كما شهدت بداية الحصاد أيضا . وقد تميزت هذه الفترة بقيادة مصر للنظام الاقليمى العربى ووجود تصور لمشروع قومى عربى حاولت سياسة مصر الافريقية خدمته ودعمه . وتمت فى هذه الفترة تعبئة الموارد المصرية والعربية لبناء قاعدة مادية لدور عربى مشترك مؤثر فى افريقيا . واعتمدت مصر فى بناء هذه القاعدة على علاقاتها النضالية بحركات التحرر الافريقية . وفى مرحلة ما بعد الاستقلال حاولت قدر طاقتها ، أن تقدم الخبراء لسد بعض احتياجات التنمية فى هذه البلدان كما فتحت أبواب معاهدها التعليمية لاستقبال آلاف الطلاب الأفارقة .

وحول هذه النقطة الأخيرة قد يكون من المفيد أن نذكر أن مصر اهتمت اهتماما خاصا بالجاليات الاسلامية والعربية فى افريقيا فأقامت العديد من المساجد والمراكز الاسلامية ووجهت لافريقيا اذاعة خاصة تبث القرآن الكريم وخصصت اذاعة لتعليم اللغة العربية للافريقيين ، لكن مصر لم تحاول

افتعال ضجة حول هذا النشاط الموجه للجاليات الاسلامية بسبب حساسية الحكومات الافريقية تجاهه(١٧) . وعرفت مصر عبد الناصر كيف تفرق بين واجبها ودورها كدولة عربية — اسلامية وبين اهدافها السياسية الرامية الى تصفية الاستعمار فى افريقيا والتى يتطلب تحقيقها توحيد الجهود وليس تفجير خلافات جديدة . ولذلك لم تنساق مصر وراء اغراء اقامة تكتلات من الدول الاسلامية فى القارة الافريقية(١٨) ، أو تحدد مواقفها من التغييرات الاجتماعية التى هبت على القارة فى مرحلة ما بعد الاستقلال على أساس دينى .

واهتمت مصر أيضا بالبعد الاقتصادى لتوسيع رقعة مصالحها فى أفريقيا وحاولت تطوير تجارتها مع الدول الافريقية رغم كل العقبات التى واجهتها نتيجة سيطرة الاحتكارات الأجنبية على عمليات استخراج وتسويق المواد الأولية فى السوق الافريقية . ومنذ عام ١٩٦١ انشأت مصر فروعا عديدة لشركة النصر للتصدير والاستيراد فى أفريقيا كما قدمت بعض القروض .

واذا كنا قد ركزنا فى حديثنا عن الحوار العربى — الافريقى فى هذه الفترة على الدور المصرى فذلك لأن هذا الدور كان هو الدور الرائد والأقوى تأثيرا . وقد ادت دول عربية أخرى مثل الجزائر والمغرب وليبيا والكويت والسعودية أدوارا متفاوتة فى مرحلة او أخرى من مراحل تطور النظام العربى ، لكن هذه الأدوار استوعبت أجمالا فى اطار المشروع القومى الذى تقوده مصر أو على الأقل لم تؤثر على توجهه الرئيسى حين كان بعض هذه الأدوار خارجا عليه .

ولقد تأثر دور مصر فى النظام العربى بالطبع نتيجة تأثر نمط التحالفات ونموط توزيع موارد وامكانات هذا النظام وخصوصا بعد حرب ١٩٦٧ ، وانعكس ذلك على فاعلية السياسة العربية تجاه افريميا . ومع ذلك فقد

---

(١٧) محمد فائق ، عبد الناصر والثورة الافريقية ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

بقيت التوجهات الرئيسية لمصر وللمشروع العربى كما هى ودون تعديل يذكر اللهم الا فى الأساليب والتكتيكات . ومع نهاية حرب أكتوبر كان واضحا أن النظام العربى بدأ يجنى ثمار غرس تم زرعه بصبر وأناة طوال أعوام عديدة من المعاناة .

ومن الملاحظات الرئيسية على هذه المرحلة ايضا أن التعاون العربى - الافريقى لم يدخل خلالها طور التنسيق المؤسسى بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ، صحيح أن جامعة الدول العربية بدات تهتم ، تحت ضغط الدول العربية الافريقية ، بالقضايا الافريقية اعتبارا من عام ١٩٥٧ لكن دورها وتأثيرها على مجرى الأحداث بقى محدودا(١٩) .

ثانيا : مرحلة ما بعد أكتوبر ١٩٧٣
(الحقبة النفطية)

اتسمت هذه المرحلة فى بدايتها بتعاظم قوة النظام العربى بدرجة كبيرة كمحصلة لعاملين رئيسيين :

الأول : تماسك النظام العربى بدرجة لم يسبق لها مثيل أثناء حرب أكتوبر وما بعدها مباشرة . فقد كان هناك تنسيق عسكرى كامل بين دولتين من دول المواجهة مع اسرائيل وهما مصر وسوريا ، وساهمت الدول العربية الأخرى بمجهود حربى ودعم عسكرى ملحوظ . وجاء الأداء العسكرى للجانب العربى فى هذه الجولة من جولات المواجهة العسكرية مع اسرائيل رائعا بالمقارنة مع الجولات الأخرى . وفى الوقت نفسه شاركت الدول العربية النفطية بدعم تماسك النظام العربى بقرار الحظر البترولى على الولايات المتحدة والدول المساندة لاسرائيل فى الحرب . وهكذا بدى النظام العربى بجناحيه الراديكالى والمحافظ وكأنه نسقا واحدا على الصعيد الدولى .

الثانى : توافر امكانات مادية هائلة لم تتح للنظام العربى من قبل من خلال الزيادات المتلاحقة فى أسعار النفط عقب حرب أكتوبر ، وتراكم

---

(١٩) انظر يوسف الحسن : التعاون العربى الافريقى ، بيروت ، دار الوحدة العربية ، ١٩٨٢ ، ص ١٩ .

لدى الدول العربية المصدرة للنفط ارصدة مالية ضخمة وفى فترة زمنية وجيزة .

وفى ظل تماسك النظام العربى فقد بدت هذه الأرصدة المالية المتراكمة وكأنها اضافة كبرى لقدرات وامكانات النظام ككل .

فى الوقت نفسه ارتسمت على النظام الافريقى بعض ملامح الوهن نتيجة انخفاض امكاناته وبالذات امكاناته الاقتصادية بسبب استمرار الأزمة الاقتصادية فى الغرب وانعكاساتها السلبية على اقتصاديات الدول الافريقية المرتبطة بها . وزاد رفع أسعار النفط من حدة الأزمة الاقتصادية فى أفريقيا(٢٠) .

وقد كان لهذه المعطيات الجديدة ، وفى ضوء التقارب الكبير الذى تم بين النظامين العربى والافريقى فى المرحلة السابقة ، وانعكاساتها المباشرة على مسيرة الحوار العربى — الافريقى .

ومما يلفت النظر فيما يتعلق بمسيرة هذا الحوار وخصوصا فى السنوات الأولى لتلك المرحلة وبالذات فى الفترة من ٧٣—٧٧ ما يلى :

١ — ان مبادرات التقارب واقتراحات العمل المشترك كانت تأتى أساسا من الجانب الافريقى .

٢ — ان استجابة الجانب العربى كانت سريعة بل وفى كثير من الأحيان فورية .

فقد اجتمع مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى دورة استثنائية عقدت فى أديس أبابا فى الفترة من ١٩ — ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ . وفى التقرير الذى قدمه السكرتير العام لمنظمة الوحدة الافريقية الى المؤتمر والذى على ضوئه أصدر المجلس قرارا شاملا يتعلق بالوضع فى الشرق الأوسط برزت مواقف افريقية واضحة وقاطعة لأول مرة منها :

---

(٢٠) ناصيف حتى : العرب و الأفارقة فى عالم متغير ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٨١٦ .

١ — ابراز ان التحالف الذى ظهر أثناء الحرب بين جنوب افريقيا والبرتغال واسرائيل يشكل تهديدا لأمن القارة الافريقية .

٢ — التأكيد على حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وشرعية نضاله ضد الاستعمار .

وفى الوقت نفسه أوصى المؤتمر بالابقاء على قطع العلاقات مع اسرائيل لحين انسحابها من كافة الأراضى العربية المحتلة ولحين استعادة الشعب الفلسطينى لكافة حقوقه القومية المشروعة . كما دعى جميع الدول الأعضاء فى المنظمة لفرض حظر اقتصادى كامل وخاصة فى مجال البترول بالنسبة لاسرائيل والبرتغال وجنوب افريقيا وروديسيا .

وكان ابرز ما اتخذه هذا المؤتمر من قرارات تتعلق بالحوار العربى — الافريقى هو تشكيل لجنة من سبع دول افريقية هى : تنزانيا — غانا — الكاميرون — مالى — بتسوانا — السودان — زائير مهمتها تنظيم وتطوير التعاون العربى — الافريقى عن طريق الاتصال بجامعة الدول العربية .

ولم تمر سوى أيام قليلة حتى انعقد مؤتمر القمة العربى السادس فى دورة طارئة بالجزائر فى الفترة من ٢٦ — ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ وكان من اللافت للنظر أن يحضر موبوتو هذا الاجتماع كمراقب ممثلا لمنظمة الوحدة الافريقية وكانت استجابة المؤتمر للمبادرة الافريقية فورية على جميع المستويات :

— فقد اتخذ المؤتمر قرارا بقطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والاقتصادية والثقافية وغيرها مع جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا من جانب الدول العربية التى تقم بذلك من قبل ، وفرض حظر بترولى عليها مع اتخاذ اجراءات خاصة لضمان وصول امدادات النفط الى الدول الافريقية حتى لا تتأثر بقرار الحظر على بعض الدول الغربية .

— رحب بقرار تشكيل اللجنة السباعية وقام بدوره بتكليف الامانة العامة لجامعة الدول العربية باتخاذ الاجراءات التنفيذية لتنظيم المشاورات اللازمة مع اللجنة .

— اتخذ عدة قرارات لتقديم مساعدات عاجلة للشئون الافريقية المتضررة من الكوارث الطبيعية والقحط وانشاء مصرف عربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا يدار على أسس تجارية(٢١) .

وفى الدورة العادية لمجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية المنعقد فى مقديشيو فى الفترة من ٦ — ١١ يونيو ١٩٧٤ طالب المؤتمر بدراسة امكانية عقد مؤتمر وزارى أفريقى — عربى « للتعاون المشترك من اجل وضع استراتيجية عربية — افريقية للتنمية » . كما تقدمت الصومال باقتراح للامانة العامة لجامعة الدول العربية بعقد مؤتمر قمة افريقى/ عربى . وفى مؤتمر القمة العربى السابع بالرباط (أكتوبر ١٩٧٤) ووافق على اقتراح مؤتمر القمة الافريقى/العربى .

وقد شهدت الفترة التالية مشاورات مكثفة بين الجانبين انتهت بتوسيع اللجنة الافريقية السباعية الى لجنة مكونة من اثنى عشر عضوا وانشاء لجنة عربية مقابلة بنفس العدد . وفى ٩ يوليو ١٩٧٥ عقد أول اجتماع مشترك بين لجنتى الاثنى عشر على مستوى الوزراء وصدر عن هذا الاجتماع بيان مشترك يحدد أسس التعاون العربى — الافريقى وأهدافه ويتضمن برنامجا للعمل . وفى الفترة من ١٩ — ٢٢ ابريل ١٩٧٦ اجتمع فى داكار جميع وزراء الخارجية العرب والافارقة وصدر عن المؤتمر « اعلان وبرنامج عمل بشأن التعاون العربى — الافريقى المشترك » . ثم عقدت لجنة الاربعة والعشرين اجتماعا آخر فى لومى بتوجو على مستوى وزراء الخارجية فى يناير ١٩٧٧ ، فمؤتمر وزراء الخارجية العرب والأفارقة الثانى بالقاهرة فى الفترة من ٣ — ٦ مارس ١٩٧٧ وهو المؤتمر الذى سبق مباشرة انعقاد أول مؤتمر قمة عربى — افريقى فى الفترة من ٧ — ٩ مارس ١٩٧٧ بالقاهرة(٢٢) .

وهكذا شهدت هذه الفترة ايقاعا سريعا للعمل العربى — الافريقى المشترك . وبانعقاد مؤتمر القمة العربى — الافريقى الأول دخلت العلاقات

---

(٢١) انظر التعاون الافريقى — العربى (١٩٧٧ — ١٩٧٨) ، وزارة الخارجية المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ — ١٧ .

(٢٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨ — ٢٣ .

العربية — الافريقية مرحلة بناء المؤسسات لضمان استمرارية هذه العلاقات وشمولها وتحديد المبادىء والاسس التى تحكمها . وسوف نتعرض فيما بعد لهذه المؤسسات بقدر أكبر من التفضيل .

ان تحليل الوثائق الصادرة عن مؤتمر القمة الافريقى — العربى الأول يولد انطباعا بأن هذه الوثائق تعكس رؤية شاملة ومتوازنة لطبيعة العلاقات العربية — الافريقية وتحاول تطوير هذه العلاقات آخذة فى الحسبان تراث هذه العلاقات والخبرة التاريخية التى تكونت نتيجة للتفاعلات العميقة التى تمت بين العرب والأفارقة طوال الخمسينات والستينات . وتفند هذه الوثائق كل الادعاءات الاسرائيلية التى حاولت الترويج لمقولة ان التعاون العربى — الافريقى ما هو فى حقيقة الأمر سوى شراء لموقف الدول الافريقية السياسى تجاه الصراع العربى — الاسرائيلى مقابل حفنة من دولارات النفط.

وليس فى هذه المقولة اى انصاف لا للعرب ولا للافارقة لأن الموقف الافريقى تجاه الصراع العربى — الاسرائيلى كان قد بدأ يتطور بشكل ملحوظ قبل الحقبة النفطية كما سبق أن أشرنا . فوثائق المؤتمر تعكس حقيقة أن العلاقات العربية —الافريقية أوسع بكثير من مجرد مقايضة موقف سياسى بدعم مالى أو اقتصادى . وأعتقد أن هذه الوثائق تعبر عن محاولة فكرية للامساك بلحظة تاريخية بدى فيها النظام العربى وكأنه قادر بالفعل على أن يشارك مشاركة حقيقية فى اعادة صياغة النظام الدولى لمصلحته ، على الرغم من أن الممارسات سارت فى طريق آخر .

وقد صدر عن مؤتمر القمة أربع وثائق : اعلان سياسى ، وبرنامج عمل، واعلان حول التعاون الاقتصادى والمالى ، ووثيقة عن تنظيم طريقة العمل لتحقيق التعاون العربى — الافريقى . وللانصاف فان المنطلق الفكرى بهذه الوثائق ارتكز على دعامتين رئيسيتين احدهما سياسية والأخرى اقتصادية :

الدعامة السياسية تنطلق من الاقرار بحقيقة تشابه مصادر تهديد الامن القومى العربى والأمن القومى الافريقى . فالسياسات العنصرية والتوسعية لحكومة جنوب افريقيا تشكل مصدر التهديد الرئيسى للدول الافريقية كما أن السياسات التوسعية والعنصرية لاسرائيل تشكل مصدر التهديد الرئيسى للدول العربية والتنسيق السياسى والعسكرى بين حكومتى

جنوب افريقيا واسرائيل يفرض تنسيقا مضادا بين الحكومات العربية والافريقية . وتشدد هذه الوثائق كلها على أهمية النضال المشترك فى مواجهة كل من اسرائيل وجنوب أفريقيا .

الدعامة الاقتصادية : تنطلق من الاقرار بحقيقة أوضاع التخلف التى فرضت على الشعوب العربية والافريقية طوال الحقبة الاستعمارية وتؤكد ضرورة العمل المشترك للخروج من اثار التبعية . وتشير هذه الوثائق فى اماكن متعددة الى أهمية تعديل علاقات عدم التكافؤ فى النظام الاقتصادى الدولى مستندة الى ميثاق الجزائر واعلان ليما وقرارات وبرنامج العمل للتعاون الاقتصادى الصادرة عن مؤتمر القمة الرابع لدول عدم الانحياز ووثائق الأمم المتحدة الخاصة باقامة نظام اقتصادى عالمى جديد . وهنا تكمن حقيقة أن التعاون الاقتصادى العربى — الافريقى لم يكن مقصودا منه مجرد تقديم دعم من جانب الدول التى لديها فوائض مالية الى دول تحتاج الى هذه الفوائض وانما تعاون مشترك من أجل تعديل وتصحيح علاقات عدم التكافؤ فى اطار النضال الأشمل لدول العالم الثالث .

ويدل تطوير التعاون العربى — الافريقى فى المرحلة اللاحقة على أن هذه المنطلقات الفكرية والتى عكست فى حقيقة الأمر الخبرة التاريخية للعلاقات العربية — الافريقية وتوهجت فى ضوء حرب اكتوبر ، قد جاءت عام ١٩٧٧ فى غير أوانها . ذلك أن النظام العربى كان يمر بفترة تحولات عميقة سوف يكون لها أكبر الأثر على مسار الحوار العربى — الافريقى . بل لو كان قد قدر أن يتأخر انعقاد مؤتمر القمة العربى — الافريقى عدة شهور أخرى ، فلربما استحال عقد هذا المؤتمر على الاطلاق . من هنا فليس من المستغرب أن تحدث هذه المفارقة بين المنطلقات الفكرية لوثائق مؤتمر القمة العربى — الافريقى ، وهى فى جوهرها تحررية وراديكالية ، وبين الممارسات الفعلية التى عكست حقيقة التحولات التى كانت تعتمل فى احشاء النظام العربى منذ فترة وظهرت بوادرها فى مؤتمر القمة نفسه حين أُعلنت السعودية ودول الخليج عن حجم الموارد التى تعتزم تخصيصها للتنمية فى افريقيا ، بشكل مفاجىء ودون التشاور المسبق مع احد ، وتوقف على هذا

انعقاد المؤتمر نفسه(٢٣) وكان هذا الاعلان يعنى شيئا واحدا أن مركز الثقل فى الحوار العربى — الافريقى قد تغير وأن حقائق جديدة قد طرأت على النظام العربى .

ومن بين التحولات التى شهدها النظام العربى فى فترة الحقبة النفطية وكان لها اكبر الأثر على مضمون ومسار الحوار العربى — الافريقى فى تلك المرحلة بالمقارنة بالمرحلة السابقة تحولان رئيسيان :

الأول : اعادة توزيع القدرات والامكانات داخل وحدات النظام العربى بحيث انتقلت مواقع التأثير والقيادة فى النظام العربى من « دول الثورة » الى « دول الثروة » . وقد أدى هذا بدوره الى انتقال مركز الثقل فى الحوار العربى — الافريقى من منطقة الترابطالجغرافى أى الدول الافرو — عربية الى منطقة الخليج الاسيوية . ونظرا لارتباط هذه المنطقة العربية أكثر من غيرها بالقطب الامريكى فقد انعكس هذا فى قواعد سلوك معينة مشتقة من طبيعة وسلوكيات هذه الأطراف العربية(٢٤) .

وبالتالى أصبح مسار الحوار العربى — الافريقى اكثر عرضة للتأثير أو الاختراق الامريكى من قبل . يضاف الى هذا أن منطقة الخليج وبالذات السعودية لم تكن دوما شديدة الحماس للنظام العربى — وكانت تفضل عليه تقليديا النظام الاسلامى أو العلاقات الثنائية — فان سلوكها وتأثيرها على مسار الحوار العربى — الافريقى قد عكس مصالحها الخاصة وعلاقاتها الثنائية بالأطراف الافريقية بأكثر مما عكس مصالح النظام العربى ككل . ومما يؤكد هذا اصرار هذه الدول على أن تتدفق معظم المعونات التى أعلنت عنها فى مؤتمر القمة العربى — الافريقى لصالح الدول الافريقية من خلال الصناديق الوطنية الخاصة وليس من خلال مؤسسات الحوار أو حتى مؤسسات الجامعة العربية المخصصة للتعاون العربى — الافريقى(٢٥) .

---

(٢٣) على ابو سن ، العرب وتحديات الحوار مع افريقيا ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٥٠ .

(٢٤) جميل مطر : ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، من تعقيب على بحث ناصيف حتى السابق الاشارة اليه ، ص ٧٣٣ .

(٢٥) انظر على أبو سن ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

ونظرا لافتقاد هذه الدول الى الخبرة فى التعامل مع افريقيا وعداءها التقليدى للمشروع القومى العربى فقد حاولت أن تمد نفوذها الى افريقيا ، لا من خلال توثيق العلاقة بحركات التحرر أو تقديم خبرات تنموية كما كان يحدث من قبل ، وانما من خلال نشر الدعوة الاسلامية أو دعم الأقليات أو الأغلبيات الاسلامية فى القارة مما اثار العديد من الحساسيات السياسية .

ومما لا شك فيه أن الدول العربية المصدرة للنفط قد وجهت معونة اقتصادية كبيرة الى الدول الافريقية وخصوصا تلك الأقل نموا وبشروط ميسرة نسبيا بالمقارنة بشروط المعونة المحولة من الدول الصناعية الى الدول النامية . فقد بلغ مجموع الالتزامات العربية تجاه الدول الافريقية فى الفترة من ٧٣ ــ ١٩٨١ ٥ر٣ مليار دولار لم يسحب منها من جانب الدول الافريقية خلال تلك الفترة سوى ٧ر١ مليار ويلاحظ على هذه المعونة ما يلى :

١ ــ ان الجزء الأعظم من هذه المعونة تم من خلال قنوات ثنائية . فقد بلغ حجم الالتزامات العربية الثنائية للدول الافريقية فى الفترة من ٧٣ ــ ١٩٨١ ٤ر٢ مليار دولار اى حوالى ٧٠٪ من الالتزامات الكلية بينما لم يقدم المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا وبنك التنمية الافريقى وصندوق التنمية الافريقية سوى ٤٧١ مليون دولار فقط . والباقى من مؤسسات دولية أخرى مثل البنك الاسلامى وصندوق الاوبك(٢٦) وهذا يعنى فى الواقع أن المؤسسات التى انشأت لدفع الحوار العربى الافريقى لم تسيطر الا على حوالى ١٢٪ من المعونة المقدمة .

٢ ــ ان هذه المعونات لم توظف فى اطار استراتيجية تنموية جديدة يكون هدفها فك روابط التبعية والاعتماد على الذات من خلال محاولة تحقيق « الاكتفاء الذاتى الجماعى » بين العرب وافريقيا ، على الأقل فى قطاعات معينة ، وانما لعبت هذه المعونات نفس وظيفة المعونات المقدمة من الدول الرأسمالية والرامية الى الابقاء على نفس علاقات التبعية القديمة(٢٧) بل وربما حلت المعونات العربية فى بعض الأحيان محل المعونات المقدمة من

---

(٢٦) طاهر حمدى كنعان : البعد الاقتصادى للعلاقات العربية ــ الافريقية المعاصرة ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .

(٢٧) انظر تعقيب سمير أمين على بحث طاهر كنعان ، المرجع السابق.

الدول الرأسمالية للبلدان الافريقية للتخفيف عن أزمة النظام الرأسمالى، مع خدمة نفس الأهداف .

الثانى : تغير جذرى فى المفاهيم والمنطلقات الفكرية للتوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر انعكس على تصور مصر لدورها الاقليمى والدولى ومن ثم اختلف نمط تحالفاتها الاقليمية والدولية اختلافا أساسيا فى هذه المرحلة بالمقارنة بنمط تحالفاتها الاقليمية والدولية فى الخمسينات والستينات . وقد انعكس هذا على دور مصر فى الحوار العربى — الافريقى بصفة خاصة ومن ثم على مسيرة هذا الحوار بشكل عام وذلك من زوايا عديدة :

١ — فى ظل العلاقات الخاصة والمتنامية بين مصر والولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤ ، أصبح الدور المصرى فى الحوار العربى — الافريقى مرتبطا بشكل أو باخر بالاستراتيجية الامريكية فى افريقيا والشرق الأوسط . وكانت مصر بثقلها السياسى واشعاعها الثقافى وبدورها المحورى فى العلاقات العربية — الافريقية توجه هذه العلاقات فى اتجاه التمرد على النظام الدولى المهيمن وتحقيق الاستقلال والتحرر السياسى والاقتصادى للمنطقة طوال الخمسينات والستينات . فاذا ما اضفنا الى هذا حقيقة انتقال مركز الثقل والتأثير فى الحوار العربى — الافريقى من منطقة الترابط الجغرافى أى الدول الافرو — عربية الى منطقة الخليج العربية حيث تتكدس الثروة — وهى منطقة مرتبطة تقليديا بالاستراتيجية الامريكية — لادركنا مدى الخلل الذى حدث فى توجهات الحوار العربى — الافريقى بالنسبة لعلاقة أطراف هذا الحوار بطرفى النظام الدولى وبالتحديد فى الوقت الذى بدأ فيه هذا الحوار يدخل مرحلة بناء مؤسساته المشتركة .

ويقول أحد خبراء السياسات العربية ، « أن مصر لعبت دورا أساسيا باعتبارها الدولة التى تقوم بثلاثة أدوار فى وقت واحد ، فهى الطرف القلب فى أحد النظامين وهو النظام الاقليمى العربى ، وهى الطرف الرئيسى فى « منطقة القلب » فى النظام الافريقى ، وهى أهم أطراف منطقة الترابط الجغرافى بين النظامين العربى والافريقى .. وحين تحول هذا الطرف القلب من دور « المنظم » لنبضى وتفاعلات النظام العربى الى دور «الوسيط»

بين أطراف خارجيه وأطراف النظام كان عليه أن يقوم بالوظيفة نفسها فى النظام الاخر .. وقد أدى هذا التحول الى حدوث ارتبـــاك فى التفاعلات القائمة بين أطراف النظام ، وكان لابد أن تعاد صياغة التفاعلات العربية ومن بعدها التفاعلات العربية ــ الافريقية بحيث تستند الى قلب نوعى « يحل محل القلب السياسى أو الطبيعى »(٢٨) .

٢ ــ ترتب على تغير النهج المصرى فى الصراع العربى ــ الاسرائيلى نتائج خطيرة الأهمية على مضمون الحوار العربى ــ الافريقى ومساره . فمن ناحية تصورت مصر انها تستطيع اغراء الولايات المتحدة وحثها على أن تلعب دورا أكبر فى الضغط على اسرائيل للانسحاب من الأراضى العربية وايجاد تسوية شاملة فى الشرق الأوسط ، من خلال اقناعها بأنها تستطيع أن تلعب لحسابها دورا أكثر تأثيرا فى أفريقيا من الدور الذى تستطيع أن تلعبه اسرائيل . ويصعب فهم الدور المصرى فى احداث شابا عامى ٧٧ ، ١٩٧٨ ومساندتها لنظام موبوتو خارج هذا السياق .

وكان هذا يعنى بشكل أو باخر تحولا فى مفهوم مصر لقضايا الأمن المشترك فى اطار الحوار العربى الافريقى اذ أصبح الاتحاد السوفيتى مهددا للامن الافريقى والعربى بأكثر مما تهدده اسرائيل والولايات المتحدة .. ومن ناحية أخرى فقد فتح ابرام مصر لاتفاقية صلح مع اسرائيل ثغرة هائلة فى جدار عزلة اسرائيل الافريقية ، واصبح من السهل تبرير التراجع الافريقى عن قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بمقولة أن اسرائيل قد انسحبت من الأراضى المحتلة ، وهى الدولة الافريقية الوحيدة التى كانت اسرائيل تحتل اجزاء من أراضيها ، وانه من غير المعقول أن تقطع الدول الافريقية علاقاتها باسرائيل فى وقت تقوم فيه اكبر دولة عربيـــة وأهم دولة أفريقية « بتطبيع » علاقاتها مع اسرائيل . فى هذا الاطار فقد كانت زيارة اسرائيل السرية لست دول افريقية هى جمهورية أفريقيا الوسطى ، وساحل العاج والجابون وزائير وربما نيجيريا وليبيريا ممكنة(٢٩) ، كما كان اعـــلان

---

(٢٨) جميل مطر ، مرجع سابق ، ص ٧٣١ .

(٢٩) حلمى الشعراوى : السياسة الاسرائيلية افريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٦ .

موبوتو نفسه لعودة العلاقات مع اسرائيل لعام ١٩٨٣ ممكنا ايضا .. ومن ناحية ثالثة فقد ادت عزلة مصر عن النظام العربى بسبب تغير النهج المصرى فى الصراع العربى ـ الاسرائيلى الى انفراط العقد العربى تماما وارباك مسيرة الحوار العربى ـ الافريقى نفسها حيث ادى الاصرار على عزل مصر من مؤسسات الحوار الى توقف معظم هذه المؤسسات . فلم ينعقد مؤتمر القمة العربى ـ الافريقى والذى كان مقررا له أن يعقد اجتماعا دوريا كل ٣ سنوات منذ انعقاد مؤتمره الأول فى مارس ١٩٧٧ حتى الآن .

وهكذا ادت التحولات المختلفة التى شهدها النظام الاقليمى العربى خلال الحقبة النفطية الى تغير فى عقيدة الحوار العربى ـ الافريقى واهدافه وتوزيع الأدوار بين أطرافه وتعرض لاختراق من الخارج لم يسبق له مثيل فى نفس لحظة محاولة « ما اسسه » هذا الحوار ، وذلك قبل ان تتجسد هذه المؤسسات نفسها نتيجة خروج مصر من النظام الاقليمى العربى .

٤ ـ مؤسسات الحوار العربى ـ الافريقى

تثير دراسة مؤسسات « الحوار » العربى ـ الافريقى عددا من القضايا الرئيسية وهى تفصح عن عمق المشاكل الهيكلية أو البنوية فى هذا «الحوار» فعندما نتحدث عن مؤسسات الحوار العربى ـ الافريقى فمن الطبيعى أن يتصرف الذهن الى المؤسسات العربية ـ الافريقية المشتركة أى تلك التى تشارك أطراف الحوار فى تأسيسها وادارتها ، سواء بشكل جماعى او على الأقل باختيارهم الجماعى . لكننا حين نحاول حصر المؤسسات المهتمة بالتعاون العربى ـ الافريقى سوف نجدنا أمام أربعة أنواع على الأقل من هذه المؤسسات :

أولا : هناك المؤسسات الوطنية للتنمية فى العديد من البلدان العربية التى توجه قسطا كبيرا من استثماراتها أو معوناتها او انشطتها الاقتصادية بصفة عامة الى الدول الافريقية . من ذلك مثلا : الصندوق السعودى للتنمية، والصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية ، وصندوق ابو ظبى للانماء الاقتصادى العربى « والمصرف العربى الليبى الخارجى » .. وغيرها ، ويمكن أن ندرج فى هذا الاطار ايضا الصندوق المصرى للمعونة الفنية لافريقيا والتابع لوزارة الخارجية المصرية .

وحكومات الدول المعنية هى التى تدير هـذه المؤسسـات وتوجـه سياستها ، وهى وان كانت توجه قدرا من انشطتها الى الدول الافريقية الا أن هذه الأنشطة تدخل فى حقيقة الأمر فى اطار العلاقات الثنائية وليس فى اطار العمل الجماعى العربى الموجه لافريقيا أو العمل العربى — الافريقى المشترك .

ثانيا: هناك المؤسسات الدولية للتنمية والتى تسهم عدد من الدول العربية بالقسط الأكبر من رأسمالها ، وتوجه قدرا من اسـتثماراتها أو أنشطتها الاقتصادية الى افريقيا . من هذه المؤسسات البنك الاسـلامى للتنمية ، وصندوق الأوبك للتنمية الدولية . وعلى الرغم من أن الثقل العربى فى هذه المؤسسات هو ثقل ملحوظ ومؤثر ، الا أن اطارها أوسع من الاطار العربى ، ومن ثم فهى بدورها لا تعتبر مؤسسات عربية جماعية صرفة موجهة لخدمة التنمية فى افريقيا او مؤسسات عربية — افريقية مشتركة .

ثالثا : هناك مؤسسات عربية للتنمية الاقتصادية او التعاون الفنى فى افريقيا وهذه المؤسسات نشأت بقرار من مؤتمرات القمة العربيـة وتعتبر بشكل أو باخر أجهزة تابعة لجامعة الدول العربية . من هذه المؤسسات : المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا والصندوق العربى للمعـونة الفنية للدول الافريقية والعربية .

والمصرف العربى هو مؤسسة عربية مالية تتمتع بالشخصية القانونية المستقلة وتهدف الى الاسهام فى تمويل التنمية وتشجيع رؤوس الأمـوال العربية وتوفر المعونة الفنية اللازمة للتنمية فى أفريقيا . والعضوية فى هذه المؤسسة قاصرة على الدول العربية التى تقبل المساهمة فى رأسمال المصرف. وقد بلغ رأس المال المكتتب فيه ابتداء ٢٣١ مليون دولار امريكى .

اما الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الافريقية والعربية فهـو — طبقا لنظامه الأساسى — احد اجهزة الامانة العامة لجامعة الدول العربية ويتمتع بالشخصية القانونية فى الحدود اللازمة لتحقيق أهدافه والتى تتمثل فى تقديم المعونة الفنية فى مجالات التنمية الاقتصادية والعلمية للدول العربية والافريقية. ويرأس الأمين العام لجامعة الدول العربية مجلس ادارة الصندوق وينوب عنه الأمين المساعد .

وعلى الرغم من بعض التباين بين هاتين المؤسستين حيث تعتبر الأولى منظمة عربية مستقلة بينما تعتبر الثانية فرعا من فروع جامعة الدول العربية الا انهما يشتركان فى سمة أساسية وهى انها اجهزة جماعية عربية خالصة توجه نشاطاتها نحو الدول الافريقية ، على الرغم من أن نشاط الصندوق يشمل الدول العربية ايضا .

لكن هذه المؤسسات لا تعتبر مؤسسات عربية — افريقية مشتركة .

رابعا : واخيرا هناك المؤسسات العربية — الافريقية المشتركة وهى تلك المؤسسات التى نشأت بقرار من مؤتمر القمة العربى — الافريقى الذى انعقد بالقاهرة فى الفترة من ٧ — ٩ مارس ١٩٧٧ .

ففى هذا المؤتمر قررت الدول العربية والافريقية انشاء مؤسسات دائمة للتعاون العربى — الافريقى بهدف تطوير ومتابعة هذا التعاون والمفروض أنه من خلال هذه المؤسسات الدائمة تكون العلاقات العربية — الافريقية الجماعية قد انتقلت من مرحلة « الحوار » الى مرحلة « التعاون المؤسسى » وأهم هذه المؤسسات هى :

١ — مؤتمر القمة العربى — الافريقى :

ويعقد مرة كل ثلاث سنوات .

٢ — مجلس الوزراء العربى — الافريقى :

ويعقد مرة كل ثمانية عشر شهرا .

٣ — اللجنة الدائمة :

وتتكون من ٢٤ وزيرا أو ممثليهم يتم اختيار اثنى عشر منهم بواسطة منظمة الوحدة الافريقية واثنى عشر بواسطة جامعة الدول العربية . بالاضافة الى أمين عام المنظمة وأمين عام الجامعة . وتجتمع مرتين كل عام . وتتولى هذه اللجنة تنفيذ أعمال التعاون العربى — الافريقى ومتابعة تطوراته فى كافة المجالات .

٤ ــ لجنة التنسيق :

وهى بمثابة سكرتارية أجهزة التعاون العربى ــ الافريقى بمستوياته المختلفة . وتتكون من اثنين من الجانب الافريقى هما رئيس لجنة الاثنى عشر الافريقية والامين العام لمنظمة الوحدة الافريقية واثنين من الجانب العربى هما رئيس لجنة الاثنى عشر العربية والامين لجامعة الدول العربية .

٥ ــ محكمة افريقية ــ عربية :

مهمتها التوفيق والتحكيم والتفسير القانونى للنصوص التى تحكم العمل العربى ــ الافريقى المشترك وقد ترك مؤتمر القمة للجنة من الخبراء الاتفاق على تشكيلها .

هذا بالاضافة الى مجموعات العمل العربية ــ الافريقية وهى عبارة عن لجان خبراء فى كافة المجالات .

ومن يتأمل هذه المؤسسات بأنواعها الاربعة يلاحظ عملية فصل تبدو قاطعة بين المؤسسات الاقتصادية والمؤسسات السياسية . فالأنواع الثلاثة الأولى من هذه المؤسسات تدخل فى اطار المؤسسات الاقتصادية المانحة للمعونة وهى تشترك كلها فى سمة أساسية وهى أنها ليست مؤسسات عربية ــ افريقية مشتركة ، فالطرف الافريقى ليس ممثلا فيها على الاطلاق . وهى اما مؤسسات وطنية أو مؤسسات عربية خالصة أو مؤسسات دولية تتمتع فيها بعض الدول العربية بثقل خاص . والسبب فى هذا يرجع الى أن الطرف العربى هو الطرف المانح للمعونة وقد حرص الطرف العربى على ألا يشارك الطرف الافريقى فى ادارة هذه المؤسسات أو فى توجيه سياستها. وكانت تنزانيا قد حاولت ذلك فى الورقة التى قدمتها الى مؤتمر القمة العربى ــ الافريقى . كما يلاحظ أيضا أن الدول العربية المانحة للمعونة قد حرصت أشد الحرص ليس فقط على استبعاد الجانب الافريقى من توجيه سياسات هذه المؤسسات المانحة للمعونة ولكن أيضا وعلى وجه الخصوص على « قصر استخدام الجزء الأكبر من العون الذى أعلنته على اجهزة التعاون الثنائى القائمة فيها ، مثل صناديقها الوطنية للتنمية ، ثم حاولت اقناع أجهزة التعاون المشتركة بعدم التعرض لحرية تلك الصناديق حرية مطلقة فى

اتخاذ القرار النهائى فى تمويل المشروعات الافريقية حتى فيما يخص الأموال التى أعلن عنها فى مؤتمر القمة المشترك(٣٠) .

وهكذا فان المؤسسات الوحيدة التى يمكن اعتبارها مؤسسات عربية ـ افريقية مشتركة هى تلك المؤسسات السياسية التى تقرر انشاؤها فى مؤتمر القمة العربى ـ الافريقى وهى مؤسسات للتشاور السياسى اكثر منها مؤسسات لصنع القرار وليس من بينها أية مؤسسات تنفيذية .

ويلاحظ :

انها تشكل جميعا ما يمكن اعتباره منظمة دولية من نوع خاص العضوية فيها ليست للدول وانما لمنظمتين دوليتين هما جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية . فاعضاء مؤتمر القمة أو مجلس الوزراء هم أعضاء المنظمتين ، كما أن اختيار أعضاء اللجنة الدائمة موكول لكل من المنظمتين . وتعتبر مشاركة كل من سكرتير عام منظمة الوحدة الافريقية وأمين عام الجامعة العربية فى عضوية اللجنة الدائمة جنبا الى جنب وعلى قدم المساواة مع وزراء الدول الأعضاء تجديدا لا مثيل له فى التنظيم الدولى .

ونختتم بملاحظة أخيرة حول تعثر عمل هذه الأجهزة بشكل عام . فمؤتمر القمة لم يجتمع منذ اجتماع القاهرة عام ٧٧ حتى الآن لا على مستوى الرؤساء ولا على مستوى أدنى . ولو كان العمل قد انتظم فى هذه المؤسسات لكان المفروض أن يكون هذا المؤتمر قد أتم دورته الرابعة فى العام الماضى .. كذلك توجد صعوبات جمة فى عمل لجنة التنسيق والاتفاق على ترتيبات تشكيلها وتمويلها(٣١) .

---

(٣٠) على أبو سن : العرب وتحديات الحوار مع افريقيا ، مرجع سابق ص ٥١ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

٥ ـ الحوار العربى ـ الافريقى بين الواقع والطموح

مهما يكن حجم الطموح والامال التى نعلقها على مستقبل الحوار العربى ـ الافريقى فانه لكى يكون هذا الطموح مشروعا يتعين الانطلاق من تحليل دقيق للواقع وتقويم للمنجزات التى تمت والتعرف على مواطن الضعف والاخفاق فى مسيرة الحوار حتى الآن .

وفى اعتقادنا أن العلاقات العربية ـ الافريقية تمر بمحنة حقيقية تستوجب نظرة فاحصة جديدة على مجمل المنطلقات التى تحكم العمل العربى الافريقى المشترك حتى الآن وخاصة منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ان صورة العلاقات العربية ـ الافريقية اليوم بالنظر الى حجم التوقعات المنتظرة من التعاون العربى ـ الافريقى تبدو محبطة اجمالا .

١ ـ فاذا ما نظرنا الى مناطق التماس الجغرافى بين الدول العربية والافريقية سوف نجد أن معظم هذه المناطق متأزمة أو ملتهبة . فهناك صراع حاد بين ليبيا وتشاد وهناك ازمة فى العلاقات السودانية الاثيوبية وأزمة فى العلاقات الصومالية ـ الاثيوبية . وهذه كلها أزمات تضم أطرافا عربية فى ناحية وأطرافا افريقية فى الناحية الأخرى . ومن السهل تبين صعوبة دفع العمل العربى ـ الافريقى المشترك قدما الى الامام بدون معالجة هذه الأزمات أو على الأقل ايجاد صيغة ملائمة لوقف تدهورها .

٢ ـ اذا اعتبرنا أن الموقف الافريقى من القضية الفلسطينية والصراع العربى ـ الاسرائيلى وكذا الموقف العربى من جنوب افريقيا يمثل المحور الرئيسى للتعاون العربى ـ الافريقى على الصعيد السياسى ويعتبر المقياس أو المؤشر الرئيسى لجدية وعمق هذا التعاون ، فان الصورة على هذا الصعيد تبدو غير مشرقة على الاطلاق . فالموقف الافريقى من الصراع العربى ـ الاسرائيلى يعتبر الآن أسوأ كثيرا مما كان عليه الحال عام ١٩٧٣ . فقد أعلنت ثلاث دول هى زائير وليبريا والكاميرون عودة العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ويقال أيضا أن افريقيا الوسطى قد أعادت هذه العلاقات أو فى طريقها اليها . وبالرغم من قطع العلاقات الدبلوماسية ما تزال اسرائيل

تمارس نشاطها الاقتصادى والثقافى والعسكرى مع ٢٢ دولة افريقية(٣٢) . وقد زاد حجم التجارة الاسرائيلية مع افريقيا ولم يقل . ففى عام ١٩٧٠ كانت صادرات اسرائيل الافريقية لا تتجاوز ٤١ر٥ مليون دولار وصلت فى عام ١٩٨٠ الى ١٩٠ر٩ مليون دولار كما زادت واردتها فى نفس الفترة من ٣٠ مليون دولار الى ١٣٥ر٧ مليون دولار(٣٣) . وقد ذكر ديفيد كمحى أمام الجمعية العامة مؤخرا أن ما يقرب من ثلاثين الف افريقى أكملوا دراستهم فى اسرائيل فى السنوات الثمانية والعشرين الماضية كما تم ايفاد ما يزيد على العشرة آلاف خبير اسرائيلى الى افريقيا(٣٤) . وفى هذا الاطار لا يمكن أن نلقى باللوم كله على الجانب الافريقى وحده لأن الموقف العربى نفسه من القضية ذاتها أصابه الانهيار والتفكك بعد اتفاقيات كامب ديفيد وتوقيع معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية .

اما عن الموقف العربى تجاه جنوب افريقيا فيبدو بشكل عام أكثر تماسكا وان كانت تتردد بين الحين والاخر انباء عن بعض الدول العربية تتاجر مع جنوب افريقيا وتزودها بالنفط بل والسلاح(٣٥) . ويبدو أن الموقف الافريقى نفسه تجاه جنوب افريقيا قد طرأ عليه بعض التغير وخصوصا بعد ابرام حكومة افريقيا اتفاقيات مع حكومتى كل من موزمبيق وانجولا . وقد أصدر المجلس الوزارى لمنظمة الوحدة الافريقية قرارا يبدى فيه تفهمه للدوافع والأسباب التى دعت الى اجراء المفاوضات وعقد هذه الاتفاقيات ، وان ظلت المنظمة تتمسك بمبادئها الأساسية فى مكافحة العنصرية ورفض التعامل مع النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا(٣٦) .

---

(٣٢) عبد الملك عودة : التعاون العربى الافريقى : الواقع والمستقبل ، شئون عربية ، العدد ٣٨ ، يونيو ١٩٨٤ ، ص ٢٨ .

(٣٣) عبد الفتاح الجبالى ، افريقيا بين التغلغل الاسرائيلى والموقف العربى ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٨٤ ، ص ١٥٢ .

(٣٤) جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول العربية والافريقية ، تقرير عن مخاطر توقف نشاط الصندوق دراسة أعدها سمير حسنى عطية ، ديسمبر ١٩٨٦ ، ص ١٦ .

(٣٥) من مفكرة بطرس غالى ، الاهرام ، ٥ يناير ١٩٧٧ .

(٣٦) عبد الملك عودة ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

٣ — اذا نظرنا الى نشاط المؤسسات المشتركة للتعاون العربى — الافريقى وخصوصا تلك التى ظهرت الى حيز الوجود مع مؤتمر القمة العربى — الافريقى الأول فسوف نجد ايضا أن الصورة قائمة . فلم ينعقد مؤتمر القمة منذ عام ١٩٧٧ حتى الآن رغم انه من المفروض وفقا لقرارات المؤتمر الأول أن ينعقد كل ثلاث سنوات ، كما اشرنا من قبل . وتوقفت اجتماعات اللجنة الدائمة للتعاون العربى — الافريقى منذ ١٩٧٨ ولم تعاود اجتماعاتها الا عام ١٩٨٢ والمفروض ان تجتمع هذه اللجنة مرتين كل عام على الأقل . كما ان لجنة التنسيق لا تدرى حتى الآن كيف تنظم عملها وتضع لوائحها الداخلية .

٤ — الجانب الوحيد الذى لم يصبه الارتباك فى العلاقات العربية — الافريقية هو استمرار تدفق الأموال العربية على افريقيا منذ ١٩٧٣ رغم تباطؤ معدل هذا التدفق نتيجة لانخفاض اسعار النفط بعد ١٩٨٠ . وتذكر بعض التقارير ان مجموع التحويلات العربية لصالح افريقيا فى الفترة من ٧٥ — ١٩٨٢ بلغ حوالى ٧٦٠١ مليون دولار بمتوسط سنوى قدرة مليون دولار(٣٧) . وهذه الأموال لا تعتبر كافية فى الواقع ، من وجة النظر الافريقية، بالقياس الى حجم متطلبات التنمية فيها . فضلا عن ذلك فان هذه المعونة لا تسلم من بعض الانتقادات الحادة ، حتى من وجهة النظر العربية والقومية بالذات وهى انها لم تقدم فى اطار تصور محدد لمشروع تنموى عربى — افريقى يؤكد الاعتماد على الذات بل كانت اقرب الى دعم شبكة الاقتصاد الراسمالى وتعميق التبعية .

وهذه الصورة القائمة فى معظم جوانبها تؤكد ما يلى :

أولا : عدم وجود سياسة عربية واضحة المعالم تجاه افريقيا . فالعرب لا يعرفون بالضبط ما الذى يريدونه من افريقيا . وربما لو قام باحث باستطلاع راى وزراء الخارجية العرب عن تصوره لما يجب أن تكون عليه العلاقات — الافريقية من حيث السياسات الواجبة الاتباع وترتيب القضايا من حيث الأولويات وشكل المؤسسات المنوط با ادارة هذه العلاقات .. الخ لوجدنا ٢٢ اجابة مختلفة أو حتى متناقضة . فليست هناك عقيدة تحكم

---

(٣٧) عبد الفتاح الجبالى ، المرجع السابق .

السياسة العربية تجاه افريقيا ولا يوجد نظام عربى قادر على بلورة سياسة محددة تجاه افريقيا . وتعكس مؤسسات الحوار القائمة حقيقة غياب الدور القومى فى هذا الحوار .

ثانيا : وهم الربط بين المعونة العربية والموقف الافريقى من الصراع العربى — الاسرائيلى لأن مثل هذا الربط فى حد ذاته يحمل شبهه شراء الموقف الافريقى وفيه اهانة للعرب وللافارقة على حد سواء . وعلى اى حال فلا تمثل الملاقات العربية الافريقية استثناء فى هذا الاطار بالمقارنة بالسلوك الدولى الشائع . وعلى سبيل المثال فان نسبة انحراف الاتجاه التصويتى لمصر فى الأمم المتحدة بالمقارنة بالاتجاه التصويتى للولايات المتحدة يصل فى بعض الدورات الى ٨٥٪ اى أن ٨٥٪ من القرارات التى توافق عليها مصر عند التصويت فى الأمم المتحدة هى قرارات ترفضها الولايات المتحدة والعكس . هذا رغم أن مصر تتلقى مساعدة كبيرة من الولايات المتحدة .

ثالثا : عدم ملائمة واقع مؤسسات الحوار العربى — الافريقى مع الطموحات او الامال المتوقعة فى هذا الحوار . ولا يمكن أن يوجد تعاون حقيقى تتوافر له عناصر الاستمرار والاستقرار بدون مؤسسات قوية وفعالة.

ان ضعف مؤسسات الحوار العربى الافريقى لا ترجع فقط الى ضعف قدرات العاملين فيها بالنظر الى ما هو مطلوب منهم وانما ترجع فى الأساس الى طبيعة نمو هذه المؤسسات تاريخيا حيث ظهرت الى حيز الوجود فى مراحل متفاوتة وفقا لمقتضيات الحاجة ولم تظهر من خلال رؤية عامة وشاملة للحوار العربى — الافريقى تأخذ فى اعتبارها ضرورة أن تكون هذه المؤسسات على مستوى الأهداف المطلوب تحقيقها من الحوار .

وكما سبق أن أشرنا فهناك خلل كبير فى مؤسسات الحوار وعلى مستويات متعددة :

— فهناك هذا الفصل غير المبرر بين المؤسسات « الاقتصادية » او الفنية والمؤسسات السياسية .

— وهناك هذا التعدد فى طبيعة مؤسسات الحوار فبعضها يدار وطنيا وبعضها يدار قوميا (عربيا) وبعضها يدار عربيا — افريقيا مشتركا. وما تزال المؤسسات التى تدار وطنيا هى فى الواقع المؤسسات التى تتحكم فى الجهاز العصبى لعملية التعاون العربى — الافريقى برمتها . بل تقول أحدث التقارير الصادرة عن جامعة الدول العربية أن الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول العربية والافريقية ، وهو الجهاز الوحيد التابع لجامعة الدول العربية فى مؤسسات الحوار ، يواجه خطر توقف نشاطه بسبب امتناع الدول العربية عن دفع حصصها فى ميزانيته ، رغم ضعف وهزال هذه الميزانية . فقد بلغ مجموع الموارد التى تعهدت الدول العربية بسدادها للصندوق فى الفترة من عام ٧٤ — ٨٦ حوالى ١٠١ مليون دولار لم يسدد منها خلال هذه الفترة سوى ٥٣ مليون دولار(٣٨) .

ومعنى أن هذه المؤسسات القومية فى الحوار تذبل لصالح المؤسسات الثنائية : وهذا يقتضى اعادة نظر شاملة فى طبيعة مؤسسات الحوار لأنه يصعب أن يكون الهدف قومى والوسائل قطرية الا اذا كان هناك على الأقل تنسيق قومى بين هذه الوسائل القطرية لصالح الأهداف القومية .

فى هذا الاطار يتوقف مستقبل الحوار العربى — الافريقى ، فى تقديرى ، على احتمالات اعادة ترتيب البيت العربى وابتداع صيغة أخرى للعمل الجماعى العربى . لكن تلك قضية أخرى .

---

(٣٨) دراسة سمير حسنى عطية عن مخاطر توقف نشاط الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول العربية والافريقية ، جامعة الدول العربية ، ديسمبر ١٩٨٦ ، مرجع سابق ، ص ٧ .

حركة التحرر الوطنى ... الى أين ؟

حلقة نقــاش

المشاركون

- السفير فؤاد البديوى
- أ. د. عبد الملك عودة
- د. ابراهيم نصر الدين
- د. محمد السيد سعيد
- الاستاذ حلمى شعراوى
- الاستاذ احمد يوسف القرعى

كلمة رئيس الجلسة : السيد السفير فؤاد البديوى

بدات حركة التحرر الافريقية بفكرة الجامعة الافريقية ، وذلك فى اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وقد جاءت الفكرة من خارج افريقيا ، اثارها الزنوج الذين نقلوا من افريقيا الى أوربا والى أمريكا ، والذين راوا أنه يجمعهم هدف واحد يتمثل فى مواجهة الاستعمار والعنصرية والظلم الاجتماعى الذى كان يسود المستعمرات الافريقية . وبذلك ظهرت حركات فى أوربا تطالب باستقلال المستعمرات الافريقية ، وقد كان لهذه الأخيرة انعكاس داخل افريقيا خلق وعيا وفكرا سياسيا جديدا معاديا للاستعمار والعنصرية ، توج بظهور عدة تنظيمات سياسية تطالب بأهداف معينة لتحرير المستعمرات من السيطرة الأجنبية ، وتمثلت هذه التنظيمات واشكالها اما فى شكل مؤتمرات أو تجمع وطنى الى ان وصلت الى أحزاب .

وابان انشاء هيئة الأمم المتحدة تطورت وسائل الأعلام وكثر الحديث عن حقوق الأقليات والقوميات وانتشرت حركة مؤتمرات حكومية وشعبية حول القضايا الافرية . مثل مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ ومؤتمر اكرا للدول الافريقية ومؤتمر الشعوب الافرو آسيوية ، وعقب هذه الحركة من المؤتمرات — وبالخصوص أواخر الخمسينات وبداية الستينات — شهدت أفريقيا اعلان استقلال عدد كبير من الدول الافريقية ، وقد جاء هذا الاستقلال نتيجة لعدة عوامل أهمها تلك التغيرات التى حدثت فى نظم الحكم فى المستعمرات بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة بالنسبة للمستعمرات الفرنسية حيث ان دستور ديجول حول المستعمرات من الأندماج الكامل مع فرنسا الى الاستقلال مع الحكم الذاتى ، وقد حدث ذلك ايضا فى المستعمرات البريطانية التى أصدرت عدة دساتير كانت تتجه الى اشراك الافريقيين فى حكم بلادهم . وقد حدث تطور فى شكل وموضوع حركات التحرر الوطنية ووسائل كفاحها وذلك بعد أن شارك العديد من الجنود الأفارقة فى الحرب العالمية الثانية وبذلك واثر هذا العامل تحولت حركات التحرر التى بدات بطرق سلمية الى اشكال من الاضرابات والمظاهرات وتوزيع للمنشورات ، لتتطور فى الأخير الى استعمال السلاح فى النضال ضد الاستعمار والعنصرية .

وقد توجت هذه الحركات الاستقلالية بانشاء منظمة الوحدة الافريقية سنة ١٩٦٣ والتى كان الهدف منها توحيد الدول الافريقية المستقلة فى اطار جبهة واحدة لمواجهة الاستعمار وفى نفس الوقت أنشأ الرؤساء الأفارقة لجنة التنسيق لتحرير افريقيا ، وقد كان الهدف منها تنسيق وتنظيم وتقديم المساعدات المختلفة لحركات التحرر الافريقية سواء كانت هذه المساعدات مادية ، (سياسية او عسكرية) ، وفى ذلك الوقت كان عدد حركات التحرر الافريقية التى كانت ترعاها اللجنة ١٨ حركة تمثل عشرة أقاليم . وحاليا وبعد استقلال مجموعة من الدول الافريقية لم تبق الا ثلاث حركات معترف بها من طرف منظمة الوحدة الافريقية وترعاها اللجنة وهى حركة سوابو التى تمثل شعب ناميبيا وحركتين فى جنوب افريقيا وهى A. N. C المؤتمر الوطنى الافريقى و P. W. C المؤتمر الافريقى .

وهناك معايير للاعتراف بحركات التحرر الافريقية منها جدية هذه الحركات ونشاطها وشعبيتها داخل الاقليم الذى تناهض من أجل استقلاله .

وقد لعبت مصر دورا مهما بالنسبة لحركات التحرر الوطنى فى افريقيا فقد عقدت عدة مؤتمرات فى القاهرة ، نذكر منها مؤتمرات الشعوب الافريقية وكذا مؤتمرات الشباب الأفرو آسيوية .

وبعد ثورة ٢٣ يوليو احتضنت الثورة حركات التحرر الافريقية وذلك بواسطة الدعم المادى والسياسى والعسكرى ، وقد كان العديد من الرؤساء الأفارقة يديرون النضال من مبنى الجمعية الافريقية التى أقيمت فى مصر نذكر منهم الرئيس كاوندا .

وتجدر الاشارة الى ان حركة التحرر لا تنتهى عند تأسيس الدولة وتحقيق الاستقلال ، ولكن التحرير يمتد الى ما بعد ذلك حيث نسمع عن الاستعمار الجديد ، وهو أساسا تكون سيطرته على الدولة المستقلة بطريقة غير مباشرة . فاذن التحرير والنضال ضد الاستعمار والعنصرية سواء الاستعمار القديم أو الجديد مازال مستمرا .

أ٠ د٠ عبد الملك عــودة :

ابدأ بضبط العنوان « حركة التحرر الافريقية الى أين ؟ » ٠٠

فالافريقية نعنى بها التعريف الوارد فى ميثاق منظمة الوحدة الافريقية وهو القارة الافريقية بما تشمل من دول ناطقة باللغة العربية ودول ناطقة بالانجليزية او الفرنسية او البرتغالية هذا بالاضافة ىالى الجزر المحيطة بالقارة كمدغشقر وغيرها ٠

أما بالنسبة لمفهوم حركة التحــرر فهناك مدرستين كبيرتين تحدثتا عن حركة التحرر بوجه عام ٠

ــ فهناك مدرسة اولى ترى ان حركة التحرر هى تصفية الاستعمار ونقل السلطة من الادارة الأجنبية الى الادارة الوطنية وترى هذه المدرسة أن مفهوم حركة التحرر ينتهى ببناء الدولة الوطنية المستقلة ٠

ــ وهناك مدرسة ثانية ترى أن حركة التحرر الافريقية لا تقف عند بناء الدولة المستقلة انما ترى أن ذلك هو مجرد علامة فى طريق واحد ولابد من استمرار حركة التحرر فقد تتغير بعض الأشخاص ، قد تتغير بعــض الترتيبات والأولويات لكن تستمر حركة التحرر حتى يتم قيام مجتمع العدل ، مجتمع الاشتراكية أو التقدمية ، وباعادة بناء الطبقات والتركيب الاجتماعى ٠

فحركة التحرر الافريقية لانشاء الدولة تعتبر الأصل السياسى لانهــا حققت اغراضها ــ تحقيق الاستقلال ــ لكن بعد هذا الاستقلال بدأت تظهر الأزمة الشديدة فى بناء الدولة ، ويرجع ذلك الى عــدة أسباب منهــا : ما يتعلق بطبيعة تفكير الحركة الوطنية المتمثلة من جهة فى النخبــة القائدة للحركة ، وفى الجماهير المؤيدة لهذه الحركة من جهة ثانية ، واذا ما تتبعنا هذا التفكير سنجد أن الحركات الوطنية فى افريقيا لتصفية الاستعمار ولانشاء حكم وطنى قامت على أساس مفهوم فى الأصل أوروبى ٠ لكن تحولت نتيجة قيام عصبة الأمم والأمم المتحدة وانتشار الفكر العالمى الأوربى الى عقيدة شبه عالمية وهو ان الاستقلال يتم على أساس بناء الدولة الوطنيــة أو الدولة القومية او الدولة الأمة ، ومن ثم فالاستقلال يتم على أساس الحدود الموروثة

عن الاستعمار وبذلك — ومن ناحية الفكر العام — بدأت تظهر بعد الاستقلال أزمة الدولة أو الأمة لأن مفاهيم الدولة أو الأمة كما طرحت فى الفكر السياسى والفكر التاريخى غير موجودة فى هذه البلدان ، وبذلك ظهرت نظريات جديدة فى بناء الدولة وبناء الأمة أو العمل من أجل التكامل الوطنى .

ومنها ما يتعلق بالتركيب الاجتماعى حيث نجد أن الحركات الوطنية تحظى بالتأييد العام لعملها ضد الاستعمار أو ضد السلطة الأجنبية وذلك لأسباب اقتصادية وثقافية خاصة بالكيان الذاتى لكن بمجرد الاستقلال تبين أن التركيب الاجتماعى لهذه البلاد جد معقد حيث أن هناك بلاد فيها أقليات كانت تناضل من أجل الاستقلال لكن بعد تحقيقه بدأت تطالب بحقوقها ، أما فى اللغة أو الثقافة أو فى نصيبها فى الحكم والتنمية والانفاق الحكومى فبدأت بذلك تظهر الأزمة الشديدة فى أفريقيا بين حكم الأقليات ووحدة التراب الوطنى فهناك فى الجزائر صراع مفتوح أو مكتوم بين العرب والبربر ، فى اثيوبيا قوميات كثيرة ، فى السودان ... الخ . ولكن هذا الصراع لا يظهر على مستوى واحد أى انه لم يصل الى مستوى رفع السلاح ، فقد يكون فى صورة سلبية ، قد يكون فى شكل مظاهرات ، قد يكون فى بداياته مطالبات أدبية وفكرية . لكن هناك ازمة فى بناء الدولة وبالذات فى افريقيا فى الدولة المستقلة التى أعلنتها حركة التحرر ، خاصة بالتركيب الاجتماعى هذه الأزمة تلحقها أزمة فى اللغة لأن هذه البلاد كلها متعددة اللغات ، حيث نلاحظ أنه كانت تجمع فصائل ووحدات الحركة الوطنية لغة أجنبية لكن بعد تحقيق الاستقلال اخذت الأقليات تطالب بحقوقها اللغوية .

يضاف الى هذا كله صراع النخبة المدنية والعسكرية ، فنحن نعرف أن الدولة الوطنية فى أفريقيا بنيت على أساس سيادة النخبة المدنية والتى تتحكم فى الادارة والسياسة والتنمية ، لكن فى المدة الأخيرة تبين أن النخبة العسكرية بدأت تنافس النخبة المدنية ، وبدأ مسلسل من الانقلابات قام بها بالاضافة الى العسكريين المحافظين عسكريين راديكاليين ثوريين أو ماركسيين .

ومن الملاحظ انه فى اغلب الأحوال يحدث تحالف مدنى وعسكرى اليد العليا فيه للنخبة العسكرية والمركز الثانى للنخبة المدنية وهذه العملية سائدة فى أفريقيا فى بلاد كثيرة . صحيح أن هناك أوضاع خاصة حيث اننا فى بعض

الحالات حينما نقول الدولة المصرية نجد ان هناك مؤسسات مهما كان الرأى فى بعضها . لكن حينما نتكلم عن ازمة الدولة فى السودان أو ازمة الدولة فى زائير ، فالدولة هنا لا زالت حديثة فى مؤسساتها ، وفى ممارساتها فهى لم تصل الى مستوى الدولة بمعناها الشامل .

فحينما نتحدث عن هذه القضايا نتحدث عنها فى اطارها العام ، لكن فى نفس الوقت يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن هناك أوضاع خاصة فى بعض الدول وذلك تبعا لظروف التاريخية التى تكونت فيها كل دولة فى افريقيا .

د. ابراهيم نصر الدين :

حركة التحرر الوطنى المفاهيم والأساليب والأيديولوجيات :

كثيرا ما نسمع فى البلاد العربية حركة المقاومة الوطنية ، الحركة الوطنية ، حركة التحرر ، فنسمع عن المقاومة فى الجزائر ، فى المغرب ، فى مصر .. وفى القارة الافريقية نجد حركة سوابو فى ناميبيا فهى حركات مقاومة بهذا المعنى وكثير من الدراسات الأوروبية تتحدث عن حركة التحرر الوطنى والتحرر الوطنى فى القارة الافريقية وفى العالم العربى بصورة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى وغالبا بعد الحرب الثانية ، ومن الملاحظ أن هذه الحركات برزت تحت شعارات ظهرت فى أوربا ، كحق تقرير المصير وغيرها من الشعارات ، والذى يجب تأكيده هو أن الشعوب العربية والافريقية لم تعرف من أدوات المواجهة ، والتحرير ، وتقرير المصير ، الا بعد أن نادت بها الشعوب الأوروبية والقيادات الأوروبية .

وبهذا يمكن القول أن حركة المقاومة المسلحة ظهرت فى أفريقيا وفى العالم العربى بعد الحرب العالمية الثانية ، وأن الحديث عن الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الثانية خداع تاريخى لن يؤدى الى نتيجة حيث لم تكن هناك حركة مقاومة مسلحة قبل هذا التاريخ .

هذه الحركة المسلحة تطورت تاريخيا تحت رد فعل الغزوة الاستعمارية وبذلك — واثناء القرن العشرين — ظهرت حركات يمكن أن نطلق عليها اسم الحركة الوطنية بمفاهيمها التى بدأت بتجمعات ثقافية حول النوادى لتتطور

الى شكل اضرابات ومظاهرات ، ولتتحول فى الأخير من الأسلوب السلمى الى الأسلوب المسلح .

ان المتتبع لنشاطات الحركات الوطنية يرى ان الأساليب السلمية لا تؤدى الى تغيير وانه من الضرورى الالتجاء الى الكفاح المسلح .

ومن الملاحظ ان غالبية الدول الافريقية حصلت على استقلالها بالأسلوب السلمى وهذا يؤدى بنا الى الحديث عن نمو حركة التحرر الوطنى الافريقية ، وأعتقد أن هناك ظاهرة ملفتة وقابلة للتأمل فى القارة الافريقية ، فنجد أن الحركات التى أعتمدت على أسلوب الكفاح المسلح لتصفية الاستعمار فى القارة الافريقية كانت كلها وبدون استثناء حركات لمقاومة الاستعمار الاستيطانى فى الجزائر ، فى أنجولا ، فى موزمبيق .. كلها حركات كانت تواجه النظام الاستعمارى الاستيطانى ، ولا يوجد سبيل لمواجهة هذا الاستعمار الا بالقوة المسلحة . (والاخوة الذين يتحدثون عن امكانية التفاوض مع اسرائيل وحل مشكلة الشرق الأوسط بالطرق السلمية يجب ان يأخذوا فى اعتبارهم أن هذا استعمار استيطانى شأنه فى ذلك شأن التجربة الافريقية ولا يوجد سبيل لمواجهة هذا الاستيطان الا بالقوة المسلحة فحيثما يوجد استعمار استيطانى هناك حركة تحرير مسلحة) .

نعم هناك فى بعض المناطق ، حيث نجد استعمار استيطانى لم نسمع عن حركة تحرير مسلحة ، حيث أن التحرر تم بأسلوب سلمى ، وهذا يؤدى بنا الى التساؤل :

هل قضية الاستعمار الاستيطانى هى التى أفرزت هذه المسألة أم أن طبيعة الاستعمار الاستيطانى الذى يعامل الشعوب الافريقية بوحشية وبأساليب بربرية أعلى شأن القبلية فى هذه المجتمعات الى حد ما ، مما أدى الى بروز نوع من الهوية الوطنية تعلو فى هذه المجتمعات القبلية على النحو الذى سمح بنمو بداية لقومية افريقية .

ومن الملاحظ كذلك اننا لا نجد دولة افريقية حصلت على استقلالها بالكفاح المسلح الا وتبنت النظام الاشتراكى ، وهناك حالات أخرى حصلت على استقلالها بالأسلوب السلمى واعلنت الاشتراكية كأيديولوجية للنظام

الحاكم فيها ، ولكن — على العموم — حتى فى هذه المرحلة نجد مثلا الجزائر ، أنجولا ، موزمبيق ، زيمبابوى ، غينيا — بيساو ، وحتى فى ناميبيا حركة سوابو تعلن صراحة الماركسية أو الاشتراكية العلمية . ويظهر ذلك ايضا فى المؤتمر الوطنى الافريقى الذى يناهض النظام العنصرى فى جنوب افريقيا فهل هذا يعنى ان اسلوب الكفاح المسلح له علاقة مع النظام الاشتراكى أم لأن البنية التحتية لهذه المجتمعات ابان الفترة الاستعمارية تطورت على النحو الذى يسمح بالحديث عن طبقات وتجاوز المرحلة الاستعمارية ؟

الاستاذ حلمى شعراوى :

مسار ومصير التوجهات اليسارية فى حركة التحرير الافريقية :

ان المصدر الأول من مصادر دفع الحركة التحررية يتمثل فى الحركة الشعبية الفلاحية الثورية ، أما المصدر الثانى فهو المتمثل فى حركة الجهاد الاسلامى التى ظهرت فى السودان الغربى ، فماذا أصاب هذه الحركات الاصل لكى تأخذ حركة لتحرر الوطنى توجهاتها التقدمية أو الثورية أو اليسارية بشكل متجدد فى العصر الحديث أو اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؟ هذا سؤال جدير بالدرسة ، حول الانقطاع التاريخى الذى حدث للمجتمعات الفلاحية بدخول الاستعمار ودخول السوق الرأسمالى، وللتحولات التى حصلت فى الاقتصاد الداخلى الوطنى للمجتمعات الافريقية ، انقطاع نماذج الدولة نفسها أو تشكيلات الدولة التى كانت موجودة سواء فى غرب افريقيا أو شرقها .

فحركة بناء الدولة حصلت بعد المرحلة الاستعمارية فى ظروف جديدة، لكن تشكيلات الدولة لم تكن غائبة عنها او تجهلها ، لأن هذه التكوينات كانت معروفة فى التاريخ الافريقى .

بالنسبة للحركة الفلاحية أقول أن دخول الاستعمار والسوق الرأسمالى العالمى غير التكوينات الاجتماعية مما أدى بهذه الحركة الى عدم الاستمرار لتتصل بالتاريخ الحديث بعد الاستعمار ، ونفس الشىء بالنسبة لحركات الجهاد كالمهدية والسنوسية وحركة عثمان بن فوديو والشيخ عمر ، فللاسف

هذه الحركات اختفت بمجيء الاستعمار وتحولت الى حركات صوفية أصبحت أقرب للتعاون فى كثير من الأحيان مع الاستعمار أكثر منها ميراث لحركات الجهاد الافريقية . ومن هنا حدثت القطيعة لحد كبير بين هذه الحركات الاجتماعية كمصدر « لتفكير ثورى » لكل اشكال المقاومة والتقدم والتغيير والنمو المستقل ، وبين الحركات الجديدة التى كانت لها نفس الأهداف . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، نلاحظ ولظروف الاتصال مع المجتمعات الأوروبية، وللتجربة اللبرالية الأوربية، وتوجهات كثير من المثقفين والثوريين والسياسيين للمجتمع الغربى بالأساس ، كان اقرب الى التفكير الديمقراطى على اكثر تقدير. وفى هذا الصدد فالقادة السياسيين والثوريين بالنسبة لمجتمعهم لم يأتوا صدفة ، وهنا لا الجأ للتفسير الطبقى التقليدى ، أى انهم كانوا يمثلون طبقة برجوازية غير راغبة فى العمل الثورى ... الخ . ولكن عندما بدات حركات التحرير — وقبل بدء ونمو حركة الكفاح المسلح — اتجهت هذه الحركات للنموذج الهندى مثلا ، فغاندى والغاندية كان لها تأثير كبير فى هذه الحركات ، والى حد كبير تعتبر التجربة الهندية لفترة طويلة مصدرا أساسيا عند نكروما وعند الكثير من الحركات الوطنية ، فالى ذلك الحين لم تكن هذه الحركات ثورية بعد بالمعنى اليسارى ، الى أن ظهر نموذج آخر ، تمثل فى النموذج الصينى ، وبالتالى بدات تظهر افكار الكفاح المسلح من جنوب شرق آسيا الى شرائح ولغة ثورية جديدة .

من الملاحظ ان كلمة العنف سنة ١٩٥٨ لم تكن ذات شعبية كبيرة بعد فى أفريقيا حتى ظهرت حركات الكفاح المسلح التى اتخذت العنف كاسلوب ثورى لمواجهة الاستعمار .

وهناك مصدر آخر من المصادر التى جاءت كتأثير للصلة بالدولة الاشتراكية وبالفكر الاشتراكى عموما ، وذلك بتوجهات مختلفة كالماوية التى كانت مصدرا أساسيا بالنسبة للفلاحين والفانونية (نسبة الى فرانز فانون) الذى يدين له شباب الحركات الوطنية فى الكثير من مناطق افريقيا ، وبذلك بدأت التيارات تنمو بنوع من الافريقية الفلاحية ، فيها نوع من العنصرية ، الشعب الأسود ضد الشعب الأبيض ، فأصبحت بذلك حركة التحرر الوطنى أمام هذه النماذج من الكفاح المسلح المبلور من التجربة الصينية ثم الفيتنامية من الفانونية التى تعبر عن ضرورة انتفاض الفلاحين ومحاصرتهم المدن ،

لتتحول الى الطريق العام فى الأدبيات السوفيتية التى كانت على اتصال بحركات التحرر مباشرة لكن بصورة غير قوية لأن السوفيت كانوا براجماتيين حيث أن الشعار الذى وضعوه هو شعار التطور اللاراسمالى ، وعلاقاتهم بحركات التحرر كانت عن طريق الدول المتحررة أو التقدمية كمصر ونكروما وهذا الاتصال هو الذى كان يبعث هذا التيار اليسارى الذى أثر فى الحركة الوطنيـــة .

وقد قيل الكثير عن التجارب التى أعلنت الاشتراكية والتقدمية والثورية على يد النخب العسكرية أو المدنية .

فالى اى شىء ترجع هذه التوجات الجديدة ؟ لماذا ظهرت ؟ هل حل عنصر استعمارى جديد بديل للعنصر الاستعمارى القديم فى سلب التجارب اتصالها التاريخى وامكانياتها فى فرض تجربة تحرر وطنى ذا توجه يسارى أو كفاحى بالشكل القديم ؟ أم هو مجرد فشل فى بنية حركات التحرر ؟ وهذه المسألة جديرة بالدراسة ، لكى تبين دراسة اشـــكال الاستعمار الجـــديد وطريقة الاحتواء ، وما اذا كانوا قد حولوا الفلاحين الى فكرة الســـــوق واقتصاديات السوق عن طريق الراسمالية الجديدة ، فلأن هناك تحولات كثيرة جاءت عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات على يد التغلغل الثقافى الامبريالى والتسلط الثقافى والاقتصادى على المجتمعات الجديدة ، هل هذا يرجع الى النخب العسكرية التى لم تستفد من تجارب التاريخ بشكل جاد ولم يقدموا تجارب تحول اساسى فى معظم الدول الافريقية ؟ أم أنه ما زال هناك مشكل التسلط الامبريالى بوسائل جديدة لاستمرار القطيعة التاريخية بين الجماهير وتنظيماتها السياسية ونخبهـــا المعبرة عنها وبين امكانيــــات تحولات جديدة لصالح حركة التحرر الوطنى الافريقى ؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، انه ما زالت حركات الكفاح المسلح فى أنحاء مختلفة من افريقيا تثبت أن عملية التحرر لم يكن أمامها الا هذا الاختيار الثورى والتوجه اليسارى ، وهذه بارزة فى جنوب افريقيا ، وهى تجربة كبيرة جدا لشعب يصل الى ٣٠ مليون نسمة يمثـــله حزب المؤتمـــر الوطنى الافريقى الذى يعتبر من اكبر التنظيمات السياسية فى افريقيا بل وفى العالم الثالث ، والذى له توجهات يسارية بالكامل . والمشكل القائم هو انه لا الدول الافريقية تستطيع كدول مستقلة أن تعزل نفسها عن المواقف التى

تواجه فيها حركة التحرر الافريقية بشكلها المباشر ، ولا حركات التحرر نفسها تستطيع أن تعمل بعيدا عن توجهات الوحدة الافريقية والحركة الافريقية . والتشابكات التى تحدث لحركات التحرر وتوجهاتها بين الدول المستقلة وهى جزء من حركة التحرر شهدت فى اطار نظرة واسعة للنظام الرأسمالى والنظام الامبريالى لم يتمثل فقط فى اطار اقتصادى ولكن فى اشكالا لتسلط والاعاقة بالنسبة لحركة التحررر ، كبيرة جدا وصعبة وتحتاج الى دراسات كثيرة .

د. محمد السيد سعيد :

حركة التحرر الوطنى الأفريقى ... الى أين ؟

التمييز بين حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا يقوم على المهام المحددة التى تبرزها ظروف النضال من أجل الاستقلال السياسى ، والتمييز العنصرى، وتأمين سيادة الدول الافريقية على أرضها . وهذا التمييز له حدود معينة :

التمييز بين حالة الدول الافريقية المستقلة بالفعل ، والدول الافريقية التى لا تزال تناضل من اجل الاستقلال . وهناك مجالات عديدة للاشتباك بين الفئتين . أولها فى جنوب افريقيا . **فالأولى** وهى حركة مستقلة سياسيا ولكنها مشتركة مباشرة فى حركة النضال السياسى والعسكرى الضرورى لتحرير ناميبيا وجنوب افريقيا من ناحية الهجوم والدفاع ، هناك اشتباك ثانى يتحدد فى نوع معين فى القضايا التى تشترك فيها حركات النضال والتحرر الوطنى فى داخل جنوب أفريقيا ونامبيا من ناحية ، وباقى افريقيا الاستوائية وافريقيا بصفة عامة .

من ناحية ثانية هناك قضية الوحدة الوطنية بين التيارات السياسية الوطنية والتى تستند أيضا على قاعدة من الوحدة الوطنية بين الجماعات العرقية والثقافية المختلفة ، وفى حالة جنوب افريقيا عموما شاملة ناميبيا نجد ان قضية الوحدة الوطنية على المستوى السياسى وعلى المستوى الاجتماعى والثقافى قضية شائكة باعتبار أن أحد الاستراتيجيات الذى يتبعها النظام العنصرى فى جنوب افريقيا هو اطار التغيرات القبلية ، وتقسيم الشعب فى جنوب افريقيا وناميبيا واحد التقنيات المستعملة فى ذلك لجمع السكان

الأصليين فى مناطق مختارة ، وفى مناطق زراعية محدودة الموارد ، وبالتالى يصبح من الصعب الحديث عن وحدة هذا الشعب الافريقى من خلال الصراع على الأرض المتاحة للزراعة .

مجال شتباك آخر بين حركة التحـــرر الوطـــنى الافريقى بين الدول المستقلة والدول التى لا تزال تناضل من أجل الاستقلال ، وهو المتمثل فى المركز السياسى لافريقيا الاستوائية فى العالم ، فحركة التحرر الوطنى فى جنوب افريقيا وناميبيا قد اشتد عودها بعد منتصف السبعينات بعد حصول المستعمرات البرتغالية على استقلالها ، وقد أدى ذلك الى أمرين :

الأمر الأول : اشتعال الحرب الباردة من جديد بين دول المعســـكر الاشتراكى ودول المعسكر الراسمالى وفى هذه الحرب يتضح — فى تقديرى الشخصى — ان المبادرة قد انتقلت تاريخيا من المعسكر الاشـــتراكى الى المعسكر الغربى فهذا الأخير هو الذى يضغط بشدة على المعسكر الاشتراكى من أجل تشتيته وضعضعته ومن أجل احداث القلاقل فيه وإجباره على تقديم تنازلات فى السياسات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية ، وفى الميـــدان الاستراتيجى العسكرى ايضا .

الأمر الثانى ، هو أن الدول والمجتمعات الافريقية التى حصـــلت على استقلالها منذ عقدين على الأقل فى فترة منتصف السبعينات ، كانت قـــد اتضحت مشكلات التطور الاقتصادى والاجتماعى فيها الى الدرجـــة التى انعكست سلبا على دور الحركة الوطنية فى جنوب افريقيا وناميبيا .

ومن ثم هناك درجة من التميز وهناك حدود لهذا التمييز بين تطـــور الحركتين من أجل التحرر فى جنوب افريقيا وفى بقية دول افريقيا المستقلة .

ففى حالة الدول المستقلة سياسيا بالفعل ، نجد أن مستوى حـــركة التحرر الوطنية يختلف عما قبل فى اطار حركة الاستقلال السياسى . ففيما قبل الاستقلال السياسى كان الأمر واضحا وهو النضال من أجل انتزاع الدولة الافريقية المستقلة من الاستعمار التقليدى ، أما فى الوقت الراهن فقضـــية التحرر الوطنى أصبحت غامضة وبالتالى هناك درجة ما من الاختلاف فى تحديد المضمون التاريخى المحدد للحركة الوطنية أو لحركة التحرر الوطنى فى أفريقيا المستقلة سياسيا (من الناحية الأسمية على الأقل) .

والملاحظ بصورة عامة أن الفكر الافريقى فى مجال تحديد المستوى الراهن لحركة التحرير الوطنى يتراوح بين اتجاهين أساسيين هو الاتجاه الرومانسى الثورى ، والاتجاه البراجماتى .

ولم نجد بعد نوع من التداخل بين المهمات العملية للنضال من أجل التحرر الوطنى للوصول الى المثل الأعلى للتحرر الوطنى وهو الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى المتكامل ، والاتجاه السائد بين اغلبية المثقفين الافريقيين هو الاتجاه الذى يؤكد ان الاستقلال الاقتصادى هو المستوى الرئيسى لحركة التحرر الوطنى فى الوقت الراهن . وقد تكون هناك بعض الاختلافات فى التحديد الفنى للمدى المطلوب من الاستقلال الاقتصادى ولكن النزعة السائدة بين المثقفين الأفارقة هى نزعة تتمثل فى الانفصال شبه التام أو الديناميكى عن النظام أو السوق الراسمالى العالمى .

فى واقع الأمر ، أننا يجب أن نحيط هذا الشعار — شعار الانفصال التام عن السوق الراسمالى العالمى — بالمشكلات المحددة التى تواجهها الدول الافريقية ، واعتقد ان الشعار المناسب لتحديد المضمون لحركة التحرر الوطنى فى افريقيا المستقلة ينبغى ان يقاس بطبيعة التناقضات التى تعانى منها افريقيا المستقلة فى الوضعية الراهنة . ففى رأيى أن التناقض الأصلى يدور فى مجال انهاء التآكل الاجتماعى واعادة البناء بعد فترة طويلة من تفاقم المشكلات الافريقية التى هى مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية فى نفس الوقت . فافريقيا تواجه ثلاث مجالات من المشاكل مرتبطة فيما بينهما :

فهناك أول مشكلة المجاعة بكل آثارها الاجتماعية والاقتصادية فهى تعنى مجرد حرمان الانسان الافريقى فى مجال البناء الاجتماعى مما يدفعه فى اتجاه انخفاضى وفى اتجاه اسقاطى . ثم هناك مشكلة التحلل المؤسسى ، فبعد فترة طويلة من عجز التشكيلات الافريقية عن انتاج ما يمكن تسميته تكتل سلطة قادرة على فرض الاستقرار فى حدود أداء واجبات الدولة الوظيفية بصورة تمكن المجتمعات الافريقية من الانتقال من مرحلة التضعضع السياسى والاقتصادى المزمن الى حد أدنى من الاستقرار الاقتصادى والتنموى .

المشكلة الأخيرة تتمثل فى الضغط العميق على النظم الاجتماعية نتيجة مراحل طويلة فى العنف المستديم وهو يمثل ظواهر تاريخية ضخمة لها اثر كبير على افريقيا تتمثل فى الهجرة الى الداخل او الخارج .

فى اطار هذه المشاكل الثلاث اعتقد — شخصيا — أن الحصول على الاستقلال التام فى اللحظة الراهنة لا هو أمر ممكن ولا هو أمر من الحلول الصحيحة للتناقضات التى أوردتها ، انما أعتقد اذا أخذنا المفهوم بمعنى اعادة البناء الديموقراطى للمجتمع الوطنى والمجتمع الافريقى بصورة عامة . اذا أخذنا بهذا المفهوم كمرتكز أساسى اعتقد أننا سننظر الى قضية الاستقلال الاقتصادى بمنظور جديد وهنا اعتقد أن الاعتماد الذاتى والجماعى على النفس الى أقصى حدد ممكن تاريخيا يصبح هو الشعار المناسب فى اطار العلاقة بين الدول الافريقية والدول الغربية بمعنى انه ليس المطلوب هو فك الارتباط بين الاقتصاديات الافريقية المعاصرة من ناحية ، والسوق الراسمالى العالمى من ناحية أخرى ، انما هو اعادة صياغة هيكل هذه العلاقات وشروطها على نحو جذرى .

أما فيما يتعلق باعادة البناء الديمقراطى فذلك يقتضى التفكير فى تغيير هام فى بنية النظام الاقليمى الافريقى أو فى مبادىء منظمة الوحدة الافريقية ، فالموقف الحالى لمنظمة الوحدة الافريقية لم يعد مناسبا فى المرحلة الراهنة . وليس مناسبا كذلك البدائل المطروحة لدى الرحكات الانفصالية ، فالانفصال والوضع القائم ليس حلا انما يؤدى الى تعميق المشكلات الافريقية واعتقد أن الحل المطروح هو تعميم وتعميق المشاركة فى الحكم السياسى على أقصى نطاق ممكن ، وبناء مؤسسة أفريقية اقليمية قادرة على تثقيف المواطن الافريقى وتوعيته بالنسبة للحالة الثانية وهى حالة النضال من أجل الاستقلال وتصفية العنصرية فى جنوب افريقيا .

أعتقد أن المشكلة الأساسية الراهنة تتمثل فى رؤيتنا لمهمات النضال الوطنى فى ناميبيا وجنوب افريقيا على نحو ايجابى خاصة بعد الاتفاق الدبلوماسى بين موزمبيق وجنوب افريقيا ، ففى اعتقادى أن الحلقة المركزية فى النضال من أجل انتزاع استقلال ناميبيا وجنوب افريقيا هى حلقة النضال العسكرى ، وداخل هذه الحلقة هناك درجة محددة من التدهور أدى الى اغتيال ساموری میشیل والى الوضع الحالى فى انجولا ، وأن مهمة تشديد

النضال العسكرى واعادة بناءه من جديد هى ممهة كل افريقى ، وأن من الضرورى لذلك اعادة بناء التضامن والوحدة التى لها مضمون عسكرى بين كل افريقيا وبين حركات التحرر الوطنى الافريقى والتى ينبغى أن تفكر فى هذا العامل بصورة جدية اكثر مما هى عليه الآن ، وذلك بالنسبة لمستويات النضال الداخلى والخارجى .

الاستاذ أحمد يوسف القرعى :

دروس حركة التحرير فى جنوب أفريقيا من وجهة النظر العربية :

هى ليست دروس بالمعنى المألوف وانما هى مجرد ملاحظات من واقع الدراسة المقارنة لواقع الفصل الأخير فى عصر التحرير العربى والافريقى .

فعصر التحرير العربى الافريقى الذى بدأ أوائل القرن العشرين وبلغ مرحلة من النضج فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، واقصد به التحرير بالمعنى الضيق اى فى منطقة الجنوب الافريقى وفى فلسطين وبالذات قضايا عصر التحرير الراهن ، هناك خمسة دروس أقدمها باختصار من واقع الدراسة المقارنة لحركة التحرير العربى والافريقى معا ، لأننى أعتقد أن الدراسات الافريقية فى مصر والوطن العربى تفتقر الى المزيد من الدراسات المقارنة ، هناك فعلا كتابات عديدة ومتنوعة فى الشئون الافريقية باللغة العربية ، وهناك كذلك كتابات عديدة فى حركات التحرر العربى ، لكن من النادر جدا أن نجد دراسات مقارنة تحاول استخلاص الدروس المستفادة .

— الملاحظة الأولى : درس تنظيمى حول ظاهرة استمرارية حركات التحرر الافريقية العربية ، فنذكر انه منذ أسابيع قليلة احتفلنا بمرور ٧٥ سنة على قيام المؤتمر الوطنى الافريقى لجنوب افريقيا ، وظاهرة الاستمرارية تلازمها ، وهذا لا يعنى انها كانت طوال هذه السنوات اطارا واحدا ، بل بالعكس تنوعت القيادات من المقاومة السلمية الى الكفاح المسلح ... الخ ، حتى نوعية الشخصيات من بتولى ، تامبو الى نلسن مانديلا ، كل هذه الزعامات وهذه القيادات شكلت حركة التحرير ولكن كان ذلك فى اطار تنظيمى واحد هو المؤتمر الوطنى الافريقى الذى تأسس فى سنة ١٩١٢ ! ولازال يقود حركة التحرير فى الجنوب الافريقى .

— الملاحظة الثانية : درس حول تعبئة الرأى العام العالمى لمواجهة الأمر الواقع التى تطبقها كل من اسرائيل وجنوب افريقيا ، وأرى أن الأمم المتحدة تمارس دورا فعالا فى القضية لناميبية أكثر من القضية الفلسطينية ، فقد أنشأت سنة ١٩٦٦ صندوقا لناميبيا ، بل أكثر من هذا أوجدت خطة لما قبل الاستقلال وخطة لما بعده ، خطة تنموية كاملة للواقع فى ناميبيا نفسها من حيث التعليم والاقتصاد والسياسة وكل نواحى الحياة على أرض ناميبيا ، وأعتقد أن الأمم المتحدة لم تمارس مثل هذا الدور بالنسبة لفلسطين .

— الملاحظة الثالثة : درس حول تسريب الفكر الارهابى الصهيونى الى جنوب أفريقيا ، وأعتقد ان هناك نقطة يجب أن أوليها عناية اكبر من واقع قراءتى لمحاكمة نلسن مانديلا سنة ١٩٦٤ وجدت اعترافات هذا الزعيم الوطنى ، الذى لا يستطيع الانسان التشكيك فى وطنيته بالنسبة لبلاده ، ومدى تأثره بالفكر الصهيونى فى اعداد منظمة رمح الوطن التى تعتبر الجناح العسكرى للمؤتمر الوطنى الافريقى ، والتى قادت الكفاح المسلح منذ بداية الستينات فى جنوب افريقيا ، هذا المواطن الافريقى نلسن مانديلا اعترف فى محاكمته انه تأثر بالعصابات الصهيونية التى قادت المقاومة ضد العرب وضد الاستعمار البريطانى قبل اعلان قيام دولة اسرائيل .

وهناك حركات تحرر افريقية كثيرة تأثرت بهذا التسريب الاسرائيلى أو الصهيونى حيث أن شكل رمح الوطن تكاد تشبه « منظمة فتح » الجناح العسكرى لحركة التحرير الفلسطينية ، ويحكى نلسن مانديلا كيف التقى بجماعة صهاينة فى جنوب أفريقيا ، وكيف أثروا فيه فى تشكيل رمح الوطن على نفس التنظيم ونفس التكتيك ونفس الاستراتيجية ، وأعتقد أن رمح الوطن أثبتت وجودها فعلا فى خلال مدته ، وهذا قصور من الدراسات العربية والدراسات المصرية بصفة خاصة ، لأن الوطن العربى قاد كفاح مسلح متعدد الألوان والأشكال منذ عصور قديمة وحديثة ومعاصرة ، لكن للاسف كنا نتحدث عن حركات التحرير العربية بأسلوب اعلامى لم نحاول تقديمه على هيئة كتب تنظيم . ككتب ماو وجيفارا المنتشرة بين ايدى الثوار الأفريقيين . وكان من الممكن لنلسن مانديلا — الذى زار القاهرة قبل اعتقاله بشهور قليلة — أن يستفيد من تجارب الكفاح المسلح العربى بدلا من استفادته من تجارب المقاومة الصهيونية للوجود العربى والاستعمار البريطانى قبل ١٩٤٧ .

ـ الملاحظة الرابعة : هو درس اعلامى من واقع الدراسة المقارنة لمذبحتى ساردفيل ودير ياسين . فمذبحة ساردفيل وقعت فى جنوب افريقيا فى ٢٠ مارس سنة ١٩٦٠ وفى ٢١ مارس تحتفل أجهزة الاعلام المصرية والعربية بهذا اليوم وكذلك الرأى العام العالمى ، لأننا نحتفل فى اطار احتفالات أو توصية الأمم المتحدة نفسها ومنظمة لوحدة الافريقية بالاحتفال بهذه المناسبة ، وبعدها بأيام قليلة تأتى في ٩ ابريل ذكرى مذبحة دير ياسين ، ولم نجد صوتا عاليا ليتذكرها واعتقد ان الجيل المعاصر لا يتذكر أحداث دير ياسين .

لماذا يحتفل الرأى العام العالمى بذكر مذبحة ساردفيل بينما ينسى مذبحة دير ياسين رغم ان هذه الأخيرة تفوق الأولى من ناحية الخسائر والقتلى فمذبحة ساردفيل جاءت نتيجة لحدث طارىء بينما مذبحة دير ياسين جاءت أثر مخطط موضوع تماما فى اطار استراتيجية عسكرية . ويمكن انطلاقا من الاستفادة من دروس هاتين المذبحتين على الأقل كمدخل اعلامى للقضية العربية .

ـ الملاحظة الخامسة : درس حول الممارسة الصهيونية والعنصرية فى الأرض العربية المحتلة والأرض الافريقية المحتلة . ومن الملاحظ ان السلطات الاسرائيلية استطاعت بشكل مباشر او غير مباشر السيطرة على أكثر من نصف أراضى الضفة مما حول المجتمعات الفلسطينية الموجودة فى الأراضى المحتلة الى خليط من الجزر المعزولة . وهذه بالضبط هى الصورة الموجودة فى الجنوب الافريقى .

أعتقد اذن أن الدراسات المقارنة لواقع حركة التحرير العربى فى الأراضى المحتلة وواقع حركة التحرير الافريقى فى الجنوب الافريقى سيفيدنا كعرب وكأفارقة .

التعليقات والمناقشات

د. رضـــا فودة :

— من الملاحظ ان هناك سمة غالبة على حركة التحرر الافريقية وهى تعدد حركات التحرر فى الدولة الواحدة ، وهذا يؤدى الى اضعاف عمـل هذه الحركات وابطاء سرعة تحقيق الاستقلال وبالتالى يكون التأثـير فى الحركات وسرعة تحقيق الاستقلال ضعيفا ، وقد نشأ من تخوف الحركات من بعضها خشية قيام بعض الحركات بالاستيلاء على الحكم . وبذلك يقوم الصراع وتحاول كل حركة السيطرة على الأخرى . كما حصل فى انجولا ، ونلاحظ أن نفس هذه العملية قائمة داخل منظمة التحرير الفلسطينية .

— وما دمنا فى ندوة العرب فى افريقيا أرى اننا كعرب ليست لنـا استراتيجية موحدة للتحرر فى أفريقيا فى حين انه يوجد حاليا ست دول عربية من دول افريقية كان من الممكن أن تكون كحلقة وصل وتقوم بـدور مساعدة حركة التحرر الافريقية ، فالمساعدات العربية اذن لحركات التحرر ضعيفة جدا وخاصة فى المناطق التى توجد فيها حركات تحرر اسلامية .

د. ابراهيم صـــقر :

هناك استعمار اقتصادى واستعمار استيطانى لا يزال قائما وبالذات فى دول العالم الثالث التى لم تحقق بعد استقلالها الشامل والكامل ، فهناك صراع قائم بين الدوائر المحلية والدوائر الاقليمية ، ولهذا فعملية التحـرر بالمعنى الشامل عملية صعبة تحتاج الى وقت وتواجه مقاومة شديدة ، وذلك رغم الاتجاه العام لعملية التحرر .

لكن ما هو الدور الذى يلعبه العرب فى حركة التحرر الافريقية فالتأثير السياسى الكبير الموجود داخل افريقية آت من اثر وحى عبد الناصر فى عملية الدائرة الافريقية وفى عملية التحرير فى أفريقيا وبالتالى فقد ساعد حركة التحرر الوطنى لأنها كانت تتلاءم مع الظروف وبمرونة شديدة .

فنحن كذلك يجب أن نتلاءم مع الظروف الحديثة ويجب ان نعمل لتحقيق

مرحلة من مراحل التحرر الاقتصادى والاجتماعى وذلك لن يتم الا بمساندة ومؤازرة الجماهير والشعوب الافريقية وتوعيتهم قصد تحقيق الهدف الأساسى من التحرر .

د. على الدين هلال :

لى ثلاث ملاحظات :

أولا : اريد تحديدا دقيقا لحركة التحرر الوطنى من أين اتى هذا المفهوم؟ وانا غير مستريح لبعض الاجتهادات التى تبدو منطقية لكن هذا المفهوم له أساس تاريخى ، وفى اعتقادى أن هذا المفهوم اشتراكى ، فنحن نتحدث عن الحركة الوطنية ، عن الكفاح ضد الاستعمار ، وضد الاحتلال ، كيف أتى اسم « التحرر الوطنى » أو « التحرر القومى » ، فالجذور التاريخية لهذا المفهوم تساعدنا على وضعه فى سياقه التاريخى وعلى الاستخدام الصحيح له . ويدخل فى هذا هل أن الأفارقة اطلقوا هذا الاسم ، أو أن الأفارقة سموا ما يفعلونه بحركة التحرر الوطنى او القومى الافريقى .

ثانيا : ألم يأت الأوان لكى نتعدى العموميات وندخل فى الخصوصيات؟ هل نستطيع أن نتحدث عن حركة تحرر وطنى افريقى واحدة ؟ أم أنه هى تنوعات فى القارة ، وخصوصيات ومراحل تطور مختلفة تفرض علينا الأخذ بعين الاعتبار لهذه الخصوصيات ؟

ثالثا : ضرورة وضع ما يحدث فى افريقيا فى اطاره الاقليمى والدولى ، فما نسميه حركة تحرر وطنى هو فى واقع الأمر حركة تحلل الامبراطوريات التقليدية ، وهو أصلا التزام المعسكر الاشتراكى والوحدة الصينية السوفيتية لدعم هذه الحركات ، وانتصار حركة التحرر الافريقية ووقف مدها ارتبط أيضا بانقسام المعسكر الاشتراكى ، وارتبط أيضا بهزائم حركة التحرر الوطنى فى آسيا من ناحية وفى الوطن العربى من ناحية ثانية ومن ثم السؤال :

كيف نجد هدف العملية الآن فى اطار وفاق أمريكى سوفيتى أو فى اطار حرب باردة أمريكية سوفيتية ؟ بعبارة اخرى لا اعتقد حلا افريقيا يمكن أن يستمر بمعزل عن التواجد العالمى فهناك قوة متحكمة فى العالم وأى حلول فى هذه الأمور لابد أن تكون فى سياق هذا العالم .

د. أحمد عبد الله :

ان التصور المعاصر لواقع القارة الافريقية يفرض على شعوب أن يكون فيها حد أدنى من المسئولية ، فالتحاور المطروح حولها يقتضى قدرا من المفهوم فمن حيث المفهوم التقليدى للتحرر لم يتم حسم قضية الأهداف الشرعية والسياسية للمجتمعات الافريقية ، حيث موضوع الدولة ما زال موضوعا للجدل . من يحكم وكيف ؟ ... الخ . اذن التحرر بمعناه القديم ما زال قائما حيث لم يوجد بعد شكل الدولة المستقلة وقواعد الصراع السياسى فى داخلها ، وفى ظل استمرار النزاعات فى القارة الافريقية وتوزيع أكثر من قضية على أكثر من دولة مستقلة ذات سيادة ، الا يصح فى تحدبات التحرر للمجتمعات الافريقية اتباع مفهوم السيادة المشتركة وليس فقط مفهوم السيادة الموحدة للدولة الواحدة كما هو مطروح عند الأوروبيين مثلا لحل المشاكل الاقليمية والقومية ؟ فمنظمة الوحدة الافريقية بتركها للاوضاع على ما هى عليه لم تنجح فى منع الصراعات الاقليمية ، بل حدثت تدخلات عسكرية فيما بين دول افريقية وبعضها البعض كما هو الحال فى أوغندا وتنزانيا ...

— التحرر بمفهومه الاقتصادى ، هل هناك أى أمل فى تحرر الدول الافريقية اقتصاديا بمعنى تغيير نظام القوى فى توزيع الثروة الدولية بدون موقف جماعى ؟ أم أن الأمر منوط بالموقف الجماعى للقارة الافريقية ؟ وبمعنى أصح لخلق كتلة تنموية أو محور افريقى واضح ومحدد يساعد على ايجاد نصيب أكبر من الثروة الدولية على المستوى الدولى .

— التحرر بالمفهوم الثقافى : فنحن نشهد فى افريقيا مثلا حركات اسلامية واسعة النطاق لم تقتصر على العالم العربى فقط ، بل نجدها فى افريقيا المسلمة ، بل ونجد عودة الى التراث والأصول الاسلامية حتى لدى الشعوب الافريقية غير المسلمة ، ففى هذا المدى هناك طرد لقضية التحرر الثقافى ، وأظن أن الربط بين قضية التحرر الثقافى والتحرر الوطنى قضية معقدة ولكن رغم ذلك نلاحظ انه داخل المناطق التى توجد فيها حركات التحرر الوطنى فى افريقيا توجد جماعات اسلامية وأقصد بذلك الجماعة الاسلامية داخل جنوب افريقيا حيث ثبت لدينا ما يفعله هؤلاء فى مشاركتهم فى تحرير الجنوب الافريقى .

الردود على المناقشات والتعليقات

أ. د. عبد الملك عودة :

ان موضوع حركة التحرر الافريقى جد معقد وفيه آراء مختلفة وكثيرة وأنا اتفق مع ضرورة ايجاد مفهوم محدد لحركة التحرر الوطنى ، فالأمم المتحدة كانت تتكلم فقط عن الاستعمار وحركة الاستقلال الوطنى فى المستعمرات واشباه المستعمرات ، وقد تطور المفهوم بعد انعقاد أول مؤتمر آسيوى فى فى الهند ، قبل ان يتطور باندونج وبذلك بدأت تنتقل كلمة « تحرر » الى المناطق المستعمرة .

اما كلمة National والتى تترجم الى وطنى أو قومى ، والعيب يرجع الى الترجمة التى لم تحدد مفوهم واضح لهذه الكلمة .

وعلى العموم بدأ استعمال هذا المفهوم فى مختلف الأدبيات التى تحدثت عن الاستعمار ، ومن الملاحظ أن المد اليسارى الذى تحول الى المستعمرات والامبراطوريات الاستعمارية لعب دورا كبيرا فى ابراز الحركات الوطنية وفى مساعدة حركات التحرر الوطنى لتصفية الاستعمار ، ومن ثم نجد ان كل الحركات المناهضة للاستعمار اخذت تسمى نفسها بحركات التحرر حتى تلك التى تعتبر حركات أنفصالية أطلقت على نفسها هذا الأسم . فحركة التحرر بمفهومى الخاص هى تصفية الاستعمار وعملية بناء الدولة الافريقية المستقلة ، وبعد ذلك يمكن تناول حركات التحرر حسب أيديولوجيات مختلفة فهناك من يريد تغيير المجتمع بثورة او بانقلاب ، وهناك من يريد تبنى الاشتراكية او الديموقراطية فى بناء المجتمع ... الخ .

أنا متفق على وجود عموميات فهى التى قادت الحركات الافريقية والعربية فى بدايتها لكن وبعد المعارك بدأت تظهر الخصوصيات وبالذات فى مرحلة التحول من فترة تصفية الاستعمار الى مرحلة بناء الدولة ، والتى تمثلت فى كيف نبنى الدولة ومن يسيطر عليها ... الخ .

ان دور الغرب الأوروبى واضح وكذا بالنسبة لمصطلحات الاستقلال القومية وبالتالى دور الاشتراكيين الأوروبيين فى بناء الأحزاب الوطنية ،

فرغم رفضنا لكل ذلك فهى أشياء مفروضة علينا ولا يمكن ان نتحـرك خارج اطارها والمتغيرات الدولية واضحة فى بلدان العالم الثالث ، وبالتالى نرى انه سواء الولايات المتحدة الامريكية أو الاتحاد السوفيتى لا يسمحان بتفكك اية دولة ، فنحن نعنى بالحركة الوطنية — اذن — الدولة المستقلة بمفهوم الأمم المتحدة والقانون الدولى .

فيما يخص التحرر بمعناه الثقافى : ارى أن الثقافة مهمة جدا فى التفكير الافريقى ، والثقافة هنا ليس بمعناها الاسلامى فقـط ، ولكن بمعنـاها التقليدى كذلك فالأصول الاسلامية واضحة فى الطرق الصوفية الاسـلامية التى انتشرت فى أفريقيا المسلمة قبل مجىء الاستعمار بدليل ان معظم الزعماء كانوا صوفيين الأمير عبد القادر الجزائرى ، عبد الكريم الخطابى ، الشيخ عمر عثمان بن فوديو ... كل هؤلاء تربوا فى اطار الطرق الصوفية ولعبوا دورا مهما فى الحفاظ على الاسـلام فى أفريقيا غير العربية ، بل وشاركوا مشاركة ايجابية فى تحرير المستعمرات ، والأمر واضح فى جنوب افريقيا حيث يشكل التيار الاسلامى قوة فعالة فى تحرير جنوب افريقيا .

السيد السفير البديوى :

ان رصـيد العرب فى مساعدة افريقيا جد كبير فمصر بالذات منـذ الثورة — على وجه الخصوص — لعبت دورا كبيرا يختلف عن باقى الدول العربية فيما يخص تقديم المساعدات لحركات التحرر الوطنية . ومن الملاحظ انه بالعمل داخل منظمة الوحدة الافريقية أمكن للدول الافريقية أن تتعاطف مع الدول العربية وبالخصوص فيما يتعلق بقضية فلسطين ، ففى سـنة ١٩٧٥ اعتبرت القضية الفلسطينية قضية افريقية شأنها فى ذلك شأن باقى القضايا الافريقية ، وقد وصل الأمر الى عقد مؤتمر للتعاون العربى الافريقى فى القاهرة فى سنة ١٩٧٧ ، الا انه لم يكتب له الاستمرار وذلك بعد تجميد عضوية مصر فى جامعة الدول العربية ، وكذا لانعكاس الموقف العربى المتردى على رصيد العرب داخل افريقيا ، وتحول بذلك هذا المؤتمر العربى الافريقى من الايجاب الى السلب .

قضايا الأمن والاستراتيجية فى أفريقيا

حلقة نقاش

المشـــاركون :

— ا٠ د٠ على الدين هلال
— السفير احمد حجاج
— ا٠ د٠ عبد الملك عودة
— د٠ نازلى معوض احمد

كلمة رئيس الجلسة : أ٠ د٠ على الدين هلال

نحن نتحدث عن تكامل العلوم الاجتماعية ، وعن ضرورة الحاجة الى مفاهيم مركبة تلخص وتجمع البيانات والمعلومات المختلفة المشتقة من العلوم الاجتماعية المختلفة .

ومفهوم الأمن أو مفهوم الاستراتيجية هما من المفاهيم المركبة ، فعندما نتحدث عن الأمن مثلا على الفور يأتى الى الذهن الابعاد الاقتصادية للامن : الاجتماعية ، السياسية ، الثقافية ، والمعنوية . فحينما نتحدث عن الأمن نتحدث عن ظاهرة معقدة متعددة المستويات متنوعة الأبعاد ، فهذه الجلسة تتناول بعض أو أهم قضايا الأمن والاستراتيجية فى القارة الافريقية ، سواء على المستوى الاقليمى (أى افريقيا) أو على المستوى الدولى أى علاقاتها بالتوازن الدولى أو بالقوى الخارجية ، واعتقد أن هذه الجلسة تتمة طبيعية لجلسة حركة التحرر الوطنى ، أو استكمال استقلال الدول الافريقية ، وهذه المسألة مرتبطة أشد الارتباط بقضية الأمن سواء بمعناه الداخلى أو بمعناه الاقليمى والدولى ، فأمن الدول داخليا مرتبط بقضية بناء الدولة وبالتحـــرر ، اما خارجيا فتثار قضية مهمة خاصة بالنسبة للدول الصغيرة ومنها الدول العربية والمتمثلة فى ماهية علاقة أمن الدول الصغيرة بأمن الدول الكبرى ؛ وبغض النظر عن الشعارات المرفوعة أو الأمانى النبيلة ، قدر لنا أن نكـــون أبناء لدول صغيرة محدودة الامكانيات ، فأين نحن بين صراع العمالقة ؟ وهل نستطيع فعلا أن نحقق امانينا بمعزل عن أى علاقة ما بهذه الدول الكبرى أو تلك ؟ اعتقد ان هذا السؤال وارد وربما الاجابة عليه لا تكون بنعم أم لا . وانما يجب أن نتعرف على حدود الحركة وعلى قيود هذه الحركة .

واريد ان أطرح رأيا للبحث مؤداه أن افريقيـــا لم تدخل بعد ســـاحة الصراع الدولى ، فلا أستطيع أن اقارن افريقيا استراتيجيا بالمنطقة العربية ، ولا بأوروبا ولا باسيا ، فهناك فى هذه المناطق يتصارع السوفيت والامريكيون بجيوش أحيانا بين الواحد والاخر مسافة عشرة دقائق أو ربع ساعة ، هناك توجد قواعد الصواريخ ، هناك توجد الاهداف المنصوبة ازاء بعضها البعض ، اذن اعتقد ان النظرة الاستراتيجية لافريقيا يجب عندما تقارن بأقاليم العالم الأخرى ، أن تكون على مؤخرة مناطق الصراع الاستراتيجى ، ولكن اذا وافقنا

على ذلك يجب أن نطرح السؤال التالى ، الى متى سوف يستمر هذا الوضع ؟ ألا توجد مؤشرات توحى لنا بأن هذا الوضع سوف يتغير ؟ واذا تغير فالى أين ؟ وما هى تداعيه ؟ .

الملاحظة الثانية : تتمثل فيما يمكن أن نسميه بتدنى البناء التحتى للصراعات الافريقية يعنى انها صراعات تنتمى الى القرن التاسع عشر بأساليبه وقدراته ، فلا توجد معركة مثل معركة ٦ اكتوبر فى حجم السلاح وفى قوة النيران ، وفى حجم التدمير ، فنحن فى أفريقيا نتحدث عن صراعات تستمر بالشهور والسنين ، ولكن بوسائل قتالية محدودة القدرة التدميرية ، وهذه سمة من سمات الصراع فى افريقيا .

الملاحظة الثالثة : تتمثل فى تعاظم دور دول غير الدولتين الأعظم فى أفريقيا : من المعسكر الغربى فرنسا على سبيل المثال ، ومن المعسكر الاشتراكى كوبا ، واذا القينا نظرة فى قائمة صادرة عن وزارة التعاون الفرنسية فيوجد وفقا لوثائق هذه الوزارة سنة ١٩٨٥ ، ١٢٧٨ مستشارا عسكريا فرنسيا من خمسة وعشرين دولة افريقية وندهش أن أسماء هذه الدول تأتى مفاجأة للبعض لأنها تضم الجزائر ، بنين ، بوركينو فاسو ، ليبيا ، موريشيوس ، تونس ، المغرب ، والسنغال ، وتوجد قوات عسكرية دائمة لفرنسا فى السنغال وفى ساحل العاج وفى الجابون وفى جيبوتى .. ثم توجد قوة تدخل سريع فرنسية على غرار قوة التدخل السريع الامريكية .

الملاحظة الرابعة : والتى تكاد تنفرد بها ظاهرة الصراع فى أفريقيا هى ظاهرة المرتزقة والتى لا تندثر بل تتزايد ، فهناك قوات مرتزقة تؤجر للقتال فى أماكن مختلفة من القارة الافريقية وهى ليست ظاهرة هامشية ، بل هى جزء مكون للقوات القتالية فى عدد من مسارح الأرض الافريقية الآن .

وهنا لابد من النظر الى الأمن الافريقى وأمن افريقيا سواء على مستوى الدول أو على مستوى أكبر ، وفى تقديرى الشخصى يتم ذلك فى اطار عمليتين تاريخيتين :

العملية الأولى : تتمثل فى الاشكال الذى تعرفه افريقيا بين سيادة الدولة وبين حق تقرير المصير ، بين الحفاظ على حدود الدولة الاستعمارية التى أصبحت مستقلة الآن وبين حركة تقرير المصير للاقليات والقبائل

التى ترى انها لا يجب أن تكون داخل هذه الدولة ، وربما يفرض هذا علينا اعادة النظر فى الكيانات السياسية القائمة وربما التفكير فى اشكال للتركيبات الاقليمية .

العملية الثانية : تتمثل فى أن قضية الأمن لا تنفصل عن موضوع الاستقلال الوطنى او التحرر الوطنى بصفة عامة وان الأمن الافريقى مرتبط داخليا بحق تقرير المصير وخارجيا باستكمال حركة الاستقلال الوطنى والتحرر الوطنى .

فما هى — اذن — الأسئلة التى نريد أن نتحاور معها وبخصوصها فى موضوع الأمن والاستراتيجية فى افريقيا ؟ هناك عدة أسئلة منها :

— ما هى أهم بؤر التوتر او الصراع فى القارة الافريقية ؟

— ما هى الآفاق الافريقية والدولية المترتبة على هذه البؤر من التوتر والصراع ؟

— كيف قامت بعض المنظمات الاقليمية كمنظمة الوحدة الافريقية أو غيرها بمحاولة لمعالجة مصادر هذا التوتر وهذا الصراع ؟ ثم كيف يتغير وضع افريقيا وما هى علاقة الأمن الافريقى بالتوازن الاستراتيجى فى العالم . اى ما مدى تأثيرها على التوازن بين الكتلتين ؟ فالى اى مدى ما يحدث فى افريقيا سلبا أو ايجابا ، صراعا أو تعاونا يؤثر على التوازن الاستراتيجى العالمى وتحديدا التوازن بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية ؟

للاجابة على هذه الأسئلة تصورنا أن هناك ثلاثة مجالات للحديث .

المجال الأول : هو مجموعة الصراعات الموجودة فى الجنوب الافريقى والمرتبطة بجنوب افريقيا .

المجال الثانى : مجالات الصراع التى هى على هامش الوطن العربى وتمس افريقيا وهى جنوب السودان ، تشاد ، والصحراء الغربية .

المجال الثالث : وهو مجال الصراع فى القرن الافريقى .

السفير أحمد حجاج :

صراعات الجنوب الافريقى والمرتبطة بجنوب افريقيا :

مفهوم الأمن مفهوم مركب ومعقد ، وبالرغم من كثرة التفاسير التى قيلت عن الأمن بصفة عامة والأمن القومى بصفة خاصة ، وبالرغم من اتفــاق الباحثين والقانونيين والسياسيين على أن الأمن القومى أحد الدوافع الرئيسية لتفسير سلوك الدولة ومواقفها ازاء أزمة معينة ، الا انه لم يمكن حتى اليوم تحديد اطار نظرى أو تعريف جامع شامل لمفهوم الأمن القومى ، ويمكن فى هذا المجال تفسير الأمن القومى بحماية الدولة ، ووحدة اراضيها وسيادتها واستقرارها واستقلالها ومن ثم فانه يشمل عنصرين :

أولا : حماية كيان الدولة ضد اعمال العدوان الخارجى .

ثانيا : حماية الدولة داخليا وعدم تعرضها لحرب دعائية او نفسية او لضغوط اقتصادية .

اذا انتقلنا من هذا التعريف المجرد للامن ، لمحاولة تطبيقه على افريقيا، لوجدنا أن هناك ظاهرة تنفرد بها هذه القارة عن غيرها ، هذه الظاهرة تتمثل فى استمرار التدخلات العسكرية الأجنبية وبصورة واضحة فى السنوات القليلة الماضية ، سواء كان هذا التدخل أجنبيا أى من دول خارج القارة أو من داخل افريقيا اى من بعض دول القارة . ويكفى للدلالة على ذلك انه منــذ منتصف السبعينات فقط بلغت التدخلات العسكرية التى أمكن حصرها حتى الآن عشرون تدخلا عسكريا ، وهذا العدد الضخم من التدخلات العسكرية فى افريقيا يعكس ما يمــكن تسميته بتدهور الأمن فى أفريقيا . وبطبيعــة الحال فان منطقة جنوب افريقيا ليست استثناء فى هذا الاتجاه العام ، بل ان تدهور الأمن فى الجنوب الافريقى أوضح بكثير مما هو عليه فى منــاطق أخرى من القارة ، وذلك بحكم تواجد النظام العنصرى فى جنوب افريقيا من جهة ، وبحكم تواجد قوات غير افريقية فى بعض دول القارة كأنجولا وغيرها .

هذه ظاهرة قد تستعمل للبحث عن الأسباب التى أدت اليها :

فهناك أسباب اقليمية حيث اذا ما حاولنا تحليل هذا العنصر للاحظنا وجود خلافات حادة داخل حدود الدولة الواحدة ، ترجع لأسباب عرقية أو

دينية بمعنى غياب الوحدة الوطنية ، وافتقار التجانس القومى فى دول المنطقة مما يؤدى الى صراعات داخلية للاستيلاء على السلطة .

وقد ترجع هذه الخلافات ايضا الى الأسلوب الذى يتم به تخطيط الحدود فى افريقيا حيث استهدف التقسيم تفكيك القبيلة الواحدة بين دولتين او أكثر ، وهذه الحدود ذات طبيعة سياسية اهملت تماما الظروف الاجتماعية للقارة ، مثال ذلك ما حدث لبعض القبائل فى جنوب زائير وشمال أنجولا ، وهما ساعدا بصورة مباشرة على تفاقم الخلاف بين الدولتين .

هناك عامل آخر : وهو ارث الحكم الاستعمارى ، فالدولة الاستعمارية حاولت تنمية القبائل بصورة متفاوتة وفقا لما تحتاجه العاصمة الاستعمارية لهذه المنطقة ، مما أوجب نوعا من التمايز وعدم التجانس بين القبائل وبعضها البعض ، وبطبيعة الحال عند نشوب خلاف ولو داخلى بين قبيلتين او أكثر وعجزت احداهما عن حسم الخلاف لصالحها فانها تلجأ الى قوة خارجية أجنبية أو داخلية مما يزيد من تفاقم الخلاف العسكرى القائم .

هناك سبب آخر يتمثل فى تفاوت درجات النمو الاقتصادى فى افريقيا . وقد شهدت سنوات السبعينات والنصف الأول من الثمانينات استمرار تدهور الأوضاع فى افريقيا ، فكل فئة الدول ذات الدخل المنخفض تضعها فى خندق لا يسمح لها بالتعامل مع البنك الدولى ، كذلك فان معدل الناتج القومى العام بالنسبة لافريقيا فى انخفاض مستمر الى جانب ذلك العجز فى المديونية بالنسبة لجميع الدول بدون استثناء ، فقد شهدت أفريقيا فى السنوات الأخيرة مشكلة الجفاف والتصحر وهما ظاهرتان قديمتان الا أنهما اصبحتا اكثر الحاحا عن ذى قبل .

من العوامل الأخرى التى تدل على ظاهرة تدهور الأمن فى افريقيا تفاوت القوى العسكرية لدول المنطقة ، فجنوب افريقيا بصفة خاصة شهدت تضخما فى التسليح أو فى التدريب ، أو فى الانفاق العسكرى بصفة عامة ، خاصة وان السنوات القليلة الماضية أبرزت أمثلة واضحة على تفاوت القوى العسكرية للدول الافريقية .

من الأسباب الدولية ، هناك عدة أسباب تتمثل فى امتداد التنافس بين القوتين الأعظم الى أفريقيا ، فبالرغم من توقيع اتفاق هلسنكى للامن والتعاون

الاوربى . الا ان التنافس بين القوتين انتقل الى مناطق جديدة شملت بالأساس منطقة الجنوب الافريقى ، وكان للاتحاد السوفيتى فضل السبق فى هذا الموضوع بفضل دعمه المباشر لحركات التحرر فى المستعمرات البرتغالية وفقا لمبدأ بريجنيف ومستغلا فى ذلك النكسة التى منيت بها السياسة الخارجية فى فيتنام ، وقد أسفر هذا التنافس عن وجود اختلاف فى أهداف ومصالح القوتين الأعظم فى المنطقة ، فالاتحاد السوفيتى يستهدف أولا وأخيرا دعم وتأمين النظم الموالية له من ذلك تحقيق استقلال ناميبيا ، ثم القضاء على النظام العنصرى فى بريتوريا ، بينما تهدف الولايات المتحدة الامريكية الى اخراج القوات من أنجولا وتحقيق استقلال ناميبيا بالطرق التى تراها واصلاح ما نسميه بالنظام العنصرى فى جنوب افريقيا ، وقد اتخذ التنافس بين القوتين بالمنطقة أشكالا عديدة منها التشاور الامريكى السوفيتى ومنها التشاور السوفيتى — الانجولى — الكوبى .

وهناك عامل عام ومستمر ويتمثل فى التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا ، فاذا نظرنا الى كلا النظامين نجد أن هناك تشابها فى النظام الداخلى والتوجهات الخارجية ، ولم يكن من الغريب أن نشهد فى تقرير الخارجية الأخير ان اسرائيل كانت على راس الدول التى سلمت بالنظام العنصرى فى افريقيا ، والتى لم تقم باعلان قرارات . دودة للعقوبات ضد جنوب افريقيا — وهى ليست عقوبات بالمفهوم الصحيح — الا بعد أن ظهر أن هناك قرار من الكونجرس الامريكى يطالب الادارة الامريكية بوقف أية مساعدات تقدمها الولايات المتحدة الى أية دولة تقدم مساعدات عسكرية الى جنوب افريقيا .

هناك ايضا دور الشركات عبر القومية ، التى يوجد مقر لها فى دولة متقدمة ، ولكن لها فروع أو مصانع فى الدول الافريقية ولا سيما الدول النامية . وبالرغم من أن النشاط الزراعى هو النشاط الاقتصادى الرئيسى فى افريقيا الا أن نسبة اسهامه فى التجارة الدولية اقل من نسبة اسهام التعدين ، وذلك لاعتماده على وسائل انتاج متخلفة من جانب ولزيادة حاجة الدول الافريقية الغذائية من جانب آخر وبذلك نجد أن نشاط الشركات متعددة الجنسية نشاط ضخم وقوى فى الدول الافريقية ، وبالتالى استتبعه التأييد والتدخل غير المباشر للدول التى تتبعها هذه الشركات .

أما فيما يخص ترتيبات الأمن فى الجنوب الافريقى فنقول ان افريقيا

ككل فى حاجة الى تدعيم الأمن بداخلها ولذلك برزت الحاجة الى اتخـــاذ اجراءات لتحقيق هذا الهدف وذلك عن طريق وضـــع ترتيبات لدعم الأمن فى القـــارة .

ومن هذه الترتيبات ما تقدمه منظمة الوحدة الافريقية وما تسعى اليه من اجل ذلك لاقرار الأمن على مستوى القارة ، حيث حدد ميثاق منظمـــة الوحدة الافريقية ذلك بالالتزام بمجموعة من المبادىء أهما ، مساواة السيادة بين جميع الدول الأعضاء فى المنظمة ، عدم التدخل فى الشئون الداخيلـــة للدول الأعضاء ، احترام سيادة كل دولة وسلامة أراضيها وتحقيق كيـــان مستقل ، التسوية السلمية للنزاعات المختلفة فى القارة عن طريق التوفيق والتحكيم ، الاستنكار المطلق لاعمال الاختيار السياسى بجميع صوره وكذلك النشاط الهدام الذى تقوم به احدى الدول ضد الدول المجـــاورة ، التأييد المطلق لقضايا التحرر الافريقية ، وتأكيد سياسة عدم الانحياز تجاه جميع النظـــم .

كما انشأ الميثاق عدة اجهزة لتحقيق هذه الأهداف فى مؤتمر رؤســـاء الدول والحكومات ومجلس الوزراء ، والامانة العامة ، ولجنة الوســـاطة والتوفيق والتحكيم ، ولكن من الناحية الواقعية يلاحـــظ أن قدرة المنظمـــة على تحقيق الهدف الرئيسى لها ما زالت محدودة ، ومن أبرز مظاهر ذلك عدم اجتماع لجنة التنسيق والتوفيق والوساطة والتحكيم حتى الآن منذ انشائها ، وبالتالى لم يعرض عليها أى نزاع بين دولتين افريقيين .

فهناك — اذن — عجز داخل المنظمة عن حل المشاكل التى تعـــرض عليها كمشكلة الصحراء والمشكلة التشادية والمشكلة العنصرية فى جنـــوب القارة ، كذلك عجز المنظمة فى قدرتها عـــلى دعم قوة فى أفريقيا لدعـــم السلام سواء نتيجة الخلاف حول التشكيل أو مهام القوى وحول التمويل ، وتشاد هى الاستثناء الوحيد فى تاريخ المنظمة لتكوين هذه القوة ولكن حتى الآن هناك مشكلة تتمحور حول الناحية المالية .

أيضا نلاحظ أن هناك بعض الدول بين حين وآخر تأتى بأفكار معارضة لأهداف ومواد منظمة الوحدة الافريقية ومنها دعوة الرئيس الزائيرى موبوتو

لانشاء منظمة لافريقيا جنوب الصحراء الا أن القاهرة وبعض الدول الأخرى اتصلت بزائير لعدم الاستمرار فى هذه الدعوة لأنها ستؤدى الى تفكيك افريقيا بين افريقيا السوداء ، وباقى القارة .

هناك أيضا عجز المنظمة عن التصدى للوجود العسكرى الأجنبى على أراضى دول القارة المستقلة التى استعملت سيادتها فى دعوة بعض القوات الأجنبية مثل القوات السوفيتية فى انجولا واثيوبيا والقوات الفرنسية فى بعض دول الفرانكوفون ويرجع ذلك أساسا الى عدم قدرة المنظمة على التوصل الى صياغة واضحة محددة حول قيام هذا الدور العسكرى أو الدور الانهزامى لحل المشكلات الافريقية . وهناك أيضا عدم تنفيذ المنظمة لتوصيات لجنة الدفاع التى تكونت فى سنة ١٩٦٣ والتى استهدفت قيام تعاون عسكرى بين دول افريقيا .

اما عن ترتيبات الأمن فى الجنوب الافريقى ، ففى ظل ما ذكرناه سابقا عن تناقض مصالح القوتين الأعظم فى منطقة الجنوب الافريقى وأهمية المنطقة بالنسبة لكل من هاتين القوتين نتيجة ما تتوفر عليه من معادن رئيسية ذات صبغة استراتيجية ، فقد نجحت الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٣ فى عقد مباحثات مباشرة بين جنوب افريقيا من جانب وانجولا من جانب آخر فى جزر الراس الأخضر ، وقد اسفرت هذه المباحثات عن توقيع اتفاقية لوساكا فى فبراير ١٩٨٤ .

كذلك أمكن التوصل لاتفاق التكامل بين جنوب افريقيا موزمبيق (نبا كوناتى) الذى استهدف ايقاف حد أدنى من التفرقة العنصرية ضد موزمبيق .

ولكن وكما كان متوقعا فان أى من الاتفاقين لم ينفذ والسبب الرئيسى فى ذلك هو تمايز القوة بين طرفى الاتفاق ، فالسلام لا يتم باتفاقات موقعة على الأوراق ، ولكن السلام الحقيقى لابد أن يلتزم بتوازن حقيقى للقوة بأوسع معانيها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية . اما الاتفاقات التى تتم بين طرفين يميل ميزان القوى فى اتجاه احدهما بقوة فلا يمكن أن نسميها اتفاقات سلام .

فاتفاقيتى لوساكا وبناكوناتى لم يعكسا نظام القوى فى منطقة الجنوب الافريقى ، لأن الميزان فى صالح الحكم العنصرى فى بريتوريا ، ولذلك فشل الاتفاقين فى تحقيق السلام فى المنطقة ، بل على العكس من ذلك نشط المؤتمر الوطنى الافريقى ومنظمة شعب ناميبيا (سوابو) لاثبات الذات ، وتأكيدا لقدرتهما على توجيه ضربات قوية للنظام العنصرى .

وازاء هذه التطورات ادركت السياسة الامريكية عدم امكانية تجنب القوة الوطنية فى القارة الافريقية وخاصة فى منطقة الجنوب مما دفع وزير الخارجية الامريكى الى مقابلة السكرتير العام للمجلس الوطنى الافريقى ، ويجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا ونعترف أنه لا يوجد انقسام داخل حركة التحرير الافريقية ، ولكن يوجد انقسام داخل منظمة التحرير الفلسطينية .

أما من ناحية ترتيبات الأمن الافريقية فى المنطقة فيصعب الحديث عن انجازاتها ، فقد ظهر شكل من أشكال التعاون الاقليمى ، متمثلة فى اجتماع دول الجنوب الافريقى وهى دول موزمبيق وأنجولا وبتسوانا وزيمبابوى وتنزانيا . سواء على المستوى العسكرى أو على مستوى وزراء الدفاع الا أن هذه الاجتماعات لم تسفر عن نتائج محددة باستثناء المساعدات القيمة التى قدمتها زيمبابوى لموزمبيق ، كان الهدف منها حماية المنشآت الحقيقية فى موزمبيق التى تغذى البترول الى زيمبابوى ، ولكن بالرغم من أهمية هذه الخطوة الا انها تظل محدودة الفعالية بحيث لا يتوقع لها الاستمرار طويلا ما لم تحصل على دعم خارجى أو افريقى حيث أن امكانيات كل من موزمبيق وزيمبابوى لا تسمح بتوفير الدعم المادى أو الادارى المطلوب .

ما هو المطلوب من الأمن القومى المصرى والامن القومى الافريقى ، اذا كانت تلك هى الصورة بالنسبة للامن الافريقى ، وبصفة عامة فى الجنوب الافريقى ، فما هى العلاقة بين الأمن القومى المصرى والأمن القومى الافريقى ، وكيف يمكن تحديد متطلبات الأمن القومى المصرى فى ظل الاستمرار فى تدهور الأمن الافريقى ؟

خلال سنة ١٩٨٥ أصدر وزير دفاع الحكومة العنصرية فى جنوب افريقيا تصريحا قال فيه انه يمكنه أن يقود قوة عسكرية تكتسح كل افريقيا حتى القاهرة دون أن تواجه بمقاومة تذكر ، وهذا التصريح حاليا يبين الترابط

بين الأمن القومى المصرى والأمن القومى الافريقى ، وحتى يمكن ادراك سريع لهذه العلاقة يجب العودة الى كتاب « فلسفة الثورة » الذى أشار الى الدوافع السياسية لمصر ، والتى اوضحت أهمية القارة الافريقية والأمن الافريقى بالنسبة لمصر ، والأمن الافريقى كذلك مرتبط بالأمن العربى ، فهناك عدد دكبير من الدول العربية موجود فى افريقيا ، ولذلك هناك ارتباط وثيق وقوى بين الأمن الافريقى والعربى والأمن المصرى بصفة خاصة .

د. نازلى معوض أحمد :

مقارنة تحليلية بين قضايا أفروعربية ثلاث

(تشاد ـ الصحراء الغربية ـ جنوب السودان)

فى محاولة لوضع اطار تحليلى عام يجمع ما بين قضايا أفروعربية ثلاث، ويوضح نقاط التلاقى ما بين خصائص ومقومات وتطورات تلك القضايا، يسعى هذا البحث فى ايجاز الى اثبات حقائق خمس تمثل فى تفاعلها ركيزة المقارنة ـ لدرجة التماثل فيما بين قضايا تشاد والصحراء الغربية وجنوب السودان .

الحقيقة الأولى :

هذه القضايا تقدم نماذج كاملة لمواريث وآثار ظاهرة التجزئة الرسمية الحدودية كنتاج أساسى للحقب الاستعمارية فى التاريخ السياسى الافريقى . ان الدراسات السياسية والاجتماعية لتطور القارة الافريقية توضح أن الدول الأوربية الكبرى صاحبة المستعمرات فى افريقيا منذ القرن ١٦ قد تطاحنت طويلا فيما بينها فى صراعات دموية بسبب تناقضات التيارات الاستعمارية حتى توصلت الى صيغة توفيقية معينة تجاهلت تماما الحقائق البشرية والظروف الاجتماعية والاقتصادية الواقعية للجماعات والقبائل والشعوب الافريقية الأصيلة وذلك بأن قامت تلك الدول الاستعمارية منذ أواخر القرن ١٩ (مؤتمر برلين ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) برسم وتحديد كيانات مصطنعة أفريقية خططت اقاليمها وفقا لحدود وهمية طبقا لخطوط الطول والعرض الفلكيين أو وفقا لخو طهندسية صماء دون أدنى مراعاة لاعتبارات معيشة القبائل

أو الجماعات الموجودة فى تلك الأراضى المجزاة تعسفيا من قبل الادارات الاستعمارية الأوروبية المختلفة .

وبناء على تلك الحدود المجافية للحقائق الاجتماعية استقلت الدول الافريقية فى شتى بقاع القارة وورثت مع حدودها المصنعة ثلاث أنواع من المشكلات الجسيمة(١) . فعلى الصعيد المحلى الداخلى للدولة تعانى الدول الافريقية من معضلات البناء الوطنى للدولة الحديثة وذلك من حيث مشكلات التناقضات الاجتماعية ، وانخفاض الولاء الوطنى السياسى وشيوع الصراعات القبلية بين مستويات المؤسسة العسكرية وتصاعد المطالبات الانفصالية . وعلى المستوى الاقليمى ادت أوضاع انقسام الجماعة البشرية الواحدة بين دولتين أو اكثر الى بروز المنازعات حول مناطق الحدود المشتركة بين مختلف الدول الافريقية وتوطرها الى صراعات مسلحة . وعلى الصعيد العالمى تتراكم تلك المشكلات المذكورة لتجعل من الدويلات الافريقية كيانات هزيلة القوى وقاصرة عن مواجهة احتياجات شعوبها نظرا للثغرات العميقة فى بنيانها الاقتصادى والاجتماعى بما يؤدى الى وقوعها فريسة سهلة لكافة ممارسات ظاهرة الاستعمار الجديد ، رغم استقلالها الرسمى(٢) .

والملاحظة الأساسية فى هذا الصدد تكمن فى أن القوى العالمية المعاصرة تستهدف اعادة تشكيل الواقع السياسى الداخلى الوطنى للدول الافريقية بما يحقق تلقائيا المصالح الاستراتيجية ، سياسيا واقتصاديا ودعائيا ، لتلك القوى العالمية فى المنطقة الافريقية المعنية أو فى الدولة الافريقية المستهدفة . وتستخدم القوى العالمية لتحقيق هذا التخطيط المذكور، القوى المحلية الأهلية فى تلك المناطق وتلك الدول وذلك انطلاقا من منافذ أو جسور أو معابر متنوعة الطبيعة وتكمن بنيانيا فى داخل الكيان الافريقى ذاته ، الا وهى مشكلات التخلف الاقتصادى والاجتماعى العام ، ثم ظاهرة

---

(١) مجدى حماد ، صراع القوى الكبرى فى افريقيا ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام (١٧) ، القاهرة ١٩٧٧ ، صص ٢١—٣١.

(٢) حورية توفيق مجاهد : الاستعمار كظاهرة عالمية « حول الاستعمار والامبريالية والتبعية » ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٥ ، صص ١٢٨—١٣٦.

التجزئة سالفة الذكر ، ثم استمرارية التبعية الاقتصادية للسوق العالمى للمواد الأولية الاستراتيجية(٣) .

هذا وتعتبر قضايا تشاد والصحراء الغربية وجنوب السودان نماذج معبرة لأقصى درجة عن استثمار القوى الخارجية العالمية ، والقوى الافريقية ذات المصالح المتناقضة ، لمنفذ او لمعبر « التجزئة » التاريخية الاستعمارية وهذا ما يوضحه التحليل التالى .

فى ٥ سبتمبر ١٩٠٠ أعلنت فرنسا قيام الاقليم العسكرى التابع لها لبلاد ومحميات تشاد بحيث جمعت ما بين عرقيات مختلفة اهمها قبائل الطوبو العربية الاسلامية فى الشمال والوسط ثم قبائل السارا الزنجية بالجنوب والتى تنصرت على يد البعثات التبشيرية والارساليات المسيحية فى ظل الحكم الاستعمارى الفرنسى . وطوال ستين عاما من الحكم الاستعمارى ، مدنى وعسكرى ، دأبت الادارة الاستعمارية الفرنسية على تحويل اقتصاديات تشاد عن اتجاهها الطبيعى الى البحر المتوسط شمالا ، الى الجنوب وذلك بهدف ربطها بالمحور الفيدرالى الذى اقامته فرنسا بين برازافيل (الكونغو الفرنسى) وفورت لامى (النيجر) وهو المحور الذى كانت فرنسا تعده العمود الفقرى لما اسمته بالاتحاد الفيدرالى لافريقيا الاستوائية الفرنسية ، وكان من الطبيعى أن تقاوم الأغلبية الاسلامية العظمى لسكان الامبراطوريات القديمة فى الأجزاء الشمالية من البلاد التشادية (مثل امبراطورية كانم فى القرن ١٣ — وامبراوطرية كانو فى القرن ١٤ — وامبراطورية ودى) ، الوجود الفرنسى الاستعمارى . لهذا اتجهت الادارة الفرنسية الى التقرب من سكان الجنوب واستعانت بهم ليشكلوا كوادر ادارية فى خدمة شئون الاقليم . وهكذا تكونت فى ظل الحكم الاستعمارى كوادر تشادية من سكان الجنوب ممن اعتنقوا الدين المسيحى كما انتقل النشاط الاقتصادى من الشمال الى اقاليم الجنوب والجنوب الشرقى الذى سمى بالتشاد المفيد Le Chad Utile وكانت تلك الكوادر الجنوبية تنتمى الى قبائل السارا وهى التى ستتولى شئون الحكم بعد الاستقلال والتى منها

---

(3) A.P. Thornton, Imperialism in the Twentieth Century, the Macmillan Press ltd., 1977, London, P. 3.

سيكون الرئيسان الأولان لدولة تشاد المستقلة ، فرانسوا طومبلباى حتى ١٩٧٥ ، ثم فيليكس معلوم (١٩٧٥ — ١٩٧٩)(٤) .

كذلك أدت السياسة التعليمية التى انتهجتها فرنسا فى تشاد الى خلل جسيم فى موازين القوى الاجتماعية والثقافية حيث تركزت الشهادات العلمية فى ابناء الجنوب وارتفع مستواهم الثقافى وخبراتهم الادارية بالنسبة لابناء الشمال مما أدى الى خلل اقتصادى واجتماعى وثقافى خطير فى البنية الوطنية للدولة التشادية بعد الاستقلال ، برز فى صورة انقسام حاد بين أهالى الشمال وأهالى الجنوب(٥) .

يضاف الى ذلك أن فرنسا بعد استقلال تشاد قد أبقت قوات عسكرية لها فى اقاليم الشمال الثلاثة بوركو — ايدى — تيبستى B. E. T فى ادارة شاملة للمنطقة حتى ١٩٦٥ حيث كان العسكريون الفرنسيون حتى ذلك التاريخ يقومون بأعمال المحافظين والقضاة والأطباء فى ذلك النطاق الأرضى الشاسع الذى تبلغ مساحته ٥٨٠ الف كم٢(٦) . هذا بالاضافة استمرار وجود قوات فرنسية قدرت بحوالى الف رجل فى قاعدة نجامينا وذلك بناء على اتفاقيات التعاون العسكرى المبرمة بين فرنسا وثلاث من دول المجموعة الفرنسية الافريقية هى تشاد وجمهورية وسط افريقيا وجمهورية الكونغو برازافيل فى اغسطس ١٩٦٠(٧) .

وهكذا ورثت الدولة التشادية نظاما مركزيا بحدود مصطنعة ويضم عرقيات مختلفة متنافرة واقتصاد قومى متباين التوزيع يخضع لتفوق

---

(٤) نبيه الاصفهانى : ازمة تشاد بين الصراع والمصالحة الوطنية ، السياسة الدولية ، العدد ٥٧ ، يوليو ١٩٧٩ ، ص ١١٦ .

(5) Virginia Thomson & Richard Adloff, Conflictuin Chad, Berkeley, University of California, Institute of International Studies 1981, PP. 2 — 7.

(٦) نبيه الأصفهانى : تشاد من الحرب الأهلية الى حرب التحرير ، السياسة الدولية ، العدد ٨٨ ، ابريل ١٩٨٧ ، ص ٢٢٠ .

(٧) الهيئة العامة للاستعلامات ، الحرب الأهلية فى تشاد ، دراسة تحليلية ، نشرة خاصة ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٦٠ .

العرقيات التى تعاونت بالأمس مع الادارة الفرنسية وذلك على حساب سائر العرقيات الأخرى .

ولا أدل على عمق تعبير القضية التشادية عن ظاهرة ميراث التجزئة الاستعمارية من تصريح أدلى به وزير الدفاع الفرنسى الأسبق بيير مسمير فى يوليو ١٩٨٣ حين قال : « ان تشاد ما هو فى الحقيقة سوى نتاج للاستقطاعات التى أجراها الاستعمار فى افريقيا . فبعد أن قامت كل من الامبراطوريات الفرنسية والبريطانية والالمانية برسم خط حدود لها ، كان الجزء المتبقى فى وسط افريقيا هو تشاد » .

أما فيما يتعلق بقضية السودان ومدى تعبيرها الواقعى عن مضاعفات ظاهرة التجزئة الاستعمارية التاريخية فى أفريقيا ، فان الحدود السياسية للسودان بالمعنى القانونى الدولى المتعارف عليه قد رسمتها القوى الاستعمارية الأوربية عبر عقود متعددة من الزمن(٨) ، فقد تحددت الحدود الشمالية مع مصر نتيجة اتفاقية الادارة الثنائية سنة ١٨٩٩ بين بريطانيا ومصر ، وخططت بريطانيا الحدود الشرقية للسودان بالاتفاق مع اثيوبيا ، وبالنسبة للحدود الغربية فقد دخلت بريطانيا وفرنسا فى مساومات استمرت حتى عام ١٩٢٤ وتم بموجبها تخطيط الحدود مع تشاد وجمهورية افريقيا الوسطى . وفى الشمال الغربى تم اتفاق بريطانى ايطالى عام ١٩٣٤ بمنح ايطاليا — الدولة الاستعمارية فى ليبيا — المثلث الواقع فى شمال غرب السودان .

أما الحدود الجنوبية فقد تم تخطيطها فى فترة زمنية امتدت حتى عام ١٩٣٠ بموجب اتفاقيات بريطانية بلجيكية حول تخطيط الحدود بين السودان والكونغو البلجيكى (زائير حاليا) . كذلك قامت بريطانيا بصفتها الحاكمة فى السودان وفى أوغندا وكينيا بتعديلات الحدود الادارية بين هذه البلاد الثلاث . هذا وقد قررت بريطانيا بعد احتلال كل السودان ، فصل الجزء الجنوبى عن الشمالى واعتبرت خط عرض ١٠ شمالا هو الحد الفاصل بين الشمال والجنوب . ومن ثم يتحدد النطاق الأرضى لجنوب السودان بخط

---

(٨) عطية عبد الجواد : مشكلة جنوب السودان ، السياسة الدولية ، عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٦٥ ، ص ص ١٧٣—١٨٢ .

العرض ١٠ ويمتد جنوبا حتى شمال بحيرة البرت فى أوغندا ويضم مديريات بحر الغزال والاستوائية وأعالى النيل وفتحت السياسة الاستعمارية البريطانية المديريات الجنوبية أمام البعثات الكنسية العالمية لنشر الديانة المسيحية فى جنوب السودان كما منحت تلك البعثات حق فتح المدارس لتعليم النشء وكان رجال الكنيسة فى تلك المدارس يصورون لأطفال الجنوب أبناء الشمال كتجار رقيق لا هم لهم سوى قنص الجنوبيين وبيعهم فى أسواق النخاسة فى الشمال كما كانوا يؤكدون لهم بأن الشماليين هم غزاة للسودان قدموا من الجزيرة العربية ويجب تحرير السودان منهم(٩) .

وفى ظل الحكم البريطانى صدرت عدة قوانين تفصل ما بين الشمال والجنوب حتى على مستوى الانتقالات البشرية فيما بين النطاقين السودانيين وذلك مثل قانون المناطق المغلقة (١٩٢٢) . وترتب على تطبيقات هذه القوانين انشاء نظم ادارية وعسكرية وثقافية خاصة فى مناطق جنوب السودان . هذا ولقد كان الاتجاه السياسى السائد لدى الادارة الانجليزية ، وهو فصل مناطق جنوب السودان فى صورة دولة مستقلة عن باقى السودان أو ضمها الى أوغندا فى دولة واحدة . الا أن السياسة البريطانية تغيرت فى اطار مؤتمر جوبا سنة ١٩٤٧ حيث تقرر بقاء المديريات الجنوبية جزءا من السودان(١٠) .

وللدلالة على مدى انطباق ظاهرة التجزئة على الكيان السودانى الوطنى فان أول تعداد للسكان فى السودان عام ١٩٥٦ قد أوضح أن البلاد يعيش فيا ٧٥٢ قبيلة تتحدث ١١٤ لغة مكتوبة ومنطوقة ومن بين هذه اللغات نجد ٥٠ لغة فى مناطق جنوب السودان وبالنسبة للاصول الاثنية للسكان يتضح أن ٤٠ ٪ من السكان ينتسبون الى قبائل عربية وان ٣٠ ٪ من السكان جنوبيون من أصول افريقية وان ١٢ ٪ من السكان من قبائل غرب افريقيا

---

(٩) صلاح كردوس : السودان ومشكلة الجنوب ، مجلة الباحث العربى، العدد ٨ ، يوليو ١٩٨٦ ، مركز الدراسات العربية ، لندن ١٩٨٦ ، صص ٤١ — ٤٢ .

(١٠) عبد الملك عودة : حالة جنوب السودان ، ندوة التعددية فى الدول العربية ، المركز الاردنى للدراسات والمعلومات ، الاردن ١٩٨٦ ، ص ٧ .

المتجنسون بالجنسية السودانية ، كما ان ٥١٪ من السكان يتكلمون اللغة العربية وان ٤٨٪ يتكلمون لغات محلية(١١) .

اما مشكلة الصحراء الغربية فهى كذلك انعكاس مباشر لميراث التجزئة الاقليمية الاستعمارية الأوروبية فى غرب وشمال غرب القارة الافريقية منذ القرن الماضى . فلقد كان اقليم الصحراء الغربية تاريخيا جزءا من الممالك والدول الاسلامية التى تعاقبت على شمال غرب افريقيا مثل الادارسة والأغالبة والمرابطين ثم العلويين(١٢) .

وفى اطار التسابق المحموم بين الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى (فرنسا وبريطانيا والبرتغال واسبانيا) على اقتسام القارة الافريقية بينها فى اواخر القرن ١٩ قامت اسبانيا باحتلال اجزاء من الصحراء الغربية فى ١٨٨٤ ، هى وادى الذهب والساقية الحمراء . وبعد سلسلة من المقاصات الاستعمارية بين فرنسا واسبانيا استحوذت اسبانيا على منطقتين اضافيتين هما طرفاية وسيدى افنى التى اصبحت مركزا للادارة الاستعمارية الاسبانية لاقليم الصحراء الغربية . وتعاقبت الاتفاقيات الاستعمارية بين فرنسا واسبانيا ما بين عام ١٩٠٠ و١٩٣٤ بشأن تحديد النطاق الأرضى للصحراء الغربية(١٣) . وبذلك خططت حدود اقليم الصحراء وفقا لاعتبارات التوازن المصلحى فى شمال غرب القارة الافريقية بين فرنسا واسبانيا .

وفى عام ١٩٥٨ تنازلت اسبانيا للمغرب بعد استقلاله فى ١٩٥٦ عن منطقة طرفاية التى كانت فرنسا قد منحتها لاسبانيا بموجب اتفاقية ١٩١٢ . ثم تنازلت اسبانيا عن منطقة سيدى افنى للمغرب فى ١٩٦٩ وبذلك تقلص اقليم الصحراء الغربية الى منطقتين فقط هى وادى الذهب والساقية

---

(١١) المرجع السابق ، ص ٥ .

(١٢) جمال زكريا وصلاح العقاد : مشكلة الصحراء الاسبانية سابقا ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٦ ، صص ٣٦٣—٣٦٩ .

(١٣) مجلة الموقف العربى : الملف الكامل لمشكلة الصحراء ، يناير ١٩٧٧ .

الحمراء ، وهما حاليا القاعدة الأرضية لمشكلة الصحراء لغربية بين أطرافها المتعددة(١٤) .

نخلص من العرض السابق أن القضايا الثلاث هى تجسيدات سياسية حية لنواتج ومواريث سياسات القوى الاستعمارية الأوروبية مى تجزئة أراضى القارة الافريقية بحدود مصطنعة تجافى الحقائق البشرية والمعطيات الاجتماعية الواقعية فيها .

الحقيقة الثانية :

هذه القضايا الثلاث تقدم نماذج عملية تطبيقية لاستمرارية الحقيقة الأزلية لطبيعة محددات الصراع الدولى على مر العصور فى التاريخ الانسانى ، تلك الحقيقة التى تمحورت دوما حول تصارع القوى العالمية الرئيسية المهيمنة فى المرحلة الزمنية المعينة ، على نقاط أرضية محددة من بقاع العالم تتوافر فيها ركيزتان اساسيتان : أولهما الأهمية الاستراتيجية الخاصة للموقع محل الصراع ، اقليميا بحريا أو بريا . وثانيهما وفرة الموارد الطبيعية بأنواعها فى باطن أو سطح ذات الموقع محل الصراع .

وبالنظر الى مواقع وموارد كل من تشاد والصحراء الغربية وجنوب السودان ، نجد ان هذه الحقيقة الأزلية المذكورة تنطبق تمام الانطباق على القضايا الثلاث محل التحليل فى هذا البحث .

ان تشاد تمثل نقطة أساسية فى القلب الاستراتيجى للقارة الافريقية وتتوسط بأقاليمها اراضى كل من ليبيا شمالا والنيجر ونيجيريا غربا وجنوب غرب ، والسودان شرقا ، وافريقيا الوسطى والكاميرون جنوبا . وبذا تكون أراضى تشاد حلقة الوصل الاستراتيجية والحضارية ما بين عالم العروبة والاسلام فى شمال القارة ثم دنيا الزنوجة والديانات غير الاسلامية ، داخل

---

(١٤) ايناس المهدى : مشكلة الصحراء الاسبانية سابقا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

(١٥) اجلال محمود رافت ، تشاد ، دراسة تحليلية لجذور وطبيعة الحرب ، معهد البحوث والدراسات الافريقية، ١٩٨٣ ، صص ٥ — ٧ .

— V. Thomson & R. Adloff, op. cit., P. 3.

القارة فى وسطها وجنوبها(١٦) . كذلك فان أراضى تشاد تمثل الجسر الأرضى الاستراتيجى البالغ الخطورة ما بين دول شرق القارة ودول غربه القارة . ومن الناحية الاقتصادية قد تبدو تشاد خارجة عن نطاق البلاد ذات الجذب الاقتصادى ، الا انها تشتمل على قدرات اقتصادية مستقبلية هامة(٤٦) .

فبالاضافة الى ثروتها الزراعية من محصول القطن أساسا فى المناطق الجنوبية منها ، وثروتها الحيوانية فى القطاع الأوسط بها ، فان الدراسات الحديثة تثبت توافر خام اليورانيوم بكميات كبيرة فى شمال البلاد بجبال تيبستى وقطاع أوزو بالذات هذا الى جانب اكتشافات نفطية حديثة فى جنوب وجنوب شرق وشمال البلاد التشادية(١٧) .

ولاقليم الصحراء الغربية اهمية استراتيجية بالغة الخطورة ، فهو يطل على المحيط الاطلنطى بساحل شديد الوطل يبلغ ١١٠٠ كيلو مترا ومساحته ضخمة (ثلث مليون كم٢) (١٨) .وهو يقع بين ثلاث دول فى موضع شديد التميز والخصوصية . فالمغرب تحده شمالا وغربا وموريتانيا تحده جنوبا وشرقا بينما تتلاصق معه اراضى الجزائر فى أقصى شمال شرق اقليم الصحراء وأقصى جنوب غرب الجزائر(١٩) .

وتتميز الصحراء الغربية بثروات اقتصادية طبيعية وتعدينية هائلة . فبالاضافة الى الثروة السمكية الهائلة على طول سواحلها فان باطنها يزخر بالثروات المعدنية الضخمة ، من الفوسفات والنفط والحديد واليورانيوم

---

(١٦) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام : التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٨٥ ، القاهرة ١٩٨٦ ، صص ١٣٣ — ١٢٧ .

(17) V. Thomson & R. Adloff, op. cit., p. 142.

(18) Halim Barakat ed., Contemporary North Africa : Issues of Development & Integration. Center for Contemporary Arab Studies, Washington D.C., 1984, P. 3.

(19) John Damis, «The Western Sahara Dispute» in Halim Barakat ed., Contemporary North Africa, op. cit., PP. 138 - 150.

والزنك والرصاص . وتقدر كميات انتاج الفوسفات الصحراوى بـ ١٠ مليون طن سنويا مما يجعل للصحراء الغربية المرتبة الرابعة العالمية فى انتاج هذه المادة المسماة بالذهب الأبيض نسبة الى شدة تخصيبها للاراضى الزراعية، وذلك بعد امريكا والاتحاد السوفييتى والمغرب(٢٠) .

كذلك تتعاظم أهمية اقاليم جنوب السودان بالمنظور الاستراتيجى والاقتصادى ذلك أن جنوب السودان يمثل عمقا ارضيا بالغ الخطورة لمنطقة بلاد القرن الافريقى وهو حلقة وصل ما بين أقصى شرق القارة ، وقلب القارة بالاضافة الى وقوع كامل أراضيه فى نقطة متميزة الأهمية بالقرب الشديد من منابع نهر النيل ، وهو الشريان النهرى الضخم الذى تعتمد عليه فى انشطتها الزراعية ٩ دول افريقية .

وفى جنوب السودان ثروة تعدينية كبيرة متمثلة فى اليورانيوم والحديد والنفط والنحاس ، خاصة فى مديريتى أعالى النيل وبحر الغزال ، حيث تفجر النفط عام ١٩٨١ بطاقة ١٥ الف برميل يوميا . كما تقدر احتياطيات النفط فى المنطقة ما بين ٢٣٠ و٤٠٠ مليون برميل(٢١) . ومن ثم فان جنوب السودان يقدم كل مقومات الوفرة الانتاجية فى المجالات الزراعية والحيوانية والصناعية .

وبذلك تتلاقى القضايا الثلاث من حيث كونها ميادين صراع وبؤر ساخنة أفروعربية يجمع ما بينها الموقع الخطير استراتيجيا والثروات الواعدة اقتصاديا .

الحقيقة الثالثة :

هذه القضايا الثلاث محل التحليل هى قضايا افروعربية صميمة الازدواجية فى طبيعة أراضيها محل الصراع وفى هوية أطرافها الاقليمية

---

(20) John Damis, «Con flict in Northwest Africa. The Western Sahara Dispute.» Stanford, Hoover Institution Press, 1983, PP. 38 - 44., PP. 133 - 137. H

(٢١) صلاح كردوس ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ — ٥٠ .
— عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

المتنازعة بما قد يؤدى بالباحث او الدارس الى توقع ان تثير تلك القضايا مسائل تدخل فى نطاق تنازع الاختصاص التنظيمى فى تسوية أو حل تلك الصراعات الثلاث ما بين جامعة الدول العربية وهى الاطار التنظيمى الذى يجمع ما بين كافة الدول العربية الاسيوية منها والافريقية ، وبين منظمة الوحدة الافريقية بصفتها الهيكل التنظيمى القارى المختص بشئون السلم القارى فى افريقيا ما بين جميع الدول الافريقية العربية منها وغير العربية .

الا ان الواقع الجدير بالملاحظة والتسجيل هو أن الاهتمام الفعلى الدؤوب بتطورات هذه القضايا الثلاث وبصفة خاصة بقضيتى تشاد والصحراء الغربية نظرا لطبيعة مشكلة جنوب السودان الداخلية فى اطار دولة واحدة ، انما جاء من جانب المنظمة القارية الافريقية أساسا فى صورة قرارات واضحة بالاعتراف بالجمهورية الصحراوية العربية الديمقراطية المنبثقة تنظيميا من جبهة البوليساريو ثم الاعتراف بشرعية حكومة حسين حبرى المركزية فى نجامينا وكذا رفض محاولة من قبل ابناء جنوب السودان للنيل من البناء الوطنى الموحد لدولة السودان .

وعلى الرغم من ان هذه القضايا الثلاث جميعها تتجسد فيها هموم حقيقية للضمير العربى العام وتتمثل فيها مخاطر اكيدة على الفكرة العربية ذاتها الا أن جامعة الدول العربية لم يكن لها دور يذكر فيها ربما لغلبة الطابع الافريقى على الصبغة العربية فى أغلب جوانب تلك القضايا باستثناء قضية الصحراء الغربية وربما لظروف الضعف الشديد الذى لحق بفعاليات وقدرات المنظمة العربية الاقليمية من جراء تجميد عضوية ونشاط مصرفى أجهزتها المختلفة . الا أن الاعتبار الأرجح الذى يفسر النشاط الكثيف نسبيا الذى تضطلع به المنظمة الافريقية فى جهود تسوية تلك القضايا سلميا انما يكمن فى كون الصراعات الدائرة فى الصحراء الغربية وتشاد وجنوب السودان . تتركز فى جوهرها حول معضلة المفاضلة او الخيار الحاسم ما بين الوحدة الوطنية للدولة الافريقية المستقلة بنفس الحدود الرسمية التى انشئت ككيان مستقل دولى على أساسها وبصرف النظر عن خلفيات رسم تلك الحدود فى ظل الحكم الاستعمارى السابق ، أم اطلاق الحق السياسى الانسانى المعترف به فى الفقه الدولى المعاصر وهو حق تقرير المصير للشعوب أو الجماعات أو للقبائل المتواجدة داخل الدولة الافريقيةالمعنية والتى تحكمها اقليميا سياسيا تلك الحدود الرسمية القائمة .

ولقد عالج المشرع الافريقى وهو بصدد وضع ميثاق اديس ابابا المنشىء لمنظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ هذه المعضلة المذكورة بأن قرر مبدأ قانونيا ثابتا ضمن المبادىء المقننة للعلاقات الدولية الافريقية بين دول القارة بعضها بالبعض وهو مبدأ قدسية الحدود السياسية الافريقية وقت الاستقلال أى الرفض البات لأى محاولة ماس بالحدود القائمة رسميا فيما بين أقاليم الدول الافريقية . والحكمة العملية التى بنى عليها هذا المبدأ القانونى المذكور عن الاحترام المطلق للحدود القائمة عند الاستقلال تكمن فى نظرة واقعية الى العواقب الوخيمة التى لابد وأن تنجم عن محاولات تغيير أو تعديل تلك الحدود بما يتوافق مع مطالب الجماعات البشرية والقبائل الافريقية التى تقسمها تلك الحدود بين دولتين افريقيتين متجاورتين او أكثر(٢٢) ولذا فقد قدر المشرع الافريقى انه مهما كانت الحدود الافريقية القائمة ظالمة على المستوى الاجتماعى والانسانى ، فان الحفاظ عليها يمثل اضرارا اقل بكثير من المجازر وحمامات الدم التى ستنزلق اليها الدول الافريقية فى دوامات من الحروب المحلية التى لا نهاية لها لو حاولت احداها أو بعضها تغيير تلك الحدود أو تعديلها بالقوة .

وقد اعترفت جميع الدول الافريقية بالتزامها القانونى الكامل بهذا المبدأ عن الاحترام المطلق المتبادل لحدودها السياسية الرسمية القائمة ما عدا دولتين هما الملكة المغربية وجمهورية الصومال واللتان انضمتا الى عضوية منظمة الوحدة الافريقية بصورة لاحقة على نشأة المنظمة مع استخدام حقها فى مبدأ التحفظات الملزومية فى الفقه الدولى وبناء عليه تحفظت الدولتان على مبدأ قدسية الحدود وذلك لأن للمغرب مفهوم خاص تاريخى للحدود كما أن الصومال كانت وما تزال تطمح الى توحيد القومية الصومالية المقسمة فى القرن الافريقى ما بين اثيوبيا وكينيا وجمهورية الصومال .

وجدير بالذكر على وجه الخصوص أن منظمة الوحدة الافريقية قد قبلت فى عضويتها الجمهورية الصحراوية العربية الديمقراطية فى ١٩٨٢ انطلاقا من

---

(٢٢) بطرس غالى ، العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية ، مكتبة .

مبدأ قدسية الحدود ونظرا لاعتراف أكثر من نصف الدول الأعضاء فى المنظمة بالدولة الصحراوية(٢٣) .

ولمنظمة الوحدة الافريقية جهود واضحة فى تسوية قضية تشاد سواء فى نطاق مؤتمرات القمة المتعاقبة فيها منذ أواخر السبعينيات أو فى شكل لجان توفيق ومصالحة وتوسط بين الأطراف المتصارعة محليا فى تشاد أو حتى فى صورة تشكيل قوة حفظ سلام افريقية تكلفت ٦٠ مليون دولار من ميزانية المنظمة(٢٤) ، وتكونت من قوات تابعة لخمس دول افريقية هى السنغال وبنين ونيجيريا وزائير وكينيا ، وتم ذلك فى اطار مؤتمر القمة الافريقى الثامن عشر فى نيروبى سنة ١٩٨١(٢٥) .

واقتصر دور جامعة الدول العربية فى مواجهة ومعالجة قضية الصحراء الغربية رغم عروبة جميع أطرافها على مهام الوساطة الدبلوماسية أو المساعى الحميدة التى يقوم بها الأمين العام لجامعة الدول العربية لتقريب وجهات النظر المتعارضة بين تلك الاطراف وذلك سواء من قبل الأمين العام السابق محمود رياض أو الأمين الحالى الشاذلى القليبى فى صورة زيارات شخصية الى عواصم الدول المتنازعة الثلاث المغرب والجزائر وموريتانيا ، ثم تقديم تقارير بهذا الشأن الى مجلس الجامعة(٢٦) . الا أن هذا الجهد من أجل التسوية السلمية لصراع الصحراء لم يحقق المرجو منه حتى الآن .

نخلص مما سبق الى أن الطبيعة الافروعربية حميمة الازدواجية للمنازعات الثلاث محل التحليل فى هذه الدراسة لم يتولد عنها أى شكل

---

(٢٣) محمد عيسى الشرقاوى : أزمة المنظمة الافريقية وقضية البوليساريو ، مجلة السياسة الدولية ، عدد ٦٩ ، يوليو ١٩٨٢ ، صص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٢٤) أحمد أحمد السولية : تشاد وقوات حفظ السلام الافريقية ، السياسة الدولية ، عدد ٦٨ ، ابريل ١٩٨٢ ، صص ١٣٠ — ١٣٤ .

(٢٥) مجدى حماد : مؤتمر القمة الافريقى فى نيروبى ، السياسة الدولية ، عدد ٦٦ ، أكتوبر ١٩٨١ ، صص ١٢٢ — ١٢٥ .

(٢٦) بطرس غالى : جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٧٨ .

من اشكال التضارب فى الاختصاص التنظيمى ما بين المنظمتين الافريقية والعربية القائمتين بالفعل فى الساحة السياسية العامة المحيطة بالقضايا الثلاث . بل على العكس ورغم جهود منظمة الوحدة الافريقية الواضحة فى قضية تشاد على وجه الخصوص فان المنظمتين لم تقدمان حتى وقتنا الراهن انجازا حقيقيا فى مجال تسوية احدى تلك القضايا . ومن دلائل ضعف منظمة الوحدة الافريقية فى المواجهة الحاسمة لتلك القضايا انها قد لجأت فى توصيات مؤتمرات القمة فى السنوات الأخيرة ، الى شبه احالة الى الأمم المتحدة ومثال ذلك توصيتها فى مؤتمر القمة التاسع عشر فى نيروبى باجراء استفتاء شعبى لحق تقرير المصير بين أهالى اقليم الصحراء الغربية تحت اشراف ورقابة الأمم المتحدة والمنظمة الافريقية معا(٢٧) .

الحقيقة الرابعة :

هذه القضايا الافروعربية الثلاث تجمع ما بينها خصائص الصعوبة الشديدة او التعسر فى الحل أو فى التسوية النهائية التوفيقية فيما بين أطرافها . وآية ذلك تتجلى فى تكنيكات أو آليات التعامل مع تطورات ووقائع تلك القضايا من جانب مختلف القوى المعنية بها حيث تجتمع القضايا الثلاث فى نفس الأدوات المتزامنة وفى نفس الأساليب المستخدمة من أجل الحل أو السعى نحو التسوية النهائية .

لقد لجأت الأطراف المتصارعة جميعا الى اداة العنف المادى المسلح بصورتيها الأساسيتين : العنف المادى غير الرسمى وغير النظامى أى حرب العصابات ، ثم العنف المادى النظامى أو الحكومى اى استخدام القوات المسلحة الرسمية الحكومية .

ففى تشاد استمرت الحرب الأهلية بين قوات الحكومة المركزية الممثلة حتى عام ١٩٧٥ للعناصر الجنوبية ضد حرب العصابات الشاملة التى شنتها فصائل القوات العسكرية الشمالية وتحول الموقف منذ أواخر السبعينيات الى صراع مسلح على السلطة المطلقة بين نفس الفصائل الشمالية فيما بينها

---

(27) John Damis, «The Western Sahara Dispute», op. cit., PP. 149 - 150.

حيث أصبحت القوات الحكومية متمثلة فى جناح يقوده حسين حبرى ضم فصائل المنشقين بزعامة جوكونى عويدى والتى حملت السلاح ضد رفاق الأمس . وعاد المسرح السياسى يتحول مرة ثالثة فى السنوات القليلة الماضية الى مواجهة عسكرية من جانب القوات التشادية ضد قوات خارجية قوامها القوات المسلحة النظامية الرسمية الليبية(٢٨) .

كذلك فان اقليم الصحراء الغربية هو ساحة دموية منذ فبراير ١٩٧٦ فيما بين قوات البوليساريو التى تشن حرب عصابات متقطعة ما بين الشدة والكثافة والوهن والتباطؤ حسب امدادات السلاح الخارجية اليها ، ضد القوات المسلحة المغربية التى تحتل معظم مساحة الاقليم لصحراوى ومعها القوات المسلحة الموريتانية التى كانت تحتل وادى الذهب بجنوب الاقليم حتى خرجت موريتانيا من ميدان المعركة ذاتها فى ١٩٧٩ بعد أن انهك اقتصادها من جراء نفقات الصراع المسلح فأصبحت المواجهة العسكرية منذ بداية الثمانينيات تتركز ما بين القوات المغربية النظامية والعمليات الفدائية لقوات البوليساريو(٢٩) .

أما فى جنوب السودان فقد حمل الجنوبيون السلاح ضد الحكم المركزى فى الخرطوم منذ أواسط الخمسينيات وحتى الآن ، حيث قادت منظمة الانيانيا الجناح العسكرى لحزب سانو الجنوبى هذه المعارك حتى أوائل السبعينيات ، ثم أصبحت القيادة فى حرب العصابات الجنوبية لجيشى التحرير الشعبى السودانى بزاعمة العقيد جون قرانق فى الوقت الحالى . كذلك فقد واجهت القوات المسلحة الحكومية المركزية بالعنف المنظم ، كافة تطورات القضية الجنوبية منذ استقلال السودان وحتى الآن(٣٠) .

---

(٢٨) التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٨٥ ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢٩) بطرس غالى : حرب الصحراء فى المغرب العربى ، السياسة الدولية ، عدد ٤٤ ، ابريل ١٩٧٦ ، صص ٢٥ — ٤٥ .

— Tony Hodgas, «The Origins of Saharouri Nationalism Thrid World Quarterly 5, n. 1 (January 1983). PP. 28 - 57.

(٣٠) عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ص ٣٢ — ٤٢ .

— صلاح كردوسة ، مرجع سابق ، صص ٤٢ — ط٤٦ .

ومن جهة أخرى فان أطراف الصراع والقوى المعنية بهذه القضايا الثلاث قد مارست وما تزال تمارس أساليب وأدوات أخرى تهادنية للتعامل مع تطور تلك النزاعات الحادة ومعالجتها بجهود تفاوضية دبلوماسية سلمية جرت بالفعل وما تزال جارية بصورة متزامنة مع المعارك العسكرية المذكورة.

ففى قضية تشاد نذكر جهود المصالحة الوطنية بين فصائل الشماليين فى مؤتمر كانو الأول (٧ — ١٦ مارس ١٩٧٩) ومؤتمر كانو الثانى (٣ — ١١ ابريل ١٩٧٩) ثم اتفاق الانسحاب المتزامن من أراضى تشاد ما بين ليبيا وفرنسا فى سبتمبر ١٩٨٤ ، ثم مؤتمر المصالحة الوطنية فى برازافيل فى أكتوبر ١٩٨٤ واجتماع ميتران والقذافى فى كريت يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٤ ثم الجولة الافريقية لرولان ديما وزير خارجية فرنسا لاجراء حوارات مع أطراف الصراع التشادى فى ابريل ١٩٨٥ .

وفيما يتعلق بالجهود الدبلوماسية الأخيرة لتسوية مشكلة الصحراء الغربية فانها تتركز فى دور الوسيط الدولى الذى يضطلع به بيريز دى كويلار الأمين العام للامم المتحدة منذ العام الماضى (١٩٨٦ — ١٩٨٧) لاستطلاع آراء ومواقف الأطراف المتصارعة فى الشمال الافريقى وذلك بناء على تكليف الجمعية العامة للمنظمة الدولية بقرار فى نوفمبر ١٩٨٥ للامين العام بالسعى لحل النزاع حول الصحراء الغربية .

واقترح دى كويلار على الاطراف المعنية ما أسماه « خطة الامم المتحدة » وقوامها اجراء وساطة من جانبه باسم الأمم المتحدة بين تلك الأطراف وهى المغرب والجزائر وموريتانيا والبوليساريو ، على ان تتم هذه الوساطة بطريقة غير مباشرة اى مع كل طرف على حدة . وهنا رفضت الجزائر لتصميمها على الحوار المباشر بينما رفض المغرب لعدم اعترافه بالوجود السياسى الحقيقى لظاهرة البوليزاريو(٣١) .

كذلك فشلت محاولة اخرى للتسوية الدبلوماسية الجماعية المغربية ، وظهرت فى اطار مؤتمر الأحزاب السياسية فى دول المغرب والذى انعقد

---

(٣١) أحمد نافع : مؤتمر هرارى وتشجيع دى كويلار فى مهمته لحل مشكلة الصحراء ، الاهرام ، ١٩٨٦/٨/١٥ .

فى طنجة عام ١٩٨٣ فى مناسبة الذكرى الثامنة والعشرين للتضامن المشترك المغربى من اجل الاستقلال وكان الاقتراح يدعو الى عقد ما عرف باسم « القمة المغاربية » التى تجمع رؤساء الدول الخمس فى شمال افريقيا كاجراء تنظيمى على أعلى مستوى سياسى كفيل بانهاء نزاع الصحراء . الا ان هذه المحاولة اخفقت بدورها بسبب اصرار الجزائر على حضور ممثلى البوليساريو ضمن دول المغرب الكبير(٣٢) .

وللملك فهد بن عبد العزيز آل سعود جهود واضحة فى السعى نحو تقريب وجهات النظر بين الملك الحسن الثانى والرئيس الشاذلى بن جديد فى الأونة الأخيرة ولكن دون نتائج ملموسة واقعية .

ومن ابرز مظاهر المساعى السلمية لحل صراع جنوب السودان ما تم فى العام الماضى (١٩٨٦) من اتصالات رسمية تمت فى اجتماع بمدينة كوكادام فى اثيوبيا في شهر مارس بين ممثلى التجمع الوطنى السودانى وممثلى حركة وجيش تحرير شعب السودان ، ثم اجتماع صادق المهدى بصفته رئيس حزب الأمة القومى فى السودان مع العقيد جون قرانق بصفته رئيس حركة تحرير شعب السودان ، فى اديس ابابا باغسطس ١٩٨٦ . هذا ولم تسفر هذه الاتصالات المذكورة عن أى تقدم ايجابى نحو انهاء الحرب الأهلية داخل الدولة السودانية .

اذن نخلص الى أن الاخفاق العام كان هو القاسم المشترك الأعظم بين جميع تلك المساعى الدبلوماسية للحل السلمى ، المذكورة بشتى صورها، والتى لم تتوصل حتى الآن الى الانهاء الجذرى الحاسم لتلك النزاعات الثلاثة، بحيث استقرت فى الأذهان فكرة الأحادية المطلقة للحل العسكرى . وبمعنى آخر ، أن تستمر الأطراف المتصارعة فى الحرب العسكرية وبأدوات العنف المادى المنظم الحكومى وغير الحكومى ، حتى يتم لأحد طرفى الصراع انهاك الطرف الآخر فيجهز على قواه ويفرض عليه ارادته الشاملة بسياسات الأمر الواقع .

---

(32) John Damis, Conflict in Northwest Africa, op. cit., PP. 139 - 146.

الحقيقة الخامسة :

تتماثل هذه القضايا الأفروعربية الثلاث فى عمق تأثر تطوراتها المتلاحقة بأدوار القوى الخارجية فيها ، والتى تحدد تحديدا حاسما منعطفات كثيرة فى نفس المسارات الواقعية للنزاعات الثلاثة وان كان هذا التحديد الحاسم المذكور يتفاوت فى الدرجة والكثافة والمدة من نزاع الى آخر .

وقبل تحليل أدوار القوى الخارجية فى هذه القضايا ، يجدر بنا ملاحظة ظواهر التناقض الحاد بين ما هو معلن رسميا ودعائيا ، وما هو واقع وحقيقى ، فى مواقف تلك القوى الخارجية المتدخلة بشدة فى تلك القضايا .

فالجزائر تؤسس موقفها من قضية الصحراء على مبادىء مثالية على راسها مناصرة الشعب الصحراوى فى ممارسة حقه السياسى الطبيعى فى تقرير مصيره القومى ، ومساندة حركة التحرر الوطنى الصحراوية ضد المغتصب المحتل المغربى ثم ترفع الجزائر لواء قدسية الحدود الافريقية التى تستقل بناء على تخطيطها الاقليمى أى دولة افريقية من الحكم الاستعمارى الأوروبى السابق .

أما المملكة المغربية فهى تعلن ممارستها لحقها السيادى الطبيعى كدولة فى استعادة جزء مغتصب فى الماضى القريب من ترابها الوطنى الأصيل ، واسترداد جزء أصيل من امتدادات شعبها المغربى جنوبا . وترفع المغرب فى هذا الصدد شعار احترام الحدود التاريخية الواقعية للدولة المغربية الكبرى والتى لم يعرف التاريخ الوسيط والحديث حتى أواخر القرن الماضى ، سواها ، فى كل النطاق الأرضى الشاسع الذى يصل ما بين السواحل الشمالية والشمالية الغربية لافريقيا ، ونهر السنغال جنوبا .

وفرنسا تدعى أن تدخلاتها العسكرية السافرة المتكررة فى أراضى تشاد ما هى الا تنفيذ قانونى طبيعى لالتزامات وردت فى اتفاقيات تعاون عسكرية شاملة مبرمة بين دولتى تشاد وفرنسا وارتبطت بها كل من الدولتين ومن ثم فان التحرك العسكرى الفرنسى فى تشاد هو تصرف دولى مشروع خاصة وانه يستهدف مساعدة « دولة صديقة » فى الحفاظ على بقائها وكيانها من الهدم فى مواجهة القوى العسكرية الليبية التى تغلغلت حتى أعماق الاقليم التشادى .

وليبيا استندت فى تحركاتها العسكرية الكثيفة فى تشاد الى مبدأ اقرار الوحدة الوطنية وتحقيق المصالحة الشاملة بين فصائل الصراع السياسى التشادى فى جبهاتها الجنوبية المباشرة التى ترتبط مع ليبيا بأواصر شديدة الأهمية ، من النواحى الطبيعية والأمنية والبشرية والدينية والحضارية التاريخية .

واثيوبيا تظهر ذاتها فى الأونة الأخيرة بمظهر الوسيط المنزه عن الأغراض ، والهادف الى اقرار السلام الوطنى بين ربوع الدولة السودانية ، الجار الغربى المباشر .

هذه الشعارات المثالية سالفة الذكر المعلنة من قبل الأطراف الخارجية التى تتدخل فى تطورات القضايا الثلاث محل التحليل ، انما تخفى فى طياتها الدوافع الحقيقية لتلك القوى . فهى جميعا بلا استثناء تستهدف من حركتها ، سواء العسكرية العنيفة أو الدبلوماسية التهادنية السلمية ، تحقيق مصالح اقتصادية واستراتيجية واقرار او استتباب نفوذ سياسى اقليمى لقوى محلية يعكس أغلبها تخطيطات استراتيجية لقوى خارجية تسعى الى التحكم فى مصير افريقيا العربية .

ان ليبيا تدفع بقواتها المسلحة منذ ١٩٧٣ الى العمق الاقليمى التشادى سعيا الى فرض تحقيق مصالح جوهرية بمنظور الأمن القومى الليبى ، فتشاد تمثل عمقا استراتيجيا عسكريا اقليميا وبشريا واجتماعيا للكيان الليبى ذاته . ان شمال ووسط البلاد يقطنه نحو مليون مسلم من أصول عربية كما أنه يشتمل طبوغرافيا على نقاط عسكرية بالغة الخطورة فى جبال التبستى بصفة خاصة ، بالاضافة الى المراكز الحضارية الهامة فى تلك المناطق . كذلك تقدم ثروة تشاد التعدينية من النفط واليورانيوم ضمانة مستقبلية بديلة عن نضوب احتياطيات البترول الليبى . ثم تأتى الأهمية القصوى لشريط أوزوفى أقصى شمال جبال التبستى فى أراضى تشاد ، بالنسبة لليبيا . فالنظام الليبى يدعى لنفسه أحقية اقليمية تاريخية فى ذلك الشريط المذكور والذى تبلغ مساحته ١٠٠ الف كم٢ وتوجد فى باطنه خام البترول وخام اليورانيوم وتسكنه قبائل هى امتدادات بشرية واجتماعية وحضارية لقبائل اقليم فزان بجنوب ليبيا . ولقد احتلت القوات الليبية بالفعل شريط أوزو منذ عام ١٩٧٣ بموجب اتفاقية

حسن جوار أبرمها القذافى مع الرئيس التشادى الأسبق فرانسوا طومبلباى واقيمت بناء عليها « منطقة تضامن » على الحدود المشتركة بين البلدين . ومن المفارقات التاريخية الساخرة أن القذافى يستند فى مطالبته بضم شريط اوزو نهائيا الى اقاليم بلاده ، الى مقاصة استعمارية قديمة تعود الى عام ١٩٣٥ وابرمها موسولينى مع بيير لافال فى اتفاق لم يصدق عليه رسميا آنذاك ، وينص على أن تبادل فرنسا ليبيا التى كانت مستعمرة ايطالية فى ذلك التاريخ ، جزءا من شمال تشاد مقابل جزء من غرب ليبيا تم بالفعل الحاقه بالشرق الجزائرى(٣٣) . واستكمالا لاعتبار الثروة المعدنية التشادية فى تفسير الموقف الليبى هناك ، يذهب بعض المحللين الى أن الدافع الأول لليبيا من توغلها فى تشاد هو نشر القوات اليبية فى مواقع تساعدها على نشر القلاقل العنيفة وهدم استقرار دولة النيجر، المتاخمة غربا لأراضى تشاد ، والتى تتميز بثروة كبيرة من خام اليورانيوم(٣٤) .

ومن ناحية أخرى تنطلق السياسة الليبية فى تشاد من «عقدة المحاصرة» أو عقدة العزلة الاقليمية التى يعانى منها النظام الليبى نظرا لتوتر علاقاته شرقا مع مصر وغربا مع تونس والجزائر بعد تكرار فشل محاولاته للتقارب أو للوحدة مع أى من جيرانه الثلاثة المذكورة . هذا بالاضافة الى الضغوط الامريكية الدبلوماسية والمقاطعة الاقتصادية الامريكية الآتية من الشمال . ومن ثم تظهر ضرورات فى الرؤية الليبية للامتداد جنوبا نحو تشاد من اجل تخفيف آثار تلك الضغوط المذكورة من الشرق والغرب والشمال .

هذا وان كانت بعض الدراسات الغربية تركز فى تحليلها للموقف الليبى من قضية تشاد على الأبعاد الدينية والثقافية والعرقية فتعتبر هذه الدراسات أن سياسة القذافى فى تشاد ما هى الا خطوة أولية لتحقيق ما يستهدفه الرئيس الليبى من اقامة امبراطورية اسلامية فى الصحراء الكبرى الافريقية تحت زعامته ، على أن تنطلق من تشاد أولا ثم تمتد بعد ذلك الى السودان

---

(٣٣) نبيه الاصفهانى ، تشاد من الحرب الاهلية الى حرب التحرير ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(34) David Yost, Fren-ch Policy in Chad and the Libyin Challenge. Orbis, vol. 26, n. 4 (Winter 1983), P. 971.

والنيجر ونيجيريا ، ومن ثم فان تحرك القذافى فى شمال تشاد يستهدف اقرار السيطرة الاسلامية الشمالية على الجنوبيين المسيحيين(٣٥) .

وترى دراسات أخرى أن التدخل الليبى الكثيف فى شئون الجارة الجنوبية ، تشاد ، انما يرجع أساسا الى امتصاص مظاهر الغضب الشعبى الداخلى بين أوساط الشعب الليبى من جراء ممارسات القذافى القمعية الشديدة لخصومه وتحويل الرأى العام الليبى الى شواغل خارجية مثيرة للاهتمام(٣٦) .

وأخيرا ، وببساطة ، ألا يسعى القذافى الى ايجاد نظام حكم موال له فى نجامينا ، عاصمة دولة المؤخرة الاستراتيجية لليبيا ؟

أما فرنسا التى احتلت تشاد احتلالا عسكريا مباشرا طيلة ستين عاما من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٦٠ ، فانها عادت وتدخلت عسكريا علنيا بعد استقلال الدولة التشادية أكثر من ٤ مرات متتالية على مدى عشرين عاما وكانت أهمها عملية « مانتا » من ديسمبر ١٩٨٣ الى فبراير ١٩٨٤ لمساعدة قوات حسين حبرى ضد قوات عويدى وما زال الوجود العسكرى الفرنسى الكثيف قائما فى أراضى تشاد جنوب خط عرض ١٦٥ شمالا . كما أن فرنسا قدمت الى تشاد منذ استقلالها ما قيمته ثلث المعونة الفرنسية العسكرية الاجمالية الى افريقيا الفرانكوفونية جنوب الصحراء(٣٧) .

والتفسيرات الموضوعية لهذا الموقف الفرنسى شديد الخصوصية من قضية تشاد تتبلور فى اعتبارات مصلحية اقتصادية وسياسية محضة . ففرنسا تحتكر محصول تشاد الرئيسى من القطن ، كما أن فرنسا تسعى الى اثبات مصداقيتها فى قيامها بالفعل بالحماية الواقعية العسكرية للنظم الموالية لها فى اطار الدول الافريقية الناطقة باللغة الفرنسية خاصة فى غرب ووسط افريقيا ، وتحرص فرنسا على اقرار استمرارية نفوذها الشامل فى هذا

---

(35) Thomson, op. cit., P. 119.

(36) Charles Tripp, «La Libye et l'Afrique,» in La Politique Etrangere, n。 2, 1984, P. 317.

(37) David Yost, Fren-ch Policy .., ou. cit., P.P. 966 - 968

الجزء من افريقيا بالذات فى مواجهة محاولات نيجيريا لاحتلال موقع الدولة القائد فى غرب افريقيا(٣٨) .

ومن جهة اخرى تمثل تشاد من المنظور الاستراتيجى الفرنسى لمصالحه فى القارة الافريقية ، خط دفاع أساسى عن أمن ثلاث دول فرانكوفونية هامة بوسط القارة هى النيجر والكاميرون وجمهورية وسط افريقيا . كما تحتل قاعدة نجامينا الجوية ذاتها نقطة ارتكاز خاصة فى مجال التسهيلات الجوية العسكرية المفتوحة امام الطيران الفرنسى الى جانب قواعد داكار وجيبوتى وليبرفيل .

ومن الحقائق التى يجدر بنا تسجيلها ان الدور الفرنسى فى قضية تشاد ، رغم كثافته واستمراريته ، انما يتفاعل مع تيارين متناقضين من الضوابط الموضوعية الحركية والتى تعتبر واقعيا خارجة عن نطاق المصالح الفرنسية المباشرة فى أراضى تشاد واقتصادياتها . التيار الأول يعمل على تحديد ذلك الدور الفرنسى أو تضييق آثاره وهو مجمل المصالح الفرنسية الخاصة الموجودة فى ليبيا . والتيار الثانى يضغط فى سبيل توسيع وتكثيف الدور الفرنسى فى تشاد ، وهى مقتضيات تمثيل فرنسا لمصالح المعسكر الغربى ككل فى وسط وغرب القارة الافريقية .

ذلك أن فرنسا لا تتدخل فى قضية تشاد تدخلا مطلقا لا حدود له بل ان مصالحها الاقتصادية فى ليبيا تضع تحفظا وتنسيبا على حركة السياسة الفرنسية فى تشاد .

فهناك أكثر من خمسين شركة فرنسية عاملة فى ميادين التجارة والأعمال والاستثمارات داخل ليبيا وهناك اتفاقيات صناعية قيمتها أكثر من مليار دولار تربط ما بين طرابلس وباريس ، والشركات البترولية الفرنسية تتمتع بمعاملة متميزة داخل دوائر النفط الليبية . هذا بالاضافة الى مبيعات السلاح الفرنسى الضخمة الى ليبيا .

أما المجموعة الثانية من الضوابط الحركية التى يخضع لها الدور الفرنسى فى تشاد فتتركز فى لزوميات قيام فرنسا بتمثيل مصالح المعسكر الغربى فى

---

(38) V. Thomson, op. cit., p. 130.

أواسط وغرب القارة الافريقية . ذلك أن تشاد ، كما سبق ذكره ، تحتل بموقعها جزئية رئيسية من القلب الاستراتيجى للقارة مما يجعل لها بالضرورة أهمية خاصة فى تخطيط استراتيجيات الصراع العالمى بين القطبين على أفريقيا . وهذا ما يفسر كلا من الامدادات السوفيتية العسكرية للتدخل الليبى فى تشاد وكذلك المعدات العسكرية الامريكية بعشرات الملايين من الدولارات المقدمة الى قوات الحكومة التشادية بزعامة حسين حبرى مما كان له أبلغ الأثر فى الانتصارات الأخيرة للقوات التشادية على القوات الليبية خاصة بعد انضمام قوات عويضى المنشقة فى السابق الى قوات حسين حبرى منذ أكتوبر الماضى (١٩٨٦) .

هذا بالاضافة الى اعتبار اقتصادى امريكى آخر حيث تسير شركة النفط الامريكية « كوتكو » على عمليات التنقيب عن البترول خاصة فى القسم الشمالى والشرقى من الأراضى التشادية .

وفى جنوب السودان وعلى الرغم من الطبيعة الداخلية الصميمة للصراع الدائر بين الشماليين والجنوبيين فان القوى الخارجية تلعب دورا هاما وان كان دون الصبغة العلنية أو الدعائية ، فى استثمار تلك القضية لتحقيق مصالحها الذاتية المختلفة وعلى رأس تلك القوى الخارجية الهيئات والبعثات التبشيرية المسيحية وكذلك الهيئات والمنظمات الاسلامية العالمية مثل رابطة العالم الاسلامى والمؤتمر الاسلامى . كما تقوم دول حوض نهر النيل بأدوار متباينة الأثر والفعالية فى مسار الصراع الجنوبى الشمالى بالسودان تبعا لاعتبارات الأمن القومى لكل من تلك الدول ووفقا لطبيعة علاقاتها بأحد طرفى هذا الصراع أو حسب ارتباطاتها الدولية الأوسع بأحد القبين أو بأحد المعسكرين الكبيرين ولذلك تتفاوت وتتلون وتتأرجح مواقف كل من اثيوبيا وأوغندا وكينيا ومصر وزائير ، انطلاقا من الاعتبارات سالفة الذكر .

اما بالنسبة لمصالح القطبين العظميين فى قضية جنوب السودان فان الباحث لا يجد تعبيرات سلوكية أو دلائل مادية قاطعة على تدخل العملاقين فى تطورات تلك القضية ، الا أن التحليل الجيوستراتيجى وكذلك اعتبارات توازن القوى العالمى انما توضح جميعها أن منطقة جنوب السودان تمثل للاتحاد السوفييتى ما يمكن أن يسمى « كردون صحى » لمناطق النفوذ

السوفييتى القائمة والمستقرة منذ السبعينيات فى باب المندب والقرن الافريقى وقواعد مدخل البحر الأبيض والمحيط الهندى . وفى الجهة المقابلة وبالمنظور العكسى فان السياسة الاميريكية تنظر الى منطقة جنوب السودان بصفتها حاجزا وقائيا يستطيع بحكم موقعه أن يكون مانعا للمد الشيوعى الى عمق القارة الافريقية .

ومن ثم فان الدور السوفييتى والدور الامريكى فى قضية جنـــوب السودان قائمين من حيث الجوهر الموضوعى وان كان تطبيق لزومياتهما يتم بقوى أخرى وسيطة ، بعضها محلى يقع بالقرب من أرض النزاع والبعض الآخر اخرج عن القارة الافريقية .

وفى قضية الصحراء الغربية تتضح بجلاء الأبعاد المصلحية الاستراتيجية والاقتصادية لمواقف الأطراف الخارجية المتصارعة .

ان كلا من المغرب والجزائر على حد سواء ترى فى السيطرة على هذا الاقليم الصحراوى الضخم قيمة استراتيجية مزدوجة قوامها النفـــاذ الى العمق الافريقى عبر الصحراء الكبرى ثم الحماية الأمنية الأســـتراتيجية الذاتية غربا بالنسبة للجزائر وجنوبا بالنسبة للمغرب . كذلك فان من يسيطر على هذا الاقليم يكون اقرب من سواه فى التوصل الى وضعية « الدولة الربان » أو الدولة القائد لمنطقة شمال افريقيا أو المغرب العربى ككل . وهذا هو ما تطمح اليه كل من الدولتين على أساس من اقتناع ذاتى لدى كل منهما فى هذه الوضعية الزعامية المتميزة اقليميا . فالجزائر تبنى طموحها وأحقيتها فى هذه الزعامة المغربية على ثقلها الثورى الوطنى التحررى فى اطار العالم الثالث عامة وفى افريقيا والعالم العربى على وجه الخصوص . والمغرب تؤسس قناعتها فى هذه الأحقية على تراثها التاريخى والروحى والحضارى فى منطقة شمال غرب افريقيا حتى حدود الصحراء الكبـــرى الافريقية على مر العصور الوسيطة والحديثة .

ولكن للاعتبارات الاقتصادية تحديد حاسم فى مواقف المغرب والجزائر من قضية الصحراء . ان المغرب اذا دان له اقليم الصحراء بثروته الفوسفاتية الضخمة انما يصبح القوة الثانية فى السوق العالمى لهذه المادة الأساسية

فى المجال الزراعى ، جنبا الى جنب الاتحاد السوفييتى ، وخلف الولايات المتحدة الامريكية مباشرة .

والجزائر اذا استطاعت أن تقيم دويلة تابعة لها فى الاقليم الصحراوى فانها سوف تضمن نافذة اطلنطية شديدة الأهمية تمر منها بسهولة وبتكاليف منخفضة ، صادراتها الى العالم الخارجى من الحديد والبترول والغاز الطبيعى حيث أن مناجم الحديد تتركز فى تندوف فى اقصى الجنوب الغربى الجزائرى كما تقع الغالبية العظمى من آبار البترول ومناطق الغاز الطبيعى فى جنوب البلاد الجزائرية .

كذلك فان للجزائر مصالح أكيدة فى الاستفادة من مزايا التعامل الاستثنائى مع جار ضعيف يدين للجزائر بوجوده ويمتلك طبيعيا ثروات معدنية واحتياطيات ضخمة غير مستغلة من الحديد والبترول تحت سواحله الاطلنطى(٣٩) .

الا أن الاستقطاب العالمى غير قائم حتى الآن بين طرفى قضية الصحراء الغربية نظرا للتشابك الشديد فى علاقات الدولتين العظميين ، المصلحية الاقتصادية ، مع كل من طرفى الصراع . فعلى الرغم من الاتجاه السياسى الخارجى العام لدولة المغرب المتقارب مع المعسكر الغربى ومع مصالحه فى افريقيا ، الا أن للاتحاد السوفييتى مصالح اقتصادية ضخمة فى المغرب متمثلة فى صفقة القرن من الفوسفات المبرمة بين موسكو والرباط عام ١٩٨٠ ، وفى حصول الاتحاد السوفييتى على امتيازات للصيد فى المياه المغربية الساحلية المحيطية .

وفى الجهة المقابلة فان للولايات المتحدة مصالح ضخمة تكاد تكون احتكارية فى مجال الغاز الطبيعى الجزائرى ، هذا رغم الصبغة الاشتراكية التقدمية الغالبة على ايديولوجية النظام الجزائرى الحاكم ورغم الروابط الدولية الخاصة ما بين موسكو والجزائر .

---

(٣٩) محمد عبد الغنى سعودى : مشكلة الصحراء الغربية ، دراسة فى خلفية الصراع وتوطره ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ابريل ١٩٨٣ ، ص ٧ ط.

اما فرنسا الدولة الاستعمارية الأم فى شمال افريقيا . فى الماضى القريب ، فبعد أن اتخذت فى بداية الصراع موقفا مؤيدا تماما للدعاوى المغربية ورافضا لانتشار ظاهرة الدول القزمية فى افريقيا ، الا انها عادت واتخذت موقفا وسطا بسبب ارتباطاتها التجارية بالجزائر ، فأصبحت تؤيد اجــراء استفتاء حول مصير الصحراء تحت اشراف الأمم المتحدة .

هذا ورغم عدم وضوح ظاهرة الاستقطاب الدولى فى غمار صراع الصحراء الغربية ، حتى الآن ، فان الحقيقة المطلقة تظل قائمة وهى أن منطقتى شمال وشمال غرب افريقيا تحتلان نقطة تركيز واهتمام بالغين ضمن محددات الاستراتيجية البحرية لكل من العملاقين ، سواء فى البحر الأبيض المتوسط او فى المحيط الاطلنطى(٤٠) .

وختاما للتحليل ، ان كانت هذه الدراسة المقدمة تسعى الى اثبات اوجه واقعية للمقاربة التحليلية بين أهم القضايا الافروعربية فى عقــد الثمانينيات المعاصر فان هذه القضايا الثلاث نفسها تتباعد فيما بينها اذا سعت الدراسة الى تصور الحل الأمثل لكل منها وفقا لمقتضــيات الطبيعة الخاصة لكل من تلك القضايا .

ذلك ان حل مشكلة جنوب السودان يتركز أساسا فى تغييرات جذرية تندرج فى اطار السياسة الداخلية السودانية وفى صورة مشروعات انمائية شاملة تطويرية وتحديثية لمناطق الجنوب وبصفة خاصة اقامة شــبكات مواصلات برية ونهرية وجوية تربط ما بين أقصى البقاع الجنوبية النائيــة بالعاصمة السودانية . هذا مع ضرورة التعديلات الدستورية النظامية للبنيان الرسمى للدولة السودانية ذاتها بحيث تترسخ مبادىء العلمانية فى السياسة والحكم مع اعتبار خاص للتعددية الثقافية والعرقية القائمة واقعيا فى البنية الاجتماعية السودانية .

---

(٤٠) ايناس المهدى : مشكلة الصحراء الاسبانية سابقا ، مرجع سابق ص ٨٦ .

— عبد الرحمن اسماعيل محمد الصالحى : التسوية السلمية للمنازعات فى اطار منظمة الوحدة الافريقية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهــد البحوث والدراسات الافريقيــة ، جامعة القــاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٨٨ — ١٨٩ .

ويختلف الأمر جوهريا فى قضية تشاد حيث ترتكز التسوية النهائية السلمية للصراع على اعادة تخطيط مشترك لأسس وأولويات الحـــركة الخارجية لكل من النظام الليبى والنظام التشادى ، كل فى مواجهة الآخر . وبمعنى آخر ان يتخلى القذافى عن نظرته التوسعية الاقليمية تجاه أراضى تشاد وان تعترف حكومة نجامينا بالروابط الاقتصادية والبشرية المتميزة بين بلدين جمعت بينهما حتميات التاريخ والجغرافيا والحضارة .

أما فى قضية الصحراء الغربية فهنـــاك متغير ثالث غير الطـــرفين الأساسيين ، هو كيان دولى جديد ، مهما كانت خلفيات نشأته الواقعية ، فانه معترف به حاليا من قبل ٦٤ دولة من أعضاء المجتمع الدولى (منهـــا الهند ويوغسلافيا) ، وأعنى به الجمهورية الصحراوية العربية . ومن ثم فان أى حل حقيقى بين الطرفين المتصارعين الأساسيين ، المغرب والجزائر ، يكمن فى الصيغة التوفيقية الوسطى ، التى يمكن ان تتوصل اليها الدولتان بشأن مصير هذا الكائن الدولى الجديد .

أ. د. عبد الملك عودة :

مجال الصراع فى القرن الافريقى :

هناك عدة ملاحظات تخص أزمات القرن الافريقى تتمثل فى معطيات جغرافية تاريخية واقتصادية تراكمت لتعطى مجموعة من الأزمات :

الملاحظة الأولى : هناك استمرار فى صراعات القرن الافريقى وهذا له ارتباط بالمتغير الخارجى فنذكر انه ما بعد الحرب العـــالمية الأولى وما بين الحربين هناك صراع ايطالى فرنسى وانجليزى ، وحاليا هناك صراع امريكى سوفيتى وفرنسى ، فالدور الأصلى للمتغير موجود ونجد كذلك وبشكل متغير دورا لليبيا واليمن الجنوبية والسعودية ومصر فى فترة من الفترات ، فالصراع الدولى قائم مع كل أبعاده وكل دولة مع حلفائها ، ويتم ذلك سواء تعلق الأمر بدولة مستعمرة أو مستقلة بالمعنى القانونى فى الأمم المتحدة .

وهذه النقطة ترتبط معها نقطة أخرى تتعلق بالبحر الأحمر فالمفترض أن البحر الأحمر فى نظرى بحر داخلى قيمته تابعة وليست أصلية حيث ان

قيمته الأساسية تتمثل فى الاخدود السكانى والبشرى الذى هو وادى النيل الذى يعتبر نقطة مهمة للحرب فى البحر الاحمر أو ما بعده الى الخليج البترولى ، وأظن أن تجربة قناة السويس بعد العدوان الاسرائيلى والنكسة وتجربة اغلاق باب المندب فى حرب ١٩٧٣ تؤكد هذا أى أن البحر الأحمر اثر هذه الأحداث يمكن أن يغلق وتبقى قيمته تابعة وليست أصلية .

الملاحظة الثانية : هناك تقدم فى نوعية السلاح العالمى فى قوة النيران ووسائل نقل السلاح ، وأنواع الصواريخ والغواصات عابرة القارات ، القنابل النووية ، المركبات الفضائية ، شبكات الاتصال والتجسس العالمية لجمع المعلومات ، لكن بالرغم من هذا مازال للارض فى القرن الافريقى قيمة، وهذا واضح من السيطرة على السواحل وعلى الهضبة وفى انتقال تحالف الاتحاد السوفيتى من الصومال الى اثيوبيا ، مما أدى بالولايات المتحدة الى تطويق المنطقة بعد هذا التحالف .

الملاحظة الثالثة : الصراعات فى القرن الافريقى كشفت عن تناقضات جذرية أحيانا وشكلية أحيانا أخرى بين ما يسمى سياسات التضامن العربى وسياسات التضامن الافريقى فبحكم جامعة الدول العربية هناك تضامن عربى وهناك معاهدات دفاع مشترك وبحكم ميثاق منظمة الوحدة الافريقية هناك تضامن أفريقى يؤمن بعدم تغيير الحدود وابقائها على ما كانت عليه والدول الافريقية متعارفة على هذا . هاتان السياستان ومن خلال التحالف الاستراتيجى العربى الافريقى يجب الا تتناقضا ، لكن الذى حدث أنه نتيجة الصراع الدولى ونتيجة قيام بعض الدول العربية بادانة الدولة التابعة أو الدولة الأداة ، بدأ يظهر التناقض ، فهناك قضية الصراع الصومالى الاثيوبى فمهما قيل فى قضاياه الفكرية وهل هو استعمار أو نصف استعمار ، لكن هناك اقرار بوجود أقليات ولكن تأييد الدول لجانب ضد جانب آخر له دور فى أزمة ومصداقية التعاون العربى الافريقى ، فوحدة أراضى اثيوبيا تأتى من قضية أرتريا وقضية الاوجادين ، فى الصومال قضايا الحرب الأهلية وهل تعتبر حرب تحرير لتفكيك الدولة الاثيوبية أو للحفاظ عليها . المبدأ هنا فى كلا الدولتين ، وفى جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية هو ابقاء الحدود على ما هى عليه يعنى أن ارتريا تبقى تابعة لاثيوبيا .

الملاحظة الأخيرة : تمحور حول العلاقة بين مصر واثيوبيا ، وهى علاقة قديمة بين الدولتين سواء علاقات تاريخية اقتصادية أو دينية ، عسكرية وسياسية ، وأرى أن هذه العناصر وجدت فى عصر المماليك وفى عصر محمد على وخلفائه ، فى عصر الملكية ، ووجدت فى عصر عبد الناصر ، فالقضية هى قضية تنشىء معادلة تجمع هذه العناصر ، بحيث تقلل السلبيات والمتناقضات وتعظم وتنمى الايجابيات أو المصالح المشتركة . فهذه العلاقة يجب أن تكون علاقة مباشرة بين القاهرة واديس ابابا ، ولا يمكن اغفالها وانها تقوم على مجموعة من المصالح المشتركطة ، فمصر كانت تبنى سياستها وامنها القومى على أساس وحدة وادى النيل . وهذا شعار موروث عن بريطانيا شعار استعمارى ، لأن بريطانيا حكمت جميع بلاد وادى النيل فيما عدا راوندة وبورندى التى كانت تحت سيطرة بلجيكا .

بعد الاستقلال أصبح النظام الاقليمى لوادى النيل يبحث عن تركيب علاقات تشمل هذه الدول وتمثل مصالح مشتركة عمودها الفقرى مياه وادى النيل والمصالح المشتركة والأمن والدفاع فلابد أن تدخل مصر فى علاقة مباشرة مع هذه الدول . من هنا يأتى دور اثيوبيا ، وأوغندا القوى جدا فى بناء النظام الاقليمى واختراق النظام الاقليمى يجعل مركز مصر ونسقها ضعيفا، ويجعل أيضا الصراع الدولى قويا ، ويتضح ذلك من الاختراقات الاقليمية الليبية السعودية ، ولن أقول الامريكية السوفيتية والفرنسية ، لأن النظام الاقليمى لوادى النيل ومحاولة بنائه حتى الآن لن يقوم الا على التفاهم المباشر بين الدول القوية وفى مقدمتها مصر واثيوبيا .

المناقشات والتعقيبات

د. حسن نافعة :

مفهوم الأمن القومى مفهوم شامل ينطوى ويندرج فى البعد العسكرى بالاضافة الى البعد الاقتصادى ، ولكن وفى هذا العالم لا توجد غير الدولتين الأعظم اللتين هما قادرتين بالفعل على تحقيق هذا الأمن القومى لشعوبهما ، فيما عدا ذلك أعتقد أن جميع دول العالم سواء دول العالم الثالث أو دول متوسطة فهى تعتمد بدرجة أو بأخرى فى امنها على الارتباط بهذه الكتلة أو تلك .

فى هذه الأوضاع الدولية أعتبر أن هناك ظاهرة على جانب كبير من الاهمية وخصوصا اننا عندما نتحدث عن منظمة الوحدة الافريقية وما تلعبه هذه المنظمة لتحقيق مفهوم جماعى للامن فى القارة ، وهذا لا يقتصر فقط على منظمة الوحدة الافريقية وانما ينبق بشكل عام على المستوى الدولى . وفى جميع المنظمات الدولية ، لكن ما نلاحظه هو أنه ليس هناك مفهوم جماعى للامن فى جميع هذه المنظمات ، وبالتالى فالمسألة تعتمد على القوة الذاتية أولا وامكانية بناء هذه القوة الذاتية ، فقدرة الدولة على بناء وحدتها الوطنية وعلى بناء قوتها الذاتية عسكريا واقتصاديا ، وارتباطاتها الخارجية هى التى تشكل بصورة عامة مفهوم الأمن .

والملاحظ ان جميع المحاولات سواء على المستوى الاقتصادى او العسكرى فى شكل منظمات دولية او فى شكل تحالفات او اتفاقيات جماعية كلها فشلت اما بسبب التناقضات الداخلية داخل هذه الدول او بسبب التغلغل الأجنبى وبالتالى نقول ان الحديث عن مبادىء القانون الدولى مسألة لا تسمن ولا تغنى من جوع فى هذا الاطار . فمنظمة الوحدة الافريقية تعتمد على عدم التدخل فى الشئون الداخلية لأية دولة ، الا ان هذا المفهوم ليس له اى أساس على الواقع فهو مفهوم نظرى بحت ولا علاقة له بالواقع .

— اريد استفسار حول ارتباط الأمن المصرى بالأمن الافريقى والى اى مدى هذا الطرح .

هو طرح موضوعى ، فهل هناك علاقة طبيعية ومؤيدة ، وما هى الترتيبات التى تقوم بها مصر فى سبيل تأكيد هذا المفوهم ، فهناك تطورين فعلا فى الجنوب الافريقى وهما الاتفاقيات التى تمت بين جنوب افريقيا وموزمبيق ، ثم دخول الولايات المتحدة فى الصراع العربى الاسرائيلى ، فالى أى مدى يؤثر هذا على قضية الأمن فى افريقيا وهذا التضامن بشكل عام .

السيد عبد الكامل دنيا (المستشار الثقافى بالسفارة المغربية بالقاهرة) :

لا اشاطر الدكتورة نازلى فى قولها ان قضية الصحراء المغربية طرحت للتنفيس عن النظام المغربى فى الداخل ، فالطرح المغربى لقضية الصحراء كان منذ عهد الاستقلال منذ سنة ١٩٥٧ ، وفى اطار هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٦٠ ، وذلك فى اطار تصفية الاستعمار الاسبانى فى المغرب انطلاقا من

تحرير سيدى افنى وطرفاية ثم الصحراء المغربية فى ١٦ نوفمبر فى اطـار اتفاقية مدريد مع الاستعمار الاسبانى ، فهناك تمييز بين حالة المغرب منذ الاستقلال والتحولات التى حدثت بداخله منذ عام ١٩٧٤ لماذا ؟

هناك ثلاثة أسباب :

— فالمغرب فى سنة ١٩٧٤ كان فى اطار نهضة فى الميدان التعليمى والاقتصادى ونذكر هنا مساهمة الشقيقة مصر فى الميدان التعليمى وفى اطار التعاون الثقافى .

— وعلى الصعيد الخارجى نرى اسهام المغرب لدى اشقائه العرب سواء على مستوى الدول العربيـة أو على مستوى الدول الافريقيـة أو الاسلامية ونذكر فى هذا الاطار مساهمة المغرب فى حرب اكتوبر .

— الهدف من طرح هذه القضية هو فى الحقيقة ضرب لوحدة المغرب العربى كقوة اقتصادية كقوة اجتماعية لأن هذه الوحدة كانت تشكل دعما للمشرق العربى . فوحدة المغرب العربى وحدة للامة العربية عامة .

اللواء لطعت مسـلم :

أبدا حديثى عن المتغير الداخلى والمتغير الخارجى ، وأرى كما جاء فى عرض الدكتورة نازلى أن النماذج الصارخة للاستثمارات الخارجية لثغرات فى البنية الافريقية العامة هى الحقيقة العامة فى المتغير الخارجى فى مشاكل الأمن ، فالموضوع هناك يتمحور حول قضـايا الأمن والاستراتيجية ، وفى الحقيقة سمعت الكثير فى قضايا الأمن ولـ ماسمع عن قضايا الاستراتيجية ، وأرى اننا نضخم من قيمة المتغير الخارجى بينما هو فى الحقيقة استثمار نصف افريقى ، فرغم القوة الكبيرة للدول العظمى الا انها من الواضح غير قادرة على مواجهة شعب يقف أمامها ولكنها حينما تجد الفرصة سانحة لاختراق هذا الشعب هنا تمنح الاستثمارات الخارجية المشكلة اذن فى البنية الداخلية لافريقيا فحتى الدول التى تكلم عنها الدكتور عودة على أنها دول مستقرة وثابتة ولها تقاليدها كمصر واثيوبيا ، هذه الدول بدأت تظهر فيها بعـض مظاهر التفكك حيث أنها تظهر بشكل واضح فى اثيوبيا فالحقيقة فى اثيوبيا تتمثل فى انها غير قادرة على الحفاظ على التماسك الوطنى الداخلى ، بحيث

ظهرت هناك حركات مضادة وقوية داخل اثيوبيا الدولة العريقة وبالنسبة لباقى الدول هذه الظاهرة واضحة .

— بالنسبة للمتغير الخارجى حصل نوع من الخلط بين التدخل العسكرى والوجود العسكرى الأجنبى فى افريقيا ، فيجب أن نفرق بين وجود عسكرى خاضع للارادة الوطنية ، يعنى يوظف لصالح البلد ، ووجود عسكرى أجنبى يخضع الارادة الوطنية فرغم تحفظى لا أقول ان ليبيا خاضعة للنفوذ السوفيتى ، بينما استطيع أن اقول أن تشاد خاضعة للنفوذ العسكرى الخارجى .

والمشكلة انه حتى فى الدول التى قادت حركة التحرر الوطنى فى افريقيا تحولت الى نوع من التبعية السياسية للوجود الأجنبى ، ويدخل فى هذا الاطار الوجود العسكرى فى الدول العربية فى مصر ، فى ليبيا ، تونس، المغرب ، طبعا الوجود العسكرى فى انجولا غير الوجود السوفيتى فى ليبيا، وهنا أريد توضيح نقطة ، وهى أن انجولا تدخل فى اطار الصراع الدولى ، فعن طريقها حصل نوع من تقسيم المحيط الاطلنطى وأصبح شماله تابعا للمعسكر الغربى بينما جنوبه تابعا للمعسكر الشرقى ، وهذا يؤكد لنا تأثير الأمن الافريقى على الصراع الدولى .

د. احمد عبد الله :

موضوع الأمن يفرض علينا أن نتحدث عن ظاهرة معقدة لها عدة مستويات فى نفس الوقت ، فهناك الأمن الوطنى والأمن الاقليمى الصغير ، والأمن القارى والامن الكونى أو العام ، فلا يمكن استبعاد الواحدة منهم عند الحديث عن الأخرى .

والشىء المهم هنا هو أن ندرس الاطار التنظيمى لصياغة مفهوم الأمن نفسه والاطار التنظيمى لتطبيقه .

فعند كل هذه المستويات الأربعة نجد أن الدولة الوطنية المستقلة ، هى المنوطة ، على صياغة مستوى الأمن فى اطاره القومى ، أما على مستوى الأمن الاقليمى الصغير من القارة نفسها فتقوم به منظمات قارية صغيرة على المستوى القارى ، هناك منظمة الوحدة الافريقيةو على المستوى العالمى

هناك الحضور الشامل لهيئة الأمم المتحدة . وما الى الى ذلك من منظمات عالمية .

أنا أدعى أن هناك ضعف تنظيمى فيما يخص مفهوم الأمن وما يخص صياغة مفهوم الأمن وتبيقه على كل هذه المستويات ، ونضرب مثالا على مستوى الدولة الوطنية وكيفية اتخاذ القرارات الأمنية فيها فسنجد أنه فى بعض الدول الافريقية يقـوم باتخاذ القرارات الأمنية شـخص واحد هـو الشخص الحاكم والبعض الآخر منها تقوم به المؤسسات العسكرية دون الصفوة ألمدنية ، وفى لبعض الثالث هناك خليط من هذا وذك ، لكن هناك صفوة محددة من الناس تتخـذ قرارات الأمن . واذا أخذنا أكبـر دولتين افريقيتين سنجد الى أى مدى هذا الأمر واضحا ، فمصر ليس لها منظـور أمنى فى تشاد سوى لأنها فى صراع مع ليبيا ، وهذه نقطة ضعف كبيرة ، فلابد أن يكون لمصر موقف أمنى استراتيجى طويل المدى فى تشاد ، بغض النظر عن من بيده الحكم فى طرابلس ومتدخلا فى تشاد أو غير متدخل .

المثال الثانى يتمثل فى دولة أخرى وهى نيجيريا فى حين اتخذت نيجيريا قرارا بطرد مليون عاطل غانى بين عشية وضحاها ، له انعكاسات قوية على الأمن القومى والاقليمى ، فى تلك المنطقة ستشهدها الأجيال القادمة ، وبهذا أريد أن أقول ان صياغة المفاهيم الأمنية فى القارة الافريقية ضعيف للغاية ، مرتبط بالقرار السياسى بمعناه الفردى وليس بمعناه الاقتصادى والاجتماعى والحضارى وهنا سنجد أن المواطن العادى فى القارة الافريقيـة بدولها واقاليمها له دور ضعيف للغاية فى الصياغات الأمنية المختلفة على عكس المواطن فى القارة الأوربية حيث مستوى النضج السياسى أعلى بكثير ، بعبارة أخرى فطالما أن الأمن يقدم للمواطن الافريقى فى عبـوات سابقة التجهيز فلا أمل فى صياغات جديدة ومحترمة تراعى مصالح الشعوب فى نهاية المطاف .

الردود على التعليقات والمناقشات

السفير أحمد حجاج :

لا يوجد أمن قومى مائة بالمائة لأى دولة فى العالم ، وكان هذا هو المحك الرئيسى بين المفاوض المصرى والمفاوض الاسرائيلى ، فمصر التى أقامت معاهدة السلام مع اسرائيل لم يمنعها هذا من تأييد منظمة التحرير الفلسطينية فى حين أن القوى العربية الأخرى التى تدعى التأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية هى التى تقوم بضرب الفلسطينيين فى المخيمات وتقوم بتصفيات جسدية لا مثيل لها ، ولم تقم بها اسرائيل نفسها حتى الآن ، مصر التى خرجت من الجامعة العربية حافظت على اتفاقية الدفاع المشترك ، فى حين أن الدول العربية الأخرى التى تدعى العروبة لم تؤيد هذه الاتفاقية أو لم تعمل بها .

ومصر اذا رجعنا الى القارة الافريقية هى التى وقعت اتفاقية السلام مع اسرائيل ، ولها علاقات طيبة مع الولايات المتحدة ، فلم يمنعها ذلك من تقديم مساعدات عسكرية الى انجولا ، وموزمبيق ، والتى لها علاقات قوية مع الاتحاد السوفيتى ، وأقول أن لا الاتحاد السوفيتى ولا الولايات المتحدة يرغبان فى رؤية علاقات مصرية مميزة فى النظام العسكرى والسياسى والاقتصادى مع دول جنوب القارة .

منذ عشر سنوات عقد فى مصر مؤتمر القمة العربى الافرنقى وحضره كل الرؤساء الأفارقة والرؤساء العرب وكانت مصر هى المحرك الرئيسى لهذا المؤتمر وقد تم خلاله انشاء أجهزة لتوثيق الصلات بين افريقيا وبين الدول العربية وللاسفاتخذت المعاهدة بين مصر واسرائيل للقضاء من دور مصر فى التعاون العربى الافريقى بحيث لا يمكن لافريقيا أن تتعاون مع دولة وقعت اتفاقية مع اسرائيل ، فمصر انسحبت من اللجنة المشكلة للتعاون العربى الافريقى وكنا ننتظر من دول أخرى التى تدعى أنها تساند التعاون العربى الافريقى أن تحل محلها لكن هذا لم يحصل فحتى الآن الدولة الوحيدة التى تقوم بدور فى هذا التعاون هى مصر ، ونلاحظ أن كل الدول التى انتقدت مصر وقاطعتها بعد كامب ديفيد تعود للتعامل معها .

د. نازلى معــوض :

فيما يتعلق باقليم الصحراء الغربية انا فى اعتقادى من واقع دراستى لها ، انها مشكلة تتعلق بعملية التجزئة فى القارة الافريقية ، فمن المعروف أن المغرب قد دخل منظمة الوحدة الافريقية وهو يبدى تحفظه رسميا على مبدأ عدم تصفية الحدود . اما الجزائر فقد كانت تدعم هذا الكيان الجديد فى الصحراء عن طريق فكرة الاستفتاء فى الاقليم الصحراوى .

انا لم أقصد بكلمة تنفيس أن اقلل من موقف المغرب فى قضية الصحراء بل اقول أننى أكثر اقتناعا بالموقف المغربى من الموقف الجزائرى ، بل أقصد بالتنفيس تكر المقدرات فى هذا الصراع فى وقت معين بمعنى الأســباب المباشرة فأنا لا أجادل فى صميم القضية بالنسبة للمغرب فى كونها أراضى مغتصبة ، وهذا وضح فى المنظمات الدولية التى اكدت على ان اقليم الصحراء الغربية ثبت على مر التاريخ ان له علاقات قانونية شرعية بمركز السلطة فى المغرب .

أ. د. عبد الملك عــودة :

— الاستقرار بالنسبة لبعض الدول الافريقية والذى تحدثت عنه ليس استقرارا مطلقا ، وانما هو استقرار نسبى وكلمة نسبى كلمة تبدأ من الصفر وترتفع الى أعــلى ، فكل دولة من دول افريقيــا عرفت استقرارا من نوع خاص ، فالحرب الأهلية فى السودان استمرت سبعة عشر عاما ، والاستقرار بالتالى فى هذه المنطقة سيأخذ شكلا مميزا خاص به ، أما فى اثيوبيــا ، فلا أرى أن الاضطرابات الحالية قد وصلت الى مرحلة اثارة المخاوف عنها ، فالصراع مستمر بين الامراء والرؤساء منذ فترة طويلة ، وحتى لما ســيطر هيلاسلاسى على الحكم بمساعى الامريكيين والانجليز . فكلمة نسبى هنا مهمة ، والقياس فيما بين الدول بشأن الاستتقرار يتم مع الأخذ بعين الاعتبار بخصوصية كل دولة .

— الأمن القومى مرتبط بالدولة وبالشعب فمن الضرورى أن يكــون للشعب دولة وللدولة حكومة تعبر عن نظام سياسى اقتصادى اجتماعى ، فكل دولة لها أمن قومى خاص بها ، فهناك مثلا اثنتا وعشرون أمنا قوميــا عربيا . وذلك بعدد الدول العربية ، والاشكال الذى يجب ان نبحث فيه

حاليا هو ما هو كائن اما ما يجب أن يكون فذلك لن يؤدى بنا الى نتـــائج ايجابية .

أ. د. على الدين هلال :

بالنسبة لرؤيتنا للامن القومى المصرى يجب ان نسلم ان هناك مؤسسات مصرية داخل القوات المسلحة وداخل وزارة الخارجية ، وفى داخل المخابرات العامة تقوم بمهام التقرير الاستراتيجى لكافة أمن مصر واحيانا نصل الى قناعات قريبة جدا الى ما نصل اليه نحن المدنيين ، المشكل هو ان هـــذه الحوارات لا تطرح على الراى العام ، وهى ليست جزء من الحوار السياسى ولكن يقوم بها بعض الاخوة الفنيين الذين يرفعونها الى صانع القرار والذى قد يقراها وقد لا يقرأها ، قد يفعل بها وقد لا يفعل .

العرب والافريقيين فى مواجهة المستقبل

حلقة نقـــاش

المشـــاركون :

ــ أ. د. جودة عبد الخالق

ــ أ. د. عصام الدين جلال

ــ أ. د. اسماعيل صبرى عبد الله

كلمة رئيس الجلسة : أ٠ د٠ جودة عبد الخالق :

ما يحمله المستقبل على الصعيد الاقتصادى بالنسبة لكل من العرب والأفارقة ، اذا كان المستقبل يتحدد بدرجة كبيرة بما حدث فى الماضى ، وما يتشكل فى الحاضر ، فلا شك ان هناك تعقيدات كثيرة يحملها المستقبل وتجعل من التكهن بما سيحدث مسالة بالغة الصعوبة .

وهنا لست فى حاجة الى الاطالة فى العوامل المشتركة التى تجمع العرب والأفارقة ، فهناك الجغرافية ، وهناك التراث المشترك ، وهناك الأرث ايضا ، كما أن هناك الموقع من النظام العالمى سواء أكان نظاما اقتصاديا عالميا او نظاما سياسيا أو اعلاميا ، والنظام هنا بمعنى النسق الفكرى الراقى ، ثم هناك من العوامل المشتركة . كذلك أن الاستعمار الاستيدلانى كان قسمة مشتركة بين العرب والأفارقة وهو فى حالة العرب متمثل فى اسرائيل ، وفى حالة الأفارقة متمثل فى اتحاد جنوب افريقيا ، وهذا بطبيعة الحال يطرح على القطبين تحديات مشتركة واسس مشتركة .

أما فيما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية التى يواجهها العرب والأفارقة ، فيمكن أن نحدد اربعة مجالات اساسية لوجود مشكلات يواجهها الطرفين سواء حاليا او مستقبليا ، فهناك مشكلات فى مجال الطاقة وفى مجال الغذاء والديون والبيئة ، فبالنسبة للطاقة فى افريقيا فهى مشكلة حالية ومستقبلية ، أما بالنسبة للعرب فهى مشكلة مستقبلية ، أما فيما يخص الغذاء فرغم الموارد الهائلة لدى كل من الطرفين فانهما يواجهان نفس المشكل سواء فى الوضع الحالى او بالنسبة للمستقبل . فيما يتعلق بالديون فالعرب والأفارقة يواجهان هذا المشكل ربما بدرجات مختلفة ومتفاوتة لكن المشكلة قائمة ، واخيرا فيما يتعلق بالبيئة فكلاهما يعانى من التلوث والتصحر بالدرجة الأولى .

فافريقيا اقتصاديا عانت خلال السنوات العشر الأخيرة من نمو اقتصادى منخفض فى بعض البلاد ، بل سلب فى العديد امن البلاد الأخرى هذا بالاضافة الى انتشار المجاعات .

أما بالنسبة للعالم العربى هناك انخفاض فى النمو الاقتصادى فى حقبة الثمانينات بالاضافة الى وجود تدهور فى مستوى المعيشة .

واذا ما حاولنا أن نتساءل عن ماهية التوقعات المستقبلية بالنسبة للطرفين ، سنجد ومن خلال تتبع العديد من الدراسات ، أن هناك دراسات توضح تطورات الوضع المستقبلى لافريقيا وللعالم العربى حتى عام ٢٠٠٠ وهناك دراسات تنشغل بمتابعة الوضع بعد عام ٢٠٠٠ ، ودراسات أخرى تتتبع الوضع قبل عام ٢٠٠٠ .

وفى كل هذه الحالا تيمكن أن نقارن بين صورتين من صور المستقبل فيما يتعلق بافريقيا والعالم العربى .

الصورة الأولى : رسمتها دراسة هامة للامم المتحدة تحت عنوان مستقبل لاقتصاد العالمى The Future of the World Economy وهى عبارة تصورات لما يتوقع أن يكون عليه الوضع فى اسريقيا والعالم لعربى فى ظل ظروف معينة حتى عام ٢٠٠٠ .

الصورة الثانية : دراسة أعدها البنك الدولى فى تقرير عن التنمية فى العلم سنة ١٩٨٤ .World development Report 1984 ، وهى عبارة عن توقعات ممتد حتى عام ١٩٥٥ ، وهى تشير الى التطورات العالمية التى حدثت حتى أوئل الثمانينات من حيث الأزمة لعالمية فى الدول الرأسمالية المتقدمة .

فالصورة فى الحالتين غير مشرقة تنذر عن مشكلات حدة الأزمة الاقتصادية وتصاعد الديون بالنسبة للدول الافريقية وما يترتب عن ذلك من تضعضع فى مستوى المعيشة .

الاستنتاج الرئيسى بالنسبة لدراسة الأمم المتحدة هو انه لضمان التنمية المضطردة فى الدول النامية ومنها الدول الافريقية يلزم توفير شرطين رئيسيين :

الشرط الأول : يتمثل فى حدوث تغيرات داخلية واسعة المدى فى هذه البلاد تشمل النواحى الاجتماعية والسياسية والمؤسسية بالاضافة الى تغيرات فى النواحى الاقتصادية . **والشرط الثانى :** يتمثل فى حدوث تغيرات جوهرية فى النظام الاقتصادى العالمى .

وهناك بعض الارقام التى لها دلالة بالنسبة لهذه الدراسة والتى تكشف عمق الازمة التى يواجهها الطرفين فى المستقبل ، فنصيب كل من الدول العربية والدول الافريقية فى الناتج العالمى كان من المتوقع ان يزداد فيما بين سنتى ١٩٧٠ و ٢٠٠٠ ولكن هذه الزيادات ضعيفة فى حالة افريقيا وهذا الجدول يوضح ذلك .

معدلات النمو والنصيب النسبى من الناتج العالمى

١٩٧٠ — ٢٠٠٠

المنطقة	معدل النمو السنوى ٪	النصيب من الناتج المحلى للعالم ٪	
		١٩٧٠	٢٠٠٠
الدول الرأسمالية المتقدمة	٣ر٣	٦٦ر١	٥٠ر٩
دول التخطيط المركزى	٥ر٢	١٨ر٦	٢٠ر٧
الدول النامية	٧ر٢	١٣ر٣	٢٨ر٤
الشرق الأوسط	٩ر٠	١ر١	٤ر٠
افريقيا القاحلة	٥ر٥	٠ر٨	١ر٠
افريقيا الاستوائية	٦ر٥	٢ر٤	٦ر٤
آسيا	٦ر٧	٣ر٨	٦ر٦

فعلى سبيل المثال كان نصيب افريقيا من الناتج العالمى حوالى ٥ ٪ فى سنة ١٩٧٠ وتتوقع هذه الدراسة أن يصل الى حوالى ٦ر٥ ٪ بحلول عام ٢٠٠٠ . أما فيما يتعلق بالشرق لأوسط شاملا الدول العربية فنصيب هذه المنطقة من حيث هذه الدراسة سيرتفع من ١ ٪ الى حوالى ٤ ٪ .

لكن التطورات التى حدثت فى اواخر السبعينات واوائل الثمانينات أطاحت بأساس هذه التصورات جميعا لأنها مبنية على تحسن فى البيئة الاقتصادية الدولية ونجاح نسبى للدول المتقدمة فى الخروج من ازمتها وهذا أمر لم يتحقق .

ومن هنا وربما نجد من خلال الدراسة الثانية التى اقامها البنك الدولى بعض الضوء على هذا لأنها تتناول تنبوءات للنمو الاقتصادى فى مجموعات دول مختلفة بين سنة ١٩٨٥ وسنة ١٩٩٥ .

ففى افريقيا نجد ان معدل النمو الاقتصادى فيما بين سنة ١٩٨٠ و١٩٨٥ معدل ثابت يصل الى أقل من ٢ ٪ وبالتحديد ٧ر١ ٪ ، واذا ما اعتمدنا معدل نمو السكان فى هذه البلاد كمتوسط يقرب من ٣ ٪ ، معنى هذا أن هناك تدهور واضح فى مستوى معيشة الفرد فى هذه البلاد ، وما انتشار المجاعات فى الكثير من لدول الافريقية الا دليل على ذلك .

بالنسبة للتوقعات فى العقد القادم والممتدة بين ١٩٨٥ — ١٩٩٥ اشير أن ٨ر٢ ٪ تقريبا فى معدل النمو السكانى وبالتالى لا يتوقع أن يأمل الفرد الافريقى فى أن يتحسن مستوى معيشته تحسنا جوهريا خلال العقد القادم الذى ينتهى سنة ١٩٩٥ .

أما الصورة فى الجانب العربى فليست أكثر اشراقا ، ربما عامل البترول وما يتصل به يعادل الصورة على الارشيف ولكن الآلية فى جوهرها واحدة ، وهى أن التطورات الاقتصادية فى أفريقيا ، وفى العالم العربى من انعكاس للتطورات الاقتصادية فى الدول المتقدمة من الافتقاد العالمى وهذا الجدول يوضح ذلك .

الأداء الاقتصادى للاقتصاديات الصناعية والنامية

(١٩٦٠ — ١٩٩٥)

المنطقة	١٩٦٠— ١٩٧٣	١٩٧٣— ١٩٧٩	١٩٨٠— ١٩٨٥	١٩٨٥ مرتفع	١٩٩٥ منخفض
الدول الصناعية :					
نمو الناتج المحلى	٩ر٤	٨ر٢	٩ر١	٣ر٤	٥ر٢
معدل التضخم	١ر٦	٩ر٩	٣ر٢	٣ر٤	٨ر٦
معدل الاقراض الاسمى	٨ر٥	٤ر٨	٦ر١١	٠ر٦	٥ر٩
الدول النامية :					
(جنوب بلاد افريقيا)					
نمو الناتج المحلى	٣ر٦	٢ر٥	٨ر٢	٥ر٥	٧ر٤
الدول النامية					
منخفضة الدخل (د.٠٠٤)					
فى آسيا	٩ر٥	٢ر٥	٨ر٥	٣ر٥	٦ر٤
فى افريقيا	٥ر٣	١ر٢	٧ر١	٢ر٣	٨ر٢
الدول النامية					
المستوردة للبترول	٣ر٥	٣ر٤	٩ر١	٣ر٤	٨ر٣
الدول النامية					
المصدرة للبترول	٩ر٦	٩ر٤	٤ر٢	٤ر٥	٧ر٤

فما هى اذن التحديات التى يطرحها هذا التوقع ؟

تتمثل هذه التحديات من خلال العشرين عاما الماضية حيث انتقلت دول افريقيا من الاستقلال الى المجاعة . ويمكن ان نضيف الى هذا انها انتقلت أيضا من الوحدة الى التجزئة وذلك ما حدث لعدة كيانات افريقية كالكونغو مثلا ، وذلك من حيث انشقاق الوحدات القومية الى وحدات متعددة .

فيما يتعلق بالوطن العربى ، فقد انتقل فى نفس الفترة من الاستقلال الى التبعية أو على الأقل وجود امكانيات من التبعية ، المهم انه انتقل كذلك من الوحدة الى التجزئة .

فالأمر يستوجب اجراء تعديلات بالخصوص فى الانساق المتبعة فى كل من المنطقتين وتعديل فى العلاقا تالموجودة بين الانساق الجزئية والنسق الأشمل وهو النظام الاقتصادى العالمى .

ربما فى الآليات التى برزت خلال الفترة الأخيرة فى منظمة الوحدة الافريقية ما يحمل بعض الأمل ، ولكن فى المقابل سنجد ان هناك آليات جديدة تحاول عرقلة الاندماج الافريقى أو العربى أو العربى الافريقى . وأقصد بهذا معاهدة لومى التى انضم اليها العديد من الدول الافريقية ، بل وايضا العربية والتى تكرس فى نهاية المطاف اندماج هذه الدول فى النظام الراسمالى العالمى .

أ. د. عصام الدين جلال :

التكنولوجيا والبعد الأمنى العربى والافريقى :

موضوع التكنولوجيا يحتاج الى شىء من التفسير باعتبار أن الراى العام تناول بشكل كامل أهمية الأبعاد الاقتصادية والسياسية فى تطورات العالم الثالث أما البعد العلمى والتكنولوجى ، فليس دائما على قدر كبير من الوضوح هناك بعض الحقائق التى تعكس طبيعة لعصر الذى نمر به وهذه الحقائق تنطبق على العالم الثالث كما تجرى على العالم الثانى والعالم الأول ، أول هذه الحقائق من ان الثورة التكنولوجية المعاصرة غيرت تركيبات مكونات العملية الانتاجية بمعنى انه خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانت العملية تنموية مرتبطة اساسا باستدخامات الراسمالية بالعمالة بموارد الخام والتحكم فى الأسواق ، واذا انتظمت هذه المقومات أمكن تصور اذن عملية تنموية متكاملة . وفى الحقيقة كان يراود فكر الدول النامية فى الثلاثينات محاولات استيراد هذه التطورات للعالم الثالث حتى يلحق بالعالم الأول كاستغلال المواد الخام واستغلال التكنولوجيا والراسمالية واليد العاملة والأسواق وكان فى تصورهم أن الخطوة التالية الى الرقى والمساواة خطوة أكيدة ومضمونة .

ولكن فاتهم أن طبيعة العصر تغيرت وانه فى خلال القرن العشرين اختلفت العملية التنموية اختلافا كاملا .

فكل العناصر التى نتحدث عنها منها الرأسمالية ، العمالة ، الموارد الطبيعية ، الأسواق لم تعد تمثل أكثر من ١٠ ٪ من الزيادة فى القيمة المضاعفة اذن اصبحت الركيزة التى ينبنى عليها التور العالمى ، هو التطور العلمى والتكنولوجى . وهذا السبب هو الذى يؤدى بنا الى القول أن الانتاجية للعامل الصناعى فى دول العالم الثالث تمثل ٥ ٪ من انتاجية العامل الصناعى فى الدول المتقدمة ، هل هذا راجع لأنه يبذل جهدا اقل ؟ لا طبعا ، فالعملية متشابكة لا تدخل فيها الادارة والتخطيط ونظم التسويق فقط وانما فيها تكنولوجيا متطورة وعلم متطور لمضاعفة الانتاج ، من هذا المنطلق لا يمكن الحديث عن تصورات مستقبلية فى مجال من المجالات الاقتصادية او السياسية او الأمنية بالتعامل مع هذا العصر الا بالأخذ فى الاعتبار العناية المناسبة لهذا المكون : التطور العلمى والتكنولوجى .

العالم العربى والدول الافريقية يعانيان من تخلف فى كلا المجالين اللعمى والتكنولوجى ، وان كانت طبيعة هذا التخلف مختلفة فى العالم العربى عنها فى العالم الافريقى .

ففى الدول العربية لم تعد المشكلة من مشكلة الكم بمعنى أن عدد خريجى الجامعة فى سنة ١٩٨٠ وصل الى مليون وأربع مائة الف ، منهم ٤٠ ٪ علوم اساسية وهندسية وفى التقدير حسب درجة النمو المعاصرة أنه لن يصل عندنا عدد خريجى الجامعة الى ١١ مليون عربى منهم ٥ مليون فى العلوم الأساسية والهندسة .

فاذا اخذنا فى الاعتبار أن الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٥٠ كانت كل ما تملكه من خريجى العلوم والهندسة لا يزيد عن نصف مليون ونحن نتكلم عن ٥ مليون بالنسبة للعرب سنة ٢٠٠٠ نلاحظ أن مشكلة الكم لم تعد مشكلة تمثل العرقلة الأساسية فى العالم العربى .

أما اذا أخذنا البعد الآخر للتنمية والمتمثل فى نقل العلم والتكنولوجيا فالصين بعد ثورة ١٩٤٧ أول شىء قامت به بعثها لعشرة آلاف عامل الى

الاتحاد السوفيتى وهؤلاء هم الذين كونوا القاعدة التى بنى عليها نقل العلم والتكنولوجيا والصناعة السوفيتية الى الصين . الآن فى الثمانينات بعثت الصين خمسة آلاف عامل الى الولايات المتحدة الامريكية لنقل التكنولوجيا الغربية ضرورة من ضرورات التنمية .

فالصين لم تبعث اذن الى الناحيتين سوى ١٥ ألف وفى المقابل العرب عندهم ١٠٠ ألف يتعلمون فى الخارج فى أوربا فى أمريكا فاذا كانت المشكلة كمية فلابد لنا أن نكون فى مستوى أحسن من الصين التى تتوفر على الطاقة الذرية والصواريخ ... الخ . فالمشكلة ليست مشكلة كم .

هل هى مشكلة تموينية ؟ يمكن أن نقول نعم ولا بمعنى أن انفاقات العالم العربى على المشاريع الاستثمارية مع هيئات أجنبية فى أوائل الثمانينات بلغ ٤٠٠ مليار دولار أى ما يعادل ١٠٠ مليون دولار فى السنة ، طبعا جزء كبير من هذا الانفاق هو على العلم والتكنولوجيا واذا أخذنا فى الأعتبار ان ما انفقته أوروبا أثناء مشروع مارشال لتخطى الفجوة العلمية والتكنولوجية التى عرفتها أوربا بعد الهزيمة يصل الى ٤٥ مليون دولار بأسعار سنة ١٩٨٠ ونحن نصرف ١٠٠ مليون دولار سنويا بأسعار هذه السنة سنلاحظ اذن ان المشكلة ليست مشكلة انفاق .

ما هى المشكلة — اذن — فى العالم العربى ؟

من مشكلة توجهات فلو اخذنا البحوث المنشورة فى العالم العربى سنة ١٩٧٥ نجد أن ٣٤٫٥٪ منها فى المجال الصحى والطبى ، ٢٦٫٣٪ فى المجال الزراعى والانتاج الحيوانى ٤٪ فقط فى مجال الفيزياء والميكانيكا الذى يعتبر مجال التطور العلمى المعاصر ، فهناك اذن فقدان واضح فى التوجه فنحن لا نتوجه حيث الضرورة التنموية تحتم أى نتوجه .

هناك كذلك مشكلة تحديد المؤسسات فهناك ضجيج فى دول العالم الثالث وعلى راسها مصر . ماذا عملت الجامعات ماذا عملت المعاهد والبحوث فمن يسأل هذا السؤال لا يفهم أن الطريقة الوحيدة لتقييم أداء مؤسسة هو بقياس الأداء فى مقابل المهام الموكلة الى المؤسسة ، فالجامعات فى مصر من انجح التنظيمات العلمية فى العالم بمعنى أنه اذا اخذنا ان الجامعات

فى مصر القصد منها اخراج متعلمين ، وهذه من الوظيفة الوحيدة الموكلة اليها ، نجد ان تكلفة تكوين الطبيب او المهندس فى مصر تمثل ٥٠٪ منها فى المانيا أو فى الولايات المتحدة وهذه هى أعلى درجة فى الكفاءة .

حقيقة أن هناك فرق فى النوعية يغطى ٢٠٪ من فارق التكلفة لكى يبقى الفرق عدة اضعاف . فالقضية ان تحديد دور هذه المؤسسات لازال يدور فى التخلف السابق لعصر النهضة عندما كان العلم وسيلة من وسائل تحديد النخبة وتدعيم تسلطها على المجتمع وأداء وظائف تسمح بمسار دولاب الدولة ، وفى اطار هذا المفهوم لدور هذه المؤسسات لازالت المؤسسات فى مصر تعمل وتؤدى وظيفتها على خير درجة من النجاح وبالتالى ليس لها أى عائد لا تنموى ولا سياسى ولا اجتماعى وهذه قضية مختلفة فنحن نتكلم عن عدم وضوح الدور .

من ناحية اخرى مسالة تتعلق بالنوع والكم فمشكلة العالم العربى فى المرحلة القادمة هى مشكلة النوع لأن التطور العلمى والتكنولوجى يتكثف يتعمق يزداد تعقيدا ، ولم تعد عملية الكم هى العنصر الحاسم فيه ، فالانتقال من عملية الكم الى عملية النوع تمثل ثورة فى تغيير فى التنظيم والادارة والتخطيط والتعلم والاعلام والثقافة .

لكن هل النظم السياسية الموجودة فى العالم العربى قادرة على تحمل تبعات هذه النقلة من الكم الى النوع هناك شك فى نظرى فى تحمل هذه النظم لهذه النقلة .

طبعا هناك مشاكل أخرى تتعلق بالسياسة فليس هناك سياسة تنموية عربية فى أى دولة من الدول العربية أو حتى لها استيعاب للمداخل العلمية والتكنولوجيا . فلابد أن يكون هناك فهم بأن الادارة عملية عاكسة للمستوى الحضارى السائد .

والمنوقع وبالتالى عملية ادارة المؤسسات المتقدمة ذات الركيزة العلمية والتكنولوجية عملية متوقعة التعقيد بالغة الحساسية وشديدة الأهمية ، فلم نستطع حتى الآن الوصول اليها ، وفى تقديرى ان الدعوة للمدخل الأساسى والتنموى لكل عملية تنموية أساسها العلم والتكنولوجيا .

أما فى افريقيا فمشكلتها مختلفة ، صحيح أن هناك تخلف انما هناك نقص فى البنية الأساسية ونقص كمى فى سد احتياجات فهناك بعض الاحصائيات عن افريقيا تبين المشاكل التى تعيشها هذه القارة .

فلو اخذنا جملة الانفاق على التنمية العلمية والتكنولوجيا فى آسيا فى أوائل السبعينيات نجد أنها كانت تبلغ ٦ر١ ٪ من مجمل الانفاق العالمى ككل وهو انفاق ضعيف جدا أما أفريقيا فهى تنفق ٣ ٪ ، آسيا كانت تملك ٩ر٤ ٪ من مجموع المهندسين والعلماء اما أفريقيا فكانت لا تملك سوى ٢ر١ ٪ وهذا يبين لنا حجم القصور فالمشكلة بالنسبة لافريقيا تتمثل فى وجود عراقيل كثيرة تمنع معالجة الموقف معالجة حسنة فالدراسات التى تمت فى احتياجات العالم الثالث حتى يسد مطالبه الأساسية والمتمثلة فى السكن والتعليم والعلاج والأكل فاذا أراد العالم الثالث أن يحقق هذه المطالب عليه أن يرفع درجة التنمية فيه بمعدل ١٠ ٪ بمعنى أن افريقيا أمامها حوالى ١٠ قرون حتى تحصل على هذه الكفاية الضعيفة . فعملية التمويل فى مجال العلم والتكنولوجيا صعبة هذا بالاضافة الى تدهور صادرات أفريقيا فى المواد الغذائية وزيوت نباتية ومستخرجات تعدينية والتى تدهورت بما يتراوح ما بين ٣٠ر٦٠ ٪ وبالتالى تدهور نصيبها فى التجارة الدولية وهذا يؤدى بنا الى احتمال أن أفريقيا لن تستطيع فى المستقبل ايجاد التمويل الكافى لسد النقص الذى تعيشه .

فيما يتعلق بالتنمية العلمية والتكنولوجية ما هو اذن المنطلق المشترك بين العرب والأفارقة فهناك نمو فى العالم العربى وهناطك استكفاف فى الاستغلال .

والاستفادة من هذه التنمية الكمية وهناك وصول الى نتائج سلبية لا تحقق اية درجة مناسبة للاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية وفى قارة تعانى من عجز فى تمويل الاحتياجات الكمية التى تسمح لها فى المستقبل بالتعاون والتطور .

أما فيما يخص مسألة الأمن فى العالم العربى والافريقى لهما خواص مشتركة كثيرة من ناحية الأمن فكلاهما يمثل منطقة من اكثر مناطق العالم من حيث عدد الحروب ومن حيث هذه الحروب ومن حيث عدد الدول المشاركة فيها .

هناك مجال آخر للعرب والأفارقة فضل السبق فيه وهو المتمثل فى وجود عميل استعمارى فعال قادر على توصيل المنفعة وتحقيق المنفعة الاستعمارية بأقل درجة من التكلفة .

من هذا المنطق نتصور أنه لابد ان يكون هناك شغل شاغل بين العرب والأفارقة فى تصور وجود نوع هى أنواع التعاون والتفاهم أو على الأقل التطوع لمعالجة هذه الخواص الشاذة التى لا يمكن أن تكون موضوع ترحيب .

فما هى الأوضاع الأمنية فى العالم العربى والافريقى ؟

نجد أن العالم العربى سنة ١٩٨٥ ينفق ٧ر٥٪ من جملة الانفاقات العسكرية العالمية وهنا يمثل رصيدا ضخما وذا وزن لأنه تقريبا يمثل ثلث ما يصرنه الاتحاد السوفيتى . افريقيا تنفق ٩ر١ ٪ من مجلة الانفاقات العالمية وبالتالى فدرجة استغلالها العسكرى اقل من العالم العربى . والظاهرة التى يمكن ملاحظتها فى هذا المجال أن هناك عملية تظهر بوضوح فى كل من العالم العربى والافريقى فمثلا ٣٢٪ من جملة الاستيراد العسكرى فى العالم العربى قد تذهب الى ثلاثة دول هى العراق ومصر وسوريا ، فى حين انه بين العسكريين دوله الكبرى المستوردة لسلاح فى أمريقيا لا توجد الا دولتين مستودرتان للسلاح وهما نيجيريا وانجولا .

وغالبية هذه الدول العسكرية مشتركة فى مجابهة عسكرية من نوع ما وهى مرتبطة بمعسكر من المعسكرات الدولية بنوع ما وبالتالى فهى غير منشغلة بالمجابهة الرئيسية فى المنطقة يعنى أن غالبية الدول الافريقية ذات القدرة العسكرية ليس لها اهتمام بجنوب افريقيا ، وكذا بالنسبة للعالم العربى الذى لا يهتم باسرائيل وبالتالى فعملية الانفاق وعملية التسلح والاعتماد يبدو أنها لا تساهم فى حل مشاكل انعدام الأمن فى هذه المنطقة .

فاذا كانت الصور بهذا الشكل فى المجال التكنولوجى والمجال الأمنى ما هى اذن احتمالات الالتقاء فى المستقبل بين لمنطقتين ؟ فهناك التقاء من حيث وجود مصالح مشتركة من حيث وجود مواقف عدائية مشتركة للعالم الخارجى من حيث وجود دوافع مشتركة للتكامل والاستفادة من الامكانيات المتاحة . أما من حيث الارادة السياسية ومن حيث وجود أجهزة تنفيذية قادرة

على ترجمة هذه الارادات السياسية الى سياسات ومخططات ومشاريع كل هذا غير موجود وفي تقديرى انه فى المجال العلمى والتكنولوجى وفي مجال الأمن تستبقى احتمالات التعاون العربى الإفريقى معلقة الى ان يتم تحديد الارادة الوطنية محليا .

أ٠ د٠ اسماعيل صبرى عبد الله :

وضع العرب والأفارقة فى النظام الدولى :

ان وضع العرب والأفارقة فى النظام الدولى له اثره الواضح وقد يكون حاسما فى كل ما يجرى فى هذه المنطقة من تطورات وكثيرا ما يهمل هذا البعد واذا كنا لا نفكر بانفسنا فى مستقبلنا فهناك اطراف اخرى تحدد لنا هذا المستقبل .

فالنظام العالمى بدا خطواته الأولى فى أوائل القرن السادس عشر وشهدت منه أفريقيا بعض المواقع كالاحتلال البرتغالى فى انجولا وموزمبيق وغينيا بيساو ولكنه اكتمل تماما فى القرنين الأخيرين ، وجوهر هذا النظام هو نمط الانتاج الراسمالى ولذلك يختلف فى معناه الضيق فى اطار هذا النظام عن كل اشكال الامبراطوريات القديمة . فالامبراطوريات القديمة لم تكن تتدخل كثيرا فى نمط الانتاج فى البلاد التى تحكمها حيث كانت تكتفى بأن تأخذ منها الجزية أو الخراج اى تقتطع جزء من الفائض الاقتصادى ولكن تترك النمط الانتاجى على ما هو عليه ، لكن النظام الراسمالى بالضرورة لابد ان يحول فى أنماط الانتاج داخل المستعمرات ليضعها فى خدمة اقتصادات الدول الاستعمارية نفسها ، ومن هنا برز استقطاب هذا النظام من المركز الذى يمثل ١٧ ٪ من سكان العالم والذى يحصل على ٨٠ ٪ من الناتج الاجمالى المحلى على مستوى العالم والذى بيده مفاتيح القوة العسكرية والنفوذ السياسى ، والتاثير الفكرى والحضارى ، فعملية بناء هذا النظام العالمى قامت بشكل جوهرى على نهب ثروات المستعمرات ، وقد اخذ هذا النهب بالنسبة لافريقيا شكلا متميز وحادا أثر فى حياة افريقيا حتى الآن ، وذلك تمثل فى نهب القوة البشرية فى شكل تجارة الرقيق التى كانت سائدة فى افريقيا والتى كان يحلو للغرب أن يفهموا الافريقيين ان العرب هم الذين

أدخلوا الرقيق فى افريقيا ، وهذه فرية لأن الرقيق كان موجود بين الافارقة أنفسهم ولأن التجار العرب الذين كانوا يشترون الرقيق لم يكونوا يستخدمونهم فى العملية الانتاجية . وانما فى الخدمة العسكرية أو الخدمة المنزلية ، وفى التاريخ العربى هناك منطقة واحدة شهدت انتاج العبيد وهى جنوب العراق، ولذلك شهدت ثورة العبيد أو الزنج كما تسمى فى التاريخ العربى .

أما عملية استنزاف شباب افريقيا على مدى ثلاثة قرون متتالية حيث يقدر من وصل سليما الى الامريكتين حوالى ١٦ مليون ، فعمليــة النزيف البشرى التى شهدتها افريقيا فى هذه الفترة كانت سببا رئيسيا فى فقــدان كثير من معالم الحضارة الافريقية ، كانت سببا فى انتقال قبائل من مناطق الى أخرى كانت كذلك سببا فى نزاعات تاريخية فى بعض القبائل حتى الآن وكذا كانت سببا فى فقدان قوة التجديد والتغيير والتقــدم داخل المجتمــع الافريقى . فقد نجح هذا الاستعمار فى أن يسيطر على العالم كله ويدخله فىاطار نظام واحد وهو النظام الراسمالى والذى تسيطر عليه سوق واحدة وهى السوق الراسمالية بقوانينها المعروفة والتى تفيدنا بأن السوق يعمل دائما لصالح الأقوى ويسعد المنتج الحدى عند أول ازمة وهذا ما حدث بالفعل فى السنوات الأولى من الثمانينات ومازالت اثاره حتى الآن ، حين بدأ الكساد فى الدول الصناعية الكبرى فاستمر هذا الكساد وأثر على الدول الصناعية فعملت بذلك على نقل جزء من عبئه من داخل الشعوب الصناعية المتقدمة الى داخل شعوب دول العالم الثالث ، وبدأ التركيب السياسى فى دول العالم الصناعى المتقدم يعلن بشكل ساخر أن افريقيا لا أمل فيها وانه لا جدوى من مساعدتها ... الــخ .

أخيرا وقد حصلت عناصر القوى التى سمحت لدول العالم الثالث باثارة موضوع النظام الدولى واقتراح نظام دولى جديد والتى تمثلت فى اواســط السبعينات فى عمليتين هامتين جدا ، **أولا** انفصال الفيتنام بعد حرب الثلاثين عاما والتى أوحت بعدم جدوى التدخل العسكرى وتركت نوعا من الأثر الضخم فى داخل المجتمع الامريكى الذى بدأ يتحفظ ازاء المغامرات العســكرية الخارجية .

ثانيا : ظهور الاوبيك لا من حيث انها رفعت الاسعار او سببت ازمة فكل هذا الكلام لا يصمد للتحليل الدقيق ، ولكن لأنها عبرت عن أمر خطير جدا

والمتمثل فى بدء فقدان الغرب لعناصر السيطرة الاقتصادية ، فالدلالة العميقة لموقف الاوبيك هى ان ١٣ دولة من دول العالم الثالث انفردت باتخاذ قرار يؤثر فى الاقتصاد العالمى كله ، وهذه أول مرة يحدث فيها هذا الأمر منذ نشأت النظام الرأسمالى والنظام العالمى المعاصر ، فقد كان هناك انتزاع لعنصر القوة وعنصر السيطرة ، وعنصر اتخاذ القرار بعيدا عن الدول الغربية لكن حين حل الكساد فى الغرب كانت هناك مناسبة لضرب الاوبيك ومحاولة تضعيفها والدفع على الأقل بدولها الى تأزم مالى ، وغالبية دول الاوبيك دول فقيرة باستثناء الدول العربية الصغيرة بالاضافة الى السعودية .

هذا التطور ادى الى نتائج منها أن الدول العربية اصبحت كلها دول عجز فلا توجد دول ميزان مدفوعاتها يحقق فائض بما فى ذلك السعودية فقد أدى ذلك الى انخفاض معدلات النمو فى افريقيا الى ما دون الصفر وفى الدول العربية الى مستويات تقل عن ثلث ما كانت عليه فى الستينات والسبعينات .

هذا الوضع كان اثره على افريقيا اقوى حيث أن المواد الأولية الأخرى فيما عدا البترول انخفض ثمنها بما يعادل ٦٠٪ فى المستوى ، وهذا كان بمثابة دخل اساسى فى افريقيا . أيضا التحويلات المالية الى افريقيا سواء كانت معونات أو قروض أو استثمارات انخفضت ما بين سنتى ١٩٨١ وسنة ١٩٨٤ من ٧ مليار دولار الى ٣ مليار دولار . كذلك بدأت الدول الغربية تقفل أبوابها امام اليد العاملة الافريقية المهاجرة . كل هذه العوامل تداخلت حتى أصبحت الصورة واضحة فى افريقيا . وعندنا الآن وفقا لآخر دراسة اقامها البنك الدولى أن متوسط دخل الفرد فى تناقص حتى لو كان الناتج الاجمالى يزيد بنسبة ١٪ أو ٢٪ ، ولكن نسبة السكان تزيد بـ ٢,٥٪ أو ٣٪ فتصبح النتيجة أن متوسط الفرد ينقص ومتوسط الناتج الغذائى على حسب عدد الرؤوس ينزل أيضا ، وبذلك فان متوسط استهلاك الفرد فى انخفاض ، هذا دون الأخذ بعين الاعتبار مشكلة المجاعة .

ظهرت لهذا نتائج اجتماعية واضحة جدا تتمثل فى تزايد سوء التغذية وتزايد البطالة فى المناطق الحضارية تزايدا كبيرا ، فهذه الدول تعيش فى حالة فقر مطلق بالاضافة الى انتشار الأمراض وزيادة عدد وفيات الأطفال فى معظم الدول الافريقية .

ففى الواقع أن الراسمالية العالمية تستغل وضع الكساد أو الأزمة لكى تصفى حسابها مع العالم الثالث بعدما بما أحدثه من ضجيج فى النصف الثانى من السبعينيات وفى هجمة القلب على التخوم يتفق الكثير على اعتبار أن اضعف مناطق العالم الثالث مقاومة لهذه الهجمة الامبريالية هى الوطن العربى وافريقيا . ففى العالم الثالث كله آسيا حلت مشاكلها الغذائية كتايلاند والهند حيث ليست هناك مشاكل غذائية ، ونجد ظهور تعاون ريفى فى اطار زراعة مشتركة تساعد على حل المشاكل الزراعية ، أيضا فى كل من الهند والصين درجة التقدم العلمى والتكنولوجى لا يقارن بها أى مكان آخر فى العالم الثالث ، أمريكا الجنوبية كذلك ليست بها مشكلة غذاء فهى تقليديا بلد مصدر للغذاء ، ونلاحظ انه خلال العشرين سنة الماضية شهدت بناء قاعدة صناعية لا يستهان بها ويكفى للدلالة على ذلك أن البرازيل نجحت فى تحقيق فائض فى ميزانها التجارى يتراوح ما بين ١٢ر٦ مليون جنيه مصرى فى ثلاثة سنوات متتالية مما ثبت انه كان عندها قدرة على الانتاج وعلى التصدير وهى تشكو الآن من الاجراءات الحمائية التى تتخذها أمريكا والسوق الأوروبية المشتركة ضد صادراتها .

الدول العربية — السودان والصومال — ذاقوا طعم المجاعة ، مصر كانت ستعرفها لولا السد العالى ، المجاعة الصارخة لكن لو أخذنا المجاعة الكمية اى نقص الانتاج الغذائى فى مصر . وفى الوطن العربى عن حاجات الاستهلاك نعرف مدى خطورة الوضع الغذائى فى البلاد العربية فهى تستورد ٣٠٪ من اجمالى القمح الذى ينزل فى السوق العالمى ، هذه كمية رهيبة وستزداد مع زيادة عدد السكان ، فاذا كانت أموال النفط وبعض الأموال الأخرى قد نفذت فليس هناك ما يضمن للوطن العربى مستقبلا .

افريقيا أفقر من الدول العربية فى بعض أجزائها ولكنها أغنى منه فى بعض الموارد الطبيعية ، كالجزء الجنوبى منها كانجولا وزائير وزيمبابوى ، ويمكن لهم ان يسحبوا من خلالها اكثر مما يسحب العرب من صحاريهم التى تمثل ٩/١٠ الوطن العربى ، والتى لا توجد فيها قطرة ماء واحدة فآليات النظام العالمى هى التى تؤدى الى هذه النتيجة ولا اقول أن هناك مؤامرة عالمية تسعى لتدمير افريقيا والعالم العربى ، لكن نحن نعتبر جزءا من هذا النظام آلياته تؤدى الى هذه النتائج . وليس علينا أن ننتظر من هذا النظام العالمى

أن يقدم لنا المساعدات بل علينا ان نقوم بتنمية حقيقية وان ننظر لهذه التنمية باعتبارها معركة ضد القوة المهيمنة على هذا العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وانه اذا كنا نريد أن نعنى بالحاجات الأساسية للمواطنين فيجب أن نعتمد ايضا على قوانا الذاتية ، لأنه اذا ما تمكنا أن نحول كل مواطن الى أن يعمل عملا منتجا فانه سينتج اكثر مما يستهلك ، وفى هذا تحدى للنظام المسيطر منذ مائتى سنة ، وهذا لا يمكن أن يتحقق الا بالاعتماد على النفس على مستوى القرية والاقليم وعلى مستوى الدولة ليكتمل فيما بعد فى اشكال مختلفة من التعاون بين دول متجاورة او تربطها مصالح مشتركة ، كدول مجموعة حوض النيل مثلا . وان التداخل بين افريقيا والعرب واضح ولكننا نعود مرة أخرى لا فقط الى الارادة السياسية ولكن ايضا الى نظرة الرأى العام لأهمية هذه الاشكال من التعاون وطرحه لقضايا التنمية طرحا عميقا .

التعليقات والمناقشات

د. رضا فودة :

— ان جميع المشاكل التى طرحت متعلقة بالتنمية فى افريقيا ، بالاستقرار الداخلى ، فمعظم الدول الافريقية تعانى من عدم الاستقرار الداخلى ، هذا بالاضافة الى مشكلة الطاقة والبيئة ، والتنمية تحتاج الى راسمال خارجى ، وهذا الراسمال الخارجى لن يدخل الى دولة الا اذا ضمن فى السوق خروجه كراسمال بارباح مهمة وهذا يستلزم الاستقرار الداخلى للدولة .

ايضا هناك مشاكل لصراع اقتصادى دولى تعانى منها الدول الافريقية حيث لا ترغب الدول الكبرى فى حل مشاكل الدول الافريقية حتى تكون فى احتياج مستمر لها وحتى لا تكون هذه الدول الافريقية من القوة بما يدعوها الى الاستغناء عن مساعدة الدول الكبرى لها .

— يجب علينا كذلك ان لا نعف الحكومات الافريقية والزعماء الأفارقة من تحمل جزء من المسئولية فى هذا الموضوع نظرا لتهريبهم لنسبة كبيرة من المساعدات فى بعض الدول الى الخارج ، وهذا يؤثر على التنمية الداخلية للدولة ، والحل ان مبدأ التنمية البشرية وكمرحلة أولى تنمية الفرد حتى يمكن له ان يساهم فى تنمية الدولة فى شتى المجالات .

— كذلك نلاحظ فى افريقيا وجود مشاكل اقتصادية ظهرت فى دول نتيجة وجودها فى دول مجاورة وهى بالذات مشكلة اللاجئين نتيجة اما اختلالات أو اضطرابات او نتيجة السحر او الجفاف فهذه المشاكل تشكل عبء كبير على بعض الدول فى داخلها وقد تكون هذه الأخيرة بعيدة عن هـذه المشاكل التى تأتيها من الخارج .

— بالنسبة للدول العربية والافريقية ذات القدرة العسكرية المحدودة أرى أن هذه القوة رغم أنها موجودة ومحددة الا انها تتبع لسيطرة الدول الكبرى كذلك حيث أنه اذا قامت هذه الدول بأى عمل عسكرى لصالحها فيمكن للدول الكبرى أن تسيطر عليها من حيث الأمداد بقطع الغيار والذخائر وذلك كما كان واضح فى مصر سنة ١٩٧٣ فى الصومال سنة ١٩٧٧ .

د. احمـد عبد الله :

يتضح من الصور المعروضة ان الواقع مرير ولا يعطى للانسان أن يحلم بأى وضع طيب باعتبار حق الحلم من حقوق الانسان الأخيرة لكن حتى هذا لا يمكن أن يمارسه الانسان الا اذا كان عنده عدة للحلم نفسه يعنى ما من معطيات الواقع التى تعطى للانسان قدرا من الأمل فى تصحيح الأوضاع فى المستقبل والا كان الأمل واهما للغاية باعتبار ان التدهور مستمر فى ظل المعطبات التى قدمها الأساتذة .

فى تصورى أنه قد لا تكون اية ظاهرة للامل فى ظل هذه الأوضاع سوى بوجود ثورة ، والثورات التاريخية كالتى عرفتها الصين والاتحاد السوفيتى وغيرهم والتى مرت بثورات هيكلية فى تاريخها فى اطار عملية ضخمة من انعكاس التراكم الراسمالى واعادة توزيع الثروة والتأثر على بناء القوة الاقتصادية الدولية . فهل مثل هذا السيناريو منصور فى أفق فكر أساتذتنا من ناحية ، ومن ناحية ثانية انه يرتبط بلحظات هذا التحول نوع من النظم السياسية القمعية التى فرضتها طبيعة عملية التراكم الاجتماعى والتنقية الضخمة للمواطنين رجلا رجلا لكى يعاد وضع الحياة على الأرض على نحو جديد فكيف يتم المدخل الى هذا السيناريو نفسه هل هو بترتيبه الأوضاع داخل صفوف الصفوات الموجودة داخل المجتمع النامى مثل افريقيا والعالم العربى خصوصا فى مستوى الصراع السياسى داخل صفوف الصفوة

فى كل بلد متدنى للغاية فهل المدخل سيكون اعادة ترتيب الأوضاع داخل صفوف الصفوة للوصول الى الحل أو يتم باللجوء الى قاعدة شعبية ترغب فى التغيير وتطيح بأنظمة حكم بأكملها باعتبار أنظمة الحكم هذه هى المعطلة للتغيير الضرورى فى سبيل مواجهة تبعات المستقبل فأى من هذه السناريوهات والمداخل المعقدة فى طبيعتها تساهم فى ايجاد الحل .

اللواء طلعت مسلم :

لى ثلاثة أسئلة :

من خلال كلمة د. عصام الدين جلال فهمت انه يجب طرح استبدال الكم بالنوع فاذا كان هذا هو المفهوم فهو يعنى فى نفس الوقت اهدار لقيمة الكم الموجودة فى هذه الدول سواء العربية او الافريقية أم أن سيادته يقصد المزاوجة بين الكم والنوع وهل هذا ممكن أم لا أى أننا يجب أن نركز بحيث نحقق نوعية متكاملة لنفس الكم الموجود أم أننا يجب أن نخصم من الكم لنحدد النوع .

— السؤال الثانى خاص بالامن : ويتعلق بالدول التى لا تشارك فى الصراعات الرئيسية ولكنها تنفق كثيرا على القوة العسكرية وهذا بشكل واضح فى الطرق فى مصر نسبيا الصومال أثيوبيا ولو حاولنا فى الحقيقة البحث عن حل لهذا الموضوع هل نستطيع أن نطلب مثلا من العراق أن يخفف من الانفاق العسكرى فى ظروفه الراهنة . فما هو الحل للخروج من هذا الوضع نفس الشىء بالنسبة لاثيوبيا والصومال .

أما بالنسبة لمصر فقد خرجت من الصراع على الأقل نسبيا ولكن لا شك أن صاحب القرار فى مصر يضع فى اعتباره احتمال ان يتجدد الصراع مرة أخرى مع اسرائيل ومواجهة هذا الصراع يتطلب انفاقا عسكريا عالى فكيف تتصور نتيجة للخروج من هذا الوضع القائم .

— استخلصت من كلام الدكتور اسماعيل صبرى اننا يجب أن نتحدى النظام العالمى وذلك استشهادا بمعظم التجارب كالفيتنام مثلا فهل هذه النماذج صالحة للاستخدام فى الوقت الحالى . ونحن تكلمنا عن هذا النظام على أساس أنه نظام رأسمالى ولا شك أن هناك فى داخل هذا النظام

العالمى نظام اشتراكى فهل ما زال التعاون مع هذا النظام الاشتراكى يمكن ان يكون مخرجا للتحدى بالنسبة للنظام العالمى ؟

أ. د. عبد العزيز عوض:

أرى ان مشاكل العالم الثالث يمكن اجمالها فى ثلاث نقاط هناك التخلف، التبعية ، التجزئة لكن ما مرجع ذلك ، هل الى عوامل وراثية كما ذكر احد الباحثين فى مقام آخر ؟ فالمجتمعات الاشتراكية تقدمت كالاتحاد السوفيتى. المجتمعات الراسمالية تقدمت هى الأخرى فى أوروبا والعالم الجديد نحن أخذنا الاشتراكية ولم نتقدم واخذنا الراسمالية ولم نتقدم فكيف السبيل الى التقدم العربى ؟

الردود على التعليقات والمناقشات

أ. د. اسماعيل صبرى :

اولا : حين تكلمت عن النظام الاقتصادى العالمى تركت جانبا الدول الاشتراكية وهذا راجع لسبب بسيط وهو أن نصيب كل الدول الاشتراكية فى التجارة الدولية اقل من ٩٪ ونصيبها فى التدخل فى الخارج صفر أما نصيبها فى القروض الى الدول النامية فيصل الى ١٪ وبالتالى وجود الدول الاشتراكية فى النظام الاقتصادى العالمى هامشى وليس مؤثر وهى تعتمد فى سياستها على عدم الاندفاع .

ثانيا : اثيرت قضية التخلف والتقدم ، التخلف بالمعنى الاصطلاحى عندنا تنمية مشوهة متوجهة نحو الخارج غير متكافئة داخليا فالتنمية ليست مجرد تأخر زمنى ، فنحن لم نترك وشاننا ، فالوضع الذى نسميه تطلع هو ظاهرة تاريخية وليست ظاهرة عرقية أثبتها وجود النظام العالمى وهذا لم يحصل فى الامبراطوريات القديمة ولكن حصل فى النظام الراسمالى العالمى .

ثالثا : فيما يتعلق بالدول القومية يجب أن نسلم أن واقع حدود الدول الافريقية والعربية لا يعبر عن أى حقيقة حضارية ولا أسمية ولا لغوية ولا قومية وانعكاس ذلك ظاهرة فى افريقيا فى مدى اعتماد الدو ل الافريقية على اللغتين الاوروبيتين وأن افريقيا تقسم دائما الى انجلو فون وفرانكو فون .

ومن الملاحظ أن الزعماء الأفارقة الذين انشأوا منظمة الوحدة الافريقية التزموا بالمحافظة على الحدود الموروثة عن الاستعمار وهذا لا يزيد الا تعقيدا لمفهوم الوحدة الموجودة داخل المنظمة فهذه الكيانات التى كانت مراكز ادارية للحكم الاستعماري ثم أصبحت دولة كيانات عاجزة عجز أصيل ، فمستقبل التطور حسب الدراسة التى اقامها نادى روما يرى ان أى دولة يقل عدد سكانها عن ٢٠ مليون تختفى وما يجرى فى تشاد وفى أوغندا وفى لبنان دليل على ذلك فالاعتماد الجماعى على النفس تستقدم فكرة تجاوز الحدود الحالية التى تجمعات اكبر وهذا مفيد للمستقبل وقد يعطى بعض الحلول على المدى البعيد .

ــ قال د. احمد عبد الله فى ضو هذه المؤشرات السيئة والمريرة أين الطريق ومن أين نبدأ .

أعتقد بكل أمانة أن أهم مظهر للتبعية هو دعوتنا كأصوات فى سلوكنا اليومى لكل ما ابدعه العرب سواء كان ضارا او نافعا وذلك انطلاقا من اللباس الى غاية المفكرين المنبهرين بالفكر الغربى والذين يعتبرون أما ما هو خارج الفكر العربى حتى فى البحوث المحملة بالقيم الحضارية لا مجال للعلم ، وحركة الانبهار هذه هى التى تسبب الأحباط لأنها تتضمن سلف الاعتراف بعدم القدرة على المعرفة وعدم القدرة على الأبداع هذا بالنسبة للمجتمع لكن أين المجموعة داخل هذا المجتمع التى يمكن أن تتصور الثورة التحررية فهى بطبيعة الحال المثقفين والعلميين باعتبار نجمهم الفكرى والعلمى ، ففى الحضارة الغربية تياران كلاهما درس الانبهار والابتداع والتخيل والتقوقع وتخيل امكان العودة الى الوراء فاللحظة التاريخية منفردة ولن تتكرر اطلاقا وان المستقبل مختلف بالضرورة عن الماضى .

فالى أن نتحاور نحن كمثقفين ونتحاورمع العلم كعلم فالمشاكل التى تطرح جديدة بالنسبة للبشرية ككل فكل يوم يعتبر جديدا فلا يمكن أن نعيد صناعة تاريخ الراسمالية ولا يمكن أن نعيد تجربة الاتحاد السوفيتى ولا تجربة الصين ، لأسباب بسيطة اننا نبدأ وهذه الأشياء تمت وموجودة وغيرت مجرى العالم ، فضرورة التحرر الفكرى مرتبطة بنوعيةا لمشاكل التى نواجهها ، فاذا أخذنا انفسنا كبشر وان الفضل يتحقق من خلال تنظيمات معينة وأولويات

لأنشطة معينة تكون جادة للتعامل مع المشاكل وبذلك يمكن أن نتقدم . فالتقدم ليس له صورة فريدة ومن الممكن أن نكون متقدمين ومختلفين عن الامريكيين والروس وعن الصين لأن كل شعب له عبقرياته الخاصة وله أسلوبه الخاص ، وتحدى النظام لن يكون بالشكل المادى للتحدى ولكن أعرف أن تقدمى سيطرح أشكال بالنسبة للعالم المتقدم وبالتالى فانه سيكن لى شيئا من العداء فمثلا حينما يتحرر اقتصاد مصر فان امريكا ستخسر لأن ما كانت تبيعه فى مصر سوف يتجمد . فالقوة المسيطرة اقتصاديا على العالم حاليا ترفض كل محاولة لبناء تنمية مستقلة حقيقية وبالتالى فهى تجارب بشتى الوسائل بدءا بالوسائل الاقتصادية . فعلينا ونحن نعمل أن نكون حذرين وان الأغراء يمكن أن يكون أخطر الأسلحة فى ايدى القوى المسيطرة على الاقتصاد العالمى .

مما أثير كذلك قضية الأمن والانفاق العسكرى .

فالاستعمار يتربص ولكن لا يتعدى مباشرة فالبدعة من الحرب الأهلية وشبه الأهلية بين بلدين متجاورين لا معنى للحرب بينهما كحرب الخليج مثلا، واعتبارات الأمن الوطنى والدفاع عن التنمية تقتضى وجود قوة عسكرية أما القضية المطروحة فتتمثل فى مدى كفاءة الأنفاق العسكرى ونواجه هنا نظريتين :

— نظرية أن الجيش فى حالة الحرب طليعة شعب بأكمله وهنا لا يمكن أن يكون الجيش متقدم والشعب متخلف .

— نظرية اهتم بالقطاع العسكرى لوحده واجعل منه مجتمعا قائما بذاته وهى نظرية لا يعمل بها لأنه لا يمكن أن نصل الى مستوى من مستويات الكفاءة حيث تكون الأمور كلها فى كوم مشترك للمجتمع كله يستفيد منها القطاع العسكرى فى الظروف العادية تعبأ كلها فى حالة ظروف القتال .

أ. د. عصام الدين جلال :

نحن ولدنا كعالم ثالث بعد ما جاءت الفكرة أوائل الستينات فخلال أقل من ثلاثين سنة ولدنا وأصبحنا شركاء فاعليين فى الشئون العالمية وبدأنا نأخذ ونعطى ولو حسب التقدم الذى حصل فى المعالم التاريخية . ماذا حصل فى

أفريقيا وفى العالم العربى على مدى نصف قرن ، نجد اننا حققنا تقدما مهم
فما هى المشكلة هى تتمثل فى أن ايقاع التطور العالمى تغيرة وشدة اعتماد
العالم على بعضه البعض جعل النظام العالمى نظاما حاكما فى تصرفات
واحتمالات كل وحدة من وحداته . من هنا لابد أن نكون قلقين انما لا يجب
أن نكون يأسين فليس هناك مبرر لليأس لأننا بفعلنا غيرنا الواقع ولو كنا
فى ظروف تاريخية مواتية كنا غيرنا بأكثر فاعلية .

— فيما يخص الكم والنوع فانا لا أقصد أن يكون النوع بديلا للكم وحتى
فى التنمية العلمية والتكنولوجية ، فنحن نتكلم دائما وابدا عن حالة لا يمكن أن
تتم قبل التطور الدولى فاذا ما أردنا الدخول فى التطور التكنولوجى نحتاج
لـ ٥٠٠ باحث و٧٠٠ مصمم .... الـخ . وانما الذى اقصده اننا فى
الدول العربية أمكن لنا أن نحقق انجازا فى مجال التراكم الكمى فظهرت
لدينا فرص وتولدت بيننا قدرات تسمح بأن يزدوج مع هذا التطور الكمى
تطور نوعى ، وكانت هناك فى الجامعات القديمة محاولات لازدواج الكم مع
النوع وظهرت متغيرات كثيرة وضغوط كثيرة فى رايى اوجدت هذا الاتصال
وأنا أدعى حتى يستطيع العالم العربى الاستفادة من التطور الكمى الذى حدث
لابد أن ينتقل الى التطور النوعى .

أ. د. جودة عبد الخالق :

الثقة ليست مجردة ولكنها بنت النظام والبيئة فيجب تعديل النظام
والبيئة أولا حتى تتعدل الثقة وتتطور .

بالنسبة للنظام أرى انه من الواجب احداث تعديلات جوهرية داخل
بنية الدول الافريقية والعربية لكن رغم أن هذا الشروط ضرورى الا أنه ليس
شرطا كافيا وهناك مثال لتنزانيا التى حققت تغييرات جذرية داخل المجتمع
ولكن نتيجة لطبيعة معطيات البيئة الدولية فهى تواجه أزمة طاحنة .

اريد ونحن نتحدث فى مظلة سمنار التاريخ أن أوجه السادة الحضور
الى أهمية استلهام البعد التاريخى لأننى أحسست بنظرة من القلق ونفاذ
الصبر .

والحقيقة اذا علمنا أن النظام الحالى وما أتى به بالنسبة للدول العربية والافريقية من تطور عبر عدة قرون فيجب أن نسلم أن الخروج أو الانفكاك من آثار هذا النظام لا يمكن أن يتحقق فى حياة جيل واحد او اثنين أو حتى ثلاثة أجيال وهذا طبعا ليس من التسليم بالأمر الواقع ولكن اعتقد أن النظرة النوعية للامور تقتضى ذلك واعتقد انه بهذه المناسبة اشير الى أهمية ان يدرك العرب بشكل واضح من ناحية افريقيا ، وتدرك افريقيا بشكل واضح من ناحية العرب وربما لحسن الحظ ان سمنار التاريخ أخذ زمام المبادرة وأرجو أن يتاح حزب من اللقاءات حول هذا الموضوع فى اطار معهد الدراسات والبحوث الافريقية وربما يكون هذا فاتحة لمشروع مشترك على أن لا يكون هذا من خلال قنوات البحث الغربية لأنه فى نهاية الأمر سنصبح أسيرين لبنية النظام الدولى الراهن .

الفهرس

الصفحة

الصفحة

مطبعة الجبلاوى
٣٠ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٧١٩١